(آ) فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche) فيلسوف ألماني من القرن التاسع عشر وُلد سنة 1844 في روكن (Röcken)، قرية صغيرة من مدينة لوتسن (Lützen)، وتُوفّي سنة 1900 في فايمار، حيث أقامت شقيقته إليزابيت "أرشيف نيتشه". لن ندخل في تفاصيل حياته الشخصية، ثمة العديد من الكتب الجيّدة التي تناولت بإسهاب سيرة حياته وبصيغة مُفصّلة جدا، ما يهمّنا بالدرجة الأولى هو كُتبه ومضامينها الفلسفية وتأثيراتها على الساحة الثقافية العالمية. البعض ارتاح إليها وثمّنها، بل اعتبرها ثورة فلسفية غير مسبوقة، والبعض الآخر اعتبرها شرّيرة جدا، مَضمونها الفلسفي ضعيف، بل يُقارب الصّفر، لكن حُمُولة العنف فيها مصَعّدة إلى القمّة. وأدلّتهم على ذلك هي التخمينات العنصريّة، والتّداعيات اللاأخلاقية الفظيعة التي سَكبَها في كتابي «ما وراء الخير والشر»، و«جينيالوجيا الأخلاق» حيث يُثني على القوّة الغاشمة ويمدح العنف والحرب ويحرّض جهارا على سحق الضعفاء. ولكن لا تقلّ قسوة كتابات أخرى مثل «الفجر»، و«العلم المرح»، و«إنساني مفرط في إنسانيّته»، أما شذرات ما يسمى بـ«إرادة القوة»، فهي خزّان لكل ما لا يتصوّره العقل من فظاعات. **(بآ)** في الفقرة الرابعة من **ما وراء الخير والشر** نقرأ أشياء غريبة جدا، إذا تدبّرناها جيدا فستبدو لنا وكأنها كُتبتْ خصّيصا إلى قناة الجزيرة، وكأنها شَارة معاكسة لشارة أفلاطون على الأكاديمية: «لا يدخل علينا إلاّ من كان مهندسا»، قناة الجزيرة: «لا يدخل علينا إلاّ من كان كذّابا». **(تآ)** لم تَقتصر مراجعاته على الأخلاق والسيكولوجيا، وإنما اقتَحَم مجال العلوم الصحيحة، وهو مجال غريب عنه كلّيا، وليس له فيه أيّ زاد مَعرفي، ومع ذلك فقد شنّ حملة على فكرة الذرّة وطالب بالتخلّي عنها لكن دون المسَاس بفكرة الروح الفردية أو تبنّي مادّية الفيزيائيين المحدثين. **(ثآ)** ومثلما عارض الفيزيائيّين المادّين فقد عارض أيضا المفكرين الأحرار الذين يرغبون

في تخليص العقول من خرافات الأديان، ويجتهدون لعتْق البشرية من نَيْر العبودية والاستغلال، ويعملون على نشر مبادئ السلم والأخَوَّة، يُسمّيهم «دُعاة المساواة (السّواسيّين» die Nivellirer)، وهي سُبّة ومَهانة كبرى في قاموس نيتشه. **(جآ)** اتّهم الفلاسفة الألمان بأنهم لاهوتيّون مُقنّعون، لكن تصوّره هو للدين ولمكانته في المجتمع لا يقلّ عنهم لاهوتية، هذا إن لم يكن رجعيا بالكامل. **(حآ)** وقد فسّر انتشار ظاهرة الالحاد في العالم الحديث، بانعدام العبودية التي كانت توفّر متاعب الحياة اليومية على الأسياد وتترك لهم وسعا من الوقت للتأمل والاعتناء بالروحانيات. والغريب في الأمر أنه يأسف لهذا الانحطاط الأوروبي، الذي جعل الناس يتخلون عن ارتياد دور العبادة، كما كان عليه الحال في السابق. **(خآ)** ولكي يَبْنِي على أساس متين رأيه القائل بأن الأديان فيها منافع كبيرة للناس، طبّقَ مبدأه العنصري الثابت: توزيع الأدوار والتركيز على التقسيم الهرمي «بحسب أنواعِ البشر التي توضع تحت وصاية الدّين ومظلّته». في أعلى مرتبة يأتي الأسياد «المَجْبُولون على الأمر والنهي»، وبعدهم الطبقة الوسطى الصاعدة، وأخيرا تأتي الطبقة الشغيلة الوضيعة التي يجب حقنها بكمية عالية من أفيون الدين. **(خآأ)** قد يعترض أحدهم أن نيتشه يُنبّه في الفقرة 62 من **ما وراء الخير والشر** عن مخاطر تدخّل الدين في الحياة الاجتماعية، ويحذّر من التقاعس في التصدّي له، والحد من تأثيره على سلوك الأفراد. لكن هذا غير صحيح، فهو يريد مبدئيا من الدين أن يلعب دورا تَخديريّا لعامة الناس، وأن يتم استعماله من طرف السلطة السياسية، لتوطيد نفوذها، حتى وإن كانت في قرارة نفسها لا تؤمن به إيمانا راسخا. **(دآ)** في الفقرة 188 من **ما وراء الخير والشر**، يطلع علينا بهذه القولة الشّريرة جدا، والتي، على ضوء ما تفعله داعش اليوم، يجب على كل مُثقّف في العالم، له ذرّة من الإنسانية، أن يدينها بشدّة، وليس أن يدينها فقط بل أن يُلقي بالخزي والعار على قائلها وعلى من صمّ آذانه لسماعها، دون أن يردّ عليها ويستنكرها. القولة هي هذه: «**العبودية**، غليظة كانت أم لطيفة، هي **الوسيلة** التي لا غنى عنها **لتأديب الروح** وتربيته أيضا. **(ذآ)** إنّ النقطة الثابتة التي تُبرهن برهانا ساطعا على رجعيّة مواقفه الفكرية والسياسية، والْتحَاقه بمعسكر اليَمينيّين المتطرّفين، هي استعداده للتضامن مع كل القوى الظلامية لمُحارَبة الاشتراكيين والتقدّميين والملحدين. فهو يتصدّى لهم بالشتائم واللّعنات والتّكفير لأنهم تجرّؤوا على التفوّه بكلمة مساواة، وعلى التنظير لمجتمع حرّ، ديموقراطي، لا يحكمه مستبدّ ولا رجل دين ولا مكان فيه

للخرافة. (رآ) لكن نيتشه مستقرّ على رأيه من أن الحداثة ومشتقاتها هي السبب في الانحطاط الشامل الذي يعيشه الإنسان الأوروبي، وأن أكثر مَن ساهموا فيه هم الاشتراكيون والمفكرون الأحرار المُغفّلون ذوي العقول المُسطّحة، كما يقول، الذين يريدون بناء «إنسان المستقبل الخاص بهم»، أي «إنسان المجتمع الحر»، وهو في الحقيقة «حيوان قطيع بالتمام»، وبكلّ وقاحة يطالبون بحقوق متساوية يعني «حيْوَنة الإنسان ليصير قزم حيوان». (زآ) يَعيبُ على أوروبا انطفاءَ شعلة البربرية فيها، ونَبْذَها للعبودية والحرب، ورُكونها إلى السلم والمحبّة والعدالة. ضدّ هذه العطالة المُقرفة، يقترح كحلّ لإرجاع أوروبا إلى الجادة واستئناف مسارها البربري، إحداث "فوضى خلاّقة"؛ إشعال حروب شرسة، شرقا وغربا؛ تدمير العالم وتدمير ذاتها. (**سآ**) لا ينبغي على الفيلسوف أن يَتفلسف بحِرَفيَّة أو أن يعطي مثال المفكّر العقلاني المنسجم مع مبادئه، بل أن يكون، حسب وِصْفَة نيتشه، دون ملامح محدّدة، محلّ التناقضات والبلبلة الفكرية: أن يكون في نفس الوقت نقديا ودغمائيا، ريبيّا ومؤرخا، ومن ثمّ شاعرا ومُجمِّع حِكَم ورحّالة وهاوي ألغاز وأخلاقيا وعرّافا و"روحا حرّا". (**شآ**) موضوع نيتشه المُفضَل هو الأخلاق، وحينما يشمّر للتّنظير في المسألة الأخلاقية فهو يُبدي طبيعته الشيطانية الشريرة، والتي مع الأسف تقبّلها أتباعه على أنها أرقى ما توصّل إليه فيلسوف في العصر الحديث. الروحية العالية، لا تعني التخلّق والتحضر والأخوة، بل هي على حد زعمه، تلك الصرامة التي تعي بأنها مُكلّفة «بالحفاظ على نظام التّراتب في العالم (die Ordnung des Ranges in der Welt)»، وهذه التراتبية لا ينبغي أن تقف عند حدّ البشر، بل أن تمتدّ لكي تشمل الكون بأسره. (**صآ**) قسوة إلى أبعد الحدود، وشيطانية مُرعبة، وميل إلى المحظور، وتحريض على الغزو والقهر والاستعباد، هذه هي الوصْفة الدائمة التي ينصح بها نيتشه، ويتفاخر بتقديمها لقرّائه الذين كانوا يُعَدّون على أصابع اليد، ثم تكاثروا وأصبحوا الآن جيشا عرمرما: «فلنبْق قساة، ولنُسعفها بكلّ ما فينا من شيطاني ... بمَيْلنا إلى المحظور، بجُرأتنا المقدامة.. بإرادتنا للقدرة ولقهر العالم وبأكثرها تقنّعا ... لنُسعف إلهنا بكلّ شيطانينا». (**ضآ**) وقد فعّل هذه الروح الشيطانية في مجال حقوق المرأة، وخرج بتعليلات لحركة التحرّر النسوي في زمانه تفوق الخيال في هذيانها. زعم أن الطبيعة البدائية للذكور في أوروبا تمّ تخريبها بسبب نزعتهم لاكتساب العلوم، وإرادة الغوص في الأشياء ومعرفتها كما هي. لكن الخطورة العظمى هي أن هذا التخريب تَعدّى مفعوله إلى

الجنس اللطيف، الذي من المفروض أن يلزم حدود الجهل المطبق ويواصل في مُهمّة ترفيه الرجال وإنجاب الذّراري. **(طآ)** ورغم هذه الإهانات الفظيعة للمرأة، وسيل الشتائم والأحقاد التي لا يُضاهيه فيها إلاّ الإسلامي المتطرف، فإن العديد من النّساء يَعْشقن نيتشه، ويَتبنّيْن أفكاره بكل اعجاب واحترام. **(ظآ)** سقطات غير لائقة، وكُره جنوني للإنجليز كَشعب وكمُثقفين، لكن ولا كلمة عن الإمبراطورية ومستعمراتها، وعن حروبها في شتى أصقاع الأرض، واضطهادها للسكان الأصليين، والمتاجرة، المُهينة بالبشر. **(عآ)** بعد هذه الجولة الشاقة، وصل نيتشه إلى موضوعه المفضّل، وهو الموضوع الذي يتحرّك فيه بحرية، ويستمتع بإفراغ كل مشاعره المتطرّفة الحاقدة على البشرية جمعاء، وعشقه الجنوني لإرادة القتل الفظيعة. **(غآ)** تتساءلون: ما هذا الغلّ الدّامس؟ لماذا كل هذه القسوة الفظيعة؟ الجواب، هو أن هذه هي البضاعة الوحيدة التي يملكها نيتشه. فتّشوا في كل كتبه، حتى تلك التي صُنّفت تحت لافتة التنوير، فلن تجدوا غير هذه البضاعة. لكن الرجل تجاوز حدوده، وحدود أدنى المشاعر الإنسانية السويّة، بدعوته الصريحة إلى الإبادة الجماعية، إلى سحق عدد لا يُحصى من الناس، كي يعيش الأكابر والأعيان. **(فآ)** هذا هو الرجل الذي يتهجّم على الفلاسفة ويُسميهم عناكب وجرذانا وحميرا، ويتفنّن في رميهم بأبشع الشتائم لا لشيء إلاّ لأنهم لا ينضمّون إلى جوقة آكلي لحوم البشر. لكن العيب، وأقولها بكل مرارة، ليس فيه هو بل في أتباعه ومُحبّيه الذين نفثوا في كتبه روحا جديدة، وأعادوا تأهيله لكي يكون معلّم البشرية. **(قآ)** أنا أسأل: أهذا فيلسوف؟ هل تنطبق عليه صفة مُفكّر أو مُثقّف؟ ومن أيّ طينة هو؟ ماذا عسانا أن نَنتفع أخلاقيا من شخص يهين البشرية بهذه الطريقة الفَظّة؟ ما الشيء الذي يُفيدنا به فلسفيّا وسوسيولوجيا قوله إن النظام الديمقراطي الحديث سببه هو خلط دم الأسياد والعبيد (Blutvermischung von Herren und Sklaven)؟ **(كآ)** في جينيالوجيا الأخلاق أراد أن يكون أكثر دقّة وصرامة، فأخرج كتابا فاق فيه شناعات **ما وراء الخير والشرّ**. فالرجل يعود مجددا لتبرير الكذب، ويمدحه بل يجعل منه، هو والقسوة والتعذيب، فضيلة، ولكن الصدق يسمّيه كذبا. **(لآ)** في هذه الأدغال التي تحتلّها الكواسر والحيوانات المفترسة، كل الضوابط الأخلاقية تغدو سجنا مؤبدا، والقوانين تقييدات مُميتة بما في ذلك الدولة ومؤسساتها. **(مآ)** كل شيء، في نسق نيتشه، يجب أن يقود إلى إرادة القوة، أن يسلك طريقه إلى العنف والتسلط والهيمنة والقمع والبطش وغياب الضمير، وإلاّ فإنها التعاسة

والدمار، الانحطاط والجنون؛ الجنون المذموم، وليس المحمود، لأن نيتشه، له نوعان من الجنون: **محمود** ومذموم. **(نآ)** افتَتَن به عدد كبير من الفلاسفة والمثقفين لمهاجمته المثل الزّهدي، واعتبروها نقدا ثاقبا وصحّيّا للدين، وتخلصا من سلطة الكاهن والشيخ. لكن، في الحقيقة، غرض نيتشه هو شيء آخر مُختلف تماما، غرضه هو الهجوم على النظر المجرد، تقزيم الفلسفة والفلاسفة، الاستهانة بالعلم وبالمفكرين الأحرار، وخصوصا التهجّم على الإلحاد والاستخفاف بالملحدين. **(هآ)** كما أن انتقاداته على الزاهد لا تضرّ الزاهد في شيء بل تزيده بريقا وإنسانية، كذلك انتقاداته على المسيحية، في كتاب **عدوّ المسيح**، بدل أن يُشوّهها أو يُسقطها من أعين أعدائها، زادها اشعاعا وتعاطفا ومحبّة. **(هآأ)** الثمرة الوحيدة التي قَطَفها المفكرون العرب من نيتشه هي ضرب الإله المسيحي والاستهانة بتعاليم الديانة المسيحية، وتغليب إله القرآن ودين الإسلام عليهما. **(وآ)** أن تكون معارضته للمسيحية ضعيفة، وفي غير صالح الفكر النقدي ولا تخدم حتى الفكر اللاديني، يمكن التحقق منه، من خلال ما يقوله عن ضرورة الإيمان بإله ما، وعدم ممانعته من الاعتقاد في كائن متعالٍ بمواصفات خاصة، المهمّ أن يكون هذا المعتقد صالحا للمجتمع. **(يآ)** أنا لا أثق فيٍّ علم نيتشه بتاتا، فالرجل لا يملك العمق النظري المطلوب، ولا يعرف جيدا تشعبات اللاهوت الأقرب منه، أعني اللاهوت المسيحي، ويُعدَم الضروري من المعلومات لخوض هذه المعركة؛ لم يُدقّق في الكتب والمراجع كما يفعل أيّ باحث جدّي، وليست له منهجية تاريخية نقدية، لذلك أذهلتْ أحكامه المؤرخين وصدمت الفيلولوجيين المحنّكين. (آآ) لكن في ثنايا هذا الاستنكار الديني للحداثة والمادية والإلحاد والعلم يصل إلى نقطة في غاية الخطورة واللاأخلاقية، حيث يهجم بشدّة على صناعة الطبّ النبيلة، ويُوجّه أحقاده ضد الطبيب الذي يداوي المرضى وينقذ حياة الآلاف من الناس. **(بآبآ)** المُؤكّد أنّ في عالم نيتشه، الذي تسود فيه القسوة والألم والكذب والانتقام ومعاداة العقل، هذا العالم المجنون، الذي يُستهان فيه بالعلم، ويُكبَتُ فيه حبّ المعرفة، لا يمكن أن يُنتج فيلسوفا واحدا. فالمجتمع الذي يتصوّره ويرغب في تحقيقه، لا حاجة له بفلاسفة ومثقفين وعلماء وباحثين، حاجته الماسّة تقتصر على خلق جبابرة قساة ومحاربين قتّالين، والعمل على انشاء مُعسكرات تدريب لتفريخ الإرهابيين. **(تآتآ)** مع نيتشه نحن في بؤرة التخمينات المُتوحشة، مُعلّقون في عالم السّفاسف والأكاذيب والتزوير الفاضح للتاريخ، والذي كان من المفروض أن ينتهي مع انتهاء

صاحبه لكن، ضدّ كل التوقعات، كُتب له التواصل والدوام، على أيدي حواريّين لا تعزّ عليهم الفلسفة. (**ثآثآ**) العلم والفلسفة والفن والديمقراطية والسلام والاشتراكية هي كلها أعراض مَرَضيّة للحضارة الغربية الحديثة. والعَرَض الأخطر هو المثال الزّهدي، الذي وضَعَ تَحته نيتشه، كل التعابير الثقافية والانتاجات الروحية للحداثة. (**جآجآ**) في ما يخص المسألة الاجتماعية، فيلسوفنا يعتبر الصراع الطبقي غير موجود، وإنما ثمة مرضى وأصحاء، يتنازعون السّيادة. والغريب في الأمر أن هذا التشويه المريع للقضايا الاجتماعية، يعرضه في كتبه بكل جدية، ويُتَقبّل إلى اليوم من طرف أحبّائه على أنه حقيقة باهرة. (**حآحآ**) نيتشه يُلقي على الكاهن صفات يختص بها الطبيب، وصفات أخرى تنطبق على القائد الاشتراكي المهتمّ بالدفاع عن الطبقة الشغيلة، والذي يريد تخليصها من القهر والاستغلال، ويُوعّيها بحقوقها المشروعة. (**خآخآ**) لكن في خضم هذه التّداعيات، يبرز مُزاحِمان خطيران يقوّضان كل ادعاءات نيتشه: العالم والفيلسوف. وكالعادة، لمُجابهتهما قام بالزجّ بهما في بوتقة المثل الزهدي، ومنه استطاع أن يمارس عليهما رياضته المفضّلة: التحقير والسباب والشتم. (**دآدآ**) أمّا كل من يطمح في معرفة حقائق الأشياء فإن نيتشه يثبّط عزمه ويسحقه بالتصريح التالي: "لا حقيقة، كل شيء مباح (Nichts ist wahr, alles ist erlaubt)". ورغم إرهابية هذا التصريح فإن ثمة مَن سلَخَ عنه كل وحشيّته وسوّقه كلطيفة من لطائف فكر نيتشه. (**ذآذآ**) لم يَكفه ما قاله عن العلم في هذا المقطع من "جينيالوجيا الأخلاق"، وفي مقاطع أخرى من "ما وراء الخير والشر"، ولم يشبع من الهجوم العشوائي الذي شنّه على العلماء في "العلم المرح" و"الفجر"، وإنما ختم "جينيالوجيا الأخلاق"، بالتكشير عن أنيابه بصورة وحشية. (**رآرآ**) ولكي يبرهن على أن العلم لم يقض على المثل الزهدي وإنما زاده قوّة، أخذ كمثال على ذلك النظام الفلكي الكَوبرنيكي. والكل يعلم أن مع كوبرنيك أزيحَتْ الأرض عن مركز الكون وأصبحت كوكبا صغيرا يدور حول الشمس شأنها في ذلك شأن كل كواكب المنظومة. لكن هذه الحقيقة الفلكيّة جرحتْ احساسه الأناني فطَفِق يُعدّد مساوئها وانعكاساتها السلبية على مكانة الإنسان في الكون (**زآزآ**) هل صحِيح أنّه منذ أزاح كوبرنيك الأرض عن المركز والإنسان في انحدار نحو العدم؟ وهل صحيح أنه عندما كان الإنسان يعتبر الأرض مركز الكون، كان يحترم ذاته؟ يمكننا أن نعارض نيتشه، بخصوص النقطة الثانية، بأقوال طيف من الشيوخ الذين ألّفوا، كتابا للبرهنة على أن

الأرض ساكنة وأن الشمس هي التي تدور حولها. **(سآسآ)** إنّ جزع نيتشه من النظام الكوبرنيكي، وإدانته الصريحة لاقتلاع الأرض من مركزيتها، تُذكّرني بردة فعل المصلح مارتن لوثر ضد كوبرنيك، الذي وصفه بأنه فَلَكِي مُتطفّل «يريد أن يبرهن على أن الأرض تتحرّك وتدور، وليس السماء والشمس والقمر ... ذاك المجنون الذي يريد قلب فن علم الفلك! لكن كما تشير الكتب المقدسة، يشوع أوقف الشمس، وليس الأرض». **(شآشآ)** ولو كان نيتشه مطّلعا بعُمق على الأدبيات الكلاسيكية لَعَلِم أن الاعتقاد في مركزية الأرض لم يمنع الفلاسفةً القدامى من التفاؤل بمصير الإنسانَ، ولتفطّن إلى أن القول بأنّ الكون لم يُخلق خصّيصا للإنسان، وأن الإنسان ليس هو سيّد الخليقة ولا الكائن الأعلى والمبجّل، لم يَحُل دونهم ودون الإيمان بقدرته على القيام بالأعمال العظيمة وحرّيته في تقرير مصيره. **(صآصآ)** نيتشه يتحسّر على حال الإنسان الذي أنزله العلم الحديث من منزلة ابن الإله، وسيّد المخلوقات وأكرمها، إلى مقام الحيوان. لكن أسطورة علوّ الإنسان وتمكينه من السيادة على الحيوان هي عقيدة أنثربومورفية بدائية، استمدّها كاتبو التوراة من الأساطير البابلية، وعن طريقهم تسرّبت إلى المسيحية والإسلام. **(ضآضآ)** على المستوى الفلسفي يمكن تحطيم أفكاره بسهولة: **جينيالوجيا الأخلاق** هو كتاب شرير ولاأخلاقي، غير قابل أن تَستمدّ منه شيئا غير القسوة والجنون. وقد تفطّن معاصره هيرمان تورك (Hermann Türck 1856 -1933) إلى هذا الأمر وانتقدَه بشدّة: سمّاه عدو الحكمة، "أنتيزوفير (Antisopher)"، "نبيّ الشيطان ومحترف الكذب". وقد تسنّى له فعل ذلك بحرّية لأن نقد نيتشه في تلك الفترة لم يكن من الهرطقة بمكان، ولم تَتشكّل بعد حلقات مُريدين تقديسّين، وجمعيات مُنافحين شرسين. **(طآطآ)** أن يستخدم نيتشه كل ما في جعبته من أدوات حجاج عقلاني وأن يُوظّف كل ما يملكه من زخم خطابي لكي يُبرّر الانحراف الأخلاقي ويسوّغ كل أنواع الإجرام، فهذا يدخل في باب المرض العقلي، أو ما أسماه تورك: الجنون الممنهج. **(ظآظآ)** ورغم أن **جينيالوجيا الأخلاق**، كما قلت، هو كتاب جنوني فظيع ، يعجّ بالإهانات والقسوة والكلام القبيح، فإن الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز غض الطرف عن محتوياته المحرجة، واستخرج منه، على عكس ذلك، مَعانيَ فلسفية رفيعة وتعاليم نقدية مفيدة، وكأنه يملك مَتْنا نيتشويا آخر. **(عآعآ)** دولوز وفوكو هما، من بين أشهر الفلاسفة الفرنسيين، اللذان سوّقا لأفكار نيتشه، ولم يدّخرا أي جهد لإدماجه بقوّة في صلب

الثقافة الفرنسية، ومنهما مَرّت أفكاره بانسياب إلى الثقافة الفرنكوفونية في العالم العربي. **(غآغآ)** ولم يَنْتَه البلاء مع الثنائي دولوز / فوكو بل تواصل مع بول ريكور (P. Ricoeur)، وهذا الفيلسوف المؤمن الذي من المفروض أن يكون أكثر الفلاسفة مقاومة لإغراءات فكر نيتشه، ها هو للعجب يثنى على كتاب **جينيالوجيا الأخلاق** ويصفه بأنه « نص عظيم (un grand texte)». **(فآفآ)** كنتُ أنتظرُ من فيلسوف بارع وحصيف، مثل بول ريكور، أن يتمعّن في التعريف الغريب جدا الذي أعطاه نيتشه للحقيقة (جيش من الاستعارات)، وأن يَنطق بكلمة واحدة نقدية، أو يُبدي نَزَرًا من الاحتراز الفلسفي إزاءه، لكننا لا نجد شيئا من هذا القبيل، ولا نجده حتى عند ادوارد سعيد الذي استخدم هذا التعريف لمهاجمة الاستشراق. **(قآقآ)** المؤكد أن نيتشه كتب هذه الخواطر ضد الحقيقة والتاريخ والبحث الفيلولوجي كردّة فعل يائسة ضد الانتقادات المُدمّرة التي وجهها إليه فيلاموفيتس موليندورف، وحُذّاق القوم من الفيلولوجيين الألمان، بعد أن صُدموا بكتابه الفظيع: مولد التراجيديا. **(كآكآ)** من المحتمل جدا أنّ لا إدوارد سعيد ولا ريكور، من بعده، يعلمان خلفيات القضية، وربما لا تعنيهما كثيرا، لأن هَمَّهما هو الاستحواذ على الفكرة النيتشوية وتحويلها إلى سلاح فتّاك. **(لآلآ)** كَم هو كبير ومريع حجم الانحدار والتقهقر عندما نقارن الفلاسفة الفرنسيين المحدثين الذين اختاروا نيتشه كمُعلّم ومُلْهم لأفكارهم، بالقدماء الذين تصدّوا لأفكاره بحزم وبكفاءة عالية، دون رهبة أو تقديس. ومن أشهرهم ألفريد فوييه (A. Fouillée 1838 - 1912)، الفيلسوف الفرنسي المعاصر لنيتشه الذي تربّى على عقلانية ديكارت، وتشبّع بالمنهجية الوضعية. فوييه جابه نيتشه على أرضية فلسفية بحت ونازعه في النقاط الأساسية من «نسقه» الفكري. **(مآمآ)** وقد تعدّت العدوى النيتشوية إلى إيطاليا وتغلغلت حتى في صفوف الاشتراكيين. وأغرب مثال على ذلك هو زعيم الفاشية بنيتو موسلّيني (B. Mussolini 1883-1945)، الذي بدأ حياته الفكرية والسياسية كاشتراكي ماركسي، وقضىّ شبابه في النضال ضد الرأسمالية والدفاع عن الطبقة الشغيلة. **(نآنآ)** وبينما كان في معمعة الحراك الاشتراكي ومندمج في النّقابات العمّالية اكتشف نيتشه فأخذ خطابه يتغيّر وبانت عليه معالم العنف والشراسة، لكنه فهم النص النيتشوي أفضل من فهم العديد من الفلاسفة المحدثين. وقد نشر سنة 1908 مقالات ثلاثة عن فلسفة القوة عند فريدريك نيتشه في أسبوعية تابعة للحزب الجمهوري الإيطالي، شَكّلت تقريبا نهاية مسيرته

الاشتراكية. (**هآهآ**) بعد اثنَيْ عشرة سنة من هذا النص، سيُحقّق موسليني إرشادات نيتشه وتعاليمه بالحرف، وسيجرّ الوبال والدمار (هو وزميله هتلر) على العالم أجمع.
(**وآوآ**) في إيطاليا السبعينات من القرن الماضي، وبينما كان اليسار الماركسي هو المهيمن على الساحة الثقافية، حدثت ظاهرة عجيبة جدّا: بدأ فكر نيتشه، المحسوب من طرف اليساريين على الفاشية، يغزو الساحة الثقافية وينتشر حتى في صفوف النخبة اليسارية، وقد أخذ المشعل، هذه المرة، جياني فاتيمو، وهو فيلسوف كاثوليكي، لكنه ذو مَنحى يساري ماركسي، أبعد ما يكون عن الفاشية والفكر اليميني، ومع ذلك فقد قام بأكبر تلميع لصورة نيتشه واجتهد اجتهادا لا نظير له لكي يجعل من فكر نيتشه محرّرا من أغلال الاستعباد. (**يآيآ**) هل يجب علينا أن نخضع لابتزاز النيتشويين؟ أن نقبل تأويلاتهم الانتقائية وتطهيراتهم المفروضة على صريح كلمات نيتشه؟ لقد رفض الفيلسوف الإيطالي دومينيكو لوسوردو الانصياع لهذه اللعبة التأويلية وسمّاها "حمّاما مُطهّرا (bagno purificatore)"، وأثبت بحجج متينة أن تأويلات فاتيمو فاقدة لأي أساس موضوعي. (**آأ**) لكن حالة النيتشويين في العالم العربي لا تقل التباسا وتشتتا وإرباكا عمّا هي عليه في الغرب. ومثالنا على ذلك هو مترجم كتاب **جينيالوجيا الأخلاق**، الفيلسوف التونسي فتحي المسكيني، حيث يُعرب في تصديره أنه يريد تحرير معنى النص النيتشوي، "من مُعجم الكاهن" وربَطه "بمعجم المحارب". ولكلّ من لم يفهم غرضه جيّدا، يضيف هذه المعلومة، وهي أن السؤال الأساسي هو: «كيف نُعيد للحيوان البشري قدرته الحربيّة على الحرية البدائية الصلفة المتهوّرة؟ (**بآب**) ولنا أن نتصوّر مفعول هذه الأفكار ومدى خطورتها على أذهان طلبة الجامعة المبتدئين الراغبين في تعلّم الفلسفة؛ أفكار وتنظيرات قادرة على ادخالهم في نفق مظلم: يريدون تعلّم الفلسفة والتمرّن على الفكر الراقي وإذا بهم يتعلّمون أن المساواة ضغينة، وأن الحس الديمقراطي هو سطحية وأن واجب احترام القوانين عبودية، وأن الضمير المهني لا قيمة له، وأن احترام كرامة الإنسان هو كهنوت، وأن الإلحاد النظري لا يُعوّل عليه «من أجل حلّ لغز قيمة القيم الأخلاقية لوجودنا على الأرض»؛ وأن فيلسوف النقد، إيمانويل كانط «هو البطل النموذجي عن هذا النجاح اللاهوتي المقنّع. النجاح اللاّئكي في إقامة كهنوت عقلي بلا طقوس». (**تآت**) إن نموذج الارستقراطي النيتشوي، ولا أكلّ من قول ذلك، يتجسّد في الإرهابي الإسلامي القتّال الوحشي، لأن مواصفاته، كما يُصوّرها نيتشه،

تنطبق عليه بالتمام: «بِنْيَة جسمانية قوية ... صيانة هذه القوة الطافحة عن طريق: الحرب، المغامرة، الصَيد، الرقص، الألعاب والتمارين الرياضية، وعموما كل ما يتطلب نشاطا قويا وحرا ومرحا». **(ثآث)** وعلى الرغم من كل ما تضمّنه فكر نيتشه من قسوة واستخفاف بأبسط القيَم الأخلاقية، فإن السيد المسكيني يدّعي بأن نيتشه هو استثناء في العالم، استثناء «ليس فقط في تاريخ الفلسفة بل في تاريخ السؤال عن مصير البشر أنفسهم». لكن التصعيد يصل إلى مداه الأقصى في قول المسكيني بأن نيتشه ليس واحدا بل متعددا، تقريبا إله، مثل إله المسلمين، له تسعة وتسعون اسما. هذه ليست دعابة وإنما حقيقة مُرّة: اسم نيتشه، يقول المسكيني، «يظل يُشير إلى شخوص معنوية عديدة أخرى أكثر إثارة، وأكثر خطورة. **(جآج)** أضخم كتاب ألّفه مفكر عربي عن نيتشه، هو كتاب محمد الشيخ بعنوان: **نقد الحداثة في فكر نيتشه**، نُشر بالشبكة العربية للأبحاث والنشر سنة 2008، ويقع في 758 صفحة. ورغم ضخامة هذا الكتاب فإنه يشكو نقائص كبيرة واختلالات لا يمكن أن تخفى على القارئ الحصيف. أوّلها الغياب الكلّي للمراجع، وثانيها أسلوب الخطابة والسجع، ثالثها وضع الكلمات بين ظفرين، وأخيرا السمة الطاغية على النص بأكمله هي غياب الحس النقدي وتمجيد نيتشه والاشادة بأفكاره إلى حدّ التقديس. **(حآح)** لماذا يَضع النيتشويّون أنفسهم في هذه المواقف الحرجة؟ لماذا ينزلون بأنفسهم إلى مستوى المهزلة؟ فالسيد الشيخ له أن يزوّق سرديّاته بكل العبارات السّجعية التي يتخيّلها، وله أن يحشوها بكل ما لذ له من قافية شعرية، وأن يُغرق الكلمات في بحر الظفرين، ولكنه لا يستطيع أن يُغيّر الباطل إلى حق، ولا يقدر أن يُجرّعنا سموم نيتشه وتقبّل استيهاماته. أين أدلّته؟ أين براهينه العلمية؟ لا شيء غير أن نيتشه قال ذلك، غير أن نيتشه "اعتقد جازم الاعتقاد". **(خآخ)** ورغم أنّ نيتشه ينصح السلطة بتحويل عبيد أوروبيين إلى أسياد، وعبيد صينيّين إلى نمل، فإن السيد محمد الشيخ يعرض علينا، دون وخزة ضمير، هذه الأفكار العنصرية القبيحة الشريرة، بعد أن حسّنها وأضعف من مفعولها بل قَلَبَها إلى أشياء بريئة. ويكرر هذه الإهانة للشغيلة الأوروبيين وللصينيين دون نقاش، بل يضع حتى مرادفها الفرنسي، مع حَبّة سَجْع: «تلك لَعَمرنا "حياة عُمّالية صينية (Chinoiserie ouvrière)"، وهي حياة يضطرّ إلى عيشها الإنسان إلى أبد الدهر خاملا جامدا دونما عراك تقتضيه الحياة أو تغيّر. **(دآد)** أنا لا أفهم عقليّة المؤوّلين المغاربة لنيتشه، ولا أدري ما السبب في اصرارهم العنيد على

ترديد تخميناته المعادية للفلسفة دون الوعي بمفعولها المدمّر على مُستقبلها في العالم العربي. أن يأتيك السيد محمد أندلسي ويُمعن، هو نفسه، في ذم الفلسفة، بل يَتلذّذ بتحقيرها وتحقير الفلاسفة، طوال صفحات من كتابه «نيتشه وسياسة الفلسفة»، فهذا أمر غريب جدا ولا يمكن فهمه. لكن يُمكن إدراك استتباعاته الاجتماعية وانعكاساته السلبية على المجال التربوي، حيث أنّه بهكذا عمل يؤدي خدمة جليلة للمتطرّفة ويعطيها كل الذرائع والمبرّرات لكي تواصل في إصرارها على منع تدريس الفلسفة، ويحرّض الدول الأخرى على اللّحاق بركبها، وحظرها من برامج التعليم. (**ذآذ**) أريد أن أذكّر الأندلسي وبن عبد العالي بأن نيتشه لم يتجاوز الميتافيزيقا، بل كان يعارض كل من أراد تجاوزها، وقد انتقد الفكر الليبرالي الداعي للسلم والديمقراطية لأن «له جذورا في تعاليم التنوير والثورة الفرنسية (der französischen **Aufklärung** und **Revolution**)، أي في فلسفة **لاجرمانيّة** (ungermanischen) على الإطلاق، بل رومانيّة (**romanisch**) أصلا، سطحيّة **ومناهضة للميتافيزيقا** (**unmetaphysischen**). (رآر) يمكننا أن نُعاين بالملموس صحة قولة توماس مان التي مفادها أن «كلّ مَن يحمل نيتشه مَحمل الجد، وكل من يأخذه حرفيا ويؤمن به، مآله الضياع». وللبرهنة على ذلك سألتجئ إلى تصريح فيلسوفة تونسية، فوزية ضيف الله، بمناسبة تقديم كتابها „كلمات نيتشه الأساسية"، في فيديو موجود على موقع **مؤمنون بلا حدود** السّلفي. (رآز) لا أدري هل هو من باب الاستسلام القهري أم بدافع الانسياق وراء تيّار الموضة الجارف، يتغاضى العديد من المفكرين عن حقيقة أن نيتشه يقودهم إلى الهاوية، وأنه لا يمكن أن يكون قدوة حتى في ميدان المعاملات الشخصية. فهو يَسخر منهم أشد السخرية ويستهين بعقولهم وأحاسيسهم، ويضرب في العمق كلّ ما هو إنساني فيهم. أليس من باب الإهانة والاحتقار أن يزعم بأنه هو الفيلسوف الأوحد الذي سيضطلع بخلق قيم جديدة للإنسانية؟ أنه سيتكرّم عليهم ببصيص من علمه الغزير لكي ينقذهم من قرون عديدة من الانحطاط؟ (زآز) "إرادة القوة" عنوان كتاب خطّط له وأعلن عنه لأصدقائه، لكن لم يُنشر في حياته، وقد تكفّلت شقيقته بنشره اعتمادا على مخطوطاته الشخصية. اللافت أن المفهوم المحوري في هذا الكتاب وقع فيه التباس وغموض، فكثُرتْ المُراجعات، وتعددت التأويلات، حيث لا واحد استطاع أن يعطي تعريفا معقولا للقوة ولا للإرادة، ونيتشه نفسه تخبّط في هذا الشأن، وغيّر من تعريفاته، وبلور مفاهيمه حسب مزاجه. لكن الضربة القاضية لمضامين هذا الكتاب جاءت من

الفيلسوف الفرنسي ألفريد فوييه. (**سآس**) ولكي لا يبدو اعتباطيا في أحكامه، فإن فوييه يتوغل في هذه المسألة لإثبات عقمها الفلسفي. إن قاعدة "إرادة القوة"، لن تحوز على قيمة نظرية إلا إذا تمت البرهنة على أن كل الموجودات تبحث عما اتفقنا، نحن البشر، على تَسميَته قوّة، يعني أحاسيس مقاومة متجاوزة باستمرار. (**شآش**) ما هي استتباعات هذه الرغبة الجامحة في القوة؟ إذا تعلّق الأمر بالعدالة أو الطّيبة أو الإخلاص، وكل الأعمال الصالحة للبشرية، فإنها ستتحوّل، حسب هذا المنطق، إلى مجرد فعاليّة استعراض أناني للذات. (**صآص**) ولم ينته فوييه من مماحكته، بل ذهب إلى مدى أبعد ودخل في تفاصيل لم نقرأها لا عند دولوز في كتابه الفظيع "نيتشه والفلسفة" ولا عند أحْدث المؤولين الفرنسيين، من أمثال ميشال هار (M. Haar) أو باتريك فوتلينغ (P. Wotling). عن إرادة القوة، يقول فوييه، لا نعثر عند نيتشه على استقرار من حيث التعريف والتحليل والنتائج، فهو يبدّل ويحوّر آراءه من صفحة لأخرى. (**ضآض**) على مستوى قِيَمي بحت، إرادة القوة لا يمكن أن تؤدّي إلاّ إلى النفي المطلق للأخلاق، إلى التّكريس الأَشرس لقانون الغاب على وجه الأرض. (**طآط**) أعزّ وأثمَنُ جوهرة في فلسفة نيتشه: «فكرة موت الله» هي أيضا لم يتم الاجماع على معناها: الملحدون يعتبرونها كسبا ثمينا لهم، المؤمنون يرفضونها ويعترضون أن الإله الذي يعنيه نيتشه هو الإله الأخلاقي، وأنه يجب التركيز على خطاب المجنون الذي كان أكثر حصافة حينما أعلن أنه يبحث عن الإله الحقيقي. أكثر من روّج إلى هذه الفكرة هما هايدغر وياسبرس. (**ظآظ**) أمّا الفيلسوف الإيطالي جياني فاتيمو فقد فاق هايدغر وياسبرس في التقليل من شأن فكرة موت الله، وذهب إلى حد الزعم بأن نيتشه، ليس فقط لم يكن ملحدا، بل كان السبب في إرجاعه هو شخصيا إلى حضن المسيحية، وأن أطروحة موت الإله، لا تحمل في ذاتها أيّ بُعد إلحادي بل تسعى «إلى رسم أعلى شرط موضوعي لحياة جديدة في كنف الفكر الجينيالوجي». (**عآع**) إذا كان الإلحاد ممنوعا، وإذا كان إعلان موت الله هو مجرد دعابة، فهل يمكن أن ينقذنا الفن؟ هل تساعدنا الحقائق العلمية على مجابهة مأساة الحياة؟ حتى هذه الخيارات مردودة، تافهة وغير مجدية، وهكذا فإن نيتشه، مرة أخرى، حطّم آمال كل من كان يعتقد في أن فلسفته تقدم له وسائل فعّالة للخروج من الدين إلى نورِ الفن والجمال. (**غآغ**) لكن في الوقت الذي يخلو فيه فكر نيتشه من البراهين المُقنعة والتسلسل المنطقي لاستنباط فكرة موت الله، فإنّ قتْل الإله هو كسب حققه الفلاسَفة العرب بالاعتماد على الإرث

الأرسطي الأفلوطيني. وهذا الاستنتاج نجده معروضا، بصورة منطقية شفافة، وقائما على مقدمات عامة، وحُدود وسطى، إذا سلّمنا بها فلا مناص من التسليم بالنتيجة. **(فآف)** أفكاره حول الحرب والعنف والقتل تُقرّبه من المسلم الوهابي السلفي. ربما تتساءلون: كيف يكون فريدريك نيتشه مسْلما سلفيا وهو مُحطّم الأديان بامتياز؟ أليس من باب الغرابة والتجنّي بمكان الادّعاء بأن، مَن رفع شعار موت الاله، وحطّم المقدسات بجميع أصنافها، هو إسلامي، لا بل سلفي وهابي حتى؟ أقول: أن يكون نيتشه مَفتُون بالوهابية فهذا ما تؤكده الفقرة 43 من **العلم المرح**، حيث يُثني فيها على الوهابيين لبساطة قوانينهم واكتفائهم بالنزر القليل من العقوبات. فعلا، الوهابيون، يقول: لديهم «حالتان من الحكم بالإعدام: أن تَعْبد إلها غير إله الوهابيين وأن تُدَخّن»، أمّا القتل والاغتصاب فإن الله غفور رحيم. وإذا ربطنا كلامه هذا بأطروحاته المبثوثة في كتبه الأخرى التي يمجدّ فيها مثل هذه الأعمال تتراءى لنا حقيقة أن الوهابية تعبّر أحسن تعبير عن تصوّره للحياة وتُطبّق على أرض الواقع ثقافة القتل والإرهاب.

(آ)

فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche) فيلسوف ألماني من القرن التاسع عشر وُلد سنة 1844 في روكن (Röcken) قرية صغيرة من مدينة لوتسن (Lützen)، وتُوفّي سنة 1900 في فا يمار، حيث أقامت شقيقته إليزابيت "أرشيف نيتشه". لن ندخل في تفاصيل حياته الشخصية، ثمة العديد من الكتب الجيّدة التي تناولت بإسهاب سيرة حياته وبصيغة مفصّلة جدا، ما يهمّنا بالدرجة الأولى هو كُتبه ومضامينها الفلسفية وتأثيراتها على الساحة الثقافية العالمية ...]

خذ مثلا كتاب "ما وراء الخير والشر": الخَلط وتشويه المفاهيم منذ البداية. فهو يلعب على حبال مختلفة، يُوهِم بأنه ينتقد فكرة الروح الأفلاطونية، لكنه يجمع معها فكرة **الخير المحضً**؛ يُوهم أيضًا بأنه يحارب **المسيحية الكنسية**، يسميها أفلاطونية للشعب، وأنه يتصدّى لتيّار **الرهبنة اليسوعي**، لكن يُدخل خلسة التنوير والديمقراطية. وبهكذا خلط فهو يُخفي وجهه الحقيقي، ويسرّب استخفافه بالعقل والمنطق والعلم والأخلاق والتنوير عن طريق جرعات بسيطة، هيّنة على ذوق القارئ.

وفعلا، افتتح الفصل الأول من "ما وراء الخير والشر"، بهجوم على الحقيقة، كان قد شبّهها بالمرأة، والمرأة في عرف نيتشه هي عنوان الخداع والكيد، والكذب والتمويه، لا يمكن الثقة بها أو تصديقها. يريد أن ينبّه القراء على المخاطر المنجرّة عن البحث عن الحقيقة، فيقول إن «إرادة الحقيقة التي ستؤدي بنا إلى مجازفات عديدة[1]». يريد أن يكون عميقا وصادما فأخرج من جعبته قولة لاعلمية ولا أخلاقية، بل دعوة صريحة للجهل وتحبيب النزول في قاع الغباء. يقول لِمَ نبحث عن الحقيقة؟ «لِم ليس بالأحرى اللاحقيقة، اللايقين وحتى الجهل؟[2]».

وبالتعمّق في المسألة من خلال عِلْمِه الجينيالوجي، استطاع أن يتعرّف على الميتافيزيقي الثاوي في كل اعتقاد بوجود الحقيقة. ذلك أن العلماء تطغى على تعاليمهم المنطقية تقييمات ماورائية «وانطلاقا من إيمانهم هذا، يجتهدون في عِلْمهم، في ما يعمّدونه آخر الأمر، في جوّ مهيب، باسم الحقيقة[3]». لكن السبب الأقوى الّذي يمنعنا من قبول الحقيقة، هو غريزة الحياة، وهذه الغريزة هي التي تكبح جماحنا عن التطلّع إلى عالم حقيقي وراء عالم الظاهر، يجب أن نكتفي بما هو موجود ولا نقلق أنفسنا بالبحث والتحقيق: «في نظر كل حياة يجب علينا أن نُولي الظاهر (Scheine) **وإرادة الخداع** (dem Willen zur Täuschung) والمصلحة الذاتية **والرغبة**، قيمة أعلى وأكثر أساسية».

من الحقيقة انتقل مباشرة إلى القيَم، وهنا وجد أرضيته المفضّلة ومَكْمَن قوّته. إنّ عيب الفلاسفة الأكبر هو إيمانهم «**بتضادّ القيم**»، يعني تضادّ الخير والشر، الفضيلة والرذيلة، الجمال والقبح. لكن نيتشه يريد أن يجتثّ هذا المُعتَقد كليا، ولفعل ذلك فهو يقدّم اعتراضين كلاسيكيّين: **النّفي والتّنسيب**. يقول: «نشك في ما إذا كان ثمة من أضداد على الاطلاق»، وثانيا، تلك التقييمات هي تخمينات سطحية «ومُجرّد منظورات مؤقتة، منظورات من زاوية معيّنة ربما ... منظورات أشبه بمنظور الضفدعة[4]».

ثم يعود للخلط مرة أخرى، من خلال افتراض تماهي الاضداد، والقول إن تلك الأشياء الخيّرة والمحترمة، هي قريبة نسبٍ ومتجانسة «مع تلك الأشياء الرديئة والمضادّة

1- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، ترجمة ج. فالور حجار، دار الفارابي، بيروت 2003، § 1، ص، 21.
2- نفس المرجع (من وصاعدا سيُرمَز لها بـ: ن. م). م، ص، 22.
3- ن. م، § 2، ص، 23.
4- ن. م، ن. ص.

لها ظاهريا»، ثم يتراجع ويبدي شكا خادعا «أو أنها مماثلة لها ربّما (Vielleicht). ربّما». يُوهِم بأنه متشكك، وأنه يقتصر على **"الربّما"**، ويترقّب بروز «جنس جديد من الفلاسفَة، فلاسفة **الربّما** الخطرة بكل ما للكلمة من معنى». لكن كل كتاباته تُثبت العكس، فالرجل ليس فقط يُماهي أحيانا بين الأضداد، بل يحكم بكل وثوق بسموّ أحدها على الآخر، بسموّ الرذيلة مثلا على الفضيلة، وأفضليّة الشر على الخير. أما نبوءته التي أعلنها «إني أرى بزوغ مثل هؤلاء الفلاسفة الجدد»، فهي نصف حقيقة لأن هؤلاء الفلاسفة كانوا موجودين في اليونان منذ ألفين وخمس مائة سنة، وهو نفسه قد استعاد اطروحاتهم، أعني السفسطائيين، ومن بعده استأنفها هايدغر، ودريدا وفوكو ودولوز، وأتباعهم من المفكرين العرب.

(بآ)

في الفقرة الرابعة من ما وراء الخير والشر نقرأ أشياء غريبة جدا، إذا تدبّرناها جيدا فستبدو وكأنها كُتبتْ خصّيصا إلى قناة الجزيرة، وكأنها شَارة معاكسة لشارة أفلاطون على الأكاديمية: "لا يدخل علينا إلاّ من كان مهندسا"، قناة الجزيرة: "لا يدخل علينا إلاّ من كان كذّابا".

وقد ضَمّنها نصائح وإرشادات ثمينة تَصلح كبنود مُوجّهة للعاملين عليها وخصوصا لأبرز مُحلّليها، عزمي بشارة. إنها مانيفاستو الكذب المتعمّد. أوّلها: «إن خطأ حكم ما لا يُشكّل عندنا مأخذا على الحكم[5]». يعني أن تصنع قناة الموت، الجزيرة، أخبارا كاذبة وتبثها في العالم العربي، ويتم على أساسها قتل آلاف الأبرياء، فهذا لا يمثل أي حَرج بالنسبة لهم وبالنسبة لنيتشه.

وأي مانع من أن تصنع هذه القناة العميلة مُجسّما لساحة باب العزيزية في طرابلس وتوهم بأن المرتزقة قد احتلوا ليبيا، وتتسبب هكذا في قتل آلاف الليبيين؟ ولا نتحدّث عن كذبة أسلحة الدمار الشامل التي لفّقها بوش وعصابته وأكملت مهمّة تدمير العراق ومحوه من الخريطة. بالنسبة لنيتشه هذه التصرّفات بريئة وغير مشجوبة، حتى وإن كشَفْنا زيفها، لأن الحقيقة لا سلطان لها على غريزة التزوير والكذب، وغير قادرة على نقضها أو الاستنقاص من قيمتها على الاطلاق.

5- ن. م، ص، 24 25.

إذا كان غرض الكاذب هو النزول في مَعمعة الحياة والتمتّع بها، واستغلال مواردها لصالح بقائه، فلا ينبغي أن تُوقف تدفّقه أية موانع خارجية أو داخليّة، فكل الحيل جائزة، والضرورات تبيح المحظورات. واجبنا فقط أن نسأل، قبل فبْرَكة أي كذبة «إلى أيّ مدى يكون الحكم مُنَمِّيا للحياة، محافظا على الحياة، محافظا على النوع، بل ربّما مُحسّنا للنوع؟». وبالتالي، وخلاصة هذه الأطروحة المكيافلية، إذا كانت إبادة الآلاف من الناس، وكَنْسهم من على وجه الأرض (كما فعل هتلر)، مُحسّنة للنوع، وجالبة لعرق جميل وقويّ، فمرحى بها. وفي الراهن الذي نعيشه الآن: إذا كان نشر الأخبار الزائفة ضد الجيش المصري، وتشويه سمعة حكّامها وإثارة الفتنة الطائفية بين مكونات الشعب المصري، الهدف من ورائها تأمين عمق استراتيجي لإسرائيل، وتهيئة الظروف لتقسيم مصر إلى دولتين، واقتطاع جزء من جزيرة سيناء لترحيل الغزّاويين إليه وتوطينهم فيه، فلا مانع لقناة الجزيرة أن تؤدّي دورها الموكول على أحسن وجه. وإذا كان الغرض هو أن تُنعش حياة تُجّار السلاح وتُنمّي ثروتهم، وأن تُساهم في تحقيق مشروع إسرائيل الكبرى، أو تتركها تنعم بحياة رفيهة بينما العالم العربي في فوضى عارمة، فلا اعتراض على أن تقوم الجزيرة بقلب الحقائق وأن تصنع، بطريقة ممنهجة، ماكرة وشرّيرة، الأكاذيب الأكثر قرفا ومقتا.

هكذا فإن عن طريق منطق نيتشه، يمكن أن تبرّر كل التصرفات القبيحة، حتى أكل لحوم البشر، إذا كانت الغاية منها هي تنْمية غريزة الحياة، وتمتين إرادة القوّة. ولا يخجل من قول ذلك، بل يفخر به أشد الفخر: «نحن نميل **مبدئيا** إلى الزعم **بأن أكثر الأحكام خطأ، هي الأكثر لزوما لنا**[6]». وكأن نيتشه يبرّر ما قبليا كل ما تفعله الآن عصابة الإرهابيين القتلة العاملين في الجزيرة: عزمي بشارة، والمذيع أحمد منصور، ومحمد كريشان، وفيصل القاسم، وخديجة بن قنة، وليلى الشايب، وزعيمهم يوسف القرضاوي الذين يبيعون الأخبار الزائفة، والأكاذيب والأوهام، حتى جعلوا من هذه الرذائل خبزهم اليومي. وقد التصقتْ بهم هذه الرذائل إلى حدّ أنهم لا يقدرون على مواصلة العيش دون افتراء وتزوير، فالكذب هو أوكسيجينهم الذي يتنفّسونه يوميا. وها هو نبيّ زرادشت يُفتي لهم أنّ «**مِنْ دون التسليم بالأوهام، ومن دون تزييف مستمرّ للعالم ... قد لا يمكن للإنسان أن يعيش بحيث يكون الاستغناء عن**

6- ما وراء الخير والشر، § 4، ص، 25.

الأحكام الخاطئة استغناءً عن الحياة ونفيا للحياة». إنها أروع جملة يمكن أن يقرأها صُحفيّو الجزيرة. إنها جديرة بأن تُكتَب بماء الذهب على واجهة هذه القناة.

ويزيدهم تبريرا وتحريضا على مواصلة عملهم براحة بال، ودون وخزة ضمير، بقوله: «أن **نُقرّ باللاحقيقة شرطا للحياة** يعني **أن نُبدي مُقاومة ضد** ما اعتدنا عليه من مشاعر قيميّة».

وما المانع من الغرق في وحل الكذب والتمويه والافتراء، ما دامت حياة الإنسان كلها مُنغمسة في هذا المحيط؟ أن ترى إرهابيا قتّالا على شاشة الجزيرة، يذبح شخصا أو يُفجّر نَفسه، لكنهم يُكذّبون حاسة بصرك ويحوّلونه إلى انسان في غاية الوداعة والجمال والروعة والإنسانية، فهذا المنطق القميء ليس بغريب عن نيتشه. هو نفسه يُكذّب الحواس، ويحرّض على تكذيبها. أن ترى شجرة أمامك، فمن المحتمل أنك لا تراها «يسهل علينا أكثر بكثير أن نتوهّم شيئا ما يُشبه شجرة. وحتى أثناء أغرب تجارب العيش نتصرّف على النحو عينه: **نختلق القسم الأكبر من التجربة**[7]».

اختلاق التجربة، يعني بالضرورة اختلاق أخبار زائفة وبثّها للمشاهدين على أنها صحيحة، ونحن نعلم أن ثمة مؤسسة كاملة، في العالم العربي، **مختصّة** في الاختلاق والتزييف وبثّ الأكاذيب بشكل شرس وهمجي لا مثيل له في التاريخ الحديث. الأرواح تعاني من الدمار الذي لحق بها جراء هذا التزوير المقصود الذي شوّه العقول وأودى بحياة الآلاف من الأبرياء. لكن نيتشه لا يمانع، بل يبرر ويضفي مشروعية على هذا الصنف من التزوير: «لا يوجد شيء يمكن أن يجبرنا على أن نشاهد مسارا ما من حيث لا **نبْتَكره** نحن. وكل هذا يعني إننا **مُعوّدون**، من صميمنا فصاعدا ومنذ القديم **على الكذب**[8]».

لكن لا تنزعجوا كثيرا لأن هذا اللاّفيلسوف نفسه هو الذي سيتكفّل بتخفيف حدة كلامه، وسيمارس مرة أخرى، لعبة التزوير المشروع، حيث قام بتحوير الكذّاب إلى فنان؛ وأصبح المرء المعجون في الكذب «فنّانا أكثر بكثير ممّا يُظنّ[9]». لكنه في زرادشت، مُتقمّصا دور نبيّ وكاتب ألواح جديدة، أعلن على هذا الأمر القطعي: «**يجب علينا أن نكذب** (**müssen wir** schon **lügen**)[10]».

7- ن. م، § 192، ص، 137.

8- ن. م، ص، 137.

9- ن. م، ن. ص.

10- **زرادشت**، «عن الشعراء»، ص، 251.

يهجم على المثقفين الصادقين في زمنه، (وقد أصبحوا قلّة الآن في العالم العربي، لأن الأغلبية دخلت تحت عباءة الجزيرة، وانضمّت الى قافلة الإسلاميين الذين هم أكبر كذابين في العالم)، يهجم عليهم ويؤنّبهم لصدقهم؛ يتغبّن أشد الغبن قائلا: «إن مثقّفينا اليوم (unsre Gebildeten von Heute)، هؤلاء الصالحون، **لا يكذبون** (lügen nicht)[11]»، لكن أن „لا يكذبوا"، فهذا لا يُشرّفهم بالمرّة. كان على المثقفين أن يَصطفّوا في طابور قناة الجزيرة، ويكذبوا حتى آخر قطرة من دمهم. هذه ليست دعابة وإنما حقيقة مرّة، يُعبّر عنها نيتشه وكأنه يقصد هذا الرهط من الكذابين ويشجّعهم على المضيّ قدما: «كل مَن يُعدّ اليوم **رجلا صالحا** يعجز عجزا تاما عن تبنّي وجهة نظر أخرى تُجاه أي شيء غير **وجهة النظر الكاذبة** بشكل **ماكر**، بشكل جذري، ولكنها **بريئة وأمينة وعفيفة في كذبها، كاذبة ذات عينين زرقاوين**[12]». وفي النهاية يحذر عصابته من مغبّة **النزاهة** (Redlichkeit)، لأنها ستقودهم حتما إلى «الاشمئزاز **والانتحار** (Ekel und **Selbstmord**)[13]».

(تآ)

لم تَقتصر مراجعاته على الأخلاق والسيكولوجيا، وإنما اقتَحَم مجال العلوم الصحيحة، وهو مجال غريب عنه كلّيا، وليس له فيه أيّ زادٍ مَعرفي، ومع ذلك فقد شنّ حملة على فكرة الذرّة وطالب بالتخلّي عنها لكن دون المساس من فكرة الروح الفردية أو تبنّي مادّية الفيزيائيين المحدثين.]

لا أدري على أي أساس، ومن أي منطلقات موضوعية، يقول إن على المرء أن «يُعلِن الحرب أيضا على الحاجة إلى **الذرّية** (atomistischen Bedürfnisse) التي مازالَت تحيا وتهدّد بأخطارها مجالات لا يرقى إليها الظنّ ... هذا الإيمان يجب أن

11- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، III، § 19، ص، 122. (ترجمة المسكيني، ص، 186).

12- ن. م، ن. ص. أما في ترجمة المسكيني نقرأ: «فليس يناسبهم إلاّ الكذب غير الشريف؛ كل طرف يشعر اليوم بأنه إنسان خيّر هو غير قادر بالكلّية عن أن يرى إلى أمر ما، مهما كان، إلاّ كما إلى أكذوبة غير شريفة، أكذوبة بعيدة الغور، ولكن أكذوبة بريئة، أكذوبة ساذجة، أكذوبة ذات عيون زرقاء أكذوبة فاضلة».

13- **العلم المرح**، § 107، ص، 119.

يُطرد من العلم[14]». تصوروا بأنفسكم، ما حجم الكارثة العلمية التي كنّا سنهوي فيها، لو أن العلماء انساقوا وراء تخمينات نيتشه وعملوا بنصائحه.

لكنه لا يريد، في مقابل ذلك، أن يُعلِن الحرب على المعتقدات القديمة أو التّخلي عن فكرة اسطورية عتيقة، فكرة النفس الفَردية، لأن رفْضها يعني اعْتناق المادية الملحدة: «ليس من الضروري بتاتا، والكلام بيننا، أن نتخلّى بذلك عن "النفس" نفسها أو نتنازل عن واحد من أقدم الفروض وأكثرها وقارا، على غرار ما يحصل عادة للطبيعيّين (der Naturalisten) عن سوء تدبيرهم، إذ ما أن يمسّوا النفس حتى يضيّعوها[15]».

إن عالم نيتشه، ليس هو عالم الطبيعيّين بل عالم سحري، لا قوانين فيه ولا انتظام، وغير قابل للعقلنة أو المعرفة العلمية. فقانون السببيّة، عماد كلِ فهم للكون، يعتبره تصورا باليا غير نافع، وينصح أتباعه بأن لا يُشيّؤوا السبب والمسبّب «كما يُشيّؤهما الباحثون في الطبيعة (Naturforscher) وفقا للبلاهة الميكانيكية السائدة التي تَدع السبب يضغط ويدفع حتى يُسبّب[16]». أن يتخلى العالمُ عن مبدأ السببية، يعني أنه سيترك التجارب المِخبريّة والتقنين الرياضي؛ سيعتزلَ مهمّته في معرفة الطبيعة، سيضطهد عقله ويُجْهز على طموحاته لكي يعيش في عالم سحري. فعلا، ما الشيء الذي يدفع العالم إلى الإقدام على دراسة الطبيعة إذا كان يعلم منذ البداية أنّ أتْعَابه ذاهبة سدى لا مَحالة، وأنه مَهما اجتهد وكدّ في البحث فإن أقصى ما سيحصل عليه هي اصطلاحات وأسماء بلا مرجعية في الواقع، وبالتالي خالية من أية قيمة تفسيريّة. هكذا أفهم أقوال نيتشه اللاعلمية هذه: «على المرء أن يستعمل السّبب والمُسبّب استعمال الأفاهيم المحضة وحسب، أي بوصفها **استيهامات مُجمَع عليها** في سبيل الحدّ والرسم، وليس في سبيل **التفسير**[17]».

عالم سحري، لأنه، على حد قوله: **لا أثر فيه لروابط سببية**، ولا يتضمّن في ذاته أي ضرورة فيزيائية أو منطقية، بل كرتون متحرّك لا يخضع إلى أي قانون؛ المَعْلول فيه لا يصدر عن العلّة، الفعل ليس له ردّ فعل، كل ما نعيشه هو خيالات، ونحن هم الذين

14- **ما وراء الخير والشرّ**، م. س، § 12، ص، 36.

15- ن. م، ن. ص.

16- ن. م، § 21، ص، 46.

17- ن. م، ص، 47. (أعدتُ ترجمة بعض العبارات، لم ألتزم بنص الترجمة العربية).

اختلقنا الأسباب؛ وابتدعنا تَتَالي الحوادث، وارتباط المفعولات بأفعالها، والنسبة، والاكراه، والعدد، والقانون[18]. نَيتشه يثني على عالم وُلْديزناي هذا، ويريد أن يقتلع من رؤوس الناس فكرة العلم الصحيح، ويسحب منهم مفهوم الحقيقة، لكي يُنصّب على أنقاضهما فلسفة تعيش في الخطأ وتَسْعَد به وتَطلبه: وقد استحدث لهذا العالم المُظلم، عالم قناة الجزيرة ومُذيعيها الكذابين، كلمة "**مَغلوطيّة العالم** (Irrthümlichkeit der Welt)"، وأطلق مصْرَاعا من التمجيد لهذه "المَغلوطيّة" العالَمية قائلا إنها «أوثق وأمتن ما يمكن أن يقع تَحت بصرنا[19]».

إنّ صاحب هذه الفكرة القاتلة للعلم، سمح لنفسه بأن يُمرّغ صورة العالم في التراب، لأن لديه فكرة ثابتة، مفادها أن الخداع، بما في ذلك خداع النفس، هَو أمر محمود ومُؤشّر على وثبة حياتية عالية. لكن أنْ تطلبَ الحقيقة بدل الوهم، أنْ تبحث عن صورة حقيقة للعالم، وتطمح للكشف عن قوانين ثابتة تَسير بمقتضاها دواليب الكون، فهذه الطموحات الرفيعة لا تجعل منك إنسانا فاضلا، لأنَك تعزف عن خداع نفسك والآخرين، ولأنك لا تدرك أن الصدق هو مجرد حكم أخلاقي مسبق.

والورقة الرّابحة لتبرير مخزون الخداع هذا، هي الحياة، إذ لو لم يكن الكذب واللاحقيقة والخداع، «لما كان ثمة من حياة البتّة[20]»؛ ليس هناك تضادّ ماهويّ بين الحقيقي والمغلوط، والعالم الذي نعيش فيه هو تَوهّم، واللغة غير قادرة على التعبير عنه ووصفه بدقّة، بل إن قواعد اللغة ذاتها غير مُلزمة، ولا داعي للتقيّد بها واحترامها، ولكلٍّ أن يتصرّف فيها بمذاقه[21]، وهكذا يدخل المرءَ في هاوية لا قرار لها.

نحن هنا حقا في عالم الخداع الدّامس، عالم قناة الجزيرة المُنغمس حتى النخاع في وحَل الأكاذيب والتزوير والتضليل الأشرس والأكثر لا إنسانية. إنّ قليلا من الصدق يقتلهم، شعاعا من نور الحقيقة يعمي أبصارهم لكن، بالنسبة لنيتشه، هذا السلاح لا يفلّ فيهم، لأن الخير والحق والجمال هي فضائل المثاليّين الحالمين، أما الرذيلة فهي ليست حجة مضادة للرذيلة، بل إن الأرواح الشريرة، مثل أرواح مُذيعي قناة الجزيرة، في نظر

18- ن. م. ن. ص.

19- ن. م، § 34، ص، 64.

20- ن. م، ص، 65.

21- ن. م، ص، 66.

نيتشه، هي أرواح فائضة بالقوة، لأن درجة القوة تُقاس بدرجة حاجة الروح إلى أن يُموّه الحقيقة، يسترها، يُحلّيها ويزيّفها[22].

وماذا يفعل مُذيعو قناة الجزيرة؟ ما المهمّة التي أوْكَلتْها لهم الموساد منذ عشرين سنة؟ ألم يُطبّقوا على أرض الواقع نصائح نيتشه (دون أن يقرؤوه طبعا، لكن الموساد قرأته)؟ ألم يَبْرعوا في تضليل عامة الناس، وتمويه الحقيقة، وتزييفها؟ لقد أدخلوا التعاسة في قلوب الشعوب العربية، دمّروا حياتهم، قضوا على آمالهم في العيش الكريم، حوّلوا أبناءهم إلى عبوّات ناسفة؛ زرعوا الإرهاب في كل مكان، فتّتوا أوطانهم، نشروا التّديّن والخرافات والجهل، ولم يتركوا عملا شرّيرا دون أن يقترفوه. نحن ندينهم ونتصدّى لهم، لكن نيتشه لا يُوافق، فهو يذهب ضد التيار ويقول إن المُزوّرين والكذابين والأشرار هم «أوفر حظا في اكتشاف بعض الأجزاء من الحقيقة وأكثر احتمالا في الإفلاح»؛ لا بل إن القسوة والمكر «يشكّلان شروطا أنسب لولادة روح فيلسوف قوي ومستقل، من تلك الطيبة الرقيقة الناعمة السمحاء وفنّ التهوين على النفس».

ومفهوم الفيلسوف عند نيتشه لا يقتصر على المفكّر المحقّق الذي يُنَظّر إلى مسائل فلسفية كونية ويؤلف كُتبا ذات قيمة فكرية عالية، الفيلسوف يمكن أن يكون نيتشه، على سبيل المثال، هو الذي لم يدرس مادة الفلسفة في حياته ولم يتعمق في كتب الفلاسفة، أو محمد كريشان، مذيع الجزيرة الذي يكتب مقالات سطحية تضليلية في القدس اللندنية العَميلة، والذي أتمّ مهمّته في تخريب ليبيا بأكاذيبه. يكفي، في عُرف نيتشه، أن يكون المَرء كذابا، مزوّرا كارها للحقيقة، وبالجملة، أن يكون عميقا لكي يصبح جديرا بلقب فيلسوف، لأن العمق بالنسبة إليه، هو القناع، هو البُرقع: «**إن كل ما هو عميق يحبّ القناع؛ والأشياء الأعمق تمقت حتى الصورة والرمز**[23]».

إنّ قاتل الإله، نيتشه، يثني على الإله، إله الأديان التوحيدية، بسبب هذه الخاصية بالذات، أي التخفي وراء القناع: «أليس حياء الإله هو ما يدفعه بدءً إلى التنكّر في الضدّ؟».

22- bis zu welchem Grade er sie verdünnt, verhüllt, versüsst, verdumpft, verfälscht nötig hätte., Id, J.G.B, par. 39.

23- ن. م، § 40، ص، 70. يقول إنه سؤال جدير بأن يسأل لكن سياق أفكاره، هو إشادة بهذا الجانب من التنكّر والخداع.

(ثآ)

ومثلما عارَض الفيزيائيّين المادّين فقد عارض أيضا المفكرين الأحرار الذين يرغبون في تخليص العقول من خرافات الأديان، ويجتهدون لعتْق البشرية من نَيْر العبودية والاستغلال، ويعملون على نشر مبادئ السلم والأخوّة، يُسمّيهم "دُعاة المساواة (السّواسيّين" die Nivellirer، وهي سُبّة ومَهانة كبرى في قاموس نيتشه.]

فعلا: أنتَ مفكّر حرّ؟ أنت عقلانيّ عدوّ الأساطير وخَصيم الأديان؟ أنت مناهض للاستعمار والعبودية؟ إذن أنت ألدّ أعداء نيتشه. إن أكبر الموبقات التي لم يجرأ عليها أحد في العالم، بالنسبة لشخص مثل نيتشه يتغنّى بالعبودية، ويتحسّر على انقراضها من أوروبا، هي تحقيق العدل والمساواة بين البشر. وبما أن المفكرين الأحرار هم حاملو هذه الهموم الإنسانوية، فإن نيتشه يقذفهم بوابل من الشتائم المقذعة. المفكرون الأحرار، ليسوا مفكّرين ولا أحرارا، ولكنّهم، حسب مُعجمه المقلوب، عبيد مأجورون "(schreibfingrige Sklaven)"، إنّهم مرتزقة «في خدمة الذوق الديمقراطي و"أفكاره الحديثة ("seiner „modernen Idee")"[24]».

لا تكفيه صفة "عبيد" المهينة بل يُصعّد من إهاناته، ويصف المفكرين الأحرار بأنهم غلمان متثاقلون؛ بأنهم سطحيّون إلى حدّ المَسخرة، وبالجملة هم "لا أحرار (*unfrei*)" مهما قالوا عن أنفسهم. وخطيئتهم الكبرى هي تحدّيهم للتراث والاستهانة بنظامه الاجتماعي المبني على التراتب والعبودية، ونيتشه ينعى لحظّهم التعيس ويؤنّبهم على هذا الفصل بالتحديد. إنهم يرون، بكل شجاعة، «في **أنماط المجتمع القديم السابق** سببا لكلّ بؤس وإحباط بشري[25]»، يريدون بناء عالم جديد، على أنقاض العالم العبودي القديم، يَنْعَم فيه الإنسان بالحرية والسعادة والسلم، ويُنمّي قدراته العقلية، ويخلق شخصية صادقة، خدومة، ناكرة لذاتها، محبّة لغيرها. لكن هذه طموحات مجنونة، وبرامج من شأنها أن تقلب الحقيقة رأسا على عقب. ذلك أنّ حقيقة نيتشه تتمثّل في أن كل ما يَصبو إليه هؤلاء اللاّأحرار، هو حديقة حيوانات، ومَرعى لقطيع من الأغبياء المخنّثين؛ لقد نسوا الأمر المهم: **إرادة القوة**. فعلا، برنامجهم «هو سعادة

24- ن. م، § 44، ص، 74.

25- ن. م، ن. ص.

المَرَاتع الخضراء للقطيع كلّه، سعادة خالية من الخَطَر، بل طافحة بالانشراح والأمان وبكلّ ما يُهوّن حياة الجميع[26]».

لقد دأبَ هؤلاء "الأحرار" على ترديد أنشودتيْن (abgesungenen Lieder): «**المُساواة في الحقوق** (Gleichheit der Rechte) **والشفقة على كلّ مَن يتألم** (Mitgefühl für alles Leidende)»، لا بل إنهم وصلوا إلى حدّ اعتبار الآلام شيئا «**يجب إلغاؤه**».

وما العيب في هذين المبدأين؟ ما الضّير في تشريع قوانين مساوية للجميع؟ ومن الذي يجرأ على الاعتراض ضد الشفقة على المتألمين؟ ومن هو الطبيب الذي يقوم بعمليّة جراحية دون أن يُبنِّج المريض للتخفيف من حدة أَلَمِه؟ إلاّ نيتشه، نبيّ زرادشت، لأن هذا الرجل هو دموي شيطاني، هو صديق لكل سفّاح اجرامي وحشي عدوّ للبشرية؛ هو من صنف وجدي غنيم، وكل الوحوش التي رأيناها في هذه العشرية التعيسة جدا.

لكنني لم أبتدعه من خاطري أو أستنتجه من فراغ، بل حسبك مواصلة الفقرة التي أنا بصددها، حتى تقرأ هذه الفظاعات. أن يكون من السفاحين، يقوله هو نفسه: «**نحن المعاكسون**»، نعرف كيف نَعِمت البشرية بأقوى نموّ نحو الأعلى: «في **القسوة** (Härte)، **والعنف** (Gewaltsamkeit)، **والعبوديّة** (Sklaverei)، و**الخطر** (Gefahr)، **والسِرّيّة** (Verborgenheit)، وكل **شرّ** (Böse)، **مُرعب** (Furchtbare) **ومستبدّ** (Tyrannische)، وكل ما يشبه **الأفاعي والضواري** في الإنسان».

ويتباهى بوجوده في هذه الضفة مع أبشع مخلوقات الله، ويزيد في قهر القارئ، الذي يعرف أن لقب مفكر حرّ، يُطلَق دائما على المفكر العقلاني الملحد، الإنسانوي التنويري، لا على دراكولا. لكن نيتشه يريد أن يكون من صنف دراكولا، ويتملّص من المفكرين الأحرار باللغات الثلاث (الفرنسية والإيطالية والألمانية[27]): «أقول: إننا شيء مغاير للمفكرين الأحرار لل (Libres penseurs)، وال (Liberi pensatori)

26- ن. م، ن. ص.

27- السيد علي المصباحي، مترجم زرادشت وكتب أخرى لنيتشه، أخطأ حينما استشهد بهذا المقطع، قائلا إن «العبارة واردة بالفرنسية واللاتينية في النص». ليس هناك عبارة (Liberi pensatori) "مفكر حرّ" باللاتينية والمفهوم نفسه غير موجود، بل هذه العبارة هي بالإيطالية. وهذا دليل على أن المترجمين العرب غالبا ما يسهون، ولا يتثبتون من دقائق النصوص التي يترجمونها.

والـ (Freidenker)، وللألقاب التي تروق لكلّ محبّذي الأفكار الحديثة[28]». لماذا لم يقل بأنه كاثوليكي ويصرّح بتماهيه مع السّيلاّبوس (Syllabus) البابوي الذي كُتب خصيصا لمحاربة الحداثة، وتَكْفير الفلاسفة والاشتراكيّين؟ لكي لا يفقد ماء وجهه أمام أصحابه وحَفنة قرّائه.

(جآ)

اتّهم الفلاسفة الألمان بأنهم لاهوتيّون مُقنّعون، لكن تصوّره هو للدين ومكانته في المجتمع لا يقلّ عنهم لاهوتية، هذا إن لم يكن رجعيا بالكامل.]

فهو ككل الرجعيين يعيب على الإنسان الحديث، لامبالاته بالرموز المسيحية «لم يعد يشعر بالمبالغة المرعبة التي انطوت عليها مفارقة "الإله المصلوب" بالنسبة إلى الإنسان القديم وذوقه[29]». ثمة في هذا التصوّر قلب للقيم ليس له مثيل. لكن المفاجأة هي أن القضية اختزلها في مسألة شرق / غرب، وأرجع الاختلافات الدينية إلى اختلافات جغرافية وعرقيّة. قال إن الإيمان المسيحي فيه ملامح تقوى فينيقية، وبالتالي فإن هذا العنصر الشرقي قَلب القيم بالمعنى السلبيّ للكلمة، ومعلو م أن المعنى السلبي لقلب القيم بالنسبة لنيتشه هو ثورة العبيد ضد الأسياد. وقد جاءت تلك الثورة من الشرق، نيتشه هو الذي يشير إلى ذلك علنا: «إنه الشرق، الشرق السحيق، إنه **العبد الشرقي**، ذاك الذي يَثأر من روما ومن تسامحها النبيل[30]». فالمسألة لا تتعلق بالدين في حد ذاته أو بالإيمان الخرافي، بل بثورة العبيد وتحرّرهم من الأسياد، وباستتباعاتها التي أدّت إلى «التنصّل من الإيمان، أي الاستهتار نصف الرواقي المبتسم الذي لا يبالي بجدّية الإيمان[31]».

ونظرا إلى أن عدوّه اللدود هو العبد، وأكثر ما ينفره هو تحرّر العبيد، فقد خَتَم الفقرة 46، من **ما وراء الخير والشر**، بطعنة فظيعة في الثورة الفرنسية (französischen Revolution) لأن معها «**بدأت آخر انتفاضة للعبيد (letzten grossen Sklaven-Aufstandes)**».

28- **ما وراء الخير والشرّ**، ن. م، § 44، ص، 75.

29- ن. م، §، 46، ص، 79.

30- ن. م، ن. ص.

31- ن. م، ص، 80.

وحينما أراد أن يتحدّث عن الاختلافات الدينية في أوروبا أرجعها إلى عوامل عرقيّة (لاتينيّين / جرمان)، وجغرافية شمال / جنوب. قال إن الأعراق اللاتينية أكثر استبطانا وتعلّقا بكاثوليّتها منّا نحن أهل الشمال؛ ما هي النتيجة التي استخلصها من هذه الموقعة العرقية الجغرافية؟ أنّ للإلحاد (الزندقة، الكفر "der Unglaube") في البلدان الكاثوليكية دلالة مختلفة كليا عن دلالته في البلاد البروتستانتية. ومرة أخرى يتموقع هذا الاختلاف في الدلالة، في ميدان العرق: الإلحاد في البلاد الكاثوليكية هو «ضَرْبٌ من التمرّد على روح العرق (gegen den Geist der Rasse)»، بينما عند شعوب الشمال هو «عودة إلى روح العرق (Rückkehr zum Geist der Rasse)[32]». ثم دخل في المسألة بأكثر تعمق وقال: «نحن الشماليون نتحدّر من أعراق بربرية، والأمر نفسه بالنظر إلى مَوهبتنا للدين: مَلَكَتنا بصدده رديئة»، لكنه أشفق على السلتيّين (ويقصد بهم الإنجليز)، فاستثناهم من هذه الميزة وألحقهم بالجنوبيّين: «يمكن استثناء السّلتيّين الذين كانوا أصلح تربة لتلقّي عدوى المسيحية في الشمال[33]».

أما فرنسا الكاثوليكية فحدّث ولا حرج. لم يعتمد هنا العرق فقط، بل أدخل حتى عامل المناخ، وعامل أشعة الشمس لقَوْلَبَة مَسيحيّتهم، فهاهنا سيَبْلغ المثال المسيحي ذروة ازدهاره «بقدر ما سمحت بذلك **شمس الشمال الباهتة**». وبما أن أشعة الشمس تختلف من فرنسا إلى ألمانيا فقد نتج عن هذا الاختلاف الشُّعاعي تمايز في التّديّن: «كم هو غريب عن ذوقنا ذاك الورع الذي يُزيّن حتى آخر الرّيبيّين الفرنسيين إنْ سرى في عروقهم قليل من الدم السّلتي». وإذا كان ذلك كذلك، ونيتشه متيقّن من حذلقاته العنصرية هذه، فإن النتائج المفجعة تنهمر تباعا، والكلّ مُحلّى، كالعادة، بمخزون الاحتقار والشتائم، والنزعة العرقية البغيضة: «يا للرائحة الكاثوليكية **اللاّألمانية** (***undeutsch***) التي نشمّها في سوسيولوجيا أوغست كومت **ومَنطقه الروماني في الفطرة** (römischen Logik der Instinkte)! كم هو يسوعي سانت بوف (Sainte-Beuve)، رغم كل عدائه لليسوعية! ... كم تقع غريبة وممتنعة على أسماعنا، **نحن قاطني بلاد الشمال**[34]».

32- ن. م، §، 48، ص، 82.

33- ن. م، ص، 82.

34- ن. م، ص، 82 83.

لقد أعجبتْ هذه التخريجات الطائفيّة ألفريد باوملر (A. Baeumler)، واحد من "فلاسفة" النازية، ورأى فيها معاداة للرومانية وليس للدين في حد ذاته، وأن وراء هجوم نيتشه على المسيحية، يختفي ليس المفكرون الأحرار بل قناع سيغفريد لفاغنر[35]. إنها الوثنية الشمالية؛ العُمق الشاسع والمُظلم الذي ينبثق منه المحارب الشّهم ضد أوروبا المسيحية المُسالمة. فهو يرى بالتحديد في الأعراق اللاتينية تجذّر هذا النوع من المسيحية الضعيفة، ويعتبر نقصان الإيمان عند الأقوام الكاثوليكية دليل انتفاضة ضد روح العرق، بينما عند الألمان الشماليين هو عودة إلى روح (أو لا روح) العرق.

وباوملر يشرح كلمة (**لا رُوح**) التي وضعها نيتشه بين قوسين، ويقول إنه يجب حملها على محمل الجد. نيتشه يريد أن يقول إننا، نحن سكان الشمال، بالمقارنة مع سكان البلدان التي تمّت رَوْمَنَتَها، برابرة حقا (wirklich Barbaren seien). وبأي قوة يَغلي دم نيتشه البربري أمام اللهجة الحلوة لرينان؛ وكيف يكتشف للتوّ روحنا الأقل حُسنا والأكثر شدّة، أي روحنا الألمانية! (deutschere Seele)[36].

وهكذا فإن المسألة الدينية تحوّلت عند نيتشه إلى مسألة عرقية ومُناخيّة، وكذلك فهمها باوملر، ولم يخطئ إطلاقا، لأن نيتشه يتهرّب دائما من مجابهة الاشكالات الفلسفية بجدّية وكفاءة ليُلحقها بالمسألة العرقية. إن السّقم الذي أصاب الإرادة، يقول باوملر، قد انتشر بسبب المسيحية، وتمظهر، بضروب متعددة ومتفاوتة من القوة هكذا يواصل الأفوريزما 208 من نفس المؤلّف حيثما استقرّت الحضارة وسادت ثقافة السلم؛ وهذا ما تحقق في فرنسا الحديثة، إذ أن الإرادة فيها مصابة بمرض عضال، نظرا لبُعدها عن البربرية الشمالية (nordischen Barbarentum)[37].

(حآ)

وقد فسّر انتشار ظاهرة الإلحاد في العالم الحديث، بانعدام العبودية التي كانت توفّر متاعب الحياة اليومية على الأسياد وتترك لهم وسْعا من الوقت للتأمل والاعتناء بالروحانيات. والغريب في الأمر أنه يأسف لهذا الانحطاط الأوروبي، الذي جعل الناس يتخلون عن ارتياد دور العبادة، كما كان عليه الحال في السابق.]

35-A. Baeumler, Nietzsche der Philosoph und Politiker, dritte Auflage, Philip Reclam, Leipzig 1931, p. 103.

36- *Ibid*., p. 104.

37- *Ibid*em.

فعلا المحدثون منصرفون كليا للشغل، ومخاطر هذا الانصراف «يربيّ ويُهيّئ أكثر من أي شيء آخر **للكفر** (Unglauben) بعينه[38]».

وهكذا فإن الشّغل، في عرف محطّم الأديان، هو لعنة، لأنه يُثني الناس عن الذكر والصلاة، ويصرفهم عن العبادة. ولا تظنّوا أنه يصف بتجرّد وموضوعية واقعا عينيا دون اتخاذ موقف محدد، بل إنه يدين ويشجب، ويعيب على معاصريه جرأتهم على الاستهانة بالمقدسات (نفس الأنشودة التي يردّدها اليوم الإسلاميون). وهذا النص يُبدّد كل الشكوك بخصوص هذه المسألة، ويُثبت قطعا أن أقواله تنمّ عن معارضة صريحة للإلحاد وتنديد شديد اللهجة بالمفكرين الأحرار على وجه الخصوص: «في صفوف الذين يعيشون اليوم في ألمانيا مثلا، بعيدا عن الدين، أجد أناسا من ذوي **الفكر الحر** (Freidenkerei) . . . في غالبيّتهم من ذاك النوع الذي **أذيبتْ فيه الفطرة الدينية**، من جرّاء الانشغال بالعمل[39]». وهذه هي الطامة الكبرى على الدين، ذلك أن الانسان الشغيل «**لم يعد يعرف فائدة الأديان**»، لا بل الأدهى هو أن المفكر الحر الشغيل، يتعجّب من بقاء هذه الأديان وتواصلها في الوجود حتى عصرنا الحاضر، أو بعبارات نيتشه: «صار يكتفي بتسجيل وجودها في العالم **بنوع من الذهول** البليد».

لقد استهان المفكرون الأحرار بالعادات القديمة، واستعاضوا عن الصلاة والتسبيح وارتياد الكنيسة بما توفره لهم مشاغل الحياة اليومية، وبمعايير ثقافية جديدة، استبدلوا بها ما كان يستفرد به الدين. ويتراءى لهؤلاء الناس الطيبين أن لديهم «أشغالا كافية، عملا أو تسلية، ناهيك عن الوطن والجرائد والواجبات العائلية: ويبدو أنْ لا وقت لديهم البتة للدين». أناس مدنّسون لا يُوقّرون التراث ولا العبادات ولا أماكن التعبد، نيتشه يُسجّل هذا الازدراء بالمقدسات، بكل تحسّر «من المستحيل، على حد قولهم، أن يدخل المرء الكنيسة من أجل أن يُعكّر مزاجه الجيّد لا غير[40]».

لا بد له إذن من أن يتبرّأ من هؤلاء الملاحدة المدنّسين، وأن يفضح كل الأشخاص الذين تجرؤوا على الانسلاخ من الدين، ويشير لهم بالإصبع: «إلى هؤلاء اللاّمبالين تنتمي **أكثرية الفئات المتوسطة** من البروتستانت وبخاصة في **مراكز التجارة والمواصلات**

38- **ما وراء الخير والشرّ**، § 58، ص، 90.

39- *Ibid*em., „die religiösen Instinkte aufgelöst hat“

40- **ما وراء الخير والشرّ**، ن. م، § 58، ص، 91.

الكبرى النابضة؛ وكذلك **أكثرية العلماء** المنهمكين في العمل». وكأني هنا لا أقرأ لفيلسوف بل لشيخ أزهري، حاقد على العلمانيين وناقم حتى الموت على الحداثة.

وليس من سبيل الصدفة أنه جعل من ألدّ أعداءه الأساتذة (أساتذة الفلسفة) والعلماء: من الصعب أن تعثر على عالم ألماني يحمل مشكلة الدين محمل الجد؛ فهو من حيث المبدأ «**مُترفّع عن الدين**[41]»؛ بل يزدريه ويحتقر كل من يُعلن انتماءه إلى الكنيسة؛ العالم لا يقوم بأي خطوة نحو الكنيسة أو اقتراب من المؤمنين «إن اللامبالاة العملية إزاء أَمَور الدين التي نشأ وتربّى عليها، تتسامى عنده عادة إلى حيطة ونظافة تخشيان الاختلاط بأناس متديّنين وبأمور الدين[42]».

استنتاج نيتشه هو أنّ تَصرُّف العلماء والمفكرين الأحرار إزاء الدين والمتديّنين هو تصرّف خاطئ، بل ساذج جدا وصبياني وأبْله: «كم من السذاجة، كم من السذاجة الصبيانية، البَلهَاء بلا حدود، تكمن في إيمان العالم بتفوّقه وفي راحة ضمير تسامحه، وفي الثقة البسيطة الطيبة التي بها تُعامِل فطرَتُه الانسانَ المتديّنَ بوصفه طرازا أوضع وأقل قيمة، طرازا تخطّاه وابتعد عنه وترَفّع[43]».

المسلم إذا صادف عالما من هذا القبيل، سيعاديه فورا، سيَسبّه، ويشتمه ويُكفّره هذا إن لم يتوعّده بالقتل، أما نيتشه فقد اكتفى بالتحقير والشتم المُقذع. هذا الفيلسوف المترفّع على المتديّنين، ماذا يعتقد في نفسه؟ يحسب نفسه كبيرا وشامخا «هو، القزم والسوقي الصغير المدّعي، هو الشغيل المُتفاني العجول، المنشغل، رأسا ويدا، بالأفكار، بالأفكار الحديثة[44]».

وبسبب عشقه للظاهر ولكل ما هو زائف، ونظرا لرُعبه الدفين من الحقيقة والحكمة، فهو مستعدّ لامتداح الإنسان المتديّن الذي يعيش في عالم سحري، **مخادع**، وكاذب، على حساب المفكر الحداثوي التنويري. قناعته هذه يسمّيها حكمة (*Weisheit*)، سَعْي البشر إلى السطحية (*oberflächlich*)، ويرجعها إلى فطرة البقاء التي تُعلّم الناس أن يكونوا مُتحوّلين ومُزيّفيَّن (falsch)[45]. كلّما كان الإنسان فنّانا، كلما زادت متعته

41- ن. م، ص، 91.

42- ن. م، ص، 92.

43- ن. م. ن. ص.

44- ن. م، ن. ص.

45- ن. م، § 59، ص، 92.

بالحياة، وكلّما زادت مُتعته بالحياة تصاعد شَغفه «بتزييف صورتها ... برؤية صورتها مُزيّفة و**مخففة** ومُتعالية ومُؤلّهة».

كل هذا المدح للتزييف غايته الوصول إلى النتيجة التالية: وهي أن المتديّنين تتجسد فيهم صورة الفنان في أرقى أشكالها: «يُمكن حُسبان الناس المؤمنين (*homines religiosi*) من بين الفنانين بوصفهم أعلاهم مرتبة[46]».

وهكذا، مع نيتشه، تحوّل الإنسانُ المؤمنُ، الذي يعيش في عالم أسطوري، خرافي، مشوّه، يُصرّف فيه جنونه وأكاذيبه كما يشاء؛ هذا الانسان الذي يُعنّف عقله ويخدع أمثاله عن قصد، تحوّل، بضربة سحرية، إلى حامل لمشعل الإنسانية المتقدمة، بل يبوّؤه **أعلى مرتبة** (höchsten Rang). ولا يَنفكّ النيتشويّون عن الإشادة بَمعبُودهم، وامتداحه عن ثورته ضد الدين، رغم أن نصوصه، تُثبت العكس. فهو يثني على التأويل الديني للوجود، تصوّروا، **التأويل الديني** (*religiöse Interpretation*)، الذي عارضه الفلاسفة طوال تاريخهم، وراح العلماء ضحيّته، وها إن نيتشه يَرجع بنا إلى الوراء ويَدُسّ خلسة مَشروعيّة التفسير الديني للوجود. المهمّ ألاّ يَصل الإنسان إلى معرفة الواقع في ذاته، ألاّ يعلم شيئا عن قوانين الطبيعة، أي بعبارة نيتشه ألا يُدرك أيّ حقيقة في حياته.

وإذا كان ذلك كذلك فإن التبتّل والحياة في الله (**Leben in Gott**)، هما بمثابة «النتاج الأخير والأرفع **للخوف من الحقيقة**، وبمثابة تعبّد الفنّان وسَكْرَته أمام أكثر **التّزييفات اتّساقا**، وبمثابة **إرادة قلب الحقيقة** وإرادة **اللاحقيقة** بأيّ ثمن».

قد يعترض النيتشوي، **مجددا**، بأن هذه **مجرّد** وصف لحالة موضوعية، دون اتخاذ أي حكم قيمة، أو تغليب طرف على آخر. لكن نيتشه نفسه هو الذي يقوّض هذا الاعتراض؛ هو نفسه الذي يُثني على هذا الصنف من الإنسان المتدين الفنان، ويقول «إننا لن نصادف حتى الآن أيّ وسيلة أقوى من **التبتّل ذاك لتجميل الانسان نفسه**: به يمكن للإنسان أنْ يستحيل إلى فنّ وسطح ورفق وسراب مُلوّن، بحيث لا يعود منظره يثير الألم[47]».

46- ن. م، ص، 93.

47- ن. م، ص، 93.

نيتشه نفسه هو الذي تكفّل بتكذيب أتباعه، وتسفيه أحلام كلّ من تعلّق به متوهّما أنه المُخلّص من أغلال الدين والمحرّر من أسر الخرافات. كلا! الدين لن يختفي أبدا، ولا يجب أن يختفي من حياة البشر. هذا هو ردّ نيتشه، رد صريح، رجعي متخلّف، عاد بنا إلى ما قبل عصر التنوير، وإلى أحلك عهود القرون الوسطى. يريد أن يُلقي على كاهل الفيلسوف مهمّة مهترئة وأن يَقبَل عنوة بما يُنافي طبيعته ويتضارب مع مبادئه، أي أن يستعمل الأديان «**لأجل عمَله التأديبي والتربوي**[48]».

وماذا يطلب الإسلاميون اليوم؟ اقرؤوا أدبيّاتهم فلن تجدوا أي تباين في المواقف وفي الأهداف بينهم وبين ما يدعو إليه نيتشه. العلمانيون يُطالبون بإبعاد الدين عن التعليم، والإسلاميون يَفتحون مدارس قرآنية، والدول الرجعيَّة تُموّل هذه المدارس التي يديرها المتطرّفون، وينثرون فيها كل نفاياتهم الفكرية.

ولكن نيتشه يتجاوز الوهابي، فهو يريد أن يوكّل هذه المهمة للفيلسوف، فيلسوف المستقبل، من أجل المنافع الجَمّة التي « **يمكن تحقيقها بواسطة الأديان**[49]».

(خآ)

ولكي يَبْنِي، على أساس مَتين، رأيه القائل بأن الأديان فيها منافع كبيرة للناس، طبّق مبدأه العنصري الثابت: توزيع الأدوار والتركيز على التقسيم الهرمي «بحسب أنواع البشر التي توضع تحت وصاية الدّين ومظلّته». في أعلى مَرتَبة يأتي الأسياد «المَجْبُولون على الأمر والنهي»، وبعدهم الطبقة الوسطى وأخيرا تأتي الطبقة الشغيلة].

وماذا يفعل الأسياد بالدين؟ معلوم أن الأسياد والمستبدين، رغم أنهم يحتقرون الدين والعامة والشيوخ، فإنهم يُوظفونه لأغراض السيطرة على عقول الناس وتركهم في حالة عبودية وجهل. والفلاسفة منذ القديم يحاولون معارضة هذا المنحى الظلامي وكشف

48- **ما وراء الخير والشرّ**، ن. م، § 61، ص، 94. «الدين في يد الفلاسفة: إن الفيلسوف، كما نفهمه، نحن الأرواح الحرة، بوصفه الإنسان الذي يتحمّل المسؤولية الأشمل ويحمل همّ مجمل»

Der Philosoph, wie wir ihn verstehen, wir freien Geister – als der Mensch der umfänglichsten,, Verantwortlichkeit, der das Gewissen für die Gesammt-Entwicklung des Menschen hat: dieser Philosoph wird sich der Religionen zu seinem Züchtungs – und Erziehungswerke bedienen, wie er sich der jeweiligen politischen und wirthschaftlichen Zustände

49- ن. م، ن. ص.

ألاعيب السلطة المتحالفة مع الدين، لكن نيتشه، يريد أن يعود بنا إلى الوراء، ويقول إن هؤلاء العظماء الذين يتجسّد فيهم «عقل العرق الحاكم وفنّه، سيكون الدين خير وسيلة لتجاوز العوائق وتحقيق **إمكان السيطرة**: بوصفه **رابطة تربط** الأسياد والأتباع معا».

وليس السيطرة فقط، بل التّلصّص على الأشخاص والتّفتيش في ضمائرهم، يعني أنّ الدين أفيون وفي نفس الوقت آلة للتجسس على الناس، نيتشه يقول هذا صراحة، بينما الوهابي يمارسه من زمان، حيث يترصّد المُطوّعة تحرّكات الناس ويراقبون من يصلي ومن لا يصلي، من يُطيع الحاكم ومن يخرجِ عن سلطته. الدين هو رابطة، يقول نيتشه، تكشف عن ضمائر المحكومين «أي عن كوامِنهم ودواخلهم التي ترغب في التملّص من الانصياع لأولئك وتُسلّمهم إياها».

بالإضافة إلى التلصّص على حياة الناس الشخصية والنّبش في ضمائرهم، يُوفّر الدين لبعض الأشخاص الرفيعين، الذين شبعوا من ملذات الدنيا ومن الأمر والنهي، حياةً أكثر تزهّدا وتأملا. إن نيتشه هنا يُعطينا صورة حيّة لما يفعله بعض الحكّام وصُنّاع القرار الذين تسببوا في فتنة أحرقت العالم العربي وأدخلته في فوضى لا يعلم نهايتها إلاّ الله. و"أعظم" إنجاز قاموا به في حياتهم هو أنهم دمّروا ليبيا، وفتّتوها إربا إربا، وحوّلوها إلى معسكر كبير للإرهابيّين؛ نهبوا ثرواتها وقتلوا عُشر سكانها. ثم بعد أن شَبعوا من لحوم الليبيين وارتووا من دمائهم، انزَوَوا في المساجد، متفرّغين للعبادة، يتلَذذون باستذكار إنجازاتهم العظمى، لكن دون أن يعتزلوا كلّيا الأمر والنهي، فهم يواصلون ممارسته على أتباعهم المقرّبين وقنواتهم التلفزية.

وأرستقراطية نيتشه أيضا، بعد مباشرة الحكم بنفسها، تعتزل العالم، لا لكي تفرّط في سلطة الأمر والنهي، فهذه من جوهر طباعها، لكنها تواصل في ممارستها بتوسّط أتباع ومريدين أوفياء: «تحتفظ لنفسها فقط بأرفع نوع من السيطرة (على حواريّين وإخوان مختارين)». ويأتي الدين هنا كوسيلة «لتأمين الصّفاء الذي يَقيها القذارة الملازمة ضرورة لكل شؤون السياسة ومزاولتها[50]».

بماذا تُذكّرنا هذه الطبقة؟ ألا تذكّرنا بطبقة الملالي الشيعة، في إيران والعراق، الذين لا يمارسون مباشرة السياسة ولكنهم يُعيّنون الحكّام، ويُراقبون تحركاتهم ويُسيّرونهم كالبيادق؟ أليسوا أصحاب العمائم من قبيل السيستاني والصّدر وخامنائي الذين لا

50- ما وراء الخير والشرّ، § 61، ص، 94.

يَتّخذ الحاكم قرارا دون أن يصادقوا عليه مسبقا، وهم مُتربّعون في "حُسينيّاتهم" ينعمون بالعيش الهنيء، ويَصرفون وقت فراغهم في الركوع واللّطم؟

ولم يتنبّأ نيتشه بالتحوّل الفظيع الذي ستشهدته إيران (والعراق) في القرن العشرين، ولكن بافتراض أنه كان حيا وشهد هذه الكارثة، من المحتمل جدا أنه سيؤيّدها ويباركها، كما باركها تلميذه ميشيل فوكو. نيتشه يعرف هذا الصنف من الملالي، تحت اسم البراهمة، الذين «**من خلال تنظيم ديني خوّلوا لأنفسهم السلطة لتعيين الملوك على الشعب، في حين أنهم مكثوا بعيدا وخارجا، وأحسوا أنفسهم كذلك، بوصفهم أناسا لهم مهام أسمى تفوق حتى مهام الملوك**[51]».

بعد النبلاء التفتَ نيتشه إلى أفراد الطبقة الوسطى، ووعدهم بمستقبل زاهر يستطيعون فيه امتلاك السلطة، ولن يتسنّى لهم ذلك إلاّ عن طريق الدين. ونيتشه لا يصف حالا واقعيّة، وإنما يُقيِّم ويقترح. يقول إن الدين يُعطي لقسم مُختار من المَحكومين إرشادات ومناسبة «كي يستعدّوا لتولّي الحكم والأمر ذات يوم، وتحديدا لتلك الطبقات والفئات المتصاعدة شيئا فشيئا، التي نصادف فيها، بفضل عادات زوجية سعيدة، قوة الإرادة ولذّتها». لهذه الفئة يقدّم الدين «حوافز وإغراءات عديدة لانتهاج الدروب المؤدية إلى روحيّة عليا ولاختبار مشاعر الصمت والوحدة والتجاوز الكبير للذات[52]».

ويبقى التديّن، على كل حال، عاملا محوريا لا غنى عنه في حياة أي طبقة من طبقات المجتمع، المطلوب من هذه الطبقة الصاعدة الهجينة أن تُطهّر نفسها وتمحي تدريجيا تاريخها العِرْقِي الوضيع. وها أن الفيلسوف الذي صدّع رؤوسنا بنقد المثل الزهدي والسخرية من حياة الطُّهْر والتبتّل، يطلب الزهد والتطهّر (*Asketismus* und *Puritanismus*) الديني كضرورة لتربية النفس: «**الزهد والتطهّر** يكادان أن يَكُونا وسائل لا غنى عنها للتربية والتهذيب، إنْ أراد عرق ما أنْ يتغلّب على أصله ونسبه الرّعاعي ويرتقي إلى تولّي مقاليد السلطة في يوم من الأيام». لا يهمه ولا يقلقه أن يُستخدم الدين في الشؤون السياسية، أو الزج به في ميدان التربية والتّعليم.

هل ثمة استعمالات أخرى للدين في السياسة والتربية؟ أجل، ثمة استخدام، وهذه المرة فإنه بمثابة أفيون بأتمّ معنى الكلمة، بل سمّ قاتل للعقول واضطهاد فظيع

51- ن. م، ص، 95.

52- **ما وراء الخير والشرّ**، § 61، ص، 95.

للأرواح والأجساد على مدى العصور. ونيتشه يقصد بالتحديد الطبقة الشعبية، أي السواد الأعظم من الناس، حيث أفرز كل ما عنده من خطابة، وأخرج من جعبته كل الفظاعات التي يمكن أن نتخيّلها، لكي يُضفي مشروعية على أفيون الدين. فهو يثني على هذا المُخدّر الجماعي ويقول إن الدين، بالنسبة لهذه الطبقة الوضيعة، الموجودة لخدمة الأسياد، والمسموح لها بالوجود فقط لهذه الغاية: «يَمدّهم برضى عن وضعهم وعرقهم لا يُقدّر بثمن، بسلام مضاعف في القلب، بإعلاء لشأن انصياعهم، بسعادة وآلام جديدة يشاطرونها أمثالهم، بنوع من التسامي والتزيين، بنوع من التبرير لكل الحياة اليومية، لكل الدّعة، لكل البؤس نصف البهيمي الذي في نفوسهم».

المفروض أن يَقلق المفكر الواعي من حالة البؤس التي يرزح تحتها عامة الناس، وأن يبحث عن حلول عملية لتخليصهم منها، ويُقدّم الدواء لشفاء العقول والأجساد، لكن نيتشه، يقدّم لهم الأفيون. يقول ذلك جهارا «إن **الدين** وأهمية **الحياة الدينية** يُضفيان بريقا نيّرا على أولئك البشر المُعذّبين أبدا ويُمكّنانهم من تحمّل منظرهم الخاص... إنه يُنعش ويصقل ويستغلّ الآلام، بل إنه يُبرّرها آخر الأمر أيضا».

وهكذا فإن فيلسوف "موت الله"، يَعرض علينا تفاهاته وتخميناته الرجعية العنصرية، وكأنها أفكار جديدة وثورية، بينما هي متأصّلة في جوهر الفكر اللاهوتي الكنسي عبر العصور. ليس هناك من دين أو ملة لا يريد كهَنَتها وشيوخها امتلاك السلطة والمال، والاستحواذ على الأرواح والأجساد.

كم نحن بعيدون عن الفلاسفة، فلاسفة بجد، الذين وقفوا أمام الدين وحاولوا استئصال مفعوله التدميري على الطبقات الشعبية. الرجل الذي يعتبرونه مُحطّم المسيحية، يُكذّبهم جهارا، ويُعْلن لهم أن المسيحية هي أجمل وأحْلى أفيون في العالم، وأنه يَجب أن تُحمَد على الخدمة الجليلة التي تؤديها للسلطة. لا يوجد في المسيحية أمر أكثر مَهابة من فنّها «**في تعليم حتى أوضع إنسان كيف يضع نفسه، بفضل التبتّل، ضمن نظام للأشياء ظاهري وسامق، وكيف يتعلّق تاليا بالرضى عن النظام الفعلي الذي يعيش فيه حياة قاسية جدا. هذه القسوة بالذات تلزم هنا!**[53]».

الدين، والأفيون، الطغيان، والقسوة والاضطهاد؛ عدم الاكتراث بمعاناة البروليتاريا، حقنهم بالمخدرات، هذه هي الوصفة التي ينصح بها نيتشه الحكام

53- ن. م، ص، 96.

والمحكومين. فهو يريد أن يؤبّد وضعية مهينة للبشر، بينما الفلاسفة عبر التاريخ يريدون انتشالهم منها والنهوض بوعيهم.

في رسالة إلى فيورباخ، يبتهج كارل ماركس بتحرّر البروليتاريا الفرنسية من أسر الدين ويقول: إنه لأمر غريب ملاحظة أن التديّن منتشر بين الطبقة الوسطى والعليا، بينما اللاّتديّن الخاص بالإنسانية التي تشعر بأنها كذلك متغلغل في صفوف البروليتاريا الفرنسية. كان ينبغي عليك حضور اجتماع للعمّال الفرنسيين لرؤية النضارة الأصيلة، والنبل الذي يفوح من هؤلاء الرجال الذين مَعَسَهم العمل ... على أية حال، التاريخ يُهيئ، على أيدي "برابرة" مجتمعنا المتحضّر، العنصر العملي لتحرّر الإنسانية[54].

وأظن أن هذه البروليتاريا اللامُتدَيّنة التي عاينها ماركس بنفسه في فرنسا، بينما كانت قليلة أو معدومة في ألمانيا، كما يشير في هذه الرسالة إلى فيورباخ، كان قد هيّأ لها نظريّا رجال من أمثال بيار بايل وفولتير وفريريه والبارون دوباخ. فهم لم يمضغوا الكلمات، ولم يُراوغوا وإنما صارحوا الناس بأن سبب بلاءهم هو الدين، وأن عدوّهم الأكبر هو ذاك الإله اللاعقلاني الذي يؤمنون به، ويقدّمون له أجسادهم وعقولهم كقُربان. فالمعتقدات الدينية، كما يقول دولباخ، بعيدا عن مواساة البشر من المصائب الملتصقة بحياتهم، جلبت لهم الاضطراب النفسي، وسبّبت لهم حماقات مدمرة لوجودهم ذاته[55]. كيف يمكن للعقل البشري، المصاب بجرثومة أشباح مرعبة، والموجَّه من طرف أناس مهتمّين بإدامة جهله ومخاوفه، أن يُحرز بعض التقدم؟ لقد أجبروا الإنسان على أن يستقرّ كالنّبْتة في غباءه البدائي، لم يشغلوه إلاّ بقوى خفيّة يُعتقد أن مصيره مُعلّق بها. كان مهووسا فقط بأرواح وأوهام لا يمكنه فهمها، وهكذا بقي دائما تحت رحمة كهنة، احتفظوا لأنفسهم بحق التفكير بدلا منه وهداية سلوكه.

هكذا كان الإنسان، وهكذا مكث دائما طفلا بلا خبرة، عبدا جَبانا، غبيّا يخشى التفكير، وما كان بإمكانه الخروج من المتاهة التي كان قد أولجه فيها أسلافه: اضطرّوه إلى التأوّه تحت نير الآلهة، التي كان لا يعرفها إلاّ من خلال الحكايات الوهمية لأنبيائه. هؤلاء، بعد أن قيّدوه بسلاسل الخرافات، مارسوا عليه سلطتهم، أو سلّموه، من دون

54- Lettera di K. Marx a Feuerbach (11 agosto 1844), in K. MARX, Sulla religione, La Nuova Italia, Milano 1980, p. 263.

55- D'HOLBACH, Le bon sens, ou idées naturelles opposées aux idées surnaturelles, Londres, 1774, p. 8.

دفاع، إلى السلطة المطلقة للطغاة، التي لا تقل إرهابا من الآلهة، والذين أصبحوا ممثلين له على هذه الأرض.

بعد أن سحقوا عقولهم تحت النير المزدوج للقوة الروحية والقوة الزمنية، وجدت الشعوب نفسها عاجزة عجزا تاما عن التعلّم أو العمل من أجل سعادتها الخاصة. الآراء اللاهوتية شوّهت الروح البشري إلى درجة أنه أصبح غير قادر على التعرّف على نفسه، شكك في قدراته الذاتية، أهمَل التجربة، تَخوّفَ من الحقيقة، احتقر عقله وتخلّى عنه لمتابعة السلطة بصورة عمياء. الإنسان كان مجرد آلة في أيدي الطغاة والكهنة، الذين وحدهم، كان لهم الحق في توجيه تحركاته؛ اقْتِيدَ دائما كعبد، وكان في جميع الأوقات تقريبا وفي جميع الأماكن حاملا لرذائلهم وطبائعهم.

«هذه هي الأصول الحقيقية لفساد الأخلاق، والتي لم يتصدّ لها الدين إلاّ بحواجز مثالية بحتة، من دون أي مفعول يُذكر؛ **إن الجهل والعبودية من شأنهما أن يجعلا الناس أشرارا وتعساء. العلم، والعقل، والحرية فقط يمكنها أن تُقوّمهم وتجعلهم أكثر سعادة**[56]».

إن الجملتين الأخيرتين لدولباخ تسْحقان استيهامات نيتشه سحقا، وتَرُدّان عليه جهله ودينه وطغيانه الذي يريد أن يؤبّد به عبودية البشر.

(خآ أ)

قد يعترض أحدهم أن نيتشه يُنبّه في الفقرة 62 من ما وراء الخير والشر عن مخاطر تدخّل الدين في الحياة الاجتماعية، ويحذّر من التقاعس في التصدّي له، للحد من تأثيره على سلوك الأفراد. لكن هذا غير صحيح، فهو يريد مبدئيا من الدين أن يلعب دورا تَخديريّا لعامة الناس، وأن يتم استعماله من طرف السلطة السياسية، لتوطيد نفوذها، حتى وإن كانت في قرارة نفسها لا تؤمن به إ يمانا راسخا.]

وهذه هي حال الحركات الإسلامية وقياديّيها ورموزها في العالم العربي، فهم لا يؤمنون بالدين ولا بالروحانيات، بل يركبون على الدين لتكديس المال والاستفراد بالنفوذ لا غير. وعلى هذا الأساس فإن تحذير نيتشه من الافراط في الإيمان، لا يتعارض

56- *Ibid.*, p. 9. « … l'ignorance et la servitude sont faites pour rendre les hommes méchants et malheureux. La science, la raison, la liberté peuvent seules les corriger et les rendre plus heureux ».

مع توجّهاتهم. فهو يريد من المثقف الحداثي أن يكون إنسانا مداهنا كذابا، أن يُلقّن الشباب تعاليم تتضارب مع قناعاته، ويُربّيهم على منظومة دينية لا يؤمن بها، وبكلمة واحدة أن يكون خادما منصاعا للسلطة في محاربتها للفكر الاشتراكي الإلحادي. وهكذا نفهم هذا التشبّث الغريب بالدين، والذي ما كنّا ننتظره من شخص يقول إن له نُفورا غريزيا من الدين: نيتشه يُحجّر على المثقف ممارسة حقه في نقد وتقويض أسس الدين، ودَحره بعيدا عن الحياة الاجتماعية والتعليمية. يقترح فقط التحكم فيه واستغلاله كمورد ثمين ضد تصاعد الوعي الطبقي. إن خطر الأديان، في رأيه، يكمن في استقلالها الذاتي، أي إذا أرادتْ لنفسها «أن تكون غايات أخيرة وليس وسيلة بين وسائل أخرى[57]».

وبما أن نيتشه لا يخجل من التعبير عن أكثر التخمينات وحشية وقرفا، فهو يقدّم الأسباب لمخالفته هذا المنحى الاستقلالي للدين. بينما الجميع يعارض استقلال الدين، ويحبّذ ابقاءه تحت السيطرة، إذا لم يكن ثمة بُدّ من القضاء عليه، فإن نيتشه يفضّل، على عكس ذلك، بقاء الدين ومواصلة لعب دوره في المجتمع. الخطر الأوحد هو أن يقوم الدين بأشياء بانت له فظيعة. وهنا فإن هذا الرجل يدعو صراحة إلى الإبادة الجماعية، إلى سحق المرضى والمشوّهين، الذين لا يصلحون كترس في مكنة الانتاج. وقد انتصب الآن كبيولوجي، هو الذي لم يدخل مخبرا في حياته، ولا يعرف شيئا عن هذا العلم، وكسوسيولوجي، وعالم احصائيات: «عند البشر كَمَا عند سائر أنواع الحيوان فائض من المعاقين وأصحاب الأمراض والعاهات والمرتدّين عن النوع والمتألمين ضرورة[58]».

ماذا نفعل بهذا الفائض، بافتراض وجوده بهذه العدد الهائل؟ كيف نتصرّف معهم؟ الحلّ الذي يقترحه نيتشه هو الإبادة الجماعية؛ تركهم يواجهون مصيرهم بمفردهم، يتعفّنون في بؤسهم، حتى آخر قطرة من دمهم. فرانكشتاين يأسف أشد الأسف، يُولول ويذرّ التراب على رأسه من شدة الألم لأن دينيْن كبيريْن، المسيحية والبوذية، يتصرفان بطريقة حضارية مع «**هذا الفائض من الحالات الفاسدة**[59]»، يعني يتصرّفان

57- نيتشه، **ما وراء الخير والشرّ**، م. س، § 62، ص، 96.

58- ن. م، ص، 96.

59- ن. م، ص، 96 97.

لا حضاريا بالنسبة لقواعد النظافة النيتشوية. وهذا نصه واحكموا أنتم بأنفسكم: «إنهما [المسيحيّة والبوذية] **يَسْعَيَان إلى الحفاظ على كل ما يمكن حفظه وإلى إبقائه على قيد الحياة، لا بل إنهما يَتَحزّبان مبدئيا لصالحه**، بوصفهما **دينَين للمُتألّمين**. يؤيّدان كل من يعاني من الحياة معاناته من مرض، ويرغبان في الوصول إلى وضع يُحسَب فيه أيّ شعور آخر بالحياة خاطئا ويغدو معه ممتنعا ... **إن الأديان التي سادت حتى الآن أفرطت في الحفاظ على الكثير ممّا كان يجب أن يُهْلَك**[60]».

وفي مقابل هذه الشفقة المذمومة إزاء المرضى والضعفاء فإن إحصائيات نيتشه تُثبت إثباتا قاطعا وجود «حالات ناجحة عند البشر، هي استثناء بل هي أندر النوادر... والأردأ أنه كلما ارتقى نوع الطراز المتمثل في إنسان ما، كلما ازداد احتمال نجاحه: إن المصادفة، تتبيّن، على نحو أفزع، في تأثيرها المُهدِّم على الإنسان الأعلى[61]».

المفروض والمعقول أن يعمد البوذيون والمسيحيون إلى محق الضعفاء وإبادة المرضى، أن يتركوا فقط الإنسان الأعلى، لكنهم فعلوا العكس، ومرة أخرى فإن الإحصائيات، إحصائيات نيتشه طبعا، تُثبتُ ذلك: «وفقا لحصيلة الحساب النهائي: الأديان التي سادت حتى الآن تدخل في باب الأسباب الرئيسية التي كبّلت طراز الإنسان، وأبقته على درجة متدنّية[62]». لكن الدين الأقرب منه، المسيحية، فاقها كلّها في هرطقته وعنفه ضد الإنسان الأعلى، لأن المسيحيين لم يقتلوا الفاشلين والمرضى والمعاقين ولم يُبيدوهم عن بكرة أبيهم، كما يريد نيتشه، بل «أمّنوا للمتألّمين تعزية، وللمقموعين واليائسين طمأنينة، وللاّمستقلّين عمادا وسندا، وأبعدوا عن المجتمع المُحطّمين والمتبربرين جوانيا واستدرجوهم إلى الأديرة والمصحات النفسية»، وماذا كانت النتيجة؟ وخيمة جدا: «**إفساد العرق الأوروبي** (Verschlechterung der europäischen Rasse)[63]».

ونحن يجب علينا أن نتجرّع هذه الفظاعات ونَصمت؛ أن نتذوّق، بغِبْطة وشراهة حلاوتها، وإلاّ فسنُتّهم بأننا عديمو الذوق، وأننا لم نفهم أي شيء من فلسَفَة نيتّشه، ولم ندرك جمال وعظمة هذا المفكر القدير. لكن نصوص نيتشه تحتقر أتباعه أشد الاحتقار،

60- ن. م، ص، 97.

61- ن. م، ص، 96.

62- ن. م، ص، 97.

63- ن. م، ن. ص.

وتقضي على تأويلات البراءة، لأنه هو نفسه يُفسّر ويُبرّر ويشرح هلوساته العنصرية بأقصى درجة من الشفافية. يقولها جهارا دون ذرّة خجل، ويردّدها ليس مرة واحدة، بل عشرات المرات في كل كُتبه تقريبا.

كان يأمَل من المسيحية أن تقلب القيم على طريقته هو، لكنها قَلبتْها على عكس ما تمنّاه تماما، فأحس بالإحباط وأخذ يتحسّر على عالمه المقلوب. المسيحيون تجرّؤوا على «أن يَقلبوا كل التقييمات رأسا على عقب نعم! على أن يُحطّموا الأقوياء، ويُسقّموا الآمال الكبيرة، ويرْموا الشّبهة على السعادة الكامنة في الجمال، ويُنكّسوا كل **متجبر، رجولي، غاز**، تائق إلى السلطة، وكل الفطر الخاصة بأعلى طراز بَشَري وأنجح، وأن يُحوّلوها إلّى قلق وإزعاج ضمير وتدمير ذاتي، بل أن يقْلبوا كل الحب للدنيوي والسيطرة على الأَرض، كرَها للأرًض والدنيوي[64]».

ما هذه المعجزة الباهرة! ما هذه القوّة الدافقة المهيبة! ما هذا الدين الذي قام لوحده بإنجاز عمل بكل هذه العظمة، واستطاع، بموارده المحدودة، في وقت وجيز أن يُنكّس جبابرة العالم! كل هذا حدث دون أن يعلم المؤرخون المحترفون شيئا عنه إلاّ الشاب فريدريك نيتشه أستاذ الفيلولوجيا بجامعة بازل بسويسرا الذي لم يدرس اللاهوت المسيحي ولا التاريخ.

لقد صَنع مسيحية خاصة به، واختلق لها تاريخا مُغايرا لتاريخها الفعلي، وألْصَق بها تعاليم غير موجودة في كتبها، ومن خلال هذا الكائن المشوّه أطلق وابل أحكامه وإداناته. لكن النتائج كانت عكس ما كان يتوقّعه، ذلك أن عن طريق عملية التحريف المقصودة، وبضرباته العشوائية هذه، بدل أن يُكرّه الناس في المسيحية (وفي الكنيسة عموما)، فقد حبّبها لقلوبهم وزادها رونقا وإنسانية. لقد ترك جانبا كل المراحل الحرجة من تاريخ المسيحة، وغيّب أعمالها الفظيعة في حق المخالفين، من اضطهاد اليهود، إلى إبادة الهراطقة؛ لم يصرف ولو كلمة واحدة على السّيلابوس البابوي (1864) الذي أدان الأفكار الحديثة، وكفّر الفلاسفة التنويريّين والداروينية والشيوعية، ولا أظنه قادر على ذلك لسبب بسيط وهو أن أفكار السيلابوس تتطابق كليا مع توجهه الفكري اللاعقلاني المعادي للحداثة.

64- ن. م، ص، 98.

المسيحيون، على أية حال، متشبّثون بنهج حياتهم الأخلاقية، ويعتبرون الرفق والمحبة والعطف على المتألّمين مفخرة لهم ودليلا على أن دينهم هو الأصح وأنه ليس من سبيل الصدفة أن سُميّ كتابهم، عهد النعمة، أي العهد الأصلح للبشرية والأجدر بإخراجها من حالة الحيوانية إلى حالة الإنسانية. ونيتشه، كما قلت، يؤكّد هذا المنحى ويُقدّم لهم مجانا كل المسوّغات للثبات على قناعاتهم الدينية. ومهما صَعّد من صراخه وقال: «آه أيها المُغفّلون، أيها المغفّلون المُدَّعون المشفقون، ماذا فعلتم! أكان هذا عملا لأيديكم؟ كيف أفسدتم تحفتي الأجمل وشوّهتموها! يا لتطاولكم!»، فهو لن يُغيّر من واقع الحال في شيء، بل يزيدهم عزما وتعنّتا. وربّما سيمدحونه على فعله هذا وسيُطبّقون عليه المثل العربي: "إذا أَتَتْك مَذمّتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل".

لقد أنقذ نيتشه المسيحيين من تاريخهم، وخلّصهم من عبئه الثقيل: مَسَحَ عن ذاكرتهم محاكم التفتيش، قفز على حرق جوردانو برونو، وتعذيب غاليلي، وليلة سان بارثيليمي، شاهدا لهم بحُسن السيرة، بل بتصرّفات في أرقى معاني الإنسانية. فعلا، المسيحيون، في رأيه، هم أناس «ليس لهم علوّ **وقسوة** (nicht hoch und **hart**)[65]» للتكبّر على الناس ولفعل الشرور. بعبارة نيتشه، هم أناس «ليس لهم علوّ **وقسوة** يكفيان ليُسمَح لهم بأن يَنْحتوا الانسان كفنّانين؛ أناس ليس لهم قوّة وبُعد نظر يكفيان ليقبلوا بسيادة قانون المواجهة، قانون الإخفاق والهلاك المتكرر آلاف المرات؛ أناس ليس لهم نُبل يكفي ليبْصروا التراتبية والهوّة السحيقة في الرّتب بين إنسان وإنسان: أناس من هذا القبيل قد سادوا حتى الآن، بشعارهم سواسية أمام الله[66]».

اشتُمْنا كما تريد، ألْق علينا بكل التهم التي تتخيّلها، نحن عميان كما قلت، ولا نبصر الهرمية، ولا تعنينا التّراتبية بين البشر، لأن ديننا هو دين المساواة، لا يفرق بين الأبيض والأسود، بين الغنيّ والفقير، ونحن فخورون بذلك وسعداء. لكن اعلمْ أنك بدل أن تقزّمنا وتُهيننا، فأنتَ تزيدنا قوة وبهرجا ومفخرة، بل تمْسَح عنا تاريخنا المظلم وتُغيّب قرونا من العبودية والاضطهاد والحروب الدينية. ولك جزيل الشكر. هذا ما يمكن أن يردّ به المسيحيون على نيتشه.

65- F. Nietzsche, Jenseits von Gut und Böse, III, 62, p. 83.

66- ما وراء الخير الشرّ، ن. م، ص، 98 99.

هكذا ربما سيكون ردّ الإنسان الأوروبي الحديث، لأن نيتشه، فعل مع تاريخ أوروبا نفس عملية التّعْمية التي فعلها مع المسيحية، حيث طمَس كل حروبها الفتّاكة في الداخل، وحروبها الاستعمارية في الخارج، وقفز على الإبادات الجماعية التي قام بها الحجاج الانجليز في أمريكا. غيّب هذا التاريخ المريع وأخذَ يؤنب الأوروبيين على جُبنهم، ويَعيب عليهم تخنّثهم، ويَرثي مصير هذه القارّة التي آل بها المآل إلى أن أنتجتْ أخيرا، «نوعا مُصغّرا يكاد يكون أضحوكة، حيوانٌ قطيعٍ طيّب السريرة، سقيم ووسطي: هو الأوروبي الحاضر[67]».

(دآ)

في الفقرة 188 من ما وراء الخير والشر، يطلع علينا بهذه القولة الشرّيرة جدا، والتي، على ضوء ما تفعله داعش اليوم، يجب على كل مُثقّف في العالم، له ذرّة من الإنسانية، أن يدينها بشدّة، وليس أن يدينها فقط بل أن يُلقي بالخزي والعار على قائلها وعلى من صمّ آذانه لسماعها، دون أن يردّ عليها ويستنكرها. القولة هي هذه: «العبودية، غليظة كانت أم لطيفة، هي الوسيلة التي لا غنى عنها لتأديب الروح وتربيته أيضا[68]».]

وهنا فإنه يمدّد العبودية في كل الاتجاهات لكي تستغرق ليس فقط الجسد وإنما الروح أيضا. لا يفزعه ولا يقلقه أن يكون الانسان مستعبدا في الجسد والروح، وأن يُهان عقله وتُداس كرامته.

أدغال وحيوانات ضارية، كواسر وأسود، هذا هو العالم الذي يرتاح إليه نيتشه ويُمجّده، وفي المقابل، يؤنب الفيلسوف والإنسان العادي، لأنه «يسيء جذريا فهم **الحيوان الضاري والإنسان الضاري**[69]». ومَن هو النموذج الأعلى لهذا الانسان الضاري؟ نيتشه لديه قائمة من الأسماء، تذهب من الاسكندر المقدوني وصولا إلى بيزمارك. هنا وقع اختياره على **سيزار بورجيا** (C. Borgia 1475-1507)، واحد

67- ن. م، 99.

68- ن. م، ن. م، § 188، ص، 132.

"die Sklaverei ist, wie es scheint, im gröberen und feineren Verstande das unentbehrliche Mittel auch der geistigen Zucht und Züchtung".

69- ن. م، § 197، ص، 141.

من الشخصيات الأكثر مكرا ووحشية في عصر النهضة الإيطالي. لا يكفيه بورجيا وإنما التفت إلى الطبيعة كي يجرّها للتعبير عن الوحشية، واعتبار الوحوش الضارية مخلوقات أكثر صحّة بين كل الوحوش والنباتات الاستوائية، وتمجيد ما أسماه بالجحيم المتأصّل فيها بالفطرة. كل هذا الخور الفكري غايته القول بأن الأخلاقيّين «يكنّون كرها للأدغال والأقاليم الاستوائية[70]»، ويفضّلون الأقاليم المعتدلة، لأنهم يحبون البشر المعتدلين الوسطيّين.

أن يكون رجل السياسة متفانيا في خدمة شعبه، حصيفا ومتواضعا في تصرفاته، ديمقراطيا ومحبا للخير وللصالح العام، ساعيا لتحقيق سعادة مواطنيه، فهذا أمر غير مُجد، ولا يمثّل جوهر الفضائل الحقيقية. أن تَكتب الدول دساتيرها، ويجتمع نواب الشعب للقيام به فهذا بالنسبة لنيتشه هو «جَمْع أناس قَطيعيّين أذكياء يحلّون محلّ أصحاب الأمر: ذاك هو أصل كل الدساتير التمثيليّة[71]». لكَن ثمة أمر أكثر فاعلية: ضد التشريعات الديمقراطية والتداول على الحكم نيتشه يطالب بدكتاتور يمسك بيده كل السلطات، يضرب بعرض الحائط كل القوانين والدساتير والأعراف. ونيتشه يعتبر بروز هذا الديكتاتور نعمة على الشعوب الأوروبية التي خرّبتها طموحاتها الديمقراطية، وسعيها لتحقيق السعادة: «أيّ نعمة ستهبط على **حيوانات القطيع الأوروبيّين** هذه (diese Heerdenthier-Europäer)، بل أيّ انعتاق من ضغط يكاد لا يُطاق، سيكون لهم مع ظهور **الآمر المطلق** (unbedingte Befehlenden)». والشهادة التاريخية حاضرة، وتثبت ذلك، هذه المرة اختار نابليون «الشهادة الكبيرة الأخيرة على هذا، هي التأثير الذي أحدثه ظهور نابليون». والسعادة في كنف الديمقراطية والحرية المكفولة بالدستور تحققت في رأي نيتشه في فترة الدكتاتورية الحالكة وبالتالي فإن «مجريات تأثير نابليون تكاد تكون مجريات السعادة القصوى التي بلغها هذا القرن بأسره في أكثر أناسه ولحظاته قِيمَة[72]».

لقد أوصله علمه السيكولوجي العميق إلى اكتشاف أن حب القريب هو أمر جانبي أمام الخوف منه، وأن غرائز قويّة وخطرة، كالإقدام، والمجازفة بالنفس، والجسارة وحبّ الانتقام والمُكر والطّمع بالاستيلاء وشهوة السيطرة، كل هذه الغرائز الحيوانية

70- ن. م، ص، 141.

71- ن. م، § 199، ص، 144.

72- ن. م، ن. ص.

المفترسة الداعشية يرى أنه «يجب **أن تُنمَّى وتُربّى**[73]». وأنه يجب الذهاب ضد ضمير القطيع، وكسر عموده الفقري لأنه يقذف بهذه الغرائز في عالم الرذيلة، ويستهجنها، حتى بات يسمِّي «كل ما يبث الخوف إلى القريب، شريرا[74]». الأخطر من ذلك تابعوا أفكار هذا الرجل أرجوكم أن القطيع يُسمّون من يُنصف في أحكامه ويتواضع ويساوي بين ذاته والغير وينضمّ إلى صفّهم، ويعتدل في الرغبات، **طيّبا وأخلاقيا**.

وهكذا فإن نيتشه يسمي قطيعا من الحيوانات الإنسان العادي، المواطن الصالح، المحب للسلم والوداعة والكاره للحرب والعنف. ولا يتراجع عن تسميته هذه وإنما يؤكدها ويفتخر بها. فهو واع بمدى الشعور بالمهانة «الناجم عن حسبان الإنسان بعامة، ومن دون تورية أو مجاز، من بين الحيوانات[75]». لكنه لا يتزحزح عن هذه التسمية، لا بل يتباهى أيضا بتسميته المثقفين المحدثين "قطيع حيوانات" «أن نستعمل دون انقطاع بصدد أصحاب الأفكار الحديثة بالذات، ألفاظا كـ "القطيع" و "فطر القطيع"». فالرجل مُجبَر، ولا يقدر على أقل من ذلك، بل مَحكوم بهذه الصلافة «ما باليد حيلة! لا يمكن لنا أن نفعل غير ذلك: إذ هنا بالذات تكمن رؤيتنا الجديدة[76]».

لا يتزحزح عن موقفه، لأنه مقتنع بأن كل علماء أوروبا وفلاسفتها هم قطيع من الحيوانات، والسبب الرئيسي أنهم يدّعون بكل صلافة أنهم «يعلمون ما ظنّ سقراط أنه لا يعلمه وما وعد بتعليمه في وقت ما ذاك الثعبان الشيخ يعلمون اليوم ما هو الخير والشر». والحال أنهم أجهل من الحمير وبالتالي وجب سبّهم ومواصلة إهانتهم ورَمْيِهم بصفة القطيع، حتى وإن كان وَقْع هذه الكلمات سيّئا على آذانهم[77].

والسبب دائما هو أن هؤلاء الفلاسفة لا يَصطفّون في طابور أخلاق آكلي لحوم البشر وبالتالي «الأخلاق في أوروبا اليوم هي أخلاق حيوان القطيع»، وقد وصلت الوقاحة بهذا القطيع إلى حدّ مَأسَسَة هذه الأخلاق عن طريق الديمقراطية «فتحوّلت المؤسسات الاجتماعية والسياسية نفسها إلى تعبير متزايد الوضوح عن هذه الأخلاق».

73- ن. م، § 201، ص، 146.

74- ن. م، ص، 147.

75- ن. م، § 202، ص، 148.

76- ن. م، ص، 149.

77- «ولذا يقع إصرارنا ولا بدّ وقعا قاسيا وسيّئا على الأذن حين نردد من جديد: إن من يعتقد هنا أنه يعلم ومن يمجّد نفسه هنا بمدحه وقدحه معا ويسمي نفسه خيّرا، هو فطرة حيوان القطيع / الإنسان». ن. م، ص، 149.

ولكي يُخفي غرضه الاستبدادي فهو يخلط ويزوّر الحقائق التاريخية زاعما أن «**الحركة الد يمقراطية هي وريث المسيحية**[78]». لكن إذا دقّقنا في الأمر فإن ما يقوله نيتشه هو تمجيد، مَجانيّ، للمسيحية وليس حط من شأنها، بل انْسِيَاقٌ وراء المسيحيين الليبراليين الذين أرجعوا الحركة الديمقراطية والثورة الفرنسية ذاتها إلى روح المسيحية.

لكنه يصطف جهارا مع المسيحيين ضد الفلاسفة الأحرار، ويناوئ الحركة الثورية الاشتراكية وكل شعاراتها ورموزها الإنسانية، مثلما يفعل المتديّنون في كل الملل. فهو يسمّيهم: أغبياء المُتفلسفين (tölpelhaften Philosophastern)، يقصد بهم الاشتراكيّين، ويُرجع غباءهم إلى دعوتهم للأخوّة الشاملة، ومعاداتهم للاستبداد، لا بل الأدهى بالنسبة إليه أنهم وصلوا إلى حدّ «رَفْض مفهوم **السيّد** و**الخادم** (der Begriffe "Herr" und „Knecht)»، ورفعوا شعار (لا ربّي، ولا سيدي)، عنوان فلم لمُخْرجة تونسية بسَببه كاد الإسلاميون أن يحرقوا تونس، ونيتشه لا يُمانع من ذلك لأنه هو نفسه يستخفّ بشعار الاشتراكيين، والملحدين: (**لا إله ولا سيد "ni dieu ni maitre"**)، لأن الله والسيّد، بالنسبة إليه، مقدّسان ولا يجب المساس بهما.

(ذآ)

إنّ النقطة الثابتة التي تُبرهن برهانا ساطعا على رجعيّة مواقفه الفكرية والسياسية، والتحاقه بمعسكر اليَمينيّين المتطرّفين، هي استعداده للتضامن مع كل القوى الظلامية لمُحاربة الاشتراكيين والتقدّميين والملحدين. فهو يتصدّى لهم باللعنات والتّكفير والشتائم لأنهم تجرّؤوا على التفوّه بكلمة مساواة، وعلى التنظير لمجتمع حرّ، د يموقراطي، لا يحكمه مستبدّ ولا رجل دين ولا مكان فيه للخرافة.]

أكبر خطيئة اقترفها المفكّرون الأحرار في حياتهم هي أنهم «مُتفقون على التّصدّي العنيد لكل **خصوصيّة** في المطلب والحق والامتياز ... متّفقون على **دين التراحم**، وعلى **الاشفاق** على كل من شَعُرَ وعاش وعانى (نزولا **إلى الحيوان**) ... مُتفقون بقضّهم وقضيضهم على **صرخة التراحم** النافدة الصبر، على المقت المُميت **للألم** بعامّة وعلى العجز شبه الأنثوي عن المُكوث **في التّفرّج وتَرك الألم** يأخذ مجراه؛ متّفقون

78- «die demokratische Bewegung macht die Erbschaft der christlichen». ن. م، ص، 149.

على التقييم والتهوين القسريّين اللذين تبدو أوروبا في ظل سحرهما الآسر مهدّدة ببوذية جديدة؛ مُتّفقون على الإيمان **بأخلاق التراحم المشترك**، كما لو أنها الأخلاق في ذاتها، بوصفها ذروة الإنسان، الذروة التي تمّ بلوغها، والأمل الوحيد للمستقبل، والدواء المُعزّي للحاضرين والتكفير الكبير عن كل ذنوب الماضي: مُتّفقون جميعا على الإيمان **بالجماعة مُخلّصة، بالقطيع** إذن وبأنفسهم[79]». هل بقيت إذن من ذريعة، لهؤلاء المثقفين العقلانيين الداعين إلى المساواة والعدل والمشفقين على البشرية، كي لا يحكم عليهم بأنهم قطيع حيوانات وأنهم أوغاد؟

هذا هو منطق نبيّ زرادشت، هذا هو أسلوب مُربّي البشرية، وقائدها للنور. هذا الرجل يُرغمك، لكي تنضوي تحت عباءته، أن تدفع بين يديه ضريبة مُشطّة: أن تتخلّى عن عقلك، عن انسانيّتك، عن إيمانك الراسخ بالحرية والديمقراطية، عن الرفق بالمتألّم، إنسان كان أو حيوانا؛ يدعوك إلى أن تتفرّج على المعذّبين بكل شراهة وفرحة. هذه هي الضريبة الثقيلة التي ينبغي عليك أن تدفعها وإلاّ فإنك حيوان، أصْلك وضيع ، وتنتمي إلى أسفل القطعان.

ولم يكتف بهذه الضريبة بل إنه مَنَح أتباعه الوصْفة التي يجب عليهم تطبيقها، وأمدّهم حتى بقائمة تحتوي على بُنود تصرّفات وأفكار وقناعات، جدّ واضحة وصريحة، بحيث لا يمكن اطلاقا تأويلها خلاف حَرْفها. القائمة هي هذه: الحركة الديمقراطية هي انحطاط في التنظيم السياسي، وهي تعكس صورة انحطاط الإنسان، تُصغّره، تجعله وسطيّا وتحطّ من قيمته؛ الفلاسفة الجدد، ينبغي عليهم أن يذهبوا ضد التقييمات المُجْمَع عليها، أن يَقلبوا القيم، ويبتعدوا عن دراسة التاريخ، وعن حماقة العدد الأكبر؛ أن يجتهدوا لتكوين رجال آمرين أشدّاء، يشحب أمامهم أعتى الطغاة «إنها لصورة قادة من مثل هذا النوع، تلك التي تلوح أمام أعيننا نحن».

إذن، لا: «يا عمّال العالم اتّحدوا»، ولا: «يا مُعذبو الأرض انتفضوا»، بل: «يا طغاة العالم اسحقوا الضعفاء»، «يا أيها الضعفاء اكدحوا تحت نَيْر سيَاط جلاّديكم»؛ «يا مثقّفي العالم هيّؤوا الظروف الروحيّة لبروز الطغاة». «أقولها عاليًا: يا أحرار الروح إنّ خَلْقَ الظروف المناسبة لولادتهم من جهة واستثمارها من جهة أخرى؛ واختبار الطّرق

79- ن. م، ص، 150 151.

التي نظنّها صالحة لتنمية النفس وإكسابها عُلوّا وجبروتا يُشعرها بإلزاميّة هذه المَهام[80]». إن هذا الطاغية السفاح، له ضمير من حَجر وقلب من مَعدن، يجب أن يكون الشغل الشاغل للمثقف الحديث هو التعجيل ببروز هذا الصنف من الديكتاتوريّين (Führer)، «والخطر المفزع»، هو أن يتباطؤوا في الظهور أو ينحرفوا عن مهمة إذاقة البشر سوء العذاب «تلك هي همومنا وغمومنا الحقيقة، وأنتم تعلمون يا أحرار الروح؟ (freien Geister)[81]».

وهكذا فإن السيد نيتشه يريد من المفكرين الأحرار أن يربّوا الشباب على فكرة الزعيم الأوحد، مخلص البشرية؛ القائد العنيف المجنون، مثل موسليني وهتلر، وعميل الموساد "الخليفة" البغدادي، وأن يَكفّوا عن نشر الفكرة الاشتراكية والمساواة والعدالة ورفع الاستغلال عن الطبقة الشغيلة. وكل هذه السفاسف، يعرضها علينا، مصحوبة بشحنة من الخطابة ومُحَلّاة بكلام انشائي من قبيل «تلك هي الأفكار النائية والبروق والرعود المثقلة التي **تجوب سماء حياتنا**[82]». لكن فقط من أجل تعليق سريع، هذه السماء التي يتطلّع إليها نيتشه، تحققت بعده بثلاثة عقود، فكلّفت روسيا خمسا وعشرين مليون قتيل، وألمانيا خمسة ملايين ودمارا شاملا، وإيطاليا مليون قتيل وأعدادا لا تحصى من المشردين، دون أن نتحدث عن المجازر التي اقترفوها في المستعمرات.

(رآ)

لكن نيتشه مستقر على رأيه من أن الحداثة ومشتقاتها هي السبب في الانحطاط الشامل الذي يعيشه الإنسان الأوروبي، وأن أكثر مَن ساهموا فيه هم الاشتراكيون والمفكرون الأحرار المُغفّلون ذوي العقول المسطّحة، كما يقول، الذين يريدون بناء «إنسان المستقبل الخاص بهم»، أي «إنسان المجتمع الحر»، وهو في الحقيقة «حيوان قطيع بالتمام»، وبكلّ وقاحة يطالبون بحقوق متساوية يعني «حيْوَنة الإنسان ليصير قزم حيوان[83]».]

80- ن. م، § 203، ص، 151 152.

81- ن. م، ص، 152.

82- ن. م، ن. ص.

83- ن. م، ص، 153.

ولا ينجو من هذا التقزيم حتى العلماء أنفسهم، وبخصوص العلماء فإن نيتشه أفرغ عليهم كل تهكّماته وحقده الدفين. يَظل العالم مثل الفتاة العانس طوال حياته «ذلك أنه لا يُتقنُ، شأنه شأنها، أكثر وظيفتي الإنسان قيمَةً». وبعدُ، ما الإنسان العلمي؟ عن هذا السؤال ينهمر شلال الازدراء والشتائم، أسلَوب نيتشوي قحّ، لا نعجب منه لأنه عملته الوحيدة، لكن نعجب ممّن يستحسنه ويُروّج له. العالم لأول وهلة ينحدر «من ضرب بشري **عامّي**، يتمتع بفضائل الضرب **العامّي** الذي ليَس سيّدا ولا متسلطا ولَا مكتفيا بذاته ...[84]». هذه الأولى، ثم تنضاف إليها صفات أخرى لا تقلّ عنها مهانة وقدحا، دائما مُحَلاة بشلاّل من الخطابة الفاقدة لأي مضمون فلسفي: «العالم، ينضح بالحسد الصغير وله عين ثاقبة لكشف ما هو وضيع لدى تلك السجايا الّتي تُعجزه أعاليها. إنه أليف، لكن، كذلك الذي يسمح لنفسه بالاسترسال وحسب وليس بالتدفّق؛ وأمام إنسان التدفّق الكبير بالذات يستمرّ باردا ومنغلقا، وتُشبه عينه عندئذ بُحيرة ملساء نفورا لا تعود تتجعّد على سطحها تموّجات البهجة والعطف[85]».

وفي النهاية العالم هو يسوعي. هكذا وكفى، دون برهان ولا تعمّق ولا أدلة أو أسباب معقولة. ونحنَ يجب علينا أن نتجرّع هذه المرارة ونصمت، وإلاّ الويل لنا لو استعملنا عقولنا واعترضنا على هذه الخزعبلات.

بعد أن صَفّى حساباته مع رجل العلم انتقل إلى رجل السياسة، واقترح طريقة جديدة في تدبير شؤون أوروبا الداخلية والخارجية، وتتمثل أساسا في "الفوضى الخلاّقة"، لكن مع هذا التحذير: عدم الخلط بين الطبقات، وخصوصا، تفادي **خلط الأعراق** (Rassenmischung)[86]. المهمّ أن لا تسير أوروبا وراء سُقم الإرادة (Krankheit des Willens)، أن تَخشوشن لأن التحضّر هو عنوان الانحطاط. الداء الذي ينخر أوروبا الآن هو "الموضوعية"، "النزعة العلمية"، "الفن للفن"، و"المعرفة الصرفة المتعالية عن الأهواء"، إنه داء الريبيّة، وشلل الإرادة. فعلا، سُقم الإرادة «يبرز حيث استقرّت الحضارة منذ زمن طويل ... ويتوارى بقدر ما يزال أو بقدر ما يَلوح البربري[87]».

84- ن. م، § 206، ص، 160.

85- ن. م، ص، 160.

86- ن. م، § 208، ص، 166.

87- ن. م، ن. ص.

وهنا تدخل على الخط الاحصائيات، والجغرافيا، والاثنولوجيا والتاريخ، وتقسيم المجتمعات الأوربية بحسب درجة بَربريّتها وتحضّرها، والمزاج البلغمي وحجم الجمجمة ... الخ، وكل هذا الخبط لغاية تبرير الحكم أن الإنسان **المتحضّر منحطّ وجبان، والبربري هو السوبرمان**، وأن من يحمل مِشعل البربرية في أوروبا الآن هو الألماني المحارب.

في صدارة قائمة المتحضّرين المنحطّين المُخنثين، يأتي الفِرنسيون دون منازع. وهذا الاستنتاج المهين يزعم أنه واضح بذاته، بل يمكن أن نتلمّسه لَمْس اليد: «**إن الإرادة مصابة بأشدّ سقم في فرنسا الحالية**»، وسقمها يتمثل في خمود بَرْبَريتها «وتفوّقها الحضاري على أوروبا». وهكذا بضربة سحرية تحوّلت فرنسا الاستعمارية، التي اجتاحت الجزائر في عهد قريب منه، وأظهرت بربرية لا مثيل لها في قمع الجزائريين وتقتيلهم، بشهادة مناصري الاستعمار أنفسهم، مثل توكفيل، تحوّلت إلى حمل وديع ؛ إلى جسم سقيم بلا إرادة.

لكن الأمر مختلف مع ألمانيا لأنها مازالت محافظة، ولِحُسن الحظ، على بَربريّتها الأولى، وفي صلب الألمان أنفسهم تتوزع البربرية بحسب المناطق؛ فهي «في الشمال الألماني أقوى مما هي عليه في الوسط»، أما أكبر دولة استعمارية وحشية في التاريخ الحديث، إنكلترا، فهي في القمة، وبربريتها أقوى بكثير من ألمانيا وفرنسا، وهي في نفس مستوى إسبانيا. وكيف لا تتصدّر اسبانيا البربرية وهي التي قضت على 60 مليون من سكان أمريكا الأصليّين؟ وإيطاليا؟ لا شيء، حظّها من البربرية، صفر تقريبا، وإيطاليا ذاتها، هي لا شيء، علما بأن هذا الرجل يهرب من بلده لكي يَنزوي في أجمل المدن الإيطالية، وبأنه ألّف أغلب كتبه فيها. وقد كان رد الجميل لهذا البلد على النحو التالي: «إيطاليا وهي أصغر سنّا من أن تَعرف ما تريد، بل عليها أن تُبرهن أوّلا على كونها تستطيع أن تُريد[88]». وفي **العلم المرح** طعن حتى في الأوبرا الإيطالية ووصفها بأنها مبتذلة، وهمجية[89].

أما أشرس القوى البربرية فهي تتمظهر على أشدّها وروعتها في الامبراطورية الروسية، حيث «تحتفظ وتختزن **قوّة اليُريد** (Kraft zu wollen) منذ زمن طويل، هناك تنتظر الإرادة، على نحو مُخيف، إطلاقها[90]».

88- ن. م، ص، 167.

89- **العلم المرح**، § 77، ص، 96.

90- **ما وراء الخير والشرّ**، § 208، ص، 167.

(زآ)

يَعيبُ على أوروبا انطفاءَ شعلة البربرية فيها، ونَبْذَها للعبودية والحرب، ورُكونها إلى السلم والمحبّة والعدالة. ضدّ هذه العطالة المقرفة، يقترح، كحلّ لإرجاع أوروبا إلى الجادة واستئناف مسارها البربري، إحداث فوضى خلاّقة؛ إشعال حروب شرسة، شرقا وغربا؛ تدمير العالم وتدمير ذاتها.]

بعبارة نيتشه: تلزم حروب هندية وتورّطات في آسيا، انقلابات داخلية، وتفتيت للإمبراطوريات إلى أجسام صغيرة، ولا يمكن تهيئة هذا الخراب إلاّ «**بإدخال الحمق البرلماني**، وواجب أن يقرأ كل واحد جريدته عند الفطور[91]».

سياسة الألفيّة القادمة المُبشّر بها هي أن يتزايد خطر روسيا «إلى حدّ يدفع أوروبا إلى التصميم على أن تصير بدورها خطرة». وأن يضطلع ديكتاتوريون شرسون بأداء مُهمة خوضِ الحرب ومواصلتها إلى آلاف السنين، بعبارة نيتشه «أن تحظى بواسطة ثلّة جديدة تحكم أوروبا، بإرادة واحدة، إرادة خاصة مرعبة وطويلة يمكن لها أن تُحدد أهدافها لآلاف السنين». إذن، سياسة عدوانية، حروب طاحنة، نِزَاعات مُستَعرة في كل بقعة، مجازر جماعية فظيعة، ولائم تقتيل، يُسمّيها "عهدا جَديدا" سيُزيح كليّا «زمن السياسة الصغيرة: القرن التالي سيجلب معه الصراع من أجل السيطرة على الأرض، الإرغام على السياسة الكبيرة[92]».

والحال إن هذه التنبؤات لا تصدمنا كثيرا لأن قائلها، مرة أخرى، يزوّر التاريخ، ويمحي الواقع من أمام القارئ، ذلك أن هذه السياسة الكبرى الهادفة إلى "السيطرة على الأرض"، حاضرة وتعتمل أمامه منذ عقود، وقد انتهجتها أوروبا في الهند والصين ومصر، وجنوب افريقيا، وهي هجمة استعمارية شرسة فظيعة لا مثيل لها عبر التاريخ.

وهو نفسه يؤكد على ذلك ويبتهجُ لما أسماه بالعصر الحربي الجديد «الذي دخلناه صراحة، نحن الأوروبيين[93]». ويتوقّع أن تتصدّر ألمانيا الواجهة في اشعال فتيل الحرب واستعمار العالم. ثمة وقت كانت فيه ألمانيا تفتقر للرجال، لرجال من أمثال أولئك الجنود المشاة، طوال القامة، كما كان يراهم نيتشه في الجيش البروسي، أي «ذلك

91- ن. م، ن. ص.

92- ن. م، ن. ص.

93- ن. م، § 209، ص، 168.

الطراز الألماني الجديد الذي يطلع الآن منتصرا[94]». لقد سارت ألمانيا دون رجعة في هذه الصيرورة المتصاعدة نحو العدوانية الشاملة والمغامرة طويلة النفس. والفضل يعود لسياسة ملك بروسيا، فريدريك الثاني، ثم واصلها ابنه فريدريك الأكبر. هذا الرجل لم يُخيّب آمال أبيه وإنما حاز على صفات جد رائعة: الريبية الأكثر خطرا وقسوة، لا ريبية الفرنسيين المخنّثة المتحضّرة، بل «ريبيّة الرجولة المقدامة قريبة النسب من عبقريّة الحرب والغزو التي اجتاحت ألمانيا لأوّل مرة مع فريدريش الكبير[95]».

وها أن الفيلسوف الذي يسمّي نفسه أوروبيا صالحا، كارها لألمانيا، ومحتقرا لسياسييها وبرلمانها، يثني على فريدريك المحارب، هذا الرجل صاحب نوع خاص من الريبية، دائما مخالفة لريبية فرنسا المتحضّرة. فعلا، ريبية فريدريش «تَحْتَقِر وتستحوذ معا؛ تُقوّض وتَستولي؛ لا تُؤمن، لكنها لا تُضيّع نفسها[96]». إذن حرب ريبيّات، انتصرت فيها ألمانيا وفرضت هيمنتها على أوروبا «إنها الصيغة الألمانية للريبية التي فرضت سيطرَتها على أوروبا فأخضعتها للروح الألماني[97]».

المهمّ أن هذه الريبية الرجولية هبّت من ألمانيا واجتاحت حقل الثقافة والعلم والتاريخ، ذلك أنّه «بفضل رجولة صلبة قويّة لا تُقهر، تحلّى بها اللغويون والمؤرخون النقديون الألمان ... بدأ يتثبّت تدريجيا معنى جديد لروح الألماني برزت فيه على نحو حازم سمة الريبية الرجوليّة[98]». ونيتشه يسعد لهذا الروح الألماني الباسل القاسي، ويستشهد بقولة المؤرخ الفرنسي ميشيليه الذي تفوّه بها وهو مرتعشا واصفا الروح الألماني بأنه «روح قدريّ ساخر شيطاني[99]».

كم هو جميل ورائع ، وكم نحن بعيدون عن الزمن التعيس الذي تجرّأت فيه امرأة، بكل صلافة، على توصية أوروبا «بالإشفاق على الألمان لكونهم مُغفّلين وُدَعَاء، طيّبي القلوب، ضعاف الإرادة وذوي نفوس شاعرية[100]». لكن هيهات، لقد مرّ هذا الزمن

94- ن. م، ص، 168.
95- ن. م، ن. ص.
96- ن. م، ص، 169.
97- ن. م، ن. ص.
98- ن. م، ن. ص.
99- ن. م، ن. ص.
100- ن. م، ن. ص.

منذ عقود، منذ أن قابل نابليون غوته، فصاح متعجّبا «هذا رجل (Voilà un homme)، يعني «هذا رجل حقّا! وكنتُ أتوقّع مجرّد ألماني!»[101]» من الطراز القديم.

وتصوّروا ما سيكون عليه حال الفيلسوف لو أنه تبنّى هذا النمط من الريبية الألمانية القحّة: سيكون فيلسوفا مُجَرِّبا، ومُحبّا للتجربة، وسيتفادى النقدية على شاكلة الوضعيين الفرنسيين، وخصوصا يتفادي ذلك الصّيني الكبير من كونكسبيرغ (der grosse Chinese von Königsberg)[102]، ايمانويل كانط. لماذا كانط صيني؟ ما دخل فيلسوف كونكسبيرغ بالصين؟ هذا السؤال موجّه إلى أحبّاء نيتشه بالدرجة الأولى، وأنا لن أناقش هذه التداعيات المهسترة.

(سآ)

لا ينبغي على الفيلسوف أن يَتفلسف بحِرَفيَّة أو أن يعطي مثال المفكّر العقلاني المنسجم مع مبادئه، بل أن يكون، حسَب وِصْفة نيتشه، دون ملامح محدّدة، محلّ التناقضات والبلبلة الفكرية: أن يكوَن في نفس الوقت نقديا ودغمائيا، ريبيّا ومؤرخا، ومن ثمّ شاعرا ومُجمِّع حِكَم ورحّالة وهاوي ألغاز وأخلاقيا وعرّافا و"روحا حرّا"[103].]

وكل هذا الخليط للوصول إلى الغاية الدائمة: اللاّأخلاق. فعلا، فيلسوف نيتشه «يجب أن يكون كل شيء، لكي يجتاز محيط القيم **والمشاعر القيميّة الإنسانية** ولكي يسعه أن ينظر من القمة إلى كل بُعْد آخر[104]».

ولا يكتفي الفلاسفة النيتشويّون الجدد باجتياز هذا المحيط الأخلاقي، وكسر المشاعر الإنسانية وإنما ينبغي عليهم أن يُشَرِّعوا ويخلقوا قيما جديدة، وليس من واجبهم أن يبرهنوا على أي شيء، وحاشا أن يقتربوا من الاستدلال العقلاني والتمشّي الفكري المنسجم. هذه كلها من مشمولات «**شغّيلة** الفلسفة من الطراز الرفيع كانط وهيجل»، هؤلاء هم مجرّد شغّالون لأنهم تفلسفوا بجدّية واضطلعوا بمهمّات تافهة،

101- ن. م، ص، 170.
102- ن. م، § 210، ص، 171.
103- ن. م، § 211، ص، 172.
104- ن. م، ن. ص.

من قبيل اثبات «مجموعة ضخمة من التقييمات، أي من الأطروحات والابتكارات القيمية السابقة التي أصبحت سائدة وتُسمّى، لمدة من الزمن، "حقائق"؛ وأن يزجّوها في صيغ، سواء في مجال المنطقي أم السياسي (الأخلاقي) أم الفنّي[105]».

كلا! الفلاسفة الجدد أعفاهم نيتشه من كل هذه المتاعب، ولن يقترفوا، من هنا فصاعدا، خطأ التفكير المنطقي المنضبط بقواعد صارمة، بل سيكتفون بالأمر والنهي، وسيقولون بكلّ حزم: "**هكذا يجب أن يكون**". فلاسفة بالاسم لكن في الواقع ديكتاتوريون متطفلون على الفلسفة: «إنهم **يُعيّنون** بدءا **وجهة الإنسان وغايته** ... يمدّون يدهم الخلاّقة إلى المستقبل، وكل ما هو وما كان يغدو لهم وسيلة وأداة ومطرقة. إن **مَعرفتهم خَلْق، وخَلقهم تشريع**، وإرادتهم للحقيقة إرادة قدرة[106]».

هذا الفيلسوف الديكتاتور مهمّته هي أن يطرح «كِبَر الإنسان، أي مفهوم الكبر... بل إنه سيُعيّن أيضا حتى القيمة والرّتبة وفقا لما يمكن للواحد أن يَحمل ويتحمّل[107]». وما الكبر الذي يجب أن يُنظّر له الفيلسوف؟ إنه إرادة القوة أو بعبارة أدقّ «**القسوة (Härte)** والقدرة على اتّخاذ قرارات طويلة الأمد[108]». يجب على الفيلسوف أن يمحو كلّيّا فكرة السعادة والهناء، أن يختار العيش، هو وأتباعه، في بؤرة توتّر بين نفسه والآخرين. لقد انتهج القرن السادس عشر الأوروبي هذا النهج، ومن قبله اليونانيون القدامى في عهد سقراط، أي نهج السلم والعقلانية، فماذا كانت النتيجة؟ فشلا ذريعا، انحدارا اجتماعيا وعرقيّا مُريعا تواصَل حتى العصر الحاضر «إذ يُحظى في أوروبا حيوان القطيع وحده بالأمجاد ويوزّعها، وقد تنقلب المساواة في الحقوق بسهولة فائقة إلى مساواة في الظلم: إلى حرب مُعمّمة ضد كل نادر وغريب وصاحب امتياز، إلى حرب ضد الإنسان الأعلى والنفس العليا ... إلى حرب ضد غزارة القدرة والسيادة الخلاّقة». وبالجملة، يجب على الفيلسوف أن يدخل في حضيرة آكلي لحوم البشر، «أن يكون إنسانا ما وراء الخير والشرّ[109]».

105- ن. م، ص، 172.

106- ن. م، ص، 173.

107- ن. م، § 212، ص، 174.

108- ن. م، ن. ص.

109- ن. م، ص، 175.

لكن هذا "الفيلسوف" موجود، ونعرفه حقّ المعرفة، بل نراه بالصوت والفيديو، وهو "الفيلسوف" الإرهابي أبو يعرب المرزوقي، الذي يسرّح عنفه واستهتاره وارهابه في كل نشرياته؛ يأمر وينهي على مذاقه، ويحرّض الشباب على قتال الجيش العربي السوري، وينعم بالعيش «وراء الخير والشر». ولا واحد من المثقفين انتصب لمحاربة أفكاره الإرهابية، أو دحضه وفضح مشروعه التخريبي؛ ولا واحد من السّاسة أو الحقوقيين طالب بمحاكمته لتحريضه العلني على قتل الشعب السّوري. فهو يملك حصانة الفيلسوف النيتشوي: أن يقول كل شيء، أن يأمر وينهى ويشرّع ويُعيّن قيمة الأشياء، حسب إرشادات صديقه ماكّاين (McCain) وتعليمات أسياده من مشيخة قَطَر.

نيتشه لا يريد أن يشتغل بالفلسفة، كما فَهمها هو، إلاّ من كان قاسيا، قويا، مَجْبولا على التفلسف، أما من يسمّيهم "أصحاب الأقدام الغليظة (grobe Füsse)"، فلن يَدوسوا قط «مثل هذه السجّادة (solche Teppiche)[110]». والعامل الأقوى الذي يَحُول دونهم ودون تعاطي الفلسفة هو قانون الأشياء الأصلي (Urgesetz der Dinge) وبالتالي فإن «الأبواب تبقى مُوصَدة (die Thüren bleiben ... geschlossen) في وجه هؤلاء اللّجوجين، مهما دقّوا رؤوسهم بها وحطّموها[111]».

أن تَدْرُس الفلسفة في الجامعات، بجدّ ومثابرة، وأن تتابع دروس حُذّاق الأساتذة، وأن تفني شبابك في قراءة أمّهات كُتب كبار الفلاسفة اليونانيين؛ أن تسهر الليالي على مطالعة ديكارت وسبينوزا وبيار بايل ولايبنيتز، فهذا لا يُقرّبك قيد أنملة من الفلسفة الحقة، ولا يُخوّل لك اطلاقا أن تَدّعي التفلسف يوما ما. لهذا الطالب المُتفاني من أجل الفلسفة يُكسّر نيتشه عزيمته ويزفّ له هذا الخبر التعيس: «ليس لك حق في الفلسفة». لماذا؟ ينقصه شيء مهمّ جدا: أصله وفصله؛ نوعيّة الدم الذي يسري في عروقه. وهاكم الجملة التي كتبها هذا المعتوه الداعر، واحكموا أنتم بأنفسكم «**ليس له الحق في الفلسفة** ... إلاّ بفضل **أصله** (*Abkunft*) ... فالحاسم هنا هما **الأسلاف** (Vorfahren) **والدّم** (Geblüt)[112]».

110- ن. م، § 213، ص، 176.

111- ن. م، ص، 176.

112- ن. م، ص، 177.

إنْ لم تكن سيّدا شريفا ابن أشراف، وإنْ لم يَكن يسري في عروقك الدم الارستقراطي الرفيع، فأنت لست أهلا للفلسفة، والأفضل أن تنصرف إلى أعمال أخرى تليق بمقامك ووضعيتك الاجتماعية.

هل ثمة، أتساءل، هل ثمة شيء أكثر قهرا ومَقتا وسفاهة من هذا؟ أنا أعجب للنيتشويّين كيف يُمرّون على هذه الخزعبلات مَرّ الكرام، دون أن تثير فيهم ولو تساؤلا واحدا. لكننا نتفهّم سكوتهم، لأنهم لو سَلّموا بأفكاره وساروا على هديها، لوقعوا في مفارقة رهيبة: إمّا أن يكفّوا عن التفلسف، لأن سيّدهم يمنعهم من ذلك منعا باتا نظرا لعدم انتمائهم إلى الأرستقراطية ولا يسري في عروقهم دم الأكابر، أو أن يتفلسفون خلسة وعنوة عن سيّدهم، خارقين بذلك الحظر الذي وضعه أمامهم.

(شآ)

موضوع نيتشه المُفضل هو الأخلاق، وحينما يُشمّر للتّنظير في المسألة الأخلاقية فهو يُبدي طبيعته الشيطانية الشريرة، والتي مع الأسف تقبّلها أتباعه على أنها أرقى ما توصّل إليه فيلسوف في العصر الحديث. الروحية العالية، لا تعني التخلّق والتحضر والأخوة، بل هي على حد زعمه، تلك الصرامة التي تعي بأنها مُكلّفة «بالحفاظ على نظام التّراتب في العالم (die Ordnung des Ranges in der Welt)[113]»، وهذه التراتبية لا ينبغي أن تقف عند حدّ البشر، بل أن تمتدّ لكي تشمل الكون بأسره.]

أن يقوم شخص بعمل خيّر، دون أغراض مصلحية، فهو يدخل في باب التمويه والخداع[114]؛ أن تحترم شخصَا متخلّقا ناكرا لذاته ولا يأبه بمصلحته الخاصة، فهذا ليس من الفضيلة في شيء، بل «هدرا للفضيلة[115]». وكذلك حبّ البشر، هو تضليل وقناع، لا بل إن "الفيلانثروبيا" تضُرّ بالإنسان الأعلى وبأصحاب الامتيازات. نصيحة فيلسوف اللاّأخلاق بامتياز هي هذه: «يجب، بدءا، إجبار أنماط الأخلاق على الانحناء **أمام التراتبيّة**»، يعني أن تصل بانعدام الضمير والقسوة والعنجهيّة إلى حدّ تجريم من يقول

113- ن. م، § 219، ص، 183.
114- ن. م، § 220، ص، 183 184.
115- ن. م، § 221، ص، 184.

«إن ما يُنْصفُ الواحد يُنْصف الآخر». العدالة الشاملة بين البشر هي أمر لا يكون ولا ينبغي أن يَكون على الإطلاَق، بل هي مَطلبٌ «**لا أخلاقي** (*unmoralisch*)[116]». أليست هذه أباطيل فاقعة؟ أجل هي كذلك، لكن صاحبنا يرى أن «حبّة من الباطل تَليق حتى بحُسن الذوق[117]». والحال أن هذا الرجل لم يأت بِحَبّةٍ فقط، بل بِجَبَلٍ من الأباطيل.

أما التراحُم بين الناس، أي مُشاطرة آلام الآخرين ومُواساتهم في محَنهم، فهو من أكبر الموبقات التي يجرؤ على اقترافها آدمي ما، إنه عارض من عوارِض النكوص الأخلاقي، واحتقار للذات. منعرج قبيح، يسميه نيتشه، أصاب أوروبا وما زال ينمو مُطّردا منذ قرن[118]. أن يتألّم الإنسان الحديث لآلام الآخرين فهو مغرور مُمَوّه، لا بل هو «**قِرْد صَلف** (stolze Affe) غير راض عن نفسه».

إن الحس التاريخي الأوروبي، يواصل نيتشه، تَولّدَ من عامل خطير جدا: النزعة الديموقراطية والخلط بين الطبقات والأعراق، وهذا التقهقر تمظهر في قرن التحرر والعلم والعقلانية والوضعية ومحق الخرافات، أي القرن التاسع عشر. يجب التخلص من هذا الحس، أو جَلْبه لصالحنا، وجعله في خدمة البربرية الحديثة، وهكذا نصبح مثل الفارس المقدام «لا نرتع في **نعيمنا** إلاّ هناك حيث **تُهددنا أعظم الأخطار**[119]».

كل مَن يَطلب لذّة بريئة، وكل من يهرب من الألم وهذان مبدآن يتماشيان مع الغرائز الإنسانية ومَرسومان في كينونة النفوس، (ما عدا الإرهابي التفجيري، الذي يطلب الألم وينفر من لذة الحياة، على أساس استيهامات ظلامية شريرة) فهو، في رأي نيتشه، إنسان وضيع وعَمله لا يليق بالأنفس النبيلة الراقية. لذلك فهو يستنكر على الفلاسفة الذين ينظّرون لمثل هذه المبادئ؛ ويعيب عليهم تشبّثهم بأنماط فكرية سطحية ساذجة جديرة بالاستخفاف والتهكّم وحتى الشفقة. لكن، لرفع كل التباس، فهو ينبّه قراءه إلى أنه لا يشعر إزاءهم بالشفقة المُتعارف عليها. لا. أبدا، هو بعيد عن الشفقة المبتذلة السوقية التي تتمثل في «الإشفاق على البؤس الاجتماعي، على المجتمع ومَرضاه ومَنكوبِيه، على فُسّاق ومُحطّمين منذ الأزل، كما نراهم مطروحين من حولنا؛

116- ن. م، ص، 185.

117- ن. م، ن. ص.

118- ن. م، § 222، ص، 185.

119- ن. م، § 224، ص، 189.

وهو ليس بأي حال على فئات العبيد المُتململة المقهورة والمتمرّدة والتي تطمع بالسيادة وتسمّيها الحرية[120]».

لاحظوا شُحنَة التعنيف والغلّ والقسوة الكامنة في هذا الجَرد من الأشخاص الذين لا يريد أن يشفق عليهم، بل يريد أن يسحقهم كليا. أنا لا ألومه على هذه الشحنة الفظيعة من العنف، لقد تعوّدنا عليها وهي مستقرّة في ذهنه منذ كتاباته الأولى، أنا أعيب على من جعل من هذا الرجل عَلَمًا شامخًا من أعلام الفكر البشري.

يريد المُشفِقون تخفيف الألم ويعملون على إلغاء المعاناة، وهذه خطيئتهم الكبرى، لكنه هو عازم على وضع الأشياء في نصابها، وترك الألم يتفاقم لا بل «نريده بالأحرى **أعظم وأسوأ** ممّا كان عليه يوما**!**[121]». أن تبغي الهناء، فأنت واهم، بل أضحوكة وحقارة، من الأفضل لك أن تهلك بدل نَيْله. الألم الذاتي وتعذيب النفس والاستمتاع بتعذيب الآخرين هي مدرسة تُربّي الرجال الأقوياء والمغامرين والغازين. نيتشه يريد أن يُحبّب ثقافة الألم والموت العنيف، وأن يجعل منها برنامجا لتنشئة الأحداث «إنّ التّأدّب بالألم، بالألم الكبير ألاَ تعلمون أن هذا التأدّب وحده خلق حتى الآن كل ترقّيات الإنسان؟».

والآن يدخل في التفاصيل وكأنه يصف لنا معسكرات تدريب الإرهابيين الإسلاميين في أفغانستان وفي الموصل وليبيا وسيناء، وكالعادة الكلّ مُحلّى بكلام إنشائي خطابي: «**شدّة النفس** في حضرة **الهَلاك الكبير**، وحيلتها وبأسها في تحمّل الشقاء ومُجالَدَته وتأويله واستثماره، وكلّ ما وُهب لها يوما من عمق وسرّ وقناع وروح ومكر كبير ... ألم يوهب لها تحت وطأة التألّم ووطأة التأدّب بالألم الكبير؟ في الإنسان اتّحدَ المخلوق والخالق: في الإنسان خامة وقطع وزوائد وطين ووحل وسُخف و"خاوُسْ"؛ لكن، في الإنسان أيضا خالقا وصانعا وقسوة طارقة وألوهية متفرّجة ويوما سابعا ... هل تفهمون هذا التضادّ[122]».

المشفقون، على أيّة حال، مُغيّبون تائهون لأنهم لا يعلمون أن إشفاقهم هو عمل تخريبي بالأساس، لم يجلب إلاّ الوبال للبشرية، وبالتالي يجب كسره ومحقه تماما: «أتَفْهَمون أنّ شفقتكم تعني ما يجب أن يُكوَّن ويُكسّر ويُطرَق ويُصهَر ويُمَزَّق ويُحَمَّى

120- ن. م، § 225، ص، 190.

121- ن. م، ن. ص.

122- ن. م، ص، 190 191.

ويُطَهّر؛ تعني ما يجب وما ينبغي بالضرورة أن يتألّم؟ ألا تدرون من يعني إشفاقنا المعاكس حين نتصدى لشفقتكم بوصفها أردأ أنواع الترهيل والاضعاف؟ إشفاق ضد إشفاق إذن![123]».

(صآ)

قسوة إلى أبعد الحدود، وشيطانية مُرعبة، وميل إلى المحظور، وتحريض على الغزو والقهر والاستعباد، هذه هي الوصْفة الدائمة التي ينصح بها نيتشه، ويتفاخر بتقد يمها لقرّائه الذين كانواَ يُعَدّون على أصابع اليد، ثم تكاثروا وأصبحوا الآن جيشا عرمرما: «فلنبْق قساة، ولنُسعفها بكلّ ما فينا من شيطاني... بمَيْلنا إلى المحظور، بجرأتنا المقدامة.. بإرادتنا للقدرة ولقهر العالم وبأكثرها تقنّعا ... لَنُسعف إلهنا بكلّ **شيطانينا**».]

ولا يُبالي إن جاء شخص واتّهمه بأنه روح شيطاني، لأن مثال نيتشه الأعلى هو تحديدا شيطان في صورة إله «ألم تكن كل الآلهة إلى الآن **شياطين** أعيد تعميدها لتكون قدّوسة؟[124]».

وبالتوازي مع الشيطان فهو يُثني على الحيوان المفترس، أو على ما أسماه السّبعيّة، يقول إن على المرء أن يُغيّر فَهمه للسبعيّة (die Grausamkeit)، وقد نذر نفسه وجنّد علمه الفيلولوجي لكي يبرهن على أن السبعيّة هي أروع خصلة يتحلّى بها الإنسان، وأنها لم تختَف تماما، كما يُعتَقد، بل تمّ فقط رَوْحَنتها، وبالتالي من الأفضل إبرازها مجددا وتركها تُعبّر عن نفسها بكل حرية، يعني أن نخلق مقاتلين شرسين يسلخون البشر على المباشر. التبرير الفيلولوجي للسبعية هو هذا: «ما يثير النشوة في حضرة التراجيديا هو السّبْعيّة؛ وما يقع في النفوس موقعا عذبا في حضرة ما يُسمّى بالتّأثير التراجيدي، وأصلا في حضرة كل سامّ ... لا يستمدّ عذوبته إلاّ ممّا يشوبه من سبْعيّة».

أما التاريخ القديم فهو أيضا، في رأيه، يُدعّم السّبعية من حيث إن «ما يلتذّ به الروماني في الحلبة والمسيحي في نشوة الصليب»، هو التعذيب، والتاريخ الحديث يُمكن قراءته أيضا على أنه سبعيّة وتعذيب «فالإسباني أمام المحرقة أو صراع الثيران،

123- ن. م، ص، 191.

124- ن. م، § 227، ص، 192.

والياباني المعاصر المندفع إلى التراجيديا، والعامل في ضواحي باريس التائق إلى وطن الثورات الدمويّة ... ما يتلذذ به هؤلاء جميعا وما يلهجون بجرعه في وَلَهٍ مُلغِز هو رحيق الساحرة الكبيرة سبْعيّة المبهر[125]».

لكن القدماء الذين فهموا، مثل أرسطو، أن رؤية آلام الآخرين تولّد مشاعر الشفقة، هم بلهاء، لأن بالنسبة لدراكولا، المتعة الكبرى تكمن في الألم، في تعذيب الذات والغير: «ثمّة مُتعة كبيرة، بل غامرة، في التألّم وإيلام الذات[126]». ومَن من الإرهابيّين الاسلاميين التفجيريين لم يُفكر في متعة تفجير نفسه والنكاية بالآخرين؟ ألا يعتبرها قمّة النشوة، ولذة غامرة، كما يصفها نيتشه؟

إن أغرب ما قرأته هو الخلط المُريع والمقصود طبعا، بين السبعيّة والمَعرفة، وتَحويلُ العالم الكاشف الشغوف بالبحث، إلى سبع مفترس «إن العارف نفسه، إذ يُكره روحَه علىَ المعرفة غصبا عن ميل الروح»، لأن مَيل الروح البشري يذهب إلى الجهلَ، لا إلى العلم؛ فالعلم هو غَصْب للقلب والروح، خروج عن الإيمان الجاهل: «غصبا عن أماني القلب، أي يُكرهه على أن يقول: "لا"، حيث يرغب في "النعم" والحب والعبادة». العارف هو إنسان كافر، قاسي القلب «يتفنّن في السّبعية ويجعلها شفّافة»، وبالجملة العلْم هو الدمار والقهر «**كل تعمّق وسبر للأغوار هو في حدّ ذاته اغتصاب**، هو إلحاق الأَذى بالإرادة الأصلية للروح الذي **ينزع من دون انقطاع إلى الظاهر والسطح**؛ وفي كل **إرادة للمعرفة** قطرة من **السّبْعية**[127]».

"يحيا الجهل، ويسقط العلم". هذا هو شعار نيتشه، يقوله صراحة، دون موار بة، ويكرّره ليس مرة واحدة، بل عشرات المرات في جميع كتبه. فعلا، عدوّ العلم يقول إن الإرادة الجامحة تخدمها غريزة للروح تتخذ «**قرارا حازما بالجهل** (***Entschluss zur Unwissenheit***)[128]»، لا بل أكثر من ذلك وأخطر «**ترحيبٌ بالجهل واستحسانٌ له** (***ein Ja-sagen und Gutheissen der Unwissenheit***)[129]».

125- ن. م، § 229، ص، 196.

126- ن. م، ص، 196 197.

127- ن. م، ص، 197.

128- ن. م، § 230، ص، 198.

129- ن. م، ص، 198. والدعوة للجهل تجدونها مصاغة على هذا النحو (لكي تفهموها جيدا، احذفوا كل الكلام

هذه الرسالة النبيلة، في عينه، رسالة الجهل لم يستوعبها العلماء المحدثون، وهم يواصلون غيّهم ويطلبون معرفة الأشياء كما هي. فعوض أن يكتفوا بإرادة الظاهر والمكوث على السطح ولبس القناع، يريدون رؤية «الأمور بعمقها وتعدّدها وأغوارها، نزعة هي بمثابة سبعية في الذوق والوجدان العقلاني[130]».

إنّ قمّة الضلال والبغي أن ترى الأمور في العمق وأن تغوص في أغوارها، وبالتالي، نصيحة نيتشه، هي أنه من الأفضل للإنسان أن يتخلّى عن شغفه المعرفي، ويعود إلى طبيعته الأولى، أي أن ينزوي في الكهوف الدّامسة؛ وأن يمشي على أربع ويهوي في حالة بدائية، أو ما يسميه نيتشه "**إنسان الطبيعة** (Homo natura)"، الإنسان الأصلي الرهيب، كما يصفه. إذن «لم المعرفة بعامّة؟ (warum überhaupt Erkenntnis?)[131]». فعلا، لمَ المعرفة؟ وما الداعَي إلى إفناء العُمر في دراسة الفلك والرياضيات والطب والفلسفَة، وحياة الإنسان لا قيمة لها «وسيَفْقدها في كل الأحوال دائما[132]»؟ مَن من العقلاء يريد أن ينسى إنسانيّته الزائلة المحدودة أو يُضحّي بها من أجل العلم؟ العلَمُ ضارّ بالعلماء، يَصْرخ نيتشه، منذ كتاباته الأولى (**شوبنهاور مُربّيا**)، تصوّروا مدى تجذّر هذا العداء للعلم وتواصله عبر الزمن. العِلم ضارّ بالصحّة، وخير دليل على ذلك هو مفعوله على أجساد العلماء المُنكبّين على البحث والتدقيق: «**لقد صارت أجسادهم مُحدّبة ومُعوجّة خلال الإخلاص الطائش والمبكّر للعلم**[133]». مَن هو الإنسان العاقل، الحافظ لصحّته، الذي مازالت له الجرأة على الاقتراب من العلم؟

وماذا يمكنه أن يعرف إذا كانت المفاهيم التي يقوم عليها العلم هي أوهام؟ إذا كانت الوحدة والهوية والديمومة والجوهر والعلة، والكينونة، **مجرد أخطاء**[134]؟ كل المفاهيم التي يرتكز عليها تَعقّلنا للعالم اختزلها إلى ما أسماه بـ "فِتِيشيّة

الانشائي والخطابة المطوّلة): «... الروح تنزع إلى النموّ، إلى الشعور بالنموّ، إلى الشعور بالقوّة المتزايدة. وتلك الإرادة عينها تعمل في خدمتها غريزة للروح تبدو معاكسة، قرار ينبلج فجأة، قرار بالجهل والانطواء الاعتباطي، قرار ليس سوى اغلاق للنوافذ ورفض جوّاني لهذا الشيء أو ذاك وحال من التمنّع والتحصّن ضد الكثير مما يمكن معرفته، اقتناع بالإبهام والأفق المُحكم الإغلاق وترحيب بالجهل والاستحسان له»

130- ن. م، ص، 199.

131- ن. م، ص، 200.

132- نيتشه، شوبنهاور مربيّا، ترجمة قحطان جاسم، منشورات الاختلاف منشورات ضفاف، الرباط الجزائر العاصمة، 2016، § 1، ص، 20.

133- ن. م، ص، 26.

134- نيتشه، **غسق الأوثان**، § 5، ص، 40.

(Fetischwesen)"، ترى فاعلين وأفعالا في كل مكان، وتؤمن بالذات، بالذات ككائن، بالذات كجوهر[135]. لم يكتف بسحب المفاهيم العلمية، بل أتمّه بسحب العالم الحقيقي ذاته، واعتباره «فكرة لم تعد صالحة لشيء، وليست ملزِمة، فكرة فائضة عن اللزوم، فكرة مَدحوضة: لِنُلْغها إذن[136]».

والقارئ ينتظر، بعد أن ألَغي فيلسوفنا العالم الحقيقي، أن يترك له شيئا ما، على الأقل الشعور بأنه "ذات" يعيش بين ذوات أخرى، يتواصل معها في محيط مادي مُتيقّن من وجوده مبدئيا عن طريق الحواس. لكن حتى هذا العالم الظاهر، يسحبه منه «مع العالم الحقيقي قد ألغيْنا أيضا عالم الظاهر![137]»، ويتركه تائها، مُشتّت الذهن، فاقدا لصوابه تماما.

(ضآ)

وقد فعّل هذه الروح الشيطانية في مجال حقوق المرأة، وخرج بتعليلات لحركة التحرّر النسوي في زمانه تفوق الخيال في هذيانها. زعم أن الطبيعة البدائية للذكور في أوروبا تمّ تخريبها بسبب نزعتهم لاكتساب العلوم، وإرادة الغوص في الأشياء ومعرفتها كما هي. لكن الخطورة العظمى هي أن هذا التخريب تَعدّى مفعوله إلى الجنس اللطيف، الذي من المفروض أن يلزم حدود الجهل المطبق ويواصل في مُهمّة ترفيه الرجال وإنجاب الذّراري.]

المرأة الحديثة «تُريد أن تستقلّ[138]»، وهذه أولى المُوبقات التي أقدَمَت عليها. ثم تمادت وأصبحت تُلقّن الرجال الدروس، وتريد «تنوير الرجال حول المرأة في ذاتها»، وهذا الأمر يمثل بالنسبة لنيتشه، كاره النساء وكاره البشر، «شكلاً من أرْدَأ أشكال التقدّم الملازمة لتقبيح أوروبا العام[139]». إذن نحن أمام خطر داهم لا يمكن تخيّل انعكاساته السلبية على المجتمعات الأوروبية «هذه المحاولات الأنثوية العِلميّة الخرقاء؛ هذا التعرّي الأنثوي[140]».

135- ن. م، ص، 40.

136- ن. م، «كيف تحول العالم الحقيقي ...»، ص، 46.

137- ن. م، ص، 47.

138- نيتشه، **ما وراء الخير والشرّ**، م. س، § 232، ص، 201.

139- ن. م، ن. ص.

140- ن. م، ن. ص.

ألا تَسْتَح من نفسها؟ ألا تلزم أنوثتها؟ المرأة لديها دواع كثيرة للحياء؛ فعلا في المرأة يكمن كثير من التحذلق، والسطحيّة، والنفاق، الادعّاء التافه، والاستهتار والتعجرف[141]. هذه هي الطبيعة الحقة للمرأة، وللتثبّت، حسبك أن تدرس علاقتها بالأطفال. الويل الويل، يصرخ نيتشه، أن تفكّر المرأة في التخلص من صفاتها التافهة، وتكف عن الخوف من الرجل، أو أن تبدأ في نسيان مفاتنها وفن الرشاقة واللعب، والخفة وتبديد همّ الرجل «ومهارتها في ريّ شهوات مُحبّبة[142]».

هذا هو عالم نيتشه النّسوي، وهكذا يجب أن يكون ويستمرّ عليه، لكن ثمة سيرورة معاكسة بدأت تتصاعد في زمنه «وأخذت ترتفع أصوات نسائية، ترتعد لها الفرائص، وهي تُهدّد بما تريده المرأة من الرجل أوّلا وأخيرا. ألا ينمّ ما تجهد به المرأة في سعيها إلى العلميّة عن أردأ الأذواق؟[143]». لكن العلم للرجال فقط، هكذا كان، وهكذا سيكون «**حتى الآن، ولحسن الحظ، كان التنوّر شأن الرجال وهِبَة الرجال**». المرأة تريد السيادة، ولا تريد الحقيقة (es will nicht Wahrheit). وما علاقة المرأة بالحقيقة؟ موضوعيا: لا شيء، فهما بعيدان بعد السماء على الأرض. فعلا «لا شيء أغرب على المرأة من الحقيقة، لا شيء تَمْقته وتَعافه أكثر من الحقيقة[144]». المرأة ضالعة في شيء واحد: الكذب «**فنّها الكبير هو الكذب** (seine grosse Kunst ist die Lüge)، غرضها الأعلى هو الظاهر والتجمّل[145]». وهذا ما يريده نيتشه والرجال الذين يعرفهم، يريد امرأة حمقاء، تتجمّل للرجل ولا تلمس كتابا قط، ولا تأخذ قلما أو كراسا بيديها اطلاقا.

لماذا نعيب على أبي إسحاق الحُويني، الشيخ الوهابي الإرهابي، الذي يقول «العلم إنما هو للرجال، للرِّجّالة بسّ. أيُّ امرأة، مهما صعدت، هي مُقلّدة وعامّية ... لأن الجهل فاش في النساء، وهذا أمر معروف». على المرأة أن تلزم جدران بيتها وترضى بوضعيّتهاً الحيوانية لأن الأصل يقول الحويني «الأصل عندنا أن تَقَرّ المرأة في بيتها، وأن تعتزل الرجال، وهذا هو الأصل الأصيل في القرآن والسنة».

141- ن. م، ص، 201.

142- ن. م، ص، 202.

143- ن. م، ن. ص.

144- ن. م، ن. ص.

145- ن. م، ن. ص.

حاوِلوا أن تجدوا اختلافا واحدا بين الوهابي الحويني وبين نبيّ زرادشت نيتشه. نحن الرَجال، يقول نيتشه، نحبّ في المرأة هذا الفنّ بعينه، فنّ الجهل، وهذه الفطرة بعينها، فطرة الحماقة، لكي نتسلّى من حماقتها ونُرَوّح عن أنفسنا من ثقل وعمق أفكارنا. العمق والعدل والصدق، خصال غائبة عن علاقة المرأة بالرجل، وأكثر من ذلك عن علاقة النساء في ما بينهُنّ. النسوة، في عرف نيتشه هن أعدى أعداء أنفُسهنّ، والمرأة عموما تلقى أشد الازدراء «من قِبَل المرأة نفسها، وليس منّا البتّة».

نحن نكتفي فقط بالتمنّي أن لا تتنوّر المرأة وأن لا تتعلّم القراءة والكتابة وأن لا ترفع صوتها، ولا ينقص نيتشه إلاّ التفوّه بكلمة "عورة"، وهكذا يلتحق بأشرس الوهابيّين. لكن شيئا من هذا القبيل نجده في ثنايا نصّه الذي بين أيدينا ، حيث نَبَش على قولة لبولس الرسول يأمر فيها النساء بأن يَصْمُتن في الكنيسة «(Mulier taceat in Ecclesia)»، وهذا الأمر يراه نيتشه رفقا بالمرأة ورعاية لها من طرف الكنيسة ورسولها. وفي العصر الحديث قام نابليون بشيء من هذا القبيل في ميدان السياسة، حينما قال لمدام دو ستايل: فلتخرس المرأة في السياسة، ونيتشه هو بدوره يريد أن يضيف مساهمة أخرى في سبيل إسكاتها إلى الأبد: **فلتخرس المرأة حول المرأة**[146]. ولم يبق لها إلاّ أن تموت موتا بطيئا بين أربعة جدران.

النظرية النيتشوية الغريبة وهنا لا بد من تجاوز حد الاستغراب إلى الاشمئزاز هي أن المرأة إذا قرأتْ كَاتبَات وأديبات عظيمات، وكُتّابا مناصرين لتحرّر المرأة، من قبيل مدام دو ستايل ومدامَ رولاند أو مسْيو جورج ساند، واستشهدت بهم فإن هذا دليل قويّ على «فساد الفِطرة ورداءة الذّوق[147]»، لأن هؤلاء الثلاثة «أضحوكة لا غير»، ويقدّمون بأنفسهم الحُجج الدامغة ضد أي تحرّر نسوي.

مكان المرأة هو المطبخ، هذه هي العادة السائدة منذ آلاف السنين، ولكن بما أن المرأة ناقصة عقل وتدبير، فهي لا تستطيع حتى أن تقوم بهذه المهمّة، أي مهمة الطبخ على أحسن وجه. ونيتشه يتحسّر لا على وضعيتها الدّونية، بل على غبائها واهمالها الناتج عن قلة معرفتها: «يا للإهمال المرعب في تغذية العائلة وربّ البيت! المرأة لا تَفْقَه معنى الطعام، وتريد أن تكون طبّاخة! ولو كانت المرأة كائنا مفكرا لَوَجَب عليها،

146- ن. م. ص. 203.

147- ن. م، § 233، ص، 203.

لكونها طبّاخة منذ آلاف السنين، أن تَعثر على أكبر الحقائق الفيزيولوجية وتمتلك كذلك فنّ العلاج![148]». إذن المرأة الطباخة كارِثة على البشرية جمعاء «بسبب رِداءة الطبّاخات، والغياب الكامل للعقل في المطبخ، أُعيق تطوّر الإنسان لأطول مدّة، وأُنزِل به أشدّ الضرر[149]».

لكن الأمّ التي تنصح ابنها بأن يكون **أحمقا** وأن يرتكب دوما **الحماقات**، فهذه يعتبرها قمة الأمومة، وأجمل تصرّف للأمهات مع أبنائهنّ، بل هي مُهمّتهن التربوية الكبيرة. والواقعة التاريخية التي تُبلور هذه الفكرة، هي تلك الكلمة التي وجّهتها «مدام دو لامبير إلى ابنها، إذ قالت له: "يا عزيزي، لا تسمح لنفسك البتّة **إلاّ بالحماقات** التي تمنحك لذّة كبرى"[150]». هذه القولة أعجبت نيتشه وجعل منها عنوان الأمومة «الكلمة الأكثر أمومة وذكاء التي وُجّهت يوما إلى ابن من الأبناء[151]».

هكذا يتعامل نيتشه مع المرأة، هذه هي مفرداته وتعابيره وأقصى ما أوحت له به فلسفته في الحياة. لقد انقضّ عليها بشراسته المعهودة، حقّرها، ومرّغ كرامتها في التراب، ويقول ذلك بكل أريحية ورضى عن النفس. ولكي يُمعن في إهانتها، قام بتحليل "سوسيولوجي" لطموح المرأة للتحرر، فلم يجد له من تفسير إلاّ في انحطاط الرّجل؛ وتتركز دواعي هذا الانحطاط في الغول الذي ابتدعه الأوروبي الحديث: الديمقراطية. النتيجة الكارثيّة هي أن المرأة فقدت **الحياء** (das Weib verliert an **Scham**)، يعني أصبحت داعرة، بلغة الإسلاميين. إن احترام الرجل للمرأة هو الخطأ الرئيسي الذي انجرّت عنه كوارث اجتماعية كبرى، وتولّدت عنه سلسلة من الموبقات التي «سارعت إلى إساءة استعمال هذا الاحترام[152]». وإساءة الاستعمال هذا يتبدّى في رفع سقف مطالبها حتى وصلت إلى حدّ التسابق مع الرجل والمبارزة من أجل افتكاك حقوقها كاملة.

كيف تتجرّأ؟ كيف تتعلّم أن لا تخاف الرّجل؟ ألا تَعلم أن عدم خوفها من الرجل يعني أنها «تتخلّى عن أكثر فطرتها أنوثة[153]»؟ إنها علامات آخر الزمن، أن تسترجل

148- ن. م، § 234، ص، 204.

149- ثم أضاف: «وليس الأمر اليوم على أفضل بكثير. هذا كلام موجّه إلى بنات الطبقة الرفيعة».

150- ن. م، § 235، ص، 204.

151- ن. م، ن. ص.

152- ن. م، § 239، ص، 207.

153- ن. م، ن. ص.

المرأة ويتخنّث الرجل، وما كان ليحدث هذا القلب المريع للقيم لولا تنازل الرجل عن قوّته والاستهانة بما جُبل عليه من بَطْش، يعني تخلّيه «عن الرجولة فيه (der Mann im Manne)[154]». وهو ما يحدث اليومَ، يقول نيتشه، في عالما الحديث، ويتغبّن على ما آل إليه الحال من انحدار قيمي مريع زاد في تصعيد حدّته انقلاب الحداثة العلمية والصناعية على التراث المجيد: «أينما انتصر الروح الصناعي على الروح العسكري والارستقراطي» فثمة الكارثة؛ وحيثما اختلطت المرأة بالرجال في المصانع ودخلت في تنظيماتهم النقابية إلاّ وحاولت هي أيضا أن تنسج على منوالهم وتُطالب باستقلالها الذاتي وحقوقها: «**نراها تسعى إلى الاستقلال الاقتصادي والحقوقي الخاص بالشغيل**». يا لها من مهزلة**!** «المرأة شغيلا**!** ذاك ما هو مكتوب فوق بوّابة المجتمع الحديث الذي هو قيد التّشكّل155».

تصوّروا الكارثة الأنثروبولوجية التي كانت ستحدث لو أن المجتمع الغربي أنْصَت إلى كلام نيتشه وطبّقَ إرشاداته على أرض الواقع؛ تصوّروا حجم المأساة لو أن أوروبا أنزلت اللافتة من فوق بوّابة المجتمع الحديث (لافتة التحرر والمساواة بين الجنسين)، وأرجَعَت المرأة إلى البيت وأوصدت عليها الأبواب ولفّتها في كيس أسود، كما يفعل الوهابيّ؟ لكن نيتشه، مثل الوهابي، يريد بكل الوسائل الحفاظ على الوضعيّة الدونية للمرأة وسحق شخصيّتها بالكامل، لا بل إنه انتصب مثل شيوخ الفضائيات كداعية يُحذّر وينصح ويُنبّه من مخاطر استيلاء المرأة على حقوق جديدة، ومن بعدها السعي إلى «أن تصير السيّد وتكتب على أعلامها وخِرَقِها: التقدّم للمرأة». كل هذا لا يمكن قبوله، لأنه علامة «تقهقر المرأة» وليس تقدمها.

وقد بدأ هذا التقهقر منذ «الثورة الفرنسية»، ومُعادلة نيتشه الغريبة هي أن نفوذ المرأة يتضاءل «بقدر ما تزداد حقوقها ومطالبها». وعلى هذا النحو «فإن تحرّر المرأة، بقدر ما تُطالب به وتُشجّع عليه النساء (وليس الرؤوس المُسطّحة وحسب)، إن هذا التحرّر يتجلّى كعارض لافت من عوارض تزايد الضعف والفتور في أكثر الفطَر أنوثةً. ثمة غباء في هذه الحركة، غباء يكاد يكون ذكوريًا، وعلى كل امرأة حسنة التكَوين، أي ذكيّة بالضرورة، أن تخجل منه كل الخجل[156]».

154- ن. م، ن. ص.

155- ن. م، ص، 207.

156- ن. م، ن. ص.

على المرأة أن تمكث في بيتها، أن تعتني بترفيه الرجل وأن تتجمّل له، وتُفرّخ أبناء أشدّاء إرهابيين، هذا ما ينصح به نيتشه، وما ينصح به الوهابي المسلم على حدّ سواء. الويل لها إن أهملتْ التدرّب على فنون استعمال السلاح الخاص بها، أو الاستهتار بالنفس أمام الرجل «**وصولا إلى تأليف الكتب**[157]». لا سمح الله: أن تتعلّم المرأة وتذهب إلى المدرسة وتَرفع الجهل عنها، وأن تُقدم على الابداع الفكري أو تتألق في الكتابة، فهذه من أكبر الكبائر بالنسبة لنيتشه. لذلك فإن المجتمع الحديث هو **مجتمع الكبائر**، لقد عمّم التعليم وأتاح للجميع امتلاك قَدر من الثقافة (allerallgemeinste Bildung) يعني في عرف نيتشه «عمّم البربرية (eben die Barbarei)[158]»، وأخطر من ذلك أن الثقافة للجميع هي مرحلة مُهيّئة للشيوعية (Vorstadium des Communismus)[159].

نيتشه يريد **مجتمعا جاهلا** لا يتعلّم فيه القراءة والكتابة إلاّ أبناء الطبقة الأرستقراطية، أما باقي الشعب فيجب أن يمنع منعا باتا من التعليم كي يبقى كادحا لأسياده. في زرادشت يحذر من **مخاطر التعليم العام**: «أن يغدو من حقّ أيٍّ كان أن يتعلّم القراءة، فذلك ما سيُفسد بمرور الزمن لا الكتابة وحدها، بل والتفكير أيضا[160]». أما إذا وصلت الثقافة إلى المرأة فإن المجتمع بأسره سيُصاب بالخراب. ومرة أخرى المرأة أخلّت بخصالها الحميدة؛ خرجت عن طور المعقول وبدأت تتطاول على الرجل، فبدل «التّحلّي بتأدّب وتواضع لطيف ماكر، كما في السابق؛ والتصدّي بصلف مُتعفّف لإيمان الرجل أن في المرأة يكمن مثال مُغاير كلّيا، أن ثمة شيئا ما أنثوي دائم وضروري، تلتفع به المرأة؛ والحرص على إقناع الرجل، بذلاقة وإلحاح، بأن المرأة، شأنها شأن **حيوان داجن** رقيق، حوشيّ غريب مُمتع في الغالب، لا تحتاج إلى من يحوطها ويرعاها ويحميها ويرفق بها»، بدل كل هذا فإن المرأة أصبحت تتجرّأ على **محاكمة التاريخ** والمجتمع القديم الذي اضطهدها. وتمادت في البحث «باستياء أخرق عن كل العبودية والتبعيّة التي اتّصف بها وضع المرأة في نظام المجتمع السابق ولا يزال[161]».

لكنّهن غبيّات، لأنهنّ لا يَعلمن أن العبودية ليست «**بحُجّة ضدّ كل حضارة راقية** (Sklaverei ein Gegenargument)»، لا بل العبودية هي «**شرط لكل حضارة راقية**

157- ن. م، ص، 208.

158- F. Nietzsche, Über die Zukunft unserer Bildungsanstalten. Vortrag I, in Werke. Bd. 1, p. 668.

159- Nachlaß 1869-1874, in Werke, Bd 7, p. 243.

160- نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، «عن القراءة والكتابة»، ص، 86.

161- **نيتشه، ما وراء الخير والشر**، م. س. ن. م، § 239، ص، 208.

ولكلّ سموّ حضاري (Sklaverei … eine Bedingung jeder höheren Cultur, jeder Erhöhung der Cultur sei)[162]».

(طآ)

ورغم هذه الإهانات الفظيعة للمرأة، وسَيْل الشتائم والأحقاد التي لا يُضاهيه فيها إلاّ الإسلامي المتطرف، فإن العديد من النّساء يَعْشِقن نيتشه، ويَتبنّيْن أفكاره بكل اعجاب واحترام.]

أنا لا أدري لمَ نُتابع قراءة كُتب شخص إرهابي، عبودي، فظّ، استعماري ومجنون؟ أليس عَار على النيتشويين أن يُسوَّقوا لنا بضاعة فاسدة مُتعفّنة من هذا القبيل؟ أنا لم أتجشّم قراءة كُتبه، وتتبّع أفكاره، والصّبر على تجرّع خزعبلاته إلاّ لأن أتباعه جعلوا منه حبْر الأمة، أعظم عقل في العالم، سحبت منه الطبيعة نسخة واحدة، ثم أقفلت الحنفية. لقد نَغّصوا علينا حياتنا الفكرية ولوّثوها بانبطاحهم أمام هذا النبيّ الكذاب؛ ولم يكتفوا بذلك بل إنهم يتربّصون بالنّقاد، ويَترصّدون كل من يشقّ عصا طاعته، وينتقد مَعلمهم الفكري، وأغربها وأشدّها نكالا هو تعلّق النسوة بنيتشه، بل ثمة من تدّعي بأنها نيتشويّة حتى النّخاع. لكنّهن نَسينَ أن هذا الرجل يُهينُهن أشد الإهانة ويُمرّغ كرامتهن في التراب: يَصفهنّ بأنهن قاصرات عقل، يُسميهنّ حمقاوات، بل "ملْك يَمين". لا أجد شَبها لعاشقات نيتشه من النساء إلاّ النسوة الإسلاميات. فهنّ أيضا يَتشبّثن بالإسلام، رغم أن القرآن يُهينهن بشكل فظيع، ويسمّيهن "ملك يمين"، ويقول بالحرف إن المرأة هي حرث للرجل، وأن الرجال قوّامون على النساء وأنهن يرثن نصف ما يرث الرجل وشهادتهن منقوصة، ويمنعهنّ حتى من الخروج من البيت (**قرْنَ في بيوتكنّ**)، ومع ذلك يَتناسيْن كل هذا الإذلال، ويملكن الشجاعة للقول بأن القرآن حرّر المرأة، وأن الإسلام حلاوة في حلاوة.

بالنسبة لنيتشه، الأنوثة فحسب، ولا شيء يعلو على الأنوثة، كمُقوّم أساسي ووحيد لشخصية المرأة؛ الثقافة هي الداء الذي يجب صرف النساء عنه؛ التعليم هو وبال على فطرة الأنوثة، وهو الطريق الأقصر لتخريب طبيعة المرأة، بحيث إن «فطرة

162- ن. م، ن. ص.

الأنوثة تتضعضع والمرأة تخلع أنوثتها[163]». وبدل أن يتصدّى الرجال إلى هذا التخريب الممنهج، (كما فعلت طالبان في أفغانستان)، فإن «ضمن **الحمير المتعلّمة من الجنس الذكوري**، عدد كاف من أصدقاء النساء ومُفسدي النساء الحمق[164]». وما هي تُهمة هؤلاء الحمير من الرجال؟ يريدون تعليم المرأة وتمزيق حُجب الجهالة والدونية عنها، لكن هذه التصرفات بالنسبة لنيتشه، لا تمثل رفعا من مستوى المرأة بل «هبوطا بالمرأة إلى مستوى الثقافة العامة، وجرّها حتى إلى قراءة الجرائد ومُزاولة السياسة». إن هذا النص النيتشوي كأنه مجعول خصّيصا لطالبان والقاعدة وداعش وإيران ودُول الخليج البائسة التي لا ترى في المرأة إلاّ دُمية ناقصة عقل ودين، وجسدا للاستمتاع.

أمّا أن تكون المرأة مُتعلّمة وصاحبة قرار سياسيّ، ومفكّرة حرّة، متنوّرة، وناقدة للدين، فهذه مهزلة المهازل. ونيتشه يسخر بمرارة وحقد من الرجال الذين يُشجّعون المرأة على الخروج من ضيق الدين، والتحرر من قيود الجهل، يعني أن يجعلوا «من النساء **أرواحا حرّة** (Freigeister) **وأديبات**[165]».

وكيف للمرأة أن تتجرّأ على الخروج من قوالب الدين وتصبح مفكرة حرة، إذا كان نيتشه يستهين بالمفكرين الأحرار من الرجال وينعتهم بأقذع النعوت؟ وها هو يكيل أيضا للمرأة، التي تطمح في التحرّر من أغلال الدين، أقذع النعوت، ويقول بالحرف إن «**امرأة بلا تقوى** (Weib ohne Frömmigkeit)»، هي «**كريهة** (Widriges) **ومُضحكة** (Lächerliches) كلّيا[166]».

وهكذا فإن على المرأة، في دولة نيتشه، أن تلزم حدود أنوثتها: ممنوع عليها أن تتعلّم، ممنوع أن تقرأ أو تكتب، وممنوع أن تثقف نفسها، أن تشارك في التحركات السياسية وتطالب بالمساواة في الحقوق، وخصوصا ممنوع عليها منعا باتا أن تتملّص من قفص الدين أو تُصبح مُلحدة، فالإلحاد محظور على النساء والرجال. ولا حتى أن تستمع للموسيقى، لأن الموسيقى تُفسد أعصابها، وأخطر من ذلك الموسيقى الحديثة التي تجعل من النسوة «يوما بعد يوم أكثر **هستيرية** (täglich hysterischer)[167]».

163- ن. م، ن. ص.

164- ن. م، ن. ص.

165- ن. م، ن. ص.

166- ن. م، ن. ص. «وهنا وهناك، ثمة من يريد جعل النساء أرواحا حرّة وأديبات: وكأنّ امرأة بلا تقوى ليست امرأة كريهة ومُضحكة كلّيا، في نظر رجل عميق ومُلحد».

167- ن. م، ن. ص. نيتشه يقصد الموسيقى الألمانية الحديثة. لكن هذا لا يغيّر من الموقف الميزوجيني في شيء.

وبالجملة، النساء لم تُخْلَقن للثقافة ولا للفنّ ولا للموسيقى، هذه كلها ملهيات ومنكرات تشغلهن عن «مهنتهنّ الأولى والأخيرة (ihrem ersten und letzten Berufe)، وهي **إنجاب الأولَاد الأقوياء** (kräftige Kinder zu gebären)[168]».

كلّما ازدادت درجة ثقافة الشخص، ازداد وعيه وتحسّنت أخلاقه وأصبح إنسانا منفتحا، مسالما، نابذا للعنف ومحبا للبشر. لكن بالنسبة لنيتشه الثقافة هي الطامة الكبرى على الرجال، والتاريخ نفسه (تاريخ نيتشه طبعا) يعلّمنا أن تثقّف الإنسان وضعفه يسيران بالتوازي، أيْ أنّ، حسب عبارته، «تحضّر الإنسان ... وإضعاف قوّة إرادته وتشتيتها وتهوينها، سارا دائما اليد باليد[169]».

ولا يختلف الأمر بالنسبة للنساء، لأن الثقافة تُوهِن المرأة بينما الجهل يُقوّي من عزيمتها، ومرة أخرى التاريخ شاهد على ذلك: «والدة نابَليون هي المثال الأخير»، وعلى العموم، فإن النساء لم تتسلّطن على الرجال وتتفوّقن عليهم بفضل التعليم بل بفضل جهلهن وطبيعتهن الماكرة. هنا تكمن قيمة المرأة «إن ما يبعث على احترام المرأة، وعلى الخوف منها، هو طبْعها ... مُرونتها السّبْعية الماكرة، **مخالبها** الضارية تحت القفّاز، **سذاجتها** في الأنانية، **تملّصها من التربية**، حيوانيّتها (Wildheit) الدفينة وكلّ ما لرغباتها وفضائلها من واسع ومُتفلّت لا يقبل الاحتواء[170]».

لقد جاء في هذه الفقرة من "**ما وراء الخير والشر**" بالعجب العجاب، وأفرز ما لا يتصوّره الخيال من شتائم وإهانات وتوصيفات مسيئة للمرأة، لا نجد لها مثيلا إلاّ في كتابات المسلمين: المرأة والكلب والحمار تقطع الصلاة. المرأة بهيمة من بين البهائم، يقول نيتشه، المرأة **قطّة خطيرة** (gefährliche Katze)[171]؛ هي كائن ماكر وفي نفس الوقت ضعيف وبالتالي فإن الرجل على حق حينما يشعر بالخوف منها والشفقة عليها: «بهذين الإحساسين وقف الرجل حتى الآن أمام المرأة، دائما على حافة التراجيديا التي تسحر وتمزّق معا[172]».

168- ن. م، ن. ص.

169- ن. م، ص، 209.

170- ن. م، ن. ص.

171- قال: "قطة خطيرة وجميلة (diese gefährlich und schöne Katze)"، والعبارة هي دائما مهينة حتى إن أضاف إليها "الجميلة".

172- ن. م، ن. ص.

كل هذه المعالم المنحطة والمنعرجات الخائبة التي استفحلت في أوروبا، سببها التقدم والعقلانية والانفتاح واحترام المرأة واعتبارها كائنا إنسانيا له كرامة كاملة، وتتساوى مع الرجل في الحقوق والواجبات. أفكار حديثة هشّمت عالم نيتشه العبودي، فأجهش بالبكاء والنحيب على حظ أوروبا التعيس: «إيه، أوروبا، أوروبا! ... مرة أخرى قد يسيطر عليك غباء عظيم ويَحملك بعيدا! غباء تحته لا يختبئ إله، لا! بل فكرة وحسب، "فكرة حديثة! (eine „moderne Idee!)"[173]».

في السياسة لا يَكرز إلاّ للديكتاتور، ولا ينشد إلاّ الرجل القوي الذي يعيد تشكيل شعبه من جديد ويبث فيه روحا عدوانية عنيفة محاربة، أو بعبارة نيتشه: «يُذكّي هِمَم شعبه ويوقظ أطماعه ويُعيّره باستكانته للحياد، ويجعل من حُبّه للغريب ذنباً، يسقط القيمة عن أحر ميوله ويَقلب ضميره ويُضيّق روحه ويجعل ذوقه وطنيّا[174]». هذا الديكتاتور الشرير المجنون، يعكس بصورة واضحة حالة ديكتاتوريَّيْن عرفهما التاريخ بعد بضعة سنين من نيتشه، وهما موسليني وهتلر. يكفي رؤية حركاتهما في الخطابات الحاشدة التي يُلقيَانها حتى يتبيّن أنهما مجنونان إرهابيّان. الديكتاتور المرتقب، بالنسبة لنيتشه، يجب أنَ يكون قويّا ومجنونا.

(ظآ)

سقطات غير لائقة، وكُره جنوني للإنجليز كَشعب وكمُثقفين، لكن ولا كلمة عن الإمبراطورية ومستعمراتها، وعن حروبها في شتى أصقاع الأرض، واضطهادها للسكان الأصليين، والمتاجرة المُهينة بالبشر.]

لقد ضرب نيتشه الإنجليزَ في أرقى ابداعاتهم، في فلاسفتهم الكبار وعظماء مُفكّريهم، وشتَمَهم بكلمات مُرّة. وكعادته، فقد اختزل المسألة في جانب عرقي، أو عُنصري، بلُغتنا الحديثة، وغالبا ما فتّق عنصريّته الوحشية ضد الانجليز بصورة مخزية.

الإنجليز؟ من هم الإنجليز؟ «إنهم ليسوا **عرقا** فلسفيا (philosophische Rasse)؛ إنّ **بِيكون** (Bacon) يعني الاعتداء على الروح الفلسفي بعامّة[175]». كيف؟ ما دليله؟

173- ن. م، ن. ص.

174- ن. م، § 241، ص، 214.

175- ن. م، § 252، ص، 230.

أين النصوص؟ اذكُرْ لنا نظرية واحدة لبِيكُون تُثبتُ اعتداءه على الروح الفلسفي. هاتِ لنا نصّا واحدا. غير موجود، ولن تجدوه، لأنه لم يقرأ بيكون ولا يعرف فلسفته إطلاقاً، فهو يتكلّم عن أسماء خاوية، ويحكم على فلسفة دون دراية بأسسها ومقوّماتها. ونفس الحكم، الجائر المتعسّف، يطلقه على **هوبز** و**هيوم** و**لوك**. لقد «أذلّوا مفهوم الفيلسوف وحقّروا قيمته لمدّة قرن ونيف[176]». مرّة أخرى: أين دليله؟ ما حيثياته؟ أين النصوص؟ لا شيء، لا نصوص، ولا تحليل، ولا تدقيق أو استشهاد ولو بعنوان كتاب واحد من مؤلفاتهم. كلها تحكّمات قابعة في الهواء، أفكار سائبة مُرسَلة باعثها الحقد والضغينة، وتداعيات لا تاريخية ولا فلسفية.

لكن متى كان نيتشه فيلسوفا؟ ربما هو شاعر، كما افترض بول كاروس (P. Carus, 1852-1919)، ولكنه ليس بفيلسوف ولا حتى مفكّرا (not a philosopher, not even a thinker)، وكشاعر فهو يمارس سحرا خاصا على العديد من أولئك الذين لا يفكرون في الاتفاق معه. إن أغلب عشاقه، في رأي كاروس، ينتمون إلى الطبقة التي يسميها نيتشه "حيوانات القطيع"، أولئك الناس الذين ليس لديهم فرصة لتأكيد أنفسهم، فيصبحون جائعين للقوّة كرجل مريض يتوق إلى الصحة[177]. وإذا أردنا الدقة، حتى صفة "شاعر" لا تُناسبه، يستدرك كاروس، لأن قَصَائده ليست شعْرية بالمعنى المتعارف عليه. فهي تفتقد الشاعرية، ومع ذلك تستهوي ليس فقط مُعَجبيه، بل أيضا منتقديه وأعداءه[178].

إن تأثير نيتشه على الفلاسفة المحترفين، يكتب كاروس (سنة 1914)، ضعيف بالمقارنة مع الفلاسفة الآخرين. كلّما ذكروه، لا يفعلون ذلك إلاّ لنقده، وعموما يضعونه جانبا لأنه أحادي، وربما هذا تصرّف مشروع، لأنه حقا لم يكن فيلسوفا بالمعنى الدقيق للكلمة. لم يكن مفكّرا (reasoner)، ولا منطقيّا (logician)، ولا يمكننا أن ننظر إلى فلسفته كمنظومة أو حتى كنظرة للعالم منسقة[179].

176- ن. م، ن. ص.

177- P. Carus, Nietzsche and other exponents of Individualism, Chicago-London 1914, p. 101.

178- *Ibid.*, p. 73.

179- *Ibid.*, p. 109.

أقول: نيتشه بارع فقط في سحل المفكرين والفلاسفة والمثقفين والنسوة والضعفاء والمرضى والطبقة الشغيلة، والباقي مجرد إنشائيات أدبية غير دقيقة، ولا جميلة، بل مهينة وقبيحة، مثل توصيفه البشع لكارل لايل وشتمه المُطعَّم بسيْل من الخطابة الدّامسة: «المُهرّج المُبتذل والبلاغي ونصف المُمثّل، كارلايل»، هذا الرجل الإنجليزي «بذَل وسعه لكي يُخفي خلف تكشيراته الانفعالية أمرا أدركه جيّدا بصدد ذاته: إن ما افتقر إليه كارلايل لم يكن سوى قُدرة الروحية نفسها، وسوى عمق النظر الروحي نفسه، وباختصار، سوى الفلسفة[180]».

وما السبب يا ترى في غياب الروح الفلسفي عن الانجليز؟ بالتدقيق والتحقيق في المسألة، وصل إلى الاستنتاج التالي: «**ما يميّز عرقا لا فلسفيا كهذا هو اعتناقه للمسيحية**[181]». افتراء وكذب: هوبز ولوك وهيوم كانوا أكثر الفلاسفة معاداة للدين؛ كتاب **حوار حول الدين الطبيعي** لدافيد هيوم هو معلم الالحاد، هو تقويض مُمنهج، كاسح، وجارف، للمسيحية ولمعتقدات الأديان وتدمير لفكرة الإله في الصميم. نحن لا نتحدث عن عامة الشعب الإنجليزي، نحن نتحدث عن النخبة التي يتطاول عليها نيتشه بضرباته العشوائية، ويتهمها بالتديّن. حسبك أن تفتح أي كتاب تاريخ فلسفة حتى تستقي معلومات دقيقة عن هؤلاء الفلاسفة، وتُقشّع عن ذهنك أحكام التّشويه والكراهية التي نفثها هذا الرجل في كتبه. لا أعتبرها فلسفية وإنما سوقية جارحة دنيئة كل تلك الأوصاف التي ألصقها بالإنجليز. وأنا أوردها غصبا عني: «إن ما يُميّز عرقا لا فلسفيا كهذا هو اعتناقه الصارم للمسيحية: **فبه حاجة إلى تأدّبها كي يتهذّب خلقيا ويزداد بالتدريج إنسانية. والانجليزي الذي هو أشد اكفهرارا وشهوة وضراوة وإرادة من الألماني، بوصفه الأكثر سوقية بين الإثنين، هو بسبب ذلك بالذات أكثر ورعا من الألماني: ذلك أنه ما زال أحوج إلى المسيحية**».

ماذا تفيدنا، على المستوى الفلسفي، هذه التداعيات العنصرية؟ ما موقعها من الفكر المتأني الدقيق الراقي؟ ما الجديد الذي يأتينا به شخصٌ يقول لنا إن رائحة الانجليز كريهة، بسبب «الإفراط في تناول الخمور[182]»؟ يريد أن يضرب الانجليز في العمق فيَتّجه

180- ن. م، § 252، ص، 230.

181- ن. م، ص، 230.

182- ن. م، ص، 231.

إلى فلاسفتها الكبار، ويَسْكب عليهم كل حقده وعُنصريّته، لكنه يوهم بأنه يهاجم المسيحية، يسمّيها "سُمّاً لطيفا"، ثم ينقلب ويقول إنها "ترياق ضروري" للإنجليز، وبالتالي صالحة لتأديبه. المسيحية هي الواجهة فقط، أما الانجليز، فهُم الهدف الرئيسي لتهجّماته، وإلاّ لما قال إن رائحة الانجليز الكريهة هي داء «يُداوَى بالمسيحية لأسباب وجيهة: **سُمّ لطيف ترياقا لسمّ غليظ**. إن **التسمّم الألطف** هو لدى **شعوب فظّة**، تقدُّمٌ ودرجة في ترقّيها الروحي ... بالنسبة لذلك القطيع من المُدمنين على السّكر والفُجور والذي تدرّب من زمان تحت حكم الميتودية ... قد تكون **نَوبة التّوبة** أرفع إنجاز إنسانيّ يمكن أن يُرقّى إليه[183]».

ولكن مهما فعلت المسيحية لتَرْقَى بالقطيع الانجليزي، فإن الإنجليز كشعب يبقى في الدّرك الأسفل، إنسانيّته وضيعة ومشوّهة نهائيا. لماذا؟ «لافتقاره إلى الموسيقى: لا إيقاع ولا رقص في حركات نفسه وبدنه، ولا حتّى توْق إلى الإيقاع والرقص، إلى الموسيقى. فليُصْغ المرء إلى كلامه، فليَنظُر إلى أجمل الانجليزيّات وهنّ يَسِرْن ... وأخيرا فليَسْمَع غناءهنّ**!**[184]». تصوّروا وقع هذه الكلمات على قارئ انجليزيَ.

الحداثة هي انجليزيّة المنشأ، وهي طاعون اجتاح أوروبا، لم تقاومه إلاّ ألمانيا، أما فرنسا فقد انهارت أمامه، هَضَمَتْه ثم تَقيّأته إلى أوروبا. هذه الأفكار اللاتاريخية والفاقدة لأدنى حسّ فلسفي، تُمثل سوسيولوجيا نيتشه وأقصى مدى فلسفته: «لا نَغْفَرنّ للإنجليز أنه سبق لهم أن سبّبوا للروح الأوروبي انتكاسا شاملا من جرّاء وسَطيّتهم العميقة: إن ما يُسمّى "الأفكار الحديثة" أو "أفكار القرن الثامن عشر" أو "الأفكار الفرنسية"، وإذن ما ناهضه الروح الألماني باشمئزاز عميق هو انجليزي الأصل، لا ريب في ذلك البتّة[185]».

ليس صحيحا ولا بيّنا بذاته أن أفكار القرن الثامن عشر هي انجليزية، أو أن فرنسا وقعت تحت تأثيرها بصورة سلبية. الأفكار الفرنسية منبعها فرنسا، مُحرّكها ومُنطلَقها هم ديكارت ومالبرانش وبيار بايل العظيم؛ صحيح أنهم التجؤوا إلى جون لوك لمعارضة الأفكار الفطرية الديكارتية، ولكنهم وجدوا كل ما يحتاجونه للتنظير للمذهب المادي في فلسفة ديكارت نفسها. وهكذا نرى كمْ من الأكاذيب والتزوير يسرّبها نيتشه

183- ن. م، ص، 231 232.

184- ن. م، ص، 232.

185- ن. م، § 253، ص، 232.

في كتاباته والتي غالبا ما يبتلعها أتباعه دون نقاش. ليس له أيّ سند تاريخي للقول بأنّ الفرنسيين، «جاؤوا مُقلّدين وممثلين، وكانوا أفضل جنودها، وللأسف أوّل ضحاياها وأكثرهم تكبّدا للخسائر: ذلك أن داء الأكْلَزة اللعين بـ"أفكاره الحديثة" أصاب النفس الفرنسية وكال لها من الهزال والونى[186]».

لو عكس الآية لأصاب عين الحقيقة، لأن الانجذاب بالإنجليز استفحل في ألمانيا، وليس في فرنسا، حسبك قولة كانط الشهيرة التي أقرّ فيها أن دافيد هيوم هو الذي أيقظه من سباته الدوغمائي. وثمة قرائن تاريخية أخرى، لا داعي لذكرها في هذا الصدد لأنها خارجة عن موضوعنا.

أما تنظيرات نيتشه، فهي مجرّد نثر صحفي، لا قيمة لها على المستوى الفلسفي، ولا تصمد أمام أدنى فحص تاريخي. فالكارثة الحداثية التي يعزوها إلى الإنجليز مصطنعة من محض خياله المريض، لأن أوروبا كلها ساهمت في بناء فكر الحداثة، من إيطاليا إلى ألمانيا، ومن إنجلترا إلى فرنسا، ومن اسبانيا إلى هولاندا، كلهم ساهموا في ترسيخ النظرة العلمية للعالم، في نقد الكتب المقدسة، في تفكيك المعتقدات الدينية وتدمير المقدسات. وهذه هي الحداثة في جوهرها، أما الباقي فهو لغو لا طائل منه. نيتشه يعارض هذه الحداثة العلمانية العقلانية، ويريد من أوروبا أن تعود إلى الوراء، أن تتخلص من أفكارها التقدّمية، وتسير على هدي عصر اليونانيين الأوائل، عصر العنف والحرب والقتل.

إن قوله بأن النُّبل الأوروبي، نُبل الشعور والذوق والخلق، النبل بكل معناه الرفيع هو ابتكار فرنسا ومأثرتها، لا يُخلّصه من عنصريّته تجاه الفرنسيين، ولا يحجب إهانة خَيْر فلاسفتها وأدبائها. أمّا قولته التالية بأن «السّوقيّة الأوروبية ورعاعيّة الأفكار الحديثة، منبتها انكلترا[187]» فهي في غاية السّوقية لا تحتاج بالتالي إلى أيّ ردّ.

ولا نُصدّقه طرفة عين في المقاطع التي يمدح فيها الفرنسيّين، لأننا لو فتحنا الصفحة الموالية لقرأنا أشياء فظيعة ضدهم: تجريحا وشتائم وتقزيما وتُهَمًا قبيحة جدا. صحيح، فرنسا ما تزال مدرسة الذوق الرفيع ومَوطن أرهف حضارة أوروبية وأكثرها روحية[188].

186- ن. م، ص، 233.

187- ن. م، ن. ص.

188- ن. م، § 254، ص، 234.

لكن أين هم الفرنسيون أصحاب هذه الطبائع ؟ من الصعب العثور عليهم، وعددهم ضئيل جدا، وهذا العدد الضئيل، قِسْمٌ منه «قدريّون وسوداويّون ومرضى، وقسم آخر مُتدلّلون مُرهفون إلى حدّ التصنّع ومن النوع الذي ينشد الخفاء بإلحاح وطمع [189]». لا أظن أن هذه الأوصاف هي مدح للفرنسيين أو إبراز لفضائلهم على الروح الأوروبي، وبالتالي فإن أي كلمة يقولها لامتداح الثقافة الفرنسية يعارضها في الحين بكلام احتقاري مرّ قبيح. وفعلا، لا يكفيه وصف الفرنسيين بأنهم سوداويّون ومرضى بل جميعهم يتقاسمون أمرا واحدا «يسدّون آذانهم أمام الغباء المحتدم والثرثرة الصارخة **للبرجوازي الد يموقراطي**[190]».

إذن الطامّة الكبرى التي حلّت بفرنسا هي انتهاجها خطّا ديمقراطيا في السياسة، وبناء مؤسسات مدنية ومجتمع علماني حرّ، والنتيجة حسب رأيه هي أننا اليوم لدينا «**فرنسا غبيّة وهمجيّة** (ein **verdummtes** und **vergröbertes Frankreich**)». هل يُعقل هذا الكلام؟ كيف يسمح لنفسه أن يصف شعبا كاملا بأنه أحمق وخشن؟ بالنسبة لأتباعه هذا أكثر من معقول، وأكثر من مشروع، لأن نيتشه نبيّ، ووحيه غير قابل للشك والنقاش.

يَعيب على فرنسا احتفاءها بكاتبها الشهير فيكتور هوغو، ويصفها بأنها «حفلة عربدة تنضح باللاّذوق والاعجاب المتغطرس بالذات معا[191]». لقد جمع كل الأوصاف القبيحة وألقاها على فرنسا وعلى خيرة مثقفيها. لكن أقبح عمل قام به الفرنسيون هو سد الأبواب أمام هبّة الثقافة الألمانية، أو بعبارة نيتشه، الفرنسيون يتشاطرون العزم على الوقوف «بوجه جَرْمَنَة الروح [الفرنسي]؛ وقصور عن تحقيق ذلك». إذن الفرنسيون يتصدون للجَرمَنة، وهذا في حد ذاته جُرم لا يُغتفر؛ لكن حتى إن قبلوها، فهم لا يملكون القدرة واللباقة الكافية لتمثّلها واستيعابها. وهذه وضعية حرجة لا يتمنى أي أحد المكوث فيها. ورغم أن كبار الفلاسفة الألمان، مثل كانط وشوبنهاور وهيجل، معروفون في فرنسا، ولهم أتباع وقرّاء كثر، ويتوقّع أيضا بأن الموسيقى الفرنسية ستحذو حذو ريتشارد فاغنر أكثر فأكثر. لكن كل هذا لا يرضيه، يجب على فرنسا أن

189- ن. م، ن. ص.

190- ن. م، ن. ص. الترجمة لي.

191- ن. م، ن. ص.

تفقد روحها كليا وتذوب تماما في الجرمانية. كل ما قاله بعد ذلك، في هذه الفقرة التي أنا بصددها، هو خور واستهتار نترفّع على التوسع فيه ومناقشته.

قبل أن أختم هذه الفقرة أودّ أن أشير إلى أن الفرنسيّين الواعين لم يتقبّلوا إهانات نيتشه بصدر رحب، ولم يَنبَهروا بأفكاره كما سيفعل المعاصرون، بل ردّوا عليه بنفس العُمْلة، وبيّنوا تهافت أفكاره وعبثيّتها. في مقال نُشر سنة 1909، كتب الراهب بيسَّه (abbé Besse) أن هذا الفيلسوف المتناقض يمدح ويذمّ بالتناوب نفس الموضوع حسب مسار أفكاره، أو مزاجه، وحسب تحولات وجهة إعجابه أو كرهه. خياله الساخن، وشعريّته المتموّجة، وخَطابَته المتدفّقة تمنعه من اتّقاء التناقضات، لا بل إنه يعشق الانقلابات الفكرية، ويتمزّى بها جاعلا منها فضيلة. فهو يرى فيها دليلا على وثبة فكرية غامرة، والحال أن «هذا النِّصْف مجنون (ce demi-fou) هو نصف مسؤول عن الاستيهامات التي يجرّبها، لا لأن دماغه مُشوّش بعِلْمه الغزير، بل لأنه يَنهار تحت باعث الكبرياء. وقد تصدّع، دون أمل في الشفاء، منَ يوم أن انفصل عن أصدقائه، لكي يقوم، على الجبل، بـ«تجربة التوحّد الثلاث». منذ تلك اللحظة سيلعب دور عدو المسيح بهذه الأبّهة وبضخامة المفارقات إلى درجة أنه سيغدو من الصبيانية بمكان مُطالبته بأفكار صائبة ومتسلسلة بإحْكَام. لا نبيّ ولا ساحر مُجبران على أن يُعبّرا عن نفسهما بأسلوب منسجم. كيف نطلب مزيدا من المنطق من مهووس بالغلوّ يُصرّح بأن الكون كله، في غضون بضع سنوات، بعد أن يُقرأ، سيَتَصدّع من الأساس، وأن الأرض ستلتوي من الأوجاع؟ ولئن اعتدنا أن نكون صارمين مع الفلاسفة الذين يجمعون بعناء كلمات حصيفة، ويُرتّبون دون كبرياء استنتاجات شبه حقيقية، فلا موجب ولا فائدة من أن نعامل وفق نفس القاعدة رجلا يُعيد، بارتياح، خلق العالم كما لو أنه لم يكن موجودا[192]».

لكن أتباع نيتشه لا يرون أي ضير في تناقضاته، ولا يرون في عدم احترامه للانسجام المنطقي أي استنقاص من قيمته، بل إن تأثيره يزداد باطّراد من خلال هذا النشوز. والحال، يقول هذا الراهب، إن جزءا كبيرا من شهرة نيتشه تنبَع بالتحديد من الغلوّ المقصود، من العنف المدروس، من حِقده، ومن هواه المتقلّب. ولذلك فإن

192- C. Besse abbé, « Nietzsche chrétien malgré lui », Revue pratique d'apologétique, n. 16, 15 Mai 1909, p. 145-146.

قليلا من الحكمة «كان سيُؤذيه؛ جُرعة من التفكير المنتظم والنقدي، بتهدئتها لتجاوزات كلماته، كانت ستُسَكّن من حماسته. نبحث فيه عن مُفكّر فذّ ولا نجد شيئا آخر سوى مهرّج مسكين، متلكئ وفاقد للحيوية[193]».

(عآ)

بعد هذه الجولة الشاقة، وصل نيتشه إلى موضوعه المفضّل، وهو الموضوع الذي يتحرّك فيه بحرية، ويستمتع بإفراغ كل مشاعره المتطرّفة الحاقدة على البشرية جمعاء، وعشقه الجنوني لإرادة القتل الفظيعة.]

في البداية يجب أن يُهيّئ الأرضيّة المناسبة لسحق البشرية: الناس ليسوا سواسية. ومن هذا المبدأ يستخرج القاعدة العمليّة التالية: «كل إعلاء للطراز المُسمّى «إنسانا» كان حتى الآن وسيبقى أبدا من صُنع مجتمع أرستقراطي ما، بوصفه مجتمعا يؤمن بسُلّم طويل من المراتب والفوارق القيمية بين إنسان وإنسان، مُجتمع به حاجة **للعبوديةً** (Sklaverei)[194]».

وأنا، مرة أخرى، مُجبَر على إيراد مثل هذه الكلمات الصادمة، الوحشية، الداعشيّة، لكي أحمي نفسي ضد أيّ تهمة بالتعسّف أو التطاول. لكن هذا لا يعفينا من تقييمه والتنبيه على خطورة كلامه، وبُعده عن روح عصره لأن الفترة التاريخية التي عاش فيها شهدت بروز حركات اشتراكية ملتزمة بمحاربة الاستغلال والعبودية. لكن نيتشه ثابت على موقفه ومُصرّ، أشد ما يكون عليه الاصرار، على الإبقاء على الفوارق الطبقية، وتكريس العبوديةَ، ويقول ذلك علانية ودون خجل.

يتحدّث عن دَحْر الطبقات الشغيلة، يسمي هذا الدّحر: "باثوس المسافة (Pathos der Distanz)"، وقد ترجمتها جيزيلا فالور بـ:"روع المسافة"، وهي بالفعل مُروّعة لأن معناها الحقيقي هو تكريس «الفارق الطبقي المتأصّل»، وإيجاد ثلّة غالبة تُشرف باستمرار على أتباعٍ وأدواتٍ (Werkzeug)، «تأمر وتُطاع وتَقمع وتُبعِد»، وتزيد في

193- *Ibid.*, p. 146. « La sagesse lui aurait nuit. Un dosage de réflexion régulier et critique, en tempérant l'outrance de ses paroles, en eût amorti la joie. On chercherait encore en lui un penseur prestigieux, on ne trouverait plus qu'un médiocre charlatan, aphone et sans entrain ».

194- **ما وراء الخير والشرّ**، ن. م، § 257، ص، 243.

تعميق المسافة بينها وبين هذه الآلات المتنفّسة، بل تسحقها بلا رحمة ودون الشعور بأي ذنب. فقط عن طريق مثل هذه الأعمال المُروّعة يمكن خلق طراز إنسان أعلى، أي إنسان بلا أخلاق. نيتشه ينصح بأن لا تأخذنا رأفة في هذه القضية، ولا فائدة من التذرّع بالمشاعر الإنسانية، يسمّيها "أوهام الإنسانوية (humanitären Täuschungen)"، فالحقيقة قاسية (die Wahrheit ist hart).

وهكذا فإن كاره الحقيقة، بجميع أصنافها، وجد نفسه، من أجل الدفاع عن أقصى أنواع الاضطهاد، والعبودية، مُجبرا على الإشادة بالحقيقة، حقيقته هو، وآكلي لحوم البشر. وقد استمدّ حقيقته من استقصاء للتاريخ، دائما تاريخه هو الذي يتلخّص في هذه السيرورة: **مجموعة** من الوحوش، انقضّوا على **مجموعة** من الناس المسالمين فافْتَرَسُوهم. فعلا، كل حضارة عُليا على الأرض بدأت حينما «انقضّ رجالٌ ذوي طِبَاع ما تزال طبيعيّة، برابرة بكل المعنى الرهيب للكلمة، **رجال ضواري** (Raubmenschen) يملكون قوّة إرادة وأطماع تسلّط لم تُمحَق بعد، على أعراق أضعف وأكثر تهذيبا ومُسالَمَة[195]». هؤلاء البرابرة هم في نظر نيتشه «**البشر الأكمل**، يعني أنهم **الوحوش الأكمل، في كل شيء**».

هذه هي الحقيقة المفزعة التي يريد نيتشه أن يكشفها للناس. وهي مُفزعة بالفعل لأننا نراها الآن تحدث أمامنا مع **داعش وبُوكو حرام** وأخواتهما. فهو لا يصف بموضوعية، وإنما يحكم ويُقيّم ويتحسّر على السيرورة التاريخية التي لم تَسرْ كما يشاء، وحادت عن الطريق السويّ. وأوّل انتكاسة بدأت مع الثورة الفرنسية، تلك الثورة التي قامت على أفكار فولتير ودولباخ ولاميتري وديدرو، الذين كانوا أشد الناقدين للأرستقراطية المتحالفة مع الاكليروس. لكن بالنسبة لنيتشه الثورة الفرنسية هي حركة تقهقر وانحطاط لأنها أرغمت الارستقراطية الفرنسية على التخلّي عن امتيازاتها بقرف سامّ، وتقديم ذاتها «قُربانا على مذبح شعورها الخلقي الجامح»، وهذا في رأيه «فساد (so ist dies *Corruption*)[196]».

والحال أن الثورة الفرنسية لا تمثّل بداية الكارثة على عالمه الارستقراطي وإنما هي «فصل الختام لفساد دام قرونا، فَسَاد كانت الارستقراطية بمُوجبه قد تخلّت، خطوة

195- ن. م، ص، 244.

196- ن. م، § 258، ص، 244.

خطوة، عن صلاحيّتها في الحكم وانحطّت إلى مجرد وظيفة للمَلَكيّة[197]». وهذا ما كان ينبغي أن يكون، لأن الوحوش الضّواري البرابرة لا يجب عليهم أن يخضعوا لأي قانون أو يلتزموا بأي أخلاق أو يتقيّدوا بأية مشاعر إنسانية. وهنا تتنزّل تلك القولة الرهيبة التي يدوّي صداها في أذن أي شخص له ذرّة من الإنسانية: الأرستقراطية الحسنة السليمة ليست تابعة لأحد بل إنها «المعنى والمُسوّغ الأرفع، بحيث إنها **تقبل، بضمير مرتاح، التضحية بعدد لا يُحصى من الناس الذين يجب أن يُذلّوا من أجلها، وينحطّوا إلى أناس غير كاملين، إلى عبيد وأدوات**[198]».

(غآ)

تتساءلون: ما هذا الغلّ الدّامس؟ لماذا كل هذه القسوة الفظيعة؟ الجواب، هو أن هذه هي البضاعة الوحيدة التي يملكها نيتشه. فتّشوا في كل كتبه، حتى تلك التي صُنّفت تحت لافتة التنوير، فلن تجدوا غير هذه البضاعة. لكن الرجل تجاوز حدوده، وحدود أدنى المشاعر الإنسانية السويّة، بدعوته الصريحة إلى الإبادة الجماعية، إلى سحق عدد لا يُحصى من الناس، كي يعيش الأكابر والأعيان.]
هل قرأتم في كتاب فلسفي منذ اليونان إلى اليوم فظاعة من هذا القبيل؟ أنا أتساءل كيف يمر النيتشويون على هذه الأقوال الإجرامية دون أن تلفت انتباههم، أو تجعلهم يتفكّرون في صنف الخطاب الذي أمامهم.

المجتمع في رأيه يجب أن يتحوّل إلى أدغال موحشة، يأكل فيها القوي الضعيف: «إيماننا الأساسي يجب أن يقول: المجتمع ينبغي ألاّ يوجد من أجل المُجتمع، بل بوصفه هيكلا أو بناء مساندا وحسب، يُمكِّن نخبة من الكائنات من أن ترتفع إلى مُهمّتها العليا وإلى كَوْنٍ أعلى بعامّة[199]».

197- ن. م، ص، 245.

198- النص الألماني لمن يعرف الألمانية، مُفزع:

“Das Wesentliche an einer guten und gesunden Aristokratie ist aber, dass sie sich nicht als Funktion… sondern als dessen Sinn und höchste Rechtfertigung fühlt, - dass sie deshalb mit gutem Gewissen das Opfer einer Unzahl Menschen hinnimmt, welche um ihretwillen zu unvollständigen Menschen, zu Sklaven, zu Werkzeugen herabgedrückt und vermindert werden müssen”.

199- ن. م، ص، 245.

وللإمعان في النكال فهو يتوسّع في توصيف المجتمع المبشّر به، ولكن المفاجأة أننا نسمع منه، للمرّة الأولى، وبشكل غير مسبوق، إدانة صريحة للعنف بجميع أصنافه، بل ينصح بالكفّ عن ممارسة أيّ عمل عدواني، ويقول إن اللاّعنف والمساواة هما من مكارم الأخلاق: «إن الامتناع عن العنف والانتهاك والاستغلال المتبادل[200]»، والمساواة بين «إرادة الذات وإرادة الآخر، يمكن أن يصيرا من **مكارم الأخلاق** (**guten Sitte**)[201]».

وهكذا فإن نيتشه، في هذه الخاطرة الوجيزة، نسَخَ كل ما قاله من قبل، وانقلب على القيم التي نَظّر لها في كل كتاباته، وحطّم الأخلاق الجديدة التي جاهدَ من أجلها، وبالتالي حطّم حياته وحياة الجبابرة القساة الذين يعشقونه من أجل قسوته. لكن المَقلَب الذي ينتظرنا هو أن نيتشه لم يُحطّم أي شيء، والجبابرة الإرهابيون يمكنهم أن يواصلوا في عشقه واتّباع تعاليمه، لأن "الامْتناع عن العنف والانتهاك والاستغلال المتبادل"، يقتصر فقط على الأفراد المتساوين «في مقدار القوة ومقياس القيمة وتعاضدهم ضمن جسم واحد[202]».

أمّا إذا تعلّق الأمر بأشخاص مغايرين في الرتبة والقوة، فإن هذه المعاملات تفقد مشروعيّتها، لا يجوز بتاتا تفعيلها في المطلق، والخطأ الأكبر هو أن يخضع المجتمع إلى ابتزاز الحداثيّين الداعين للمساواة الشاملة. فعلا، ما أن يُؤخذ بهذا المبدأ على نطاق واسع «وصولا إلى عَدِّه مبدأ أساسيا للمجتمع»، حتى يبدأ الخراب وتَعمّ الفوضى، لا بل أكثر من ذلك، يتحوّل هذا المبدأ إلى عامل «نفي للحياة ومبدأ انحلال وانحطاط[203]». وتذكروا جوهر هذا المبدأ: الامتناع عن إيذاء الآخرين مهما كان هؤلاء الآخرون، وعن انتهاك حرماتهم الجسدية والنفسية، وعدم استغلالهم في الجسد والروح.

وإمعانا في النكال، فهو يحذّر قراءه من مغبّة ادخال مشاعر الشفقة في التعامل مع الآخرين، يحرّضهم على التفكير في العمق والذهاب إلى المدى الأقصى، وأن يَمْتَنعوا «عن كل ضعف حسّاس»؛ لأن فلسفته في الحياة، كما قلت سابقا وقد تعوّدنا على هذا الخطاب، هي فلسفة الأدغال المُوحشة بأتم معنى الكلمة، وهو لا يرى أمامه إلاّ نمورا وأسودا، وجثثا مكدسة، وأطرافا مبعثرة في كل مكان. وبالجملة، الحياة هي داعش،

200- ن. م، § 259، ص، 245.

201- ن. م، ن. ص.

202- ن. م، ن. ص.

203- ن. م، ص، 246.

أو بعباراته الفصيحة هو: «إن الحياة هي جوهريا استيلاء وانتهاك وغَلبٌ للغريب والضّعيف وقَمْع وقسْوة وفرضٌ للأشكال الخاصة، واستيعاب، بل هي على الأقل، وفي أرحم الحالات، استغلال [204]».

ينبغي على الارستقراطي أن يَحشو دماغه بهذه القاعدة الذهبيّة النيتشوية الثابتة: «**الحياة يجب أن تكون إرادة قوّة** (der leibhafte Wille zur Macht sein müssen)[205]»، وبالتالي واجبه المُحتّم أن يسحق الجميع دون رحمة. لكن عليه أن يستثني من هذه الإبادة فقط أفراد الطبقة الضيّقة التي ينتمي إليها، أمّا الآخرون الغرباء الخارجون عن العصابة، فهو يشجّعهم على عدم الشعور بأي ذنب في سحقهم، وأن يُمارسوا عليهم قوّتهم خارج أي معايير أخلاقية: «لا بدّ له من أن يكون إرادة القدرة المُتجسّدة، وأن يريد النموّ والتوسّع والغلبة، وذلك ليس انطلاقا من أيّ خُلُقيّة أو لاخُلقية، بل لأنه يحيا[206]». ويكفي أن يحيا هذا الوحش حتى يكون من حقّه أن يفترس الجميع بلا شفقة، وإنْ لم يفعل ذلك فهو مائت لا محالة. ونيتشه حزين على الوضع الراهن لأن المجتمع الأوروبي سائر في الاتّجاه الخاطئ، لكونه يريد أن يبني مجتمعا يغيب فيه استغلال الإنسان للإنسان. بناء مجتمع مساواة، هذه الكلمة بمفردها تُقذي أُذُنَ نيتشه؛ فهو غير مُتعوّد على مثل هذه الخزعبلات الإنسانية المحتضرة. إذن، التِرياق لهذا المرض، هو تفعيل القاعدة الذهبية الثانية: «**الاستغلال ينتمي إلى جوهر الحيّ**[207]».

من أين استمدّ نيتشه مثل هذه القسوة؟ ما هو منبع هذه الأفكار السبعيّة الرهيبة؟ بول ديوسن (P. Deussen)، واحد من أصدقائه المقرّبين قال إن نيتشه استمدّ أفكاره

204- ن. م، ص، 246. هذه عباراته بالألمانية، تيقنوا أنكم لن تقرؤوها في أي كتاب فلسفي، لا في العصور القديمة ولا في العالم الحديث:

Leben selbst ist wesentlich Aneignung, Verletzung, Überwältigung des Fremden und Schwächeren,,, .“Unterdrückung, Härte, Aufzwängung einiger Formen, Einverleibung und mindestens, Ausbeutung

205- ن. م، ن. ص.

206- ن. م، ن. ص.

207- ن. م، ن. ص. الفقرة الدنيئة جاءت على هذه الشكل: «ما من نقطة سواها نرى بصددها الوعي الأوروبي العامّي أكثر رفضا لتقبّل الدروس: في كل محلّ يحلم المرء الآن بأحوال اجتماعية مُقبلة، ولا يتردّد في إلباس هذه الأحلام ألبسة علميّة، ظروف من المفترض أن تكون خالية من الطابع الاستغلالي. إن ذلك يطرق أذني وكأن ثمّة وعدا بابتكار حَياة تَمتنع عن كل الوظائف العضوية. لا ينتمي الاستغلال إلى مجتمع فاسد أو غير كامل أو بدائي، بل ينتمي إلى جوهر الحيّ، بوصفه وظيفة عضوية أساسية، وهو نتيجة لإرادة القدرة إياها التي هي بالذات إرادة الحياة».

الوحشية من عمق ميتافيزيقي مظلم، يعني بلغة دينية، من عمق شيطاني، لكننا لا نؤمن بالشيطان وبالتالي فإن هذا العمق هو نفساني ذو منحى سكيزوفريني إجرامي[208].

أقول إجرامي بأتم معنى الكلمة. قتّال الأطفال الصغار، يقدّس الوحشية ويروّج لها. وهذا التقديس تجدونه في فقرة فظيعة من **العلم المرح**. لكن المترجم العربي قام بتحريف رهيب لعنوان الفقرة، تحريف لا يسعني إلاّ أن أؤنّبه عليه، فقد كتب: "قساوة ظاهرة!" في الوقت الذي يكتب فيه نيتشه بالحرف: "وحشيّة مقدسة (Heilige Grausamkeit)". ويصوّر المشهد بطريقة إجرامية، قمة في التعنيف والقساوة. نيتشه، تخيّل رجلا يحمل بين يديه وليدا، فقصد قدّيسا وسأله: «ماذا عساي أن أفعل بهذا الطفل؟ إنه بائس، مُشوَّه الخِلْقة ولا يملك حياة كفاية ليموت». فماذا أجابه القديس؟ والقديس يعبّر هنا عن رأي نيتَشه الشخصي. أجابه بكلمة واحدة «**اقْتُلْه** (Tödte es)[209]».

هكذا بكل بساطة، وليد مريض، يعرضه أبوه على الحكيم، فيقول له اقتله. هل ثمة إجرام أكثر من هذا؟ أين قرأتم شناعة من هذا القبيل وفي أيّ كتاب فلسفي؟ وللسخرية من قرائه فقد عنون هذا الكتاب: **العلم المرح** بينما هو كل شيء إلاّ أن يكون علما وأن يكون مرحا. إنه خزّان من الجهل والقسوة والإجرام وكُره الحياة.

ورغم قولته الإجرامية "اقْتلْه"، فهو يملك الشجاعة ووسْع الوقت لكي يتمّ مكارم أخلاقه ويسدي نصائح للأب بعد أن يقتل ولده: «اقتله وخُذه ثلاثة أيّام وثلاث ليال بين ذراعيك، لكي تطْبَعَ [صورته] في ذاكرتك: وهكذا فلن تستطيع أن تُنْجِب ولدا إذاً لم يَحن لك وقت الإنجاب[210]».

كيف لا يكون قاسيا قتالا مجرما من يقرأ أشياء من هذا القبيل ويتشبّع بها روحيا؟ صديقه بول ديوسن نفسه يعبّر عن قلقه من انعكاسات هذا التفكير الغريب المقلوب على الشباب، ويقول بأنه يمثّل بالنسبة للنفوس الحساسة وقليلي الخبرة خطرا لا يُستهان به[211].

208- P. Deussen, Erinnerung an Friedrich Nietzsche, Brockhaus, Leipzig 1901, p. 99.

209- F. Nietzsche, Die fröhliche Wissenschaft, § 73, p. 430.

210- *Ibid*em.

211- P. Deussen, Erinnerung, p. 100.

(فآ)

هذا هو الرجل الذي يتهجّم على الفلاسفة ويُسميهم عناكب وجرذانا وحميرا، ويتفنّن في رَمْيهم بأبشع الشتائم لا لشيء إلاّ لأنهم لا ينضمّون إلى جوقة آكلي لحوم البشر. لكنِ العيب، وأقولها بكل مرارة، ليس فيه هو بل في أتباعه ومُحِبّيه الذين نفثوا في كتبه روحا جديدة، وأعادوا تأهيله لكي يكون معلّم البشرية.]

اكتشافه الفلسفي العظيم الذي وهَبه لقرّائه وتكرّم به عليهم (في البداية كانوا أربعة قُرّاء، وبعدما جُنّ أصبحوا جيشا جرّارا)، يكرّره حتى التخمة، في كل كتاباته تقريبا، مفاده أن كلمة "خير" تعني النّبيل (السيّد، الارستقراطي، مالك العبيد)، وكلمة "شرّير"، تعني الوضيع (العبد والمغلوب والعامل). والإنسان النبيل ماذا يفعل لضديده الوضيع؟ وكيف تتصوّرون أن يتعامل معه حسب نبيّ زرادشت؟ الاقصاء والاحتقار، الدعس والرفس والافتراس؛ هذه هي الوصفة النيتشوية. وكيف لا يحتقره وهو، أي الوضيع، من سلالة الكلاب: جبان، خائف، صغير النفس، متذلل «**الإنسان الكلب** المُسْتَسْلم للتّنكيل، والمتزلّف المتوسّل[212]».

أنا لم أبالغ ولم أُجحف قطّ عندما حكمتُ بأن المحتوى الفلسفي لكُتُب نيتشه يقارب الصفر، لأنكم لو فتّشتم في كتب الفلاسفة من عهد سقراط إلى اليوم لما وجدتم مثل هذا الصنف من التخمينات المستهترة الفظيعة. أن يطلع علينا شخص في القرن العشرين، وبينما كانت البشرية تطوي صفحة العبوديّة الشائنة، لكي يُعيد تلميع صورة تلك المؤسسة الفضيحة، عن طريق تداعيات فيلولوجية خاطئة وتاريخ مُزوّر، فهذا ما لا يُمكن سماعه ولا قبوله لأنه يُقذي آذاننا ويسمّم أرواحنا.

والنيتشويّون، دون خجل، يكرّرون عباراته العنصرية، ويَقبَلون، بصدر رحب، تمييزه بين أخلاق العبيد وأخلاق الأسياد، دون أن يتفكّروا في الإهانة التي يُلحقونها بكرامة الإنسان.

وأنا غَصْبًا عني أتابع قراءة مثل هذه الخزعبلات المُقْرفة، وأحاور بشقّ النفس شخصا يصف البشر بأنهم كلاب. لقد تفنّن في ابتداع ألقابَ مشينة للإنسان اللاّنبيل،

212- ما وراء الخير والشر، ن. م، § 260، ص، 247.

سمّاه «طراز الإنسان الكلب (die Hunde-Art von Mensch)»، وقال إنه كذاب، لا بل سحب هذه الصفة على عامة الناس، وقال إن العامة كذابة (Volk lügnerisch ist)، لأن القلة القليلة تعتبرها كذلك «وهو إيمان راسخ عند الارستقراطيين جميعا. "الحقّانيّين" هكذا سمّى النبلاء أنفسهم في اليونان القديم[213]».

ومن هنا تنهمر التأويلات الفيلولوجية المصطنعة واللاعلمية، من قبيل أن التسميات القيمية الأخلاقية، تُحمَل حتما، على سبيل الاشتقاق «على الأفعال»، وأن الجنس النبيل «يحسب نفسه مُعيّنا للقيمة ولا حاجة به إلى مَن يستحسنه، وهو يقرّ "ما يضرّ بي مُضرّ في ذاته" ويَعي أنه هو الذي يُضفي، أولا وأخيرا، مَجدا على الأشياء: إنه خالق القيم[214]». إنسان أَناني لا يَنظُر إلاّ لنفسه، ولا يبدع القيم الأخلاقية إلاّ لحسابه، ونيتشه يَمتنّ ويمدح هذا الرجل القوي، ويقول إن «أخلاقا كهذه هي تمجيد للذات، في الصدارة يأتي الشعور بالامتلاء، بِقُدرة تريد تدفّقا، وتأتي غبطة التوتّر الأقصى، والوعي بِغِنَى يروم وهبا وبذلا[215]».

هذا الوحش الطاغية يسخر من الجميع، ولا يبالي بأحد، وحتى إن عمل عملا صالحا، فهو لا يقصد به الخير للآخرين وإنما إرضاء أنانيّته؛ النّبيل، يقول نيتشه، يمكن أن يُسعف إنسانا فقيرا، لكنه يفعل ذلك **لا بدافع الرحمة**، بل «باندفاع يتولّد من فيض القُدرة[216]». قلت بأنه وحش، لأن نيتشه نفسه هو الذي يصفه كذلك «يُجلّ كل ما هو صارم وقاس»، إنه فيكينغ اسكندينافي صنديد، يتفاخر بأن إلهه وضع في صدره «**قَلبا قاسيا** (ein hartes Herz ... in die Brust)»؛ صنفٌ من البشر يعتزّ «بأنه ليس مجبولا على الرحمة ... مَن ليس له قلب قاس منذ الصِّغر، فلن يَقسُو قلبه يوما[217]». لا مكان إذن للمروءة والخلق الحسن والتواضعً ونكران الذات، فالنبلاء الصناديد «هم أبعد ما يكون عن تلك الأخلاق التي تعدّ التراحم أو الفعل الغيريّ أو التنزّه عن الغرض علامة على الخُلُقي[218]».

213- ن. م، ص، 247 248.

214- ن. م، ص، 248.

215- ن. م، ن. ص.

216- ن. م، ن. ص.

217- ن. م، ن. ص.

218- ن. م، ن. ص.

النبلاء لا ينزلون إلى مثل هذا المُستوى المُتدنّي، وكيف ينزلون إليه، وهم فخورون بأنفسهم يُعادون الأغيار، حتى الموت، ويَزدرون ما أجمع عليه الناس من مشاعر التعاطف؛ يَسخرون من "القلب الدافئ"، ولا يقرّون بواجبات إلاّ تُجاه الأنداد. إن أفراد عصابة هؤلاء الصعاليك، يجوز لهم، ونيتشه يُركّز على هذه الخاصية ويمتدحها، يجوز لهم «مُعاملة كائنات من مرتبة أوضع، أي مُعاملة كلّ غريب، كيفما اتّفق أو "كما يشاء القلب"، من موقع ما وراء الخير والشرّ[219]».

أما أخلاق العبيد فهي في الطرف النقيض لهذه الأخلاق القاسية، فَهُم، أي العبيد، قبل كل شيء، سَقْط البشرية: مُغتَصَبون، مَقمُوعون، متألّمون، مُكبَّلون، **محتقرون** لأنفسهم، مُتعَبون من الحياة. إن هؤلاء السّقط من المتاع حينما يريدون أن يَتأَخْلَقوا، يُبدعون وحشا من الأفكار والمواقف. فوضعيّتهم الدنيئة تجعلهم متشائمين «من وضع الإنسان ككلّ، وربما عن استنكار للإنسان ووضعه برمّته[220]». يحسدون الأقوياء، ويَضيقون ذرعا بفضائلهم، لا يحتملونها، ويعتبرون سعادة النبلاء زائفة. لكنهم يُوهمون أنفسهم بترياق الأخلاق لنسيان بؤسهم، ولذلك فإنهم يُبرزون مفاتنهم، ويُزيّنون «الصفات التي تصلح لتخفَيف عبء الوجود على كاهل المتألّمين: هنا يُكَرَّم التراحم، واليد اللطيفة المسعفة والقلب الدافئ والصّبر والاجتهاد والخنوع واللطف[221]».

العبيد صنّاع قِيَم! أيّ انحطاط هذا؟ أيّ كفر بواح؟ ما هذه الزندقة الفظيعة؟ أنْ يَتفوّه أوضع النَاس بكلمة تراحم؛ أن يستحسن الأعمال الصالحة، أن يُقدّم يد المساعدة للمحتاجين، أن يكون لطيفا، دافئ القلب، فهذه علامات الساعة، انحطاط خلقي وانحدار علمي مُنقطعا النّظير. والويل للإنسان السويّ إن فكّر يوما ما في التنعّم بالحرية، لأن «**الرغبة في الحرية**، أي الفطرة التي تستشفّ دقائق الشعور بالحرية والسعادة النابعة منها، **تُشكّل جزءا ضروريا من أخلاق العبيد وخُلُقيّتهم**». ومَن منّا يريد أن يكون عبدا؟ من منّا يرغب في التخلّق بأخلاقهم؟ إذن بُعدا للعبيد وسُحقا لحُرِّيّتهم.

219- ن. م، ن. ص.
220- ن. م، ص، 250.
221- ن. م، ن. ص.

(قآ)

أنا أسأل: أهذا فيلسوف؟ هل تنطبق عليه صفة مُفكّر أو مُثقّف؟ ومِن أيّ طينة هو؟ ماذا عسانا أن نَنتفع أخلاقيا من شخص يهين البشرية بهذه الطرِيقة الفظّة؟ ما الشيء الذي يُفيدنا به فلسفيّا وسوسيولوجيا قوله إن النظام الد يمقراطي الحديث سببه هو خلط دم الأسياد والعبيد (Blutvermischung von Herren und Sklaven)[222]؟]

ما القيمة النظرية التي يُبلغنا إياها بقوله إن العبد مَغرور، وإن الغرور هو راسب من رواسب مُكر العبد، وإنه يسعى إلى تضليل الغير بإيهامهم آراء حسنة حول نفسه، وأن المرأة كذلك فيها رواسب الغرور؟

ما صنف البيداغوجيا التي يمرّرها لنا بقوله إن الأصل **والدم والعرق** (der **Rasse**)، تتحكّم في حياة الإنسان وتُثَبّت طبعه بصورة نهائية، وأنْ لا التربية ولا التعليم قادران على الارتقاء بالإنسان، لأن التعليم في المدارس هو فنّ خداع، لإخفاء الأصل العامي المتوارث من أجيال[223].

الجَمَال والقُبح، العلم والجهل، والشجاعة والجنون، القتل والرحمة، كلها من مشمولات الانسان الأرستقراطي، أما الإنسان العامي، فلا ينفع العقار في ما أفسده الدهر. ومن هنا فإن النبيل هو مالك كل شيء عن جدارة، وهو بالتالي أناني للغاية، ويمارس أنانيّته الشرسة براحة بال حتى وإن أدت إلى إخضاع الآخرين بالقوة الغاشمة والتضحية بهم في سبيل تحقيق مصالحه. فعلا، هذه النفس النبيلة «تَقْبَلُ واقعة أنانيّتها

222- ن. م، § 261، ص، 252.

223- ن. م، § 264، ص، 258. «لا يمكن البتّة أن لا يحمل الإنسان في جسده صفات أهله ومُيول سَلَفه، مهما شهد الظاهر ضد ذلك. تلك هي مشكلة العرق. وعلى افتراض أن المرء يعرف أمورا بخصوص الأهل فإنها ستسمح له باستنتاجات بصدد الولد: أمورا من نوع النهم الكريه أو الحسد الضّيّق أو الإصرار العنيد البليد على رأي خاطئ خصائص ثلاثة تُكوّن دائما في اجتماعها الطراز العامي بصحيح المعنى إن أمورا مثل هذه ستنتقل إلى الولد انتقال الدم الفاسد الذي لا مفرّ منه؛ وبواسطة أحسن تعليم وأفضل تربية سيتمكّن المرء وحسب من الخداع بصدد إرث كهذا. وهل للتربية والتعليم اليوم من هدف آخر؟ في عصرنا الشعبي جدا، أعني العامّي جدا، لا بد للتربية والتعليم من أن يكونا من حيث الجوهر، فنّ خداع، الخداع عن الأصل، عن العامّي المتوارث قلبا وقالبا. ولو جاء اليوم مُربّ وكَرَز قبل كل شيء بالحقّانية، وردد على من يربّيهم من دون انقطاع: «كونوا حقّيين! كونوا طبيعيين! تصرّفوا على سجيّتكم!»، لكان سيتناول هو الآخر وأعني أيّ حمار فاضل وساذج مثله عاجلا أم آجلا تلك «المذراة» التي لهوراسيوس كي يكشح الطبيعة: وما النتيجة؟ إن العامّي سيعود أبدا».

من دون طرح علامة استفهام ومن دون إحساس بالقسوة والاكراه والتعسّف، بل تقبلها بالأحرى بوصفها شيئا يقوم على قانون الأشياء الأصلي[224] ».

وهكذا فإن نيتشه يُكرّر نفسه بطُرق خطابيّة شتّى؛ يطوف في مواضع قصيّة ثم يعود ويردّد باستمرار الرواية ذاتها، ويقصّ علينا قناعاته العنصرية دون عقل أو منطق أو أخلاق، وينفثها كأنها حقائق جديدة فائقة وغير مسبوقة، بينما لا يخلو كتاب من كتبه من هذه الخزعبلات الدنيئة. قالها مائة مرة، منذ كتاباته الأولى، أن العدل بالنسبة للإنسان الأعلى هو أن يسحق ما دونه من البشر، وهنا يعيد علينا نفس الأطروحة، بتَلْوينة مختلفة، وهي أن الأنانية الشرسة هي «**العدالة بِعيْنها** (die Gerechtigkeit selbst)».

لكن الجِدّة هنا هي أنه سَحَبَ معه حتى الأجرام السماوية إلى وَحَل الأنانية الشرسة فأفرز لنا شطحة مذهلة، وتداعيات أقرب إلى الهذيان منه إلى الفكر الرصين. قال إن الأرواح السامية النبيلة تتجوّل بين أندادها ونُظرائها «بخُطى واثقة وتُخالطهم بنفس الحياء والاحترام الرقيق الذي تكنّه لذاتها[225]». الهذيان هنا: «وفقا لميكانيكا سماوية فطرية، تَعرف سرّها النجوم»، وكأنه راقب النجوم أو ساءلها واستمع إليها، بينما زادَه من علم الفلك لا يفوق زاد المُهرّج زغلول النجار. والرجل مُصرّ، لا يتزحزح: «كلّ نجمة هي بمثل هذه الأنانية: إنها تحترم ذاتها في الآخرين وفي الحقوق التي تتنازل عنها لصالحهم، ولا ينتابها أدنى شك في أن تبادل الاحترام والحقوق، بوصفه جوهر كل مخالطة، ينتمي هو الآخر إلى حال الأشياء الطبيعية[226]».

وهكذا فإن نيتشه، عن طريق الكُوسمولوجيا البدائية، وباستخدام التصورات الأنثربومورفية، يريد أن يقنعنا بأن أنانية الأرستقراطيين تَعكس أنانية الأجرام السماوية والكون بأسره. والحال أن هذا الرجل يصف لنا وضعيّته ومشاعره الشخصية لا غير، لأن النجوم لا تعقل ولا تشعر ولا تشتهي ولا تعي بذاتها، هي مجموعة من فقاعات الهيدروجين والغازات المختلفة، توحّدها قوة الجاذبية لا غير. يصف لنا كرهه

224- **ما وراء الخير والشر**، § 265، ص، 259.

225- ن. م، ص، 259.

226- ن. م، ن. ص.

الشخصي للبشر، ويُفصح عن ذلك بقوله إن السيكولوجي (وهو يعتبر نفسه أعْلَم سيكولوجي) كلما سَبر نفوس الصفوة «كبُر خطر اختناقه من الشفقة[227]»، وبالتالي، الدواء «هو حاجته إلى القسوة أكثر من أي إنسان سواه[228]».

لكنه في الأخير، كأنّما حَدَس الوضع البائس الذي يعيشه هذا الانسان الوحشي، وتحسّس حقيقة أنه يقضّي حياته في جحيم، ونهايته تعيسة مُفزعة.. ومرة أخرى، فهو يصف نفسه وتجربته الشخصية، ويُصعّدها إلى نموذج شامل لكل الرجال العظماء. فعلا، هؤلاء الرجال «يهيمون غالبا في الوَحَل[229]»، ومصيرهم هو التّآكل الفكري والجسدي لأن «الفساد، وهلاك الإنسان الأعلى والنفوس النادرة هي القاعدة[230]».

وفعلا مصير نيتشه كان كذلك: لقد طلبَ طوال حياته البطولة والقسوة، ونشد الإنسان الأعلى، فعذّب نفسه، وهذا العذاب المتعدد كما يقول «يؤدي به ذات يوم إلى أن يعادي قدره ويحاول **تدمير ذاته**، أي إلى أن **يفسد بدوره**[231]». ولا ينقذه من هذا المصير التعيس، لا الفنّ ولا العلم ولا الحبّ النسوي، لأن المرأة التي تحب الرجل، اعتقادا منها بأن الحب قادر على مواساة البشر، تُخطئ على طول الخطّ. نيتشه، كعالم نفس مُتمرّس جدا بسيكولوجيا البشر، متيقّن من عدم جدوى الحب: «كم هو فقيَرَ وكم هو غبيّ الحبّ، وكم أن أفضل حبّ وأعمقه هو عاجز ومُدّع ومُخطئ وأقرب إلى الإهلاك منه إلى الإنقاذ![232]».

إذن، وأختم هنا هذه الجولة الشاقة في كتاب لا هو بفلسفي، ولا هو بأدبي أو شعري، وإنما خليط مشوش من الهوامل والشوامل الفظيعة، أقول: مُحَطّم الآلهة المَزعوم، يكشف لنا مرّة أخرى عن وجهه الحقيقي، فهو مؤمن بالآلهة ومُتيقّن من وجودها، ومُقتَنِع أيضا من أنها تَتفلسف، وهذه الاستنتاجات يقول إنها علمية، ودفعتْه إليها براهين عديدة. وقد كان هو شخصيا السّبّاق لاكتشاف هذه الحقيقة، وبالتالي يرى من واجبه أن يزفّها بكل غبطة إلى أصدقائه، الذين يشاركونه في إيمانه بالآلهة، لا

227- ن. م، § 269، ص، 262.

228- ن. م، ص، 262.

229- ن. م، ص، 264.

230- ن. م، ص، 262..

231- ن. م، ص، 263.

232- ن. م، ن. ص.

إلى الفلاسفة الملحدين: «أن تكون الآلهة مُهتَمّة بالفلسفة، يبدو الأمر لي، في حد ذاته، تجديدا لا يخلو من الحرج، وقد يثير الارتياب في أوساط الفلاسفة بالذات، أمّا بينكم، يا أصدقائي، فسيكون هذا التجديد أكثر قبولا[233]».

لكنه هو لا يعبأ بالفلاسفة، ولا يُعير أية أهمّية لاعتراضاتهم، لأنه إنسان مؤمن، ومُتيقّن جدّا من أن الآلهة حاذقة أثناء تفلسفها «في الضحك بطريقة جديدة وما فوق بشرية، وعلى حساب كلّ الأمور الجدية». وأكثر من ذلك: «الآلهة تحب التهكم، وحتى خلال الطقوس المقدسة، لا تقوى على الامتناع عن الضحك[234]». وسلّملي على الفيلسوف قاتل الإله.

(كآ)

في جينيالوجيا الأخلاق أراد أن يكون أكثر دقّة وصرامة، فأخرج كتابا فاق فيه شناعات ما وراء الخير والشرّ. فالرجل يعود مجددا لتبرير الكذب، و يمدحه بل يجعل منه، هو والقسوة والتعذيب، فضيلة، ولكن الصدق يسمّيه كذبا.]

وقد أقدم على قلب هذه الحقيقة، فقط لغاية القول بأن الكذب (أي الصدق) هو المسؤول عن تحويل الضّعف إلى مزيّة، والعجز إلى طيبة، والسفالة إلى تواضع، والخضوع إلى طاعة، والجُبن إلى صبر، والعجز عن الانتقام إلى ترفّع عن الانتقام، أو صفح عن الإساءة[235]. الأخلاقيون في التاريخ الذين قالوا إن الفضائل تتمثل في التواضع والطيبة والمُسالمة والصبر والتسامح والصفح، يسميهم، كعادته وبكلامه الجارح، بؤساء «مُهَمْهمين ومزوّرين وأصحاب أذهان بليدة».

لا يتكلّم ولا يكتب شيئا دون أن يكون هدفه الأوحد هو سحق الضعفاء والاعلاء من الأقوياء، ولفظ "ضعفاء" هو اسم جنس يضمّ تحته: **الطبقة الشغيلة، والاشتراكيين والد يمقراطيين الفلاسفة، وعلماء الطبيعة، الفيلانثروبيين**؛ وعبارة أقوياء كذلك، هي اسم جنس يشتمل على كبار المجرمين، القتّالين، القساة الغزاة السفّاحين.

233- ن. م، § 295، ص، 279.

234- ن. م، § 294، ص، 278.

235- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2006، I، § 14، ص، 38.

وانطلاقا من هذا التمييز المقلوب الذي يتباهى به ويجعل من نفسه السبّاق في اكتشاف فضائل هذا الصنف من الوحوش، بينما نعلم أن أول من قال بها هو كاليكلاس السفسطائي، أقول هذا التمييز هو سرّ أفكار نيتشه، ومحور مؤلفاته الشريرة. يصف الأعمال التي أجمع الأخلاقيون وأصحاب العقول النيّرة بأنها فضائل حافظة للنوع البشري، يصفها بأنها قلب للحقائق، وأن قائليها هم سَحَرة ماهرون «يعرفون كيف يُحوّلون السّواد الحالك إلى بياض الحليب والبراءة[236]».

التصرّف الوحيد مع هؤلاء السّحرة هو: "احذرهم"، وبما أنهم متعفّنون يجب "اغلاق الأنف" من رائحتهم الكريهة. هذا هو منطق نيتشه، هذه هي العبارات الرشيقة التي يستخدمها باستمرار في كُتبه.

الفقرتان 14 و15 من المبحث الأوّل من **جينيالويجا الأخلاق**، تمثلان مانيفاستو كره البشر، مانيفاستو العداء للضعفاء واحتقار البشرية المقهورة المُستغَلّة، في أشرس معانيه، مُحلّى بالتهكّم اللاذع والخطابة، لكن محتواه الفلسفي صفر.

العَمليّة هي دائما مساوية لذاتها: كَسْر معاني الكلمات، اختلاق قاموس مُوازٍ نقيض، قلب الحقائق عن قصد، وتزوير البديهيات الأخلاقية المعلومة للجميع: الأسوياءُ لا يُسمّون ما يطلبونه **ثأرا**، بل انتصارا للعدالة، لا يكرهون عدوّهم بل الظلم المُمارس عليهم، ما يؤمنون به ليس الانتقام أو نشوة الانتقام الحلو (الأحلى من العسل، كما قال هوميروس)؛ والآخرون الذين يجب عليهم **محبّتهم** ليسوا هم إخوتهم في الحقد، بل إخوتهم في الإنسانية، وكل الصالحين والعادلين على ظهر الأرض[237]. لكن ألم يَقُل نيتشه إن الصالحين والعادلين هم أحقر الناس في العالم، وأكثرهم كرها للحياة؟ فالرجل، لكي يخلط الأوراق، ويُخفي وجهه الشرير القاسي، ولكي يستقطب الغاضبين على الاكليروس، يوحي بأنه يعارض التعاليم المسيحية: تعاليم يوم الحساب، يوم يحين وقت حكم الصالحين الضعفاء «وقت ملكوت الرب. وفي انتظار ذلك ها هم يعيشون على الايمان والحب والأمل[238]».

236- ن. م، ص، 39.

237- ن. م، ص، 39.

238- ن. م، ص، 40.

والحال أن الضعفاء هم الشوكة العالقة في حلق نيتشه منذ شبابه[239]، لا يَعنيه الدين ولا الاله ولا الإكليروس، كل ما يَعنيه هو اقصاء الضعفاء ودعسهم، والدليل على ذلك أن في الفقرة 16، يهين الثورة الفرنسية التي هي عنوان التخلص من الدين والاله والإكليروس، ويعتبرها انتصار اليهودية من جديد على الأسياد الرومان: «لقد **حقّقت اليهودية نصرا جديدا**، نصرا حاسما وجذريا، على المثال الكلاسيكي **من خلال الثورة الفرنسية**[240]».

أرأيتُم إلى أي حدّ وصل به تزوير الحقائق؟ هذا التضليل المقصود، وهذا التّزوير الفظيع الذي يعشّش في ذهن هذا الكاتب؟ بضربةٍ عشوائية انحدرت الثورة الفرنسية التي كانت، باعتراف المسيحيين أنفسهم، حربا شعواء على المسيحية، وعلى الدين عموما، إلى انتصار لليهودية. وتصوّروا أن السّبب في حنقه على الثورة الفرنسية هو نفس السبب الذي يقدّمه المسيحيون: «انهيار آخر النبلاء في أوروبا، نبلاء القرنين السابع عشر والثامن عشر، تحت ضربات غرائز الحقد الشعبية[241]». ومَن يقول النبلاء، يقول الرجعية الدينية، وبالتالي الاستغلال الجسدي والقهر النفسي، لأن أكبر حليف للنبلاء وطبقة المُلاك هم الإكليروس الذين يَمدّون العامة بأفيون الدين لكي يبقوهم في حالة طاعة وخنوع لأسيادهم.

ويأتي مُحطّم الأديان وقاتل الإله المزعوم لكي يتحسّر على ذاك الزمن الجميل الذي كان فيه النبلاء والكهان يمارسان سلطتهما المطلقة على الرعية، قبل أن تقوّض الثورة الفرنسية هذا النظام العبودي. ولكنه يَسعَد بالضربة القاسمة التي سدّدها نابليون للديمقراطية وإرسائه ديكتاتورية قضت على نظام الجمهورية ولاحقت المفكرين الأحرار. نيتشه لا يهمه هذا التقهقر في مجال الحريات أو القضاء على سلطة العدد الكبير (يعني الديمقراطية)، بل يعتبر دكتاتورية الفرد الواحد (يُسمّيها ميزَة العدد الصغير)، حدثا نقيضا، مروّعا وساحرا، وكعلامة أخيرة لظهور القائد الفذ نابَليون «ذلك **الرجل الفريد** والمتأخّر عن زمانه، والذي **تجسّدت فيه** مسألة **المثال الأرستقراطي** في ذاته[242]».

239- انظر بخصوص هذه النقطة: محمد المزوغي، **نيتشه والفلسفة**، منشورات كارم الشريف، تونس 2010، ص، 117 - 120.

240- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، I، § 14، ص، 42.

241- ن. م، ص، 43.

242- ن. م، ص، 43.

نابليون، في النهاية، كان حصيلة **اللاإنسان (Unmensch)** و**الإنسان الأعلى (Übermensch)**، وأن يكون المرء وحشا، أو سيّدا قاسيا، فهذا بالنسبة لنيتشه أرقى وأجمل فضيلة يمكن أن يكتسبها. ولذلك فهو يرسل رسالة إلى قرّائه بأن لا ييأسوا من استعادة هذا الديكتاتور القتّال، ويتنبّأ بقدومه يوما ما، حيث سنرى فيه «الحريق القديم يضطرم بمزيد من الحدّة بعد أن ظل حبيسا لمدة طويلة». والمهمة المستقبلية لنيتشه وأتباعه، هي المساهمة في تهيئة جوّ روحي ملائم لعودة هذا الطاغية المستبد[243].

الأغرب أن نيتشه يريد أن يعمّم هذه الفظاعات، ويُدمجها في برامج الجامعات، وخصوصا في كليات الفلسفة، بوضع كتابه هذا تحت ذمة الفلاسفة. ولا أدري هل يطرح ذلك بسبيل الدعابة أو عن جد. اقتراحه كالتالي: «يُستحَبّ أن تتولّى كليّة للفلسفة، من خلال سلسلة من المباريات الأكاديمية، نَشْر الدراسات عن تاريخ الأخلاق، وربما يكون هذا الكتاب دُفعة قوية في هذا الاتجاه[244]». والأدهى أنه يقترح حتى موضوع المباريات وطريقة اجرائها، وكفّ عن أن يكون فيلسوفا لكي يصبح منظّم مباريات، ويقترح حتى نوع الكويتْس المطلوب: «وفي انتظار تحقيق هذه الرغبة اقتَرِحُ السؤال التالي: بماذا تفيدنا اللسانيات فيما يتعلق بتاريخ التصورات الأخلاقية؟». ولا يكتفي فقط بالفلاسفة والفيلولوجيّين، بل إنه يطلب أيضا من علماء الأحياء والأطباء أن ينظموا إلى جوقته "أن نكسب في صفّ دراسة هذه المسائل فيزيولوجيّين وأطبّاء". ونيتشه مِن أعلى يُراقب هذا الجيش من الشغالين ويوزّع الأدوار والمهمات، هو الذي لم يدرس في حياته قط الفلسفة، ولم يتخصّص فيها، ولم يَقم بامتحان واحد في كليّاتها. ورغم ذلك، يعطي تعليمات وإرشادات ويقترح حتى كيفية الإعلان عن نتائج الكويتْس: «في هذه الحالة الخاصة، يمكن أن نترك للفلاسفة دور الوساطة والاعلان عن النتائج[245]».

لكن، بعيدا عن هذا التهريج الاعلامي، الرجل يملك ترسانته الأخلاقية المضادة، وهي ترسانة يكررها باستمرار، يلوّنها بألوان مختلفة من كتاب إلى آخر، لكنها تبقى ثابتة. العنف، والاستغلال، والحقد، هي مشاعر صالحة بيولوجيا واجتماعيا، بل فضائل

243- النص النيتشوي جاء على شكل مجموعة من الاستفهامات، لكن يمكن حدس أنه يرغب في تحقيقها، والأسئلة تحمل في ذات النص أجوبتها: «هل كانت تلك بداية النهاية؟ ... ألن نرى الحريق القديم يضطرم يوما ما بمزيد من الحدة، وبَعد أن ظل حبيسا لمدة طويلة؟ بل ألا يجب علينا أن نرغب في هذا رغبة ملحة؟ بل أن نريده؟ ألا ينبغي علينا أن نسهم فيه»

244- ن. م، ص، 45.

245- ن. م، ن. ص.

أخلاقية أجمل من فضائل عامة الناس: «يبقى الإنسان النشيط، العدواني العنيف، أقرب كثيرا إلى العدالة من الانسان الارتكاسي[246]».

هذا الإنسان الفج العنيف العدواني، نظرا لكونه أقوى وأشجع وأنبل «يمتلك ضميرا أفضل من الذي يعاني وخز الضمير». ليس هناك ظلم ولا عدالة في ذاتهما «فالمخالفة والخرق والاستغلال والتدمير لا يمكن أن تكون ظلما أبدا». لماذا؟ لأن الحياة، أي حياة الغريزة الحيوانية، «تعمل في أساسها بالمخالفة والخرق والاستغلال أو التدمير، بحيث لن نستطيع تصورها وهي تعمل بخلاف ذلك[247]».

(لآ)

في هذه الأدغال التي تحتلّها الكواسر والحيوانات المفترسة، كل الضوابط الأخلاقية تغدو سجنا مؤبدا، والقوانين تقييدات مُميتة بما في ذلك الدولة ومؤسساتها]، لأن «من وجهة نظر البيولوجيا لن تكون دولة القانون سوى دولة استثناء بما هي تقييد جزئي لإرادة الحياة التي تميل إلى السلطة، دولة لا تملك إلاّ أن تكون تابعة للهدف العام لهذه الإرادة كواحدة من وسائلها الخاصة، أي كوسيلة لخلق وحدات قوة تكون دائما أكبر».

إنها فكرة التدافع التي تحدّث عنها راشد الغنوشي، زعيم الارهابيّين، وهو حاكم تونس الحالي الذي رحّل آلاف الشبان للقتال في سوريا من أجل حماية إسرائيل، وهو يطبّق مبدأ نيتشه هذا: السياسة مبنية كلها على التدافع، وبالتالي ترويع الناس نفسيا باختلاق الشائعات، وجسديّا باستخدام الهراوات لتهشيم رؤوس المتظاهرين، أو اغتيال المعارضين، (كما اغتال الإسلاميون التونسيون ثلاثة معارضين كبار، أشهرهم اليساري شكري بالعيد)، أقول كل هذه الأعمال تجد لها تبريرا في مفهوم التدافع الإسلامي. وإذا كنتم في ريب، فما عليكم إلاّ أن تعودوا إلى القرآن، الذي صرّح بهذا المبدأ: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ...).

حيث العدوانية والصراع والتقاتل، فثمة نيتشه، وحيث الرحمة والتآخي والسّلم الاجتماعي وسيادة القانون فثمة أعداء نيتشه. فعلا، ينتفض ضد فكرة ,,نظام قانوني

246- ن. م، ص، 64.

247- ن. م، ص، 65.

تكون له السيادة عبر العالم"، تشريعات عقلانية لتخفيف حدة الصراع، ولإنشاء مجتمع عادل، يصفها بأنها مبتذلة، والسبب دائما مُساو لنفسه: العنصرية واحتقار البشر. القانون، لا يجب مبدئيا أن يُصَاغ لوضع ضوابط تُنظّم التنافس على السلطة، وتخفّف من حدّة العنف المتولّد عنه، وعلى وجه الخصوص، لا يجب أن يؤسِّس لنظام «يكون مطابقا لصيغة دوهرينغ المبتذلة للشيوعية وقاعدة تعتبر كل الارادات متساوية». لكن تساوي البشرية، والشيوعية بأي شكل كانت، وتشريع قوانين تضبط الغرائز، في نظر نيتشه، هي معاداة فظيعة للحياة، لا بل كارثة انثربولوجية لا يمكن تخيّلها: «عامل انحلال الإنسان ودماره، واعتداء على مستقبل، وعلامة دالة على الضجر، وسبيلا ملتوية نحو العدم[248]».

التقدّم بالنسبة لنيتشه لا يتمثل في تمتين الحرّية والعقلانية، وفي دراسة الطبيعة أو تشريع قوانين إنسانية متحضرة، لا أبدا، التقدم هو أن تُصعّد من قوتك على حساب غيرك، أن تكتسح فضاءه الحيوي، وتغزوه، وتسحقه بالكامل. ولتبرير هذه الوحشية فهو يستعمل منطق الفيزيولوجيا الخيالية المصطنعة من رأسها إلى أخمص قدميها[249]. ذلك أنه بالتناسب مع حالة الأعضاء في الجسد الإنساني، حيث يربو أحدها على حساب الآخر (فيزيولوجيا نيتشه الخيالية)، فإن التقدّم الحضاري والاجتماعي يُقاس «بمجموع التضحيات التي يجب أن تتمّ من أجله، **والتضحية بالإنسانية كلّها من أجل تكاثر صنف واحد من الرجال الأكثر قوة، ستكون تقدما بالفعل**[250]».

إذن، عُدنا إلى نفس الهول، إلى نفس فيلم الرعب: إبادة جماعية من أجل الحفاظ على قلة مُختارة. وهذا الرجل الذي يدعو جهارا، ويتباهى، بل ويبرر عن طريق الفيزيولوجيا، قتل البشر بكل راحة بال، أصبح أعظم فيلسوف في العالم. لا يريد أن يعرف أو يسمع أي شيء عن افتراضات العلماء حول المادة والحركة، ولا عن العدل

248- ن. م، ص، 65.

249- هذه فيزيولوجيا نيتشه: «وحتى داخل الجسم الواحد لا يكون الأمر مختلفا، فمتى نما المجموع بشكل محسوس تغيّر معنى كل عضو، وفي بعض الحالات قد يكون تَلَف الأعضاء الجزئي أو نقصها (بتخريب الأعضاء الوسطى مثلا) علامة على ازدياد القوة والسير نحو الكمال. أقصد أنه حتى حالة عدم الاستعمال الجزئي للأعضاء، أو تَلفها وانحلال خلاياها، أو فقدانها المعنى والفائدة، باختصار إن موتها يدخل ضمن شروط تقدم حقيقي، تقدم يتخذ دائما شكل إرادة وتوجّه نحو امتلاك سلطة أكبر ويتمّ دائما على حساب عديد من القوى الدنيا».

250- ن. م، ص، 67.

والأخوّة والمساواة والديمقراطية، بل يؤنب المحدثين على عدم تقبّلهم «**نظرية إرادة القوة المتمظهرة في كل الأحداث**[251]».

وتفسيره لهذا التعنّت هو تخنّث أحاسيس الإنسان الحديث عن طريق الديمقراطية التي تساوي بين المواطنين وتضع الحاكم في نفس مستوى المحكوم. الأنكى من ذلك هو أن مناهضة ديكتاتورية الفرد، أو بعبارات نيتشه «النفور من كل مَن يأمُر أو يُريد التّأمُّر، هذا المزاج الديمقراطي، هذا الكره للسلطان» تعدّى مجال السياسة لكي يَنفذ حتّى في العلوم الصحيحة وعلوم الفيزيولوجيا، فخربت العلوم وانحطّت، لتبنّيها الأفكار الديمقراطية[252].

لكن بالنسبة لنيتشه، وهو مقتنع برأيه أشدّ الاقتناع، مبادئ العلوم الفيزيائية، وكل التصوّرات الفيزيولوجية التي اكتشفها هؤلاء الديمقراطيون، هي خاطئة، وضيعة، وسوقية لأنها تُغيّب عاملا محوريا، وهو إرادة القهر والهيمنة في الحياة، «وتَصْرِف عن نظرهم رفعة **القوى** التلقائية **والعدوانية والغازية** التي تُعطي معنى جديدا ووجهة جديدة وشكلا جديدا يكون التكيّف نتيجة له، وبهذا ينكرون سيادة الوظائف العليا للجسم التي تظهر فيها إرادة الحياة، بشكل فعال ومهذب[253]».

(مآ)

كل شيء، في نسق نيتشه، يجب أن يقود إلى إرادة القوة، أن يسلك طريقه إلى العنف والتسلط والهيمنة والقمع والبطش وغياب الضمير، وإلاّ فإنها التعاسة والدمار، الانحطاط والجنون؛ الجنون المذموم، وليس المحمود، لأن نيتشه، له نوعان من الجنون: محمود ومذموم.]

وتخيّلوا الكارثة المفزعة المتولّدة عن محبّة الانسان لأخيه الإنسان، عن أخلاق الضمير: «أوه! يا له من حيوان كئيب ومجنون هذا الإنسان! تراه ينساق وراء خيالات

251- ن. م، ن. ص.

252- هذا النفور يقول نيتشه «اتّخذ بالتدريج مظهر تعقّلية جدّ مهذّبة بحيث أنه يتسلّل اليوم إلى العلوم الدقيقة، الموضوعية في ظاهرها، وأحسبه قد صار سيّد الفيزيولوجيا والبيولوجيا، وهو يضرّ بهما طبعا، بسرقته منهما تصوّرا أساسيا هو تصوّر الفاعلية. وقد أصبح أصحاب هذا المزاج يقولون بالتكيّف، أي بفعالية من الدرجة الثانية، يعني مجرد قابلية رد الفعل، وفضلا عن ذلك عرّفوا الحياة نفسها بأنها تكيّف داخلي يكون دائما ملائما للظروف الخارجية».

253- ن. م، ص، 67 68.

غريبة ومضادة للطبيعة، وراء نوبات من الجنون، وراء فكرة حيوانية بمجرّد ما يتمّ مَنعه قليلا من أن يكون حيوانا فاعلا! ... إذا أمْعنّا النظر في هذه الهاوية فإننا نشعر بكآبة مُظلمة تغمرنا، كآبة موجعة ومزعجة، ولذلك يجب أن نُجبر أنفسنا على الابتعاد عن هذا المشهد. مما لا شك فيه أننا أمام أبشع مرض يعيث فسادا في الناس، والذي لا يزال قادرا على أن يُسمع، في ليل العذاب والعبث هذا، دويّ صرخة الحب، صرخة الانخطاف المُشتعلة بالرغبة، صرخة الخلاص عن طريق الحب، فإنه سيولي هاربا وقد تملّكه الرعب، ولكن لم يعد هناك اليوم مَن يستمع لهذا. هناك في الإنسان كثير من الأشياء المُخيفة، وقد **كانت الأرض** ولأمدٍ طويل، **مستشفى للمجانين**[254]».

هذا هو الجنون المَذْمُوم، وهو مرادف، في قاموس نيتشه، للمحبّة والرحمة والإخلاص، والضمير؛ أمّا الجنون المحمود، فهو العكس تماما. ومَن يُعلّمنا إياه؟ ومَا هي التصورات التي تَمَظْهرت فيها قيمة هذا الجنون؟ المسألة تتلخّص في تصوّر الإله: تصوّر إله مُحبّ وخيّر، يقود إلى الجنون والاجرام والانحطاط؛ إله قتّال قمة الإنسانية، ويكفي توجيه نظرنا إلى آلهة الاغريق، إلى أولئك الرجال النبلاء والسامين «الذين كانوا يؤلّهون الجانب الحيواني في الإنسان[255]»، حتى نتيقّن من ذلك. والميزة الكبرى لهؤلاء اليونانيين أنهم أغرقوا آلهتهم في وحل الرذيلة، استخدموا آلهتهم يقول نيتشه «لحماية أنفسهم من الشعور بالذنب، وليكون لهم الحق في التمتّع في سِلْم بحرّية أرواحهم[256]».

وإله اليونانيين يفرح لجنون عباده «هؤلاء الأطفال الرائعين المرعبين الذين لهم قلب أسد قد قطعوا شوطا بعيدا في هذا السبيل[257]»، لا يحقد عليهم بتاتا، بل كل ما يدور بخلده، وهو يشاهد أعمالهم السيئة، القول: "كم هم مجانين". «فالجنون والغباوة وشيء من التشوّش في العقل، هذا ما كان يقبله كل إغريق المرحلة الأكثر قوة وشجاعة كتفسير لأصل كثير من الأشياء القاتلة». وهذا التفسير يُفضّله نيتشه على التفسير المسيحي، الذي يُصنّف الرذائل في باب الإثم أو الخطيئة الأصلية، بينما نيتشه يضعه في باب الجنون المحمود: «الجنون وليس الإثم! أتفهمون؟». وبما أن الجنون، عند نيتشه، هو فضيلة، فلا يجوز النظر إلى الشرور على أنها مساوئ.

254- ن. م، 22 § II، ص، 80.
255- ن. م، § 23، ص. 80.
256- ن. م، ن. ص.
257- ن. م، ص، 81.

وكلّ من يرفض العنف، ويدعو للسلم هو مغرور متحمّس عدوّ للحياة، وبالتالي فإن نيتشه لإعادة الأشياء إلى نصابها وتسريح الغرائز الحيوانية في الإنسان، لا يرى أمامه إلاّ مخرجا واحدا: بروز صنف آخر من الأرواح التي «لا نجدها في عصرنا». ومواصفات هذه الأرواح لا تختلف عن مواصفات ارهابيّي داعش والقاعدة: «أرواح قَوَّتْها الحرب والنّصر وأصبحت لا غنى لها عن الغزو والمغامرة ومواجهة الخطر وتحمّل الألم[258]». تدريبات قاسية في أماكن وعرة: «يلزمنا التعوّد على هواء الأعالي القارس، على المشي تحت الأمطار وعلى الجليد، وعلى تسلّق الجبال، إني أقصد ذلك بكل معانيه».

وبالجملة، الإرهابي تلزمه صحة ريّانة لكي يقوم بمهامه الحربية، ونيتشه يتحسّر على فقدانها في عصره. لكن هذا لا يعني أنه يائس، بل يتوقّع بروز هذا الشخص في عصر غير بعيد عنه: «في زمن أصلب من هذا الحاضر المتهافت والمُرتاب في نفسه، لا بدّ أنْ يأتينا **الإنسان المُخلّص** الذي يحبّ كثيرا ويزدري كثيرا، العقل الخلّاق الذي ستمضي به قوّته الدافعة بعيدا عن كل الهوامش وكل الماوراء، الإنسان الذي سيسيئ الناس فهم وحدته ويعتبرونها هروبا من الواقع، بينما سيتعمّق هو في هذا الواقع وينشغف به ليعود إلينا يوما، حين يعود إلى النور، ليخلق هذا الواقع ويرفع عنه اللعنة التي أثقله بها المثل الأعلى الحالي. هذا الإنسان المستقبلي الذي سيخلّصنا من المَثل الحالي ومما قد ينتج عنها بالضرورة، من الاشمئزاز الكبير ومن إرادة العدم والعدمية، الذي سيكون دَقَّة ساعة منتصف النهار وساعة القرار الحاسم، محرر الإرادة الذي سيعيد للعالم غايته وللإنسان أمله، هذا المسيح الدجال الذي يقف ضد العدمية، هازم الرب والعدم، لا بدّ أن يأتي يوما[259]».

وهكذا فإن "الفيلسوف" يتنبّأ بموسليني وهتلر (وبَعْديّا بالخليفة البغدادي الذي صنعته الموساد، وبأرييل شارون جزّار الفلسطينيين) بسفّاحي البشرية، اللذان تسبّبا في قتل 25 مليون روسي، وتدمير قرى ومدنا بما فيها من بشر وحيوانات وشجر وحجر.

إن إعجاب نيتشه بالإنسان القوي الشرير، كما يقول ألفريد فوييه (Fouillée)، يعني الإعجاب بجميع القوى العدوانية. فالصراع والعنف هما على أية حال أساس نظرته الانثربولوجية، ومقوّم ثابت في فلسفته. فهو يرى أن النموّ ينتسب إلى مفهوم

258- ن. م، 24 § II، ص، 82.

259- ن. م. ص. 83.

الكائن الحيّ: كل ما هو حيّ يجب أن يُنمّي قوّته ويمتصّ بالتالي القوى الخارجية. أكثر من ذلك، حسب نيتشه، ليس الدفاع، بل الهجوم هو الحق الأصلي: «تحت تأثير ضباب المخدّر الأخلاقي، يتحدثون عن حق الفرد في الدفاع عن نفسه؛ لكن يمكننا أن نتحدّث أيضا، في ذات الاتجاه، عن **حقه في الهجوم**، لأن الشيئين الثاني أكثر من الأول هما ضروريان لكل ما هو حيّ». وبعبارة أخرى: الحيوان يجب أن يأكل، وبالتالي أن يهاجم، عند الحاجة، الحيوانات الأسفل منه واقتناء فريسة. انطلاقا من هذه السطحية، نيتشه يستنتج جنونا خالصا: **الإنسان له تمام الحق في الهجوم على الآخرين، على أمثاله ولِمَ لا، على أكلهم**.

لكنَ الفيلسوف الفرنسي، فوييه، يُجهد نفسه لنقض هذه الخواطر السّبعيّة عن طريق تقديم براهين فلسفية ومنطقيّة وأخلاقية كلّية، ولا يعلم أنه يتحدّث مع حائط؛ أنه يحاور شخصا طُحن عقله بالإرهاب ولا ينفع معه أي برهان. على فلسفة افتراس البشر النيتشوية، يردّ فوييه، بكل تحضّر قائلا: إن نيتشه يتناسى أن النظام الاجتماعي والإنساني بحق، على عكس النظام الحيواني والقبل إنساني، لا يتطلّب إطلاقا حق الهجوم، بل يُقصيه ويُضيّق حتى من حق الدفاع عن النفس إلى ضرورة اللحظة الراهنة.

وانطلاقا من تلك المبادئ فإن نيتشه يخلص إلى سطحية أخرى من سطحيات الميتافيزيقا الألمانية: تمجيد الغزو والحرب، ليس لأسباب روحية ومثالية، وإنما لأسباب مادية واقتصادية. يقول إن شعبا ما «يمكنه أن يعتبر حقا حاجته للغزو، للقوّة، سواء عن طريق السلاح، أو عن طريق التجارة، والتبادل **والاحتلال**؛ سيكون إذن حقّ النموّ»؛ «إنّ مجتمعا يرفض نهائيا وبالغريزة الحرب وروح الغزو هو في انحطاط؛ ناضج للديمقراطية ولنظام البقّال».

إن بلاغة نيتشه، يُواصل فوييه، تلتَهب حينما يتعلّق الأمر بمقارنة الحربيّين بالسّلميّين، الأقوياء بالضعفاء. وهذه عيّنة من لباَقته الخطابيّة: «هل أنت الرجل الذي يحمل في داخله غرائز المحارب؟ إذا كان ذلك كذلك، فلا يزال هناك سؤال ثان ينبغي الإجابة عنه: هل أنت، بالغريزة، محارب يهاجم، أم محارب يدافع؟ إن باقي الإنسانية، إن كل من لا يستبطن غريزة الحرب، ويريد السلام، والوئام، الحرّية، والحقوق المتساوية... يطمح إلى خلق الظروف التي تمنع كل نوع من أنواع الحرب؛ هذا ما تنصح به مثلا الغريزة المسيحية. عند كل المحاربين بالولادة، ثمة شيء يشبه السلاح في الطّبع، في

اختيار الظروف، في تشكيل كل الخصائص؛ السلاح هو الأكثر نموّا عند الطراز الأوّل، الدفاع في الثاني».

من المحتمل جدا أن قراءة آلفريد فوييه للصفحات التي يشيد فيها نيتشه بالحرب، وشحنة التعنيف الفظيعة الكامنة في أفكراه، قد أثارت في ذاكرته المآسي التي عاشتها فرنسا أيام حربها ضدّ بروسيا، وسَحق جيوشها بصورة وحشية في معركة سيدان. تعليقه هو أن عند الذي يسمّي نفسه «أوروبيا صالحا ودون وطن»، تطفو على السطح كل الأحكام القومويّة للجنرال فون مولتكه وبيزمارك: «إن الحفاظ على الدولة العسكرية هو الوسيلة الرئيسية، إما للمحافظة على التقاليد العظيمة، أو لتطوير الطراز المتفوق من الإنسان، الطراز القوي. وكل التصورات التي **تؤبّد العدوانية** والمسافات الاجتماعية بين الدول يمكن أن تجد لها هنا مشروعيّتها».

يقال إن الهنود، كي يقتحموا حصنا محاطا بخندق، يُنزلون فيه كبشَ القطيع: القطيع كله يَتْبعه، والجنود يَعبرون فوقه. من هذا التشبيه، يستخلص فوييه النتيجة التالية: على هذا المنوال تقريبا، تتقدم وتتطوّر، في منظومة نيتشه، قدرة النوع على اكتساب قوة أعلى. إذن، فلْتُسرع الإنسانية حثيثا في درب الكراهية والحرب والدم والموت والغزو وإبادة الضعفاء؛ فلْتفخرْ بقُوّتها؛ ولتسمحْ لنفسها بالتمتّع بجميع ملذات الحياة دون كابح، دون قاعدة، دون قانون، وسوف تتجاوز الإنسان للوصول إلى السوبرمان.

نيتشه يدعو الأخلاق «سيرك الفلاسفة»؛ وفوييه يردّ: أليس بالأحرى اللاّأخلاق هي التي تُحوّلنا إلى خنازير أو إلى نمور[260]؟

(نآ)

افتَتن به عدد كبير من الفلاسفة والمثقفين لمهاجمته المثل الزّهدي، واعتبروها نقدا ثاقبا وصحّيّا للدين، وتخلّصا من سلطة الكاهن والشيخ. لكن، في الحقيقة،

260- A. Fouillée, Le moralisme de Kant et l’amoralisme contemporain, Paris, Félix Alcan, 1905, p. 318-320. « Que l’humanité se rue dans la haine, la guerre, le sang, la mort, la conquête, l’extermination des faibles ; qu’elle s’enorgueillisse de sa puissance ; qu’elle se livre à toutes les voluptés d’une vie sans frein, sans règle, sans loi, et elle aura surmonté l’homme pour atteindre le surhomme. Nietzsche appelle la morale «la Circé des philosophes” ; ne serait-ce point plutôt l’immoralisme qui nous changerait en pourceaux ou en tigres ? »

غرض نيتشه هو شيء آخر مُختلف تماما، غرضه هو الهجوم على النظر المجرد، تقزيم الفلسفة والفلاسفة، الاستهانة بالعلم وبالمفكرين الأحرار، وخصوصا التهجّم على الإلحاد والاستخفاف بالملحدين.]

بالنسبة لشخص لا يُتقن الفلسفة ولم ينكبّ على تعلّمها بطريقة مُنهجة وإنما اكتفى بقَطْف بعض الأفكار من هنا وهناك، أزعجته حالته هذه، فانهال على الفلاسفة تجريحا وإهانات، وألصق بهم طيفا من الصفات تذهب من الهجانة إلى الاستحمار ومن العنكبوت إلى الزاهد. وقد وصلت به الوقاحة إلى وصفهم بأنهم حفّارو قبور وأنهم مومياء: «أن يكون الواحد فيلسوفا يعني أن يكون مومياء، وأن يُجسّد وحدانيّته بحركات حفّار قبور»[261].

الفلاسفة المُتمرّسون بالفكر النقدي والمجتهدون لتحرير العقول من سلطة التقليد يروي قصتهم التي اختلقها من محض خياله بغرض الحطّ من قيمتهم، وجَعْلهم مسخرة في أعين أصدقائه. الفيلسوف يريد أن يتحرّر من الألَم، أن يتفادى قسوة الواقع وعذاباته فيميح إلى امتداح المثال الزهدي، لكن كاره البشر ومحبّ التعذيب، نيتشه، يقول: «**حذار من الاكتئاب لدى سماعنا كلمة «عذاب»**[262]».

إذن، على هذا النحو افتتح نقاشه مع الفلاسفة، حيث ابتدع خاطرة وهمية، تافهة ولا واقعيّة، وسخّرها لتقزيم الفلاسفة والاستهانة بهم، وَاعِدا القرّاء بأنهم سيَتفرّجون على مسرحيّة مضحكة: ثمة الكثير مما «سَنَسْخر منه[263]». وفعلا، شغّل مكنة السخرية ضد شوبنهاور، فترك فلسفته وجوهر أطروحاته، وانهال على بعض مواقفه الشخصية، وقال إن هذا الفيلسوف لا يقدر أن يعيش دون أعداء: **المرأة** و**الجنس** و**هيجل**[264].

261- قال أيضا إن الفلاسفة منحاهم مصري وأنهم عبدة الأصنام الفكرية. انظر: نيتشه، **غسق الأوثان**، «العقل في الفلسفة»، § 1، ص، 36.

262- جينيالوجيا الأخلاق، ن. م، 7 § III، ص، 94.

263- ن. م، ص، 95.

264- «يجب ألا نستخفّ بكون شوبنهاور، الذي اعتبر الجنس عدوّا شخصيا له (الجنس وكذلك أداته التي هي المرأة، أداة الشيطان هذه)، قد احتاج إلى أعداء ليظل مبتهجا، ألا نستخفّ أيضا بكونه يفضّل كلمات الغضب والكلمات الجارحة المفعمة بالحقد والتشاؤم، وبكونه يغضب فقط لأنه يعشق الغضب، وبكونه سيمرض ويصبح متشائما لو لم يكن له أعداء ولو لم يعرف هيجل أو المرأة أو الجنس، وكذلك لولا رغبته في الوجود والبقاء على قيد الحياة، وإننا نراهن أنه لولا هذا كله لما ثبت شوبنهاور ولَوَلّى هاربا، فأعداؤه هم الذين كانوا يمنعونه من ذلك ويُحبّبون إليه الحياة باستمرار، فقد كان غضبه كغضب الكلبيّين، بَلْسما وتَسلية وفِدية وترياقا وسعادة».

ومن هذا العرض المختلّ الصبياني الفظيع لفلسفة شوبنهاور استخرج قانونا عاما شاملا، وهو أن منذ أن وُجِد فلاسفة على وجه الأرض، وحيثما وُجِدوا «وُجد معهم عداء حقيقي للجنس وحقد فلسفي عليه. وما شوبنهاور إلاّ تعبير فصيح عن ذلك[265]». وأضاف، وأنا مُجبر على تتبع هذه الشطحات وثرثرة المقاهي، ويعلم الله كم يشقّ على نفسي قراءة مثل هذه الأشياء السطحية جدا، لكن صبرا ما دام الهدف هو تحطيم هذا الصّنم.

أقول، أضاف أن الفيلسوف «يُرعبه الزواج وكل ما قد يقوده إلى الزواج»، وأن الفلاسفة الكبار لم يتزوّجوا قط، وأن الفيلسوف المتزوج هو مسخرة، ولكن حالة سقراط هي استثناء، لأنه ماكر ومُخادع «تزوّج بدافع السّخرية، ليبرهن على صحة هذه الأطروحة[266]». وفي النهاية، يطلع باستنتاج لا ندري هل يوافق عليه أم يمزح أم جُنّ: «أيّ معنى يجب اعطاؤه للمثل الزهدي لدى الفلاسفة؟ هذا جوابي: يبدو من مظهر الفيلسوف وكأنه يبتسم لأمثل الظروف التي يحقق فيها رَوْحَنَة سامية وجريئة، وهو بهذا لا ينفي الوجود، بل على العكس يُثبتُ وجوده هو، وجوده فقط، بحيث لا يبتعد كثيرا عن هذه **الرغبة الإجرامية** القائلة: **ليهلك العالم**، ولتكن الفلسفة، ليكن الفيلسوف، **لأكن أنا**[267]».

الكلمة التي وضعها على فم الفيلسوف وسمّاها «**رغبة إجرامية**» لم نسمعها من أيّ فيلسوف في العالم. فتّشوا في كتب الفلاسفة وحاولوا أن تعثروا على فيلسوف أناني، كاره للبشر، لدرجة أنه يتمنّى لو فني العالم كله كي يبقى هو فقط لوحده. أقصى ما يتمنّاه فيلسوف هو أن يموت موتة الفلاسفة، كما يُروى عن ابن رشد في نادرة (مُلفّقة) أوردها بعض الكتّاب الغربيّين في القرون الوسطى يقول فيها: إن المسيحية هي دين مستحيل؛ اليهودية دين صبيان؛ والمحمدية دين خنازير، وبعدها صرخ قائلا: «فلتَمت روحي موتة الفلاسفة (moriatur anima mea morte philosophorum)».

الفيلسوف يَعْلَم أن الإنسان مَدَنيّ بالطبع، وأنه لا يمكن أن يحيادون أمثاله، أو بمعزل عن الاجتماع والتحضّر، وأن الأنانية هي حيوانيّة وافتراس. لكن هذه المواصفات هي بالذات

265- ن. م، ص، 95.

266- ن. م، ص، 96.

267- ن. م، ن. ص. في ترجمة فتحي المسكيني جاءت الجملة الأخيرة على النحو التالي: «أيّ معنى إذن لمثل أعلى تنسّكي لدى الفيلسوف؟ إنما جوابي هو ... إن شأن الفيلسوف أن يبتسم لمرآه كما للحد الأقصى من شروط الروحانية العليا والأشد بلاء وهو بذلك لا ينفي الكيان، بل هو بذلك، على الأرجح، يُثبت كيانه، وكيانه فحسب، وذلك ربّما إلى حد بحيث أنه يقف ليس ببعيد عن هذه الأمنية المجرمة: لِيفنَ العالم، لتكن الفلسفة، ليكن الفيلسوف، لأكن أنا!».

ما يعشقه نيتشه، فهو الذي صعّد الأنانية إلى الذروة وجعلها في أرقى مراتب الفضائل «الأخلاقية»؛ إن تمحوره على ذاته، يكتب أحدهم، نادرا ما نجد له مثيلا في تاريخ العالم[268].

لكنها واضحة، فضلا عن أنها صادمة جدا، قولته بأن الفلاسفة «يفكّرون في أنفسهم ولا يهمّهم **القدّيس** (der **Heilige**)[269]». ما علاقة الفيلسوف بالقدّيس؟ وما دخل المقدس في الفلسفة أصلا؟ ومتى كان الفلاسفة يُعيرون أهمّية للقداسة؟ لأن نيتشه تقديسي في العمق، ومَهما أخفى وراوغ فهو لا يخرج من حزب التقديسيّن، وأطروحة قتل الإله وتهديم الدين التي روّج لها أحبّاؤه هي أسطورة لا غير. فالرجل، منذ "شوبنهاور مربّيا"، يَركز للقداسة، ويقول إن **القدّيسين** (**die Heiligen**) هم البشر الحقيقيون الذين تعالَوا على الحيوانية، وهم المخوّلون لرفعنا إلى أعلى[270]، بل ذهب أبعد من ذلك، وقال إن الطبيعة، لإنجاز **هدف ميتافيزيقي** (einem metaphysischen Zwecke)، «**تحتاج في النهاية إلى القديس** (bedarf die Natur zuletzt des Heiligen)[271]».

لكن الزمن الحديث قضى على فكرة القدّيس، وتخلى نهائيا عن كل ما يمتّ للقداسة بصلة، ولذلك فإن نيتشه يستاء لهذا المنعرج الخطير، ويصف الزمن الحديث، في جينيالوجيا الأخلاق، بأنه زمن كُفر وزندقة وفقدان الإله. وقد لخّص كل هذه الموبقات في هذين الكلمتين: (**Hybris** und **Gottlosigkeit**)، ولا يُخفِي تحسّره على العصور القديمة التي كان فيها الله ضامنا لكل الأشياء المُبجّلة[272].

268- "Such crass egotism as his scarcely finds a parallel in the history of the world". J. Broene, The Philosophy of Nietzsche, p. 64.

269- ن. م، 8 §، III، ص، 96.

270- نيتشه، **شوبنهاور مربّيا**، 5 §، ص، 70. ينتشه يجمع مع القديسين: الفلاسفة والفنانين.

271- ن. م، ص، 73. الكلام الذي قاله عن القديس لا نعثر عليه إلاّ في كتابات المسلمين، وتمجيدهم لنبيّهم. هذه بعض المقتطفات: «الطبيعة تحتاج إلى القديس، الذي تلاشت أناه تماما، ولم يعد يشعر بحياته المعذبة باعتبارها حياته... بل كشعور عميش بالتكافل، الوحدة والتعاطف مع كل المخلوقات الحية؛ القديس الذي تظهر فيه معجزة التحول التي لم تصبها لعبة الصيرورة، الطريقة النهائية والسامية التي تكون بها إنسانا، التي تسعى نحوها كل طبيعة وتحثّ من أجل تحررها من نفسها. لا شك أن جميعنا نمتّ بقرابة وارتباط بالقديس، مثلما نمت بقرابة إلى الفيلسوف والفنان».

272- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، م. س، 9 §، III، ص، 100. «أكرر أن الأمر لا يختلف عن هذا بالنسبة لكل الأشياء المعاكسة التي نفخر بها اليوم، فأسلوب عيشنا الحديث، مهما يكن قوة واحساس بالقوة وليس ضعفا، إذ ما قارنّاه بجارّ الماء لدى الاغريق القدماء فإنه سيبدو لنا مجرّد عنف وزندقة، لأن الأشياء المعاكسة التي نحتفي بها اليوم هي التي ساندها الوعي طويلا **وكان الرب حارسها**».

فالرجل يُعادي العقل على الشكل اللوثري، ويستخدم حتى تلك الكلمة القبيحة التي وصف بها لوثر العقل أنه "مُومس"؛ يسخر من الحقيقة كقيمة فلسفية، يتكلّم باسم الفلاسفة ويقول إنهم يتركون مثال الحقيقة للطّموحين، لِهَزيلي العقل، وإنّ كلمة حقيقة لا تُعجبهم وتبدو لهم مُتبجّحة؛ ينتفض ضد الحداثة والمَكتسبات التقنية والتقدم العلمي، ويعتبرها عنفا وزيغا وغطرسة، هو الذي لم يفعل، طوال حياته، إلاّ تمجيد الغطرسة والعنف والقتل. يقول إن موقفنا اليوم من الطبيعة كله غطرسة (**Hybris**)؛ نُمارس غطرسة على الطبيعة، عن طريق الآلات والعبقرية المبدعة، المتعجرفة وعديمة الذمة، للمُهندسين والتقنيّين؛ وخصوصا، وهنا تتنزّل كلمته المربكة جدا لمن صدّقوه في زرادشت، بإعلانه عن موت الإله، ها هو يعلن لهم بأننا نعيش الآن فترة كفر وجحود على جميع الأصعدة: «موقفنا من الله هو غطرسة (Hybris ist unsre Stellung zu Gott)»، ومع الله يُدمج عالم العلل الغائية القروسطي، الذي تم تعويضه بالأسباب المادية.

(هآ)

كما أن انتقاداته على الزاهد لا تضرّ الزاهد في شيء بل تزيده بريقا وإنسانية، كذلك انتقاداته على المسيحية، في كتاب "عدوّ المسيح"، بدل أن يُشوّهها أو يُسقطها من أعين أعدائها، زادها اشعاعا وتعاطفا ومحبّة.]

إن المسيحية التي يقدمها نيتشه هي مسيحية منزوعة التاريخ ومُفرَغَة من تعاليمها، وإن صحّ ما قاله عنها، فهي حتما ستصبح ضرورية وأكثر عزاء للأرواح المعذبة من أي منظومة دينية أخرى. وأكثر من ذلك ستصبح آخر ملاذ للاحتماء من تَخميناته الوحشية، وسقفا آمنا لتفادي جنونه. يكفي هذا التصريح الوحشي بمفرده «**الضعفاء والفاشلون يجب أن يُهلكوا**[273]»، حتى يُهَرْول المرء للاحتماء بالجهة المقابلة التي يشير إليها هو نفسه، والتي تفعل العكس: «**الرأفة تجاه الفاشلين والضعفاء: المسيحية**[274]»، وحتى يَتّقي شر هذا الكائن الشيطاني الساحر الذي يتهكّم على البشر ويقول إن هذه القسوة تمثّل «**القاعدة الأولى لحبّنا للإنسانية**[275]».

273- F. Nietzsche, Der Antichrist, § 2, p. 170. „Die Schwachen und die Missrathnen sollen zu Grunde gehen“

274- انظر الترجمة العربية: نيتشه، **عدو المسيح**، ترجمة مخائيل ديب، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية 2004، § 4، ص، 26.

275- *Ibid*em. „erster Satz unsrer Menschenliebe“

كُنّا ننتظر، من خلال عنوان الكُتيّب (**عدوّ المسيح**)، أن نَطّلع على مساهمة نقدية، جدّية وبارعة، لتعاليم الدين المسيحي، أو نقرأ تَوْليفة تاريخية فيلولوجية تثبتُ تهافت الإنجيل وتُبيّن المآزق الأخلاقية للكتب المقدسة عموما، وإذا بنا نُصدَم، بهذا التصريح المريع من أن حُبه للبشرية يعني إفناؤها. فالرجل يكشف نواياه منذ البداية ويعلن على أن موضوعه الأساسي هو كيفية **تربية** نمط جديد من الإنسان. وكلمة "تربية" هنا (Züchtung) مأخوذة حرفيا من قاموس مُربّيي الأبقار والمواشي، ونيتشه يستعملها تحديدا بهذا المعنى، أي تربية أناس بمُواصفات معينة وإفناء من لا يَستوفي تلك المواصفات. ولا يمكن للأمر إلاّ أن يكون كذلك لأن الإنسان الجديد يجب «أن يُرتجى ويُنشَد كقيمة عظمى وأكثر استحقاقا للحياة[276]»، وبالتالي فإن هذا الوحش على صورة إنسان يتجسّد فيه «كل ما هو مُرعب». مرّة أخرى، فإن القارئ الذي يملك ذرة من الإنسانية سيهرب من هول هذه الأفكار السامة وسيحتمي بمن يُبدي مشاعر معاكسة لهذا السفاح، يعني سيختار المسيحية التي تُربّي إنسانا سويّا عطوفا اجتماعيا، حتى وإن سماه «الحيوان الداجن، حيوان القطيع، الحيوان المريض، المدعوّ الإنسان المسيحي[277]».

كل الفقرات الأولى، من **عدوّ المسيح**، لا علاقة لها بنقد المسيحية، بل هي مقدمات تمهيدية يطغى عليها طابع القسوة والشراسة المعهود عليه. ونحن نتساءل ما دخل **نقد الحداثة**، (على الشكل الاسلاموي الرّجعي)، بموضع نقد المسيحية؟ وكيف تتوافق همومه العنصرية مع موضوع نقد الدين؟ لم نقرأ أبدا في مؤلفات ناقدي الدين من الفلاسفة الفرنسيين مقدمات من هذا الصنف، ولم يجرؤ أحد منهم على جر الطبيعة الإنسانية للحضيض مثلما فعل نيتشه بقوله «إن البشرية لا تُمثّل تطوّرا نحو الأفضل، أو نحو الأكثر قوة، أو نحو الأرفع، بالطريقة التي تُعتَقد اليوم[278]»، أو وأن الأفكار الحديثة، العقلانية المتفائلة، هي خاطئة فقط لأنها حديثة.

وكعادته، فهو يَنفث العنف والقسوة ويدعو لإبادة من أسماهم بالفاشلين والمرضى، وفي مقابل ذلك يُبرز مشاعر الرقة والرحمة والتعاطف التي تتّسم بها المسيحية، ثم ينصح الناس بأن لا يُجمّلوا المسيحية أو يُزيّنوها. ومَن الذي جَمّلها؟ مَن الذي أَظْهَر محاسنها وكشف عن وجهها المُشرق البهيّ؟ ألم يفعل هو ما تبغيه المسيحية بكل جهدها

276- ن. م، § 3، ص، 26.
277- ن. م، ن. ص.
278- ن. م، § 4، ص، 26.

(لا أستثني أي دين)، أقصِد إنساء تاريخها الفعلي وطيّ صفحة الماضي؟ إنّ هذه الكلمة بمفردها تكفي لكي تحبّب الناس في هذه الديانة، وتجعلها أكثر قربا من قلوبهم: «لقد انحازت المسيحية إلى كل ضعيف (Das Christenthum hat die Partei alles Schwachen)[279]». وهل يحَطّ من قيمتها بهذا التصريح؟ «إن المسيحية، بصفة خاصة، إنما يَحقّ لنا أن ندعوها مخْزَنا كبيرا لوسائل العزاء الروحي الأكثر ثراء[280]»؟

ومن جهة أخرى فإن الإنسان المسيحي قد يَرُدّ على نيتشه بأن انتقاده على باسكال في غير محلّه ولا يصيب هدفه، بل يمكن قلبه ضدّه، لأن أكثر من أهان الطبيعة البشرية وأكثر من حقّر من قيمة العقل هو نيتشه نفسه. باسكال يتحدث عن فساد الطبيعة البشرية عن طريق الخطيئة الأصلية، نيتشه قفز على الخطيئة، غيّبها، وانتقل مباشرة إلى فساد الإنسان. ويكتب هذه الأشياء في نفس الصفحة دون أن يتفطن إلى تناقضه القاتل: «ضَيَاع باسكال الذي اعتقد أن **فساد (Verderbnis)** عقله سببه الخطيئة الأصلية. بينما في الحقيقة كان مُفسَدا من المسيحية[281]»، إثرها مباشرة يصرح بهذه الحقيقة المُزعجة عن فساد الإنسان مستخدما نفس العبارة: «أيّ مشهد مُؤلم ومُرعب هذا الذي تبدّى أمام عينيّ عندما أزحتُ السّتار الذي يحجب **فساداً الإنسان** (**Verdorbenheit** der Menschen)[282]».

إنّ هذا الفساد الذي يتحدث عنه نيتشه في مجمل كتاباته ويلوّنه بألوان مختلفة، هو جوهر عقيدة زعيم الإصلاح، مارتن لوثر، المتشائمة، والمنافية لروح التفاؤل والعقلانية الذي بشّر به عصر النهضة، ثم أعادها كانط إلى حضن الفلسفة عن طريق مبدأ الشر الجذري المتمكّن من الطبيعة البشرية. وخلاص الإنسان، حسب هذه العقيدة المتشائمة، صعب المنال، هذا إن لم يكن ميؤوسا منه تماما، ولذلك، على المؤمن، يقول لوثر، أن يعيش في عدم اليقين، في قلق متواصل واضطراب نفسي لأن مخطط الإرادة الإلهية لا يمكن التنبؤ به اطلاقا.

وإنْ كانت البروتستانتية قد استهوت بعض الفلاسفة لمعارضتها سلطة الإكليروس، وثورتها ضد تغوّل الكنيسة واستبدادها فإنهم ناهضوها وسدّدوا لها سهام نقدهم لأجل هذا المعتقد بالذات، والذي سماه فولتير مُعتقدا دَنِيئا (*infâme*)، ووحشيّا (*cruel*).

279- ن. م، § 4، ص، 26.

280- **في جينيالوجيا الأخلاق**، م. س، § 17، ص، 177. (ترجمة فتحي المسكيني).

281- **عدوّ المسيح**، م. س، § 5، ص، 28.

282- ن. م، § 6، ص، 29.

إنّ انتقادات فولتير الثاقبة على أطروحات باسكال بخصوص هذه النقطة (تخريب الطبيعة البشرية)، يمكن أن نُطبّقها على نيتشه، دون خشية التعسّف، أو الخروج عن الموضوع . استبدلوا فقط اسم باسكال (Pascal) باسم نيتشه (Nietzsche) فلن يتغّير معنى الاعتراض ولا سياق النقد. فولتير يقول إن باسكال يَتلذذ بتصويرنا كلنا على أننا أشرار وتعساء (ونيتشه أيضا)؛ باسكال يكتبُ ضدّ الطبيعة الإنسانية بنفس القوّة التي كان يكتب بها ضد اليسوعيين (ونيتشه يفعل الشيء ذاته)؛ باسكال يُلقي على طبيعتنا تُهَما لا تنطبق إلاّ على بعض الناس: إنه يسبّ الطبيعة البشرية بفصاحة لا مثيل لها (كذلك نيتشه). الرد القويم: نحن لسنا أشرارا ولا تعساء، كما يصوّرنا كاره البشر العظيم هذا[283].

ولا يُغيّر شيئا من موقفه السلبي إزاء الطبيعة البشرية قوله بأنه يفهم الفساد «بمعنى الانحطاط»، لأنه، في **زرادشت**، يُعلنها صراحة «الإنسان شرّير (Der Mensch ist böse)[284]»، لكنه لو قرأ كانط لتفطّن إلى أن "عنكبوت كونكسبارغ" كان قد سبقه إلى هذه الفكرة[285]، فهو أيضا كان قد أعلن أن الإنسان شرّير بالطبع (*der Mensch ist von Natur böse*)، وأن ثمة «نزعة (*Hange*) متأصّلة في الطبيعة الإنسانية ... تدفعه نحو الشرّ (*einer natürliche Hange des Menschen zum Bösen*)[286]».

نيتشه يَنقل فكرة تجذّر الفساد في الطبيعة البشرية، من خاصية متعالية على التاريخ، إلى خاصية محايثة للتاريخ، لكنه يُبقي على الفساد (الانحطاط) كصيغة ملاصقة لطبيعتنا: «كل القيم التي لخّصت فيها البشرية مُثُلها العليا هي قيم **انحطاط**». ومَن

283- Voltaire, Premières remarques sur les Pensées de Pascal, in Œuvres complètes de Voltaire T. XXXIII, Paris Librairie Hachette et C[ie], 1890, p. 18. « Il me parait qu'en général, l'esprit dans lequel M. Pascal écrivait ces Pensées, était de montrer l'homme dans un jour odieux ; il s'acharne à nous peindre tous méchants et malheureux ; il écrit contre la nature humaine à peu près comme il écrivait contre les jésuites. Il impute à l'essence de notre nature ce qui n'appartient qu'à certains hommes : il dit éloquemment des injures au genre humain. J'ose prendre le parti de l'humanité contre ce misanthrope sublime ; j'ose assurer que nous ne sommes ni si méchant ni si malheureux qu'il le dit ».

284- **زرادشت**، «عن الإنسان الراقي،» ص، 532.

285- **انظر بخصوص هذه النقطة: محمد المزوغي، عمانويل كانط. الدين في حدود العقل أو التنوير الناقص، دار الساقي، بيروت** 2007.

286- I. Kant, Die Religion innerhalb der bloßen Vernunft, in Werke in zwölf Bänden, herausgegeben von Wilhelm Weischedel, Erste Auflage. Suhrkamp, Frankfurt am Main 1977. Band VIII, p. 676.

من المُتديّنين لم يقل ذلك؟ مَن منهم لم يُعلن سخطه على قيم العصر، ولم يصرخ ضد الأفكار الحديثة والعلم والتقدّم؟ المؤمن يقول: "حيث يغيب الإيمان فثمّة الفساد"، نيتشه يقول: «حيث تعوز إرادة القوة فثمة **الانحطاط**[287]».

ومن بين الآليات المفضّلة التي يستخدمها المؤمن للتقليل من شأن الإنسان هي الحط من قيمة ملكاته العقلانية، ونيتشه ليس غريبا عن هذا الحزب، بل ينضمّ إليه عن جدارة لأنه يقصي العقل ولا يعترف إلاّ بالغريزة. وكلاهما، المؤمن ونيتشه، بإقصائهما العقل فإنهما يفتحان باب الإيمان. وقد تفطّن بيار بايل (Pierre Bayle) إلى هذه النتيجة الحتمية وقال: «إن التّركيز على نقائص العقل لهو تهيئة سعيدة للإيمان: ومن هنا فإن السيد باسكال (Pascal) وبعض المفكرين الآخرين قالوا بأنه لكي نهدي الملحدين يجب إذلالهم بشأن العقل، وتعليمهم كيف يَتحدَّونه[288]».

ولا أظنني مبالغا إن قلت بأن المسيحي سيَسْعد بسماع نيتشه، عدوّ المسيح هذا، كيف يعترف بعظمة لسانه أن دينه هو دين الشفقة بامتياز (die Religion des Mitleidens)، ومن الأكيد أنه سيعتبر هذه الصفة مفخرة له، تزيد من تشبّثه بدينه. ولا يضرّه في شيء أنه تجاوز الغريزة الحيوانية، وتخلّى عن مبدأ القوة والتسلط والجبروت. أمّا عالم القوة الذي يدعو إليه نيتشه فإنه لا يُغْريه بتاتا، مهما أضنى نفسه لإضفائه جليل الصفات وجنّد له لباقته الخطابية، فهو يبقى دائما خارج اهتماماته ومنافيا لمبادئ عقيدته. أن تكون الميزة الأساسية للمسيحية هي الشفقة، وأن تتموقع «في الجانب المضاد للانفعالات المُحرّضة» فهذه عزّة للمسيحية؛ ولكنها خسّة لمن يقول إن ديانة الشفقة مولّدة «للتأثير مثبّط»، وأن المرء «عند الاشفاق يُضيّع القوة. وعبْر الشفقة يتنامى خسران القوة[289]».

وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو يصرّح، دون خجل، أن الشفقة تعيق كليّا قانون التطوّر والانتخاب، ومن شأنها أن «تُحافظ على مَن صار مهيّئا لغُروبه». فقانون نيتشه هو قانون الغاب، وعالمه هو عالم افتراس البشر أحياء، وبالتالي فإن المرء لا يُفكّر مَرّتين لكي يعلم أنه من الأفضل له اللجوء إلى الجهة التي يعتقد نيتشه أنه يُحقّرها وينفّر

287- **عدوّ المسيح**، ن. م، § 7، ص، 30.

288- P. BAYLE, *Dictionnaire historique et critique*, Rotterdam, 1740; art. *PYRRHON*, p. 734. » C'est donc une heureuse disposition à la foi que de connaître les défauts de la raison : et de là vient que Mr. Pascal et quelques autres ont dit que pour convertir les libertins, *il faut les mortifier sur le chapitre de la raison et leur apprendre à s'en défier*».

289- نيتشه، **عدو المسيح**، ن. م، § 7، ص، 31.

الناس منها، بينما هو يمجّدها، أي إلى تلك الديانة التي على حدّ قوله «**تُكافح لأجل المحرومين في الأرض، والمدانين من الحياة**[290]».

وما المانع من أن نُسمّي الأشياء بأسمائها؟ مَن ذا الذي يَعترض على القول: "إنّ الشفقة فضيلة والقسوة رذيلة؟" مَن الذي يجرؤ على قلب القيم إلى حدّ تكسير معاني الكلمات؟ نيتشه فقط. قال إن المسيحيين قد تجرّؤوا على تسمية فضيلة الشفقة، لا بل إنهم ذهبوا أبعد من ذلك، جعلوا منها **الـفضيلة**، بألف ولام التعريف، أي الفضيلة بامتياز «الأرضية والأصل لكل فضيلة».

إذا تجرّأ أحدهم على قلب قِيَم أخلاقية بهذه البداهة إلى أضدادها فلا مَانِع له من أن يَقلب بديهيات الرياضيات، وقوانين الفيزياء ومبادئ علم الفلك وعلوم الأحياء، وهكذا يقتلع من دماغك أي يقين ويُعيّشك في عالم خيالي مسكون بالأشباح والأرواح الشريرة. إن من يرفض البديهيات لن يتوقف عند أي حد، ستروق له اللعبة، وسيواصل في استهتاره بالعالم حتى يُفني عقله ويقضي على حياته بيديه. وهذا ما فعله نيتشه بنفسه وما جرّ إليه الكثير من الشباب.

أن تُشفق على إنسان فقير أو تَرحم حيوانا يتألّم، أن تُنقذ غريقا، أو تعالج مريضا، فأنت تقوم بممارسة العدمية (Praxis des Nihilismus)؛ أنتَ ناكر للحياة تماما، وتُساهم في تكاثر البؤس؛ أخيرا أنت وسيلة لتضخيم الانحطاط. أما إذا كنتَ جزّارا داعشيا ذبّاحا، بيَدك سكّين تجزّ الرؤوس، فأنت إنسان رائع تستحق كل الامتنان والشّكر، لأنك مُحب لَلبشرية. ولا يَظنّنّ أحد أنني أدخلت كلمة سكّين عنوة، أو اختلقتها من محض خيالي بل موجودة في نص نيتشه الذي يشيد فيه بهذا الصنف من السفاح الداعشي: «شأننا أن نصبح هنا أطبّاء، ذوي قلوب لا ترحم، أن **نُعمّق السّكين** (das Messer führen) هذا هو **شُغلنا**، هذا هو طريقتنا في حب البشر، وهكذا نكون فلاسفة[291]».

ويريد بهذه المِهنة، مهنة الذبّاح الداعشي، أن يُعْلن الحرب على المسيحية ويَطرد الغريزة اللاهوتية، وهو في الحقيقة لم يُقدّم لنا أي نقد جدي للدين، بل تَمْرينا على الذبح، والقساوة واللاإنسانية. نحن لا نصدّق هذا الرجل طرفة عين في كل تحاليله وانتقاداته على المسيحية، لأنها لا تلامس جوهر الموضوع، مجرّد خطابة متشظّية وأقوال غير ممنهجة، لا

290- ن. م، ن. ص.

291- ن. م، ص، 34.

ترقى إلى أعمال فولتير أو إلى عُمق بحوث معاصريه من الفيلولوجيين الألمان. لا أدري ما دخل هذه الباقة من الأوصاف الدنيئة لكانط، وما محل هذه التهجمات عليه بكلمات نابية، وشحنة السباب، في كتاب يتناول، أو يزعم أنه يتناول بالنقد المسيحية، من قبيل: «**كانط تحوّل إلى أبله** ... شؤم **العنكبوت** هذا قد عُدّ الفيلسوف الألماني. وحتى الآن يُعدّ هكذا ... **الانحطاط الألماني كفلسفة: هذا هو كانط**[292]».

(هاّأ)

الثمرة الوحيدة التي قَطَفها المفكرون العرب من نيتشه هي ضرب الإله المسيحي والاستهانة بتعاليم الديانة المسيحية، وتغليب إله القرآن ودين الإسلام عليهما.]

أحد أساتذة الفلسفة المصريين، واسمه يسري ابراهيم، من جامعة عين شمس، مقتنع بأن نيتشه يرفض فقط «الإله المسيحي الكنسي الذي بدا له عدوّا للحياة الإنسانية واعتراضا عليها ومصدرا لبؤسها وشقائها[293]». وهذا التهجّم في حدّ ذاته أمر حسن ولا اعتراض عليه، لكن نيتشه، بدل أن يكتفي بإله المسيحيين، ويقف عند حدّ المسيحية، تجاوز حدوده «ورفض جميع الآلهة على الإطلاق». وهنا دخلنا في الكفر البواح، لأن هذا الأستاذ الوهابي مقتنع بأن ثمة سُلّما هرميا في مراتب الآلهة، حيث يَتربّع على العرش إله المسلمين وبعده يأتي إله اليهود وأخيرا إله المسيحيين، أما باقي آلهة الشعوب الأخرى فلا تساوي شيئا.

الأغرب أنه يَتَغبّن على حال نيتشه، ويتمنّى لو أن هذا الفيلسوف قد راجع نفسه قبل فوات الأوان، وعاد إلى رشده كي يؤمن بإله المسلمين، وهكذا تحوّل أستاذ جامعي من باحث ومفكّر ومدرّس للمادّة الأكثر لادينية في العالم، إلى داعية اخواني. ودون أن أبالغ، ولكن بكلّ أسى، أقول إن هذا الأمر لا نعجب له كثيرا لأن في العالم العربي عموما اختلط الحابل بالنابل ولا ندري مَن هو العلماني القحّ ومن الإسلامي الاخواني، وربّما لا يوجد علماني بأتم معنى الكلمة، أقصى ما تجده هو كائنا مزدوجا: "علماني مُتأسلم".

292- ن. م، § 11، ص، 41 42.

293- يسري إبراهيم، **فلسفة الأخلاق. فريدريك نيتشه**، دار التنوير، بيروت 2005، ص، 167.

ولا يَخفى على أحد أن هذا الوضع المُشوّه ناتج عن قرارات سياسية انتهازية، اختار أصحابها عن قصد ضرب التنوير والعقلانية، وتَوْطين الوهابية في أرض غير أرضها وفي مجتمع غريب عنها، حتى تسرّبت في شرايين المجتمع ، واكتسحت كل المجالات الثقافية، ولم تنج منها حتّى الفلسفة. وهذا الأستاذ الذي يدرّس الفلسفة ويكتب عن نيتشه يقدّم لنا عيّنة من المفعول المدمّر للوهابية على الثقافة في مصر. يقول إن نيتشه لم يتجاوز كراهية الإله الكنسي ليُعاين الحقيقة، والحقيقة بالنسبة له، تتجلّى بالضرورة واستثناء، في إله القرآن، وبالتالي كان على نيتشه أن يتجاوز إله المسيحيين المعادي للحياة كي «يؤمن بإله لا يبتزّ البشر حياتهم، ويُعطيهم دون أن ينتظر منهم جزاء ولا شكورا، ويأمرهم أن يأخذوا نصيبهم من الحياة الدنيا[294]».

ولا شك أن هذا هو الإله الإسلامي، أو واحد من التصوّرات الناعمة لإله القرآن، لأن الرجل تعمّد إخفاء الصفات الأخرى التي أضفاها عليه القرآن: منتقم، عنيف، محارب، قتّال. والكاتب، رغم أنه يُدرّس الفلسفة، ويعرف أن العقل يناقض الدين الإسلامي في كل شيء، يكابر وينفي، بل يفتخر بأن الإسلام هو دين عقلاني: «يجب أن نُذكّر هنا أن العقيدة الإسلامية تستمدّ قوّتها دائما من قدرتها الفذة على الإقناع العقلي وارتباطها الذي لا ينفصم بالحياة على الأرض والتي يدعونا الله تعالى إلى أن نأكل من طيّباتها وخيراتها».

إذن، عقل وأكل، ثم ماذا؟ لا شيء: لا فلسفة ولا أفكار جديدة، وإنما تقرؤون صفحة من صفحات الكتب الصفراء التي تجدونها على قارعة الطريق أمام المساجد مع البخور والحبّة السوداء والسبع تمرات. أمر مؤسف جدا ومُحزن في نفس الوقت أن يتحوّل مُربٍّ حديث يدرّس الفلسفة في الجامعات المصرية، إلى داعية وهابي اخواني، ويُلقّن الشباب أكاذيب الإسلاميين: «الإسلام يؤكد على قضيّتين أساسيّتين: الأولى: تمجيد الحياة على الأرض باعتبارها من خلق الله، فسبحانه وتعالى عظيم وكل ما ينتسب إليه بصلة يستمدّ شيئا من عظمته. والثانية: تمجيد الحياة الأخرى باعتبارها "خير وأبقى"، وأي خير من الحياة الدنيا وأبقى منها، فهي خالدة، لا تنتهي ونعيم أبدي لا يزول». هل أخطأت حينما قلت إننا سنقرأ صفحة من كتيّبات الاخوان المجرمين؟

294- ن. م. ص. 167.

غنيّ عن القول إنّ المَرمَى الأخير من هذه الجرّة الوهابية هو القول بأن الدين المسيحي دين فاشل، لاعقلاني، مُعاد للحياة، ومتعلّق فقط بالآخرة، بينما الإسلام أحسن منه لأنه دين العقلانية بامتياز، يحبّ الحياة ويحب الآخرة في نفس الوقت: «**تكمن عظمة الإسلام وقدرته على الإقناع العقلي. فاستمتاعي بحياتي الدنيوية وإبداعي فيها لا يتعارض على الإطلاق مع كوني رجلا تقيا فاضلا وعبدا من عباد الله الصالحين الذين يعدهم الله بأن يجعل لهم مخرجا في الدنيا والآخرة، بل إن استمتاعي بهذه الحياة بالطريق الشرعي المحمود يُعدّ واجبا دينيا. فالحياة في رأي الإسلام إذن ليست مجرّد وسيلة بلا قيمة كما أنها ليست غاية في ذاتها، ولكنها على وجه الدقة طريق يؤدي بنا إلى عالم آخر وحياة أخرى أفضل وأجمل، ننعم فيها بالطمأنينة والسكينة والراحة الأبدية التي يمنّ الله بها على المُتّقين من عباده. إلاّ أن هذا الطريق فيه من الجمال والبهجة ما يستحق أن ننعم به وأن نشكر الله عليه. ولو أن الحياة الأرضية شرّ لما دعانا الله إلى أن نشكره عليها، ولما دعانا إلى أن نأخذ نصيبنا منها، ولما صوّر لنا جنّته على غرار هذه الحياة الأرضية بما فيها من أنهار وأشجار وفاكهة**[295]».

لم أحمّل نفسي نقل هذه الفقرة بأكملها وتعذيب القارئ معي إلاّ للبرهنة على أن فلسفة نيتشه حطمت عقول أتباعه ومسخت أخلاق قرّائه وحوّلتهم إلى كائنات مشوّهة. لدينا أستاذ فلسفة يكتب كتابا عن نيتشه وإذا به يحدثنا عن عقلانية الإسلام، وعن التقوى والعبودية للإله، وعن جنة نعيم فيها أنهار من عسل ولبن وخمر، وأشجار مثمرة وفاكهة ممّا يشتهون. والحال أن هذا الرجل لا يدري أن هذه البضاعة التي يُسوّقها لقرّائه، مُستهلكة من زمان، ولم تعد تستهوي الشباب، بل أصبحت محلّ سخرية ونفور.

لكن من الصّعب أن تُقنعوا وهابيا بتهافت آرائه؛ أنْ تُثنوه عن هذيانه الديني حتى وإن قدّمتُم له جَبَلا من النصوص والحجج النّقيضة. وفعلا، هذا الأستاذ مُصرّ على قناعته الاخوانية من أن الإسلام، على عكس المسيحية، ليس تضليلا للإنسان علىَ الأرض «ولا ابتزازا لحياته وبهجته». حاشا للإسلام أن يكون كذلك بل إن «النظرة الثاقبة في العقيدة الإسلامية تؤكّد أن تعاليمها تُحقق أعظم ما يسمّيه نيتشه بالبهجة الإغريقية[296]».

295- ن. م، ص. 167.

296- ن. م، ص، 168.

إذن، رفض نيتشه للألوهية سببه الأوحد هو المسيحية، ومن يقول عكس ذلك، يتعامى عن هذه الحقيقة التي مفادها «أن جوهر المسيحية الكنسية هو الدافع الأساسي والوحيد الذي دفع نيتشه إلى هذا المصير»، وجوهر المسيحية هو «قِيَمها الخلقية الفاسدة التي تدسّ السمّ للحياة الإنسانية».

الوهابي يكفّر المسيحيين استنادا إلى نص القرآن، وأستاذ الفلسفة في جامعة عين شمس يزدري المسيحيّين ويتهجّم على دينهم استنادا إلى نيتشه. هل ثمة فارق بينهما؟

يريد أن يهدي نيتشه ما بعديّا إلى السراط المستقيم، وأن يَنقض رأي كل من أصرّ على إلحاده، فالتجأ إلى ضرب القساوسة، والتهجّم على الكنيسة، ونحن نرى الآن استتباعات هذه الأفكار على أقباط مصر، وطريقة ذبحهم على المباشر. ونيتشه يَمنحه هذه الرخصة، من خلال الشذرة بعنوان: "الكهنة" من **هكذا تكلم زرادشت**. والكلمات التي شدّت انتباهه هي الآتية: «إنّي أعاني مع الكهنة لأنهم في نظري سجناء ومخدعون. إن ذلك الذي يسمونه مُخلّصا قد كبّلهم بالأغلال: أغلال قِيَمه الزائفة وتعاليمه المضللة. فليت لهؤلاء من يخلّصهم من مُخلّصهم ...[297]».

وماذا ينتظر كائن اخواني أكثر من هذا؟ من أين يأتيه أثمن عون لتثبيت دينه إن لم يكن من أكبر فيلسوف غربي؟ ويكفي خطوة أخرى إلى الأمام كي يتم إرجاع نيتشه إلى حضيرة الدين وتحويله إلى إنسان تقيّ متعطّش إلى الإيمان. كان سيظلّ على تلك الحال لو لم تعمد الديانة المسيحية المحرّفة إلى تخريب حسّه الديني، وإخماد شعلة التقوى فيه[298].

تقييمه النهائي هو أن نيتشه نجح نجاحا باهرا «في كشف الخداع الذي تنطوي عليه الدعوة الكهنوتية الكنسية إلى التعلّق بالعالم الآخر والعزوف عن الحياة الأرضية وإنكارها». لم يسأل نفسه عن مدى مصداقية هذه التهمة، ولا نوع الأدلة التي قدمها نيتشه، إن كان فعلا قادرا على تقديمها، لإثبات أحكامه. لكن هذه الأطروحة تروق له كمؤمن إخواني وتتماشى مع الإسلام الذي يعتبر المسيحية دينا محرفا وأن الكنائس هي وكر للشيطان.

297- وفي ترجمة مصباح نقرأ: «ومع ذلك تألمتُ وأتألّم لحالهم: سجناء هم بالنسبة لي، يحملون وسومهم على جلودهم. وذاك الذي يسمّونه المخلّص جعلهم مصفّدين في القيود: في قيود القيم الكاذبة وأحاديث الأوهام». "عن القساوسة"، ص، 176.

298- يكتب: «والواقع أن تقوى نيتشه وميوله الدينية الواضحة في فترة شبابه، تُعزز رأينا هذا، وتؤكد أنه قد بدأ حياته الفكرية وعيناه متطلّعتان إلى السماء، ولكن المخلص الذي يبشر به ويحرقون له البخور في الكنائس قد خذله وردّه عن بابه ناقما عليه حين أراد أن يسلبه بهجة الحياة».

ولذلك استحلى كل الشتائم التي ألقاها نيتشه على الكهان، وابتلع كل اختلاقاته الواهية، من قبيل أن الدعوة الكهنوتية هي التي «تُسَمّم الحياة الإنسانية في رأي نيتشه، تصدر عن أولئك الكهنة: إمّا لمَرَض فيهم، أي لعجزهم عن الاستمتاع بالحياة والإبداع فيها، وإمّا لعذابهم في حياتهم إلى الحد الذي يجعلهم يهربون منها في يأس ويستغرقون في التفكير في الحياة الأخرى كعزاء ميتافيزيقي على هذه الأرض، وإمّا لرغبتهم الماكرة في أن يستأثروا بمباهج الحياة لأنفسهم ويحرموا الآخرين من الاستمتاع بها[299]».

وهكذا فإن كل الموبقات التي يمكن أن يتخيّلها سفسطائي الفلسفة، وكل ما يطلبه إسلامي حاقد على المسيحية، موجودة في القساوسة وملتصقة بالكنيسة. ويواصل مُعدّدا إنجازات نيتشه، ونجاحاته الكبيرة في نقد المسيحية: «نجحَ نيتشه في كشف الزيف الذي لَحق بالمفهوم الكنسي عن الألوهية وما أدّى إليه من عدمية شاملة وانحلال كامل أصاب الحياة الإنسانية في صميمها[300]».

إذن نيتشه أدّى هنا خدمة جليلة لأستاذ فلسفة وهابي، ووفّر له كل المبررات للهجوم الشرس على المسيحية ومعالمها، بل مَنَحَه أيضا الذريعة لإبراز الدين البديل عن هذا الدين المُحرّف. لكن الشوكة الوحيدة التي بقيت عالقة في حلقه هي إعلان نيتشه عن "موت الله"، لأن هذا الأستاذ الاخواني، لا يقبل بأن يعيش شخص من غير دين، ومن غير الإيمان بإله ما، وحبذا لو كان هذا الإله هو الله القرآن. وهنا دخل في دوّامة الإدانة، بعد كل الثناء والاستحسان والاعتراف بالجميل لهذا الفيلسوف الذي وفّر له أسباب الهجوم على المسيحية، وتأكيد عقيدته الإسلامية، انقلب عليه ووصفه بالحمق، وقال إن خطأ نيتشه الأكبر هو أنه تصوّر القضاء على العدمية يبدأ بالقضاء على فكرة الله. وقد كتب الخاطرة التالية وفي ذهنه أبيات محمد اقبال: إذا الإيمان ضاع فلا أمان... ولا دنيا لمن لم يُحي دينا؛ ومن رضي الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرين. لقد وصل نيتشه إلى قمّة الربوة حينما حطم إله المسيحية وهو مشكور على ذلك، لكنه أخفق عندما «أعلن **بحماقة** عن موته دون أن يدري أنه بذلك إنما يعمّق من الاحساس بالعدمية ويدفع بالعالم الذي أصبح بلا قانون يحكمه إلى هاوية بغير قرار[301]».

299- ن. م، ص. 175.

300- ن. م، ن. ص.

301- ن. م، ن. ص.

لم يقرأ نيتشه جيّدا؛ أخطأ في كل أحكامه، وتقييمه متسرّع ومنجرف مع الموضة، لأن نيتشه، إذا لم يتناقض، فهو لم يُبد حسما في المسألة الدينية، ولم يرفض فكرة الإله رفضا قاطعا مثل كل الفلاسفة الماديّين.

(وآ)

أن تكون معارضة نيتشه للمسيحية ضعيفة، وفي غير صالح الفكر النّقدي ولا تخدم حتى الفكر اللاّديني، يمكن التحقق منه، من خلال ما يقوله عن ضرورة الإ يمان بإله ما، وعدم ممانعته من الاعتقاد في كائن متعالٍ بمواصفات خاصة، المهمّ أن يكون هذا المعتقد صالحا للمجتمع.]

الغريب أن هذا الكلام نزل في كتاب يُعلن فيه حربا شرسة على الدين واللاهوت، ويقول إن بطّاريات مدافعه ستهدم المعبد على رؤوس الجميع، وإذا به يتحدّث عن ضرورة الايمان بالله، وخَتَمَه بالدعوة إلى التصالح مع الدين الإسلامي ومحاربة الكنيسة الرومانية، مصرّحا بقولته الشهيرة: «حَرْبًا دون هوادة على **روما!** سلاما وصداقة مع الإسلام؟[302]».

لكن المفكرين العرب الذين استحسنوا كلام نيتشه هذا، دون أن يتساءلوا عمّا يقبع وراءه من حيثيات أو ظروف تاريخية مصاحبة، قد غابت عنهم حقيقة أن مناشدته كانت مُوجّهة ضد الكنيسة الكاثوليكية (**روما**) التي أدانت العبودية، وحثّت القوى الغربية على منع المتاجرة بالعبيد التي كان يمارسها المسلمون. ولذلك فإن شعاره ذاك رفعه بسبب اليأس الذي أحس به من قرب زوال عالمه العبودي، وحتميّة انهيار تصوّره للحضارة على أنها حفلة رقص على جماجم العبيد: لقد تحوّل عدوّه من الشرق إلى الغرب، وهذه الزحزحة الجغرافية قام بها فقط لأنه استشف بدء "استفاقة" الضمير الغربي، وخطر سقوط عالمه الأرستقراطي العبودي.

نيتشه يحتقر المسيحية (خصوصا الكاثوليكية)؛ يُثني على الحضارة الإسلامية، ويقول إن الإسلام لديه ألف مرة الحق في احتقار المسيحية، لأن الإسلام يتماشى مع مُيولاته الإجرامية؛ فهو دين القسوة والحرب، دينٌ مارس العبودية والقتل والسبي جهارا ودون مواربة: الإسلام بالنسبة إليه هو منظومة الأرستقراطية الحربيّة، هو

302- ن. م، § 60، ص، 181. ("Krieg mit Rom auf´s Messer! Friede, Freundschaft mit dem Islam,,)

التسريح الحرّ لغرائز الجنس (النكاح)، واسترقاق النساء واعتبارهن مُلك يمين، في مقابل دهماء المسيحية وضعفها، واحتقارها للجسد، والجنس، والحرب.

إن كلّ مَن كان ينتظر منه نقدا جدّيا لفكرة الإله أو كلاما يحثّ على تبنّي الإلحاد كنهج حياة، يُخيّب أمله بصورة رهيبة، وذلك لأن نيتشه متشبّث بفكرة أن الشعوب المحترَمَة، تحتاج إلى الاعتقاد في إله ما: «إن شعبًا يَثِقُ بنفسه، يمتلك كذلك إلهه الخاص به. وفيه يحترم الظروف التي بواسطتها يؤكّد ذاته، ويوقّر فضائله؛ يعكس رضاه عن نفسه، شعوره بالقوة، في كائن يمكنه أن يمتنّ له بكل هذا. من هو غنيّ يتشوّق إلى العطاء؛ وشعب فخور يستشعر الحاجة إلى إله كي يزجي إليه قرابينه». الدين في هذه الحالة، يقول نيتشه، «هو شكل من الشكران (Form der Dankbarkeit)[303]»، ويجب بالتالي المحافظة عليه، وتشجيع الناس على الإيمان بإلههم والتمسك بمقدساتهم، ومواصلة شكران هذا الكائن المتعالي. أنت راض عن نفسك ومُمتنّ لذاتك، إذن، حسب منطق قاتل الإله، أنت تحتاج إلى إله (braucht man einen **Gott**).

لكن حذار. هذا الاله يجب أن يكون على مواصفات إله اليهود والمسلمين، يعني إله يجمع في ذاته الخير والشر؛ أن يكون ملاكا وشيطانا في نفس الوقت. لماذا استثنى المسيحية؟ لأنه يعتقد، خلاف ما هو موجود في نصوصها وتراثها، أن إله المسيحيين هو إله خيّر فقط، لكن هذا الحكم المسبق لا يجد له أي أساس موضوعي في التراث المسيحي، ومن يقول عكس ذلك فهو محجوج بالنصوص.

إن مواصفات الإله النيتشوي هي هذه: «يجب أن يكون قادرا على **الإنعام والإساءة**، يجب أن يكون **صديقا وعدوّا** ينال الإعجاب في **الخير** كما في **الشرّ**[304]». لكن هذا هو بالضبط إله الأديان الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام؛ وهو الإله الذي ثار ضده كل الفلاسفة، وفي كل العصور. ذلك أن المتألهين منهم لديهم تصوّر تنزيهي عن هذا الإله، أما الملحدين فقد رفضوه لأسباب منطقية وأخلاقية، من حيث أن الكائن الأسمى لا يمكن أن يحمل في نفس الوقت صفات متناقضة. المتألهون يعتبرون هذه القوة المتعالية خالية من الشر وغير قادرة على فعله لأنه مناف لطبيعتها. نيتشه، على عكس الملحدين، لا ينفي وجود الإله، هو يعترض على من يؤمن بإله خيّر فقط،

303- ن. م، § 16، ص، 51 52.

304- ن. م، ص، 52.

ويريد بالتالي الحفاظ على التصوّر اللاهوتي القديم، الذي يَتمثّل الإله على أنه شرّير وخيّر في نفس الوقت. ولذلك فهو لم يَصِل إلى مستوى الفيلسوف الفرنسي برودون (Proudhon 1809-1865) الذي حسَمَ مع إله الأديان بسبب هذه الخاصيات المتناقضة بالذات. قال إن الله «هو حماقة وجبن؛ نفاق وكذب؛ طغيان وبؤس»، وبالجملة «الله هو الشرّ (Dieu, c'est le mal)[305]». وإذا كان كذلك فهو غير موجود، لأنه **مجرّد** وهم اصطنعه خيال الانسان وصعّده إلى السماء.

الفيلسوف العقلاني، صديق الإنسانية ومحرّرها من الأوهام، يقول: الإنسان لا يحتاج إلى أيّ إله؛ ونيتشه يقول: كلاّ، الإنسان يحتاج إلى إله، بل من واجبه أن يؤمن بإله ما، على شرط أن يُعنّف عقله ويُحطّم أخلاقه، بتصوّر هذا الاله كَكيان حامل في نفس الوقت الصفة وضدّها، أو بعبارة نيتشه «يحتاج إلى **إله شرّير** بقَدر ما يحتاج **إلها خيّرا**[306]».

لكن كما قلت هذا الإله مزدوج الشخصية (خيّر وشرّير) موجود في الديانات الثلاثة، وليس في اليهودية والإسلام فقط، بل في المسيحية أيضا. ولو كان نيتشه على دراية عميقة بالأناجيل ومُطّلعا على التفاسير المسيحية لتيّقن من أن الآب السماوي يحمل هذه الخصائص، فهو متناقض، بلا عقل، يفعل الشيء وضده: يهدي ويضلّ، يحب ويكره، يرحم ويُعذّب، يُطهّر القلب ويختم عليه... الخ. وما الشيء الأكثر شرا في العالم من الخَتْم على قلوب الناس؟ وما الأفظع من سلب حرّية الإنسان وهدايته أو إضلاله بحسب النزوات الشخصية؟ افتحوا **رومية** (9، 14 22) فستجدون جبريّة رهيبة لا نظير لها إلاّ في القرآن. بولس يصوّر الله على أنه كائن متحيّز، يحب ويكره على مذاقه ودون سبب: (**أحببتُ يعقوب وأبغضتُ عيسو**). وإذا ما سألتَ عن سبب هذا التصرّف الغريب من طرف إله يُفتَرض أنه حكيم فإن كبار المفسرين المسيحيين يسدون أمامك باب السؤال، ويُصَوّرون لك التفكير على أنه خطر كبير. هكذا فعل كريزوستوم (ذهبي الفم) إزاء هذه المفارقة، فحينما لم يجد لها مُسوّغا معقولا أخذ يذم في التفكير. قال إن سبب الضلال هو الفضول الفكري، والرغبة في معرفة علّة كل

305- P.-J. Proudhon, Système des contradictions économiques, ou philosophie de la misère, t. I, Paris, Guillaumin, 1846, p. 416. « Car Dieu, c'est sottise et lâcheté ; Dieu, c'est hypocrisie et mensonge ; Dieu, c'est tyrannie et misère ; Dieu, c'est le mal ».

306- نيتشه، **عدو المسيح**، § 16، ص، 52.

الأحداث، وإرادة الدخول في صراع مع عناية إلهية لا يمكن فهمها ولا يمكن التعبير عنها، عناية غير محدودة وغير قابلة للتعقّل، وبالجملة فإن طرح الأسئلة والمغامرة بتمحيص الحكمة الغيبيّة للإله هي أمور خطيرة (επισφαλες) وجنونيّة (παραπληξιας)[307].

أليس من باب الظلم أن يتصرف الإله بهذه الطريقة؟ بالنسبة لصاحب الرسالة إلى مؤمني رومية: حاشا! الله ليس عنده ظلم، حتى وإن ظلم وحجب الحقيقة وختم على قلوب الناس. إنه منطق اللامنطق؛ هوس قصووي يعتمل في التوراة والإنجيل والقرآن؛ احتقار لكرامة الإنسان وهتك لَملكاته العقلية. وإذا لم تَكْف هذه القسوة الإلهية لإقناع الناس بالدين الحق، فإن بولس يلجأ إلى العهد القديم، خَزّان المُفارقات والتناقضات الأكثر سحقا لنور العقل، والذي نَهَلَ منه الإنجيل والقرآن بملء الأيدي. ولكي يمعن في إبداء جنون هذا الإله وشرّه يقول بولس: ألم يقل الله لموسى (**إني أرحم من أرحم وأشفق على من أشفق** «الخروج 33، 19»)، أو بالأحرى: أرحم مَن أرحم، وألعن مَن ألعن، أشفق على من أشفق وأقسو على من أقسو»، والبشرية كلها مسحوقة أمام هذا الاله الاعتباطي المعتوه الشرير.

فعلا، هكذا قال يهوه، وهكذا قال إله القرآن، وها هو بولس ينتهز الفــرصة لكي يُعيد تكريس هذه الفــكرة: (**فالله إذن يرحم من يشاء، ويُقسّي من يشاء** «رومية 9: 18»)، وليس في يد الإنسان أية وسيلة لتفادي هذا الأمر الإلهي الجائر: (**لا يتعلّق الأمر برغبة الإنسان ولا بسعيه، وإنما برحمة الله فقط**). وتخيّلوا كيف يتمّ تصوير رحمة الله، وعلى من يتباهى هذا الاله بقدرته اللامعقولة الفائقة على فعل كل شيء؟ على رجل أسطوري اسمه فرعون: (**إن الله يقول لفرعون في الكتاب لهذا الأمر بعينه أقمتك لأظهر فيك قدرتي ويُعلن اسمي في الأرض كلّها**). هل هكذا يتكلم إله العالم؟ أوَصَلتْ به الوحشية إلى حدّ الاستقواء على عباده والعبث بإرادتهم، واستعمال شخص من لحم ودم لكي يَلعب به كالدّمية؟ وكل هذه الأفعال الانتقامية الغرض منها هو إعلاء اسمه في كوكب الأرض. غاية عبثية ماكرة وشيطانية.

وبالعودة إلى نيتشه أقول إن الرجل يدور في حلقة مفرغة، يتهرّب من مجابهة أركان التعاليم اللاهوتية، يتفادى الدخول في نقاش نظري، مُركّزا على أشياء هامشية

307- J. Chrysostome, Sur la providence de Dieu, Paris, Éditions du Cerf, 1961, p. 61.

في منظومة الديانة المسيحية. فهو يحمّلها المسؤولة عن «الجريمة الكبرى ضدّ الحياة»؛ هكذا في «عدو المسيح» يُعلن حرب إبادة ضدّها ويزعم كشف رذائلها ورهبنتها التي تقف حجر عثرة ضدّ الانتقاء الطبيعي. لكن التخلص من المسيحية لا يعني إقامة الإلحاد على أنقاضها، كما يُنظّر إلى ذلك المفكرون الأحرار والاشتراكيّون، بل دين جديد: يجب إدخال آلهة أخرى لا علاقة لها بالإله المسيحي أو بالقيم التي يجسّدها، أعني السلام والمحبة والمساواة. يقول إن الإنسانية مَكثت «ألفي سنة تقريبا دون إله واحد جديد[308]»، وأن مفهوم الإله الرحيم، الذي يعطف على المرضى ويرفق بالإنسان الضعيف «هو واحد من المفاهيم الأكثر فسادا على وجه الأرض[309]». ينبغي استحداث تصوّر جديد للإله، نيتشه يدعو، بصريح العبارة، إلى الاعتقاد في "إله شرير (bösen Gott)" قوي دموي، وليس إله "مخصي"، إله ضد الطبيعة[310].

يقول متسائلا: «بأي شيء يفيد إلهٌ لا يعرف الغضب والانتقام والحسد والسخرية والمكر والعنف» إله لا يعرف حتى سحر الغلبة «والتدمير الهدّام؟[311]». لا يفيد في شيء، فعلا، هو إله صالح فقط للمرضى والمعاقين لأنه «مُتواضع، ينصح بسلام النفس وترك البغضاء، وبالمسامحة والمَحبة للصديق كما للعدوّ.. يَعظ مُهذّبا الأخلاق دون توقّف، ينسحب إلى كهف الفضائل الذاتية، يتحوّل إلى إله للجَميع، إلى شخص خاص، إلى كوسموبوليتي (*Kosmopolit*)[312]».

لكن حتى في هذه النقطة فإن نيتشه يبدي جهلا مطبقا باللاهوت المسيحي وبتراثه التأويلي، لأنه لو تصفح كتب اللاهوتيين وتعمق في تعاليمهم لوجد هذا الصنف من

308- فريدريك نيتشه، **عدو المسيح**، الأعمال الكاملة، ج. VI، ص، 185. «Zwei Jahrtausende beinahe und nicht ein einziger neuer Gott!» (انظر أيضا الترجمة العربية، نيتشه، **عدوّ المسيح**، ترجمة جورج ميخائيل ديب، دار الحوار، اللاذقية سوريا، 2004، ص، 59).

309- ف. نيتشه، ن. م، ن. ص. (ist einer der corruptesten Gottesbegriffe, die auf Erden erreicht worden sind)

310- ف. نيتشه، **عدو المسيح**، م. س، ص، 182. «إن خصاء الله المضادّ للطبيعة، يُصنع منه فقط إله الخير، سيكون إزاء هكذا أفكار خارج كلّ ما هو مستحبّ». ف. نيتشه، **المسيح الدجال**، الترجمة العربية (ت. ع)، «عدو المسيح»، م. س، ص، 52.

Die widernatürliche Castration eines Gottes zu einem Gotte bloß des Guten läge hier außerhalb aller,, «Wünschbarkeit

311- « Was läge an einem Gotte, der nicht Zorn, Rache, Neid, Hohn, List, Gewalthat kennte? dem vielleicht nicht einmal die entzückenden ardeurs des Siegs und der Vernichtung bekannt wären". F. NIETZSCHE, *Ibid*, p. 182.

312- ن. م، ص، 183. (ت. ع)، ص، 53.

الإله الذي يدعو له، أي الإله الشرير الدموي. في كتابه "ضدّ مرقيون" الغنوصي يقول اللاهوتي القرطاجي ترتليانس (Tertullien) بالحرف: «إن الإله الذي لا يملك إلاّ الخيرية لا وجود له[313]»، والخيريّة ذاتها غير ملائمة لفكرة الله لا من جهة طبيعته الذاتية ولا من جهة حكمته أو كماله. ترتليانوس يردّ تهمة الغنوصيّين عليهم (يقولون إن إله العهد القديم الدموي ليس إله العهد الجديد الرحيم)، ويحاول أن يقلب اعتراضهم ضدّهم، وإثبات أن فكرة الإله الخيّر، مطلق الخيرية هي «دمويّة، جائرة وبالتالي لا تليق بهذا الاسم[314]». وهو يتعجّب من أطروحات مرقيون التي تسحب من الله صفة الشرّ، بل إنه يندهش من اصرارهم على نزع عن الإله أحاسيس ومشاعر أنثربومورفية، مثل الغضب والندم والفرح والحزن والانتقام، وهي كلّها موجودة في العهد القديم. ويقول بأن هذا الإله الخيّر الذي يتشبث به الخصم، يصلح فقط لخدمة المذنبين أو لحث الناس على فعل الخطيئة: «لقد اصطنعتم إلها مُريحا، إلها ليس بغيور، لا يغضب، ولا ينتقم؛ إلها في جحيم خال من النار؛ إلها لا يملك ضدّكم لا تذمرا ولا غضبا، ولا ظلمة؛ إلها لا يشعر إلاّ بالخير[315]». إن هذه الخيريّة التي يلوّح بها الغنوصيون أتباع مرقيون يصفها المسيحي ترتليانس بأنها مجرّد حلم، أو شبح لا أكثر.

وبافتراض أنه لم يكن متاحا لنيتشه الاطلاع على كتاب ترتليانس هذا، أو على نصوص أخرى لآباء الكنيسة في مماحكتهم حتى الغنوصيّين، فقد كان بإمكانه أن يفتح إنجيل **لوقا** ويقرأ هذه القولة الرهيبة ليسوع حتى يَلْتَقِي بهذا الإله الشرير الدموي: «وأما أعدائي، أولئك الذين لم يُريدوا أن أملك عليهم، فَأحضروهم إلى هنا **واذبحوهم قدامي!** (لوقا، 19: 27)». وفي ترجمة أخرى: «أما أعدائي، أولئك الذين لا يُريدونني مَلكا عليهم، فاتوا بهم إلى هنا، **واضربوا أعناقهم أمامي**[316]».

إله يتحدث عن ضرب الأعناق، بكل أريحية، ورغم ذلك فإن نيتشه يكذّب إنجيله ويقول لنا إن إله المسيحية جميل رحيم عطوف. لكن آباء الكنيسة الأوائل يُكذّبونه

313- TERTULLIEN, Contre Marcion, in Œuvres de Tertullien, traduite en français par Eugène-Antoine de Genoude, Louis Vivès, Paris 1852, T. I, p. 42.

314- TERTULLIEN, *Ibid*em.

315- *Ibid*, p. 45.

316- الترجمة الأولى مستقاة من: **التفسير التطبيقي للعهد الجديد**، نُقل عن الترجمة الانجليزية. الناشر تيندال هاوس، المملكة المتحدة 1988. الترجمة الثانية جاءت في: انجيل لوقا ضمن، **الكتاب المقدس**، ترجمة الرهبانية اليسوعية، دار الشروق، بيروت 2000. (ط. 6)

ويَسحقون مهاتراته سحقا. فهذا اللاهوتي يوحنا كريزوستوم الذي يسمونه «ذهبيّ الفم» استخرج من هذه القولة الإنجيلية حجّة قويّة ضد المرقيونيّين الذين لا يقبلون بإله العهد القديم لأنه شرير ودموي. صرّح بأن هذه القولة تَنزل عليهم كالصاعقة، لأن المسيح يقول هنا «آتوني بأعدائي واقتلوهم قدّامي (adducite hostes meos, et occidite coram me)»، ومع ذلك فهم يزعمون أن المسيح رحيم، خيّر (bonum dicant Christum)، وإله العهد القديم شرّير. لكن من الواضح يَرِدّ كريزوستوم أن «الآب والابن يعملان هنا نفس الشيء، الآب يُرسل جيشا إلى الكرْمِ لتدمير أعدائه (متّى، 20)، والابن يذبحهم قدامه[317]».

لقد غابت هذه النصوص ومثيلاتها عن أنظار نيتشه تماما، لأنه قليل المطالعة ولا يتعمّق كثيرا في الكتب، يكتفي بالنزر القليل منها أو بالمجلات والصحف، ولذلك فإن أحكامه على المسيحية وانتقاداته لتصوّرها للإله تُخطئ الهدف تماما، بل لا تَمسّ الهيكل الحامل لتعاليمها اللاهوتية وتصوّراتها الخلاصيّة.

(يآ)

أنا لا أثق في علم نيتشه بتاتا، فالرجل لا يملك العمق النظري المطلوب، ولا يعرف جيدا تشعبات اللاهوت الأقرب منه، أعني اللاهوت المسيحي، ويُعدَم الضروري من المعلومات لخوض هذه المعركة؛ لم يُدقّق في الكتب والمراجع كما يفعل أيّ باحث جدّي، وليست له منهجية تاريخية نقدية، لذلك أذهلتْ أحكامه المؤرخين وصدمت الفيلولوجيين المحنّكين.]

لو كان جدّيا في نقده للدين، لتوجّه إلى المنبع الأصلي وحطّمه، أي إلى الإله ذاته، كمفهوم وكفكرة. لكن الرجل يبحث عن إله هو موجود أمامه وشاخص في كتب الأديان الثلاثة؛ دَعك من هذا، لو كان مُفكّرا حرّا وقاتلا للإله لما قال بضرورة الاعتقاد في إله ما[318]، ولَما ادّعى في **ما وراء الخير والشر** أن الدين ضروري للمجتمع لأنه يقدم خدمة نافعة لكل شريحة من شرائحه.

317-Abbé J.-M Peronne, Explication suivie des quatre évangiles. La chaine d’or, Paris, Librairie de Louis Vives, 1869, T. VI, p. 383-384.

318- انظر، **إرادة القوة**، § 480، 359 360. «كم من آلهة جديدة لا تزال ممكنة! حتى أنا الذي تتحرك في الغريزة الدينية، أي الخالقة للإله، أحيانا لا راهني، كم تجلّى في الرباني بطريقة مختلفة في كل مرة! ... إني لا أثير الشك حول وجود أصناف كثيرة من الآلهة ... مرة أخرى أقول: كم من آلهة جديدة لا تزال ممكنة!». إرادة القوة، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2011.

كم نحن بعيدون عن كبار فلاسفة القرن الثامن عشر الذين حسموا مع الأديان وآلهتها، وكم هي رجعية أفكار نيتشه بالمقارنة معهم. ولهذه الأسباب نستطيع أن نفهم لماذا ينتفض ضدّهم، ولماذا يحتقر ذاك القرن الذي أنتج لنا ديدرو ودالمبير وفولتير ودولباخ العظيم، لأنهم نَظّروا لعكس ما يقوله هو، وصمّموا على تحرير العقول والأجساد من نير الدين والخرافة والجهل والاستعباد.

لن تقرؤوا أبدا في كتب نيتشه هذه الكلمات الرائعة للبارون دولباخ: **الأديان هي فنّ تسميم الشعوب بالغيبيّات؛** هي أسلوب شرّير لإعاقتهم عن اكتساب الوعي بمصائبهم. وعن طريق التهديد الدائم بقوى خارقة للطبيعة فإن الأديان تُرغم الناس على تحمّل، بصمت، عذابات تسومها إياهم القوى الأرضية، وتدفعهم إلى الاعتقاد بأنهم، إذا ما تقبّلوا أن يكونوا تعساء في هذا العالم، سيكونون سُعداء في العالم الآخر[319].

إن واجب المثقف العربي اليوم هو أن يعمل جاهدا لإخراج الشباب من ظلمات الدين إلى نور العقل، أن يحطّم فكرة الدين بالكامل، ويقضي، قضاء مُبرما، على كل ما يندرج تحت اسم المقدّسات. ولفعل ذلك يجب عليه أن يلتحق بفلاسفة جسورين، لا يمضغون الكلمات، من أمثال بيار بايل وفولتير ودولباخ، وأن يستلهم تعاليمهم ويتشرّب من كتبهم، لا أن ينساق وراء شخص متناقض يزعم في موضع أنه «**كافر بالآلهة**»، وفي موضع آخر يقول إنه يؤمن بآلهة رقّاصة، وفي موضع ثالث يمدح إله التوراة لأنه عنيف وقتال، وفي موضع رابع يفتي بأن الدين ضروري للمجتمع . نحن بحاجة إلى التخلّص من الدين كليا، بتحطيمه كما حطّم حيوات ملايين البشر، ولا يمكن أن يتمّ ذلك إلاّ بفسخ فكرة الإله من أذهان الناس، تلك الفكرة التي هي رأس الداء وسبب المآسي التي شهدتها البشرية على مدى تاريخها.

وأختم بعيّنة من الخواطر الجدّية الرائعة للبارون دولباخ حول هذه المسألة بالذات، والعواقب الوخيمة المنجرّة من تصوّر الإله في الأديان، وهي خواطر تُخجل النيتشويين لوضوحها وجزمها وقوّة إيحائها. النص مقتبس من كتابه «نظام الطبيعة»، الجزء الثاني الفصل الأول بعنوان «أفكار لاهوتية مشوشة ومتناقضة»: «بما أن الرعب هو الذي ولّد بالضرورة الآلهة، وبما أن فكرة الإله كانت دائما مصاحبة للرعب، فإن اسم الله أصبح باستمرار سببا لارتعاد البشرية، لإثارة أفكار قاتمة وكئيبة في أرواحهم: مرّة ألقاهم في

319- نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، «العاطل»، ص، 481.

حيرة، وأخرى ألهب خيالاتهم. إن تجربة القرون تبيّن أن هذا الاسم الغائم، الذي أصبح للإنسان الفاني المشكلة الأهم، نَشَر في كل مكان الذعر والتسمّم، وولّد في العقول أكثر الدّمار رعبا. لو أن كارها للبشر خبيثا، خطط لإلقاء البشرية في أكبر المِحن، هل باستطاعته أن يتصور وسيلة أكثر فاعلية من تلك التي تقذفهم باستمرار في حيرة جرّاء كائن غير معروف ولا يمكن معرفته بتاتا، ولكنهم يُقدّمونه كمركز لكل أفكارهم، كنموذج وغاية وحيدة لكل أعمالهم، كموضوع لكل بحوثهم، كشيء أهم من الحياة، نظرا إلى أن سعادتهم الراهنة والمستقبلة تَعتمد عليه؟ ماذا يحدث لو انضافت إلى هذه الأفكار التي لا تعمل إلاّ على بلبلة الذهن، تلك التي تصوّره كَمَلك مطلق لا يتبع أي قانون في تصرفه، لا يخضع إلى أي واجب، يُمكنه أن يُعاقبَ إلى الأبد أخطاء تُقترَف في الزمن، والذي من السهل استثارة غضبه، ينتفض لأفكار ومعتقدات الناس، ومن الهيّن الوقوع في مِحَنه؟ إن اسم هذا الكائن يكفي بمفرده كي يُولّد الشغب، الدمار، الرعب في أرواحَ كل الذين يتفوّهون به؛ فكرته تطاردهم أينما حلّوا، تعذبهم باستمرار، تُلقي بهم في البؤس. إلى أي نوع من أنواع العذاب يُخضعون أذهانهم لكي يتوصّلوا إلى تَدبّر إرادة هذا الكائن المرعب، لاكتشاف سرّ رحمته، لتخيّل ما يمكن أن يُرضيه؟ وفي أي فزع يَجثمون لأنهم لم يستطيعوا حدسه! كم من المماحكات أثيرت حول صفات كائن لا يعرفه أحد على الحقيقة، والجميع يراه بمنظوره الشخصي! ذلك هو حرفيا تاريخ المفعول الذي أنتجه اسم الله في الأرض. البشرية أصابها الذهول والرعب على الدوام، لأنها لم تحصل أبدا على أفكار مستقرة وثابتة حول الكائن الذي يمثله هذا الاسم. إن الصفات التي يعتقد بعض المتعالمين أنهم اكتشفوها فيه، لم تفعل إلاّ بلبلة الشعوب وكل المواطنين، ولم تساهم إلاّ في افزاعهم دون سبب، إغراقهم في التشعّبات اللاهوتية، جعل حياتهم تعيسة، إبعاد الأشياء الواقعية والضرورية لسعادتهم عن أنظارهم. لأجل البهرج السحري لهذه الكلمة المرعبة، الجنس البشري بقي متحجّرا وذاهلا، وتَعصّبٌ أعمى جعله مجنونا: عاجلا، بعد أن صُرع من الخوف، زحف كعبد تحت سياط سيّد لا يرحم، مستعد دائما لضربه، اعتقد بأنه لم يولد إلاّ لخدمة هذا السيد الذي لم يعرفه أبدا والذي قيل له عنه الأقوال الأكثر رعبا، لكي يرتجف بين أغلاله، لكي يخاف من ثأره، لكي يعيش في النواح والبؤس. كلّما رفع بصره إلى إلهه فهو لا يفعل ذلك إلاّ لفرط عذابه؛ لكنه مُحترز منه لاعتقاده بأنه جائر، صارم، نزوي، عنيد. لم يستطع العمل من أجل سعادته ولا تطمين قلبه ولا استخدام عقله لأنه

هُدّد دائما ومُنِع من الاستهانة بغضبه. وهكذا فقد أصبح عدوّا لنفسه ولأمثاله، لأنهم أقنعوه بأن سعادته مستحيلة في هذه الدنيا. كل مرة تعلق الأمر بالطاغية السماوي إلاّ وفقد ملكة الحكم، وصادر عقله، سقط في حالة طفولية وهذيان أرغماه على الانصياع للسلطة. لقد كانت العبودية مقدّرة للإنسان منذ خروجه من بطن أمه، والطغيان أرغمه على حمل الأغلال لبقيّة حياته. فريسة للرعب الذي يَعبث به، يبدو وكأنه جاء إلى الأرض فقط لكي يحلم ويتألم؛ لكي يؤذي نفسه وأمثاله، لكي يمنع نفسه من أي لذة، لكي يجعل مريرة حياته أو يُعكّر صفو سعادة الآخرين. ومأخوذ على الدوام بوقع الاستيهامات الرهيبة التي يقدمها له باستمرار خياله الهاذي، أصبح حقيرا، غبيا، لاعقلانيا وشريرا وذلك من أجل تعظيم الإله الذي جُعِل له كنموذج أو الذي حُرّض على الانتقام له. وهكذا فإن الإنسانية الفانية ركعت، مَن جيل إلى جيل، أمام أشباح عبثية ولّدها، في البداية الرعب المقترن مع الجهل. هكذا يعبدون بارتعاش الأصنام العبثية التي نصّبوها من أعماق أدمغتهم، لا شيء يقنعهم بأنهم، في الحقيقة، يعبدون أنفسهم، وأنهم يسجدون أمام أعمالهم هم أنفسهم، وأنهم مُهشّمون من الإطار الذي صنعوه بأيديهم؛ يعاندون ويمكثون في سجودهم، في حيرتهم؛ يحوّلون إلى إجرام الرغبة في تقشيع مخاوفهم؛ يتجاهلون السخف الناتج عن جنونهم؛ يتصرفون مثل الأطفال الذين يصيبهم الذعر من أنفسهم حينما يشاهدون في المرآة ملامحهم مشوّهة. إن هذه الهلوسات الضارة دخلت هذا العالم، منذ أن اصطنع الإنسان التصوّر المؤذي للإله؛ ستتواصل وتتجدد حتى يأتي اليوم الذي يُعتبر فيه هذا التصور اللاعقلاني غير مهمّ ونافلا لسعادة المجتمع. **وبانتظار ذاك الوقت، من البديهي أن مَن يتمكّن من تدمير هذا التصوّر القاتل، أو على الأقل التقليل من تأثيره الرهيب، سيكون دون شكّ صديق الجنس البشري**[320]».

(آآ)

لكن في ثنايا هذا الاستنكار الديني للحداثة والمادية والإلحاد والعلم يصل إلى نقطة في غاية الخطورة واللاأخلاقية، حيث يهجم بشدّة على صناعة الطبّ

320- P. T. d'Holbach, Système de la nature ou des lois du monde physique et du monde moral, nouvelle édition avec des notes et des corrections, par Diderot, édité avec une introduction par Yvon Belaval, Reprografischer Nachdruck der Ausgabe, Paris 1821, Georg Olms Verlag, Hildesheim, 1966, in 2 voll. (trad. it. Sistema della natura di Paul-Henry Thiry d'Holbach, a cura di Antimo Negri, UTET, Torino 1978, pp. 429-432)

النبيلة، ويُوجّه أحقاده ضد الطبيب الذي يداوي المرضى وينقذ حياة الآلاف من الناس.]

ولقد مرت هذه الأقوال الخطيرة على أتباعه ولم يُولوا لها أيّة أهمية، إلاّ الرايخ النازي، الذي قضى على المرضى ونظف العرق الآري من المعاقين. قال: «نحن نُشفي أنفسنا بأنفسنا: **أن يكون المرء مريضا هو أمر مفيد** (تَعليمي "lehrreich")، نحن لا نشك في ذلك، بل **أكثر إفادة** (أكثر تعليميّة "lehrreicher") **من أن يكون صحيحا** (als Gesundsein)، إن **المُتَسبِّبين في المرض** (die Krankmacher) يظهرون لنا اليوم أكثر ضرورة حتى من أي رهط من المطبّبين أو المُخلّصين[321]».

أفكار إجرامية جنونية لأنها تَقْلب تصوّرنا للمرض والصحة رأسا على عقب، وتقضي على معنى علم جليل، مثل علم الطب الذي جُعل خصيصا للحفاظ على الصحة ودرء الأسقام. نيتشه يريد أن يَستمتع برؤية المرضى يتألّمون، ويرغب في تفشّي الأمراض المُعدية، أو التسبب فيها عن عمد، كما كان يفعل الاسبان مع هنود أمريكا، وهذا العمل الاجرامي يُصنفه تحت باب "**المُتَسبِّبين في المرض** (die Krankmacher)"، وهم في رأيه الجنوني أفضل من الأطباء. هل ثمة شيء أكثر فظاعة من هذا؟ هل قرأتم في أي مُصنّف فلسفي أو أدبي أشياء قاسية من هذا القبيل؟

وللتثبّت من أن نيتشه مُولَع بالفظاعات، ويرغب جاهدا في الصدمة والاستفزاز، ويستعرض دون خجل طبيعته الشيطانية، فهو لا يحبذ إلاّ العيش بين القبور والتجوال حول الجثث، ويعمل كل ما بوسعه لكي يسحب معه قارئه في وحل هذه الاعتبارات الحِداديّة. والتقنية المُتّبعة مماثلة لذاتها: يَعقد مقارنة (خاطئة ولا تاريخية)، بين ماض مجَيد وحاضر رديء، ثمّ يُفاضِل بين ما كان وما هو كائن، على أساس هذه القاعدةً: كل الأشياء الحسنة، في وقتنا الحاضر، كانت في الماضي سيّئة، ومن هذه القاعدة يستخرج كل النتائج. الزواج، كان يُعتَبر مساسا بحق الجماعة، وكان المرء في سالف الأزمان يدفع غرامة على وقاحة الرغبة في امتلاك امرأة. والغرامة هي أن يُسلّم زوجته إلى شخص آخر (السيّد أو الكاهن) كي يَنكحها مكانه، وهي ما يسمّى بحقّ الليلة الأولى (jus primae noctis). ونيتشه، يشيد بهذا النظام العبودي الهاتك لحرمة الزوجية (موجود فقط في الإسلام مع المُحلّل)، ويمجّد الكاهن الذي يمارسه، مُعتبرا إياه «حارسا للأخلاق الحميدة».

321- جينيالوجيا الأخلاق، م. س، (ترجمة فتحي المسكيني، ص، 156).

وتدخل في مجال الأخلاق الحميدة، أيضا، أعمال يعتبرها حتى الحيوان، لو أمكن له أن يتكلّم، فظيعة. «المشاعر اللطيفة والطّيبة والرقيقة والحنونة»، التي تراها البشرية السوية قِيَما عُليا، من دونها لا يمكن للاجتماع البشري أن يتحقق، هي في رأيه، لم تكن كذلك، بل «كانت لأزمان طويلة تُواجَه بضرب من الاحتقار». أنا أرى أن هذا الرجل كذاب مدلّس، لأنه يقول أشياء غير مطابقة للواقع، ويختلق مجتمعات متوحّشة لا تقبَع إلاّ في ذهنه المريض. أين قرأ هذه الفظاعات؟ أين هي الأزمان المتقادمة؟ وكيف اطّلع عليها ومن أي مكان أشرف عليها، كي يقول إن الناس كانوا يخجلون من الرّقة مثلما نخجل اليوم من القسوة؟ غنيّ عن القول إن مجتمعا من هذا القبيل لا يمكن أن يدوم يوما واحدا؛ سيُدمّر نفسه بنفسه؛ ستَنْشب فيه حروب طاحنة، لا تنتهي إلاّ بانتهاء أفراده. ومع ذلك فهو يملك الجرأة للإحالة على كتابه اللاأخلاقي الفظيع، **ما وراء الخير والشر**، وبالتحديد الفقرة 260، حيث قَنّنَ فيها التمييز العنصري بين أخلاق خاصة بالسادة وأخلاق خاصة بالعبيد. ورغم ذلك فإن الفيلسوف التونسي فتحي المسكيني ابتلع الطّعم بسلاسة، ودون أن يُحقّق أو يُدقّق، رأى أنها فقرة محورية لفهم نيتشه «حيث وضع منهجه "التيبولوجي" في التمييز بين نمطين كبيرين من القيم: أخلاق الأسياد وأخلاق العبيد[322]».

أن تخضع للقانون فهذا عار عليك، أما أن تخرق القانون وتُسقط كل الضوابط التشريعية، وأن تقتصّ بنفسك لنفسك أو تثأر من عدوّك على هواك، فهذه هي التصرّفات الأقوم والأنبل والأعقل[323]. هذا هو العالم الذي يُحبّذه نيتشه، لأن الرجل لا يتحدث عن التاريخ (يسميه التاريخ العالمي "Weltgeschichte"، وهو في الحقيقة ليس كونيّا بل أسطوريا اصطنعه من محض خياله) إلاّ لكي يُظهر محاسنه ويحرّض على تقليده والتّأسّي بفضائله الجمّة، على عكس الحاضر الهزيل المنحط.

وقائمة فضائل الماضي الجميلة هي هذه: **الألم** فضيلة (das **Leiden** als Tugend)، **القسوة** فضيلة (die **Grausamkeit** als Tugend)، **المداراة** فضيلة (die **Verstellung** als Tugend)، **الانتقام** فضيلة (die Rache als Tugend)، **إنكار العقل** فضيلة (die

322- من ترجمة فتحي المسكيني لعمل نيتشه، في **جينيالوجيا الأخلاق**، ص، 157، تعليق 3.

323- «لنأخذ مسألة الخضوع للقانون. آه! لشدّ ما ثار وعي كل الأعراق النبيلة في العالم لمّا توجّب عليها التخلي عن الأخذ بالثأر والخضوع للقانون. لقد كان القانون لمدة طويلة شيئا محرّما، كان جريمة وبدعة، لقد تأسس بعنف باعتباره عنفا لا يقبله المرء إلاّ وهو يحمرّ خجلا من نفسه». ترجمة الناجي، م. س، ص، 101.

die **Wahnsinn**) **الجنون** نفحة إلهية (**Verleugnung der Vernunft** als Tugend (als Göttlichkeit.

أما قائمة الرذائل (يُسمّيها مَخاطر، جمع خَطَر، بالألمانية "**Gefahr**") فهي على النحو التالي: **الرفاهية** خطر (die **Wohlbefinden** al Gefahr)، **الظّمأ للمعرفة** خطر (die **Wissbegierde** als Gefahr)، **السّلم** خطر (der **Friede** als Gefahr)، **الشّفقة** خطر (das **Mitleiden** als Gefahr)، أن يكون المرء **موضع شفقة** إهانة (das **Bemitleidetwerden** als Schimpf)، **العَمل** عار (die **Arbeit** als Schimpf)[324]. والقارئ المتمرّس بنصوص نيتشه يستطيع بسهولة أن يحدس إلى أي عالم يذهب تفضيله وأية سيرة مُثلى يرشحها للمجتمع المنشود.

(بآبآ)

المُؤكّد أنّ في عالم نيتشه، الذي تسود فيه القسوة والألم والكذب والانتقام ومعاداة العقل، هذا العالم المجنون، الذي يُستهان فيه بالعلم، ويُكبَتُ فيه حبّ المعرفة، لا يمكن أن يُنتج فيلسوفا واحدا. فالمجتمع الذي يتصوّره ويرغب في تحقيقه، لا حاجة له بفلاسفة ومثقفين وعلماء وباحثين، حاجته الماسّة تقتصر على خلق جبابرة قساة ومحاربين قتّالين، والعمل على انشاء مُعسكرات تدريب لتفريخ الإرهابيين.]

ورغم ذلك، وضدّ أماني نيتشه، ثمة فلاسفة، وهذه حقيقة تاريخية لا يمكن نكرانها، وثمّة أسماء عظمى، وأعمال خالدة، وتعاليم فلسفية وأنساق كبرى رسم معالمها، منذ القديم، أفلاطون وأرسطو وأبيقور وزينون الرواقي، وصولا إلى لوكراس وشيشرون وسينيكا في العالم الروماني، والفارابي وابن سينا وابن رشد في العالم العربي. كيف نفسّر إذن هذا الحدث الفكري الثقافي الجلل؟

تفسير نيتشه، مثْل تاريخه: خيالي، أسطوري، لا يرقى إلى مصاف أي تاريخ بسيط للفلسفة. في الوقتَ الذي يقول فيه أفلاطون إن مرأى الليل والنهار، وتعاقب الأشهر ودورات السنين، قد خلقت الأعداد ومَنَحتنا فكرة الزمن، وقُدرة البحث في طبيعة

324- ن. م، § 9.

الكون، ومن هذا المصدر ابتدعنا الفلسفة[325]؛ وفي الوقت الذي يرى فيه أرسطو أن التفلسف هو حاجة إنسانية مُلحّة، فإن نيتشه يرى أن الفلسفة هي مسخرة والفلاسفة كرنفال بهلوانيين.

في الألف الكبرى من الميتافيزيقا يفتتح أرسطو تاريخه للفلسفة بكلمات خالدة ومهيبة. يقول «إن كل الناس (Παντες ανθρωποι) يرغبون بطبيعتهم في المعرفة (του ειδεναι ορεγονται φυσει)». كل الناس، ودون تمييز، ما دامت لهم حواس وإدراكات، يحبون بالضرورة المعرفة. ويُرجع أرسطو بروز الفلسفة إلى ضرورة معرفية بحت، بغض النظر عن الفائدة العملية التي يمكن أن تُستمدّ منها. وأن يكون الأمر كذلك، يقول أرسطو، «فهذا واضح من خلال تاريخ الفلاسفة الأوائل، ذلك أن بسبب **الدّهشة** (**δια** το **θαυμαζειν**) شَرَع الناس، سواء الآن أو في الأزمان الأولى، في **التفلسف** (**φιλοσοφειν**)»، ثم يضيف: «لقد اندهشوا في الأصل من مشكلات بسيطة، وإثر ذلك تقدموا شيئا فشيئا، فتوصّلوا إلى طرح مشاكل أعوص، مثل ظواهر القمر والشمس والكواكب، ونشأة الكون. والإنسان الذي يتحيّر ويتعجّب يعترف بأنه لا يعلم (**αγνοειν**) ... ومن ثم، فإن الناس تفلسفوا لكي **يَهربوا** من **الجهل** (το **φευγειν** την **αγνοιαν**)، إنهم يبحثون عن المعرفة من أجل المعرفة، لا من أجل غاية نفعية[326]».

لكن مع نيتشه يجب أن ننسى هذا التحليل الرصين، لأن عالَمه المتوحّش الجنوني لا يُمكن أن يُولّد على الاطلاق شخصا له طموح معرفي، وبالتالي، لتفسير بروز الفلاسفة، اصطنع **جينيالوجيا** فضيحة بكل المقاييس.

قال: إن أقدم عرق من الرجال التأمّليّين كانوا مُحتَقَرين في مُحيطهم، وأن الفكر النظري المجرّد، ظهر في صورة مُقنّعة، بمظهر غامض وبقلب منقبض، خائف. وكيف لا يشعرون بالخوف، والمجتمع الذي ولدوا فيه، هو مجتمع العنف والحرب، لا حاجة له بمفكرين سلميّن، وإنما بمقاتلين شرسين. أنا أسرد هذه اللخبطة فقط للأمانة العلمية، دون أن أجاريه أو أستمدّ منه علما ما. إذن، في رأي نيتشه، الرجال النظريون كانوا يعيشون في جحيم، وهم المُتسبّبون في جحيمهم لأنهم انشقّوا عن الهمجية ونبذوا العنف والحرب: «إن ما كان يعرفه الرجال التّأمّليون من هدوء وتأمّل وعجز ومعاداة

325- PLATONE, Timeo, a cura di G. Reale, Rusconi, Milano 1997. Cfr., 47 A 1- B 1.

326- ARISTOTELE, Metafisica, a cura di G. Reale, Vita e Pensiero, Milano 1993., cfr., 980 a suiv.

الحرب قد جعل الناس يرتابون فيهم[327]». فماذا فعل هؤلاء المفكرون المُسَالمون؟ خدعوا الناس وموّهوا عليهم حقيقتهم، ولم يجدوا من وسيلة أمامهم للدفاع عن أنفسهم إلاّ «الإيحاء بهَيْبة مُتَعمَّدَة».

المسألة إذن تُختَزَل في مسألة كسب الهيبة في مجتمع عنيف يحتقر القاعدين، ولذلك فإن الفلاسفة بَرعوا في إعطاء وجودهم مسحة جديدة وإضفاء مَظهرهم «معنى وسندا وخلفية ليكونوا مُهابين»، لكن نيتشه كشَفَ ألاعيبهم: «إذا ما تفحّصنا الأمر عن كثب وجدنا هناك حاجة جوهرية أكثر، ألا وهي الإيحاء لأنفسهم بالهيبة والاجلال، لأنهم كانوا يجدون في أنفسهم كل أحكام القيمة الموجّهة ضدّهم، كان عليهم أن يحموا الفيلسوف فيهم من كل ريبة أو معارضة[328]».

الفلاسفة إذن، لا تُحرّكهم إرادة المعرفة، ولا حب الاطلاع، ولا الانبهار أمام مظاهر الطبيعة، كما يقول أرسطو، وإنما، في عرف نيتشه، رُعبٌ يُحارب رعبا؛ الفلاسفة، أبناء العصور المرعبة تخلّوا عن حياة العنف، قاوموا الريبة ضدهم، بوسائل مرعبة، وهذه الوسائل تتمثل في «القسوة على النفس، إهانة الذات ببراعة، وهما أهم الوسائل التي استخدمها هؤلاء المتوحّدون المتعطشون للقوة والمجددون للفكر، حين تطلّب منهم الأمر البدءَ بممارسة العنف، في قرارة أنفسهم، **على الآلهة وعلى التراث ليستطيعوا الإ يمان بالتجديد** الذي أتوا به[329]».

لقد سطّرتُ الجملة الأخيرة عن قصد، لإبراز خطورتها ومدى رَجعيّتها: نيتشه، مثل كل الرجعيين، يتّهم الفلاسفة بأنهم ملحدون ومارقون عن الدين، أي مُتمرّدون على الإله وعلى التراث، وهي تهمة كلاسيكية، راح ضحيتها سقراط. لكن نيتشه لا تهمّه الفلسفة في حد ذاتها ولا الفلاسفة، كل ما يهمه هو تسويغ جينيالوجيا الإنسان النظري، الذي كان قد اعتبره، في **مولد التراجيديا**، أكبر خطر يهدد الحضارة الغربية[330].

327- **جينيالوجيا الأخلاق**، ن. م، § 10، ص، 102.

328- ن. م، ن. ص.

329- ن. م، ن. ص.

330- وقد اتّهم سقراط بأنه أوّل من أدخل في الثقافة الغربية «نموذج الإنسان النظري (den Typus des theoretischen Menschen)». والإنسان النظري همّه الوحيد هو الكشف عن قوانين الطبيعة واكتناه حقائق الأشياء بالتعويل على الملكات العقليّة الذاتية للإنسان، وعلى فضوله النظري البحت. ولكن هذه المقاصد العلمية هي، حسب نيتشه، وَهْم صرف، نظرا إلى أن الكشف عن أسرار الطبيعة غاية بعيدة المنال، لا يمكن تحقيقها أبدا. وبالجملة فالحقيقة لا وجَود لها «لذلك فإن لسينغ، الأكثر استقامة بين رجال النظر، تجرّأ على القول بأن همّه هو البحث عن الحقيقة أكثر منه الظفر بها: وبهذا فقد كشف عن السرّ الحقيقي للعلم ... برغم أنف العلماء». نيتشه، **مولد التراجيديا**، § 15، ص، 98 99.

فالفيلسوف يطمح إلى بناء منظومة نظرية متكاملة وأفكار مُنسجمة، يرمي من ورائها إلى فهم العالم، وتنظيم شواش الاحساسات وارجاعها إلى مبادئ أولى. لكن بناء منظومة نظرية، بالنسبة لنيتشه، هو «**الرمز الموحش لتاريخ الفلاسفة على الأرض**».

لقد اضطرّ الفلاسفة، للمواصلة في العيش والتنظير، إلى اتّخاذ أقنعة متعددة، وعرضوا أنفسهم في حفلة كرنافال تنكّرية «كان على الروح الفلسفي دائما، قبل كل شيء، أن **يتنكّر ويرتدي قناع الرجال التأمليين** الذين تكوّنوا سابقا، **قناع الكهنة والسّحرة والعرّافين**، قناع **رجال الدين**، بصفة عامة، ليكون فقط ممكنا بأية كيفية كانت: لقد كان **المثل الزهدي**، ولمدة طويلة، **شرط وجود الفيلسوف**، والذي يجعله **بعيدا عن العالم**، أسلوب العيش الذي **يتنكّر للعالم ويعادي الحياة ويتقشّف ويحتقر الجسد**، والذي حافظ على نفسه إلى اليوم بحيث يُعتبر هو الموقف الفلسفي بامتياز[331]».

أنا لا أدري، هل أُوَاصلُ في عرض هذه الأفكار المُهلهلة الخيالية الفاضحة، أم لا؟ هل أستمرُّ في تعذيب نفسي واستنسخ بقَلَمي، أقوالا جنونيّة من قبيل أن أعظم العقول البشرية كانوا أناسا يتنكرون للعالم، ويُعادون الحياة ويحتقرون الجسد؟ إنها وضعيّة لا نُحسد عليها؛ شيء مؤلم للغاية أن ترى شخصا متطفّلا على الفلسفة، يهينها بهذه الطريقة ويستخرج للفلاسفة بطاقة ولادة مزوّرة. ولكن الأكثر إيلاما هو أن هذه الخزعبلات تمّ تجرّعها من طرف أتباعه، وعملوا على تعميمها على نطاق واسع، فأصبحت الشهادة المزوّرة هي الشهادة الأصلية، والشهادة الأصلية، شهادة أفلاطون وأرسطو، هي المزوّرة.

لكننا نَكْبت لبرهة استياءنا، ونواصل في عرض شهادة الميلاد المزوّرة، لكي نتمّ مهمّتنا في إيقاظ القارئ، الذي غَرَّر به حَوَاريّو النبي الكذاب، من سُباته.

الفلسفة لا يمكن أن تستمر إلاّ بحفلة تنكّرية رديئة، هذه هي قناعة نيتشه، والسبب في ذلك أنه «**لم يكن ممكنا وجودها، خلال ردح طويل من الزمن، دون مظهر زهدي يُغلّفها ودون احتقار نفسها احتقارا زهديا**[332]». ولأن هذا الكم من الاهانات لا يكفيه على ما يبدو، راح يُشغّل مَكَنَة سَبَابه الرهيبة، حتى يُمعن في إغراق الفلاسفة في الوحل، قال «ولكي أعبّر بوضوح وبشكل مجازي»، وهو في الحقيقة عبّر بوضوح

331- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، III، م. س، § 10، ص، 103.

332- **جينيالوجيا الأخلاق**، III، م. س، § 10، ص، 103.

ولكن بشكل قبيح فج شرّير، مدّعيا أن الكاهن الزاهد، يعني الفيلسوف ظهر «بمظهر **اليرقانة** الكريهة والمُعَتّمة»، ويفسّرها فتحي المسكيني بأنها «الشكل الذي يتّخذه بعض الحيوانات، من حشرات أو أسماك، حين ولادتها»، ولكنه مرّ على هذا التوصيف المشين دون أن يَلفت انتباهه على الاطلاق. وهذا مؤشر خطير على أن تعامل النيتشويين مع نيتشه هو تعامل المازوشي مع السادي: فالرجل يهينهم ويجلدهم ويصفهم بأنهم حشرات قميئة، وهم يتقبّلون ذلك بكلّ سلبية، بل بكل غبطة يتلذذون، ويطأطئون الرأس: السّمع والطاعة يا مولانا؛ زِدْنا! كم أنت رحيم! كم أنت عطوف!

ولا تنطبق هذه المواصفات على القدماء فحسب، بل أيضا على المحدثين من الفلاسفة، لأن الظروف السانحة لبروز الفيلسوف الحق، الفيلسوف المحارب كما يريده نيتشه، لم تتوفّر بعد. ونيتشه يشك في توفّرها، لأن اليرقانة (الفيلسوف)، ذلك «الحيوان الأبرش المحفوف بالمهالك ... تلك الروح التي ضمّتها تلك اليرقانة بين جنباتها»، لم تفلح بعد «بفضل عالم مُشمس أشد دفئا وأصفى إنارة، في أن تنزع أخيرا ثوب الراهب وأن تخرج إلى النور[333]». أما المحيط الاجتماعي الحالي فهو أيضا يخلو من هذه الشروط التي بدونها لن يبرز صنف الفيلسوف المنتظر، والشروط هي كالتالي: «كبرياء، وجرأة وبسالة وطمأنينة وإرادة روحية وإرادة مسؤولة وحرية إرادة». كل هذه الظروف ما تزال مفقودة، وبالتالي فإن الفيلسوف الحق مفقود مفقود يا ولدي.

(تآتآ)

مع نيتشه نحن في بؤرة التخمينات المُتوحشة، مُعلّقون في عالم السّفاسف والأكاذيب والتزوير الفاضح للتاريخ، والذي كان من المفروض أن ينتهي مع انتهاء صاحبه لكن، ضدّ كل التوقعات، كُتب له التواصل والدوام، على أيدي حواريّين لا تعزّ عليهم الفلسفة.]

افتحوا أي كتاب تاريخ، أي كتاب فلسفة، فلن تجدوا قطرة واحدة من هذه التخمينات المستهترة. إن أعظم انتاج بشري على الاطلاق، ولا نقول هذا من باب

333- من ترجمة فتحي المسكيني، م. س، ص، 160. أما ترجمة الناجي (ص، 103) فقد جاءت على النحو التالي: «هل تغيّرت الأمور حقا؟ هل استطاع العقل الذي كانت تغلفه الشرنقة، هذه الحشرة المجنّحة الخطيرة المبرقشة، بفضل عالم مشمس وأكثر حرارة وضياء، أن يتخلّص من الشرنقة ويعانق النور».

المدح أو الانبهار السلبي، هو بروز الفلسفة في بلاد اليونان. إنه حدث غير مسبوق في كل حضارات العالم العروفة آنذاك والتي كانت غاية أفكارها هي أساطير الخلق اللاعقلانية. لكن نخبة الفلاسفة الإغريق تجاوزوا هذا العالم الميتولوجي، يكتب هنري فرانكفورت، وتمكّنوا «بشجاعتهم الذهنية المتميّزة، أن يكتشفوا نمطا للفكر التأملي تمّت له الغلبة النهائية على الأسطورة[334]». وعلى عكس ما يقوله نيتشه، فإن الفلاسفة اليونانيين الأوائل، كما يرى فرانكفورت، كانوا لا مُبالين بالوظيفة الهيراركية للكهنة، ولم يكونوا نُسّاكا أو مقطوعين عن الحياة العامة. إذ أن طاليس كان مهندسا وسياسيا، وأنكسيمندر كان جغرافيا، وثمة شهادة لشيشرون من كتاب الجمهورية يقول فيها: «لو تأملتم لرأيتم أن الذين يدعوهم الإغريق **بالحكماء السبعة كانوا كلهم تقريبا أناسا اشتغلوا في الحياة العامة** (في الجمهورية، 1: 7)»، ويعلّق فرانكفورت أن هؤلاء الرجال، بعكس كهان الشرق الأدنى، لم تعهد إليهم مجتمعاتهم بالانقطاع إلى الشؤون الروحية دون غيرها «**لقد كان الدافع فيهم نزعتهم إلى فهم الطبيعة، ولم يتردّدوا في نشر مكتشفاتهم وإن لم يكونوا أنبياء محترفين، واستطلاعهم نشيط دؤوب لا تَعوقه العقائد التي ترفض الجدل**[335]».

فلنتفكّر لِبُرهة في ما كان سيكون عليه حال العالم لو لم يبرز هؤلاء الرجال، ولم يقوموا بهذا الانقلاب الروحي العظيم، ولم يهتمّوا بالبحث في الطبيعة خارج قوالب الأساطير الدينية، وبعيدا عن دائرة الكهنة. إن تغيير وجهة النظر هذه، يقول فرانكفورت، لهو «أمر رائع، لأن معناه تحويل مشكلات الإنسان في الطبيعة من صعيد الإيمان والحدس الشعري، إلى المجال العقلي. لقد أصبح في الإمكان تقييم النظريات تقييما نقديّا، وبالتالي البحث المستمرّ في طبيعة الحقيقة والواقع. فالأسطورة التي تدور حول تناسل الآلهة لا يُطالها النقاش أو الجدل، لأنها تصف سياقا من الأحداث المقدسة، وللمرء أن يقبل ذلك الوصف أو يرفضه. لكن نسَبَ الآلهة لا يمكن أن يصبح جزءا من عمليّة ازدياد المعرفة وتراكمها وتقدّمها. إن الأسطورة ... تُطالب بالاعتراف من المؤمن، لا بالتبرير إزاء الناقد المُتشكّك[336]».

334- فرانكفورت، ولسن، جاكسون، **ما قبل الفلسفة**، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، منشورات دار مكتبة الحياة فرع بغداد، [د. ت]، ص، 274.

335- ن. م، ص، 278.

336- ن. م، ن. ص.

إنّ تنظيرات الفلاسفة حول المبدأ الأوّل، يُشترط فيها الفهم، قبل كل شيء، وهي قابلة للتحليل، أو التعديل، أو التصحيح، أي أنها باختصار «**عُرضة لتحكيم العقل**[337]». لقد انطلق الفلاسفة اليونانيون الأوائل، بجُرأة نادرة، من فَرَضية أن «الكون «كلٌّ» قابل للفهم. وبعبارة أخرى، افترضوا أن وراء الفوضى من ادراكاتنا نظاما واحدا، وأننا علاوة على ذلك نستطيع فهم ذلك النظام[338]». فرانكفورت لا يملّ من التذكير بهذا الأمر، والقول إن «كثيرا ما تغيب عن الباحثين شجاعة اليونانيين التأملية». ومَن أكثر مِن نيتشه أساء فهم شجاعة التأمل اليوناني؟ فالرجل مفتون فقط بعصر ما قبل هوميروس، بعصر العنف والبربرية.

والحال أن هذا الضّرب من الجدل عند الفلاسفة اليونانيين، ليس له «أيّ سابق في أي قُطر آخر. وفيه أصالة مزدوجة، على حد قول كرانفورد، فقد «تجاهلوا بجرأة عجيبة ما في التمثّل الديني من حَظر وتَقديس». ومزيّته الثانية هي التماسك العميق... وهاتان المَزِيّتان تَدلاّن على اعترافٍ ضمني باستقلال الفكر بذاته[339]».

إن الفلسفة المادية عبر تاريخها لم تتجاوز إلى اليوم قولة هرقليطس الرائعة، التي قضتْ على عبثيّة التفاسير الدينية للكون وأزاحت أساطير الآلهة الخالقة من الوجود: «**هذا العالم الذي هو دوما ذاته للجميع، لم يَصنعه قط أحدٌ من الآلهة أو البشر. لقد كان حتى الآن وسوف يبقى إلى الأبد نارا حيّة لا تخمد، بها مقادير تَشتَعل، ومقادير تنطفئ**».

إنّ ما يَهمّنا، نحن العرب، من الفلاسفة اليونانيين الأوائل، الذين مَرَّغ نيتشه كرامتهم في التراب، هو ما لم يَقُلْه ولم يعترف به، ولكنه حاضر ومتميّز في فلسفتهم، أعني هذا التوجّه نحو العقل، وهذا الاستقلال عن القدسيات الدينية وتجاهل محظوراتها.

نيتشه، يبدو وكأنه يناهض المثال الزهدي، ويتحدّى الكاهن المعادي للحياة، وقد جدّت هذه التخريجة على أتباعه واعتبروها كسبا فلسفيا خلّصهم نهائيا من المعبد والكاهن. لكن هذا خطأ جسيم، لأن نيتشه يُهاجم العقلانية، ويجعل من العلم عدوّه الأكبر، الذي يخبو أمامه أي كاهن وأية كنيسة؛ همّه هو طحن الفيلسوف وسحب

337- ن. م، ن. ص.

338- ن. م، ن. ص.

339- ن. م، ص، 281.

البساط من تحت العلماء. فهو لا يريد أن يعرف شيئا عن المفاهيم المجرّدة، ولا عن بناء نسق أخلاقي موجّه أو مبادئ شاملة، كل ما يريده هو «علم» هلامي، لا يصل فيه صاحبه إلى أي نتيجة، ولا يقوم على أية قاعدة معقولة. يُسمّي المجهود النظري، والمفاهيم الفلسفية «خرافات مفهومية[340]»، وينصح باتقائها والابتعاد عنها «لنَقي أنفسنا، سادتي الفلاسفة، من خطر تلك الخرافات المفهومية القديمة». ومن بين هذه الخرافات المفهومية، مفهوم «الكوجيطو»، الأنا أفكّر الديكارتي المتعالي على الزمان والمكان. لكن بالنسبة لنيتشه وهو هنا لم يأتِ بجديد وإنما ينقل أفكارا قديمة، ويستنسخ بعض الانتقادات على الكوجيطو الواردة في تواريخ الفلسفة (لانغ، كونو فيشر، أوبِرْفاغ) الأنا المتعالي، هو «ذاتٌ معرفيّة محضة، غريبة عن الزمان، بلا إرادة ولا ألم».

لكن هذا هو غرض ديكارت بالتحديد: بناء معرفة علمية على أسس موضوعية صحيحة، وتسير بحسب قواعد منهجية محددة، وأفكار واضحة ومتميّزة، ولا يحصل هذا الأمر إلاّ بالتّعالي على الأهواء الشخصية المتقلّبة والآراء الاعتباطية.

نيتشه يطرح كبديل على التجريد النظري، والعقل المحض والمعرفة في ذاتها، وهي الركائز الدائمة لكل نشاط فلسفي، العين المجرّدة، يعني حاسة البصر، والتي، كما هو معلوم، مهما كانت قوّتها فإنها غير قادرة على أن تجعلنا نرى حجم الأشياء وأبعادها ومسافاتها بدقّة، وككل الحواس فهي محدودة وتحتاج بالتالي إلى آلات قياس. يريد منّا أن نقتصر فقد على العين المجردة، وأن نَنبذ آلات القياس التي تساعدنا على كشف الأشياء كما هي، لأنه مقتنع بأنْ «ليس ثمة سوى رؤية مَنظوريّة، سوى معرفة مَنظورية[341]». لكن هذا المنظور الذاتي النسبي، مناقض تماما لمنظور النشاط العلمي المتعالي على الذوات الامبيريقية، والذي يُعنَى أساسا باكتشاف قوانين موضوعية شاملة، مقبولة لكل العقول المفكرة.

«المنظوريّة» هي إقحام الإرادة والاعتباط والأهواء الذاتية في البحث العلمي، يعني سحب مشروعية العلم والقضاء على شموليّته بالكامل. وهذا ما يرغب فيه نيتشه، أي على حد قوله «كلّما دخلت حالتنا العاطفية في علاقة مع شيء ما كلّما

340- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، م. س، III، § 11، ص، 164. (ترجمة فتحي المسكيني).
341- ن. م، ن. ص.

أبصرنا ذلك الشيء بعيون مختلفة، واكتمل «مفهومنا» له، وكذلك موضوعيّتنا[342]».
الخطر إذن ليس في استبعاد الأهواء الشخصية من مقاربة الواقع، كما يتطلّب المنهج العلمي الصحيح، وإنما الخطر في عكس ذلك: «أمّا أن نحذف الإرادة بعامّة، وأن نُعلّق العواطف جملة وتفصيلا ... ألاّ يكون ذلك **إخصاء للعقل**؟[343]».

لا يخفى على أحد مدى خطورة هذه الأطروحة السفسطائية (لأننا نجد مثيلاتها عند السفسطائيين القدامى) على البحث العلمي ومدى استخفافها بجهود العلماء، ومع ذلك فإن فتحي المسكيني، مترجم هذا العمل، أردفها بتوضيح يدعّم فيه رأي نيتشه، حيث كتب إنّ «كلّ نَبْذ للعاطفة هو حسب نيتشه إخصاء للعقل: لأن العواطف والانفعالات هي فحولة الغرائز التي تعمل بشكل لا واع في أعماق كل إرادة اقتدار، بما في ذلك في صلب العقل نفسه[344]». المسألة إذن ليست تكمن في انقاذ الموضوعية العلمية من اعتباطية الإرادة، ولا في تطهيريها من العواطف الشخصية وإنما في إنقاذ فحولة الغرائز، والمحافظة على متانة وصفاء إرادة الاقتدار. ومن هنا فإن نيتشه، الكاره للعقل، تحوّل في يد المسكيني إلى فيلسوف بريء «لا يَنبُذ العقل إلاّ أنه يكشف عن ماضيه النّسكي وتورّطه الدّفين في تربة المثل العليا التنسّكية[345]».

(ثآثآ)

العلم والفلسفة والفن والد يمقراطية والسلام والاشتراكية هي كلها أعراض مَرَضيّة للحضارة الغربية الحديثة. والعرض الأخطر هو المثال الزّهدي، الذي وضَعَ تحته نيتشه كل التعابير الثقافية، والإنتاجات الروحية للحداثة.]

ومن هنا شنّ حملة على الزهد، وقال فيه كل ما استطاع أن يفرزه دماغه من ألفاظ قبيحة، ولكن مَرْمَاه الحقيقي هو الحداثة بكل ما تحمله من علوم صحيحة وتنوير وإلحاد. ولكي يفهم القارئ هذا الهجوم ويمسك بالنقطة المحورية، يجب أن يتجاوز خصوص اللّفظ، ويذهب إلى المعنى الكلي المقصود، مع ربطه بمواقفه الأخرى. إذا قرأتم هذا الحكم: المثال الزهدي يُولَد من غريزة الحماية والسلامة التي تحدو حياةً في طريقها

342- ن. م، ص، 106. (ترجمة محمد الناجي).
343- ن. م، ص، 164. (ترجمة فتحي المسكيني).
344- ن. م، ن. ص، ملاحظة 10.
345- ن. م، ن. ص.

إلى الإنقراض، تسعى إلى البقاء بكل الوسائل وتُصارع من أجل وجودها[346]، فَرُدّوه إلى المواضع التي يتهجّم فيها على العقلانية السقراطية وعلى الفلاسفة عموما، حيث يتهمهم بأنهم تَعِبوا من الحياة فاصطنعوا المنطق والجدل كتعويض نفساني على فشلهم. وإطاره المرجعي في هذا الحكم، هو عالم الأبطال الدمويين، الذين كانوا لا يفكّرون وإنما يحاربون، فيقتلون ويُقتلون.

إذا كانت البشرية الحديثة، العالمة، العقلانية، التنويرية، المتفائلة، الملحدة، هي مستشفى أمراض مُعْدِيَة، وبؤرة يسكنها أشرار مَوْبُوؤون، أعداء الحياة، فالحل هو القضاء عليهم جميعا، لإبقاء الحالات النادرة جدا من العُظماء، أي المحافظة على «ذوي القوّة النفسية والجسدية، على من هم ضرِبات حظّ موفقة ضمن الجنس البشري، وأن نحفظ الموفّقين بحزم من الجو المرضي الموبوء[347]». فالمرضى يُمثلون «أكبر خَطر يُهدّد الأصحاء»، وتعاسة الأقوياء «لا تأتي ممّن هم أقوى منهم، بل ممّن هم أضعف منهم[348]». لقد ذهب المثل الزهدي في حاله وعاد إلى كرهه الشديد للمرضى، وهذا أمر جد غريب إذا علمنا أنه هو نفسه قضّى نصف حياته مريضا، يتأوّه باستمرار ويُرسل رسائل إلى أصدقائه ليُخبرهم بأنه مكث أسبوعا كاملا جاثما على الفراش دون حراك.

أمام هذا التعجرف المصعّد إلى القمة انتفض أحد معاصريه، وقال إن شخصا يعيش «في عزلة لا إرادية، لم يعرف أبدا الحياة والإنسان، رجل كان مريضا تماما، غير قادر على تأدية أبسط مهَن الحياة، وقد عاش بالأساس على تقاعد عُجّز وفّرته له الدولة، مُتهرّبا من جميع الواجبات التي تفرضها الحياة على الناس المعافين العاديّين، من جميع الواجبات إزاء الأسرة والمجتمع ، والدولة، لأنه كان مريضا وغير قادر على تحقيقها: مثل هذا الرجل ينتصب للحكم على أوروبّيي القرن التاسع عشر![349]».

346- ن. م، III، § 13، ص، 164. (ترجمة فتحي المسكيني).

347- ن. م، III، § 14، ص، 108. (ترجمة محمد الناجي).

348- ن. م، ن. ص.

349- Cfr., A. Düringer, Nietzsches Philosophie und das heutige Christentum, Verlag von Veit, Leipzig 1907, p. 82. „Nietzsche, ein Mann, der in seiner unfreiwilligen Einsamkeit das Leben und die Menschen niemals recht kennen gelernt hat, ein Mann, der durch und durch krank war, der unfähig war, den einfachsten Lebensberuf zu erfüllen, und auf Grund einer Invaliden Pension vom Staate lebte, ein Mann, der sich allen Pflichten die das Leben einem gesunden und normalen Menschen auferlegt, allen Pflichten gegen die Familie, gegen die Gesellschaft, gegen den Staat entzog, entziehen mußte, weil er zu ihren Erfüllung zu kränklich war – ein solcher Mann urteilt über die Europäer des XIX. Jahrhunderts".

لكن هذا الرجل الذي يعيش كالشبح لم يحكم على قرنه فحسب، بل حَكَم على القرون السابقة، وتنبّأ حتى بما سيحدث في القرون التالية. ورغم تحوّله إلى نبيّ عرّاف، بقي همّه الأكبر المرضى، ويصرّح، دون أن يتفطّن إلى أنه يدين نفسه، أن أكثر الأجواء سُوءًا هو جوّ المرضى، وأنهم أكبر خطر يهدد الأصحاء، وأنّ على الأقوياء أن يكونوا مُرعبين إزاءهم.

وهذه الأماني القاسية، مازالت لم تتحقق بعد، لأن تجربته الشخصية وتسكّعه في البلاد الأوروبية جعلته يتفطّن إلى أن واقع الحال يسير على عكس ما يرغب فيه: «ففي كل مكان يذهب إليه ثمة أجواء المستشفى ومأوى المجانين، أتحدّث بالطبع عن المناطق المتحضّرة، عن كل أشكال أوروبا التي تعرفها الأرض اليوم». ومُجدّدا، يعود إلى نفس المعزوفة، ولكن بأكثر سادية: «**إن المرضى هم أكبر خطر يُهدّد الإنسان، وليس الأشرار أو الحيوانات المفترسة**»، ومع المرضى ثمة طبقة اجتماعية واسعة، هي أيضا تمثل خطرا كبيرا على الأقوياء: «**الفاشلون والمهزومون وذوو العاهات والضعفاء جدا هم الذين يُلغّمون الحياة ويُسَمِّمون ثِقَتنا فيها وفي الإنسان وفي أنفسنا ويضعونها موضع سؤال كبير**[350]».

لا يكفيه تِعْدَادهم، يجب أن يذهب بالقسوة إلى مداها الأقصى، أن يَشمت ويستهزئ ويسحق هذه الطبقة. فهو يشعر بالضيم والقهر من وجود هؤلاء الناس ويتساءل في حيرة: «كيف السبيل إلى الإفلات من تلك النظرة المشؤومة التي تقذف بك في كآبة عميقة؟ تلك النظرة الحسيرة التي تراها لدى الذي وُلد مُشوّها منذ البداية... تلك النظرة التي هي ضرب من التّحسّر: «هل يمكنني أن أكون أيّ شخص آخر؟ هكذا تتحسّر هذه النظرة: ولكن لا يوجد أدنى أمل في ذلك. أنا هو أنا: كيف أتخلّص من نفسي؟ والحال أنني قد سئمتُ نفسي»[351]».

هذا الخطاب المرعب لا يستعطف قلبَ نيتشه، بل يثير فيه نوعا من السخرية ويصف قائلها بأنه طفيلي مسموم: «على هذه الأرض المُستنقَعة، أرض احتقار الذات، تَنبت هذه **العشبة الطفيلية**، هذه النبتة **المسمومة**، صغيرة، **مختبئة**، ماكرة ومتظاهرة

350- ن. م، ن. ص.

351- ن. م، ص، 168. (ترجمة فتحي المسكيني).

باللطف[352]». وليس هذا فقط بل ثمة رائحة المؤامرة في هذا الاستعطاف «هنا يتم بلا هوادة حبك خيوط مؤامرة ماكرة، مؤامرة المرضى ضدّ المُوَفّقين والظافرين، هنا يتمّ بُغض حتى مظهر المُنتصر»، وثمة الكذب أيضا «كم يكذبون حتى لا يقرّوا بهذا البُغْض كبُغض!»، والفصاحة الماكرة «كم ينفقون من الكلمات الرنانة ومن المواقف، يا له من فنّ الافتراء الصريح! أيّ سيل من الفصاحة الرفيعة يجري على شفاههم! يا للخضوع اللطيف والمعسول والمجامل الذي يبدو في عيونهم الزجاجيّة![353]».

وفي نهاية المطاف، ماذا يريد أفراد هذه الطبقة؟ إجابة نيتشه، وهو يقصد طبقة البروليتاريا، والحركة الاشتراكية وزعماءها ومُنظريها، جمّعهم في سلّة واحدة وألقى عليهم هذا الشلال من الشتائم: «طموح هؤلاء السفلة وهؤلاء المرضى هو أن **يُمثّلوا** العدل والحب والحكمة والتفوّق ... لقد بات مؤكدا أن هؤلاء الضعفاء والمصابون بأمراض مُزمنة قد استأجروا الفضيلة الآن: «نحن وحدنا الصالحون، وحدنا العادلون، يصيحون، نحن وحدنا أصحاب النيّة الحسنة»[354]».

هذا المقطع الدنيء ترجمه فتحي المسكيني على النحو التالي: «يا لهؤلاء الفاشلين... ماذا يريدون؟ على الأقلّ أن يُمثّلوا العدالة والمحبة والحكمة والتفوّق هذا هو مطمح هؤلاء الأسافل، هؤلاء المرضى ... لقد استأثروا بالفضيلة لأنفسهم وجعلوها حكرا عليهم، أولاء الضعفاء والمرضى بلا شفاء، ليس في ذلك من شك: «نحن وحدنا الخيّرون وأهل العدل، كذا يتقوّلون، نحن وحدنا الـ(homines bonae voluntatis)"[355]».

لا تَهُمّنا الترجمة في حد ذاتها، فمحتوى النص في كلتا الحالتين واضح، ما يَهمّنا بالدرجة الأولى هو التّعليق الذي وضعه المسكيني في أسفل الصفحة. أمام هذا السيل من الشتائم والاستهانة المرّة، انتقى فقط كلمة "التمثّل" و "التمثيل"، غاضّا الطرف عن وَصْف مجموعة من الناس بأنهم "سَفلة"؛ لم تستفزّه إهانته للضعفاء والمرضى، ولم يتساءل عن مشروعية تسطير مثل هذه العبارات القاسية في كتاب فلسفي؛ كل هذا لم يَلفت انتباهه وإنما أخذ يتفلسف على كلمة **تمثيل**، فقال أشياء غريبة حقا. قال إن التمثيل «**هو ما يُميّز عالم العبيد**[356]».

352- ن. م، ص، 109. (ترجمة الناجي).
353- ن. م، ن. ص.
354- ن. م، ن. ص.
355- ن. م، ص، 169. (ترجمة المسكيني).
356- ن. م، ملاحظة (1). ص، 169.

أليس غريبا هذا القول؟ العبيد مُثلون! هل الفتيات المَسْبيات من طرف داعش يَلعبْن دور المُمثلات؟ أنا لا أفهم النيتشويين، أموت وأدخل في أدمغتهم كي أعرف ميكانيزمات تفكيرهم. أين رأى المسكيني عالم العبيد؟ في أي مكان من الدنيا؟ وما هي مواصفاته؟ فالرجل يتكلّم عن عالم العبيد وكأنه رآه أو عايشه، يقول إن «المثل الأعلى النّسكي هو آخر حلقة في تخلّق الأخلاق على الأرض حيث **يُصبح العبيد** هم الذين **يُمثّلون العدالة** على الأرض». وهكذا عدنا إلى نقطة الصفر: العبيد يُمثلون؛ العبيد يقومون بمسرحية أمام العالم يؤدّون فيها دور العدالة. المسألة الاجتماعية هي مسألة **تمثيل**، وفقط تمثيل: «الضعيف لا يَصنع إرادة الاقتدار بل يريد أن يُمثّلها بأيّ شكل اتّفق». وأخيرا **التّمثيل** هو أمّ الخبائث: «**التمثيل** هو نمط من **تزييف القيم**: أن يُصبح "الضعيف" مقياسا للفضيلة وللجَوْدَة. ويصبح تُهمة "للأقوياء". تمثيل إرادة الحقيقة يُسمّم الفلسفة، كما أن المثل الأعلى النّسكي يُسمّم الحياة بقِيَم العبودية[357]». أنا أتساءل ماذا يُغيّر من معنى الجملة وضع كلمة ضعيف وقوي بين ظَفرين؟ هل من شأن الظفرين أن يُخفّفا من حدة وقسوة أفكار نيتشه؟

الطبقة الشغيلة، والحركات الاشتراكية، مطالبها واضحة، وأهدافها مُعلنة وبرامجها مدوّنة في أدبيّاتها وهي في متناول الجميع، لكن نيتشه، يهرب من المشكلة الاجتماعية ويُلقي بالمسألة في مجال الأخلاق وأحيانا يختزلها في ميدان الصحة الجسدية أو في مشاعر الحسد. الضعفاء يُعاتبون الأقوياء، يُعيّرونهم لقوّتهم وتفوّقهم «وكأنهم يريدون إنذارنا، وكأن الصحة والصلابة والقوّة والإباء والاحساس بالقوة مجرد نقائص يجب التكفير عنها بمرارة[358]». لكن الحقيقة، بالنسبة إليه، هي شيء آخر «الحقيقة هي أنهم مستعدّون لجعل غيرهم يُكفّر عن هذا، إنهم مُتلهّفون لِلَعب دور الجلاّد. يوجد بينهم عدد من مُحبّي الانتقام مُتنكّرين في زيّ القضاة[359]».

نيتشه لا يتكلّم في العموميّات، لا يقصد أشخاصا مجهولين، هو يقصد بالتحديد الحركة الاشتراكية، يُسيء إلى رموزها ويتهكّم على برامجها الاجتماعية، وفي هذا الشأن فهو ينضمّ إلى سلطة بيزمارك (Bismark) الذي اضطهد الاشتراكيين وضيّق عليهم الخناق. والدليل على ذلك أنه بعد السّيل من الإدانة المَبْنيّة للمجهول يبرز

357- ن. م، ن. ص.

358- ن. م، ص، 109. (ترجمة الناجي).

359- ن. م، ن. ص.

الأشخاص والأحزاب المَعْنيّون، دون ذكرهم بالاسم لكن يمكن بسهولة معرفتهم. الطبقة الشغيلة المستَغَلّة، وقادتها الاشتراكيون «في فَمِهم لُعاب مسموم يُسمّونه "عدالة"، وهم دوما على استعداد ليَبْصقوه على كل من لا يبدو مستاء ومن يسير في طريقه لا يُثقِلُ كاهله أيّ همّ[360]».

وأنا لم أختلقْ شيئا بقولي إن نيتشه هو فيلسوف السلطة ومُوال لها، وأنه اشتَغَل كَبُوق دعاية للبورجوازية الاستغلالية في عصره، وإنما فوكو هو الذي اختلق وتجنّى، بقوله إن نيتشه هو فيلسوف ناقد للسلطة. لقد تفطّن لذلك كاتب انجليزي من عشرينات القرن الماضي وقال إن نيتشه انضم إلى فريق الاكليروس ضد الاشتراكيين، وإلى حشد المثقفين الذين صنعهم بيزمارك لمحاربتهم. إذ أن المستشار الحديدي كان يمنح حرية التعبير لمن يسارع بالانضواء تحت مظلّته، ويسحب هذه الحرية من كل معارضي سياسته من الاشتراكيين[361].

إن نيتشه وصل إلى حد المهزلة في النصائح التي أسداها إلى البرجوازية لحل المشكلة العمالية، ومحاربة الاشتراكية. واحدة من نصائحه العجيبة هي أنّ على البرجوازية أنْ تُخفي ثراءها عن أعين الفقراء وتتظاهر بالفقر، كي لا تثير حَسَدهم: «إن **الوسيلة الوحيدة** (das **einzige Mittel**) التي لا يزال في مقدوركم استعمالها ضد الاشتراكية (gegen den Socialismus) هي **عدم إثارتها**، أي أن تَحيوا أنتم حياة قناعة وتواضع، أن تبذلوا قصارى جهدكم **لمنع اظهار الغنى** ... إن أردتم هزم أعداء رفاهيّتكم فابدؤوا أولا بهزم أنفسكم ولو أن تلك الرفاهية كانت رغد عيش حقيقي لما كانت ظاهرية للغاية، لما أثارت الحسد [...] تلك هي الجراثيم التي تَنشر سمّ ذلك المرض المتفشّي وسط الشعب والذي يُعْدي الجماهير بسرعة متزايدة متخذا شكل جَرَب اشتراكيّ يصيب القلب، وتُعتَبرون أنتم أصله وموطنه. فمن سيُقف الآن زحف هذاً الطاعون؟[362]».

وكيف لا يحقد على الاشتراكيّين بهذه الصيغة ولا يعتبرهم طاعونا، وقد مَوْقعوا الصراع الاجتماعي بين مُستغلّين ومُستَغَلّين، بين بورجوازيين وبروليتاريين، بينما

360- ن. م، ن. ص.

361- H.L. Stewart, Nietzsche and the ideals of modern Germany, Edward Arnold, London 1915, p. 169.

362- نيتشه، **العلم المرح**، 304 § .II، ص، 92.

نيتشه، مثل كل الرجعيين المُوالين للنظام الرأسمالي الاستغلالي، يُخرج القضية من سياقها الصحيح، يُوقعها في مجال الطبّ، ويختزلها إلى صراع بين مرضى وإصحّاء. فالمرضى هم أعدى أعدائه، ولا يكلّ من تسليط وابل سُخطه عليهم، وانتقاء الألفاظ الأكثر إهانة وتحقيرا، من قبيل: «تؤدّي إرادةُ المرضى تمثيلَ التفوّق تحت أيّ شكل، وكذلك مَوهبتُهم في اكتشاف الطرق الملتوية، إلى الاستبداد بالأصحّاء، وهي إرادة السلطة التي تُميّز الضعفاء[363]».

أما إذا كان ثمة امرأة ومريضة في نفس الوقت، فهذا الكائن المشوّه يتحوّل إلى شيطان في صورة إنسان: «المرأة المريضة بالخصوص: لا أحد يفوقها تَفنّنا في السيطرة والقمع والاستبداد»؛ نَبّاشة قبور، دراكولا مصّاص دماء، المرأة المريضة كارثة أنثربولوجية بأتم معنى الكلمة «فهي لا تُراعي الأحياء ولا **الأموات**، إنها تنبش كل مدفون في عُمق الأرض (المرأة ضبع)[364]».

(جاّجاّ)

في ما يخص المسألة الاجتماعية، فيلسوفنا يعتبر الصراع الطبقي غير موجود، وإنما ثمة مرضى وأصحاء، يتنازعون القوّة. والغريب في الأمر أن هذا التشويه المريع، يعرضه في كتبه بكل جدية، ويُتَقبّل من طرف أحبّائه على أنه حقيقة باهرة.]

هذا الشخص الذي يعيش في الظل، كارها للبشر، أصبح مراقبا يقظا لكل ما يحيط به، ومنه استنتج أن صراع البشرية هو دائما صراع بين المرضى والأصحاء: «لنُلق نظرة على ما يجري داخل كلّ الأسَر والهيئات والجماعات: هناك في كل مكان صَراع بين المرضى والأصحّاء، وهو صراع خفي في معظم الحالات، صراع بواسطة مساحيق صغيرة مسمومة، بوخزات الدبابيس، بالتمثيل الإيمائي لشهداء مزيّفين، وأحيانا بمساعدة النفاق المَرَضي الذي يلعب طواعية دور "السخط النبيل" أثناء مواقفهم الصاخبة[365]».

363- ن. م، ص، 110.

364- ن. م، ن. ص. نيتشه ينسب قولة «المرأة ضبع » إلى قبيلة البوغو، وهي تتماشى كليّا مع نظرته للمرأة.

365- ن. م، ن. ص.

أما إذا اقترب الاشتراكيون من العلم لتأسيس مذهبهم والبرهنة على صدقية أطروحاتهم، فإنهم يصبحون كلابا نابحة. وأكبر هذه الكلاب نبحا، في رأي نيتشه، هو دوهرينغ، الذي يريد «حتى في المجال العلمي المُقدّس أن يُسمِع صوت نباح هذه الكلاب المريضة الأجشّ والساخط ... (أذكّر القراء الذين لهم آذان يسمعون بها بذلك البرْليني، رسول الانتقام، يوجين دوهرينغ الذي استعمل، أكبر متشدّق بالأخلاق بأكَثر الطرق بذاءة وإثارة للاشمئزاز، دوهرينغ أكبر مُتشدّق أخلاقي في هذا العصر)».

لكن تبقى السمة المميزة للصراع داخل المجتمع الغربي قارة وثابة: مرضى ضد أصحاء، ولا شيء غير هذا. ومَن يقول مثل انجلس أو ماركس أن الصراع الحقيقي هو بين طبقات اجتماعية وليس بين أصناف قارة من البشر، فهو مُزوِّر مريض حاقد، وبالتالي، فإن هذا الذي يعيب على دوهرينغ، استعماله أكثر الطرق بذاءة وإثارة للاشمئزاز، يستعمل في حق الاشتراكيين كلمات أكثر بذاءة وإثارة للاشمئزاز: «**هؤلاء المُشوَّهون فيزيولوجيا** وذوو العاهات، كلهم حاقدون، إنهم يرتعشون من الانتقام الخفيّ، غليلهم لا يُشفى وتفجّراتهم في وجه السعداء لا حصر لها، إنهم بارعون في إلباس الانتقام الأقنعة وفي إيجاد الذرائع للقيام بالانتقام[366]».

لكن الضعفاء (البروليتاريا)، يطالبون بحقوقهم وحرياتهم، يريدون رفع الاستغلال عنهم، واعتبارهم آدميّين لا مُجرّد آلات متنفّسة، نيتشه يجيب: خسئتم أنتم ومطالبكم. لن تمرّوا، لن يتحقق لانتقامكم نصر نهائي. أتدرون متى يتحقق نصركم، لا سمح الله؟ إذا نجحتُم في «جعل السعداء يشعرون بتعاسة الحاقدين وبكل التعاسات الأخرى، بحيث يشعرون يوما بالخجل من سعادتهم ويقول بعضهم لبعض: "علينا أن نخجل من كوننا سعداء وسَطَ هذا الكمّ الهائل من التعاسات"».

هذه الخواطر التي قد تنتاب الأقوياء، ستكون بالنسبة لنيتشه، الكارثة الكبرى عليهم. فعلا، أي خطأ أفدح وأشد خطورة «من ذاك الذي يرتكبه السعداء والموفّقون والأقوياء روحا وبدنا حين يَشُكّون في حقّهم في السعادة![367]». الحل هو تجاهل الضعفاء، دحرهم وسحقهم، وهذه هي وجهة النظر الراقية التي يجب أن تقول لعَالَم المساواة والأخوة والإنسانية: «إلى الوراء "أيها العالم المقلوب!". إلى الوراء يا إضعاف الإحساس المُخجل! لا يُصيبنّ المرضى الأصحّاءَ بالعدوى».

366- ن. م، ن. ص.

367- ن. م، ن. ص.

بعد هذه الشّطحات الهستيرية ساح في التجريح والتهكم والتنكيل بالمرضى، وقال أشياء قبيحة وشرّيرة جدا، من بينها أن العنصر الأعلى لا يجب عليه أن يتدنّى لكي يخدم العنصر الأدنى؛ الأصحاء فقط لديهم الحق في العيش الكريم، وهم وحدهم المسؤولون عن الإنسانية مستقبلا. لا يجب على الأقوياء أن يمارسوا مهنة الطب، أو ينشغلوا بمُوَاساة أو إنقاذ المرضى. الأقوياء الأصحاء عليهم أن يتجنّبوا، أقصى جهدهم، العيش بجوار مستشفيات المجانين. أن يكتب شخص، قضّى آخر حياته في مستشفى مجانين، أشياء من هذا القبيل فهذا مؤشر على أن الرجل في ذهنه لوثة: «انأوا بأنفسكم عن الأبخرة الكريهة للفساد الباطني **والدّود الخفيّ الذي يأكل المَرضى!**».

اللعبة دائما هي هي: يهجم على فكرة أو أشخاص ولكنه يقصد آخرين. يهجم على الكاهن الزاهد، ولكن غرضه الرئيسي هو الأطباء والممرضين. القاعدة العامّة هي هذه: «**ليس من واجب الأصحّاء الاعتناء بالمرضى ومعالجتهم**[368]». كلام لا إنساني صادم، لا يقبله أي شخص مهما كانت درجة قسوته، وهو يعرف ذلك، وبالتالي اتّهم الأطباء والمُمَرِّضين بأنهم هم أنفسهم مرضى، وإلاّ لما خرقوا تلك القاعدة الذهبية، ثم مَاهى بينهم وبين الكاهن المتزهّد. وعن طريق هذا الخلط والخبط، سرّب كل الشناعات التي خطرت بباله، وتجرّعها أتباعه وصفقوا لها باعتبارها ضربة قاضية للكاهن.

(حآحآ)

نيتشه يُلقي على الكاهن صفات يختص بها الطبيب، وصفات أخرى تنطبق على القائد الاشتراكي المهتمّ بالدفاع عن الطبقة الشغيلة، والذي يريد تخليصها من القهر والاستغلال، ويُوعّيها بحقوقها المشروعة.]

فعلا، إذا دققنا النظر لعرفنا أن غرضه الأساسي هو القائد الاشتراكي وتعاليم الاشتراكية، وكلّما قرأنا عبارة "القطيع المريض"، يجب فهمها على أنها طبقة البروليتاريا، لأن في فترة نيتشه، لا حديث إلاّ على الحركات الاشتراكية، ولا شاغل لرجال السياسة إلاّ استفاقة الطبقة الشغيلة ومطالبتها بحقوقها. ومهما ادّعى من تعال على الراهن، وتوهّم أن أفكاره سابقة لعصره، فإن مواقفه كلها منغرسة في محيطهً بالكامل، وتُعبّر عن هموم السلطة السياسية في تلك الفترة، وبالتالي فإن نيتشه ليس

368- ن. م، 15 § .III، ص، 111.

ناقدا للسلطة، كما ادّعى فوكو، بل مُوال للسلطة ومُساهم في تغوّلها على البروليتاريا. السلطة من جهتها تقمع التحركات العمالية وتسجن قادتها أو تَغْتالهم، ونيتشه يصطفّ بجانبها ويساعدها بتشويه سمعتهم والتحريض عليهم. لكن أصابه حور، لأن توصيفه للأحداث مشوّه، تشخيصه للأسباب خاطئ، وحلوله رجعيّة بالكامل.

الكاهن الزاهد يكتب نيتشه يجب أن يكون هو المخلّص الذي هيّأته الأقدار ليأتي بالخلاص، هو راعي **القطيع المريض** والمدافع عنه «بهذا فقط نستطيع فهم مهمّته التاريخية[369]». لكن هذه ما كانت ولم تكن أبدا المهمة التاريخية للكاهن الزاهد، ولا حتى الهيمنة على المتألمين، تدخل في مشمولات اهتمامه. الزاهد في كل الأديان والحضارات هو إنسان متفرّغ للعبادة، يهتمّ بخلاصه الروحي أكثر منه بخلاص الآخرين، وآلته في ذلك هي التوحّد والانعزال عن المجتمع، والتفرّغ للذكر والصلاة وقتل شهوات الجسد. ومع ذلك يريد نيتشه أن يزجّ به عنوة في الشؤون الاجتماعية، مُوهمًا بأن الزاهد طبيب المرضى وأنه يجد في فن التطبيب «سيادته وشكل سعادته». والحال أنه بدل أن يحطّم صورة هذا الكائن الذي صنعه من محض خياله، فقد أعلى من شأنه وجعله مخلصا للبشرية المريضة، حتى وإن قال إنه مريض هو نفسه وأن له قرابة أصيلة مع المرضى ومع المحرومين ليتمكّن من سماع صوتهم ويستطيع التفاهم معهم.

لقد جعل من الكاهن المتزهّد بطل "الفيلانثروبيا"، نموذج الإنسان الناكر لذاته والخادم للبشرية المريضة المتألمة، وهكذا زاد في إعلائه بَدل تقزيمه. كيف لا والكاهن، هو إنسان «قوي ومتحكّم في نفسه أكثر من سواه ولا يتزحزح، خاصة فيما يخص إرادة السلطة لديه، لكي ينال ثقة المرضى وليخافوه، ليكون لهم سندا ودعما ومتراسا وإكراها ومُعلّما ومستبدا وربّا».

ليس هذا فقط بل إن الكاهن هو ثائر اشتراكي، ينتصب كمُدافع عن هذه الطبقة الضعيفة (**المرضى**، في لغة نيتشه) ضد المستبدّين والمستَغلّين (**الأصحّاء**). يذود عن قطيعه «ضد الأصحاء وكذلك ضد الغيرة التي يثيرها الأصحاء، عليه أن يكون العدوّ الطبيعي والمُحتَقر، على طريقة الحيوانات المفترِسة، لكل صحة ولكل قوّة، لكل ما هو فظّ ومتوحّش وجامح وقاس وعنيف»، وفي ترجمة المسكيني: «أن يكون خصما ومُحتقرا بالطبع لكل ما هو صحّة ومَقدرة غاشمة، جارفة، مُنفَكّة عن كل قيْد، وعرة، عنيفة كالحيوانات المفترسة».

369- ن. م، ص، 111.

كم هو جميل ورائع وفذّ هذا الكاهن المدافع عن الضعفاء، هذا البطل المخاصم لكل جبّار عنيد! لكن مع الأسف هذا الصنف من الكاهن لا وجود له إلاّ في ذهن من اصطنعه، فهو مجرّد نَهْب لصفات الثائر الاشتراكي الإنسانية الراقية وإلقاءٌ بها على هذا الشبح. إذن، نحن هنًا أمام تزوير وسرقة، كذب وتلفيق، ويجب على القارئ أن يُشغّل دماغه قبل أن يتقبّل هذا الخلط المريع ويتمثّله كأنه حقيقة تاريخية أو فلسفية. تحليله لا يملك أية مصداقية علميّة وليس له أي سند في الواقع التاريخي، أما في المجال الفلسفي فإن قيمته صفر. أتحمل مسؤوليّتي عن قولي هذا، لأن شخصا يستخدم هذه التقنية في التحليل، ويصف الإنسان الكاهن بأنه حيوان وأن أتباعه قطيع من الحيوانات، فهذا يخرج ليس فقط من مجال الفكر الفلسفي بل من اللياقة والمروءة. وأنا، مَرّة أخرى، أَجْهِد نفسي لمتابعة أقواله، والإصغاء إلى هذا الكم الهائل من الشتائم والخور وسوء الخلق.

ها هي علاقة الكاهن بالحيوانات: «الكاهن هو أوّل **صنف حيواني** يحتقر بسهولة أكثر من التي يبغض بها الآن بعد أن صار أكثر لُطفا. وإنه لن يجد بدّا من الدخول مع **السباع** في حرب تعتمد الحيلة عوض العنف، وسيكون عليه أن يتّخذ أحيانا مظهر **صنف مجهول من السّباع**، أو على الأقلّ مظهرا دالاّ عليه، مظهر شراسة **حيوانيّة** جديدًة سنرى فيها وحشية **الدبّ الأبيض**، وصَبر **النّمر** ومُكر **الثعلب** ممتزجة في وحدة رائعة وجذابة. وإذا دفعته الضرورة فإنه سيتقدّم على طريقة الدبّ، برصانة ووقار وهدوء ويقظة، متفوّقا بشكل كاذب، كمُبشّر بقوى خفيّة وناطق بلسانها، حتى وسط أصناف أخرى من السباع، عازما أن ينشر في هذا الميدان، ما استطاع لذلك سبيلا، العذاب والتفرقة والتناقض الذاتي، بما أنه ماهر جدا في فن السيادة على المُعذّبين كلما سنحت له الفرصة[370]».

370- ن. م، ص، 112. وفي ترجمة المسكيني نقرأ: «إنما الكاهن هو أوّل شكل من الحيوان الذي بات أكثر رقّة ولطفا، الذي لا يزال أيسر عنده أن يحتقر من أن يكره. لن يكون بإمكانه أن يتجنّب خوض الحرب ضد الحيوانات المفترسة، حربا في المُكر (في الروح) أكثر منها في العنف، كما الأمر من نفسه يُفهَم لذلك سيكون عليه في بعض الحالات أن ينشئ في نفسه تقريبا نمطا جديدا من الحيوان المفترس، أو على الأقل أن يَأخذ الأمر بهذا المعنى نحوا جديدا من مخافة الحيوان، حيث يظهر الدبّ الأبيض والنمر المرقّط الصبور المرن البارد الجفن والثعلب وهو ليس بأقلّهم قد اجتمعوا في وحدة رائعة بقدر ما هي مُريعة. ومتى دفعته الحاجة، فإنه يتقدّم مُجدّا كالدبّ مهابا، حذرا، باردا، مستعليا على نحو زائف، بشريا على فمه تنطق القوى الخفية، بين ظهراني ذلك الَضرب الآخر من الحيوانات المفترسة ذاتها، عاقدا العزم على أن يبذر على هذه التربة ما أمكنه من ألم وشقاق وتناقض مع النفس، ومن فرط ثقته بفنّه، أن يصبح على المعذّبين في كل وقت سيّدا». ترجمة المسكيني، ص، 172 173.

مهما قال عن هذا الكاهن، ومهما انهال عليه بالسب والشتم فهو لا يستطيع أن يقلّل من شأنه أو يجلب له العار، لكن العار يقع على رأس من عمّق السكين في جراح الناس وطلع عليهم بجرد من القساوة والقبح. أن يكون الكاهن متفانيا في خدمة المرضى وأن «لا يدّخر أي جهد في الدفاع عن قطيعه المريض»، أو «أن يُدافع عنه حتى ضد نفسه، ضد الفساد والخداع والخبث»، وأن يصارع بحذق وصلابة «ضد الفوضى وبذور الانحلال الذاتي التي تهدد القطيع»، فهذا لا يقلّل من شأنه اطلاقا، بل يجعل منه بطلا فيلانثروبيا ينبغي أن يُكلَّل بدل أن يُعاب عليه.

لقد ساح في كل الشِّعاب، وتطاول على جميع الأشخاص، ثم لم يجد بدّا في النهاية من استخراج سلاحه السّري، أو ما أسماه، بمعادلته العامة، وهي أن هؤلاء الناس مصابون بالكبْت الفيزيولوجي، وأن الأطباء والكهان وأهل الأديان عموما بحثوا لهذا الداء عن دواء نفساني أخلاقي، بينما الأصح هو أن يطلبوا دواء فيزيولوجيا بحتا. لكن مهما فعلوا فهم غير قادرين على أن يغيّروا شيئا، لأن مرّة أخرى، "لا ينفع العقار في ما أفسده الدهر"؛ فالمسألة غائرة جدا وتضرب جذورها في العرق بالدرجة الأولى، وإذا ما تعلّق الأمر بالجبلّة والعرق فلا دواء نافع. هذا الخطاب العنصري، هو الملاذ المحبّذ لنيتشه حينما تَشحّ موارده، ولا يدري أين يذهب. فعلا، هستيريا العرق، فسّر بها كل شيء، بحيث إن كل الأوهام التي اصطنعها حلّها عن طريق أسهل وَهْم وأقذره. يقول إن الشعور بالكبْت «يتولّد عن تزاوج **أعراق غير متجانسة** (أو **تزاوُج طبقات**، باعتبار الطبقات تدل دائما على **اختلافات في الأصل والعرق**، فالكآبة الأوروبية والتشاؤم الذي عرفه القرن التاسع عشر هما بالدرجة الأولى عاقبة **امتزاج الطبقات** الذي تمّ بسرعة جنونية)[371]»؛ وقد ينتج الكبت الفيزيولوجي أيضا عن تيْهِ عرقٍ «في مناخ لا يستطيع التكيّف معه»، أو قد يكون أثرا متأخرا «من آثار شيخوخة العرقِ وإنهاكه (التشاؤم الباريسي حوالي سنة 1850)».

(خاَخاَ)

لكن في خضم هذه التّداعيات، يبرز مُزاحِمان خطيران يقوّضان كل ادعاءات نيتشه: العالم والفيلسوف. وكالعادة، لمجابهتهما قام بالزجّ بهما في بوتقة المثل

371- ن. م، ص، 116. (ترجمة الناجي).

الزهدي، ومنه استطاع أن يمارس عليهما رياضته المفضّلة: التحقير والسباب والشتم.]

وسترون، بعيدا عن هذه الطريقة في التحاور، كيف أن أفكار نيتشه ستكون لها انعكاسات وخيمة على العلم والفلسفة.

إنه لأمر بديهي أنّ نقيض المثال الزهدي موجود، وقد تمظهر في العَالم الذي ناضل طويلا وبنجَاحٍ ضد الدين، بل انتصر عليه في كل المسائل المهمة تقريبا بحَيث إن «علْمنا الحديث برمّته لَهُوَ شاهد على ذلك[372]». وكيف لا يشهد على ذلك وهو الذي يحتكم فقط للعقل والتجربة، وهو الوحيد، باعتراف نيتشه نفسه، الذي يملك الشجاعة على أن يَكون ذاته «وأنه إلى حد الآن نجح في البلوغ إلى مُراده من **دون إله** (ohne Gott)، والماوراء والفضائل النافية[373]».

وماذا يطلب فيلسوف معاصر أكثر من نسق علمي يعوّل على العقل والتجربة، ويَنشط بمَعزَل عن الإله وعن أي كيانات ميتافيزيقية في نشاط بحثه العلمي؟ لكن هذا النسق يُحطّمً أفكار نيتشه تماما ويقضي على ادعاءاته مرة واحدة وإلى الأبد، وبالتالي يجب التصدي له، عن طريق التكفير واللعنات: مَن ينحاز للعلم بُغيَة معرفة الكون، من يرى فيه سدا منيعا ضد الدين وضد الله، فهو مشاغب، مثرثر، موسيقي رديء، صوته لا يأتي من الأعماق، وبالجملة «**الوعي العلمي هو هاوية**»، وكلمة علم هي «**مجرد تعسّف وسفاهة ووقاحة**». كل ما يقوله العلماء عن علم الفلك والبيولوجيا والتطوّر والمجرات والكوانتا، لا تصدّقوه «**خذوا عكس ما يقولونه وستحصلون على الحقيقة**[374]».

كم سيَسْعد السّلفي بهذه الأقوال، وكم سيَهيم بها الوهابي الفاقد للعقل والكاره للعلم، وكم سيستخدمها كحجّة لعلمه المُزوّر زعيم الاعجازيين زغلول النجّار. إذا قال لك العلماء إن بول البعير ضارّ بالصحة فخُذ بعكس ما يقولونه لك واتّبع هدي المهرّج زغلول وجماعته؛ إذا قالوا لك إن الحمل يدوم تسعة أشهر، فكذّبهم وتشبّث بالحديث الذي يقول إن الحمل قد يدوم أربع سنوات؛ إذا قالوا لك إن الأرض كرويّة

372- ن. م، III، § 23، ص، 197. (ترجمة المسكيني).

373- ن. م، ن. ص. مع تحوير بسيط.

374- ن. م، ص، 130. (ترجمة الناجي).

الشكل فاتّبِع أطروحة الباحثة التونسية التي قدمتها لجامعة صفاقس سنة 2016 لنيل شهادة الدكتوراه في الجيولوجيا والتي أثبتت فيها أن الأرض مُسطّحة؛ إذا قالوا لك إن الأرض تدور حول الشمس فعارضهم بما يقوله الشيخ الوهابي بن باز.

ولمَ لا يتملّصون من العلم ولا يستهجنون مناهج البحث الدقيق ولَهُم في صفّهم فيلسوف ألماني كبير، يحرّضهم على شق عصا طاعة العلماء، ويشنّ على العلم حملة شرسة، لأسباب تافهة، من قبيل أن العلم «**ليس له اليوم أدنى ثقة بالنفس**»، ولا له ثقة «**بمَثَل أسمى منه**»، وأن كل نشاط العلماء المُضني «هو أبْعَد مِن أن يكون نقيضا للمثلِ الزّهدي»، وأن العالم «هو شكله الجديد والنبيل»؟

مَهْما تفانى العلماء في كشف حقائق الكون، ومهما كانت عظمة اكتشافاتهم فإن علمهم يبقى جُحرا لكل أشكال الاستياء والجحود وتبكيت الضمير واحتقار الذات والشعور بالذنب «إنه القلق الناجم عن غياب المثل الأعلى، هو المعاناة التي سببُها غياب الحبّ الكبير». مَنْ مِنَ الشباب المتعلّم يستطيع أن يقترب من العلم إذا قرأ أشياء من هذا القبيل؟ مَن ذا الذي بمقدوره أن يَصرف ساعة واحدة من وقته للبحث العلمي إذا علم أنه سيَفقد إنسانيته وسَتَنْهَار قواه الحيوية؟ هل يمكنه أن يُقدِّر العلماء حقّ قدرهم إذا اطّلع على صورتهم الكرتونية هذه: «إن كفاءة أفضل علمائنا ومُثابَرتهم إلى حدّ الإغماء، **ورؤوسهم تَنفث الدخان ليلا نهارا**[375]»؟ وكيف يقترب الشبان من العلم إذا سمعوا من نبيّ زرادشت أن «**العلم هو وسيلة تخدير للنفس**»؟ أو قرأوا هذا التجريح المريع في أشخاصهم: «إنهم أشخاص مرضى لا يريدون أن يعترفوا لأنفسهم بحقيقتهم، إنهم صمّ وعميان يخشون شيئا واحدا: أن يعوا حالهم[376]».

ولا يختلف حال الفلاسفة العقلانيين عن حال العلماء، بل ربما حالهم أشنع وأنكى. يعتقدون بأنهم ضد المثل الزهدي، وأن نسقهم المادي قادر على أن يصيب الحقيقة، بعكس أساطير الأديان وتفسيراتها الغائية الخرافية، لكنهم غارقون في الوهم حتى ذقونهم. تهمة هؤلاء هي معاداة الدين واعتناق الإلحاد. تصوّروا أن هذا الرجل لشدّة حقده على الفلاسفة مستعدّ أن يتضامن مع المسيحية، أن يعيد فتح محاكم التفتيش من جديد كي يسحل الملحدين في الحضيض. يقول نحن الباحثون عن المعرفة نحترز

375- ن. م، ص، 198. (ترجمة المسكيني).
376- ن. م، III، § 24، ص، 131. (ترجمة الناجي).

من كلّ إيمان، وهو في الحقيقة عدو شرس للعقل والمعرفة حتى النخاع . نيتشه، بدل أن يعارض الدين ويناهض التفسير الخرافي للكون، وعوض أن يُناصر فكرة عقلانية العالَم وقدرة العقل على سبر أغواره ، فهو يُركّز على الإيمان، ويُماهي بين إيمان العلماء، وإيمان الانسان المُتديّن الخرافي.

كل الصفات المَمْقُوتة من طرفه ألصقها بالفلاسفة العقلانيين، ويشير لهم بإصبع الاتّهام: «**هؤلاء المُنكرون، والمنعزلون في الوقت الراهن، هؤلاء المفكرون المتصلّبون الذين يدّعون الوضوح الفكري، هؤلاء المفكرون القساة، الصارمون، الزاهدون، البطوليون، الذين هم شرف عصرنا**[377]». مازالت صفتان لم يذكرهما، احْزُروهما؟ الأولى منصوص عليها في دستور دولة عربية : "**ازدراء الأديان**"، والثانية في شريعة دولة عربية أخرى : "**الإلحاد**". أجل نيتشه، ختم باقة الصفات المشينة قائلا: «**هؤلاء الملحدون (diese Atheisten)**» و «المُعادون للمسيحية (**Antichristen**)». ويقول هذا من باب الإدانة والتكفير وليس من باب الوصف المتجرّد. لكن بقيت تَعْتَمل في ذهنه صفات أخرى، وجب عليه أن يُفرغها ضد هذا الصنف من الفلاسفة: مُلحدون ومعادون للمسيحية، لكن أغربها هي هذه: «لاأخلاقيون (Immoralisten) وعَدَميّون وريْبيّون». تصوّروا كيف أن شخصا لم يعمل طوال حياته إلاّ على التحريض على العنف والقتل، ولم يبرع إلاّ في الحض على التملّص من أبسط القيم الأخلاقية، يَعيب على الفلاسفة العقلانيين لاأخلاقيّتهم.

وبما أنهم مفكرون أحرار، فقد تخلّصوا، دون رجعة، من الدين وتركوا الإله والخرافات، لكن نيتشه يَسْتَكثر عليهم جُرْأَتَهم هذه ويَحسدهم على هذا الحَسْم، عاملا على تقزيمهم والحطّ من انجازاتهم بإرجاعهم عنوة إلى حظيرة التزهّد. فهو يحكم عليهم، دون برهان، بأنهم مازالوا ماكثين في مستنقع الزهد رغم اعتقادهم الانفصال عنه: «يعتقدون أنهم منفصلون أشد ما يكون عليه الانفصال عن المثل الزهدي هؤلاء المفكرون **الأحرار، الأحرار جدا**[378]». هذه الكلمات الساخرة، (التي تُذكّرنا بحذلقات يوسف زيدان حينما يتحدث عن الضباط الأحرار ويصفهم بـ "الضباط الأحرار جدا"، ينطق بها على سبيل الازدراء والاستهجان)، أقول: كلمات نيتشه الساخرة،

377- ن. م، ص، 132.

378- ن. م، ن. ص.

تثبتُ بما لا يدع مجالا للشك، أنه لا يعتبر نفسه من زمرة المفكرين الأحرار، يعني من زمرة الملحدين المتحررين من الألوهية. وهذا أمر يدعو للشفقة لأن أغلب النيتشويين يعشقون فلسفته لاعتقادهم بأنه قاتل الإله ومخلّصهم من أسر الدين. لكن الأكثر مدعاة للشفقة هي الفكرة التي أوحى بها لفتحي المسكيني. قال إن نيتشه وضع عبارة "**الأرواح الحرة جدا**" بين هلالين «تحفّظا وتهكما[379]». ثم قسّم هذه العبارة الساخرة إلى قسمين فأضعف مفعولها وادّعى أنها «مثال حيّ على اللغة المضاعفة التي يكتب بها نيتشه: أن يستعمل نفس العبارة تارة في معنى موجب وإثباتي، أي أرستقراطي (مثلا وَصْف الفلاسفة بأنهم أرواح حرّة)، وطورا في معنى ساخر ومضادّ، أي في وصف **العبيد** والأنماط الإرتكاسية (مثلا: وصف الكهّان بأنهم "أرواح حرّة جدا")».

لكن هذا غير صحيح، نيتشه، يهاجم المفكرين الأحرار، ويتملّص منهم لأنهم ملحدون، ولم يجد أمامه من وسيلة لتقزيمهم إلاّ التهكّم والشتم؛ وبالتالي لا دخل في هذه الخلطة العجيبة للأرستقراطية أو العبيد، ولا يخجل السيد المسكيني من ذكر العبيد بالحرف.

أن يكونوا غير واعين بأنهم ليسوا أحرارا بالمرة، وأنهم أخذوا المشعل من المتنسّك الزاهد وأصبحوا هم المُمثّلين الوحيدين له في الوقت الحاضر، فهذه حقيقة ثابتة في رأس نيتشه غير قابلة للشك. وبرهانه عليها بسيط جدا: «**لا يزالون يؤمنون بالحقيقة** (sie glauben noch an die Wahrheit) [380]». هنا ينكشف السرّ وتنحلّ أحجّية سفينكس، بل تتبدّى لنا في عرائها هرطقتهم الفظيعة: إيمانهم بالحقيقة. كان عليهم أن يمحوا من قلوبهم هذا الطموح لأنه سراب؛ كان عليهم أن يتأسّوا بالإرهابيين الإسلاميين، أو الانتحاريّين القدماء (الحشّاشين). إنهم مثال نيتشه الذي ينصح به قراءه، ويتغبّن كيف أن أوروبّا لم تستوعب الدرس منهم ولم تنبذ فكرة الحقيقة.

يُسمّيهم طائفة العقول الحرّة بامتياز، وفي نفس الوقت يصفهم بأنهم أفراد يعيشون في طاعة تفوق طاعة الرهبان «لم تعرف لها أيّة أخويّة رهبانية مثيلا»، لأن الحرية، في عُرف نيتشه، هي الطاعة العمياء لا غير. شعارهم ومبدأهم هو "لا شيء حقيقي، كل شيء مباح"، وتعليق نيتشه «ذلك كان حرية العقل (das war Freiheit des Geistes)»، وحُريّته تَكمُن في أنها «تَطرد حتى الإيمان بالحقيقة».

379- من ترجمة المسكيني، ص، 199، تعليق (8).

380- ن. م، ص، 132. (ترجمة الناجي).

(دآدآ)

أمّا كل من يطمح إلى معرفة حقائق الأشياء فإن نيتشه يُثبّط عزمه ويسحقه بالتصريح التالي: "لا حقيقة، كل شيء مُباح (Nichts ist wahr, alles ist erlaubt)". ورغم إرهابية هذا التصريح فإن ثمة مَن سَلَخ عنه كل وحشيّته وسوّقه كلطيفة من لطائف فكر نيتشه.]

وهذا ما فعله كارل ياسبرس حينما علّق قائلا، إن هذه الجملة هي النقطة القصوى لتصوّر نيتشه للحقيقة، من حيث أنه، تحت مظهر "لا، مُعْدِم (vernichtenden Nein)"، كان يَرمي إلى التعبير عن أعمق "نَعم للحقيقة"، والتي لاَ يُمكن أن تُقْطَف على أي هيئة كلّية؛ لكن، بدل شكل النداء، شكل الرمز الذي يوقظ ويَحثّ، نيتشه يفضّل استخدام صيغة جِداليّة، تصدم بمباشرتها وتُعبّر عن رجاء أكثر منه وعيا بالمنشأ[381].

وماذا بقي للإنسان العارف من سبب للحياة؟ ما مشروعيّة وجوده، وما الغاية من نشاطه المعرفي إذا تبخّرت أمامه الحقيقة ورَاحت سرابا؟ لا شيء، كل حياته هي عدم في عدم، ومن الأفضل له أن ينفّذ أوامر شيخه، ويفجّر نفسه بحزام ناسف. هذه ليست طوباوية أو مبالغة، وإنما استتباع منطقي لمقولة "لا شيء حقيقي، كل شيء مباح". واقع الحال هو أن العالم الحديث المتقيّد بالمنطق تاه في غياهب العقلانية، ولم يتذوّق طعم قول "نعم" و "لا" في نفس الوقت، يعني العيش في التناقض الأشدّ فتكا بالعقل؛ العالم يُعذّب نفسه بالبقاء تحت رحمة الواقع الخام، وجبرية الواقع الصغير التي أخذ فيها العِلْم الفرنسي الآن (die französische Wissenschaft jetzt) يبحث عن التفوّق الأخلاقي على العلم الألماني. الدواء الوحيد الذي يقترحه نيتشه هو ممارسة أكثر أنواع التأويل تعسّفا، وعدم التراجع أمام أيّ **تعنيف، اغتصاب** (*Vergewaltigen*)، تعديل، اختصار، حذف، **اختلاق** (*Ausdichten*)، **تزييف** (*Umfälschen*) «وسائر ما يدخل في ماهية كلّ **تأويل**[382]».

الحقيقة تعلو ولا يُعلى عليها؛ الحقيقة هي أسمى قيمة موجّهة للنشاط النظري، وهي المحرّك الأوحد والأقوى للعلماء والفلاسفة في جهدهم المعرفي، وبدونها لا

381- K. Jaspers, Nietzsche. Einführung in das Verständnis seines Philosophierens, Walter de Gruyter, Berlin 3 auflage, 1950, p. 234.

382- **جينيالوجيا الأخلاق**، م. س، ص، 201. (ترجمة المسكيني).

يمكنهم أن يخطوا خطوة واحدة في البحث. لا إرادة تَفُوقُ إرادة الحقيقة، ولا شيء يُخلّصنا من أوهام الدين القاتلة، ويحمينا من جنون الإرهاب إلاّ الحقيقة. جواب نيتشه: أنتم مجانين؛ إرادة الحقيقة هي الإيمان بالمثل الأعلى النّسكي ذاته «إنه الإيمان بقيمة ميتافيزيقية، قيمة ما للحقيقة في ذاتها، كما لا يُمكن أن تُكْفَل أو تُقَنّن إلاّ في حضن هذا المثل الأعلى وحده[383]». أنتم دعاة الحقيقة محصورون في قفص من حديد، لا تستطيعون الفكاك منه مهما حاولتُم.

ولكي يُرهب العلماء ويُثبّط من عزمهم توعّدهم باعتراض فلسفي قويّ وصارم لا يستطيعون الرد عليه. لكنه في الحقيقة يستنسخ اعتراض المتديّنين في كل العصور ضد العلم، ومَفاده أن العلم ذاته لا يخلو من أفكار مسبّقة.

هذه هي الصرامة الفلسفية التي يتغنّى بها، وينسبها إلى نفسه، بينما نجدها عند كل أتباع التيّار الروحاني، ومنتشرة في كتابات مناهضي العقلانية العلمية في القرن التاسع عشر. يقول: «متى أخذنا بالصرامة في ما نحكم، فإنه ليس ثمة أيّ علم "بلا فرضيات"، إن فكرة من هذا النوع هي ممّا لا يمكن التفكير فيه، وأمر مجانب للمنطق: إنه لا بدّ أن يكون هناك على الدوام قبلٌ ما، فلسفةٌ ما، عقيدةٌ ما، حتى يمكن للعلم أن يأخذ منها وِجهة ما، معنى ما، حدّا، منهجا ما، وحقا ما في الوجود[384]».

وكأنّ العلماء يؤمنون بأي شيء خطر ببالهم دون تدقيق أو تحقيق، وكأنهم يقبلون أية فرضية حتى أكثرها عبثية وخُلفًا، من قبيل الايمان بالله والملائكة والعفاريت، وكل العالم الميتافيزيقي الخرافي.

الفرضيات العلمية لا تنبع من فراغ فكري، وليست مبنيّة على إيمان أعمى أو تصديق مفروض من سلطة عليا، بل إن حظّ الإيمان فيها يقارب الصفر، وعلى أية حال فالتجربة المخبرية والصّياغة الرياضية لهما الكلمة الأخيرة في هذا الشأن.

أن تتفوّه بكلمة حقيقة فأنت هرطقي مُخرّب؛ أنت أفلاطوني مسيحي، غيّرتَ المثال الافلاطوني والإله المسيحي إلى صنم جديد. ومن هنا تأتي مهمة نيتشه التي يعرب عنها بكل فخر: إرادة الحقيقة ذاتها تحتاج إلى تبرير؛ المثل الزهدي قد هيمن على كل الفلسفات حتى الآن من جرّاء افتراض أن الحقيقة هي كينونة، هي إله. الكل

383- ن. م، ن. ص.
384- ن. م، ص، 201.

اعتقد أن الحقيقة موجودة ولم يفكر يوما ما في أنها مشكل «إن **إرادة الحقيقة تحتاج إلى نقد** فلنُعيّن بذلك مهمّتنا الخاصة ينبغي مرة واحدة، وعلى سبيل التجربة، **وَضع إرادة الحقيقة موضع سؤال**[385]». صحيح، يجب وضع إرادة الحقيقة موضع تساؤل، وهذه المهمة لم يتوان الفلاسفة عن القيام بها منذ العصر اليوناني. لكنه هو لماذا أعفى الجهة المقابلة؟ لماذا امتنع عن وضع إرادة الخطأ، ولو على سبيل الافتراض، مَوضِع تساؤل؟ لم يقترب من إرادة الكذب والتزييف والتجديف والتزوير ولم يناقش قولة الحشاشين الإرهابية: "لا حقيقة، وكل شيء جائز"، لسبب بسيط وهو أنه لو فعل ذلك لقضى على نفسه بنفسه، ولانْهَار كل البنيان الذي شيّده. وهذا دليل، إذا تتبعنا أطروحاته التي تمجّد الكذب والتأويلات المتعسّفة، على أنه من الحشاشين روحيا، ومفتون بِعَدَميّتهم.

(ذآذآ)

لم يَكفه ما قاله عن العلم في هذا المقطع من "جينيالوجيا الأخلاق"، وفي مقاطع أخرى من "ما وراء الخير والشر"، ولم يشبع من الهجوم العشوائي الذي شنّه على العلماء في "العلم المرح" و"الفجر"، وإنما ختم جينيالوجيا الأخلاق، بالتكشير عن أنيابه بصورة وحشية.]

يُوهِم دائما بأنه يحارب المثل الزهدي ولكنه يحارب العلم تحت لبوس أخرى. فالخلط والخبط هما سيّدا الموقف: البشرية كلها مُمتنّة للعلماء بما قدّموه لها من معارف جليلة، حررتها من الجهل، واعتقتها من أسر الدين وخرافاته التي سجنتهم لآلاف السنين. فالإنسان كان يتصوّر الكون على شكل قبّة زرقاء، مُعلّقةٌ فيها مصابيح، وكُرَتيْن تدوران حول الأرض، وشيخ، هو الربّ، جالس فوق السحاب محاط بكائنات هلامية مُجنّحة، وفي الأرض يعيش في نَكد، مُحاصَرا بأشباح وأرواح شريرة تسبب له الأمراض والأوبئة وكل الآلام التي يعانيهاً.

فجاء العلم وهشّم هذا الكون الخرافي، وأزاحِ الأرض من مركز الكون، وقدّم لنا صورة حقيقية عن الشمس والقمر والنجوم، وكشَفَ أحجامها وتكوينها المادي وعمرها، وتنبّأ بما ستؤول إليه أحوالها بعد ملايين السنين. كيف جابه نيتشه العلم؟ بكل وحشية

385- ن. م، ص، 202.

واحتقار، صَرخ: «لا! لا تُحدّثوني عن العلم[386]». لماذا؟ ما السبب؟ هل لأن القوانين العلمية خاطئة؟ هل لأن العلماء أخلّوا بمناهج البحث العلمي؟ إطلاقا، كل ما في الأمر هو أنه يطرح مشكلات لم يسأله عنها أحد، ويَلِج في متاهات لا تعني العلماء في شيء، ثم يُجيب عن هذه المشاكل المفتعلة بإجابات مفتعلة هي أيضا. ما دخل العلماء بالمثل الزهدي؟ وما علاقتهم أصلا بالقيم الدينية؟ العالم يتفرّغ للبحث، ويبغي أوّلا وأخيرا اكتشاف القوانين التي تُسيّر آلة الكون. لكن نيتشه لا يريد أن يعرف أي شيء عن العلم، لأن هذا العلم الذي تفتخر به الحداثة ليس العدوّ الطبيعي للمثل الزهدي. أرأيتم هذَا الخبط؟ هذا الهروب من المسائل الفلسفية والتركيز على أشياء هامشية خارج مرمى المسألة العلمية؟ فهو يريد من العَالم، عنوة ورغم أنفه، أن يكتب على المخبر "أنا ضد المثل الزهدي"، وهكذا يحوز علىَ مصداقية، وربما يُسمح له بمواصلة بحوثه.

نحن في مجال الخرافة حقا، في مجال التجديف على العلم والعلماء، والخروج الكلّي عن جوهر المطالب الفلسفية العالية. لكن الرجل مُصرّ، ولا يتزحزح عن إدانته: العلم لا يخلق القيم العالية «لا يزال غير مستقلّ ليقوم بهذا الدور، فهو نفسه يحتاج إلى مثال القيمة، إلى قوّة مُبدعة للقيم يستطيع خدمتها وتمنحه الثقة بنفسه، لأن العلم ذاته لا يخلق أيّة قيمة[387]». أكثر من ذلك وأخطر، وهذه المعزوفة يكررها حتى التخمة: العلم لا يُعادي المثل الزهدي، بل يمكن اعتبار العلم القوّة المُحرّكة للتطوّر الداخلي لهذا المَثل ... لا يُهاجم المثل الزهدي نفسه ... العلم والمثل الزهدي يتواجدان في نفس الميدان، ويجمع بينهما تقدير مبالغ للحقيقة ... يجمعهما اعتقاد بأن الحقيقة لا يمكن انتقادها، كلاهما حليفان ضرورة.

والآن، بعد أن استقرّ له هذا الخلط، واستطاع تنويم قرّائه وجعْلهم يرددون باستمرار هذه اللخبطة، يعزم على محاربتها، ويَترُك لهم هذه المهمة كإرث دائم، وهي في الحقيقة محاربة طواحين الهواء لا غير. لكنه إرث شرّير جدا، تسرّب للفكر الفلسفي الحديث وفعل مفعوله السيّء على المتعلّمين بحيث إنك لن تجد نيتشويا واحدا دون أن يكون إمّا لامباليا تماما بالعلم، وإما محتقرا له وللعلماء. ولا يمكن لهم أن يتصرّفوا غير هذا التصرّف لأن نيتشه نفسه هو الذي يُحذّرهم من مغبّة تقدير العلم ويحرّضهم

386- ن. م، 25 §، III، ص، 131. (ترجمة الناجي).

387- ن. م، ص، 134.

بالتالي على احتقاره: «**أيُّ تقدير لقيمة** المَثل الأعلى **النّسكي** إنما يَجرّ أيضا وراءه على نحو لا مردّ له **تقديرا ما لقيمة العلم**: هذا أمر يجب على المرء أن يتسلّح له للتوّ بعيونٍ ثاقبة وآذان حادّة[388]».

والحال أن انتقاداته لا تُصيب الهدف تماما، فضلا عن أنها غير مُقنعة، بل لا تَقْرَع آذان الفلاسفة والعلماء، وإن وصلتْ مسامعهم فلن يعيروها أية أهمية. لكن نيتشه لديه تفسير آخر لانحطاط العلم والعلماء، ينزل عليه في حال الشّدة دائما كإله من السماء (deus ex machina)، ليُنقذه من الورطة. والآن بإمكانكم أن تحدسوا هذا التفسير، وقد استخدمه في حق سقراط، فمرّغ به كرامته كفيلسوف وكإنسان، وما أسهل أن يتم نقله للعلماء. أقصد: الفيزيولوجيا، تقاسيم الوجه، القبح والجمال، مرورا بالطبقة الاجتماعية، وانتهاء بالدم والعرق. بكل اعتداد يقول: متى فحصنا الأمر على نحو فيزيولوجي، فإن العلم والتنسّك يقفان على الأرضية عينها: تفقير الحياة، إنهاكها وإضعافها. العالم، هذا المسكين الذي لا يثير فينا أي تعاطف: مشاعره فاترة، إيقاعه بطيء، يستعملَ الجدل بدل الغريزة، يعلو الجِدُّ وجهه وحركاته، وبالجملة حياة مُتعبة، ووظائف حيوية مُعطّلة.

ومِن جانب سوسيولوجي تاريخي، (دائما سوسيولوجيا نيتشه الخياليّة وتاريخه الخاص به)، يقول: انظروا إلى المراحل التي برز فيها العَالم وارتقى إلى موقع الصدارة أثناء تطوّر شعب ما. المفروض أن يكون العلماء مواكبيَن لتقدّم المجتمع ، وأن يُمثلوا المؤشر الأقوى على تحضّره وانتشار الوعي العلمي في طبقاته. لكن هذه الحقيقة التاريخية البسيطة تُكذّب دون رجعة أطروحة نيتشه وبالتالي وجب أن يُكذّب هو بدوره الحقيقة التاريخية ويستبدلها بحقيقته هو ، التي مفادها أن العالم يبرز في «**مراحل تَعب هذا الشعب**، وغالبا ما تكون مراحل **الأفول والانحطاط**، حَينها يكون قد انتهى أمَر الطاقة الفيّاضة، أمر اليقين بالحياة واليقين بالمستقبل[389]».

ما هي الطاقة الفيّاضة؟ وماذا يقصد بالثقة بالحياة وبالمستقبل؟ أراهن على أنكم تعرفون الإجابة مسبقا: كل ما هو فظ عنيف حربي مدمّر قاتل، هو طاقة الحياة. ولا يجب أن تُفتّشوا بعيدا لكي تعثروا عليها، بل يكفي سطر واحد حتى تقرؤوا قاعدته

388- ن. م، ص، 204. (ترجمة المسكيني).
389- ن. م، ص، 135. (ترجمة الناجي).

الذهبية المُروّعة هذه: الجهل بدل الثقافة، الديكتاتورية بدل الديمقراطية، الحرب بدل السلم، قمع المرأة بدل تحريرها، القسوة بدل الشفقة[390].

ومجددا، يعتقد عن طريق هذا الخبط أنه سيحطّم العلم، وسيَدُوس على صورة العالم بالقول إن العلم الحديث هو الآن أفضل حليف للمثل الزهدي، وأنه حليف لاواع ولا إرادي ومستتر. وبعد؟ لا شيء غير الشتائم: العلماء هم فقراء الروح، هم أناسٌ ضَرَبت حُمّى المسلول أرواحهم[391].

(رآرآ)

ولكي يبرهن على أن العلم لم يقض على المثل الزهدي وإنما زاده قوّة، أخذ كمثال على ذلك النظام الفلَكي الكوبرنيكي. والكل يعلم أنه مع كوبرنيك، أزيحت الأرض عن مركز الكون وأصبحت كوكبا صغيرا يدور حول الشمس شأنها في ذلك شأن كل كواكب المنظومة. لكن هذه الحقيقة الفلكيّة جرحتْ احساسه الأناني فطَفِق يُعدّد مساوئها وانعكاساتها السلبية على مكانة الإنسان في الكون] وقد تساوقَ، مع إزاحة الأرض من مركزها، إزاحة الإنسان أيضا عن أن يكون مركز الخليقة والغاية القصوى لسيرورة الكون برمته، فأصبح كائنا مُتزمّنا يخضع لضرورات الطبيعة ككل الحيوانات الأخرى. من هنا نحدس ردة الفعل العنيفة من طرف المتديّنين في جميع الملل ضد الكوبرنيكية وضد داروين. لكن لا أحد الآن، في القرن الواحد والعشرين، يجرؤ على أن يضع موضع شك حقيقة أن الأرض تدور حول الشمس، أو أن يعود بنا إلى النظام البطليموسي، بما في ذلك الكنيسة التي حاربت نظرية كوبرنيك لعدة قرون. لا يشذّ عن هذه القاعدة إلاّ العالم الإسلامي الذي ما زال يرزح تحت فتاوى الشيوخ الجهلة، ومازال يعتقد أن الشمس هي التي تدور حول الأرض، وأن من يقول العكس كافر بالله ورسوله، هدْر دمه وماله مباح، إن لم يكن فريضة وواجبا.

نيتشه خجل من أن يعلن صراحة تبنّيه للمعتقد القديم، خشي من أن يفقد مصداقيته تماما إذا أنكر حركة الأرض حول الشمس، فحوّل المسألة من حقيقة علمية

390- «إن سيادة المثقف المتنفذ لا تعني شيئا حسنا أبدا، مثلها في ذلك مثل مجيء الديمقراطية، ومؤتمرات السلام بدل الحرب، وتَحرّر المرأة، وديانة الشفقة، وأعراض انحطاط الطاقة الحيوية». ص، 135.

391- ن. م، ترجمة المسكيني، ص، 205.

ثابتة إلى مثال الزهد، ومن منظومة فلكية خاطئة، تجاوزها العلم الحديث، إلى الخوف على كرامة الإنسان، وهو الذي لم يفعل طوال حياته الواعية إلاّ إهانته وتمريغ كرامته في التراب. هذه الأسطر التي كتبها في الفقرة 25 من **جينيالوجيا الأخلاق**، تثبت أن نيتشه يريد كسر عزيمة العلماء، وإرجاع عقارب الساعة إلى الوراء. فهو يُقزّم من انتصارات العلماء على الأنظمة العتيقة وأساطير الأديان، ويتساءل: على ماذا انتصر العلم؟ كلنا يعلم أن العلم انتصر على الأسطورة وعلى الدين، لكن نيتشه ليس من هذا الرأي: المعركة بالنسبة إليه دارت بين الزّهد والعلم، والمثل الزهدي لم ينهزم أبدا، بل على العكس، كلّما هاجمه العلم وهدم أحد أسواره، كلّما تقوّى، وأصبح أكثر دقة وروحانية وإغراء. وهنا يأتي المثل الأكثر إرباكا: «هل تتصوّرون مثلا أن انهيار **علم الفلك اللاهوتي** قد شكّل انهزاما للمثل الزهدي؟ هل أصبحت رغبة الإنسان في فكّ لغز الوجود من خلال الإيمان بالغيب أقلّ من ذي قبل منذ أن صار هذا الوجود، إثر هذه **الهزيمة**، عرضيا، غير ذي معنى وغير ضروري في نظام الأشياء المنظور؟[392]».

وهكذا يُسمّي هزيمة، ما هو في الواقع انتصار للحقيقة على الوهم، وتحرير للعقول من أسر الأسطورة، وتحقُّقٌ لما انتظرته البشرية على مدى آلاف السنين. فهو يُبدي غيرته على الإنسان من انتهاكات النظام الجديد، ويُفضّل بقاء الأمور على حالها، كي لا تُخدش كرامة الإنسان، ولا تُستَثار حساسيّة هذا الكائن الرقيق. فعلا، منذ أن أزاح نظام كوبرنيك الإنسان من مركز الكون، أصبح في غبن متواصل، ونيتشه بدوره يتغبّن على هذه الحالة التعيسة التي استصْغر فيها الإنسان نفسه، ويتأوّه: «آه. يا للأسف! لقد انتهى أمر إيمانه بكرامته وبقيمته الفريدة التي لا عوض لها في سلّم الكائنات. لقد أصبح حيوانا بلا استعارة، بلا قيد أو شرط، وهو الذي كان فيما مضى، حسب ما تقول عقيدته، شبه إله (ابنا للإله، إلها اتخذ شكل إنسان)، يبدو منذ كوبرنيك، أن الإنسان يسير في خطّ منحدر لا يفتأ يبتعد عن المركز. إلى أين؟ إلى العدم؟ إلى الشعور الحادّ بعدمه[393]».

392- ن. م، ص، 135 136. في ترجمة المسكيني: «هل يظنّ المرء بالفعل أنّ هزيمة الفلك اللاهوتي مثلا تعني هزيمة هذا المثل الأعلى؟ هل صار الإنسان بذلك ربّما أقلّ حاجة إلى حلّ أخروي للغز كيانه من قِبل أن هذا الكيان قد أخذ يبدو منذئذ أكثر اعتباطا وأكثر انزواء وأكثر خصاصة في النظام المنظور للأشياء؟».

393- ن. م، ص، 136. وللإفادة نورد هذا النص في ترجمة المسكيني، ص، 205: «آه، إن الإيمان بكرامته وفرادته وكونه لا يُعوّض في سُلّم الكائنات، هي أمور قد ولّت لقد صار حيوانا، حيوانا بلا صورة ولا قيد ولا تحفّظ، هو، الذي كاد يكون في إيمانه السابق هو الله (ابن الله، الإنسان الإله)... منذ كوبرنيك يبدو الإنسان وكأنّه على بساط مائل، إنه يبتعد عن مركزه بشكل أسرع فأسرع من ذي قبل إلى أين؟ إلى العدم؟ إلى الشعور الثاقب بالعدم؟... حسنٌ! إن هذا قد يكون هو الطريق المستقيم نحو المثل الأعلى القديم؟».

إثر هذا الكلام الخطير، أضاف استنتاجات أخطر منها، وأطلق أحكاما قيميّة مُهينة سَحَبها على العلوم كافة، حيث يقول: «**إن كل العلوم (وليس علم الفلك وحده** الذي انتزع تأثيره المُهين والمُذلّ من كانط هذا الاعتراف: "إنه يدمّر مكانتي")، **الطبيعية منها وغير الطبيعية، تعمل على تدمير الاحترام القديم الذي يَكنّه الإنسان لنفسه**، وكأن هذا لم يكن أبدا سوى شيء غريب أنتجه الغرور الإنساني[394]».

(زآزآ)

هل صحيح أنّه منذ أزاح كوبرنيك الأرض عن المركز والإنسان في انحدار نحو العدم؟ وهل صحيح أنه عندما كان الإنسان يعتبر الأرض مركز الكون، كان يحترم ذاته؟ يمكننا أن نعارض نيتشه، بخصوص النقطة الثانية، بأقوال من الشيوخ الذين ألّفوا كتبا للبرهنة على أن الأرض ساكنة وأن الشمس هي التي وقد تصدّوا للكوبرنيكية بواسطة أدلّة فاقعة مستمدّة من سلطة لا يمكن الشك فيها، وهي القرآن والسُّنة، وأوصدوا الباب أمام أي نقاش. وبما أن المسألة محورية وذات أبعاد خطيرة فالافضل هو إيراد أمثلة من تلك الادبيات التي عارضوا فيها نظرية كوبرنيك. تدور حولها.]

وقد تصدّوا للكوبرنيكية بواسطة أدلّة فاقعة مستمدّة من سلطة لا يمكن الشك فيها، وهي القرآن والسنة، وأوصدوا الباب أمام أي نقاش. وبما أن المسألة محورية وذات أبعاد خطيرة فالأفضل هو ايراد المقاطع التي عارضوا فيها نظرية كوبرنيك. قال أحدهم بكل جزم: «إن القرآن قائل بثَبات الأرض، وما أصْرَحَ قوله سبحانه: (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم)، وقوله في مكان آخر: (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم). والمَيْدُ هو التّحرّك كما تدلّ عليه نصوص اللغة. قال الله تعالى (ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا)، هؤلاء الآيات يدلّلن دلالة واضحة على تثبيت الله الأرض بالجبال لئلا تتحرّك ... وكما قرّر القرآن ثبات الأرض قرّر حركة الشمس والقمر، وجريانها

394- ن. م، ص، 136. (ترجمة الناجي). أما ترجمة المسكيني لهذا المقطع فعلى النحو التالي (ص، 205): «كلّ علم (وليس الفلك وحده إطلاقا، هذا الذي عن تأثيره المُهين والمُنزل إلى الحضيض، كان كانط قد سجّل اعترافا جديرا بالملاحظة «هو يقضي على أهمّيتي»)، كلّ علم، أكان طبيعيا أو غير طبيعي كذا أسمّي النقد الذاتي للمعرفة إنما همّه اليوم أن يُجرّد الإنسان ممّا يملكه من احترام أمام ذاته إلى حد الآن، كأن هذا الاحترام ما كان إلاّ نزوة وغرورا».

حولها. يقول الله تعالى: (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) ... يتّضح من مجموع ما ذكرنا في هذا الفصل أن البرهان العلمي لا يساعد على القول بحركة الأرض بل هو مُعيّن لثباتها وأن الحركة للشمس والقمر ... وممّا نقلناه لك أيها القارئ من الآيات القرآنية وكلام أئمة اللغة، وعلماء التفسير، وكثير من علماء الفلك، يتّضح لك صحة القول بثبوت الأرض وسكونها وعدم دورانها وأن هذا إجماع من علماء الإسلام وعلماء أهل الكتاب ... ويتضح لك أيضا بطلان القول بدوران الأرض وأنه خلاف الأدلة النقلية والحسية، ويتضح لك أيضا أن طلوع الشمس وغروبها وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول، كل ذلك بسبب جريان الشمس في منازلها، ومداراتها التي نظمها الله كما يشاء وليس ذلك بسبب دوران الأرض حول الشمس كما يدّعيه بعض علماء الفلك بلا حجّة ولا برهان يعتمد عليهما[395]».

وكأن هذا النص كُتب خصيصا لنيتشه، وكأنه استجابة ما بعديّة لهواجسه وأمنياته في إيقاف عجلة التقدّم العلمي والعودة بنا إلى الوراء. وكم سيكون مُمْتنّا لو رأى اخوةً له في الجهاد ضد العلم، لا يزالون صامدين أمام هجمة الحداثة، ومتمسّكين بالمعتقدات الخرافية العتيقة، ويذودون عن مركزية الأرض بأقوى الأدلة. وكم ستكون دهشته لو اطّلع على ما يقوله الوهابيون عن تكريم الله للإنسان، واستخلافه في الأرض، وتسخيره ما في البر والبحر من خيرات.

وماذا أنتجت لنا هذه التعاليم؟ هل حافظت على كرامة الإنسان؟ هل حرّرته من أوهام الخرافة والتعصّب والإرهاب؟ غنيّ عن القول، والمشهد نراه أمامنا، أن هذه التعاليم لم تنتج لنا إلاّ الجهل والتخلّف والكبْت الجنسي واضطهاد المرأة، فضلا عن التطرّف الأعمى والإرهاب الدّموي، والجنون الديني، وصناعة الانتحاريين المُرتزقة عابري القارات، وكل الدمار الذي نعيشه منذ أكثر من نصف قرن. مشاهد يومية مرعبة: جلد الناس في الساحة العامة، تطبيق حد الحرابة عليهم، قَطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ثم تعليقهم في أعمدة وتركهم يتعفّنون في العراء، وبالجملة المجتمع الذي يؤمن بأن الأرض هي مركز الكون وأن الله استخلف الإنسان في الأرض وأغدق عليه نعمه التي لا تحصى، هو جهنّم الحمراء على وجه الأرض.

395- عبد العزيز بن باز، **الأدلة النقلية والحسية على إمكان الصعود إلى الكواكب وعلى جريان الشمس والقمر وسكون الأرض**، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، 1982، الطبعة الثانية، ص، 64 65.

إنّ جزع نيتشه من النظام الكوبرنيكي، وإدانته الصريحة لاقتلاع الأرض من مركزيتها، تذكّرني بردة فعل المُصلح مارتن لوثر ضد كوبرنيك، الذي وصفه بأنه فَلَكيّ مُتطفّل «يريد أن يبرهن على أنّ الأرض تتحرّك وتدور، وليس السماء والشمس والقمر . . . ذاك المجنون الذي يريد قلب فن علم الفلك! لكن كما تشير الكتب المقدسة، يشوع أوقف الشمس، وليس الأرض[396]»].

وبالتزامن معه، دعا المصلح، ومؤدّب ألمانيا فيليب ميلانتون، السلطات للتصدّي إلى "الفسوق الأخلاقي" الذي ينشره عالم الفلك هذا. "الأعين شاهدة (Oculi sunt testes)»، أي أن ما نراه بالعين يشهد ضد كوبرنيك؛ وسلطة الإنجيل تتكلم ضده؛ إجماع العلماء في كل العصور يعارضه. إذن، كوبرنيك، عبثيّ.

ولا ننسى أيضا ردة فعل أساتذة جامعة أوكسفورد على جوردانو برونو، دائما بفائض من الحنق والشتائم مثلما كتب الأسقف الأنجليكاني جورج أبوت (1562-1633) هذا الرجل القصير الذي يدعو نفسه «الفيلسوف جوردانو بورنو دكتور بارز في اللاهوت» «شرع في محاولة إقامة البرهان على رأي كوبرنيك من أن الأرض تدور والسماوات ساكنة؛ بينما في الحقيقة رأسه هو الذي يدور، ودماغه الذي لا يتوّقف[397]».

لقد قام كوبرنيك بنشر أفكاره وتقديم فرضياته المذهلة، يكتب هيرمان كيستن، حبّا للحقيقة، وهي العنصر الوحيد الإلهي على الأرض، بافتراض وجود إله ما. إلاّ أنه لم يتفطّن إلى أن بعمله هذا سيقذف بالإله في غياهب العدم. لكن الذي سيدرك هذه النتيجة المفزعة وسيُصرّح بها على الملأ، هو جردانو برونو، ولهذا السبب أُحرق. لكن الحظ حالف كوبرنيك في النهاية، واستطاع أن ينتصر لوحده، مُجرّدا من أيّ سلاح إلاّ سلاح العقل، على العالم أجمع: الكنيسة، الامبراطور، أكابر السلط، بطليموس، أرسطو والله[398]. فعلا، ضد الظاهر المنظور، الذي لا يريدنا نيتشه أن نتجاوزه لمعرفة الأشياء كما هي، ضد المعتقدات العتيقة والجهل المتفشي، تقدّم كوبرنيك كالشخص الأكثر جرأة في الألف سنة الماضية.

396- Cfr., H. Kesten, Copernico e il suo mondo, Mondadori Editore, Milano 1960, p. 7.

397- Cfr., M. Ciliberto, Introduzione a G. BRUNO, Spaccio de la bestia trionfante, Rizzoli, Milano 1997, p. 14.

398- H. Kesten, Copernico e il suo mondo, *Ibid.*, p. 8.

ونيتشه، كواحد من القراء المُولعين بغُوته (Goethe) كان بإمكانه أن يطّلع على هذه الإشادة المتحمّسة بتعاليم كوبرنيك ومفعولها الإيجابي على مسار الروح البشري عبر التاريخ: «بين كل الاكتشافات وكل النظريات يكتب غوته لا شيء يمكن أن يُولّد في الروح البشري آثارا أكبر من تلك التي أحدثتها تعليم كوبرنيك. العالَم كان دائريا ومغلقا على ذاته، وإذا به أجبر على التخلّي عن الامتياز الهائل المتمثل في كونه مركز الكون. ربما لم تُواجِه الإنسانيَة تحدّيا أخطر من هذا؛ فعلا، ما الشيء الذي صار هباء ودخانا، بسبب هذه النظرة؟ فردوس ثان، عالم براءة، وشعر ورحمة، شهادة الحواس، قناعةُ إيمان شعري ديني، لا نعجب أبدًا إذا رفضَ الإنسان أن تُسرَق منه كل هذه الأشياء، أَن يقاوم بكل الوسائل هذه النظرية، بينما هي تتيح لمن يقبلها حرّية آفاق حتى ذلك الحين غير معروفة، بل غير متوقعة، وبالمثل عظمة غير متوقعة من المشاعر[399]».

(شآشآ)

ولو كان نيتشه مطّلعا بعُمق على الأدبيات الكلاسيكية لَعَلِم أن الاعتقاد في مركزية الأرض لم يمنع الفلاسفةَ القدامى من التفاؤل بمصير الإنسان، ولتفطّن إلى أن القول بأنّ الكون لم يُخلق خصّيصا للإنسان، وأن الإنسان ليس هو سيّد الخليقة ولا الكائن الأعلى والمبجّل، لم يَحُل دونهم ودون الإ يمان بقدرته على القيام بالأعمال العظيمة وحرّيته في تقرير مصيره.]

في كتاب «الهِبَات» يقول سينيكا إننا مَدينون للشمس والقمر والأجرام السماوية الأخرى بفوائد جمّة حتى وإن كان بزوغها له دوافع أهمّ، فهي تبدو نافعة لنا حتى وإن كانت ترمي إلى غايات أسمى، ... إن علوّ غايتها، يجعل من نشاطها في مرتبة أهمّ من الحفاظ على البشر. ومع أنها فكرت منذ البداية في مصلحتنا فقد أعطت للعالم أمرا يظهر بوضوح أننا لسنا مصدر انشغالها الأخير[400]. فالإنسانية تدخل في سياق العناية الإلهية لأنها تجدها في طريقها، وبمُرورها تُغدق عليها بعض الخيرات، ولكنها تَسير نحو غايات أبعد وأرقى. نحن سنُفرط في الاعجاب بأنفسنا لو ادّعينا أننا أعمدة هرقل، هدف العناية الرئيسي، أننا المركز الذي تتجه نحوه حركات الطبيعة، والعلّة الوحيدة لأعمالها.

399- Cfr., in *Ibid*em.

400- Seneca, I benefici, in Id, Tutte le opere, Bompiani, Milano 2000, p. 457.

على هذه الأفكار يُعلّق الفيلسوف الفرنسي بيار بايل (1647 1706): أعترفُ بأن هذه الخواطر بدت لي جميلة جدا، وأظن أن فيلسوفا وثنيا ما كان بإمكانه أن يقول شيئا أعقل من هذا. فعلا، كيف يمكنه أن يفهم، إذا تأمّل في رَحابَة الكون، وفي فكرة الله، أنّ مخلوقا مثل الإنسان، خاضع لكل أنواع النقائص والسقم الجسدي والروحي، هو الغاية الوحيدة التي تطمح إليها كل أعمال الطبيعة؟ إنّ مِن حِكمة الصانع أن يَضع مقادير متناسبة بين الوسائل والغايات، أن لا يستخدِم تجهيزاتٍ عملاقة لإنجاز عمل صغير، بل، على العكس من ذلك، أن يقوم بأعمال كِبرى، باستعمال قليل من الوسائل. هل نرى صوابا في الطبيعة إذا لاحظنا أنّ مَكنة السماء الرحبة العظيمة والعناصر لا تتحرّك إلاّ لكي توفّر للإنسان حاجياته على الأرض؟ إذا كانت النجوم لم تُصْنَع إلاّ للتّأثير على الأرض، ولتقليل ظلمة الليل لصالح الإنسان، فهذه اللعبة لا تستحقّ شمعة (le jeu ne vaudrait pas la chandelle)[401].

إذا افترضنا أن العالم سُخّر بالفعل للإنسان، فلماذا كل هذا التبذير في المادة؟ لماذا كل هذه الأحجام والمسافات الشاسعة التي تبدو فيها الأرض كقطرة ماء في بحر سرمدي؟ إذا كان الله هو خالق هذا العالم، وسَخّر كل ما فيه لصالح الإنسان لماذا وضع بعيدا جدا عن الأرض هذه النجوم الثابتة والتي، رغم حجمها المهول، تبدو لنا صغيرة كأنها مصابيح؟ لماذا هذا العدد الهائل من النجوم الأخرى التي لم ترها عين البشر قبل الاختراع الحديث للمنظار؟ ما الفائدة التي يجنيها الإنسان المؤمن من أن كوكب المشتري يملك أقمارا تتحرك حوله بانتظام؟ هل تتجرّؤون على القول بأن حلقات زُحل وأقماره التي اكتُشفت منذ مدة وجيزة (النص من القرن السابع عشر، وهذه التّوابع اكتشفها الفلكي الايطالي كاسّيني سنة 1671)، وكانت مجهولة بالنسبة لكل البشر، هي ضرورية للأرض وللإنسان، وبالتالي للمؤمنين، بحيث إنه لو لم توضع في مكانها ذاك، ولم تُؤدّ حركاتها حسب القوانين التي تسير عليها، لانهارت كل اقتصاديات الخلاص ولَلَحِق الخراب بشؤون الأرض كلها؟ أين هو الفيلسوف الذي يعتقد أن كل جزء من العالَم ضروري للأجزاء الأخرى؟ هل فقدان المشتري لواحدة من أقماره سيمنع الأرض من أن تُنتج كل المعادن والأعشاب والحيوان؟ ومن أين يتأتّى لبعض النجوم أن تختفي، من حين

401- P. Bayle, Continuation des pensées divers, in Id, Œuvres divers III, La Haye, Compagnie des libraires, 1737, p. 264b. « si les étoiles n'avaient été faites qu'afin d'influer sur la terre et de diminuer, en faveur de l'homme, l'obscurité de la nuit, le jeu ne vaudrait pas la chandelle ».

للآخر، وتظهر أخرى دون أن يتأثر بها عالمنا؟ هل انطفاء شمعة في قاعة الأوبرا، سيُحدث خللا في المسرحية؟ هل سيُشوّش على الاقتصاديات النباتية للشجرة إن اقتُلعت منها ورقة؟ هل سيضرّ بالأوراق الأخرى؟ النتيجة: ليس صحيحا أن الأرض محتاجة إلى كل ما هو موجود في الكون، وبطريقة غير مباشرة فإن بيار بايل يستنتج أن العالم يسير بحسب قوانين عمياء، لا يفكر في الإنسان، والكون لم يخلقه أي إله، وليس هناك عناية، وأن أسطورة الإنسان الذي كرّمه الله لا معنى لها بتاتا.

نحن لا نرى هذا الارتعاب من علم الفلك، ولا نلمس هذا الفزع من اكتشافاته الباهرة إلاّ عند اللاهوتيّين، الذين يَنظرون إليه بعيْن الخوف والرّيبة. إن الاكتشافات الفلكية المذهلة في الفترة ما بين القرنين السابع والثامن عشر، قادت أحد اللاهوتيين المخاصمين لبيار بايل لأن يصرخ فزعا ورهبة مما أحدثه العلم من ثورة في الذهنيات أتتْ على مئات السنين من الاعتقادات الخرافية الفاسدة. «كم من الاكتشافات الجديدة، وكم من التجارب المستحدثة أرسيت لمساعدة العقل على النفاذ إلى أبعد الحدود، والتي عملت همجيّة القرون السابقة على طمس أنوارها؟ **ومع ذلك، قد يكون هناك شك في ما إذا كان الدين قد حصل على مزايا كبيرة من كل هذه البحوث الجميلة**، وأنه لم يخسر بدل أن يربح شيئا ما. الرياضيات تُعوّد العقل على أن لا يقتنع إلاّ بما هو واضح ومتميّز، بينما هذه الخاصية غائبة عن مادة الدين. علم الفلك يُدوّخ العقل والخيال بالأفكار التي يقدمها لنا حول الامتداد اللامتناهي تقريبا للكون، والأحجام الضخمة للأجرام التي لا نراها إلا كشرارة في السماء. إن الأرض تضمحلّ، حينما نتفكّر في أن مسافات الأجرام تحسَب بملايين الأميال، وأن الخطأ في الحساب الذي يمكننا أن نقترفه بمقدار ثلاثة أو أربعة ملايين ميلا، سيكون تقريبا كما لو أننا أخطأنا بأربعة أو خمسة أقدام. حينما نتفكّر في رحابة الكون، لا ندري بالتحديد ما المكانة التي تحتلها هذه الأرض. إنها نقطة؛ إنها لا شيء، ورغم ذلك فإن الدين يدفع لاعتبارها كالجزء الأعظم من الكون، الأكثر حظوة عند الخالق والوحيدة التي حباها بنِعَمِه وأعاجيبه الخارقة [402]».

402- I. Jaquelot, préface de la Dissertation sur l'existence de Dieu, La Haye 1697. « L'astronomie étourdit la raison et l'imagination, par les idées qu'elle nous donne de l'étendu presqu'infinie de l'Univers, de la grandeur démesurée de tant d'Astres, que nous n'apercevons que comme des étincelles dans les Cieux. La terre s'évanouit quand on fait réflexion, que la distance des astres se compte par des millions de lieux … Quand on pense à cette immensité de l'Univers, on ne sait presque plus quelle place cette Terre occupe. C'est un point ; c'est un rien, que la Religion néanmoins engage de considérer comme la partie la plus considérable de l'Univers, la plus favorisée du Créateur, et la seule qu'il aît honoré de ses grâces et de ses merveilles les plus extraordinaires ».

وهذا اعتراف صريح، من فم لاهوتي، بأن العلم الحديث قلب الموازين وغيّر العقليات وقضى على الأحكام المسبقة، جارفا معها أسطورة محوريّة الأرض وتكريم آدم ورفعه إلى مرتبة أعلى من كل المخلوقات. لكنه لم يعترف بهذه النتيجة، تراجع واحتمى بآخر ملاذ له وهو الدين، لهول ما سينجرّ عنها من نتائج على عقيدته.

الحقيقة هي أن الإنسان كابَد بمفرده من أجل أن يفتكّ من الطبيعة أسرارها، ولم يعتمد إلاّ على قوّة عقله لكي يَعيَ مكانته الصحيحة في هذا الكون، وحينما أزاح فكرة الإله من دماغه تمكّن من معرفة القوانين المُسيّرة لهذه الآلة. الطبيعة، على أية حال، لا تشتغل في صالح الإنسان، بل ضدّه، يقول بايل، والكون عبثي لأنه لا يروم المحافظة عليه، وإذا كان ثمة إله خالق، فإن الحكمة تحتّم عليه أن يفعل أشياء متناسبة مع غايته، لكن العكس هو ما نلاحظه في الكون: «لو أن الله اقتصر على خلق الأشياء الضرورية للجنس البشري سواء بالنسبة لطعامه، أو بالنسبة لجمال المشهد، لكان سديم قطره 500 ألف فرسخ أكثر من كاف. إن شمسا أصغر بكثير وأقل بُعدا نسبيا عن الأرض من تلك التي نراها، ستُوَلّد نفسً المفاعيل لصالح الإنسان. أقول نفس الشيء عن القمر وكل الأجرام. كان كافيا اعطاؤها حجما أصغر، ووضعها على مسافة أقرب من الأرض. فالمسرح كان سيتجلّى أمام أعيننا بنفس العظمة وبنفس الرحابة التي يبدو بها لنا اليوم، وفعالية العناصر لن تكون أقل[403]».

(صآصآ)

نيتشه يتحسّر على حال الإنسان الذي أنزله العلم الحديث من منزلة ابن الإله، وسيّد المخلوقات وأكرمها، إلى مقام الحيوان. لكن أسطورة علوّ الإنسان وتمكينه من السيادة على الحيوان هي عقيدة أنثربومورفية بدائية، استمدّها كاتبو التوراة من الأساطير البابلية، وعن طريقهم تسرّبت إلى المسيحية والإسلام.]

لكن مهما كان مصدرها فهي واهية قبل أن تكون متعسفة. ولقد ردّ أحد الأطباء الحاذقين (غليوم لامي "Guillaume Lamy, 1644-1682")، منذ القرن السابع عشر، يعني في عز الجهل والتطرف الديني على هذه القولة التوراتية وفنّدها بأدلة علمية وفلسفيّة قاهرة[404]. فاتّهموه بالكفر.

403- P. Bayle, Continuation des pensées divers, op. cit., p. 269b.

404- G. Lamy, Discours anatomiques, Rouen, chez Jean Lucas, 1675, p. 2.

قال ما معناه: عن طريق هذه المنطلقات اللاهوتية، وبتفعيل الأسباب الغائية يستطيع اللاهوتيّون إعطاء تفسير لكل شيء، وتأليف كتب لا تحصى وإلى الأبد، لكنها تبقى ضعيفة وغير قادرة على أن تحلّ أي معضلة. أن يكون الإنسان في أحسن تقويم، على أساس كلام الله أو بالنظر إلى ما يتوهّم أنها غاية الطبيعة، وحل المشاكل العلمية بتصدير العلل الغائية، فهذه، عوضا أن تجلّي المعضلات العويصة، تُلقي بالعالَم في مفارقات لا نهاية لها.

الطبيب وعالم التشريح لامي يستبعد الإله من مجال بحوثه، يُقصي الأسباب الغيبية، ولا يلتجئ إلاّ إلى المادة والحركة. يقول إن ديموقريطس، وأبوقراط وأبيقور ولوكريس وغيرهم اتبّعوا طريقا مناقضا، لقد اعتقدوا أن شكل، ووضع وأعداد أطراف الإنسان، تعتمد مبدئيا وبإطلاق على **المادة وحركاتها** (la matière et ses mouvements)، عن مادّة تعمل بالضرورة ودون اختيار، كل ما تَقْدِر على فعله.

تعريف واضح وفصيح: لا إله ولا ملائكة، ثمة فقط مادة وحركة. وتصوّروا هذا الكلام كتبه عالم فرنسي منذ ثلاثة قرون، قبل أن يأتي داروين وآينشتاين وداوكينس. هذه الآلة الضخمة للطبيعة، المُشَكَّلة من مادة وحركة، لو استطعنا أن نرى، مثلا، حجم وشكل وحركة الذرّات التي تتكوّن منها، لعَلِمْنا بوضوح أن كل الأجزاء يجب أن تكون في المواضع التي توجد فيها. وبما أن ثَلاثة نَرْدَات إذا ما دُحرجت على طاولة تُعطي بالضرورة واحدا من الأعداد التي تذهب من ثلاثة إلى ثمانية عشر، دون أن تَقدر على فعل أكثر أو أقلّ، كذلك ذرّات البذرة فهي لزوما تُنتج إنسانا ما، دون أن تقدر على انشاء جسم من نوع آخر.

وهكذا فإن كل أجزاء الجسم مُشكّلة على تلك الصورة من خلال ضرورة عمياء لحركات المادّة (par une aveugle nécessité des mouvements de la matière)، فهي ليست مقدّرة (مُسَخّرة) لأي غاية؛ لكنها تمتلك وظائفها طبقا لاستعدادها، وبحسب مؤهلات الحيوان الذي يستخدمها[405]. لقد التَبَسَتْ هذه الاشكالية على اللاهوتي لاكتانس (Lactance) ولم يفهم قصد الفلاسفة حينما اعترض عليهم بأن أعضاء الجسم، إذا كانت مركّبة بالصيغة التي يقول بها الفيزيائيون ولم تكن مقررة لأجل غاية سامية، فلماذا لم تتشكّل المادة بحيث تجعل من حيوان يَسمع بأنفه، أو يشمّ بعينيه؟ إن

405- *Ibid.*, p. 21-22.

هذا الاعتراض، يُجيب لامي، عبثي كما هو عبثي التساؤل لماذا حينما نُدَحْرِج ثلاث نَرْدات لا نحصل على تسعة عشر أو عشرين، فالمسألة ليست مسألة اختيار بل إن المصادفة هي التي تُخرج عددا دون آخر.

إن مماحكة اللاهوتيين لا تُصيب الفلاسفة لأنّ المنهج الصحيح هو أن تُشتَقّ النتائج مباشرة من مبادئهم، وهم لا يُسلّمون أبدا بوجود علّة عاقلة تُسيّر الكون، وإنّما يُخضعون كل شيء للضرورة العمياء، لحركات المادة؛ هم يَرون أنه حينما تَشَكّل عالمنا الذي هو جزء بسيط من الكون، حدثت، بسبب الترتيبات المختلفة للذرّات أو جزئيات المادة (des atomes ou particules de la matière)، أعداد كبيرة من الحيوانات بمختلف أنواعها؛ بعضها دون عينين، الأخرى دون فم، البعض الآخر دون أعضاء تناسلية؛ وفي كلمة واحدة هناك أعداد كثيرة من هذه الأنواع التي تنقُصها الأعضاء الضرورية أو لها أزْيَد، أو تمْلكها ولكن في غير الترتيب اللازم، وهكذا انقرضتْ، سواء لعدم قدرتها على التغذّي أو لأنها لم تتمكّن من التّناسل. أما الباقي الذي كان ذا تركيبة أفضل، فقد استمرّ وتكاثر ... وبالنهاية سادت الحيوانات الأقوى والأذكى، ومن هنا نستنتج أن لا وجود اطلاقا لغاية قصوى أو عناية محكمة ينبغي التفتيش عنها في هذه المبادئ [406].

أعود وأكرّر بأن هذه الأفكار كتبها عالم قبل أن يأتي داروين بثلاثة قرون، ونحن كنّا نترقّب من مفكر عاش في القرن التاسع عشر أن يُثمّن هذه الأفكار وأن يُضيف إليها، إن استطاع، أشياء أخرى أو على الأقل أن يعرضها بأمانة، لكنه اقتصر على الأسطورة وعاد بنا القهقرى إلى تخاريف الأديان.

العالم غليوم لامي (Lamy) يقول إن هذه الأفكار مُعارضة للدين فعلا، ولكن أطروحاتَ المتديّنين لا تقل عنها معارضة للدين، فضلا عن أنها منافية للعقل. فإذا أخذنا أطروحة «إنا خلقنا الانسان في أحسن تقويم» القرآنية ومثيلاتها في التوراة، والتي كان قد عبّر عنها جالينوس في بعض مؤلفاته، ووضعناها على محك العقل سنلاحظ أنها تتضمّن عددا كبيرا من الاستتباعات الخاطئة. وهي من وجهة نظر لاهوتية غير مطابقة للفكرة السامية عن الإله، والذي يبدو أن قدرته استُنفذت في صنع هذا الكائن الذي يشكو تكوينه عددا كبيرا من النقائص.

406- *Ibid.*, 24.

يجب التفكير في الطبيعة عموما من منظور العلل الفيزيائية المحايثة وتفادي الاستنتاج عن طريق العلل الغائية. كذلك أيضا فإن التفكير في أعضاء جسم الإنسان بالعلل الغائية سيدخلنا في متاهات لا يمكن الخروج منها. فجالينوس والتوراة والقرآن يتحدثون عن الإنسان في الحالة التي هو عليها الآن دون الرجوع إلى القرون الغابرة التي خرج فيها عاريا من أيدي الطبيعة. كَمْ من الزمن مرّ على الإنسان دون أن يملك الوسيلة حتى للدفاع عن نفسه ضد الذّباب (se défendre des mouches)؟ كم من القرون انقضت قبل أن يصنع ملابس وأسلحة، لكي يصل إلى مستوى الحيوانات في حالة ولادتها؟ وبكل البراعة التي اكتسبها لعدة سنين متواصلة، ألم يصبح، بسبب أسلحته، أتعس من الحيوانات؟ إذا سلّمنا بأن الله هو الذي خلق الإنسان فإن نقائص طبيعته التي أثبتها علم التشريح تتّهمه، أما إذا عزوناها كلها إلى المادة فإن النقائص تجد لها تفسيرا عقلانيا مقبولا. أنا أزعم، يقول لامي، أن الإنسان فيه عيوب تكوينيّة كبيرة، وأنه كان بالإمكان أن تكون له خاصيّات يعدمها الآن، وبالتالي فإن الإنسان «**كان بإمكانه أن يكون أفضل** (il pouvait être mieux)[407]». إن هذه الجرأة التي يُبديها عالم عاش في عصر محاكم التفتيش المظلمة لا نجدها عند فيلسوف عاش في عصر التنوير والحرّية.

والعالم لامي مُصرّ ولا يتزحزح عن رأيه: نعم الإنسان غير كامل في تركيبه، وهو ليس في أحسن تقويم، لأنه يُعدَم كثير من الخواص التي كان بإمكانه الحصول عليها لو كانت صناعته صادرة من عقل مدبّر: «أعيدها، وأجرؤ القول بأن الإنسان سيكون أكثر اكتمالا لو استطاع أن يطير مثل الطيور، أن يسبح مثل الأسماك، أن يجري مثل الأيل، أن يهاجم ويدافع عن نفسه بقواه الذاتية، مثل الأسود والثيران[408]».

أنا أرى أن نصيحة العالم لامي صالحة إلى اليوم ويمكنها أن تُقشّع غيوم النيتشوية التي تلبّدت فوق العقول وبَنَتْ مجدها على معاداة العلم والعقلانية: «إنني أنزل هذه الملاحظة ليس فقط لأنها جميلة وجديدة لكن لكي أجعلكم تتخذون قرارا ستشكرونني عليه طوال حياتكم. التزموا دائما بفحص الأشياء بأقصى ما تقدرون عليه، وبالاعتماد على أنفسكم. انزعوا عن أذهانكم هذا الاعتقاد الخرافي في الكُتّاب. لا تُضيّعوا جهدكم لتبرير أخطائهم ... احترزوا من الأفكار إذا ما تعلّقت بمجال الواقع، وضعوها

407- *Ibid*., p. 161.

408- G. Lamy, Cours, *Ibid*., p. 131.

على محك التجربة. المظاهر دائما خادعة؛ حينما نُدقّق في الأشياء المُسَلّم بها عالميا نجد فيها الكثير من الأخطاء[409]».

(ضاَضاً)

على المستوى الفلسفي البحت يمكن تحطيم أفكاره بسهولة: جينيالوجيا الأخلاق هو كتاب شرير ولاأخلاقي، غير قابل أن تَستمدّ منه شيئا غير القسوة والجنون. وقد تفطّن معاصره هيرمان تورك (Hermann Türck 1856-1933) إلى هذا الأمر وانتقدَه بشدّة: سمّاه عدو الحكمة، "أنتيزوفير (Antisopher)"، "نبيّ الشيطان ومحترف الكذب". وقد تسنّى له فعل ذلك بحرّية لأن نقد نيتشه في تلك الفترة لم يكن من الهرطقة بمكان، ولم تَتشكّل بعد حلقات مُريدين تقديسّين، وجمعيات مُنافحين شرسين.]

بخلاف ماكس ستيرنر (Stirner) الذي أنتج عملا واحدا، بَلوَر فيه تعاليمه الفردانية الأنانية، فإن نيتشه، يقول تورك، ألّف سلسلة من الأعمال تحضّ على التمرّد ضد كل القوانين، وتدعو إلى أبشع أنواع الطغيان والفوضوية[410]. مثل شتيرنر فإن نيتشه يرفض كل واجبات الإنسان تجاه أمثاله، لا بل إنه مقتنع بأن المحبّة، واحترام الآخرين، والعمل الخيّر ليست إلاّ دليل ضعف. الأخلاق اليهودية المسيحية، التي تأمر بمحبة القريب، هي أخلاق عبيد، على خلاف السيّد الارستقراطي الذي يخترق كل الحدود، لا يعترف بأي شريعة أو قانون، ويتّبع فقط نَزوته. ولقد ابتدع نيتشه لوصف هذه النزوة الذاتية عبارة مهيبة "غريزة الحرية (Instinkt der Freiheit)" وإرادة القوة. لكن الحرية التي يَعنيها نيتشه، هي حرية أن تفعل ما تشاء، دون أدنى اعتبار للآخرين، أي حرية مَبنية على نزوة ذاتية خالصة، لا يمكن أن تُحدَّ حتى بالخوف من العقاب المناسب، في حالة خرق القانون واقتراف جريمة.

فعلا، نيتشه يُكْبِرُ في المجرم، ذاك الإنسان الذي يحتقر القانون، والعدالة، والرحمة، أي الإنسانَ الأناني بامتياز (den Egoisten par excellence)[411]. **في ما وراء**

409- *Ibid*., p. 85.

410- H. Türck, Der geniale Mensch, 9. Auf. Berlin 1918, p. 291.

411- هيرمان تورك، **الإنسان العبقري**، م. س، ص، 292.

الخير والشر يقول إن مُحاميّي المجرم ليسوا على درجة عالية من التّفنّن لكي يَقْلبوا الفعل الاجرامي الفظيع إلى فعل جميل لصالح فاعله[412]. تورك يقوم بتجربة ذهنية لكي يُبيّن وحشية هذه التعاليم واستهتارها بأبسط معايير الاجتماع البشري. يقول: تصوّروا، على أساس هذه الأسْطُر، مُرافعَة مُحام على هذا النحو: «حضرة القاضي، إن المُتّهَم اعترف بأنه اقترف جريمة القتل: لكن أطلّب من حضرتكم أن تعتبروا كم هي جميلة فظاعة جريمته. ومنْ شَغفه الهائل بالجريمة كما يقول نيتشه العظيم، "كانت نفسه تبتغي دمًا ... لقد كان مُتعطّشا لغبْطة السكّين![413]" قام بخطف طفل وأخذه إلى مكان معزول، ثم قتله ببطء بعد أن أذاقه عذابا رائعا ... دون شفقة قام بهذا العمل. كم عزما وكم رباطة جأش يبرزان من هنا! مَن الذي سيكون غير قادر على تقليده بكل سهولة؟ من الذي لا يفضّل الانتحار على عدم إلحاق هذه المعاناة الرهيبة بمخلوق ضعيف؟ أيها السادة المحلفون، أنا أترجّاكم، أن تُثمّنوا عزيمة هذا الرجل وبَصيرته، وكذلك أتوسّل إليكم أن تعتبروا ما كان سيقدر عليه من إنجاز، لو أنه اعتلى العرش[414]».

على هذه الشاكلة يجب على كل محام فنّان، كما يصفه نيتشه، أن يُحوّل الجرائم الأكثر فظاعة لصالح فاعلها. أن يكون هذا الأمر ليس مبالغا فيه، يقول تورك، أن يكون هذا المحامي يتكلّم على لسان حال نيتشه وبعباراته، يظهر من خلال كلامه هو. ألم يقل في **جينيالوجيا الأخلاق**: «يبدو أن رقّة الحيوانات الداجنة (اقرأوها الرجال المعاصرين، اقرأوها نحن)، أو بالأحرى رياءها يَشعر بالنفور من تَمَثُّله، إلى أيّ حدّ كانت القسوة هي التسلية المُفضّلة عند الإنسانية البدائية، وكيف كانتَ تُشكّل عنصرا في كلّ ملذاتها تقريبا، ومن جهة أخرى كم تبدو حاجتها للقسوة ساذجة وبريئة، وكم يبدو الخبث المجاني لديها صفة عادية من صفات الإنسان، أي شيئا يمكن للضمير أن يقبله عن طيب خاطر[415]».

412- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، § 110، ص، 110.

413- نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، «عن المجرم الشاحب»، ص، 82.

414- تورك، **الإنسان العبقري**، م. س، ص، 292.

415- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، م. س، 6 § ،I. ص، 57. في ترجمة المسكيني نقرأ: «هذا أمر، كما يبدو لي، يأباه الظّرْفُ، بل أكثر من ذلك يأباه رياء الحيوانات المنزليّة الأليفة (أعني الإنسان الحديث، أعني نحن)، في المساعدة بكل قوّة عن أن نتمثّل إلى أيّ حدّ كانت القساوة بهجة العرس الكبرى للإنسانية البدائية، أجل باعتبارها ما تصنع منه كل مباهجها تقريبا؛ ومن جهة أخرى، كم تبدو ساذجة، كم بريئة حاجتها إلى القساوة». ص، 92.

وتأكيدا لهذا النزعة الوحشية، يضيف نيتشه «لم يكن ممكنا منذ أمد ليس ببعيد، أن نتخيّل زفافا أميريّا ولا حفلة شعبيّة رفيعة المستوى، يغيب عنها الإعدام أو التعذيب أو الإعدام حرقا، كما أنه لم يكن ممكنا وجود أية أسرة مهما قل مظهرها الأرستقراطي في غياب مخلوقات يُمارَس عليها أفرادها الخُبث والقسوة الساخرة ... رؤية الآخر يُعاني تُنعشنا، وإيلامه يُنعشنا أكثر[416]».

تعليق تورك: نيتشه إذن يُمجّد الانسداد الأخلاقي (die sittliche Borniertheit)، ويجعل منه الأخلاق الأصيلة للسيّد، وأنا أقول المجرم (Verbrecher)، التي هي في تعارض مع أخلاق المسيحية، أو مع تصوّر أخلاق الإنسان العادل والصالح، تصوّر أطلق عليه، بسبيل التحقير، اسم: أخلاق العبيد اليهودية المسيحية[417].

لكن بعد الانسداد الأخلاقي يأتي انغلاق العقل، وانسداد الفكر، لأن العقل، والحقيقة، والعلم (Vernunft, Wahrheit und Wissenschaft) بالنسبة لنيتشه، إن هي إلاّ نزوات جنونيّة، قيود مفروضة على الذات، يجب أن تخلع من العرش، ويوضع مكانها، اللاعقل، الكذب، الغباء. وقد أعرب عن ذلك بقوله: «لا يزال إيماننا بالعلم مَبنيّا على اعتقاد ميتافيزيقي (metaphysischer Glaube)، نحن أيضا مُفكّرو الوقت الحاضر الذين نبحثُ عن المعرفة، ومناهضو الميتافيزيقيين، نحن أيضا نستمدّ شُعلتنا من تلك النار التي أشعلها اعتقاد عُمره آلاف السنين، من هذه المسيحية التي كانت أيضا عقيدة أفلاطون والقائلة بأن الربّ هو الحقيقة وأن الحقيقة ربّانية. ولكن ماذا لو أن الإيمان بهذه العقيدة صار يَتَناقص ولم يعد أي شيء يبدو ربّانيا ما عدا الخطأ والضلال والكذب؟[418] ». في رأي تورك، ما كتبه نيتشه هو التعبير الأكثر فصاحة عن كراهية كل حقيقة وكل حكمة يمكن أن يتفوّه بها عدوّ الفلسفة[419].

416- ن. م، ص، 57. ترجمة المسكيني: «لم يكن المرء، منذ أمد ليس ببعيد، ليتصوّر عرسا أميريّا واحتفالا شعبيّا من الطراز الرفيع من دون إعدامات وعذابات أو شيئا من الموت، كما لم يكن ثمّة بيت نبيل من غير كائن، عليه يمكن للمرء دونما حرج أن يصبّ شرّه ومزاحه الفظّ ... أن نرى ألما هو أمر يمنح الراحة، أما أن نؤلم، فذلك أروح للنفس أكثر فأكثر ... دونما قساوة لا يكون عرس: كذا يعلّمنا التاريخ الأقدم والأطول للإنسان أنّ في العقاب أيضا قدرًا كبيرا من الاحتفال». ص، 93.

417- **تورك، الإنسان العبقري، م. س، ص،** 393.

418- **جينيالوجيا الأخلاق،** 24 § ،III، ص، 133.

419- تورك، **الإنسان العبقري،** م. س، ص، 294.

أن يكون نيتشه رافضا للعقل والحقيقة، بغرض تمجيد أنانيّته واعتباطه الشخصي، وانسداده الأخلاقي، فإن كلامه هو الشاهد عليه، حين يقول إنّه «دليل طبع قويّ، أن يتّخذ القرار بأن تُسدّ الآذان أمام أفضل حجّة مضادة»، يعني ألا يُصغى لأي عقل أو حقيقة، وأن يفضّل «**إرادة الغباء** (Wille zur Dummheit)[420]».

إذن الغباء الأناني، الإصرار على أن لا يرى وأن لا يسمع أية حجة وأي دليل واضح أمامه، لأن السماع والرؤيا، تنتصب ضدّ مصالحه الأنانية، ولذلك فهو يرشّح الغباء كصفة مميّزة من صفات الإنسان الأعلى. وبما أن العِلم مبني على العقل والحقيقة، فيجب أن يُطاح به؛ العلم يتضارب مع خياره الفوضوي، يحدّ من حركته، يَسجنه في قوانينه الخالدة، ويضعه أمام محدوديّته في الكون اللامتناهي. لكنه هو، كأنانيّ، كوحيد جنسه، لا يريد أن يفقد أهمّيته ومركزه، لا يريد أن يشعر بأنه تابع، يريد أن يكون الله. ولذلك فهو يتألم شديد الألم من وضعيّته، ويمتنع عن الإقرار بأن كوكب الأرض كله ليس إلاّ ذرة غبار في الفضاء اللانهائي. بالنسبة إليه، وبالنسبة للأناني عموما، الأرض يجب أن تكون ساكنة في وسط العالم، وهو يريد أن يكون مركز هذه الأرض، بعيدا عن علم الفلك الحديث (Fort mit der modernen Astronomie)[421]. فعلا، بالنسبة لنيتشه، نظام كوبرنيكوس كان كارثة على الإنسان: «أليس ميل الإنسان إلى غبن نفسه، أليست إرادة الغبن لديه، منذ كوبرنيك، في تصاعد مستمرّ؟ ... كل العلوم، الطبيعية منها أو غير الطبيعية ... تعمل اليوم على تدمير الاحترام القديم الذي يكنّه الإنسان لنفسه[422]».

كما أن ماكس شتيرنر ينكر كل أخلاق وكل حقيقة، هكذا نيتشه، يرى في شعار الحشّاشين أعلى تعبير لما يفهم بـ"حرية الفكر": «لا شيء حقيقي، كل شيء مباح[423]».

ويَمتدّ التشويه إلى مناطق أخرى، كما يقول تورك. ليس فقط في ميدان الفعل والفكر، وإنما أيضا في ميدان الجماليّات، حيث يسحب نيتشه اعتباطيته ونزواته على أساس أنها هي المبدأ الوحيد لتقييم العمل الفني. لقد عرّف كانط الجمال على أنه ما

420- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، § 107، ص، 110.

421- تورك، **الإنسان العبقري**، م. س، ص، 294.

422- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، م. س، 25 § ،III، ص، 136.

423- **جينيالوجيا الأخلاق**، ص، 132.

يعجب عموما ودون نفعيّة شخصية، لكن على عكس هذا فإن نيتشه يرى أن ما هو جميل هو فقط ما يقرره هو، ما يريد أن يعتبره كذلك، وما يخدم إحساسه الشخصي.

فهو يسخر من أولئك الذين وصلت بهم الحماقة إلى حد الاعتقاد بأن الفنان يعجبه في نموذجه فقط النموذج المثالي، وقد امتدح ستاندال (Stendhal) لتعريفه الجمال على أنه «وعد بالسعادة»، باللذة. ولكن هذه اللذة يمكن أن تتمثل بالنسبة للأناني، إن كان فنّانا، في جَرْفِ مبادئ الفنّ وسَحْل كل قواعد الاستيطيقا، وبالتالي جُرح الشعور بالجمال، عن طريقِ ما هو قبيح ومُشين. فعلا، لسان حال نيتشه يقول: بما أنني أناني فلا مانع لديّ من التمتّع ببدن امرأة أخرى وتعذيبها نفسيّا. فالفن هو قدرة ذاتية، نابعة من «تجربة شخصية ناتجة عن مجموعة من التجارب الأصلية والقوية ومن الرغبات والمفاجآت والافتتان في ميدان الجمال[424]». وهكذا فإن النزوات الذاتية والفوضوية، وانتهاك كل القوانين الطبيعية دخلت هي أيضا إلى مملكة الفنّ[425].

إن أساس الغريزة الأقدم في الإنسان، على رأي نيتشه، هي غريزة الحرية (Instinkt der Freiheit)، أي الرغبة في التمتّع بحرّية لا حدود لها لفعل ما يريده الشخص، بعبارة أخرى الاعتباط الأقصى. وقد أطلق عليها اسم: "إرادة القوة"، أي شعور الجناة بالقوّة على ضحاياهم، كما عرضها بشكل مذهل دستويوفسكي في مقطع من "مذكّرات من بيت الأموات"، وهي أنانية لا حدود لها، وحشية لا يمكن أن ترضيها تماما إلا ممارسة القسوة على جسد ما، وتدمير كائن حيّ. كُلّما كانت عملية التعذيب وحشية، والمعاناة التي يُلحقها المجرم بضحيّته شديدة، كلما زادت درجة متعته وتصاعد تلذذه. إذا كانت هذه النزعة الفظيعة، "إرادة القوة"، غير قادرة على أن تُفرغ شحنتها في الخارج، ولم يتمّ إيقافها وقمعها قسرا، سوف تفرغ في الداخل، حسب نيتشه؛ في هذه الحال فإن الشخص سيبحث عن تلبية رغبته الجامحة في الوحشية من خلال تعنيف نفسه، تعذيب ضميره، وهذا ما يسمّيه نيتشه الضمير الشقيّ، أو تأنيب الضمير (das schlechte Gewissen)[426]. فلا بد على أية حال أن يُمارس المرء قسوته، أن يجد منفذا يسرّح فيه وحشيته، هذه الأعمال، حسب عدو الحكمة (*der Misosophe*)، تَنتمِي إلى الحياة الأصيلة، القديمة منها أو الحديثة.

424- **نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق.** 6 §، II، ص، 93.

425- تورك، **الإنسان العبقري**، م. س، ص، 295.

426- تورك، ن. م، ص، 296.

إنّ تأنيب الضمير، أو الشعور بالذنب، بالنسبة لنيتشه هو نتاج لقيود خارجية، وبالتالي شيء مضاد للطبيعة، ومَرَضِيّ. فهو يعتقد أن هذا الشعور نشأ في الوقت الذي كان فيه قسط من البشرية خاضعا لضغط تنظيمات سياسية، لم يعد ممكنا للإنسانية أن تمارس علنا „فرحتها الفظيعة، وابتهاجها الشديد في الدمار، في مشاعر النشوة بالنصر والقسوة"[427]. نيتشه يقول: «أعتبر **الشعور بالذنب** مرضا خطيرا كان لا بدّ أن يُصاب به الإنسان تحت تأثير ذلك التحوّل الأكثر جذريّة من كلّ التحوّلات التي مرّ بها، التحوّل الذي حدث لمّا وجد نفسه مُقيّدا بغُلّ المجتمع والسّلم. ومثل حيوانات مائية مُرغمة على التكيّف مع الحياة البرّية أو الهلاك، فإن النصف حيوانات التي اعتادت كثيرا على الحياة المتوحّشة وعلى الحرب والتّجوال والمغامرات قد وجدت فجأة كل غرائزها معطّلة عن العمل[428]».

تلك الغرائز القديمة «لم تَتَخلّ دفعة واحدة عن متطلّباتها! ولكنها كانت تجد صعوبة، وأحيانا استحالة في تلبيتها، الشيء الذي أرغمها على البحث عن تلبية جديدة وخفيفة. كل الغرائز التي لا تتحرر إلى الخارج، أي التي لا تتمّ تلبيتها، تعود إلى الداخل، وهذا ما أسمّيه استبطان الإنسان: بهذه الطريقة ينمو فيه ما سنطلق عليه لاحقا اسم النفس. كان عالم الإنسان الداخلي يشغل حيّزا ضئيلا لأنه لم يكن يكبتُ فيه غرائزه، ولمّا أُعيقت تلبيتها كبُر هذا العالم وتضخّم بشكل كبير. لقد أفلحت الحصون الضخمة التي شيّدها النظام الاجتماعي ليحمي نفسه من غرائز الحرية القديمة يجب أن نضع العقاب في طليعة وسائل الدفاع هذه أفلحتْ في جعل كل غرائز الإنسان المتوحّش، الحر والجوّال، تنقلب ضد الإنسان نفسه. وهكذا انقلبت **غرائز العداوة والقسوة ولذّة القمع**، ضد صاحبها، وهذا هو أصل الشعور بالذنب. أصبح هذا الإنسان، عقب ضعف مقاومته وقلّة أعدائه الخارجيّين، وبعد أن أصبح مُقيّدا بشرعية العادات، أصبح يتمزّقه الحزن والجزع ويضطهد نفسه ويُضنيها ويُرعبها ويَذلّها. هذا الحيوان الذي نريد أن نُدجّنه والذي يصطدم حدّ جُرح نفسه بقضبان قفصه، هذا المخلوق الذي يُضنيه حرمانه من الصحراء فصار يحنّ إليها لأنه قد يجد فيها ميدانا للمغامرة، حديقة من العذاب، بلدة خطرة غامضة، هذا الأحمق، هذا الأسير ذو الطموحات البائسة، هو مَن

427- تجدون هذه الفظاعات في الفقرة 11، من المبحث الأول من جينالوجيا الأخلاق، ص، 23 25.

428- **جينيالوجيا الأخلاق**، 16 § ،II، ص، 72.

ابتكَرَ الشعور بالذنب. وهكذا تمّت إشاعة هذا المرض الخطير والمزعج الذي لم تُشف منه الإنسانية حتى الآن، ولا يزال الإنسان يعاني من الإنسان، لا يزال هو مرض نفسه. هذه عاقبة القطيعة العنيفة مع الماضي الحيواني، عاقبة قفزة تبعها وقوع في أوضاع جديدة، وسط شروط وجود جديدة، وسط إعلانٍ للحرب ضد الغرائز القديمة التي كانت حتى الآن تشكّل قوة الإنسان وفرحته ومزاجه المرهوب الجانب[429]».

إن تفسير نيتشه للشعور بالذنب كنتاج لكَبْت غريزة الوحشية والتدمير، وتحويلها إلى الداخل، تُوفّر دليلا ضافيا، يقول تورك، على أن فكرته الثابتة عن "قَلب كل القيم"، واقتلاع كل المشاعر الرقيقة من قلب الإنسان، وجميع النبضات الاجتماعية والإيثارية، نابعة من ذهن مختلّ، أساسه هو روح مريضة (auf der Grundlage krankhafter Seelenstörung)[430]. ذلك أنه كلّما كانت النزعة المرضية، اللاأخلاقية، الاجرامية حاضرة، ولم يتمّ تفعيلها في الواقع، كلما سبّبت ألما وعذابات لصاحبها؛ ولعدم التحقق هذا، دافعان على الأقل، خارجي وداخلي؛ الخارجي حين تتصدى قوّة برّانية لنزعة الإجرامي للتدمير؛ الداخلي، هو المقاومة المتأتية من نزعة الخير ومن الدوافع الأخلاقية الذاتية التي ما زالت فاعلة في الفرد. كل عدم استجابة لنزعة مُلحّة تولّد ألما، وكل نَبْذ لرغبة جامحة، تبدو للفرد المَعْني على أنها ممارسة قسوة من جانبه تعوق إشباع الدافع أو تحقيق الرغبة. والقسوة تبدو أكبر، كلما كان الدافع أقوى، وشدّة الرغبة أكثر حماسا، كلّما تمكّنت من ذهن الفرد وطغت عليه.

فالإنسان ذو الذهنية الأخلاقية الضعيفة، والشخص الذي تكون غرائزه الأخلاقية، بالمقارنة مع نزعاته اللاّأخلاقية، غير متطوّرة بشكل كامل، سيجد نفسه بين قرني مفارقة: إما الانهيار التام أمام صراع المشاعر هذا، أو على الأقل جَعْل الحفاظ على الطابع الأخلاقي صعبا ومؤلما. بالنسبة لهذا الإنسان، سواء تعلّق الأمر بالقوة الخارجية التي تُقيّد اعتباطيته المرضيّة، أو بالمقاومة الداخلية لغرائزه الأخلاقية الموروثة ضد لذة التدمير، سيبدو له كل ذلك في غاية القسوة. ففي الحالة الأولى، ستبدو له التقييدات الاجتماعية بمثابة فحص ومراقبة خارجية لغرائزه التعسفية وضوابط قاسية تمنع "إرادة القوّة" التدميرية من الانفراط؛ وفي الحالة الثانية، تبدو له كقسوة ضد نفسه، كعذاب ذاتي، كإذلال للنفس، وتمزيق للذات، كتَنسّك وزُهد.

429- ن. م، ص، 72 73.

430- تورك، م. س، ص، 292.

النتيجة هي أن الإنسان الذي انطفأ فيه الوازع الأخلاقي يهرب من الإلزامات الخارجية التي يفرضها عليه المجتمع بتفادي الإنسان، وبما أن هذه الحدود تبدو له ممثلة لقسوة المجتمع إزاءه، فهو يكره المجتمع، يحقد على النظام، على البشرية جمعاء (die Menschen hassen)[431].

لكن ضبط النفس الداخلي، على العكس من ذلك، والمقاومة التي تبديها الدوافع الأخلاقية الفطرية والمكتسبة ضد إرضاء الغرائز اللاأخلاقية الاعتباطية أو إرادة القوّة، ترافقها، من جهة، رغبة في تحرر أسرع وأكثر عنفا من هذا العذاب الذاتي، وفي سبيل الخروج من الصراع الداخلي الرهيب، فهو يختار التحرّر عن طريق الانتحار (durch Selbstmord)[432].

وفي هذا الشأن فإن تورك لا يتجنى على نيتشه، لأن الرجل نفسه يقول ذلك في **ما وراء الخير والشر**: «أن فكرة الانتحار هي وسيلة تَعزية قوية: بها يُجهز المرء جيّدا على تعب بعض الليالي[433]».

ومن جهة أخرى، يواصل تورك، فإن الضوابط الداخلية تثير الرغبة في تسوية عن طريق سحق النوازع الأخلاقية الفطرية والمكتسبة التي تُعرقل تلبية الغرائز اللاإنسانية، والتي لا تزال متغلّبة ما دامت العادات الأخلاقية مُحافَظ عليها بشق الأنفس. ولتحقيق هذه الغاية، فإن المُعَذَب، مع كل الحصافة التي يمكن أن يتحلّى بها أحيانا في مثل هذه الحالات المتّسمة بالاضطراب العقلي، يسعى إلى تبرير نوازعه غير الأخلاقية والاجرامية واللاإنسانية، باعتبارها كحق طبيعي للفرد في مواجهة المجتمع، في حين أنه، من ناحية أخرى، يسعى إلى إلقاء كل الازدراء على ما يناقضها، أي الدوافع الأخلاقية الرحيمة، التي ترتكز، في رأيه، على عجز وجبن أو مجرد خيالات.

(طآطآ)

أن يستخدم نيتشه كل ما في جعبته من أدوات حجاج عقلاني وأن يُوظّف كل ما يملكه من زخم خطابي لكي يُبرّر الانحراف الأخلاقي ويسوّغ كل أنواع الإجرام، فهذا يدخل في باب المرض العقلي، أو ما أسماه تورك: الجنون الممنهج.]

431- ن. م، ص، 299.

432- ن. م، ن. ص.

433- **نيتشه، ما وراء الخير والشر، أفوريزما 157**. ص. 120.

ويستشهد تورك بعالم نفس ألماني، هاينريش شُولَه (Heinrich Schüle 1840-1916)، الذي درس هذه الظاهرة من خلال احتكاكه ببعض المرضى النفسانيين: «عموما نرى في شكل هذا التفكير للمريض النفسي توليفا بين تماسك نسبي في تسلسل الأفكار، وقوّة في تشكيل الأحكام والاستنتاجات، مع تشوّه في المشاعر وفي غريزة الحياة (Triebleben)». إن هذا التوليف قد يحدث بالتزامن أو قد يحدث على التوالي، أي بطريقة تتأثر فيها الوظيفة المنطقية بالاضطراب السائد في النزعات والمشاعر، وهي مُفَصّلة، ما بعديّا، كمجرد رِدَاء، في دوافع نفسية، لتبرير ما أنجزته سابقا الدوافع العضوية بشكل مستقل. هذا هو الوهم الحقيقي للنقد الأخلاقي (die eigentliche Illusion der sittlichen Kritik)، الذي يُفسده دافع عضوي منحرف؛ بعبارة نفسانية: تحوير وإفساد النشاط المنطقي من قِبَل التأثير الطاغي لمقدّمة (عضوية) مَرضيّة (krankhaften (organischen) Prämisse)[434].

في هذه الحال تنقلب الطبائع، يواصل عالم النفس، والعقل «يُصبح مُحامي الشيطان (*advocatus diaboli*) للمزاج المرضي والنوازع المنحرفة. إن التعبير السّريري (klinische Ausdruckweise) الذي يتمظهر فيه هذا النمط من التفكير، يعتمد على محصلة درجة القوة العقلية الكلية لكل فرد. في حالات الضعف العقلي فإن هذا التعبير يأخذ شكلَ عذر أخرق، مُبرّرات متهوّرة أو سطحية (brutalen oder einfältigen)، فهو يستولي على كل الذرائع، حتى تلك الأشدّ سخافة؛ في حالات الإثارة الشديدة، من ناحية أخرى، فهو يبدو دقيقا وفطنا، لا يحرجه أي اعتراض، ويعرف جيدا كيف يجمع على نحو تلفيقي بين كل الأشياء، وكيف يُضيف ويَخْصِم يُؤوّل كما يقول نيتشه حسب ما تقتضيه الحاجة حتى يتناسب مع كل المنظومة المرَتبة جيدا ومع الغرض الذي فرضه عليها مسبقا. هذا هو **الجنون مع المنهج** (Wahnsinn mit Methode)، التحجّر العبقري[435]».

نحن نعي، يقول تورك، أن نيتشه "يعرف كيف يجمع كل شيء" ببراعة فائقة، وأنه يستخدم "لطائف" لا تضاهى لكي يبرّر النزعات المريضة، اللاأخلاقية، اللاإنسانية باعتبارها الصوت الوحيد الجيّد، النبيل، والأرستقراطي.

434- H. Schüle, Handbuch der Geistkrankheiten, 2. Auflage, 1880, p. 74., cit in H. TÜRCK, Der geniale Mensch, op. cit., p. 300.

435- *Ibid*., p. 301.

هاينريش شوله يضيف في كتابه "دليل المرض النفسي، ص، 75 وما بعدها": «فقط على أساس اختلال نفسي حادّ، فطري أو مكتسب، يمكن أن يتطوّر هذا الخليط الغريب بين الصحة العقلية والمرض النفسي الأخلاقي ـ، الذي من خلاله، يَرتقي هذا الأخير، في مزاجه غير الطبيعي، إلى المقدّمة الأولى للعمليات الفكرية الصوريّة، بينما الدافع العضوي يتحوّل لاشعوريّا إلى الزّيْف الأوّل (الخطأ الأوّل "proton pseudos") لتفكير منطقي فُصّل بعناية على قياسه.

تماما كما أن سفسطة جيّاشة وجدلية ثاقبة جدا ورغبة ملحة في المماحكة تشير بما فيه الكفاية إلى تهيّجات عضوية، تعدّت مجال المفاهيم، وهكذا فإن عدم استعدادها لقبول منطق الآخرين، تُظهر انهيارا روحيا كبيرا على الرغم من كل النفاذ الذهني، في حين أن التناغم المتبادل بين التصوّرات الصحية والمرضية يتجلى في الانقسام الداخلي (innere Entzweiung)، والحياة المزدوجة (Doppelleben)، وهما دائما سمة مميزة لشخصيّة مريضة ... ويعتبر علم النفس أن الأعراض الخاصة بهذا المريض هي أن الاضطراب المخفي تحت القناع الأكثر خداعا للصحة العقلية، يتمثّل أولا: في إكراه قسري، رغم معارضة كل الأدلة المفحمة، يُمكّنه من القيام بمهمة التبرير في الاتجاه المحدد بشكل صارم، وثانيا: في تحوير مجرى الآلية النفسية التي تعاني، في هذا الجدل المنقطع، من تشوش كرونولوجي بين السابق واللاحق (*Hüsteron Proteron*) في سيرورة الفعل».

ويؤكّد تورك أن هذه الحالة تنطبق بالتمام على نيتشه وتَعكس جيّدا انسداد أفقه الروحي. فعلا، كلما قَويت الطاقة الذهنية لَمعدوم الأخلاق، كلما كان تفكيره أدق، وعَرَف جيدا "كيف يَخلط الأشياء"، لكي يتسنى له تبرير النزعات اللاأخلاقية التدميريّة، وكان بالتالي أكثر منهجيّة في جنونه (in seinem Wahnsinn). وفي هذا الصدد، فإن ما قام به نيتشه فريد من نوعه (Einzigartiges). انسداده العبقري مذهل للغاية ويفوق جميع أتباعه[436]. بالنسبة لتورك، نيتشه لا يملك الشجاعة الكافية لكي يختار الانتحار، ولذلك سعى عدوّ الحكمة (Misosoph) إلى الهروب من التمزّق الداخلي، من صراع الغرائز الإنسانية الاجتماعية ضد النزعات التدميرية عن طريق إضعاف وسَحل الغرائز الأخلاقية والاجتماعية وجعلها بغيضة في نظره، كما لو أنها مبنيّة فقط على الجبن والوهم. فمقاومة الغرائز الاجتماعية للرغبة الجامحة في إطلاق

436- تورك، **الإنسان العبقري**، م. س، ص، 302.

العنان للنزوات الفوضوية المدمرة، تبدو للإنسان الضعيف أخلاقيا، قسوة على نفسه (eine Grausamkeit gegen sich selber).

إن هذا التعذيب الذاتي سيتوقّف في اللحظة التي تجتمع فيها الغريزة الأنانية وغير الأخلاقية مع انعدام المقاومة الداخلية من طرف النزعات الاجتماعية، يعني حينما تتمكّن إرادة القوة التدميرية من إيجاد منفذ لها في الخارج، مثل إبادة بعض الكائنات الحية، أو عمليات القتل والحرق والخطف والسرقة والتعذيب، ... إلخ.

انظروا إلى الفرحة الغامرة التي يُبْديها نيتشه في وصفه للخَيّرين، وفقا لفهمه هو لكلمة خيّر: «هؤلاء الرجال حين يكونون خارج نطاق دائرتهم، أي هناك حيث الغرباء، فإنهم يكونون مثل الوحوش الضارية التي فُكّت قيودها؛ هناك يستمتعون غاية المُتعة بالتحرّر من كلّ إكراه اجتماعي، ويجدون في البراري ما يعوّضهم عن التوتّر عن العزلة الطويلة وعن كل سجن يغلفه هدوء الجماعة، يعودون إلى بساطة الوعي البريئة لدى الحيوان المفترس، يعودون **وحوشا ظافرة** قد خرجت من **سلسلة بشعة من جرائم القتل والحرائق والاغتصابات والاعدامات التي يقومون بها بكبرياء وهدوء**، وكأن الأمر لا يعدو أن يكون سوى عمل طائش من أعمال الطلبة، وهم مقتنعون أنهم قد **منحوا الشعراء مادة وفيرة ليتغنّوا بها ويحتفلوا بها**. من المستحيل ألاّ نتعرّف، في أعماق كل الأعراق الأرستقراطية، على **الحيوان الأشقر الرائع الذي يتجوّل بحثا عن الفريسة وعن النصر**، ويحتاج هذا العُمق الخفيّ، من حين لآخر، إلى مُتنفّس، يجب أن يظهر الحيوان من جديد، أن يعود إلى البراري[437]».

إذن نيتشه نفسه هو الذي يقول إن العذاب الداخلي الذاتي لشخص عديم الأخلاق هو قَسوة مُمارَسَة على النفس، وهذه بدورها ليست إلاّ القسوة الأصلية الطبيعية للإنسان، والتي تُشكل غريزته الأولية الدفينة. وحينما لا تجد لها متنفّسا في الخارج ترتدّ منعكسة نحو الباطن، وهو مضطرّ لتفعيلها بطريقة أو بأخرى، بالنظر إلى عدم إمكان كبحها أو استئصالها. إن التشويش والخطأ في هذا التقدير، والانسداد الأخلاقي يتمثّل في حقيقة أن نيتشه يُعمّم تجربته الشخصية، ويعرضها على أنها حالة طبيعية للإنسان، بالرغم من أنها تقوم على اضطراب عقلي.

437- نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق، I. § 11.

لا أحد يُنكر أن استعدادات ذات دوافع أنانية، ولاإنسانية، وتدميرية، حاضرة في قلب كل إنسان (in jedem Menschenherzen)[438]، لكن كلما كانت الصحة العقلية، والاتزان الداخلي للفرد، وانسجام الوظائف النفسية أمتن وأقوى، كلما قَلّت أهمية الدوافع المشوّشة، التدميرية والأنانية، وبقيت كمجرد استعدادات، أو بقايا ضعيفة التأثير. ذلك أن الطاقة التي تمتلكها ستكون طفيفة جدا، ومسعاها لإيجاد تحقيق فعلي سيكون خافتا للغاية، وأن عدم تحقيقها لن يثير سوى دَرَجَة ضئيلة من عدم الرضا أو لا شيء على الإطلاق. في عقل إنسان سليم تمتلك النزعات الإنتاجية والاجتماعية والإيثارية أكبر قدر من الطاقة، وبالتالي فإن عدم تحقيقها هو الذي يولّد أشدّ الألم؛ هذا هو الضمير السيئ كما فهمه الجميع حتى الآن.

لكن نيتشه يُسمّي ضميرا سيئا الألم المتولّد عن عدم تحقيق رغبة مضطربة، أنانية، تدميرية؛ عدم تحقيق ناشئ من مقاومة الدوافع الاجتماعية وروح الإيثار الكامنة في قلب كل فرد، وبالتالي، حسب نيتشه، فإن وخز الضمير هو دليل على أن الإنسان يَسُوم نفسه سوء العذاب، يتصرّف بقسوة مع نفسه، حين لا يستطيع أن يمارس قسوته على الآخرين. وهكذا فإن الضمير السّيء ليس شيئا آخر غير القسوة، غير غريزة الحرية، أو إرادة القوة، الموجّهة ضد الذات. لكن "نقيض الفيلسوف" هذا، فشل في ملاحظة أن الإنسان السليم عقليا عندما لا يُنفّس عن قسوته في الخارج، فإنها لا تنعكس على الداخل، لأن في هذه الحالة لا واحد من الدوافع المشوشة، التدميرية، المرضية موجود. وعدم تحقيق هذا الدافع غير الموجود لا يمكن طبعا أن يُسبّب أي ألَم، هذا الألَم الذي يعتبره نيتشه عملا قاسيا اقترفه الشخص ضد نفسه، إذا كان العائق أمامَ التنفيس عن النزعة التدميرية ثاوٍ في قَلْبِ المرء نفسه.

على العكس من ذلك، في حالة تشنج ظرفي، في حالة هيجان غضبي أو عاطفي، حينما يسمح الإنسان العاقل لنفسه بارتكاب أي عمل شرير، سيشعر بألم نفسي شديد، ما دامت حالة التشنج لم تخمد بعد، لأن إرادته الأخلاقية المتينة الغائرة في قلبه تمّت الإساءة إليها، لأن نزعته الانسانية والاجتماعية والإيثارية عُطّلت وانقطعت. وهكذا فإن تمجيد الوحشية، والنزعات التدميرية الموجهة للخارج، بالنسبة للإنسان ذي العقل السليم، لا يؤدي إلى انقطاع التألم الداخلي، كما يدّعي معدوم الأخلاق، بل إلى

438- هيرمان تورك، الإنسان العبقري، م. س، ص، 303.

تعذيب نفسي شديد. إنّ تهافت وعبثية التفسير "العبقري" النيتشوي للضمير السيء بيّنة بذاتها؛ فعلا، كيف يمكن لهذه النزعة التي يتحدث عنها نيتشه أن تشتغل في جهتين متقابلتين؟ كيف يمكن للقسوة أن تُنفّس عن نفسها في الخارج، وفي ذات الوقت، أن ترتدّ إلى الداخل، ضد الشخص نفسه في الضمير السيئ؟

لكن هذا "الجنون العالم"، كما يسجّل تورك مرة أخرى، لا يَتَحَرّج من أي اعتراض منطقي أخلاقي، وبالتالي يبقى جنونا مصرّا على جنونه إلى آخر قطرة.

(ظآظآ)

ورغم أن جينيالوجيا الأخلاق، كما قلت، هو كتاب جنوني فظيع، يعجّ بالإهانات والقسوة والكلام القبيح، فإن الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز غض الطرف عن محتوياته المحرجة، واستخرج منه، على عكس ذلك، مَعاني فلسفية رفيعة وتعاليم نقدية مفيدة، وكأنه يملك مَتْنا نيتشويا آخر.]

في كتاب **نيتشه والفلسفة** كتب فقرة بعنوان "مُخطّط أصل الأخلاق" واعتبره من بين كتب نيتشه الأكثر منهجية[439]. وقال إن له فائدة مزدوجة: فهو ليس مجموعة من جوامع الكلم ولا قصيدة وإنما مفتاح لتفسير جوامع الكلم وتقويم القصيدة. وهنا يحيل إلى الفقرة الثامنة من التوطئة. لكن ماذا نقرأ؟ إهانة للقارئ وإفراطا في الإشادة بالنفس، وأنفة وتكبّرا لا تليق بفيلسوف حق. وهو يصرّح بكل أريحية بمثل هذه الكلمات، وأخرى أفظع منها، من قبيل: أنا قدر، أنا ديناميت، في وقت لم يتجاوز فيها قراؤه في كامل ألمانيا عشرة أو عشرين نفرا. انظروا إلى هذا الاحتقار للقراء: «إذا وجد البعض هذا الكتاب غامضا، إذا أبطأتْ الأذُن في إدراك معناه، فالخطأ لن يكون بالضرورة، حسب ما أرى، خطئي أنا. إنّ ما أقوله واضح بما فيه الكفاية، إذا افترضنا، وأنا أفترض ذلك، أن قارئ هذا الكتاب قد تجشّم عناء قراءة كتبي السابقة: والحق أنها لا تكشف مكنوناتها لكل قارئ. فيما يخص كتابي هكذا تكلم زرادشت لا أريد أن يتبجّح القارئ بمعرفته إن لم تجرحه كل كلمة من كلماته جرحا بليغا ذات يوم، ثم على العكس من ذلك، تفتنه فتنة خفيّة، لأنه حينها فقط سيتمتّع بامتياز المساهمة في العنصر

439- جيل دولوز، **نيتشه والفلسفة**، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1993، ص، 111.

الألسوني الذي تولد عنه هذا الكتاب وسيشعر بتبجيل نحو وضوحه الساطع، نحو عظمته، نحو بُعد أفقه ونحو يقينه[440]».

لقد ترك دولوز هذه الإهانات، ونسي النّبرة الصلفة في معاملة القارئ، لكي يركّز على كلمتين، دائما من باب الإشادة الزائفة بالنفس حيث يقول نيتشه: «في بعض كتبي الأخرى تُشكّل الكتابة الشذرية شيئا من الصعوبة، ومصدر ذلك هو كوننا اليوم لا ننظر إلى هذا الشكل من الكتابة بجدّية كبيرة. فالحكمة التي تكون صياغتها وقوّتها مثلما ينبغي لا "تُفكّ رموزها" بمجرد القراءة، بل يتطلّب الأمر أكثر من ذلك، لأن التأويل يكون قد ابتدأ آنذاك، والتأويل فنّ. وقد أعطيتُ في المبحث الثالث من هذا الكتاب مثلا مما أسميه في هذه الحالة "تأويلا"».

ثم ختمَها بالدعوة إلى أن يكون القارئ بقرة تجترّ الحشيش: «يجب أن نتوفر، لكي نرتفع بالقراءة لتصير فنّا، على ملكة غطّاها غبار النسيان اليوم أكثر من سواها، ملكة تتطلب منا أن تكون لنا طبيعة البقرة لا طبيعة الإنسان الحديث: أعني ملكة الاجترار». لكن في الواقع نيتشه هو الذي يجتر، يعيد ويكرر باستمرار نفس الأطروحة، يلونها بكلام مبهرج، ولكن كلها تصب في نفس المصب: القوة جميلة، والحرب روعة، العلم لا قيمة له، الجهل فضيلة، الفلاسفة كلهم تافهون، وخراب العالم يأتي من الرفق بالإنسان والحيوان.

الميزة الأخرى لجينيالوجيا الأخلاق، حسب دولوز، هي أن نيتشه «يُحلل بالتفصيل النموذج الارتكاسي، الطريقة التي تنتصر بها القوى الإرتكاسية والمبدأ الذي تنتصر في ظلّه».

المشكلة التي يركّز عليها دولوز هي القوى الإرتكاسية وتمظهراتها في **جينيالوجيا الأخلاق**. يقول إن في المبحث الأول، يقدم نيتشه الاضطغان على أنه انتقام خيالي، عقاب روحي من حيث الجوهر. أكثر من ذلك، يستتبع تكوين الاضطغان، استدلالا زائفا، يحلله نيتشه بالتفصيل: استدلال زائف للقوة المفصولة عما تستطيعه[441].

نفتح نص نيتشه ونقرأ الفقرة التي أحال عليها دولوز، نجد أشياء مربكة فظيعة كالعادة، أرستقراطية معادية للإنسانية، تقابلها كهنوتية مسالمة، اصطنعها من محض

440- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، ص، 15 16.

441- دولوز، **نيتشه والفلسفة**، م. س، ص، 112.

خياله، وجعل منها عدوا يتصارع مع هذه الارستقراطية. وهنا يعيد علينا أطروحاته الثابتة ويخطّ تاريخا خياليا، لا علاقة له بالتاريخ الفعلي: في نقطة ما من التاريخ انفصل تقييم الكاهن للأشياء عن تقييم الأرستقراطية، وقُلبت القيم الجميلة رأسا على عقب. مَن تمرّس على نصوص نيتشه يعرف مسبقا ماذا ستكون تقييماته: «أحكام قيمة الارستقراطية المحاربة مبنية على بنية جسمانية قوية وعلى صحة ريّانة، دون نسيان الشيء الضروري لصيانة هذه القوة الطافحة: الحرب، المغامرة، الصيد، الرقص، الألعاب والتمارين الرياضية، وعموما كل ما يتطلّب نشاطا قويا وحرا ومرحا[442]». أما الكهان، يعني الناس المسالمين، فلهم تقييم في الطرف النقيض: يكرهون الحرب لأنهم أعجز الناس، والعجز يُنمّي فيهم حقدا وضغينة وكآبة. يتحدث عن هؤلاء الناس وكأنه رآهم شخصيا: «الحاقدون الكبار الذين عرفهم التاريخ كانوا دائما قساوسة»، ومن هنا مرّ إلى اليهود، ودولوز يستشهد بهذا النص حاذفا هذه الشتائم لليهود، ومتجاهلا تقديمهم كمثال لحقد الكهنوت على النبالة: «إن كل ما وُوجه به النبلاء والأقوياء والسادة وأصحاب السلطة لا يُعدّ شيئا إذا ما قُورن بالذي واجههم به اليهود: هذا الشعب الكهنوتي الذي لم يجد ما يشفي غليله من أعدائه والمسيطرين عليه سوى قلب جذري لكل القيم، أي ممارسة انتقام مُرَوْحَن جدا».

اليهودي الألماني الذي يعيش منذ قرون في بلده ويعتبر نفسه مواطنا ألمانيا بالدرجة الأولى ويهوديا بالدرجة الثانية، ينزع عنه نيتشه ألمانيّته ويُلصق به تهمة استعداء الأرستقراطية ويدحره في صنف وضيع من الكهان المعادين للبشرية. لقد أنزلهم إلى كبش فداء لكي يمارس عليهم حقده، وإن كلّفه ذلك اصطناع أسباب وهمية؛ ويعمل على بث الحقد وتأجيج العداوات، والتلفّظ بسطحيات مربكة من قبيل: «وحده شعب من الكهنة يستطيع فعل هذا، هذا الشعب الذي نجد لديه انتقاما كهنوتيا مستبطنا جدا. اليهود هم من تجرّأ، وبمنطق مخيف، على قلب المعادلة الارستقراطية لقيم (صالح، نبيل، قوي، جميل، سعيد، محبوب الآلهة). وقد حافظوا على هذا اللقب بضراوة حقد لا حدّ لها (حقد العاجزين) ... إننا نعلم الذين آل إليهم إرث هذا القَلب اليهودي للقيم ... هذه المبادرة المخيفة المشؤومة التي أخذها اليهود ... من اليهود بدأت ثورة العبيد في الأخلاق.. الخ».

442- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، 7 §، I، ص، 26.

وفي الفقرة العاشرة التي استشهد بها دولوز، نقرأ أيضا تنويعة أخرى من هذه الأقوال العنصرية المُريعة، في حق مواطني بَلَده، والذين نعلم ماذا كان مآلهم في ألمانيا حين أمسك السلطة نيتشويّ. يريد أن يثبت أن هؤلاء الناس يعدمون الفعل ولذلك يتصدّون للمثال الأعلى، عن طريق شيء واحد: الحقد المستبطن في خيالهم، حقد الضعفاء على الأقوياء. وكأنه لم يشبع من سحق الأسياد للعبيد عبر التاريخ، فهو يريد المزيد، يريد سحقا شاملا، ماديا وأخلاقيا: «تبدأ ثورة العبيد في الأخلاق حين يصير الحقد نفسه خلاّقا ويُنتج قيما، حقد هؤلاء الذين يحرم عليهم رد الفعل الحقيقي، وهو الفعل، والذين لا يجدون ما يعوّضون به ذلك إلاّ الانتقام الذي في خيالهم».

ثم قام بجولة فيلولوجية في القاموس اليوناني تأييدا لقناعاته العنصرية، واستخرج اشتقاقات أقل ما يقال فيها أنها اعتباطية، مزعجة، لا قرابة لها باللغة اليونانية، بل هي دليل على تلاعب غريب من طرف فيلولوجي سابق بعلمه. في قاموس الأرستقراطية اليونانية: «معظم الكلمات التي تشير إلى الإنسان العادي تصير في نهاية المطاف مرادفات لـ"تعيس" و "جدير بالشفقة" (قارنوا بين كلمات جبان وتعيس ومريض، المراد من الكلمتين الأخيرتين وصف الإنسان العادي بكونه عبدا ودابّة للركوب). يجب أن لا ننسى كذلك أن الأذن الإغريقية كانت تجد في كلمات **خبيث** و**سافل** و**تعيس** صدى تَغلبُ عليه سمة "**تعيس**"[443]».

رسالة نيتشه العنصرية، تحوّلت عند دولوز إلى مَعْلَم براءة، إلى مجرّد تحليل للنموذج الارتكاسي، في الوقت الذي يقوم فيه نيتشه بالدفاع عن فكرته والحكم على صنف الإنسان العادي ويلقي عليه وحل أفكار ذات نزعة انتقامية. يفتخر هو نفسه بهذه الترهات ويريد أن يرغم الفيلولوجيين على تقبّل خزعبلاته: «كل هذا ليس إلاّ نظام التقييم الأرستقراطي المتميّز القديم الذي لا يُناقض نفسه حتى في فنّ الازدراء (لنُذكّر الفيلولوجيين بالمعاني المعطاة لكلمات "**المثير للشفقة**" و**التعيس** و**البئيس** و**التعاسة**)[444]».

لو لم يَبْتر دولوز النص، ولو كان أمينا وصادقا ومُحبا للفلسفة، لما مرّ على هذه التنظيرات العنصرية الجديرة فقط بكارهي البشر. أن تكون أرستقراطيا وأن تنتمي

443- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، I، § 10، ص، 30.

444- ن. م، ن. ص.

إلى طبقة الأسياد، فأنت بالضرورة سعيد، وتحتكر في ذاتك الجمال والخير، وأعداؤك يحتكرون كل الصفات المشينة القبيحة: «لقد كان "ذوو الحسب والنسب" يشعرون أنهم هم "السعداء"، ذلك أنهم لم يكونوا في حاجة إلى اصطناع سعادتهم وهم يقارنون أنفسهم مع أعدائهم ... كل هذا يتناقض بشكل كبير مع السعادة مثلما يتخيّلها العاجزون والمضطهدون الرازحون تحت وطأة مشاعرهم العدوانية والسّامة، والذين تتخذ السعادة لديهم شكل المخدر .. باختصار تتخذ شكلها السلبي[445]».

أما قول دولوز بأن نيتشه يُحلّل بالتفصيل «استدلالا زائفا للقوة المفصولة عمّا تستطيعه[446]»، مستشهدا على ذلك بالفقر 13 من المبحث الأوّل، فهو كلام في غاية الزيف لكي لا أصفه بوصف آخر. مرة أخرى، نعود إلى النص النيتشوي، ونقرأ الفقرة المذكورة. ماذا نجد؟ دائما تحليلا فيلولوجيا خياليا، مصطنعا كله، مع تمجيد للقسوة وصلت إلى مداها الأقصى: أكل لحوم البشر. وقد عبّر عنه بأمثولة تبدو بريئة ولكنها تختزن في ذاتها كَمًّا من السخرية المقيتة وشحنة من البطش لا مثيل لها: ثمة السيّد وثمة العبد، كل منهما نقيض للآخر وعدوّه؛ السيد مجبول بالطبيعة على ممارسة الحكم والسيطرة على كل شيء، والعبد وضَعتْه الطبيعة في أسفل السلّم لكي يخدم السيد ما دامت فيه قوة، وإلاّ فإن مصيره الفناء. النتيجة أننا غير مخوّلين للحكم على هاتين الطبيعتين باستخدام معايير أخلاقية، أو ادراجهما في تصنيف مُجْمَع عليه من قبيل، أن من يؤذي الإنسان فهو شرّير ومن يفعل الخير فهو خيّر، هذا التقسيم منشأه ومردّه هو ذهنيّة الإنسان الحاقد المريضة.

ولبلورة هذا الافتراس وإعطائه مشروعية كما قلت يُنزل هذا المثل: «إن حقد **الحملان** على الطيور **الكواسر** لا يُدهش أحدا، كما أن هذا ليس سببا لنحقد نحن على **الكواسر** لاختطافها **الحملان**[447]». وإذا ما قَالتْ الحملان: "إن هذه الكواسر شريرة"، فإن نيتشه يرد عليها من فم الكواسر وبلهجة ساخرة، كما يصفها هو نفسه: "نحن لا نحقد إطلاقا على هذه الحملان الطيّبة بل نحبّها، **فليس هناك شيء ألذّ من لحم حمل طريّ**". لحم طريّ يفترسه الكواسر، هذا كل ما في الأمر. لم يكتف بهذه الأمثولة

445- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، I، § 10، ص، 31.

446- دولوز، **نيتشه والفلسفة**، ص، 112.

447- **جينيالوجيا الأخلاق**، I، § 13، ص، 36.

القاسية ولم يحصر مغزاها في ميدان الحيوانات وإنما أجراها على الاجتماع البشري وخلُص إلى النتيجة التالية: «إن مطالبة القويّ بعدم الظهور مثلما هو، بعدم الرغبة في **المصارعة والإخضاع**، بعدم **التعطّش للأعداء وللمقاومة والانتصار**، لهو شيء أخرق تماما[448]».

استخلصوا أنتم بأنفسكم مغزى هذه الرسالة.

أما المبحث الثاني من أصل **جينيالوجيا الأخلاق**، فإن دولوز يلخصه في مقولة أن الإحساس بالذنب لا ينفصل عن "أحداث روحية وخيالية[449]". يقول أيضا، وهو يوافق على أطروحة نيتشه، أن الإحساس بالذًّنب يحمل في ذاته صبغة متناقضة «يُعبّر عن قوّة تنقلب ضد ذاتها». لكن المعلومة الخطيرة التي يُفيدنا بها دولوز هي أنّ من يملك ضميرا، ومن يندم على فعلٍ قبيح أو جريمة، فهو يَقلب نظام العالم: «أصل ما سيُسمّيه نيتشه "العالم المقلوب"»ً، ليس هذا فقط بل إن نيتشه أنّب كانط لأنه لم يفهم شيئا من تعارضات، "أنتينوميا" العقل الخالص «لم يفهم كانط ينبوعها، ولا امتدادها الحقيقي[450]».

كل تحليلات نيتشه إذن، منصبّة على مسائل فكرية ونقاشاته تدور في الفلك الأعلى للفلسفة، لكن لو فتحنا نص نيتشه ودققنا في الإحالات التي قدمها دولوز لاكتشفنا أن كل ما قاله خاطئ، باطل ومضلل. لا أعتني الآن بما غيّبه دولوز من النص في مجمله، لكن فقط بالمقاطع التي أوردها وسياقاتها.

وقد لجأ نيتشه لتفسير نظرته للعالم إلى أمثولة الحيوانات، واختار هذه المرة البرمائيات، وطلب من القارئ، بكل تعالٍ واحتقار، أن يتأملها مليا، ويحدّق فيها ويجترّ. ما منشأ الشعور بالذنب عند الإنسان المتحضّر؟ الجواب هو أمثولة البرمائيات: «مثل حيوانات مائية مرغمة على التكيّف مع الحياة البرية أو الهلاك، فإن النصف حيوانات التي اعتادت كثيرا على الحياة المتوحشة وعلى الحرب والتجوال والمغامرات قد وجدت فجأة كل غرائزها معطّلة عن العمل. ومنذ ذلك الحين أرغمت على المشي على الأقدام وحَمْل نفسها، والحالة أن الماء هو الذي كان يحملها حتى ذلك الحين،

448- ن. م، ن. ص.

449- دولوز، **نيتشه والفلسفة**، م. س، ص، 112.

450- ن. م، ص. 113.

فصارت تنوء تحت حمل ثقيل. شعرتْ بعجزها عن القيام بأبسط الوظائف في هذا العالم الجديد المجهول، إذ لم يعد لها مُرشدها السابقون، أي تلك الغرائز الضابطة التي لا تخطئ لا شعوريا[451]».

ماذا حصل لهذه الحيوانات المدفوعة لتبديل محيطها؟ أرغِمَتْ إرغاما على استخدام طاقاتها الذهنية: «صار عليها أن تفكّر وتستنتج وتحسِب وتوفّق بين العلل والمعلولات، يا للمسكينة!». تُفكّر وتَستنتج، هذا العار الذي لحقها تضاعف حينما اعتمدت على «وعيها، أي على أضعف أعضائها وأقلها مهارة». الطامة الكبرى هي أن الغرائز القديمة لم تهدأ بعد، وأخذت تبحث باستمرار عن متنفّس لتلبية مطالبها في الخارج، لكن يعسر عليها تحقيقها وبالتالي تمّ استبطانها. ولمّا أعيقت تلبية الغرائز برانيا، كبر العالم الداخلي وتضخم بشكل رهيب.

وهنا خَرجْنا من البرمائيات وعُدنا إلى الإنسان المدجّن في صلب الاجتماع والمقيد بقوانينه: «لقد أفلحت الحصون الضخمة التي شيّدها النظام الاجتماعي ليَحمِي نفسه من غرائزه القديمة ... أفلحت في جعل كل غرائز الإنسان المتوحّش، الحر والجَوّال تنقلب ضد الإنسان نفسه[452]». وهكذا حصلت الطامة وبرز مفهوم الضمير، فانفجر عالم نيتشه المتوحش **الجميل**، دون ضوابط ولا قوانين، وكُبتَت لذة القتل والتعذيب، والمسؤول هو المجتمع، هو الدولة والثقافة والاشتراكية ومحبةَ الإنسانية: «هكذا انقلبت غرائز العداوة والقسوة ولذة الاضطهاد ضد مَالكها، وهذا هو أصل الشعور بالذنب».

ها قد برز إنسان مدجّن حزين، صنع لنفسه قفصا من حديد، إنسان لم يملك نيتشه سوى أن ينعى لحظّه ويسمّيه «الأسير ذا الطموحات البائسة»، الذي «ابتكر "الشعور بالذنب"»، وصنع للإنسانية شعورا مخالفا لطبيعتها الأصيلة «أشاع هذا المرض الخطير والمزعج الذي لم تُشفَ منه الإنسانية حتى الآن[453]».

ومهمّة نيتشه الأساسية هي علاج الإنسان من هذا المرض، والقضاء على فكرة الضمير وتخليصه من عقدة الذنب، ثم إعادة ربطه بماضيه المتوحش العنيف، بحيث يغدو الإنسان المتحضّر الحديث مجرّد «فاصل أو جسر». ومهمة دولوز الأساسية هي

451- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، 72، 16 §، II.
452- ن. م، ص، 72.
453- ن. م، ص، 73.

سحق عقول القراء، بتعويم نيتشه الحقيقي، وإغراقه في الخطابة والتزوير، ثم تسويق نيتشه خيالي، بَدَله. وكيف لا يكون خياليا، وهو يدّعي، بكل صلافة، أن نيتشه أراد في **جينيالوجيا الأخلاق** «إعادة كتابة **نقد العقل الخالص**[454]». أنا أحتكم للقارئ وأستفتي حسه النقدي: هل تستوي مقارنة هاوٍ في الفلسفة، بمن أنجز واحدا من أكبر وأعقد الأنساق الفلسفية في العالم؟

(عآعآ)

دولوز وفوكو هما، من بين أشهر الفلاسفة الفرنسيين، اللذان سوّقا لأفكار نيتشه، ولم يدّخرا أي جهد لإدماجه بقوّة في صلب الثقافة الفرنسية، ومنهما مَرّت أفكاره بانسياب إلى الثقافة الفرنكوفونية في العالم العربي.]

ميشال فوكو هو نيتشوي راديكالي، كما عرّف نفسه، ونلمس هذه النيتشوية في كل كتاباته، من تاريخ الجنون، إلى مولد العيادة، وصولا إلى ثلاثية تاريخ الجنسانية. في نص محاضرة عن نيتشه وفرويد وماركس أثنى على نيتشه لأنه خاصم الفلاسفة الذين يبحثون عن أعماق الأشياء وجواهرها، بينما لا يوجد شيء غير السطوح، والأعماق هي من «اختراع الفلاسفة، هؤلاء يدّعون أن هاته الأعماق هي بحث خالص باطني عن الحقيقة»، لكن نيتشه يكشف الخدعة «ويُبيّن كيف تُفضي هاته الأعماق إلى الخنوع والنفاق ولبس الأقنعة ... وأن العمق الباطني هو خلاف لما يعنيه ويدّعيه[455]». وكل هذه الأفكار استقاها من فقرة مقتلعة من كتاب **الفجر** حيث يصنّف نيتشه المفكرين على نحو غريب جدا: «نجدُ في المقام الأوّل المفكرين السطحيّين، وفي المقام الثاني المفكرين العميقين أي الذين يَنفذون إلى عمق الأشياء -، وفي المقام الثالث المفكرين الأساسيين، أي الذين يريدون الغوص إلى أعمق نقطة في شيء ما، وهو أكثر قيمة من الهبوط إلى عمقها فقط! وفي المقام الأخير المفكرين الذين يُغطسون رأسهم في المستنقع: وهو ما لا يعتبر دليلا على العمق، ولا على التفكير العميق! إنهم مُفكّرو الحضيض[456]».

454- دولوز، **نيتشه والفلسفة**، م. س، ص، 113.

455- ميشيل فوكو، «نيتشه، فرويد، ماركس»، ضمن، **جنيالوجيا المعرفة**، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب 2008، ص، 47.

456- نيتشه، **الفجر**، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب 2013، فقرة 446، ص، 232.

وقد رمى فوكو هذه الكلمات وأحال على نيتشه ثم مرّ بسرعة للحديث عن التأويل، مُركّزا على لانهائية المعاني، وعدم امكانية الوصول إلى حقيقة أخيرة. لا يخفى على أحد ما لهذه الفكرة من انعكاسات سلبية على البحث العلمي، وإبطال لكل ما عَقَلنا حقيقته وعرفنا حُكْمه في الواقع، بل لا مأمن من أن ينقلب هذا التأويل إلى نفي متعنّت لكل ما تمدّنا به الحواس والبديهة. فعلا، ما المانع لصاحب التأويل الشامل من القول بأن هذا الشيء لا يُوصف بأنه جسم، وإن كان طويلا عريضا عميقا، وأن هذا الظّالم ليس بظالم وإن فَعَل الظّلم، وأن هذا الضّارب لا يفيد وقوع الضرب منه وإن ضرب وهشّم. نتائج كارثية تنجرّ عن هذه الطريقة في التفكير، لكن فوكو متشبّث بها إلى حدّ الهوس، ويدّعى أنّ **التأويل**، مع نيتشه، وماركس وفرويد، أصبح «**مهمّة لا نهاية لها**[457]». ليس هناك بداية، ولا مفاهيم قارة، ولا قوانين طبيعية دقيقة، ولا دلائل تُحيل على أشياء أو وقائع ثابتة، هناك فقط الفراغ: «فُوهة لا يمكن أن تنغلق».

وبالتساوق مع مَحو الدلالات، وتحطيم العقل والعلم، فإن الفلسفة تشهد هي أيضا مصيرا مأساويا مماثلا، إذ أنها تحوّلت عند نيتشه إلى لعبة فيلولوجيا، لا استقرار لها ولا مبادئ لأنها تفاجئنا دائما، وتنقلب على ذاتها باستمرار: «إنها نوع من فيلولوجيا لا يقرّ لها قرار»، وما السبب في ذلك يا ترى؟ تصوّروا ما السبب الذي يقدّمه فوكو: «**الموت عن طريق المعرفة يمكن أن يكون أساسا من الأسس التي يقوم عليها الوجود**». إذا كانت المعرفة هي الموت، فما هي الحياة؟ إنها الجهل ولا شيء غير الجهل.

إن تأويلات نيتشه، يواصل فوكو، ستنصبّ على تأويلات، هي بدورها تنصبّ على تأويلات أخرى وهكذا دواليك. نحن أمام سلسة متوالية من التأويلات التي لا نرى لها نهاية، والسبب في ذلك، حسب فوكو، أن عند نيتشه، لا وجود «لمدلول أصلي والكلمات ذاتها ليست إلاّ تأويلات. ومِن قبل أن تُصبح علامات تكون قد قامت، خلال تاريخها، بتأويلات، وهي لا تعني شيئا، وتدلّ عليه إلاّ لكونها أصلية». أين الشاهد على ذلك؟ فوكو يحيل على اشتقاق كلمة أغاثوس (جميل حسن) في **جينيالوجيا الأخلاق** (الجزء الأول، الفقرات 4 و 5). صحيح أن نيتشه قام في هاتين الفقرتين بقفزات فيلولوجية بهلوانية، لا معنى لها على مستوى علمي، وغايته هي اشتقاق الجمال من الارستقراطي، والقبح من الوضيع. وفوكو نفسه يشير إلى ذلك،

457- ميشيل فوكو، «نيتشه، فرويد، ماركس»، م. س، ص، 49.

بقوله: «هذا ما يعنيه نيتشه أيضا عندما يقول بأن الكلمات قد اختُرعت عن طريق الفئات العليا. فهي لا تشير إلى مدلول وإنما تستدعي عملية تأويل[458]». لا يهمنا التأويل بقدر ما يهمنا اختراع الكلمات من الفئات العليا. كيف يقبل فوكو بهذه **الجينيولوجيا** الخيالية؟ كيف يستسيغ هذا النوع من الاشتقاق العنصري؟

لأن نيتشه في نظر فوكو، مَعْلم شامخ لا يضاهيه أي معلم؛ وهو المعين الذي استقى منه أفكاره، وسار على هدي آثار خطاه في كل شيء، بما في ذلك عداؤه للإنجليز. «لقد أخطأ بول ريه (Paul Rée)، كغيْره من **الإنجليز**، حينما خصص وصفا للنشأة الخطية ... الخ[459]»، هكذا يفتتح مقاله: **نيتشه، الجينيالوجيا والتاريخ**، ثم صبّ اهتمامه على كلمة «أصل». ومن بين الاستعمالات التي استقاها فوكو من نيتشه، وهي موجودة أيضا في **إنساني مفرط في إنسانيته**، المواجهة بين «الأصل المعجز الذي تبحث عنه الميتافيزيقا»، وبين «**مختلف** التحليلات المتّصلة بفلسفة تاريخية». ثم بعد كلام مسترسل وحشو، وصَلَ إلى جوهر الموضوع، ليقول: «إن البحث عن أصلٍ من هذا القبيل معناه السعي الحثيث لإيجاد «ما قد تمّ وكان»، إيجاد «ذات»؛ **ذات لصًورة** يفترض أنها تطابق نفسها تمام المطابقة، معناه أيضا اعتبار كل ما حدث من تحوّل وحيَل وتنكّر، عوارض طارئة. البحث عن الأصل معناه في الأخير الشروع في إماطة اللّثام عن هويّة أولى. من حقنا أن نتساءل: «إذا كان الجينيالوجي يعتدّ بالإصغاء إلى التاريخ بدل التصديق بالميتافيزيقا فما عساه يستفيد أن وراء الأشياء شيئا آخر سواها؟ من المؤكد أن الأمر لا يتعلّق بأسرار الأشياء التي لا تاريخ لها بل بالسرّ التي هي إياه من غير ماهية أو بماهية تشكّلت لها بالتدريج جزءً فجزء بدءا من أشكال كانت غريبة عنها. هل يُعتبَر العقل بيت القصيد هنا؟ لكن ألا يمكن أن نعتبره ناشئا هو الآخر **عن الصدفة؟** ومن الوهلة الأولى «بكيفية معقولة» أم أن بيت القصيد هو التشبث بالحقيقة وبصرامة المناهج العلمية؟ بيد أن هذا التشبّث ينمّ عن أهواء العلماء وأحقادهم وسجالهم الذي لا ينتهي، المطبوع بالتعصّب والرغبة في الافحام بأسلحة شُحذت شحذا بطيئا عبر صراعات شخصية طويلة. ثم ماذا عن الحرية: هل هي في جذر الإنسان شيء يشدّه أبدا إلى الكينونة والحقيقة؟ ليست الحرية في الواقع سوى اختراع الطبقات المُسَيِّرة.

458- «نيتشه، فرويد، ماركس»، م. س، ص، 52.

459- فوكو، «نيتشه، الجنيالوجيا والتاريخ»، ص، 63.

ما نعثر عليه في بدء تاريخ الأشياء ليس تلك الهوية التي تحفظ الأشياء وتصونها، بل الاختلال، اختلال الأشياء الأخرى والشتات، ولا شيء غير الشتات[460]».

في هذه الفقرة ثمة كل مكونات فلسفة فوكو **العدمية**: رفض الذاتية المتعالية والتشبث بالجسد؛ تحطيم فكرة التاريخ كدراسة علمية فيلولوجية للماضي؛ نزع الجدوى عن كل بحث عن أصل الأشياء؛ اعتبار العقل طارئا ولا ثبوت له، مبادئه هي مجرد خيالات؛ الحقيقة لا وجود لها، والتشكيك في قدرة العلم على انتاج حقائق، واختزال الكل في مجرد ابستيميات، وصراعات بين العلماء؛ حتى الحرية نفسها تستحيل إلى وهم؛ وفي النهاية يُختزَل العالم كله إلى شتات، إلى كاووس، عديم الصورة والمعنى.

ومن أين استمدّ هذه الأفكار العدمية؟ من نصوص نيتشه طبعا: فادّعاء أن يكون العقل طارئا، مرجعه هو جملة من كتاب **الفجر** (§ 123) «كيف ظهر العقل للوجود؟ بطريقة معقولة، صدفة[461]». نحن لا ننفي أن يكون الإنسان ناتجا عن صدفة، وأنه تطوّر بالصدفة حتى وصل إلى الإنسان العاقل، لكن نيتشه لا يريد أن يؤكد الداروينية، وهي نظرية ثورية في البيولوجيا، هو يريد أن يضرب العقل ومبادئه، ويحيلها على مجرد صدفة، وبالتالي ضرب مرتكزات اليقين العلمي، وافتراض أن كل ما علمناه يمكن أن يصبح ضده.

أما اختزال مطلب الحقيقة في صراعات شخصية بين العلماء، أو على أقصى تقدير، في وَهْم لاواع بذاته، كما زعم فوكو، فهو أيضا من استيهامات نيتشه الذي يرى أن الحقيقة هي نوع من الخطأ لمّا يُدحَض بعد، عَمِل النضج التاريخي على تثبيته[462].
ويمر فوكو على هذه الأقوال المربكة دون أن تسترعي انتباهه، ودون أن يتفطّن إلى بعدها العدمي، وحمولتها التدميرية لروح العلم. لا بل إنه يضيف أقوالا أخرى تزيد من تثبيط عزيمة كل من يبحث عن الحقيقة. وهذه نوبة من نوبات الهستيريا المعادية للحقيقة حتى الموت: «أضف إلى ذلك أن مسألة الحقيقة لما لها من حقّ في رفض الخطأ، والاعتراض على كلّ اشتباه، وبما يحصل لها من قبول عند العلماء تارة، ومن حفظ عند الأتقياء تارة أخرى ثم انكفاؤها إلى عالم النجاة أحيانا أخرى، حيث تلعب في آن

460- ن. م، ص، 66.

461- نيتشه، الفجر، ص، 95.

462- نيتشه ضد فاغنر، انظر: فوكو، م. س، ص، 67.

واحد دور المصالحة والأمر، وتعرضها أخيرا للرفض باعتبارها فكرة لا طائل من ورائها كلّها حشو وتناقض».

كل هذه الموبقات ملتصقة بمن يبحث عن الحقيقة، بمن يفتّش عن جواهر الأشياء خارج الظاهر السطحي. فوكو نفسه هو الذي يستنتج: «ألا يدلّ ذلك كلّه على تاريخ، تاريخ لخطأ يحمل اسم الحقيقة؟». فعلا، الحقيقة في عرف فوكو، ومسايرة لنيتشه، هي كل شيء إلاّ أن تكون «حقيقة»، وفي أحسن الحالات هي أفوريزمات أو مجرّد أكاذيب وأخطاء. ومن هنا فصاعدا يجب الانضمام إلى نيتشه ونشر نُبُوّته في أرجاء العالم: «فللحقيقة، مع كل ما تمتّعت به من سيادة، تاريخ ضمن التاريخ؛ تاريخ لا نكاد نخرج منه إلاّ ساعة الظل القصيرة؛ عندما يتبيّن أن الضياء لن يفيض من أعماق السماء ولا من بشائر النهار الأولى».

ولكي يَحْبك مقاله فإن فوكو، منساقا دائما وراء نيتشه، يتوغّل في مجال خطير جدا، من حيث استعماله مفردات وأفكار لا نجدها إلاّ في قاموس العنصرية العالمية: العرق والطبائع الثابتة والنسب، والدم. الغريب أن فوكو يَسرد علينا هذه الأشياء وكأنها بريئة جدا، في الوقت الذي نعلم كلّنا أنها تمثل أدوات الفكر العنصري في كل زمان ومكان. يقول فوكو: «كلمة «هيركونفت» (Herkunft): هي الأرومة (la souche)، المصدر (la provenance)، أي النسب أو الانحدار القديم من **زمرة**، زمرة دم أو عرق تنخرط فيها طائفة من مستوى رفيع أو وضيع كما أن تحليل كلمة (Herkunft) قد يحيلنا على العرق (Race) أو الفصيل الاجتماعي (type social)». كلام خطير، غير مسؤول، وغير مقبول مبدئيا لأنه عنصري، مناهض لكرامة الإنسان، لا يليق بصناعة الفلسفة العظيمة.

على أنقاض العلوم الصحيحة والتاريخ النقدي والفيلولوجيا وكل الإبداعات الروحية التي تطمح للكشف عن الحقيقة، يعوّضنا فوكو بالجينيالوجيا النيتشوية، التي تعنى أساسا سحق العقل وإرجاعنا إلى حالة بدائية مظلمة من الجهل والتخلف. بفائض من الخطابة الأدبية يقول فوكو: «إن الجينيالوجيا لا تدّعي أنها تعلو الزمن لتُرسِي، من وراء شتات النسيان، ديمومة كبرى، ولا تشغل نفسها ببَيان أن الماضي حيّ في الحاضر ويَبعث الحياة فيها سرّا بعدما وسم كل مراحله بصورة مرسومة من البدء ... كل ما يقدّمه لنا المصدر أنه يجعلنا نكتشف أن الحقيقة والكينونة ولا توجدان في صلب ما نعرف ولا في صلب ما نحن. برّانية العرض هي التي توجد وحدها، ليس إلاّ».

ولكي يُمعن في إهانة العلم، ويسحب منه أي مشروعية استكشافية أو إرادة حقيقة، فهو يتوجّه، كما فعل نيتشه، إلى العلماء، والفلاسفة والمؤرخين، لا إلى تعاليمهم، لا إلى كُتبهم، بل إلى أشخاصهم كي يقدح فيهم ويُقزّمهم: «لنقُم بتحليل جينيالوجي للعلماء لذلك العالم الذي يجمع الأحداث بعناية في سجلّ لَه أو للعالم الذي يشغل نفسه بعمليّات الاثبات والنقض». وماذا كانت حصيلة التحليل الجينيالوجي للعلماء؟ الكشف عن تزويرهم وخبثهم، وأكاد أقول كفرهم: «الجينيالوجيا سرعان ما تكشف فيما هم يتظاهرون بالنزاهة والتشبّث المحض بالموضوعية، أكداس أوراق كاتب الضبط ومرافعات المحامي وَليّ أمرهم».

وقد استمد فوكو هذا التَحقير من نيتشه وبالتحديد من **العلم المرح**، وأحال على الفقرة 348 بعنوان «أصل العلماء المحققين». إن قراءة بسيطة لهذه الفقرة تولّد فينا قرفا من التحقيق والتدقيق، نفورا من أيّ بحث فلسفي، رعبا لا يوصف من اكتساب العلوم. يقول نيتشه إن العالم المحقق في أوروبا يُولَد من طبقات وحالات اجتماعية مختلفة الأنواع، وهو كائنَ بلا جذور، وبلا أرض، مثل نبْتة لا تحتاج لتُربة خاصة بها: لهذا فهو ينتمي أساسا إلى حاملي الفكر الديمقراطي (لاحظوا التشبيه التحقيري لكونية العلماء). لكن هذا الأصل قابل للتنبؤ به، إذ لو تدرّبنا قليلا، أثناء مطالعة كتاب فيلولوجي أو مصنّف علمي، على التحقّق من الخصوصية الذهنية للعالم، وضبطناها متلبّسة في حالة تَمَرُّس، فسنكتشف فيها دائما ما قبل تاريخ العالم المحققَ، سنكتشف أصله وعائلته، وبصفة خاصة، نوعيّة المهنة والحرفة التي كانت تُمارَس من طرف آبائه. إنّ السّلف عادة هو الذي يتكلّم في دَم وفي غريزة العالم. مثلا يظهر أبناء كتّاب المحكمة وأبناء حافظي الدواوين، الذين كانت مهمتهم تقتضيَ دائما أن يُصنّفوا مادة متنوعة، أن يوزّعوها على أدراج خزانة وأن يخططوها، هؤلاء الأبناء يُظهرون، في حالة ما إذا صاروا علماء، ميلا خاصا إلى اعتبار مسألة ما قد حُلّت تقريبا بمجرّد أن يكونوا قد خططوها[463].

هذه السيكولوجيا المتوحشة، الخيالية والمُسقَطة عنوة على العلماء، يعرضها علينا فوكو بكل جدّية وكأنها تعكس فعليّا حالة العلماء. فهو بدل أن يبحث عن مطابقة نظرياتهم للواقع، ومدى انسجامها الداخلي، يتملّص من هذه المهمة الوعرة ويذهب إلى إفراغ استيهامات لا أساس لها من الصحة على العلماء. المنطق ذاته، أعظم اختراع

463- نيتشه، **العلم المرح**، § 348، ص، 211.

للعقل البشري، عَجَنَه نيتشه في عنصريته، وجعل منه خصوصية يهودية. ويستعرض علينا مثل هذه الخزعبلات كأنها اكتشافات جديدة وفريدة من نوعها. يقول إن اليهودي، على عكس القس البروتستانتي الألماني القح، لا يُحظى بأي تصديق، وهذا راجع لطبيعة نشاطه وماضي شعبه. فهو غير متعوّد على نيل تصديق الناس: ويتجلّى ذلك على وجه الخصوص في العلماء اليهود الذين يُضفون أهمية كبرى على المنطق، كوسيلة فعّالة لابتزاز التصديق عن طريق قوّة الحُجج العقلية. هم يعلمون أنهم سينتصرون بالمنطق، رغم أنف الناس الطيّبين، ومهما عمل الكره العرقي والاجتماعي على تكذيبهم. إذن، ليس هناك شيء أكثر ديمقراطية من المنطق.

قيلتْ من طرف كاره للديمقراطية، وكاره لليهود، وللعقلانية فهذا أمر يدعو للتوجّس. فعلا، هو نفسه يستعيد الكليشيهات ضد الشرقيين عموما واليهود خصوصا من أن أنوفهم عقفاء، وأن المنطق يفعل المعجزات بحيث يسوّي حتى الأنوف العقفاء. المنطق، يقول، لا يفاضل بين الأشخاص، ويعتبر كذلك الأنوف المعقوفة أنوفا مستقيمة[464]. دعابة سمجة كما هي دعابات نيتشه.

(غاَغاَ)

ولم يَنْتَه البلاء مع الثنائي دولوز / فوكو بل تواصل مع بول ريكور (P. Ricoeur)، وهذا الفيلسوف المؤمن الذي من المفروض أن يكون أكثر الفلاسفة مقاومة لإغراءات فكر نيتشه، ها هو للعجب يثنى على كتاب جينيالوجيا الأخلاق ويصفه بأنه « نص عظيم (un grand texte)» .]

وقد اتّبَع نهج النيتشويين من حيث عقده مقارنات بينه وبين فلاسفة مُتقدّمين ولاحقين، محاولا أن يُغلّب نيتشه عليهم، وأكثر ضحاياه هم ديكارت وكانط وهيجل. أعجب ما قرأتُ في هذا الشأن هو المقارنة التي قام بها ريكور بين نيتشه وديكارت في فصل من كتاب **الذات عينها**، تحت عنوان «الكوجيتو المُحطّم»، زعَم فيه أن هذا الشعار يمثل إرثا فلسفيا بلغ ذروته مع نيتشه، الشيء الذي جعل منه «المناوئ الأبرز لديكارت[465]». على ماذا استند ريكور لاستخلاص هذه النتيجة؟ أية نصوص وأية

464- ن. م، ص، 212.

465- بول ريكور، الذات عينها، ترجمة جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2005. ص. 84.

تحاليل منطقية وفلسفية خوّلت له ذلك؟ على مقال صغير يتيم بعنوان، **دروس في البلاغة**، ألقاه نيتشه في جامعة بازل بسويسرا بينما كان يُدرّس الفيلولوجيا، الفيلولوجيا وليس الفلسفة، للطلبة هناك؛ وعلى مقال ثانٍ لم ينشره في حياته، بعنوان: «الحقيقة والكذب بمعنى خارج للأخلاقي»، وفقط بالاعتماد على هذين النصين الهامشين، استطاع ريكور أن يُلحق نيتشه الفيلولوجي الشاب بأكبر فيلسوف غربي، بل أن يُغلّبه عليه ويحطّم حياته وفلسفته.

لقد ترك ريكور المسألة الفلسفية الحقّة وراح يحاكم اللغة التي تُقال بها الفلسفة، والرجل يُشدّد على فكرة أنّ فلسفة الذات، قد تجاهلت تماما الحديث عن الوسيط اللغوي الذي يحمل حججها حول الأنا موجود والـ«أنا أفكّر»[466]. وفقط بهذا الاعتراض البسيط، الوارد في درس عن البلاغة لا علاقة له بالفلسفة، فإن نيتشه حسب ريكور «أظهر للملأ كل الاستراتيجيات البلاغية الغائرة أو المنسية، أو حتى المكبوتة والمستنكرة بكل نفاق، باسم مباشريّة التفكير». كل هذا الإنجاز قام به نيتشه وهو شاب في الثامنة والعشرين من عمره. ثم يضيف: «إن كتاب دروس البلاغة يقترح الفكرة الجديدة وهي أن التعابير البيانية الاستعارة والمجاز والكناية لا تُمثّل زينة مُضافة إلى خطاب حرفي حقيقي غير مجازي، بل هي جزء لا يتجزّأ مرتبط بالعمل الأكثر بدائية لوظيفة اللغة. وهذه بأكملها مجازية[467]».

بعيدا عن هذه المقدمات الخطابية، نريد أن نعلم كيف استطاع نيتشه أن يقضي على كوجيتو ديكارت؟ لن تجدوا الإجابة جاهزة، يجب عليكم أن تطوفوا مع ريكور في الفراغ، ثم يُرجعكم إلى نقطة الصفر. الفراغ هو هذا: نيتشه، يقول ريكو، في كتاب «الحقيقة والكذب» ذَهب إلى أبعد الحدود في مفارقة اللغة. ما هي المفارقة؟ أن اللغة «كاذبة تماما[468]». لكن من يقول إن اللغة كاذبة، فهو كاذب، إذن صادق، وبالتالي كاذب مجددا وهكذا ندخل في متاهة مفارقة الكذاب دون إمكانية الخروج منها. ورغم ذلك فإن ريكور يدعي أن نيتشه هو المفكر «الذي تحمّل مسؤولية هذه المفارقة حتى النهاية»، بل أكثر من ذلك، هذه المسؤولية الكبرى لم يتحمّلها أيٌّ من «الشارحين

466- الذات عينها، م. س، ص. 85.

467- ن. م، ص، 86.

468- ن. م، ص، 86.

الذين يُدافعون عن الحياة وإرادة الاقتدار، وذلك من أجل الكشف عن حقيقة مباشرة جديدة تقوم مقام الكوجيتو وكل ادعاءاته التأسيسية[469]».

لا يُزعجه أن يأتي نيتشه ويقول لنا إن الحقيقة هي **وَهْمٌ** اصطنعه الإنسان للحفاظ على الحياة؛ ولا يخجل من القول إن الطبيعة ذاتها سحبت من الإنسان القدرة على كشف هذا **الوهم** «ورَمَتْ المفتاح»، ولكن نيتشه يعتقد أنه يملك هذا المفتاح. والمفتاح السري يكمن في وظيفة **الوهم** كقُدرة على زحزحة المعاني، كتزييف. وقدكتبها ريكور بالألمانية (Verstellung) دون ترجمتها للفرنسية. لكن كلامه الموالي يشرحها بهذا المعنى، أي بمعنى التزييف (والتمويه والتّورية) (dissimulation)، والمترجم العربي كتب «إخفاء». لكن في كلتا الحالتين معا، تزييف أو إخفاء، لا يحق لريكور أن يقول لنا إن زحزحة المعاني (بطريقة اعتباطية كما هي عادة نيتشه) هي سرّ العمل الوظيفي الذي يقوم به الوهم، ليس على الصعيد اللغوي فحسب بل أيضا على الصعيد البلاغي[470].

نحن في وَهم الوهم، في عالم الأكاذيب المتعمّدة القبيحة التي لا مكان لها في الفلسفة ولا تمتّ إلى النزاهة العلمية بصِلَة. ولكن يكفي أن نيتشه قالها حتى تغدو عين الصواب وأروع الحكم. إنه مدعاةَ لليَأس، في نقاش للكوجيتو الديكارتي، الذي ابتدعه صاحبه لتجاوز عطالة الريبية وتخطي المعوقات التي تحول دون بلوغ معرفة يقينية، أن يُقال لنا إن نيتشه لا يتردد في خياره: النموذج بالنسبة إليه، هو الكذاب الذي يُسيء عن قصد استعمال اللغة بضربات الاستبدال الإرادي وقلب الأسماء.

ومع ذلك، ورغم هذا الكلام الخطير، فإن ريكور اجتهد لتخليص هذا الكذاب من لاأخلاقية أكاذيبه. ماذا فعل؟ وبأيّة وسيلة؟ عَمَّم الكذب وأغرق الكون كله فيه، وجعله على شاكلة ثقب أسود، بَالُوعَة جهنّمية ساحقة لكل شيء. ولا تنجو من هذه البالوعة حتى اللغة التي نستعملها في حياتنا اليومية، نظرا لغياب نقيض حقيقي للُغة المجاز، وبالتالي لم تعد لنا من مسوغات نظرية أو براهين منطقية لكشف أكاذيب الكَذاب: «إن لغة الكذاب ليس لها، كمرجعيّة، لغة غير كاذبة[471]». وبغياب هذه المرجعية نبقى سجناء الاستعارة إلى الأبد، ومعجونين في الكذب مدى الحياة. أنا أتساءل هل ثمة استهتار

469- ن. م، ن. ص.

470- ن. م، ص، 87.

471- انظر النص الفرنسي:

P. Ricoeur, Soi-même comme un autre, Paris, Edition du Seuil, 1990, p. 24.

بالفلسفة أكثر من هذا؟ هل ثمة تشجيع على الإرهاب أقوى من هذا الكلام؟ وكيف لا يشجّع على الإرهاب من يفتح باب الكذب على مصراعيه ويُقدّم مبررات للكذابين الإسلاميين مثلا كي يقولوا كل شيء ويختلقوا كل أصناف الأكاذيب دون محاسبة؟

لقد غابت عن ريكور تماما هذه الاستتباعات الوخيمة لأفكار نيتشه المرتجلة واللافلسفية، وغابت عنه خطورة هجمته على الحقيقة، ولا يسعنا إلاّ التعجّب من كيفيّة وصفها بأنها تصريح ذو «**لهجة مهيبة احتفالية**»، أقصد التصريح الذي يقول فيه نيتشه: «ما هي إذن الحقيقة؟ كثرة متحرّكة من الاستعارات والكنايات وكلمات أنثربومورفية، أي باختصار مجموعة من العلاقات البشرية رُفعت وعُظّمت وبُدّلت وزُيّنت شعريّا وبلاغيّا فبدت لشَعبها، بعد طول استعمال، ثابتة، صحيحة، وملزمة: إن الحقائق هي أوهام نسينا أنها كَذلك واستعارات استُهلكت وفَقدَت قوّتها الحسيةَ، قِطَع عُملة فقدت نقشها، ولم يعد يمكن اعتبارها كقِطَع عُملة، ولكن كَقِطع معدنية».

(فآفآ)

كنتُ أنتظرُ من فيلسوف بارع وحصيف، مثل بول ريكور، أن يتمعّن في التعريف الغريب جدا الذي أعطاه نيتشه للحقيقة (جيش من الاستعارات)، وأن يَنطق بكلمة واحدة نقدية، أو يُبدي نَزَرا من الاحتراز الفلسفي إزاءه، لكننا لا نجد شيئا من هذا القبيل، ولا نجده حتى عند ادوارد سعيد الذي استخدم هذا التعريف لمهاجمة الاستشراق.]

كل ما نجده هو اعجاب ضمني واجهاد صريح وغريب لهذا النص الشرير جدا والذي أحدث أضرارا تفوق الخيال. لقد مثلت هجمة نيتشه على الحقيقة، بالنسبة لريكور كسبا فلسفيا قضى به على الكوجيتو الديكارتي، وأغرب منه، وقبل ريكور بعدّة سنوات مَثّلَتْ كسبا جيّدا للمفكر العربي **إدوارد سعيد** لكي يهجم على الاستشرَاق ويَسْحل المستشرقين في الحضيض.

لكن ما فعله ادوارد سعيد هو تحقيق في الواقع لما نصح به نيتشه أتباعه طوال حياته: السماح للنفس بالتحوير والتزوير والتشويه وسك العملة الزائفة.

وهنا أريد أن أفتح قوسا وأتحدث عن قضيّة محورية في كتاب «الاستشراق»، لأُثبت الضّرر الذي يقدر أن يُحدثه نيتشه في عقول المفكرين. في احدى صفحاته

يُعطي سعيد تعريفا غريبا للاستشراق: «الاستشراق **مدرسة للتفسير** حَدَثَ أن كانت مادّتها الشرق، بحضارته وشعوبه وأقاليمه المَحَليّة[472]».

والحال أن الاستشراق ليس مدرسة من مدارس التفسير، (الترجمة هنا خاطئة، الأصح هو «مدرسةُ تأويل» كما في النص الأصلي "*a school of* ***interpretation***"[473])، لأن المستشرقين لا يعتبرون أنفسهم مؤوّلين وإنما كاشفين لحقائق تاريخية ومبرهنين عليها بأدلة نصّية ثابتة. وأظن أن هذا التعريف للاستشراق غرضه الأساسي هو ضرب مصداقيّة البحوث الاستشراقية في الصميم والاستهانة بالنتائج العلمية المتراكمة عبر قرونٍ من البحث والتّدقيق.

إن مكتشفات الاستشراق الجليلة، حسب اعتراف سَعيد نفسه «**التي قام بها عدد لا يحصى من الباحثين الذين وقفوا حياتهم على البحث فحرّروا النصوص وترجموها ووضعوا كتب النحو وألّفوا المعاجم وأعادوا صور الحقب الميّتة وتوصّلوا إلى نتائج علمية يمكن إثبات صحّتها بطرائق "وضعية"**[474]» لا تساوي شيئا، ومعدومة القيمة المعرفيّة لأنها مطبوعة منذ البداية بطابع الايديولوجيا. والاستشراق، رغم كل المجهودات في سبر النصوص وتحقيقها وترجمتها ونشرها، يَبقى، في رأي سعيد، شأنا استعماريا ذا طابع امبريالي، وعلى أقصى تقدير هو مجرّد حوار للغرب مع ذاته ومع صورة اصطنعها من محض خياله، صورة مؤطّرة في عالمه الضيّق ومُشرّطَة بلُغته.

وهنا يدخل نيتشه في المعمعة لكي يُدعّم هذا الحكم المتعسّف، ذلك أن مكتشفات الاستشراق كلها، وجُهُود العلماء عبر قرون من البحث الدّؤوب «قد تشكّلت وكانت دائما تخضع لحقائق مُجسَّدة في **اللغة**، مثل جميع الحقائق التي تأتينا **اللغة** بها، وما حقيقة اللغة، على نحو ما قاله نيتشه يوما ما، إلاّ: "**جيش متحرّك من الاستعارات والكنايات والتشبيهات بالإنسان وباختصار مُجمل علاقات بشرية قامت عوامل شعريّة وبلاغيّة بالارتقاء بها، وتبديل مواقع أجزائها وتجميلها، فأصبحت تبدو بعد طوال استعمالها حقائق صلبة وفقهية وملزمة لشعب من الشعوب: ما الحقائق إلاّ أوهام نسي المرء أنها كذلك في الواقع**"[475]».

472- ادوارد سعيد، **الاستشراق**، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة السادسة، بيروت 2003، ص، 214.

473- E. Said, Orientalism, Vintage Book, New York 1979, p. 203.

474- الاستشراق. المفاهيم الغربية للشرق، ن. ص.

475- ن. م، ص. 320.

لا أدري هل اطّلع سعيد على نص نيتشه، وفي أي لغة اطّلع عليه، أم أنه نقل عن نص آخر دون التدقيق في الكلمات. إنه من الغرابة بمكان أن مفكرا يحارب علماء كبار مشهورين بالدقة والصرامة، يَعمَد إلى تحريف كلمة نيتشه المحورية في هذا النص والتّلاعب بها وتوظيفها لصالحه؛ لأن نيتشه لا يتحدث عن "**اللغة**" وإنما عن "**الحقيقة**"، ويتساءل بالحرف: «**ما هي الحقيقة إذن؟** "Was ist also Wahrheit?"[476]»، ثم يجيب بأنها جيش من الاستعارات ... الخ.

(قآقآ)

المؤكد أن نيتشه كتب هذه الخواطر ضد الحقيقة والتاريخ والبحث الفيلولوجي كردّة فعل يائسة ضد الانتقادات المُدمّرة التي وجهها إليه فيلاموفيتس موليندورف، وحُذّاق القوم من الفيلولوجيين الألمان، بعد أن صُدموا بكتابه الفظيع: مولد التراجيديا.]

ومن المحتمل جدا أن الكلمات التي قدحت فيه زناد تهجّماته الشرسة على الحقيقة والموضوعية التاريخية، هي تلك التي سطّرها فيلاموفيتس في كتابه. حيث قال: ليس من الصعب، نقض كل استيهامات نيتشه، والبرهنة على أن أستاذ الفيلولوجيا هذا قد شيّد أحكامه «**على عبقرية مُموَّهة وتَحكّمات في علاقة بالجهل** (**Unwissenheit**) **وقلّة حبّ الحقيقة** (und **Mangel** an der **Wahrheitsliebe**)[477]». وقد أثبتَ فيلاموفيتس بفائض من الشواهد أن نيتشه غير متمكّن من اختصاصه، وأنه عندما يلج في عالم الدراسات الكلاسيكية فهو يُبدي «**جهلا** صبيانيا (kindische **Unwissenheit**)»[478]... السيّد نيتشه لا يعرف يوربيدس (**kennt** den Euripides **nicht**)؛ ويتعجّب فيلاموفيتس من الأخطاء الرهيبة التي وقع فيها ويقول: «ما هذا العشّ من **الحماقات** (Blödsinn)**!**» ثم يُعاتبه شخصيا: «سيّد نيتشه ما هذا الخِزي الذي ألحقتَه بأمّنا **بفورتا** (Pforta)[479]». (بفورتاَ هو المعهد الشهير الذي تخرّج منه خيرة الفيلولوجيين الألمان).

476- F. Nietzsche, Über Wahrheit und Lüge im aussermorlischen Sinne, in ID, Werke I, de Gruyter, Berlin 1999, p. 880.

477- U. von Wilamowitz-Möllendorff, Zukunftsphilologie! Eine Erwiderung auf Friedrich Nietzsche, ord. Professors der klassischen Philologie zu Basel, Geburt der Tragödie, Gebrüder Borntraeger, Berlin 1872, p. 8.

478- *Ibid*, p. 9.

479- *Ibid*em. „Welch Nest voll Blödsinn! Welche Schande hr. Nietzsche machen Sie der Mutter Pforte!“.

كلمات حادّة، قاطعة وحاسمة، وَقْعُها رهيب على مسامع شخص يعتبر نفسه نور العالم. وقد التجأ فيلاموفيتس إلى هذه اللهجة القاطعة لأن نيتشه أهان علمه ومرّغ في الحضيض تراثا عظيما من البحوث الجدية في ميدان الفيلولوجيا. فالرجل متيقّن، وهو على حق، أعني فيلاموفيتس، من أنّ الطريق السوي الذي سار على هديه أبطال الفيلولوجيا وعلم التاريخ النقدي، لا يُذعن إلاّ إلى مطلب الحقيقة، وأن المنهج العلمي الصحيح هو الارتقاء من معرفة ثابتة إلى معرفة أخرى؛ مع فَهْم كلّ ظاهرة حَدثت في الماضي فقط من خلال مُعطيات الحِقبة التي نشأت فيها، وتبريرها في ضرورتها التاريخية الراهنة، وأن يكون هذا المنهج التاريخي النقدي، الذي أصبح، على الأقل في خطوطه العريضة، كَسبا علميا راسخا، كل هذا لا يمكن أن ينكره حتى السيد نيتشه[480].

لا يُنكره بالفم أمّا في الواقع فقد خَرَقَه كليا واختار نهجا مغايرا، بحيث إنه، لتمرير مقولات الفاغنريّة التي تتضارب مع منهج البحث العلمي، تَهجّم على الفيلولوجيا وضرب قاعدتها التاريخية النقدية، ناعتا بالجُبن كلّ رأي مخالف لرأيه، وسابّا الفيلولوجيين جهارا[481].

وقد دعاه فيلاموفيتس إلى التنحّي عن كرسي الفيلولوجيا لأنه يزوّر الحقائق وينشر الجهل في صفوف المتعلمين. ويختم فيلاموفيتس نقده بالتّأكيد على ما قاله من قبل وإعادة نفس التهمة: الجهل ونكران الحقيقة «أعتقد أنني قدّمتُ البراهين على مُعاتبتِي إيّاه **بالجهل ونقصان حبّ الحقيقة** (der **Unwissenheit** und des **Mangels** an **Wahrheitsliebe**). ولكن أخشى أني أخطأتُ في حق السيد نيتشه. فإنْ اعتَرضَ عليّ بأنه لا يعبأ بـ"التاريخ والنقد" ولا بذاك "التاريخ الكوني المزعوم"، وبأنه يريد "خلق عمل فنّي ديونيزي"، "وسيلةَ تَعزيَة ميتافيزيقية"، وبأن أقواله ليس لها وجود الواقع النهاري العيني والفظّ، بل هي "الواقع الجليل لِعَالَم الأحلام" إن كان الأمر على هذه الشاكلة، فإنني أسحب كلّ أقوالي وأقدّمُ صاغرا اعتذاراتي. أترك له عن طواعية إنجيله لأن سلاحي لا يَفلّ فيه[482]».

480- *Ibid*, p. 8.

481- *Ibid*em.

482- *Ibid*, p. 32. "Ich glaube der Beweis für die schweren Vorwürfe der Unwissenheit und des Mangels an Wahrheitsliebe ist gegeben".

فيلاموفيتس يؤكد بأنه سيسحب كلامه على هذه الشروط فقط، ولكن إن تمادى نيتشه في استهتاره بمبادئ المنهج النقدي التاريخي، وواصل في نفس الوقت تدريس الفيلولوجيا، فإنه لن يسحب كلامه، بل في هذه الحال سينصحه، بشيء واحد «وهو أنّ على السيّد نيتشه أن يَفيَ بوَعده. فليُشهِر تِرْسَه وليَتَنقّل من الهند إلى اليونان، لكن عليه أن يَنزل من علياء كرسيّه الذي كانَ من واجبه أن يُلقّن منه العلم؛ فليجمع أمام رُكبَتَيه نمورا وفهودا، لكن ليس الشبّان الفيلولوجيين الألمان الذين يجب عليهم، في العمل المتزهّد الناكر لذاته، أن يَتعلّموا فقط البحث عن الحقيقة فوق كلّ شيء، ان يتعلّموا تحرير أحكامهم بالتزام، لكي يمنح التراث الكلاسيكي للشباب الشيء الوحيد الدائم، الذي تَعد به ربّات الشعر والذي لا يمكن أن تهِبَه، في ذلك الاكتمال والصفاء، إلاّ الدراساتَ الكلاسيكية: "المحتوى في صدورهم والشكل في روحهم" (den Gehalt in ihrem Busen, und die Form in ihrem Geist)»[483].

وفي جولة ثانية، ورَدّا على نيتشه وصديقيْه، فاغنر ورُودَه، أكّد فيلاموفيتس على البون الشاسع الذي يفصل بينه وبين دُعاة "الفيلولوجيا الجديدة"، لأن المسألة لا تخص نقاطا هامشية، أو تنحصر في مشاكل فيلولوجية دقيقة فحسب، بل تذهب إلى العمق، وتمسّ مباشرة أخلاقيات البحث العلمي. هنا تُفتح هوّة غائرة ولا يمكن ردمها. خلافا لخصومه المُستخفّين بالتحقيق والتدقيق، فإن فيلاموفيتس يَسير على هدي المثال الأعلى الذي هو تطوّر العَالَم بحسب قوانين الحياة والعقل؛ لا يقفز على مساهمة العلماء السابقين بل يعترف بفضل تلك العقول العظيمة التي افتَكّت من العالَم، بجدّ ومثابرة، أسراره العميقة. وعلى عكس العدمية النظرية التي يروّج لها خصومه، فإن فيلاموفيتس كلّه تفاؤل بقدرة العقل الإنساني على إدراك المجهول، ويُحاول، كما يقول، بشيء من الانبهار أن يقترب من نور الجمال الأبدي الذي يبثه الفنّ. وفي العِلْم الذي يملأ حياته يجتهد لتتبُّع الأثر الذي يُحرّر عقله من سلطة الأحكام المسبقة. لكن في مقابل ذلك فإن صاحبنا بعَمَله لم يفعل إلاّ أن أجهز على تطوّر قرون من البحث العلمي: هنا تمّ حَذف كل ما أوحتْ به الفلسفة والعلم والدين لكي يكشف لنا عن الوجه القبيح لذاك **التشاؤم الظلامي القاتم**. لقد هشّم هذا الفيلولوجيّ المزعوم الصّوَرِ الإلهية

483- *Ibid*., p. 32.

التي يُزيِّن بها الشعر والفن التشكيلي سماءنا، في سبيل عبادة وثن ريتشارد فاغنر «كل هذا لا يمكنني أن أتحمّله[484]».

و يبرّر فيلاموفيتس أخيرا مجابهته لنيتشه بأن إحساسه الجريح ردّ بطريقة دينية، كما يقول، ويطلب المعذرة من قرّائه إن تجاوز هنا وهناك الحدود المسموح بها. إلاّ أن كلّ من يحكم، بعيدا عن الأهواء، سيعترف بأنه جادل بنزاهة وبأنه لم يفعل ذلك إلاّ من أجل الحقيقة «لكن الحقيقة يمكن أن تنتصر بدُوني، وعاجلا أو آجلا فإن تيّار الزمن المتسارع سيَجُرّ معه هذه الورقات كما ورقات خصومي؛ ومع ذلك لن يُكَدِّرني الشعور بأنني بدأتُ وقُدتُ معركة لا يمكنها أن تَجلب لي لا فَخرا، ولا رِبْحا، ولا لَذة، والتي لم تَدفعني إليها، لا الحاجة، ولا الحثّ من خارج. إنه فقط صوت الواجب لإعلاء الراية التي أحارب تحتها[485]».

(كآكآ)

من المحتمل جدا أنّ لا إدوارد سعيد ولا ريكور، من بعده، يعلمان خلفيات القضية، وربما لا تعنيهما كثيرا، لأن هَمَّهما هو الاستحواذ على الفكرة النيتشوية وتحويلها إلى سلاح فتّاك.]

ادوارد سعيد التقط هذه الفكرة لكي يُجْريها على البحوث الفيلولوجية التي قام بها العلماء الغربيون، وهكذا يتسنّى له تحطيم الاستشراق بطريقة عشوائية. لكن غاب عنه أن المقصد الأصلي الذي يَرُومه نيتشه، من خلال هذه الشذرة، هو ضرب مفهوم الحقيقية في الصميم، وجَعْلها مجرّد معتقد ديني غيبي، أو أسطورة كتابيّة أصبحت، من شدّة ترديدها، حقائق ملزمة للوعي الشعبي. وقد شبّه أحد الناقدين هذا المفهوم الانتحاري العدمي للحقيقة، بشخص يقطع الغصن الذي يجلس عليه[486]، لكن هذا

484- U. Von Wilamowitz-Möllendorff, Zukunftsphilologie! Zweite Stück. Eine Erwidung auf die Rettungsversuche für Fr. Nietzsche ‚Geburt der Tragödie', Gebrüder Borntraeger, Berlin 1873, p. 23 „Das ertrug ich nicht"

485- *Ibid*em.

486- V. DE PALLARES, Le crépuscule d'une idole. Nietzsche, nietzschéisme, nietzschéens, Paris, Grasset, 1910, p. 259. « Quant à ses fantaisies contre la vérité, elles rappellent les innocents exercices de pugilat auxquels se livrent les tout petits sur le sein de leur nourrice. Il est en effet assez plaisant de voir un philosophe échafauder des propositions, enchainer des arguments dans un ordre dans un ordre logique, se servir en un mot de l'appareil de la vérité même. Certes, on peut toujours scier la branche sur laquelle on est assis, mais quand on pratique cette opération du côté

التشبيه ينطبق على سعيد لأنه، دون أن يدري، فهو يُدَمّر بيدٍ ما يريد أن يبرهن عليه بيد أخرى.

بعد أن نقض الفيلولوجي الكبير فيلاموفيتس كل البناء الذي شيّد عليه نيتشه نظريته في التراجيديا، وبيّن خللها وبُعدها عن روح البحث الفيلولوجي وغربتها عن الحقيقة. ماذا فعل نيتشه؟ بأي سلاح واجه ناقده؟ بأسطورة قِياميّة (أبوكاليبسية «apocalyptique»): في رُكن ما من أركان الكون القاصية، مدحورا في أنظمة شمسية لا تُحصى ولا تُعدّ، كان هناك كوكب، اكتَشَفت فيه حيوانات عاقلة أنها تعرف. هذا الكائن هو الأصغر والأحقر من بين الكائنات، والأكثر كذبا. بعد زفرات معدودة للطبيعة، تَجمَّد الكوكب، وكان على الحيوانات العاقلة أن تموت لا محالة، ومن الأفضل أن تموت وتفنى لأنها، رغم تبجّحها بمعرفة أشياء كثيرة، اكتشفت أنها لا تعرف شيئا وأن كل ما تعرفه هو باطل ومزوّر. ماتت، وفي لحظة موتها، لَعَنت الحقيقة (*fluchten der Wahrheit*). هكذا كان مصير تلك الحيوانات اليائسة التي اكتشفت المعرفة[487]. الحقيقة على كل حال غير موجودة، لأنها جيش من الاستعارات، وتشبيهات انثروبورمفية، صُعّدت شعريّا وخطابيّا، ثم تُرجمت، وتم تزويقها، وبعد عادة طويلة بدت لشعب ما أنها ثابتة، أنها شريعة مُلزمة: **الحقائق هي أوهام** (*Die Wahrheiten sind Illusionen*)، نُسي أنها كذلك، فهي استعارات أصبحت بالية وعاجزة إلى حدّ كبير، عُملات فقدت سكوكها والآن تُعتبر فقط كمعادن، وليس كعملات[488].

رغم هذه التهجمات فإن ريكور يواصل في التقيد بنصوص نيتشه والقول بأن الاختزال المجازي يشكّل مفتاحا مفيدا من أجل تأويل «المواجهة النقدية للكوجيتو[489]»، وأن نيتشه قضى على الأنا أفكّر في احدى شذراته التي قال فيها: «إني أتمسك أيضا بظاهريّة العالم الداخلي: كلٍ ما يصبح وعيا لنا قد نُظّم ورُتّب من أوّله إلى آخره وبُسط وسُهّل واختُصر واختُزل وأوّل إن السيرورة الحقيقية للإدراك الداخلي، والتسلسل

de l'arbre, la chute est inévitable. Elle est d'ailleurs sans danger ; on ne se fait jamais grand mal en tombant du haut d'un raisonnement. Et c'est pourquoi nous pouvons peut-être en rire un peu ».

487- F. Nietzsche, Über Wahrheit und Lüge im aussermorlischen Sinne, in ID, Werke I, de Gruyter, Berlin 1999, p. 880.

488- Über Wahrheit und Lüge, *Ibid*em.

489- ريكور، **الذات عينها**، م. س، ص، 88.

السببي بين الأفكار والعواطف والشهوات والرابط بين الذات والموضوع كلها مُخبّأة تماما عنّا وربما لم تكن سوى من محض الخيال[490]».

عن طريق هذا السيل من الخطابة والكلمات المرصوصة، دون برهان عقلاني أو دليل منطقي، استطاع نيتشه، على حد ريكور، أن يُثبت ظاهرية العالم الداخلي وتماثُله مع العالم الخارجي. ولكي يقطع السبيل أمام أيّ اعتراض فإن ريكور يُنَصِّب هذا الدّرع: الظاهر ليس ظاهرا بل لا شيء. فعلا، لا يجب أن يغيب عن بالنا، يُنبِّه ريكور «الهجوم ضد الوضعية، فحيث تقول هذه: ليست هناك سوى وقائع، فإن نيتشه يقول: الوقائع هي ما هو غير موجود، هناك فقط تأويلات[491]». لكن ريكور غيّب شيئا حاسما من شذرة نيتشه، وهو الجملة الأخيرة التي يقول فيها «إن مشاعر اللذّة والألم هي ظواهر ذهنية متأخرة ومشتقّة».

لكن هذا التصريح يناقض البداهة السيكولوجية وليس له أدنى أساس في علم البيولوجيا، لأن، انطلاقا من الخليّة، وصولا إلى الحيوان العاقل، الألم يَسْبق ردّ الفعل، ويتقدّم الفكرة وليس العكس. وهكذا فإن عالم نيتشه، حتى الحِسّي منه، هو عالم معكوس شبيه بعالم الأحلام أو عالم المَجانين؛ ورغم ذلك فإنّ ريكور يتباهى بهذا الأمر ويُبدي احتقارا لديكارت ممزوجا بالشماتة: حين يُوسّع نيتشه نقده ليشمل التجربة الداخلية فهو «**يُقوّض، من حيث المبدأ، الصفة الاستثنائية للكوجيتو تجاه الشك الذي وجّهه ديكارت ضد التمييز بين عالم الحلم وعالم اليقظة**[492]».

وأخيرا نيتشه تجاوز ديكارت في أعز ما يملك، وهو الشك المنهجي، لأن نيتشه شك في هذا الشك، «ودَفَعَه إلى أكثر ممّا فعل ديكارت[493]»، بل فَعَلَ أكثر من ذلك، قَلبَ شكَّه المغالي إلى سلاح «ضد اليقينيّة نفسها التي ظنّ ديكارت أنه قد جعلها خارج لعبة الشك». إذا قال ديكارت: أنا أشك، إذن أنا أفكر فأنا موجود، فإن نيتشه يقول لنا، حسب ريكور: «إني أشك أفضل من ديكارت. الكوجيتو أيضا مشكوك فيه. إني انطلاقا من مثل هذه الطريقة المغالية أفهم صيغا مثل هذه: فرضيّتي، الذات الفاعلة كتعدّديّة[494]».

490- ذكرها ريكور، ص، 90.

491- ن. م، ن. ص.

492- ن. م، ص، 90 91.

493- ن. م، ص، 91.

494- ن. م، ن. ص.

ماذا أقول؟ لقد أجْحف ريكور وبَدّع لأنه رشّح هاويًا في الفلسفة، غير مُلمّ بتاريخها ولا درايَة له بأعمال عظمائها، لا يعرف شيئا عن الرياضيات ولم يحلّ في حياته أبسط مُعادلةَ رياضية، إلى محطّم لواحد من ألمع المجددين في الرياضيات والفلسفة والفيزياء الذي أنتجه القرن السابع عشر. لكن كبار القوم وأصحاب العقول الراجحة لم يُجحفوا حينما وصفوا ديكارت بأنه صديق الجنس البشري، بما قدمه من ابداعات فكرية جليلة. وهنا لا أرى بدّا من إيراد تقييم الفيلسوف الرياضي الكبير دالومبير، في خطاب الديباجة لموسوعة العلوم والفنون، حيث يقول: «بعد المستشار باكون جاء اللاّمع ديكارت. هذا الرجل النادر ... كان يمتلك كل ما هو ضروري لتغيير وجه الفلسفة: خيالا قويا، عقلا جدّ متسق، ومعارف مستمدة من نفسه أكثر مما هي من الكتب، قدرا كبيرا من الشجاعة لمحاربة الأحكام المسبقة الأكثر قبولا على العموم... يمكننا أن نعتبر ديكارت كمهندس أو كفيلسوف. إن الرياضيات، التي يبدو أنه أعارها قليلا من الاهتمام، تمثّل اليوم، رغم ذلك، الجزء الأكثر صلابة والأقل تنازعا من مجده. وقد تلقّى الجبر على أيدي ديكارت إضافات جديدة. من أهمها طريقة اللامتعيّنات، وهي اختراع بارع جدا ودقيق للغاية، والتي تم تطبيقها منذ ذلك الحين على عدد كبير من البحوث. ولكن ما خلّد خصوصا اسم هذا الرجل العظيم هو تطبيق الجبر على الهندسة؛ إنها واحدة من أعظم الأفكار وأسعدها التي توصّل إليها العقل البشري من أي وقت مضى، والتي سوف تكون دائما مفتاح البحوث الأكثر عمقا، ليس فقط في الهندسة العليا، ولكن في جميع العلوم الفيزيو رياضية ... إن منهجه وحده كان كافيا لجعله خالدا؛ فعلْم البصريات هو أعظم وأجمل تطبيق للهندسة على الفيزياء، ونحن نرى في أعمالهَ حتى تلك الأقلّ قراءة الآن، كيف يشعّ منها نور العبقري المخترع ... ميتفيزيقاه هي بالمثل عبقرية وجديدة كفيزيائه ... ديكارت على الأقل تجرأ على حث العقول النيّرة على زعزعة أغلال السكولاستيك، وبادئ الرأي، والسلطة، وفي كلمة واحدة، زعزعة الأحكام المسبقة والبربرية؛ وبهذا التمرد، الذي نَقْطف منه الآن الثمار، تَلَقّتْ الفلسفة منه خدمة أصعب، ربما، من جميع الخدمات التَي تدين بها لخلفائه اللامعين. ويمكن اعتباره قائد متمرّدين، كانت لديه الشجاعة للانتصاب أولا ضد سلطة استبدادية وتعسفية، والذي من خلال إعداده لثورة باهرة، أسس لحكومة أكثر عدلا وسعادة من تلك التي رآها قائمة[495]».

495- D'Alembert, Discours préliminaire, in Encyclopédie ou dictionnaire raisonné des sciences, des arts et des métiers, Paris, 1750, p. XXV-XXVI. « Au Chancelier Bacon succéda l'illustre Descartes. Cet homme rare … avait tout ce qu'il fallait pour changer la face de la philosophie :

لكن ريكور، بعد أن غلّب نيتشه على ديكارت، اقتحم الكتاب الأكثر نكاية ولاأخلاقية في العالم، أعني **جينيالوجيا الأخلاق**، واختار المبحث الثاني، المعنون: "الخطأ والشعور بالذنب وما شابهها"، وضحيّته الآن هي هيجل، حيث اقتصر تحليله، كما يقول، على نقطة واحدة وهي الموازاة مع النّقل الهيجلي المُلتَبِس[496]. إن تأويل ريكور لهذا الفصل لهو مُدوّخ حقا. ادّعى أن القرابة العميقة بين النقدين يؤكدها نيتشه نفسه حين يصف الضمير المعذب كتأويل مُزوّر ويصف رؤيته الخاصة للبراءة الكبرى بأنها التأويل الأصيل[497].

هذا ما يقوله بول ريكور، لكن الفيلسوف الإيطالي، بنديتو كروتشي، وهو في رأيي أكثر عمقا ودراية بالتاريخ والفلسفة من ريكور، يقول العكس، أي أن نيتشه «لا يعرف من هيجل شيئا مباشرا وصحيحا (dello Hegel non sapeva niente di diretto e esatto)، وحينما يُلمّح إليه في بعض كتبه، فهو يُظهر أن لديه فكرة عمومية مبتذلة، مستمدة ربما حتى هذه، من تشنيعات شوبنهاور [على هيجل][498]». السؤال: كيف يمكن لشخص لا دراية له بأفكار فيلسوف آخر، ولم يقرأ حتى أمّهات كتبه، أن ينتقده أو يُقيم

une imagination forte, un esprit très conséquent, des connaissances puisées dans lui-même plus que dans les livres, beaucoup de courage pour combattre les préjugés les plus généralement reçu et aucune espèce de dépendance qui le forçat à les ménager. On peut considérer Descartes comme géomètre ou comme philosophe. Les mathématiques, dont il ne semble avoir fait peu de cas, font néanmoins aujourd'hui, la partie la plus solide et la moins contestée de sa gloire. L'Algèbre ... a reçu entre les mains de Descartes de nouveaux accroissements. Un des plus considérables est la méthode des indéterminées, artifice très ingénieux et très subtil, qu'on a su appliquer depuis à un grand nombre de recherche. Mais ce qui a surtout immortalisé le nom de ce grand homme, c'est l'application qui a su faire de l'Algèbre à la Géométrie ; idée des plus vastes et des plus heureuses que l'esprit humain ait jamais eues, et qui sera toujours la clé des plus profondes recherches, non seulement dans la Géométrie sublime, mais dans toutes les sciences physico-mathématiques …. Sa méthode seule aurait suffi pour le rendre immortel ; sa Dioptrique est la plus grande et la plus belle application qu'on eût faite encore de la géométrie à la physique. Descartes a osé du moins montrer aux bons esprits à secouer le joug de la scholastique, de l'opinion, de l'autorité, en un mot des préjugés et de la barbarie ; et par cette révolte dont nous recueillons aujourd'hui les fruits, la philosophie a reçu de lui un service, plus difficile peut-être à rendre que tous ceux qu'elle doit à ses illustres successeurs. On peut le regarder comme un chef de conjurés, qui a eu le courage de s'élever le premier contre une puissance despotique et arbitraire, et qui en préparant une révolution éclatante, a jeté les fondement d'un gouvernement plus juste et plus heureux qu'il n'a pu voir établit ».

496- ريكور، **الذات عينها**، م. س، ص، 633. الترجمة العربية: «النقل المُبهم»، فضّلت تعويضها بـ «النقل الملتبس». النص الفرنسي، ص، 398.

497- ن. م، ن. ص.

498- B. Croce, "Le origini della tragedia" di F. Nietzsche, in Saggi sullo Hegel seguito da altri scritti di storia della filosofia, Bibliopolis, Napoli 2006, p. 408.

توازيا بينه وبين تعاليمه؟ يمكن انجاز مثل هذه العملية فقط عن طريق التعسف والخبط، وهذا ما فعله ريكور في هذا المقطع المربك من كتابه. فالرجل لديه نص يقول فيه نيتشه جهارا: إن نسيان الوعود، يعني الإخلاف بالوعد هو أمر حسنٌ وجيّد، وأن النسيان بصفة عامة هو قوّة حيوية، وريكور دون أن يكترث بهذه الرذيلة يسجّلها بكل سلبية قائلا إن النسيان قد اعتبره «ملكة للصدّ (الكف inhibition») الفاعل، «ملكة إيجابية في كل قوّتها[499]».

ثم إثرها قال كلاما مشوّشا، وخبَطَ خبطا عشوائيا مريعا حقا، ثم التقط جُملتين من نيتشه، يسبّ فيهما الفلاسفة لأنهم تحدثوا عن الإرادة الحرة وميزوا بين الخير والشر، وإذا بريكور ينتهز الفرصة للقول: «هنا نَصل إلى السخرية اللاذعة من ديكارت وكانط لكل هذه الخطبة التي تمزج **التعقيد المظلَم للعقاب بالبساطة البيّنة لعلاقة الدائن بالمدين**[500]». وقد أحال في هذه النقطة على النيتشوي بامتياز، جيل دولوز، لكن كائنا ما يكون قائلها ومهما علا صيت مؤيّدها فهي قولة إجرامية بشعة. نيتشه يريد أن يُرجع المجتمع إلى عهود البربرية الأولى التي كان يقتصّ فيها الدّائن من المُدان حسب نزوته ودون مراعات لحرمة جسده، كأن يجلده حتى الموت أو يُرضّخه بالحجر أو يقتطع جزءا من جسده، هذه الاجراءات يسمّيها ريكور «**العلاقة البسيطة البيّنة بين الدائن والمَدين**»، أما أن يُحاكم أمام قاض يطبق عليه القانون، فهذا الاجراء الحضاري يعتبره «**تعقيدا مظلما للعقاب**».

(لآلآ)

كَم هو كبير ومريع حجم الانحدار والتقهقر عندما نقارن الفلاسفة الفرنسيين المحدثين، الذين اختاروا نيتشه كمُعلّم ومُلهم لأفكارهم، بالقدماء الذين تصدّوا لأفكاره بحزم وبكفاءة عالية، دون رهبة أو تقديس. ومن أشهرهم ألفريد فوييه (1838-1912)، الفيلسوف الفرنسي المعاصر لنيتشه، والذي تربّى على عقلانية ديكارت، وتشبّع بالمنهجية الوضعية. فوييه جابه نيتشه على أرضية فلسفية بحت ونازعه في النقاط الأساسية من «نسقه» الفكري.]

499- ريكور، الذات عينها، م. س، ص، 634.

500- ن. م، ص، 635.

نيتشه الذي علّق بيده على كتاب «علم الاجتماع الحديث»، في إرادة القوة، ألقى على مفاهيم العدالة المتساوية للجميع ، الاستقلال الذاتي والتضامن الاجتماعي، واحدة من حذلقاته المعتادة (une de ses boutades)[501]. «استقلالية الفرد المُتنامية! هي ما يتحدّث عنه فلاسفة باريسيّون مثل فويّيه (Fouillée). فلينظروا إذن إلى سلالة الخرفان التي ينتمون إليها هم أنفسهم! افتحوا عيونكم يا علماء اجتماع المستقبل! لقد أصبح الفرد قويّا تحت ظروف متعارضة[502]».

نيتشه يريد أن يقول: في ظروف قوانين مختلفة، وعبودية السواد الأعظم، تحت اسم الاستقلال الذاتي لأكبر عدد ممكن من الأفراد «أنتم تَصِفون ضعف الإنسان التام وسقمه[503] ». إن هذا الضعف وهذا السقم «يوافقان رغباتكم، وللقيام بهذا تستخدمون آلة المثل الأعلى القديم الكاذبة! أنتم تصنّعتم بحيث بشكل يجعل حاجيات حيوان القطيع الذي هو أنتم تبدو لكم حقا كمثل أعلى ![504]». على هذه التخريجات الجارحة، يرد فوييه: بقراءتنا لهذه الأسطر، لا نعجب قط ، من أن مثال نظام تعاقدي، بدا لهذا الاستبدادي البروسي قيمة منحطة.

لقد انتقد فوييه في كتابه أعلاه الأحكام الأرستقراطية لرينان وتين (Renan et Taine)، وهذه الانتقادات ولّدت في نيتشه الإحساس بأنها كانت موجّهة له شخصيا. إن فكرة «العدالة الترميمية» التي أدخلها فوييه كإطار مرجعي تنضوي تحته واجبات الرحمة والأخوة في علاقة إنسانية تركيبية، أثارت مَقتَ نيتشه لكل عدالة، لكل توزيع متساو ومُنصف. أما بشأن تصوّر الفيلنثروبيا (محبة البشر) كشكل من عدالة شاملة وعميقة، لا يمكنها أن تثير في عدو **الشّفقة** وإمام **الوحشية**، إلاّ مزيدا من الحنق على الأخلاق[505]. نيتشه يخلص إلى أن مثال حيوان القطيع «بلغ ذروته الآن في التقييم الأسمى للمجتمع [506]».

501- A. Fouillée, Le moralisme de Kant et l'amoralisme contemporain, Paris, Félix Alcan, 1905, p. 321.
502- Nachlaß 1887-1889, aph. 137, p. 63.

نيتشه، **إرادة القوة**، § 396، ص، 315 – 316.
503- ن. م، ن. ص.
504- ن. م، ن. ص.
505- ألفريد فوييه، **أخلاقية كانط واللاأخلاقية المعاصرة**، م. س، ص، 322.
506- نيتشه، **إرادة القوة**، § 397، ص، 316.

إن كتاب «علم الاجتماع المعاصر[507]» وكتاب «نقد أنساق الأخلاق المعاصرة[508]»، مَثّلا وجهة نظر الاجتماع كأفق يملك قيمة عليا في الفلسفة. ووجهة النظر هذه، يواصل فوييه، ذات قيمة رفيعة ليس فقط لتأسيس الأخلاق، بل لتعقّل العالم بأسره والطبيعة الحقيقية للموجودات. إن الكون كان، في نظرنا، «مجتمعا كبيرا من الوعي الناشئ». ونيتشه باطلاعه على هذه الفكرة، صرخ بتعجّب: «محاولة إضفاء قيمة كونية وحتى ميتافيزيقية على المجتمع ! أدافع ضدّها عن الأرستقراطية».

لكن هذا لم يمنع اللاّأخلاقي الفوّار المحارب من أن يتناقض بسرعة، أن ينقض نفسه في غضون جملتين. فعلا، ما الشيء الذي يتضاءل في كل مجتمع مؤسس على مبادئ الحرية والمساواة؟ نيتشه الذي طرح السؤال، يُجيب: «إرادة أن يكون المرء مسؤولا، دليل على أن الاستقلال الذاتي يتناقص». إن نيتشه في العمق، يريد هو أيضا، كما يقول فوييه، أن يحقق الفرد في مجتمع راقٍ استقلالا ذاتيا متناميا وليس متناقصا؛ إنه يريد نفس الشيء الذي نريده نحن، معً هذا الفارق، وهو أنه يُبقي المستقلين ذاتيا، قطيعا من العبيد (un troupeau d'esclave)[509].

إن هجمات نيتشه ضد مجتمع مواطنين أحرار هي من الغرابة بمكان لأنه يطالب دائما، من جهته، بالاستقلال الذاتي المطلق بل حتى بعدم الخضوع الكامل لأي قانون. صحيح أنه يعتبر نفسه، (وثُلّة من المختارين)، الوحيد الذي له الحق في ذلك الاستقلال الذاتي. لكن كان عليه أن يقول إن كل واحد يرغب في الانضمام إلى زُمرة المتحرّرين والمرور إلى حضيرة الأسياد؛ كل واحد سيجد في الفوضوية الفردانية وسيلة مريحة لكسر كل الأغلال الأخلاقية والاجتماعية[510].

إن الصفحات التي دوّنها فوييه عن الفيلانثروبيا والموجّهة ضد هيربرت سبينسر قد سبّبت، بلا شك، لنيتشه جرحا لأنه يتبنّى أطروحات الفيلسوف الإنجليزي. فعلا، فهو يزعم مع سبينسر أن الفيلانثروبيا السارية في عادات المجتمعات الغربية، ليست فقط غير مُجدية، وإنما هي مُضرّة. المجتمع يعالج مرضى ساقطين، نفايات البشرية، ويحيطهم بعناية أمومية، بينما هم يمثلون بالنسبة لمستقبل العرق خطرا محدقا. الحل بالنسبة لنيتشه موجود: «فليفنى الضعفاء والمشوّهون».

507- A. Fouillée, La science sociale contemporaine, Paris, Hachette, 1880.
508- Id., Critique des systèmes de morale contemporains, Paris, Germer Bailliere, 1881.

509- ألفريد فوييه، **أخلاقية كانط واللاأخلاقية**، ص، 322.
510- ن. م، ص، 323.

لكن بالنسبة لفوييه، ثمة خطأ في فهم الفيلانثروبيا، فهي لا تعني التسيّب الأخلاقي أو نزع الضوابط الاجتماعية، أو التصفيق للمجرم أو سَنّ قوانين تُساعد على الرذيلة. لا واحد من الفيلنثروبيّين مستعدّ للقبول بهذه الإجراءات التخريبية.

إن أتباع نيتشه، يواصل فوييه، يعيبون بمرارة على المجتمعات الحديثة إنشاءها مستشفيات لمعالجة مرضى العضال، ويعتبرونها تبذيرا للطاقة، وبؤرة تسرق الأموال من عمّال صالحين كي تعطيها لمن لا يستحقون العيش. نعترف، يقول فوييه، بأن ثمة بعض التجاوزات وأن هناك حالات تأتي فيها النتائج بعكس المرجوّ، مثل انتهاز سكوت التشريعات لإنجاز مستشفى خاص بالأمراض المُعْديَة وسط مُجمّعات سكنية وهكذا يتم نشر المرض بين الأصحاء. لكن إساءة استعمال الرحمة، يعترض فوييه، ليست علة كافية لرفضها. إن العمّال الصالحين هم أوّل من يستحسن هذا العمل الفيلانثروبي، ويَرون في دُور العُجّز، المُشيّدة بطريقة علمية والمُتمَوْقعة في المكان المناسب، واحدة من أعظم أشكال احترام للشغل البشري ولكرامة الإنسان. ليس بالتخلّص من المرضى والمُقعدين، يُبنى مجتمع معافى، بل بتفعيل قيم العدالة والأخوة تجاه كل العُمّال حتى وإن أصبحوا مُقعَدين أو عاجزين عن العمل؛ إنّ ديانة الإنسانية هذه، بعيدا عن أن تَسْتحقّ لعنات نيتشه، تُمثّل عظمة الأزمنة الحديثة[511].

«هل يجب علينا أن نتأسّف من أننا الآن لا نرمي في الهاوية الأطفال المرضى أو المشوّهين؛ أنّنا لا نتخلّى على مرضى الجذام، ونحاول معالجة المجانين؟ إن غير القابلين للشفاء اليوم هم القابلون للشفاء غدا؛ بمعالجة أمراضهم لمنع العدوى، قد نكتشف الوسيلة لشفائهم وشفاء الآخرين. إن ذهنية المصلحة قاتلة للعلم، حتى وإن أدرِجَت هذه المصلحة تحت القوة. لو أن العلماء حسبوا المصلحة والقوة عوض البحث عن الحقيقة، لَمَا اكتشفوا شيئا: لقد كانت الاختراعات الأكثر فقدانا للجدوى ظاهريا، هي، في النهاية، الأخصب والأجدى. ما ينطبق على العلوم الصحيحة ينطبق أيضا على علوم الأخلاق والاجتماع: لا تطلبوا منها باستمرار: «ما الفائدة؟»[512]».

لقد عزّت هذه النقطة على فوييه، لأنه كان قد تصدّى لها من قبل، في كتاباته السابقة، وتنازع مع هربرت سبينسر وأعلام البراغماتية، وإذا به يجد في نيتشه نسخة مصغّرة منهم.

511- ن. م، ص، 324.

512- ن. م، ص، 324 325.

فهو مرغم الآن على إعادة التذكير بما كتبه في «علم الاجتماع المعاصر»، حيث لاحظ أن الفيلانثروبيا التي تحافظ على الضعفاء وتعالج المرضى، بعيدا عن أن تُضعف الحياة تُقوّيها، وقد أثبتت الإحصائيات انخفاض الوفيات عامة وتزايدا مطردا لعمر الأفراد.

وبالجملة كل اعتراضات نيتشه ضد الفيلانثروبيا لا تُصيب الهدف وغير قادرة على تشويهها أو التقليل من قيمتها الإنسانية العالية. الفيلانثروبيا في حد ذاتها، يقول فوييه، رغم كل ما قيل عنها، تبقى من بين الأشياء الأنفع للمجتمع ككل. والدليل العيني على ذلك أنها تنمو مع تطوّر المجتمع وتقدمه. إذا بقيت حية وتتقدم، فهذا دليل على أنها تملك صلوحيتها وضرورتها، مثل العدالة، التي مهما قال عنها نيتشه، هي واحدة من الشروط الحياتية لكل مجموعة بشرية.

إنّ من يتكلّم هنا هو فيلسوف ذو تكوين علمي متين، وله اطّلاع واسع على الأنساق الفلسفية الكبرى، ومعرفة عميقة باللغات الكلاسيكية، وتبَحّر في نصوص الفلسفة اليونانية. لا نعجب إذن، إن كان عقل حامل لمثل هذا الزاد المعرفي الكبير، تصدر عنه هذه الأفكار الإنسانية الراقية. يقول إن الإنسانية بحاجة إلى الاحترام المتبادل؛ وأكثر من ذلك من مصلحتها أن يحب الناس بعضهم، ويمدوا يد المساعدة لبعضهم، في حدود العدالة. ذلك أن العدالة دون المحبة والتضامن، تغدو مستحيلة. إن أنانيّا حصريا من الصعب أن يحترم أو يحبّ غيره.

لكن الجميل هو أن نيتشه مرة أخرى، يناقض نفسه بنفسه، ويحطّم بقلبه ما يفيض من دماغه، كما يقول فوييه. إذ أننا نجد، حتى في الفقرة الموجهة ضد الفلاسفة الفرنسيين المعاصرين (قطيع الأغنام)، من طرف صديق الذئاب والنّمور، مصادَقَة نوعا ما على ما قاله فوييه، ضد أفكار سبينسر الفردانية. نيتشه يرى، هو نفسه، ضرورة الإبقاء على الضعفاء، نظرا إلى أنه من الواجب أن يتم القيام بكمية هائلة من الأشغال، يوافق أيضا على المحافظة على معتقد يجعل الوجود محتملا للضعفاء ولأولئك الذين يتألّمون.

تعليق فوييه، هو أن نيتشه يقرّ بأنه يجب إقامة التضامن «كغريزة ضد غريزة الخوف والخنوع»، لكنه هنا يقرّ بكل ما هو صحيح في أطروحة خصومه الذين كان منذ حين يقذف عليهم بصواعق سخطه[513]. وبالمثل فقد خلُص إلى ردّ الاعتبار للاستقلال الذاتي في العلاقات الإنسانية، وإدماج المحبة والحفاوة فيها. إذن نيتشه، يقول فوييه، كان يملك ضميرا عاليا ومستقيما هذا إن لم يكن صاحب روح صادقة. إنه من خلال

513- ن. م، ص، 326.

الضمير اعتقد أن من واجبه الانتصاب ضد الأخلاق «المسمِّمة للطبيعة»، الجالبة للوهن للحيوان الإنساني؛ إنه بسبب حب الخير يثني هذا الرجل الممتاز (cet excellent homme)، على الإرادة الحرة. المفارقة هي أن لا أحد مثل نيتشه سَخَّر هذا القدر من حسن الإرادة، للإشادة بسوء الإرادة. لو كان صحيحا ما قاله باسكال إن أبشع الشرور هي تلك التي نقترفها عن وعي، يمكن القول إن «أبشع الأخطاء الفلسفية هي تلك التي نقترفها عن وعي فلسفي[514]».

فوييه يركّز على التناقض بين التنظير القاسي والحياة الوديعة، وهذه الخاصية تحدّث عنها العديد من قراء نيتشه ومؤوليه. إن مادح الطغيان، والتكبّر، والقسوة والوحشيّة، لم يعفه من أن يكون هو نفسه في كامل حياته رجلا لطيفا، متواضعا، منظّما ومعتدلا؛ هو الذي رغب في أن يكون تَيْمُورلنك أو بورجيا (Borgia)، كان مفعما بالاحترام والعطف على الآخرين؛ هو الذي كتب تأليها للشرّير، كان واحدا من الطيّبين الذين تهجّم عليهم: حَمْل وديع مثل أولئك الذي يسمّيهم حيوانات القطيع؛ خياله المريض كان مهموما فقط بحُلم أن يكون نَمِرا.

وبعد، فإن نيتشه نفسه تكفّل، بطريقة خارقة للعادة، بنقض تعاليمه الشرسة حينما قام بتصوير لوحة الطّيبة والخيرية، في صفحات تُذكّرنا بما كتبه غويو. فعلا، غويو قال: «الأطفال أنانيون: ليس لهم فائض حياة لسَكْبها على الخارج». إن الشيخ والمريض لديهما نفس النزعة الكابحة: «كل مرة نقص فيها منبع الحياة، تتولّد في الكائن حاجة للاقتصاد، للعناية بالنفس: يتردد في إفراز قطرة من عصارته الداخلية للخارج». على العكس من ذلك فإن الحياة الأكثر ثراء «تجد نفسها مدفوعة للسخاء، للتضحية بنفسها إلى حد ما، للتقاسم مع الآخرين ... وهو ما يسمّى الخُصوبة الأخلاقية[515]».

وماذا يقول نيتشه في **إرادة القوة**؟ بالضبط نفس الشيء، يُجيب فوييه. اقرؤوا هذه الصفحة «طراز. الخيريّة الحقة، النبالة، شموخ النفس المتدفّقة من الوفرة، التي لا تعطي أبدا لكي تأخذ، التي لا تريد الترفّع بالخير الذي تفعله؛ السخاء كصنف الطّيبة الحقة؛ ثراء الشخصية كشرط أوّلي».

514- ن. م، ن. ص.

515- M. Guyau, Esquisse d'une morale sans obligation ni sanction, p. 96, 102, 246.

بعد أن كتب هذه الكلمات النبيلة، يتساءل فوييه، لماذا يَسْخَر من الطيّبين والطيبة ومحبّة البشر؟ لماذا يرى فيها عجزا، وإفقارا، وتشويها لطبيعتنا. لماذا يقول إنّ في العظمة الحقة ثمة دائما إجرام ما؟ أين يوجد الشر والإجرام في الطراز الذي وصفه نيتشه أعلاه؟ نحن لا نرى أن هذه اللوحة التي رسمها نيتشه للطيبة تُصوّر أصناف بورجيا ومالاتيستا (Borgia et Malatesta). تفسيرها الوحيد حسب فوييه هو أن «القلب السخيّ لنيتشه حطّم كل المفارقات التي كدّسها دماغه[516]».

(مآماً)

وقد تعدّت العــدوى النيتشوية إلى إيطــاليا وتغلغلت حتى في صفوف الاشتــراكيين. وأغرب مثال على ذلك هو زعــيم الفاشية بنيتو موسلّيني (B. Mussolini 1883-1945)، الذي بدأ حياته الفكرية والسياسية كاشتراكي ماركسي، وقضىّ شبابه في النضال ضد الرأسمالية والدفاع عن الطبقة الشغيلة.]

في سنة 1908، وبمناسبة مرور 25 سنة على موت كارل ماركس (1818 – 1883)، كتب موسلنيني مقالا نشره في جريدة "صراع الطبقات" وهي الجهاز الإعلامي المركزي للحزب الاشتراكي للعمال الإيطاليين، يقول فيه: «قبل كل شيء نحن مَدينون لكارل ماركس بالمرور من الاشتراكية الفيلانثروبية المسيحية، إلى الاشتراكية العلمية. في النصف الأول من القرن الماضي [يقصد القرن التاسع عشر]، استثار مشهد البؤس والمعاناة الذي يعيشه العمّال تعاطف الكثير من الفيلانثروبيين. وقد وُلد من هذا الدافع الإنسانوي نوع من الاشتراكية المسيحية، كان من بين المُنظّرين لها في إنجلترا كينغسلي، وفي فرنسا لامّيني. مَزيج غريب من السذاجة الصبيانية والبناءات الاجتماعية على أساس فضائل بُشّر بها ومُورست في الواقع، هذه الاشتراكية لا تتوجّه إلى المُضطَهَدين بقدر ما تتوجه إلى المهيمنين لإقناعهم بالتخلّي عن ثرواتهم للصّالح العام، ويُعتَقد بإمكانية بلوغ هذا الهدف عن طريق التبشير العنيد بالتعاليم الإنجيلية. وقد برز رجال وصحُف ومجموعات لتحقيق هذا الهدف. ازدهرت أدبيّات مسيحية اشتراكية يُهيمن فيها تفاؤل

516- A. Fouillée, Le moralisme, *Ibid*, p. 327. « ... le cœur généreux de Nietzsche a détruit tous les paradoxes amoncelés par son cerveau ».

مُشطّ بالطبيعة الإنسانية. أجرِيَتْ تجارب شيوعية في تيكساس؛ كابيه (Cabet) ابتكر شيوعية طوباوية، أوين (Owen) اختزل إلى ثالوث أسباب الشرّ (ملكية خاصة، دين وضعي، لاإنفصام الزواج)، فايتلينج (Weitling) اعتقدَ أن محرّرا للبشرية سيكون مسيحا جديدا يجيء لإعلان البشارة الجديدة؛ فورييه (Fourier) كان ينتظر بإخلاص ساذج، كل يوم، من منتصف النهار إلى الساعة الواحدة، أن يجلب له الرأسمالي الصالح ما يكفيه من المال لبناء أول ساكنة اشتراكية[517]».

انتقادات موسليني على هذا التوجه الاشتراكي هي أنّ أصحابه يستهينون كثيرا بقوّة أعدائهم «إنه من الصبيانية الاعتقاد بأن الأغنياء يمكنهم أن يتعرّوا عن أملاكهم مُستسْلمين إلى مجرّد تبشيرٍ بالفضيلة ممّا لا تتوفّر في التاريخ أمثلة من قبيله. إن طبقة ما لا تتخلّى عن امتيازاتها إلاّ إذا أُجبرت على ذلك». وهذا في العمق ما فعله كارل ماركس، حين صفّى الحسابات مع الاشتراكية الطوباوية للمدارس الفرنسية والانجليزية، وتوجّه لا إلى «المُسيْطِرين بل إلى المسيطَر عليهم، وإلى هؤلاء كطبقة لها مهمة تاريخية محددة. فالاشتراكية النَقدية تصبو فعلا إلى إعطاء البروليتاريا الوعي بهذه المُهمّة. المسألة الاجتماعية تُحلّ فقط بإزالة العلاقة رأسمالية بروليتاريا وليس بمُسكّنات الفيلانثروبيّين. الطبقة الشغيلة لا تبحث في مكان آخر عن الوسائل لخلاصها. لا تترقّب المسيح المُنتظر. تُكافح بقواها الذاتية. إن هذا النداء الذي يتضمّن التصوّر الاشتراكي المُدَشَّن من طرف ماركس في **البيان الشيوعي** هو في علاقة وثيقة مع الحتمية الاقتصادية أو المادية التاريخية، نقطة أخرى محورية للنظريات الماركسية[518]».

موسليني يدافع عن مادية ماركس ويرد على أولئك الذين عابوا على الاشتراكيين أنهم اختزلوا المسألة في البَطن. يسخر ممّن أسماهم دونكيشوتات المثالية (I Don Chisciotte dell'idealismo) الذين لم يغفروا لكارل ماركس وضعه، في المصلحة المادية، القاعدة الأساسية للممارسة البشرية، واعتبار كل البنى الفوقية الأيديولوجية في المجتمع (فنّ، دين، أخلاق) كانعكاس للشروط الاقتصادية وبشكل أدقّ لنمط الإنتاج الاقتصادي.

517- B. Mussolini, "Karl Marx (nel 25 anniversario della morte)", in "La Lima" n. 10, 14 marzo 1908, in Scritti politici di Mussolini, a cura di Enzo Santarelli, Feltrinelli, Milano 1979, p. 95.

518- *Ibid*em.

إن الخواء المتحذلق للإيديولوجيا سمّت كارل ماركس "مادّيا خسيسا (ignobile materialista)"، جواب موسليني: «فَلْيَكُن (E sia). لكن الأيديولوجيا الرسمية ذاتها لم تصل بعد إلى دحض الحقيقة العينية البسيطة وهي أن الإنسان جوهريا هو حيوان أنانيّ وقبل أن يصنع تماثيل، أن يُبدع لوحات فنية، يكتب كُتبا، يؤلّف مصنفات في الأخلاق، عليه أن يُلبّي احتياجاته الأساسية: يأكل، يشرب، ويقتني مأوى، يتصارع مع أمثاله للحصول على الخبز[519]».

إن هذا الصراع، يواصل موسليني الاشتراكي، هو الذي قَوْلَب وعي البَشَر من خلال تصوراتهم السياسية، الفنية، الدينية، الأخلاقية. افحصوا في كل الحركات الفكرية الإنسانية فستجدون أنها كانت محددة بأسباب اقتصادية ودُنيويّة «المسيحية نفسها لا تُشكل استثناء. وكذلك الاشتراكية كحركة أفكار وكتمرّد ثوري لا يُمكن أن تبرز إلاّ في كنف نمط الإنتاج الرأسمالي[520]».

ثمة أمل كبير، إذن، في قلب الوضع لصالح الضعفاء المستَغَلّين، لأن الشروط الاقتصادية الجديدة ستدفع البروليتاريا إلى «ترجمة الغايات النظرية للاشتراكية إلى فعل». وبأيّة وسيلة؟ موسليني ليس له شك، وهنا فهو يسير على خطى جل الأدبيات الماركسيّة: «عن طريق **الصراع الطبقي** (colla **lotta di classe**). إن مصالح البروليتاريا مناقضة للبرجوازية. بين هاتين الطبقتين لا يمكن التوصّل إلى أي اتّفاق. واحدة منهما يجب أن تزول. الأضعف ستُزال. الصراع الطبقي هو إذن مسألة قوّة. والعمّال يجب أن يُخزّنوا هذه القوّة التي ستحقق لهم النصر النهائي ولكي يخزّنوها يجب عليهم أن يَتّحِدوا[521]».

هذا الماركسي المتشدد لا يرغب إلاّ في تحرير الطبقة الشغيلة، تلك الطبقة التي عاداها نيتشه حتى الموت، وطالب بإبادتها. لكن الثائر الشيوعي موسليني يقول إن المعركة الأخيرة ضد المُستغلّين ستكون "كارثيّة (catastrofica)"، نظرا إلى أن الرأسماليين لن يتخلّوا طوعاً عن سلطتهم الاقتصادية والسياسية. «وفي هذه الحالة فإن فترة من العنف سترافق المرور من نمط الإنتاج البورجوازي إلى نمط الإنتاج على أسس شيوعية[522]». ويختم موسليني قائلا بأنه لا يدّعي استيفاء تعاليم ماركس في هذا المقال

519- *Ibid*., p. 95-96.

520- *Ibid*., p. 96.

521- *Ibid*em.

522- *Ibid*em.

المقتضب: «يكفيني أني رسمت خطوطها العريضة خصوصا في تلك الأجزاء التي لا تزال إلى اليوم صامدة، بشكل رائع، أمام انتقادات الخصوم والرفاق».

وعند هذا الحد لا يَخْفَى أيضا الجانب الرومانسي لهذا الاحتفال بالمُنَظِّر الكبير: «لقد مرّت خمس وعشرون سنة على موت ماركس، مُوهر (Mohr) كما يسمّيه اللاّجئون الألمان ينام نوما لا يقظة بعده في مقبرة من الضواحي اللّندنية. كل سنة بمناسبة 14 من مارس، يتمّ إلقاء باقة كبيرة من القرنفل الأحمر على قبره. والبروليتاري في البلدان كلها يتطلّع بإجلال إلى ذكرى الرجل الذي، من أجل قضيّة المُضطَهَدين، ضحّى بكل طاقاته؛ وبأنْقى شُعلة مثال للعدالة والأخوة والسلام، أضاء الصعود البطيء نحو أشكال جديدة وأكثر صفاءً من الحياة[523]».

لكن النيتشوية هي الضد الطبيعي لهذه التعاليم، وأكثر ما يسوء نيتشه هو السعي إلى تحرير البروليتاريا من نير الاستغلال، وإزالة العبودية من المجتمعات. «كارل ماركس هو أعظم مُنَظِّر للاشتراكية»، هكذا يكتب موسليني في مقال مرافق: «الماركسية هي التصوّر العلمي (la dottrina scientifica) لثورة الطبقات؛ هي نقد الاقتصاد الذي أصبح واع بقوّته الذاتية من طرف العمال، إنها الإعلان الأول للعلم ولإرادة البروليتاريا التي بدَأت في اكتساح عالم الاقتصاد وتتحرّر من ضغط الحاجة إلى العمل تحت أوامر ولصالح رفاهية الرجال الآخرين[524]».

(نآنآ)

وبينما كان في معمعة الحراك الاشتراكي ومندمج في النّقابات العمّالية اكتشف نيتشه فأخذ خطابه يتغيّر وبانت عليه معالم العنف والشراسة، لكنه فهم النص النيتشوي أفضل من فهم العديد من الفلاسفة المحدثين. وقد نشر سنة 1908 مقالات ثلاث عن فلسفة القوة عند فريدريك نيتشه في أسبوعية تابعة للحزب الجمهوري الإيطالي، شكّلت تقريبا نهاية مسيرته الاشتراكية.]

523- *Ibid*em.

524- B. Mussolini, “Socialismo e socialisti”, in “La Lima”, n. 21, 30 maggio 1908, XVI, in Scritti politici di Mussolini, a cura di Enzo Santarelli, Feltrinelli, Milano 1979, p. 97.

قال إن إرادة القوة هي النقطة المحورية في الفلسفة النيتشوية، ولكن من الخطأ الزعم بأن هذا المفهوم الوحيد يختزل فلسفة نيتشه كلها[525]. لم يترك لنا نيتشه منظومة مغلقة، ولا يمكن أن نَصف فلسفته بأنها نسقية، لأن شاعر زرادشت تفادى السقوط في فخّها. ذلك أن أكثر ما هو منحط، عقيم، سلبي في كل فلسفة هو بالضبط «النسق»، هو هذا البناء المثالي الذي غالبا ما يكون اعتباطيا ولامنطقيا. نيتشه لم يعط أبدا صورة شكلانيّة لتأملاته لقد كان فرنسيا للغاية، جنوبيا ومتوسّطيا كثيرا، لكي «يُرغم» التصوّرات المجددة لفكره في قوالب سكولاستيكية ثقيلة ... لكن، سواء كان مبدع أنساق فلسفية أو لا، يبقى نيتشه دائما العقل العبقري الأكبر في كل الربع الأخير من القرن الماضي، وتأثير نظرياته كان عميقا جدا. لبعض الوقت اتّبع فنانوا كل البلدان، من إبسن إلى دانونسيو، خطى نيتشه. الفردانيون بعد أن شبعوا من صلابة إنجيل ماكس شتيرنر توجهوا إلى زرادشت، وفي فلسفة هذا الإشراقي، وجدوا بذرة وعلّة كل ثورة وكل سلوك أخلاقي وسياسي. نيتشه هو المفكر الأكثر إثارة للجدل في يومنا هذا.

بعد هذه الجولة السريعة، نزل موسليني إلى التفاصيل، دون أن ينسى التعريج على موقف الأساتذة والأكاديميين المناهضين لنيتشه، حيث كال لهم أبشع النعوت لأنهم يحذرون الشباب من خطورة تبنّي أفكاره التي لا تؤدي بهم إلاّ إلى طريق مسدود، أو إلى السقوط في الجنون كما سقط هو.

ولم يكن موسلّيني جاهلا بالأدبيات ولا بأمهات الكتب التي ألفت في ألمانيا حول نيتشه والنيتشوية. يقول: بالنسبة لشتيرنر، ونيتشه، وكل من أسماهم تورك (Türck) في كتابه "الإنسان العبقري (Der geniale Mensch)"، بـ" الأنانيين نقيضي الفلاسفة"، الدولة هي الاضطهاد المُنظّم على حساب الفرد. لكن كيف نشأت الدولة؟ ربما على إثر عقد اجتماعي كما يزعم روسو وأتباعه الواهمون (illusi seguaci)؟ كلاّ. نيتشه في جينيالوجيا الأخلاق يصف لنا نشأة الدولة: «قطيع من السباع الشقر، إنها عرق الفاتحين والسادة الذين يَنقضّون، دون تردّد، وهم مُسلّحون بنظامهم الحربي وبقوّة التنظيم على أناس ربما يفوقونهم عددا ولكنهم غير مُنظّمين وليست لهم مَعالم مُحددة

525- B. Mussolini, “La filosofia della forza (postille alla conferenza dell’on. Treves)”, in Il Pensiero Romagnolo, nn. 48, 49, 50; 29 novembre, 6 e 13 dicembre 1908, XV, in Scritti politici di Mussolini, p. 99.

لِيَفتَرسوهم كالسباع ... لا يعرف هؤلاء المُنَظِّمُون بالفطرة ما معنى الخطأ أو المسؤولية أو الَاحترام، تسود لديهم الأنانية المرعبة التي نجدها لدى فنّان يمتلك نظرة فولاذية ويعرف أنّ عَمَله يُبرّر له ذلك مُسبقا وإلى الأبد مثلما يُبرّر الولد الأم[526]».

لكن ثمة مبدأ تضامن يحكم علاقات هؤلاء الشقر، هذه الحيوانات المفترسة. فالغزاة أنفسهم يخضعون إلى إلزامات المجموعة للمحافظة على المصلحة العليا للفئة وهذه يمكن القول إنها أوّل محدودية للإرادة الفردية. ليس فقط المحاربون يلزمون أنفسهم بانضباط صارم يمظهر تضامنا مسبقا في المصلحة، ولكنهم مرغمون على حفظ وحماية العبيد الذين ينتجون وسائل العيش. لا يكفي ابداع ألواح قيم أخلاقية جديدة، يجب أيضا بكل تواضع انتاج الخبز. الوحيد لا يمكن أن يكون وحيدا بالمعنى الذي أراده شتيرنر، لأن قانون التضامن الحتمي يطويه، يتغلّب عليه ويطحنه. إن غريزة الاجتماع، حسب داروين، محايثة لطبيعة الإنسان ذاتها، ولا يمكن تصوّر فرد يمكنه أن يعيش منغمسا في سلسلة الموجودات اللامتناهية[527].

لقد أحسّ نيتشه بما يمكن أن يُسَمّى حتمية قانون التضامن الكوني، وللخروج من التناقض، فإن الإنسان الأعلى النيتشوي البطل النيتشوي، المحارب الحكيم المتصلّب ملزم بالحفاظ على حياته الداخلية، يفجّر إرادة قوّته على الخارج، والعظمة التراجيدية لأعماله توفّر للشعراء مادة جديرة بالإنشاد.

لكن مع الحرب والغزو الخارجي، تتوسّع دائرة التضامن الإيجابي بين المهيمِنين، ودائرة السلبي تجاه المُهيمَن عليهم. ومجددا يجد نيتشه نفسه بين قرني مفارقة: إما أن يكون الإنسان الأعلى وحيدا ولا يخضع لقوانين أو أنه يعترف بحدود لإرادته الشخصية وبالتالي يندمج في القطيع. أمام هذه المفارقة نيتشه تخيّل أن المجتمع يخرّب ويدجّن وثبة هذا الإنسان. يخلق الشواش، ويحاول إسقاط نظام الدولة والطبقة الأرستقراطية في الهاوية. وهذا المآل سببه أن الإنسان حينما لا يتمكّن من الدوس، من التضحية، وإبادة أشباهه فهو يسدّد السلاح ضد نفسه ويجد في إقصائه الإرادي لنفسه من مسرح العالم مثاله الأعلى، أو أنه يصبح سطحيا، يعني محبّا للبشر، إنسانويا، ناكرا لذاته. هنا، وفقط هنا تُقلب ألواح القِيم وتولد المُثُل الزهدية لديانات البوذية والمسيحية.

526- جينيالوجيا الأخلاق، 17 § .II، ص، 74.

527- موسليني، «فلسفة القوة»، م. س، ص، 101.

أخلاق العبيد تنتهي بتسميم سعادة الطبقة العليا القديمة، والضعفاء ينتصرون على الأقوياء واليهود الشاحبون (i pallidi giudei) يسحقون روما[528]. كل ما كان خيّرا سيصبح شرا. الضعفاء، المهزومون، المرضى، المعاقون، المشوهون جسديا ونفسانيا يُعبّرون بكل صلافة عن علوّ ضعفهم، بؤسهم، وحقارتهم! فرحون بحقارتهم الأرضية، يعمَد العبيد الآن، بعد قرون من الخنوع، إلى الانتقام. والأقوياء ينهارون. لكن لماذا؟ وكيف أصبح ممكنا هذا الانهيار؟ كيف حدث أن رجال نيتشه الأقوياء أولئك الرجال الذين يعرفون كيف يعيشون ما وراء الخير والشر ينهزمون أمام كَمشة من العبيد؟ كيف يستطيع العبيد اختراع قيم اخلاقية يُقوّضون بها سلطة الأسياد؟ أليس الأسياد فوق كلّ أخلاق؟

عن هذه الأسئلة يستعيد موسليني بأمانة ما كتبه نيتشه ويلخّصه بكل براعة ووضوح: إن اختراع القيم الأخلاقية كان العمل الأكبر للشعب اليهودي. موسليني يسمّيهم الفلسطينيّين، ويقول إن الفلسطينيين انتصروا (I palestinesi hanno vinto)، على أعداءهم الدائمين بقَلبِ ألواح القيم. وقد كان هذا الفعل من جانبهم انتقاما روحيا مطابقا للمزاج الكهنوتي للشعب اليهودي[529]. لكن روح الانتقام لم تقف عند اليهود بل امتدّت إلى المسيحية وقد قام بنشرها مؤسس المسيحية ذاته: يسوع الناصري. «في الفكر النيتشوي يسوع الناصري نفسه كان الوسيلة، ربما دون وعي منه، للانتقام الروحي لعِرْقه (la vendetta spirituale della sua razza) وما استَتْبعها من قلب للقيم الأخلاقية. في مكان آخر نيتشه يحدثنا عن يسوع المتعطّش للمحبّة ـ محبة البشَر ـ عن يسوع يخضع لعار الصلب لكي يعطي برهانا خالدا لحبّه للجنس البشري ... لكن في هذا المخلّص يتشخّص ـ حسب نيتشه ـ الانتقام الروحي للعبيد[530]».

وللبرهنة على ذلك يستشهد موسليني بنص لنيتشه من جينيالوجيا الأخلاق، يقول فيه صاحب زرادشت: «ويسوع الناصري، الذي يتجسّد فيه إنجيل المحبة، هذا المخلص الذي جلبَ الغبطة والنصر للفقراء والمرضى والمذنبين، الإغراء في أشدّ أشكاله كآبة واستعصاء على المقاومة، الإغراء الذي كان سيؤدي إلى هذه القيم اليهودية، إلى هذا التجديد للمثال؟ ألم يبلغ شعب إسرائيل بسلوكه طريق هذا المخلّص الملتوية،

528- ن. م، ص، 102.
529 – ن. م، ص، 103.
530 – ن. م، ن. ص.

هذا العدوّ الذي يبدو أنه يريد تشتيت شمل إسرائيل، آخر أهداف حقده السامي؟ ألم يستعمل شعب إسرائيل سحرا أسود خفيّا، سحر سياسة الانتقام العظيمة، انتقام متبصّر وخفيّ وتدريجي وحذر في حساباته، ليتكّر لمن كان أداة انتقامية ووضْعه على الصليب أمام أنظار العالم، وكأن هذه الأداة هي عدوّه اللدود وذلك حتى تقلّ شكوك "العالم بأسره"، أي كل أعداء إسرائيل، فيبتلعوا هذا الطُّعم؟[531]».

ومِن الطُّعم المسيحي، تَغذّى الكثيرون، والدليل على ذلك تاريخ ألفي سنة من الحضارة الغربية. ومرة أخرى يستشهد موسليني بنص **جينيالوجيا الأخلاق** لنيتشه: «لقد انتصر الشعب، أو العبيد، أو الدهماء، أو القطيع، سموه كما يحلو لكم إن كان اليهود هم مَن نَدين لهم بذلك، حسنا! فليس هناك شعب كانت له مهمّة تاريخيّة أهم من هذه. لقد أُلغِيَ السادة وانتصرت أخلاق الإنسان العادي. ها هو خلاص الإنسان (أعني التحرير من نير السادة) يمضي في طريقه على أحسن ما يرام، كلّ شيء يتهوّد، أو يتنصّر، أو يصير سوقيّا في لمح البصر، ويبدو أن جسم البشرية لا يقاوم تقدّم هذا التسمّم فيه[532]».

وقد انساق موسليني، بكل ابتهاج، مع معاداة نيتشه لليهود، ووجد أسبابا تاريخية تجعله يمعن في كرههم، لأنه اعتقد في كلام نيتشه وتحليلاته وكأنها حاملة لمصداقية تاريخية ما، وهذه الأسباب هي سقوط روما على أيدي ورثة اليهود الجدد، أي المسيحيين. لكن لا تظنّوا أنه يأسف لسقوط العقلانية أمام اللاعقل، أو لهجمة الخرافة والجهل على الثقافة، بل حسب الثنائي، نيتشه موسليني «انقرض مجتمع من الأسياد (scompare una società di dominatori) القوة الوحيدة. كانت روما ترى في اليهودي شيئا مضادا للطبيعة، مسخا يقف نقيضا لها». مَن الذي حقق النصر في النهاية؟ أهي روما أم يهوذا؟ السؤال طرحه نيتشه، وأعاد طرحه موسليني، وحتى هنا فإن الإجابة وجدها موسلّيني عند نيتشه في **جينيالوجيا الأخلاق** وبالتحديد في الفقرة 16 من المبحث الثاني: حسبك أن تتفكر في الذي ننحني أمامه اليوم، في روما نفسها، كما ننحني أمام جوهر كل القيم ليس في روما وحدها، بل في نصف الكرة الأرضية وفي

531 – جينيالوجيا الأخلاق، 8 §، I.

532- **جينيالوجيا الأخلاق**، 9 §، I.

كل مكان صار فيه الإنسان مدجّنا أو أمْيل إلى التدجين ننحني أمام ثلاثة يهود ويهوديّة: يسوع الناصري، صياد سمك، بطرس، الحائك بولس، ومريم أم المسيح[533].

لكي يفسّر هذا العداء الدفين للمسيحية فإن موسليني لم يجد أمامه إلاّ ألمانيا، فسعد بهذا الأمر وقال إن نبي زرادشت تملّص من ألمانيّته وتخيّل شجرة نسب تلحقه بأجداده من النبلاء البولونيّين، آل (Nietzschy)، الذين ينحدر منهم. ربما يكون عداؤه للمسيحية هو آخر مآل رد الفعل العنيف ضد ألمانيا الفيودالية، المتحذلقة، المسيحية. في وجه هذا الشعب الذي يشرب بنفس النهم البيرا والإنجيل، في وجه لاهوتيّي الشمال، نيتشه يعلن افلاس الألوهية ويطلق نشيدا لكل من سيصبح إنسانا ويقتل الله[534].

لكن ثمة سببا أعمق حرّك في نيتشه هذه الهجمة ضد المسيحية، وهذا السبب هو الذي يهمّ موسليني. فعلا، مع المسيحية انتصرت أخلاق الزهد والتخلّي، على أنقاض أخلاق الأقوى القاعدة الصخريّة للحضارة الرومانية حلّت محبة القريب والشفقة. من اليوم الذي رأى فيه الامبراطور ماسينسيوس (Massenzio) فيالق جنوده منثورة على ضفاف نهر التّيبر وقسطنطين منتصرا؛ من اليوم الذي رفع فيه الصليب على رايات الحرب تركت الآلهة القديمة معابدها، نَفْخَة موت أطفأت سرور الأوليمب الوثني، والناصري (il Nazzareno) صاحب الفروة الحمراء اعتلى معبد الكمبيدوليوس. ولعشرين قرنا فإن الجنون المسيحي في احتدام. انتهى الضحك، انتهت بهجة الحياة، سرور الموت، **الصراع، الغزو** (la lotta, la conquista) وحلّت محلّها فكرة الخطيئة والمذنبين الواهنين، ذوي الأنفس المرعوبة؛ أجسام مهشمة بالصوم، والتوبة، واللّطم أناس لا يطلبون من الحياة إلاّ الاستعداد لليوم الآخر المخيف المفزع.

لكن موسليني، على نهج نيتشه، يَقلب الحقائق ويُزوّر معايير التاريخ، حيث يُرجع انحطاط الحضارة إلى محبة البشر. يقول إن محبّة القريب أعطت عشرين قرنا من الحروب، إرهاب محاكم التفتيش، لهيب الحرائق وعلى الخصوص لا يجب أن تنسوه الأوروبي الحديث، كائن مشوّه يفتخر بسطحيّته، وبالروح التي لا تقدر على قوّة الإرادة، غير رجعي بما فيه الكفاية لكي يدافع عن الماضي الفيودالي، غير مُتمرّد بالكافي لكي يصل إلى العواقب القصوى للثورة، قزم في كل تصرفاته، خانع لأسباب التحضر وسياسة الاعتدال.

533- ن. م، ص، 43.

534- موسليني، «فلسفة القوة»، م. س، ص، 104.

الأوروبي الحديث المنحط، المشتت، الغامض، هذا هو نتيجة عشرين قرنا من المسيحية. إن نظريات المساواة تُسمّر المتفلسفة المحدثين المروّجين لفكرة السعادة الإنسانية، في حقل الأيديولوجيا العتيقة للناصريّين (vecchia ideologia dei nazzareni)[535]. والشاهد على ذلك هو زرادشت نيتشه، وموسليني المطّلع على نصوصه يستشهد به عن ظهر قلب: «أين وُجدت في العالم كلّه حماقات أكبر ممّا وُجد لدى المُشفقين؟ وأيّ أمر أحدث أكثر الآلام في العالم من حماقات المُشفقين؟ ويلٌ لكلّ المُحبّين الذين ليس لهم من سُموّ يعلو على منزلة شفقتهم! هكذا خاطبني الشيطان ذات مرّة: "للربّ أيضا جحيمه: إنها محبّته للبشر". ومؤخّرا سمعته يقول هذا الكلام: "إن الله قد مات؛ من جرّاء محبّته للبشر مات الله"[536]».

إنّ التحرّر من المسيحية، يواصل موسليني، يعني التحرر من الشفقة من مفهوم وادي الدموع (*lacrimarum valle*)، والعودة إلى بهجة الحياة. وبهجة الحياة الكامنة في الشرّ والتعذيب وفظاعة الحرب هي الفضائل التي يدعو إليها نيتشه، وموسليني موافق، ويستشهد بنصوص نيتشه وكأنه حفظها عن ظهر قلب: «يا إخواني لقد تمّتعتم قليلا: هذه هي خطيئتكم الأصلية. لكن فجر الخلاص ليس ببعيد: سينبلج عندما يجد الإنسان نفسه في طريقه بين الدابة والإنسان الأعلى ويفرح بغروبه كأرقى أمانيه؛ لأن غروبه سيكون إعلان فجر جديد. الزائل وقتها يبارك نفسه، مسرورا بعبوره، وشمس معرفته تلمع بأشعة مسائية: ماتت الآلهة؛ الآن نريد أن يحيا الإنسان الأعلى».

"الإنسان الأعلى"، هذا هو أعظم إبداعات نيتشه، يكتب موسليني. ونيتشه يبشّر بالعودة القريبة لهذا المثال. وماهي خاصياته؟ لا شك في أن هذا المثال لا يمكن أن يتحقق إلاّ في جيل من أنفس حرّة، «**اكتسبت القوة في الحرب، في العزلة، في المخاطر الكبرى، أرواح ستعرف الرياح، والجليد، وثلوج الجبال العالية، وستتمكّن من قياس، بعين هادئة، عمق الهاوية أرواح تملك نوعا من العناد السامي أرواح تحررنا من حبّ القريب، من إرادة العدم وإعادة مَنْح الأرض هدفها وللإنسانية أمانيها أرواح جديدة، حرّة، حرة جدا تنتصر على الله والعدم!**[537]».

535- ن. م، ص، 105.

536-نيتشه، **هكذا تكلّم زرادشت**، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت 2007. «عن أهل الشفقة»، ص، 174.

537- موسليني، «فلسفة القوة»، م. س، ص، 106.

لكننا الآن نُعدم هؤلاء المُحرّرين، لا أثر لهم في مجتمعاتنا الحديثة. وهنا على خطى نيتشه، فإن زعيم الفاشية، يتهكم على العلماء والملحدين والمفكرين الأحرار، نازعا عنهم أي مشروعية. يقول إنه حتى أولئك الذين يعتقدون أنهم أحرار من كل مثال زهدي، مثل الملحدين، المعادين للمسيحية، اللاأخلاقيين، العدميين، هم بالنسبة لنيتشه، "آخر مثاليّي" المعرفة. هم ليسوا مفكرين أحرار لأنهم يؤمنون بالحقيقة والحقيقة تقرّبهم من الله.

اسألوا يقول نيتشه ماذا تفيد "الحقيقة" لزيادة تقوية الحياة، قبل أن تصرّحوا بأن الحقيقة هي شيء إلهي والكذب هو فن شيطاني. الوصفة التي راقت لموسليني من تلك التي اقترحها نيتشه ضد أي تطلّع علمي هي هذه: «لا شيء صحيح، كل شيء جائز (*Nulla è vero, tutto è permesso*). هذه ستكون شعار الجيل الجديد. تأليه الأنانية ها هو العمل الذي ستُكرّس له "الأرواح الحرة جدا" لفريدريك نيتشه كل طاقاتها. وتحت مطرقتهم الغاضبة من المحتمل أن يخرج منهم روح تتشكّل طبقا لقوانين هذه التعاليم الجديدة[538]».

الإنسان الأعلى سيكون، سيأتي. يبشّر موسليني. وقد قدّم نيتشه صفاته وملامحه في هكذا تكلم زرادشت.

إن الإنسان الأعلى النيتشوي هو واحد من تمظهرات معاداة المسيحية الشائع والذي يشكل أرضية فلسفة القوّة. كيف لا والمسيحية تقول: مُباركون هم الفقراء، الطيبون، العادلون، المتألمون. نيتشه (وموسليني من ورائه) يصرخ: مَلعونُون هم الطيّبون، مَلعونون هم العادلون! المسيحية قالت: تنسّكوا! نيتشه: تمتّعوا! الأخلاق المسيحية تعلّم التزهّد؛ الإنسان الأعلى النيتشوي يريد بدلا من ذلك الإغارة[539].

كلام يسوع يولّد تعاسة في الأنفس؛ يعذبها ويلوّث هواءها؛ نيتشه على العكس من ذلك يريد أن يعلّم الناس المرح، فنّ الضحك، فنّ الرقص بقدمين خفيفتين على صوت الكمان، ويريد أن يكون ضحك البشر ديونوزيا ويجعلهم يشاركون في طبيعة الآلهة. أعظم فضائل المسيحي هي الاستكانة؛ الإنسان الأعلى لا يعرف إلاّ التمرّد. كل ما يوجد يجب أن يُلغى! في المسيحية الإنسان الأعلى مستحيل. كيف يمكن أن يتجاوز

538- ن. م، ص، 106.

539- ن. م، ص، 107.

المسيحي نفسه دون أن يطيح بإلهه؟ ذلك لأن، كما يعبّر عنه نيتشه شعريا، الإنسان هو شيء يجب تجاوزه ... الإنسان هو جسر لا غاية ... يجب أن يسمي نفسه محظوظا من أجل غروبه حيث طريق الفجر الجديد مفتوح أمامه ... أن تخلّص الماضي في الإنسان يعني خلق من جديد كل ما كان، إلى حد أن تقدر الإرادة أن تقول: "هكذا أنا أريد! هكذا أنا سأريد" (هكذا تكلم زرادشت)[540].

إن إرادة القوّة التي يتم التعبير عنها في خلق قيم أخلاقية جديد أو فنّية أو اجتماعية تُعطي هدفا للحياة. وهنا فإن نيتشه يتآخى روحيا مع غويو (fraternizza spiritualmente con Guyau)، مؤلف كتاب "لادينيّة المستقبل (L'irreligion de l'avenir)» الذي ترك هذه القيمة العميقة: «الحياة لا يمكن أن تحافظ على نفسها إلاّ بالتمدّد. أن تحيا لا يعني أن تحسب أن تفعل». نيتشه من جهته: الخَلْق! ها هو المخلّص الأكبر من الآلام، ومُعزّي الحياة.

لكن موسليني تعز عليه معاداة المسيحية، ويعود باستمرار إلى اطروحات نيتشه بشراهة: «المسيحية تصرخ: كونوا خيّرين! أحبّوا بعضكم كإخْوة! احمُوا الضعفاء، أَقيموا المتعثرين، واسُوا المتألمين! نيتشه يُعلّم: إلى من هو في طور السقوط اعطوه لكمة؛ من لا تستطيعون تعليمه الطيران ادفعوه كي يسقط بسرعة؛ أيّها الناس، كونوا أشدّاء![541]».

لكن الإنسان الأعلى هذا الكائن الذي سيتجاوز الإنسان كما تجاوز الإنسان القرد- يجب عليه أن يحارب عدوّين: الدهماء والله. ضد هذا الأخير الصراع لن يكون خطيرا وشائكا. ألم يمت الله؟ وإن لم يمت فمآله دون شكّ هو الوهن والعجز. «في الصفحة 171 من هكذا تكلم زرادشت نيتشه يروي لنا بكل سرور موت الآلهة: «لم تنتظر ساعة غروبها لتموت أفولا كذبٌ هذا الكلام حقا! بل إنها، بنفسها قتلت نفسها- ضحكا. لقد حدث ذلك عندما نطق بالكلمة الأكثر كفرا إله من بينها كلمة: «لا إله إلاّ الواحد أنا! ولا يحق لك أن تتخذ إلها من دوني!» إله عجوز حانق، إله غيور قد ترك نفسه ينساق إلى مثل هذا الكلام. وكان أن انخرط الآلهة آنذاك في الضحك متمايلين فوق كراسيهم

540- ن. م، ص، 108.

541- ن. م، ص، 108.

وهم يصيحون: «أليس من باب الألوهية أن تكون هناك آلهة، وما من ربّ؟» ومن له آذان للسمع فليسمع[542]»».

أما العامة، الدهماء، فهي تتصدّى بقوّة لبروز الإنسان الأعلى. الدهماء المُطْبَقَة بين كمّاشتي التّمْسيح والإنسانوية «لن تفهم أبدا أن قدرا أكبر من الشرّ ضروري لكي يزدهر الإنسان الأعلى[543]». وزرادشت نيتشه هو المرجع في احتقار العامة: «العامة بنظرتها الطويلة للفضائل الصغيرة، لا تعرف ما هو عظيم ومستقيم وسَوِيّ العامّة دون ذنب هي دائما عرجاء، دائما كاذبة».

موسليني ينقلب على كلاويديو تريفيس (C. Treves)، رفيقه في الحزب الاشتراكي الإيطالي لأنه تملّص من تنظيرات نيتشه الأرستقراطية واعتبر الإنسان الأعلى استعارة ترمز إلى مرحلة غير ناضجة من حياة الإنسان السيكولوجية. فهي بالنسبة لتريفيس "مثال خارق لتوقّف التطوّر الفكري". لكن بالنسبة لموسليني نيتشه شاعر وعمله كان قصيدة بطولية تُصوّر حياته (un poema eroico della sua vita)، لا تغيب فيها الكارثة ... الإنسان الأعلى هو رمز، هو صوت هذه الفترة المرعبة المأساوية التي يمر بها الضمير الأوروبي في بحثه عن مصادر أخرى للذّة والجمال والقيم العليا. لقد لفتَ الانتباه لحالة ضعفنا، لكن في نفس الوقت الرجاء في فدائنا: الغروب وفي نفس الوقت الفجر، إنه بالأخص نشيد للحياة حياة مُعاشة بكل الطاقة في مسعى مستمر نحو شيء أكثر علوّا، وأكثر صفاء، وأكثر تجريبا ... «يا اخوتي، آلاف هي السبل التي لم يطأها أحد إلى اليوم. آلاف هي أبواب وجُزر الحياة المَخفيّة التي لا تنضب ولم يتم اكتشافهما من طرف الإنسان بعد».

(هآهآ)

بعد اثنَيْ عشرة سنة من هذا النص، سيُحقّق موسليني إرشادات نيتشه وتعاليمه بالحرف، وسيجرّ الوبال والدمار (هو وزميله هتلر) على العالم أجمع.] انتزع السلطة بالقوّة، مع مجموعة اللصوص وخرّيجي السجون (الدوابّ الشقر)؛ اجتاح روما وفرض نفسه بالرعب، أرغم الملك على تسليمه رئاسة الحكومة، استعمل

542- نيتشه، **هكذا تكلم زرادشت**، «عن المرتدّين»، ص، 346 – 347.

543- موسليني، م. س، ص، 108 109.

المكيافلية مع المسيحية، فبعد الكره الدفين تصالح مع ممثلها الأعلى، الكنيسة الكاثوليكية، ومنحها امتيازات لم تكن لتحلم بها منذ توحيد إيطاليا؛ بثّ الرعب في قلوب الناس وأسكت الأصوات الناقدة بالاغتيالات أو التهجير أو السجن، وضحيّته الأشهر هي أنطونيو غرامشي؛ كذب على شعبه، وضخّم من مقدراته العسكرية، وهيّأ له أتون حرب سحقت قواه وأنهكته؛ طبّق على شعبه قولة نيتشه: "العيش في المخاطر" وأرسله إلى أدغال إفريقيا (أثيوبيا) وإلى صحاري ليبيا، وجليد ستالينغراد، قتّل الليبيّين دون رحمة، وبالجملة، النيتشوية الثاوية في الاشتراكي السابق موسليني طُبّقت على أرض الواقع وأعطت العالم فظائع يندى لها الجبين.

كوّن فيالق صعاليك أسماهم بالقمصان السود، وهي أرواح شديدة قاسية تمكّنت من التصدي لكل صوت معارض في الداخل، وإزاحة أيّ عائق لتحقيق برنامجه الامبريالي التوسّعي الذي كان قد خطّه من قبل مستلهما أفكار نيتشه. ضحّى بمائة ألف جندي إيطالي في قضيّة ليست بقضيّتهم، وتجمّدوا دون قتال في جليد الاتحاد السوفياتي. وكأنه توقّع ما سيحدث لهؤلاء التعساء: «**اكتسبتْ القوة في الحرب، في العزلة، في المخاطر الكبرى، أرواح ستعرف الرياح، والجليد، وثلوج الجبال العالية، وستتمكن من أن تقيس، بعين هادئة، عمق الهاوية أرواح تملك نوعا من العناد السامي أرواح تحررنا من حبّ القريب، من إرادة العدم وإعادة مَنْح الأرض هدفها وللإنسانية أمانيها أرواح جديدة، حرّة، حرة جدا تنتصر على الله والعدم!**».

لا نبالغ إن قلنا إن فاشيته هي النيتشوية بعينها، سواء من حيث التعاليم النظرية أو التطبيق العملي: شعار نيتشه: "لا شيء صادق كل شيء مباح"، تبنّاه كفلسفة للفاشية. قال إن الفاشية تندرج في إطار الفلسفات الكبرى المعاصرة: فلسفة النسبية (filosofia della relatività)[544]. بينما كانت النسبوية في ألمانيا تركيبا نظريا محطما للأنساق؛ في إيطاليا هي واقع عيني. الفاشية هي حركة "في غاية النسبية" لأنها لم تبحث أبدا عن إعطاء ثوب نهائي، وبرنامج محدّد بسبب تعقّد حالاتها النفسية، لكنها تحركت بتخمينات وشذرات. «كل ما قُلته وفعلتُه في الأوقات الأخيرة، هو نسبوية بالحدس[545]».

544- B. Mussolini, "Relativismo e fascismo", in Il Popolo d'Italia, n. 279, 22 novembre 1921, VIII. Scritti politici di Benito Mussolini, op. cit., p. 206.

545- موسليني، «نسبوية وفاشية»، م. س، ص، 207.

بعد أن كان متأكدا من الثورة الاشتراكية العالمية وحتميتها للإطاحة بالمنظومة الرأسمالية، انقلب على أعقابه، ونسخ كل ما نظّر له، وماح إلى أطروحات المراجعين للتاريخ. ولفعل ذلك يجب أن يصادق على تقزيم العلم، ونزعه أيّ مشروعية، وهنا فهو ينهل من نيتشه، ويؤسس نسبويته على تعاليمه. يقول إذا كانت النّسبوية تعني «نهاية العلمويّة (la fine dello scientifismo) انهيار أسطورة "العلم" ("mito "scienza)، باعتباره مُكتشف حقائق مطلقة، أنا أستطيع أن أتفاخر بأنني طبّقتُ هذا المعيار على الظاهرة الاشتراكية[546]».

وهكذا انهمرت الشكوك والمراجعات التاريخية، وهي ردّة كان قد سبقه إليها الألماني كاوتسكي، ومفادها أن قانون ماركس انجلس لحتمية الاشتراكية، أصبح غير قابل للتحقيق لأن عوامل جديدة بدأت تُقوّض هذا القانون، من بينها تحسين أوضاع العمال، وحصولهم على حقوقهم المشروعة. «في خطاب ألقيتُه في بولونيا 3 أبريل من سنة 1921، قلتُ "لا شيء في العالم أكثر بشاعة من تسمية الاشتراكية بعلميّة"؛ وإثرها، بعد أن نفيتُ أيّ حقيقة للتعاليم المظلمة، المتناقضة للاشتراكية، نفيتُ أي صفة حتمية لظهور الاشتراكية نفسها».

يجب، ضد الاشتراكيين، صنع حقيقة نقيضة (un'antiverità) وحتمية نقيضة بالنسبة لحتمية الاشتراكية المُبَشّر بها. تصوّروا أن هذا الكلام صادر عن اشتراكي متعصب ومناهض حتى الموت للرأسمالية. لا شيء يبرهن على أن الرأسمالية، خلال الحضارة التي تشكّلت منها، يجب بالضرورة أن تنتهي إلى الاشتراكية. هذه النقلة التي يزعم أصحابها أنها منطقية وطبيعية، هي اعتباطية، فالنقد الجديد جرف هذه الذهنية التاريخانية الديمقراطية، التي تزعم بأن التاريخ مفروغ منه مسبقا، ويُعلَم أين سيتجه الأفراد ومجتمعاتهم.

وكما لو أنه تنبّأ بالهزات الكبرى التي ستُقوّض أسس التعايش السلمي في العالم، وبالشرور التي سيتسبّب فيها، قال إنه من المحتمل أن تُوقِّع العشريّة القادمة النهاية البائسة لكل ما يسمّى بالمكتسبات الديمقراطية (tutte le conquiste democratiche)[547].

546- ن. م، ص، 207.

547- ن. م، ص، 208.

والدكتاتورية التي كبّل بها الشعب الإيطالي، تنبّأ بها أيضا: «مِن حُكم الأكثرية والكلّ، مثال أعلى للديمقراطيات، من المحتمل أن تتمّ العودة إلى حكَم الأقلية أو الواحد[548]».

لكن الشيء الأكثر إثارة للدهشة، أن زعيم الفاشية، استبق تيار ما بعد الحداثة، واستخدم عبارات لا نجدها إلاّ في قاموس فرنسوا ليوتار ودريدا وفوكو وجمهرة البنيويين وما بعد البنيويين. زعيم الفاشية يقول إذا عنينا بالنسبوية احتقار المقولات الثابتة (le categorie fisse) أو ما يُسمّى الآن "السّرديات الكبرى" ـ؛ ازدراء أولئك الذين يعتقدون أنهم حاملو حقيقة موضوعية خالدة، فلا شيء أكثر نسبوية من الذهنية الفاشية ومن ممارستها في الواقع. الفاشستي يسير على هدي تعاليم نيتشه: مُتقلّب على الدوام، لا يركن إلى رأي واحد، يُبدّل مواقفه وقناعاته من يوم لآخر، ولا يمانع من تسميته بالشيء ونقيضه: إذا كانت النسبويّة والتّعْبئة العامّة متطابقتان فقد أظهرنا نحن الفاشيون، يكتب موسليني، غطرستنا المتهوّرة أمام التسميات التي يَتَسَمّر عليها، مثل الخفافيش على العوارض الخشبية، أولئك المتعصّبون من الأحزاب الأخرى؛ نحن الذين كان لدينا من الشجاعة لتهشيم كل المقولات السياسية العتيقة، وأن نكُون بالتّناوب: أرستقراطيين وديمقراطيين، ثوريّين ورجعيّين، بروليتاريا وبورجوازيين، سلميّين وحربيّين «نحن حقا **النسبويّون بامتياز** (*i relativisti per eccellenza*)، وممارستنا تلتحق بأحدث حركات الروح الأوروبي[549]». الفاشستية لا تلتزم ببرنامج، ولا حتى بحدّ أدنى من برنامج، أي وجهات نظر بسيطة وارشادات، نحن نسخر من البرامج الاشتراكية والشيوعية، ويكفي لكي نتحرّك، يقول موسليني، أن تكون لنا نقطة مرجعية: الوطن. والباقي يسير بمفرده.

النسبوية الفاشستية، تُقدّم الحياة والفعل على العقل. وقد حدس، تيلغر (Tilgher) أحد المفكرين الأوائل الذين شهدوا بروز الحركة الفاشية، هذه الصبغة المميزة للفاشية، فتلقّف موسليني كلماته وأوردها في مقاله: «انطلاقا مِن تكافؤ الآراء، الشاكّ القديم يستنتج أن الشيء الوحيد الذي يمكن فعله هو التخليَ عن الحكم والفعل. من تكافؤ كل الأيديولوجيات، النسبوية الحديثة تستنتج أن كل واحد له الحق في أن يخلق أيديولوجيّته ويفرضها بكل ما أوتي من قوة. إن الحركة الهائلة اليوم التي مرّت من

548- ن. م، ن. ص.

549- ن. م، ص، 208.

التاريخانية إلى النسبوية والريبيّة الشاملة هي، إذن، لا شيء أكثر من الجهد الذي تبذله القوى العميقة للحياة الجديدة وبالتالي الثورية، التي تمّ الضغط عليها من قِبَل الإيديولوجيا التاريخانية المهيمنة، مؤلّهة للماضي، وباسمه، تنفي المستقبل لنزَع الأغلال الحديدية وفتح ثغرة للنور».

هذا السيل من الخطابة، كهربَ رأس موسليني وأكّد له مرة أخرى أن الظاهرة الفاشستية الإيطالية بدت لتيغلر (Tilgher) كأعلى وأهمّ تمظهر للفلسفة النسبوية. ثم أضاف معلومة أخرى استمدها من فيلسوف ألماني معاصر، هانس فايهنغر (Vaihinger)، قال: إذا كانت النسبوية، كما يؤكد فاهينغر، ترتبط بنيتشه وبإرادة القوّة «**الفاشية الإيطالية كانت وهي فعلا أعظم إبداع لإرادة قوّة فردية وقوميّة**[550]».

وبالتوازي مع إرادة القوة التي اضطهد بها شعبه وأدخله في دوامة الذل والعنف، مُهيئا له مصيرا حربيا تعيسا، لا يمكن أن تَخفَى الميتولوجيا. قال في إحدى خطبه الهستيرية: «نحن صنعنا أسطورتنا[551]». وهذه الصّنعة ضرورية ولا مناص منها لتخدير العقول، لأن الأسطورة بالنسبة لموسليني، تساوي تماما ما نَظّر له شتراوس وفوكو وأركون، وجميع الهائمين بالطاقة الخلاقة للأساطير. الأسطورة في رأيه «هي إيمان، هي شَغَف. لا يجب بالضرورة أن تكون واقعا. فهي واقع من حيث أنها مِهماز، ورجاء، إيمان، وشجاعة. إن أسطورتنا هي الأمة، أسطورتنا هي **عظمة الأمة!**».

وقد تبدّت **عظمة الأمة** بتعداد مَنَاقبه هو وأتباعه من الدّواب الشقر: «ما هو تاريخ الرجل الفاشي؟ إنه لامع؛ لقد **أحْرَقْناَ** مقرّ جريدة الـ(l'Avanti) في ميلانو، **حطّمناه** في روما. **أطلقنا الرصاص على خصومنا. أحْرقنا البيتَ** الكرواتي في ترياستي (la casa croata a Trieste)، **أحرقناها** في بُولا[552]»، إيطاليا مدفوعة «للتوسّع نحو البحر الأبيض المتوسط والشرق بسبب عامل الديموغرافيا ضيّق جدا ترابنا لشعب طافح ... إن امبرياليّتنا التي ترغب في بلوغ الحدود المشروعة **المقرّرة من الله والطبيعة** ... هي امبريالية **رومانية**[553]».

550- ن. م، ص، 209.
"il relativismo si riannoda a Nietzsche e al suo Willen zur Macht, il fascismo italiano è stato ed è la più formidabile creazione di una volontà di potenza individuale e nazionale".

551- B. Mussolini, Il discorso di Napoli, pronunciato il 20 ottobre 1922. Da "Il Popolo d'Italia", n. 255, 25 ottobre 1922, IX., in Id, Scritti politici di Benito Mussolini, op. cit., p. 221.

552- B. Mussolini, "L'imperialismo fascista", discorso pronunciato a Pola il 20 settembre 1920, in *Ibid.*, p. 196.

553- *Ibid.*, p. 197.

في إيطاليا السبعينات من القرن الماضي، وبينما كان اليسار الماركسي هو المهيمن على الساحة الثقافية، حدثت ظاهرة عجيبة جدّا: بدأ فكر نيتشه، المحسوب من طرف اليساريين على الفاشية، يغزو الساحة الثقافية وينتشر حتى في صفوف النخبة اليسارية، وقد أخذ المشعل، هذه المرة، جياني فاتيمو (G. Vattimo)، وهو فيلسوف كاثوليكي، لكنه ذو منحى يساري ماركسي، أبعد ما يكون عن الفاشية والفكر اليميني، ومع ذلك فقد قام بأكبر تلميع لصورة نيتشه واجتهد اجتهادا لا نظير لتقديم فكره على أنه محرّر من أغلال الاستعباد.]

سأتناول فقط بعض النقاط التي تطرّق إليها فاتيمو من خلال تأويله لـ"هكذا تكلم زرادشت". قال إن الشكل النّبوي الذي جاء عليه كتاب **زرادشت** لا هو علامة على جنون نيتشه، ولا هو تقهقر نحو الذاتوية، بل يعكس بصيغة دقيقة جدا، الوضع المميز للإشكالية التي يتناولها هذا المؤلَّف: كيف نُفكّر ونُنتج الإنسان الجديد بطريقة مستقلة عن كل تصوّر ومَوقف ارتكاسيين[554] ؟

إن هذه المسألة وارتباطها بأسلوب أدبي كما هو أسلوب **زرادشت**، لخّصها نيتشه بعناية في الأفوريزما (350) من **المسافر وظلّه**، والتي يمكن فهمها إذا ألحقناها بصفحة من العلم المرح، على أنها خاتمة مثالية لمسيرة فضح الميتافيزيقا (smascheramento della metafisica)[555]. وقد أورد فاتيمو النص على طوله[556]، ومثل كل نصوص نيتشه

554- جياني فاتيمو، **الذات والقناع**، م. س، ص، 176.

555- **الذات والقناع**، ن. م، ص، 176.

556- سأنقله من خلال ترجمة محمد الناجي: **انسان مفرط في انسانيته**، ج. 2. «المسافر وظله»، أفوريزما 350، بعنوان: «بحروف من ذهب»، ص، 218 219. «لقد فُرضت الكثير من القيود على الإنسان لجعله يُقلع عن عادة التصرّف مثل الحيوان، وبالفعل صار أكثر وداعة وذكاء وفرحا ورزانة من سائر الحيوانات. ولكنه ما يزال يعاني من تقييده بهذه الأغلال مدة طويلة، بحرمانه مدة طويلة من الهواء النّقي ومن حرية الحركة، والحال أن هذه القيود، ولن أكف عن ترديد هذا، هي أخطر وأدقّ أخطاء الأفكار الأخلاقية والدينية والميتافيزيقية. فقط حين يتم الشفاء من مرض القيود يكون الهدف الكبير الأول قد تحقق: انفصال الإنسان عن الحيوان. إننا الآن في منتصف عملنا لتحرير الإنسان من قيوده، ويلزمنا في ذلك حذر كبير جدا. لا ينبغي أن تُعطى حرية العقل إلاّ للإنسان الذي صار نبيلا، فهو وحده من يرى اقتراب تلطيف الحياة، وهو بلسم لجراحه، إنه أوّل من يستطيع القول إنه يحيا فقط لأجل الفرح لا غير، وفي كل الأفواه الأخرى يصير شعارا خطرا: السلم حولي والاستمتاع بكل الأشياء الحميمية. ويُذكّره شعار بعض المتوحدين هذا بكلمة قوية ومؤثرة قيلت في الماضي، لنا نحن، ولكنها ظلّت فوق الإنسانية كلها شعارا ورمزا قادريْن على إهلاك كل من يزيّن بهما رايته قبل الأوان، وقد أهلكا المسيحية. يبدو أنه لم يحن

فهو مملوء خورا وقسوة وعنصرية، ختمه بقولة من انجيل لوقا (2: 14. "المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة ").

وهنا انتهز فاتيمو الفرصة لكي يقول: مثل كل صفحات نيتشه، نحن هنا أيضا أمام تلخيص لاعتبارات متعددة، تستدعي تفسيرا متجددا على الدوام، مثلما يحدث للكتب المقدسة التي أشار إليها نيتشه[557]. في هذا المقطع يقدّم القاعدة الأوضح لفهم العلاقة بين الوضعية المميزة لفكر **زرادشت** والأسلوب الخاص الذي كُتبت بها. إن هذا الترابط، يقول فاتيمو، يمكن تلخيصه بالإشارة إلى ركائزه في مرض السلاسل (malattia delle catene) وفي الاستعارة. إذا سمّينا استعارة، ليس فقط الخطاب الذي يُعبّر عن حقيقة مفهومية بواسطة منظومة رموز تملك إحالات مشفرة ذات منحى وحيد المعنى، بل خصوصا ذاك الخطاب الشاذ بوعي منه عمّا يريد أن يقوله، نظرا لأنه لا يقدر على أن يعبّر عنه كليا، أو حتى على أن يستولى عليه، على إصابته مثل هدف يتفادى الإصابة، إذن يمكننا أن نسمّي استعاريا كل خطاب **زرادشت**[558].

ومهما كانت الاعتراضات ضد هذه الأطروحة، من الواضح أنه لا يمكن التفكير في لغة **زرادشت** كمجرد لحَاف شعْري لحقائق مصاغة مفهوميّا بشكل شفّاف، لحَاف يمكن أن يجد تبريره في ما يَقولُه فَي الأفوريزما أعلاه حول الحصافة التي ينبغَي اَلتحلي بها عند إعلان الشعار الجديد للروح الحرّ. تلك الحصافة الضرورية لإدراك الإحالة الصريحة لهذا المقطع على **زرادشت** بأنه "كتاب للجميع ولغير أحد" إذا ما تفكّرناها [الحصافة] في العمق ستقودنا إلى الوضعية الحرجة التي يجد نفسه فيها نيتشه زرادشت إزاء الإنسان الجديد وإمكانية تحقيقه انطلاقا من إنسان الميتافيزيقا.

إن الحصافة مطلوبة لا من أجل روح فردانيّ ونُخبويّ، بل لأننا في عالم ما زال فيه الإنسان، رغم كسر أغلال الأخطاء الأخلاقية، الدينية، الميتافيزيقية، مُصابا بمرض الأغلال. والصيغة الاستعارية التي اتخذها **زرادشت** لها علاقة بهذا المرض. لكن، لماذا، في مثل هذه الوضعية، وجب أن يكون من الأفضل ومن الأكثر حصافة التكلّم للأقليّة بدل الكل؟ جواب فاتيمو: المسيحية التي أرادت أن تتكلّم للكلّ، هلكت بسبب

بعد الأوان الذي سيسمح فيه لكل الناس بمعرفة مصير أولئك الرعاة الذين رأوا السماء تضيء فوقهم وسمعوا هذه الكلمة: «على الأرض السلام وللناس البهجة» لا يزال الزمن زمن أفراد متوحّدين».

557- فاتيمو، **الذات والقناع**، م. س، ص، 177.

558- ن. م، ص، 178.

عدم حصافتها هذه. ويبدو أن نيتشه يعيب على المسيحية فقط عدم حصافتها تلك، وليس مضمون رسالتها، الذي هو على العكس من ذلك مشابه، أو تقريبا مطابق، لما يريد أن يُعلنه نيتشه نفسه. وهذا في الحقيقة انفتاح نحو المسيحية (apertura verso il cristianesimo)، ليس من النادر العُثور عليه في مؤلفات نيتشه: في واحدة من مدوناته غير المنشورة من فترة **زرادشت**، وبخصوص موضوع الشرّ وانتهاك الأخلاق كضرب من تأكيد الذات ضد القطيع وضد المنطق الوظيفي للعقلنة، نيتشه يؤوّل **محبة يسوع** للمذنبين كتعاطف مع الأرواح الحرة: «يسوع الناصري يحبّ الأشرار، وليس الأخيار: إن رؤية استنكارهم الأخلاقي أدت به هو نفسه إلى الكفر. حيثما كان هناك حكم ما، انحاز ضد القضاة: أراد أن يكون **محطّم الأخلاق**».

إذن خطأ المسيحية، من وجهة النظر هذه، يَكْمُن فقط في عدم حصافتها، وفي تَسرُّعها لتزيين رايتها بشعار السلام ومتعة القُرب. إن انعدام الحصافة هذا يُمكن تأويله فقط بمعنى أن المسيحية، في وعظها، لم تطرح، بالصرامة الكافية، مشكلة الأغلال التي تكبّل الإنسان، ومرض الأغلال الذي مازال يلاصقه عبر التاريخ[559]. إن التبشير بالسلام لإنسان الصراع في مجتمع العنف الميتافيزيقي (violenza metafisica) أفضى إلى إدماج كامل للمسيحية في هذا العالم العنيف، وبالتالي إلى انحطاطها معه.

لهذا السبب، يقول فاتيمو، فإن رسالة **زرادشت** يجب أن تُصاغ بحصافة أكبر من رسالة الإنجيل، وأن تُدوَّن بصيغة أمثولات أصعب وأغمض من أمثولاته. لا لإخفائه على أحد، أو لأنه إذا عُرف من طرف أقليّة سيُصبح في مأمن من سوء الفهم، بل فقط لأن العصر ما زال عصر الأفراد؛ زمن ما زال فيه الروح الحر استثناء. ولذلك فإن خطاب نيتشه نفسه، إذا كان لا يرغب في التورط في نظام العقلنة الأخلاقية الميتافيزيقية، عليه أن يكون غير متجانس جذريا مع هذا النظام حتى في طريقة استخدام اللغة، في الهياكل المفاهيمية، في طريقة الفهم. وهكذا فإن مضمونا بديلا يجب أن يُعرَض في أسلوب بديل.

لكن أليس هذا تصنُّعا؟ أليس تملّصا من مسؤولية التفكير الواضح المنسجم؟ إطلاقا يجيب فاتيمو. ذلك أن المحتوى البديل الذي يرومه نيتشه هو من الجدّة والتفرّد بحيث ليس فقط لا يمكن قوله، بل لا يسمح بالتفكير فيه ومَفْصَلته في منظومة مفهومية

559- ن. م، ص، 179.

ثابتة[560]. لهذا السبب فإن **زرادشت** هو **استعارة** (è allegoria)؛ يتوجّه إلى **الأفراد لا** من جهة امتياز خاص للفرد على المجموعة، بل فقط لأن دنيا الاجتماع التي يَجد نفسه أمامها هي بالفعل دنيا القطيع التي أرْسَاها العقل التنظيمي الإنتاجي. إن التوجّه إلى الأفراد يعني ببساطة التوجه إلى الشر، إلى العنف، والانحراف، مهما كان الشكل الذي تتخذه.

إن "هكذا تكلم زرادشت" في ماهيته الاستعارية، هو أيضا العمل الأكثر أصالة ووفاء لروح ذاكِ الذي سيعتبره نيتشه مُهمّته الخاصة. وأخيرا، إن الحلّ "الاستعاري" للخروج من عالَم الميتافيزيقا وإنتاج روح متحرر من مرض الأغلال، هو في آن حل أسلوبيّ وحلّ لمشكلة الـ"ما وراء الإنسان (l'oltre uomo)" في الضرب الوحيد الممكن لنيتشه، وربما لنا نحن[561].

وإذا وضعنا على محك العقل الحلول النيتشوية التي تحدث عنها فاتيمو، فإننا حقا ودون مبالغة سنهوي في قاع الجحيم. لكن فاتيمو ينقذنا عن طريق الاستعارة، ولهذا السبب أفاض في الإشادة بهذا الأسلوب وجَعَل منه الركيزة الوحيدة للمَسْك بلبّ أفكار نيتشه. وأظن أن فاتيمو مُجْبَر على ذلك، فالمسألة بالنسبة لمنظومته الفكرية هي مسألة حياة أو موت، إذا انهار نيتشه فستنهار كل منظومة "الفكر الضعيف (il pensiero debole)" التي استحدثها، وستذهب عدميّته الايجابية في مهبّ الريح.

لقد وضَعنا فاتيمو أمام واحدة من أخطر نظريات نيتشه، الانتخاب الصناعي للأفراد، والتي يسميها "تربية (Züchtung)" ناقلا المصطلح من مجال بيولوجي إلى مجال اجتماعي إنساني، ونيتشه يقصد هذا المعنى بالذات. لكن فاتيمو يرى أن هذا المصطلح ليس له معنى بيولوجي بل استعاري، للأسباب التي ذكرها أعلاه[562]. ولم يكتف بهذه الزحزحة الخطيرة بل تجاوزها إلى معان لم تجُل برأس نيتشه بتاتا. قال إن مشكلة „الانتقاء (Züchtung)" هي أيضا الذهاب أبعد من مجرّد الاستعارة، هي جهد أرخنة خطاب „ما وراء الإنسان" الذي يبحث عن استتباعات مباشرة وسياسية.

560- ن. م، ص، 180.

561- ن. م، ص، 182.

562- ن. م، ن. ص.

(ياَياً)

هل يجب علينا أن نخضع لابتزاز النيتشويين؟ أن نقبل تأويلاتهم الانتقائية وتطهيراتهم المفروضة على صريح كلمات نيتشه؟ لقد رفض الفيلسوف الإيطالي دومينيكو لوسوردو الانصياع لهذه اللعبة التأويلية وسمّاها "حمّاما مُطهّرا (bagno purificatore)"، وأثبت بحجج متينة أن تأويلات فاتيمو فاقدة لأي أساس موضوعي.]

قبل أن أعرض أطروحة لوسوردو أريد أن أشير بعجالة إلى بعض النقاط التي غيّبها فاتيمو من النص الذي قام بتأويله. كل الأفكار الخطيرة التي جاءت في **زرادشت تمّ** مَسْحها بجرّة قلم: عن الإبادة الجماعية التي يدعو إليها في فقرة "دعاة الموت"، وقوله بأن الأرض مليئة بالفائضين عن اللزوم، وأنها فسدت بسبب هذا الفائض وبالتالي يجب استدراجهم إلى الارتحال من هذه الحياة، ولا كلمة من طرف فاتيمو ولا تفسير، حتى استعاري. وأيضا لا كلمة عن أُفوريزما: "الحرب والمحاربون"، وكذلك قوله بأن الدولة ابتُدعت للمحافظة على الفائضين عن اللزوم. لم يصرف كلمة عن فكرة صفاء الدم وضرورة حظر اختلاط الأعراق والأفراد، كما فعلت النازية والفاشية. وقد صرّح نيتشه بهذه الكلمات العنصرية في فقرة من زرادشت بعنوان "محادثة مع المَلَكين"، مستخدما إيعَازَات ولفّ ودَوَران، لكن المعنى واضح لكل قارئ حصيف. يقول إن هناك طبقة صاعدة سَمّت نفسها نبيلة، لكن كل شيء فيها كاذب وفاسد: «**والدم على وجه الخصوص**، وذلك بسبب أمراض سيّئة قديمة[563]».

ثمة أيضا طعنة فظيعة في اليهود الألمان الذين كانوا يشكلون طبقة مَدنيّة كوسموبوليتية، مُتعددة الأعراق، ولذلك فهو يهرب إلى الريف كبديل عن الاختلاط العرقي، لأنه مقتنع بأن الفلاح الألماني هو الوحيد الذي بقي **محافظا** على نقاوة الدم والعرق: «أَفْضَلُ لديّ وأَحَبُّ اليوم **فلاّح قرويّ** مُعافى فظّ، ماكر، مثابر عنيد؛ فذلك هو **النوع الأشرف** في هذا الزمن. إن الفلاّح القروي هو الأفضل اليوم؛ وإنّ جنس الفلاحين هو الذي ينبغي أن يكون سيّدا**!**». لكن المدينة هي عنوان فساد العرق، عنوان الرعاع «والرعاع تعني: **الخليط**. خليط رعاع: فيه يتداخل ويتمازج الكل بالكل،

563- **هكذا تكلم زرادشت**، ص، 455.

القديس والوغد والنبيل **واليهودي** وكل ضروب الدابة مما جمّعت سفينة نوح... الرب نفسه استحال يهوديا![564]».

وليس من سبيل الصدفة أن أعداء السامية الألمان منذ صدور **زرادشت** تلقّفوه بشراهة وفهموا مقصد كاتبه أكثر من أي أحد آخر، لأنه مُحمّل بكل الكليشيهات السائدة ضد اليهود في عصره. ومهما راوغ وعتّم فإن أي معاد للسامية يستطيع بسهولة أن يحدس أغراضه الدفينة. ومن بين الكليشيهات الخطيرة تهمة اليهود بأنهم يخطفون أطفال المسيحيين ويذبحونهم قربانا لإلههم: «آه يا إخوتي إن **بكر المولودات** هو الذي يُضحَّى به دوما. وقد شاءت الأمور أن نكون أبكارا[565]». ولمن لم يفهمه جيدا يوضّح: «إنّ دَمَنا جميعا يسيل على مذابح سرّية، ونَحترَق ونُشوى جميعا قربانا لأصنام عتيقة»، ثم «أفضَلُ ما لدينا لا يزال طريّا يافعا؛ وذلك هو ما يَشْحذ شهيّة الأحشاء الهرمة. لحمنا طريٌ وجلدتنا ليست سوى جلدة حَمْلٍ صغير: فكيف لا نوقظ إذًا شهيّة قساوسة الأصنام المُسنّين![566]». إذن، الرسالة وصلتً إلى مستمعيه وأخذت تفعل في أرواحهم مفعولها المرغوب، حتى نضجت الثمرة وقَطَفَها هتلر بتطهير الدم الألماني من الشوائب، وتنفيذ مخطط الإبادة الجماعية لليهود، وبقينا نحن نعاني من تبعات هذا الجرم الفظيع.

ولم يُعرّج فاتيمو على النصائح الاجرامية التي ينصح بها زرادشت أتباعه: اسْرِقْ واقْتُلْ، اغْزُ واغْنمْ، كل شيء مُبَاح، ولمَ لا يكون مُباحا؟ «أليست الحياة كلها سَرَقَة وقَتْلا؟[567]». لقد حوّل هذا النبيّ، النّهيَ عن السرقة والقتل إلى قتل للحقيقة نفسها، بل أكثر وأخطر منذ ذلك إلى «دعوة إلى الموت»، وتقديس «لكل ما هو معارض للحياة ومُثبّط لها».

دون أن نتحدّث عن أقواله البذيئة من قبيل إن العالم يشبه مؤخّرة إنسان[568]، وإن «العقل مَعِدَة»؛ ودَعوته إلى الابحار على قارب الموت[569]، يعني إلى الانتحار؛ ولمن

564- ن. م، ص، 455 و 458.

565- عن الألواح القديمة، § 6، ص، 379.

566- ن. م، ص، 379.

567- زرادشت، عن الألواح، § 10، ص، 383.

568- **زرادشت**، «عن الألواح القديمة، § 14، ص، 387

569- ن. م، ص، 390.

يمتنع عن الفتك بنفسه وبالآخرين يهدّده بالعصا والفلقة: «بالعصا ينبغي أن يداعبكم المرء! بضَرْب العصيّ ينبغي أن ينشط أقدامكم![570]». وبعد أن يُشبعهم عصا وفلقة يسلمهم إلى الموت: «على المرء أن لا يكون طبيباً للمَيؤوس من شفائهم: هكذا يعلم زرادشت لتَضْمَحلّوا[571]».

وقد لفت انتباه دومينيكو لوسوردو (D. Losurdo) موضوع "الانتقاء (Züchtung)"، وإصرار فاتيمو على تأويله بطريق الاستعارة، وتجريده المتعسف من كل سياق تاريخي رغم الحضور المكثف للانتقاء البيولوجي في نصوص نيتشه وحماسته لهذا "العلم" الجديد[572]. وقد فعّل فاتيمو هذه التقنية التطهيرية على المقاطع الأكثر إرباكا. بعد أن أعلن عن شعار "لِتَمُت في الوقت المناسب"، زرادشت يواصل: «لكن كيف يمكن لمن لم يعش في الوقتَ المناسب أن يموت في الوقت المناسب؟ [ليْتَه لم يولد أصلا! هكذا أنصح الفائضين عن اللزوم. لكن حتى الفائضون عن اللزوم يجعلون من موتهم أمرا مهمّا، والجوزة الفارغة هي أيضا تودّ أن تُكسر]. **الكل يرى بعيْن الجدّ إلى الموت:** لكن الموت لم يتحول بعد إلى عيد. والناس لم يتعلّموا بعد كيف يُحتَفل بأجمل الأعياد[573]».

جُمْلتان جَلبَتا انتباه لوسورد في هذا المقطع من **زرادشت**، الأولى جاءت بين معقّفين، لكن فاتيمو غيّبها من نصّه واستبدلها بنِقاط استتباع، والثانية، مُعَرَّقَة، وقد ترجمها بطريقة **مختلفة** بل ملتبسة: «بالنسبة للكلِ، الموت هو شيء مهمّ». لكن، يرد لوسوردو، في الحقيقة، حسب نيتشه، أهمية موت "الفائضين عن اللزوم"، هي شيء ذاتي وخيالي بحت. فهم يُلقون بثقلهم، بشكل لا يطاق، على المجتمع وعلى الحياة، وينبغي بالتالي حثّهم على وضع حدّ لوجودِ عديم القيمة، لكن لا أثر لهذه الدعوة للتصفية في تأويل فاتيمو[574]. لقد حوّل بأعجوبة إلى **مجرّد** تفكير أخلاقي خطابا انتقائيا (eugenetico) لا يخلو من الوحشية: دَفع المشوّهين إلى الانتحار كاحتفال حضاري.

570- ص، 391.

571- ص، 391.

572- D. Losurdo, Nietzsche, il ribelle aristocratico, Bollati Boringhieri, Torino 2002, p. 1086.

573- **هكذا تكلم زرادشت**، «عن الموت اختيارا»، ص، 141.

574- لوسوردو، نيتشه، المتمرّد الأرستقراطي، م. س، ص، 1086.

إن سيرورة التبخّر والتصعيد، يقول لوسوردو، تنتهي باقتراح فاتيمو ترجمة (Übermensch) بـ"ماوراء الإنسان (oltreuomo)"، عوض "الإنسان الأعلى (superuomo)": نيتشه يعزّ عليه فقط التعالي على إنسان التراث، في رأي فاتيمو. لكن خطاب نيتشه أقل اهتماما بالتعالي والتراث، مشكلته واقعية، إذ يكفي مواصلة خطاب **زرادشت** حتى نتأكّد من أنه يدين أنانية المرضى الذين يتعلّقون بحياة فاقدة للمعنى وهكذا فإنهم يُفاقمون "التّدهور (Entartung)"، ويواصل زرادشت: «صعودا تمضي طريقنا من **النّوع** (Art) إلى **النوع الأعلى** (Über-Art)»[575]. إن السمة المميزة لخطاب زرادشت هي التقابل بين "الانسان الأعلى"، "النوع الأعلى" والتدهور المتفشّي. ومجددا هذا يحيلنا إلى موضوع مرتبط بوراثة الإجرام والانتقاء، كان قد هيمن على الثقافة الأوروبية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر مع دور مركزي أيضا في دائرة المؤلفين والأصدقاء الأعزاء على نيتشه، ويؤكد ذلك الحضور المكثف في رسائلهم، لأسماء غالتون، لامبروزو، غوبينو.

إن هذا السياق التاريخي الضخم لا يمكن إزالته حتى وإن قرنا ترجمة (Übermensch) بـ"ماوراء الإنسان (oltreuomo)"، أو ترجمة "النوع الأعلى" (Über-Art) بـ"ما وراء النوع (oltre-specie)". إنه عمل دون جدوى، يخلص لوسوردو، إرادة فصل المُنظّر الأخلاقوي عن مُنظّر الراديكالية الأرستقراطية[576].

إن "ماوراء الإنسان" سيصبح، عند فاتيمو، نقطة انطلاق لسيرورة تشويه وتصعيد مدوّخة. فاتيمو يحيل على الفقرة 868 من "إرادة القوة"، ولوسوردو ينقل المقطع المركزي منه: «إنّ عرقا مهيمنا يمكن أن يَنمُوَ فقط انطلاقا من بدايات مرعبة وعنيفة. مشكل: أين هم برابرة القرن العشرين؟ من البديهي أنهم سيَظهرون وسَيَتَرسّخون إثر أزمات اشتراكية هائلة (ungeheuren socialistischen Krisen)»[577]. إنها واحدة من صفحات نيتشه الأكثر وحشية في مغزاها، يعلّق لوسوردو. ذلك أنّ لمواجهة تحديات ما كان قد أسماه منذ **إنساني مفرط في انسانيته** بـ"الحروب الاشتراكية"، والتي من أجل عدم الموت من الضعف، يجب على المرء أن يصبح بربريا أمام البديل: إمّا الهلاك أو

575- **هكذا تكلم زرادشت**، «الفضيلة الواهبة»، ص، 150.

576- لوسوردو، **نيتشه، المتمرد الارستقراطي**، م. س، ص، 1087.

577- Nachlaß 1887-1889, Bd 13, p. 17-18.

السّطوة - يُكرّر الفيلسوف، في الأشهر الأخيرة من حياته الواعية، — ضرورة صعود طبقة أسياد جديدة من أولئك الذين تَخلّصُوا من الضوابط الديمقراطية والإنسانوية، يعرفون اللجوء إلى الوسائل الوحشية التي يفرضها الوضع، ويُبدون "إرادة أشياء رهيبة" (مع اشارة حتى إلى إبادة المشوّهين، الذين يشكلون قاعدة ثورة العبيد). هكذا فقط يستطيع "العرق المهيمن" الجديد الاستحواذ على كتلة بشرية وتحويلها إلى حيوانات مُستَعْبَدة.

المشكلة الكبيرة لأصحاب تأويل البراءة هي أن نصوص نيتشه تفضحهم وتقوّضهم، ولذلك فهم يقفزون على العبارات المحرجة، ويغيّبون مخزون العنف فيها. وهذا ما فعله فاتيمو مع النص الذي بين يديه: "بدايات مرعبة وعنيفة"، "إرادة أشياء رهيبة"، هذه هي العبارات المكررة باستمرار في النص والتي تعطيه صداه. لكن فاتيمو يحيل عليه فقط لكي يقرأ فيه الايحاء إلى نوع من "البرابرة الجدد"، لكن بربريّتهم تتمثل جوهريا في "الإتيان من خارج"، في تجاوز منطق النسق»: هذا النوع «يستشرف صفات الحرية التي حققها ما وراء الإنسان[578]».

كلام جميل، وجهد تأويلي فظيع لتطهير نصوص تنضح عنفا وكراهية، لكن الخدعة لم تمرّ على لوسوردو، لأن فاتيمو، بعملية سحرية، أذاب كل ما يحتوي عليه نص نيتشه، بصريح العبارة، من إشادة بالبدايات المرعبة العنيفة، من أزمات اشتراكية هائلة، ومن ضرورة إعادة تكريس العبودية.

(آأ)

لكن حالة النيتشويين في العالم العربي لا تقل التباسا وتشتتا وإرباكا عمّا هي عليه في الغرب. ومثالنا على ذلك هو مترجم كتاب جينيالوجيا الأخلاق، الفيلسوف التونسي فتحي المسكيني، حيث يُعرب في تصديره أنه يريد تحرير معنى النص النيتشوي، "من مُعجم الكاهن" وربطَه "بمعجم المحارب". ولكلّ من لم يفهم غرضه جيّدا، يضيف هذه المعلومة، وهي أن السؤال الأساسي هو: «كيف نُعيد للحيوان البشري قدرته الحربيّة على الحرية البدائية الصلفة المتهوّرة؟[579]».]

578- فاتيمو، **الذات والقناع**، م. س، ص، 374.

579- فتحي المسكيني، **مقدمة الترجمة العربية**، نيتشه، فريدريك، في **جينيالوجيا الأخلاق**، منشورات دار سيناترا المركز الوطني للترجمة، تونس 2010، ص، 7. التشديد في كامل النصوص المستمدة من مقدمة المسكيني، من كاتب هذه السطور.

وقد كتب هذا الكلام في وقت كان قد انتشر فيه الإرهاب الإسلامي منذ عشرين سنة، وضرب بوحشية البلد المجاور لتونس. ووكالات الأنباء العالمية تورد كل يوم أخبار أعمال قتل فظيعة: قُرَى بأكملها يهجم عليها أصحاب اللّحي الإسلاميون في هزيع الليل من كلّ صوب، يطوّقونها، يُخرجون السكاكين ويشرعون في ذبح الرجال والنساء والأطفال؛ يحتفظون فقط بالفتيات وبعد أن يرتووا من الدماء يصعدون إلى الجبال بالغنائم والمَسبيّات، يتداولون عليهن، ثم يقتلوهن. نحن أمام وحشية تُحقق بالفعل ما قاله المسكينيَ، عن تحرير القُدرة الحربية الصلفة للحيوان البشري.

والآن نرى بأم أعيننا، بالصوت والصورة، كيف أن وحوش داعش والنصرة يحققون مجددا على أرض الواقع نموذج هذا الحيوان اللابشري القتّال البدائي الصلف المتهوّر. أنا متأكّد أن نيتشه لو كان بيننا الآن لقفز في الهواء فرحا لرؤيته كيف أن المجتمع العبودي الحربي الذي نظر له طوال حياته، تحقّق مع داعش. فالفقرة 257 من **ما وراء الخير والشر** لوحدها، هي برنامج داعش وفقه العبودية الإسلامي بحذافيره: **مجتمع** ، يقول نيتشه، به حاجة إلى العبودية، وداعش تمارس العبودية في أفظع معانيها؛ البشرية بالنسبة لهذا المجتمع تنحدر إلى مستوى أتباع وأدوات، وداعش ترى في اليزيديّين والعلويّين أتباعا وأدوات؛ أرستقراطية نيتشه "تتمرّن باستمرار على أن تأمر وتطاع وتقمع وتُبعد"، وهذا ما تفعله داعش مع السوريين والعراقيين : تهجير جماعي، واستحواذ على أملاك الناس بالقوة؛ أرستقراطية نيتشه نشأت في البداية «كجماعة من الضواري لها قوّة الإرادة وأطماع تسلّط لم تمحق بعد، انقضّت على أعراق أضعف وأكثر تهذيبا ومسالمة[580]»، وداعش هي استعادة أو تحيين لهذا الصنف من الوحوش الذين يتغنّى بهم نيتشه على أساس أنهم كانوا "البشر الأكمل" يعني "الوحوش الأكمل".

فيلسوفنا المسكيني، من جهته، يتحدّث عن العبودية وكأنها أمر طبيعي جدا، ويُرجع أخلاق الحس الإنساني السليم، التي تُميّز بين الخير والشر، الكره والمحبة، العدل والجور، إلى ماذا؟ تصوّروا أن هذه التمييزات يرجعها ببساطة إلى مُعجم العبودية، ويُلصقها بالكاهن اليهودي والمسيحي[581]. لكنّي مُتيقّن أن المسكيني يناهض

580- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، § 257، ص، 243 244.

581- فتحي المسكيني، **مقدمة الترجمة العربية**، فريدريك نيتشه، **في جينيالوجيا الأخلاق**، م. س، ص، 8.

العبودية في كل أشكالها، وليس ثمة فيلسوف معاصر يرضى بهذه المؤسسة المهينة. وكيف لإنسان ذي عقل سليم أن يرضى بالعبودية؟ إلاّ نيتشه يشذ عن هذه القاعدة، فقد مجّدها ووسّع من معانيها، وأدمجها في ميادين شتى، من الأخلاق إلى السيكولوجيا، من الاجتماع إلى البيولوجيا. وللأسف، فقد سقط المسكيني في هذا الفخ، حيث يسرد أقوال نيتشه بموضوعية، ويُعيد على مسامعنا أنشودة ازدواجية القيم، واحدة للأسياد وأخرى للعبيد، واحدة للمحارب وأخرى للإنسان المسالم. يعني بعبارة بليغة صريحة، واحدة للداعشي، سالخ البشر، وأخرى للإنسان العادي المسَالم.

ويكفي تسمية الأشياء بأسماء مختلفة، أو تحريف معانيها البسيطة الواضحة، حتى يُجرّع النيتشويون الناس هذرهم وهذر سيّدهم: الداعشي التفجيري يصبح صاحب "العقل الحرّ"، المحبّ للحرية "البدائية"، والتوّاق لتحقيق إرادة القوة؛ الإنسان المسالم يصبح رمز الكهنوت الذي لا يحمل في ذاته إلاّ الاضطغان الدفين والارتكاس إزاء الحياة، يستعمل المُكر «للسيطرة على إرادة الاقتدار[582]». وما هي الحياة التي يرغب نيتشه، ومعه الفيلسوف التونسي، في تقويتها؟ هل هي حياة العقلانية والعلم والتحرّر من أسر الأديان، والرفق بالبشرية؟ إطلاقا، هذه حياة عبيد ساقطين. لن أشط ولن أبالغ إن قلت إن الحياة التي يقصدها هي حياة الانسان البدائي الذي يعيش في الكهوف؛ هي حياة الدواعش، وآكلي لحوم البشر «الحياة هي كل ما وجدنا عليه أنفسنا من حيوانية، من غرائز ودوافع ... سابقة على الطبقة الإنسانية أو المؤنسنة[583]».

المذهل أن الكاتب يضع، ضمن لائحة هذه البشاعة والحيوانية الشرسة، صفات إنسانية راقية، مضادة لها رأسا. والجملة التي كتبها بتمامها جاءت على هذا الشكل. أعتذر على شلاّل الظفرين، لكنها ليست مني، وإنما من الكاتب نفسه، وهذه عادة متأصلة في الهايدغيريين، حيث لا تقرأ جملة من نصوصهم دون أن يغرقوك في الظفرين. جملة المسكيني هي هذه: «"الحياة" هي كل ما وجدنا عليه أنفسنا من حيوانية دفينة، من غرائز ودوافع وحرّيات ورغبات وآمال وطاقات ولذّات وذكاء وحقوق، سابقة على الطبقة "الإنسانية" أو "المؤنسنة" والتي ندعوها "تخلّقا" بأخلاق "أفضل" أو "حسنى" أو "مثلى"[584]».

582- ن. م، ص، 9.

583- ن. م، ن. ص.

584- ن. م، ن. ص.

لكن ثمة قوة صاعدة مهيبة بدأت تَعِي ذاتها وتتصدّى لهذا العالم الوحشي، وتُحاول إفشال **مخططاته**: إنها الحداثة، بكلِ ما تحمله من مكتسبات جليلة كالديمقراطية، والعدالة والمساواة. وكما هو معلوم فإن نيتشه قاوم بكل جهده هذه المبادئ بالذات واعتبرها سيرورة مأساوية نحو الانحطاط. أما المسكيني، الذي يعيش في القرن الواحد والعشرين، وكان من المفروض أن يقبل هذه المبادئ ويُثمّنها، فقد انتفض ضد الحداثة، واتّهمها بأنها فعلت شيئا منكرا فضيعا، ما كان لها أن تتجرّأ على فعله بتاتا. فيما يتمثّل هذا الفعل المُنكر؟ في إنشاء مُعجم للقيم، يقول لنا المسكيني، «**ردَمَ الهوّة بين أخلاق الأسياد والعبيد على نحو مخاتل وماكر ومنافق**[585]». والحال أنه كان من الأفضل لو بقيت قائمة تلك الهوّة السحيقة أو تعمّقت وغارت أكثر فأكثر، لكي يمارس الأوّلون هوايتهم في البطش والاستعباد، ويبقى الآخرون في أسفل سافلين. حداثة بغيضة، لم تُفرز لنا إلاّ أفكارا كهنوتية «**من قبيل المساواة والحس الد يمقراطي والواجب والضمير المهني والاحترام**[586]».

يا سلام على الفكر الفلسفي الراقي! يا لروعة هذا التحليل ورشاقته! كم كانت تخريبية ومُشينة هذه الحداثة! فبَدَل أن تترك الهوّة سحيقة بين العبيد والأسياد رَدَمَتها، وعوض أن تُسرّح الغرائز البدائية كَبَتَتْها، وهذه جريمتها التي لا تُغتفر. بعيدا عن هذا السقوط المذهل، أنا أسأل هل هذا هو الإنجاز البارز الذي قامت به الحداثة؟ ألم تجلب لنا العلم وتُحرّرنا من الجهل؟ ألم تجتهد في نقض الأديان وتخليص البشرية من خرافاتها؟

أهل الأفكار الحديثة مُصابون بشلل الارتعاش (*paralysis agitans*)، كما ترجمها المسكيني، ثم أضاف إنها في الطبّ الحديث تُسمّى "مرض باركينسون". إلاّ أن هذه السّبة الفظيعة التي يقصد منها احتقار الحداثيين تحوّلت عند المسكيني إلى مُجرّد دعابة، إلى «طريقة ساخرة في نقد قِيم الحداثة[587]».

وما هي هذه القيم التي ينتقدها نيتشه؟ هذه القيم يردّها المسكيني بالأساس «إلى قرارات من هذا القبيل: 1. **رفض التراتب** بين الأنماط البشرية؛ 2. نبذ أيّ قِيم **تُدَافع عن المعاناة** البشرية؛ 3. الدفاع عن **قيمة المساواة** الأخلاقية السياسية؛ 4. الحس

585- ن. م، ن. ص.

586- ن. م، ن. ص.

587- ن. م، ص، 209. ملاحظة 5.

الد يمقراطي؛ 5. **الشفقة على المُعذبين**[588]». إذا قرّرتَ رفض الهرمية وإذا دافعت عن الضعفاء وإذا تبنّيتَ قيم المساواة، وإذا كنت ديمقراطيا، إذا أشفقت على المعذبين، فأنتَ حيوان حداثيّ، عدميّ، لا تساوي بَصلة. فعلا، السيد المسكيني يكتب هذه الأشياء في أسلوب يراوح بين العرض المتجرّد والمُصادَقة العلنية. قيم الحداثة يحكم عليها نيتشه بأنها «تُربة خصبة للعدمية: فقدان كلّ القيم صلاحيتها ومجيء "الإنسان الأخير"، الحيوان العدمي الذي لم يعد يحرّكه أيّ هدف كبير على الأرض[589]».

(بآب)

ولنا أن نتصوّر مفعول هذه الأفكار ومدى خطورتها على أذهان طلبة الجامعة المبتدئين الراغبين في تعلّم الفلسفة؛ أفكار وتنظيرات قادرة على ادخالهم في نفق مظلم: يريدون تعلّم الفلسفة والتمرّن على الفكر الراقي وإذا بهم يتعلّمون أن المساواة ضغينة، وأن الحس الد يمقراطي هو سطحية وأن واجب احترام القوانين عبودية، وأن الضمير المهني لا قيمة له، وأن احترام كرامة الإنسان هو كهنوت، وأن الإلحاد النظري لا يُعوّل عليه «من أجل حلّ لغز قيمة القيم الأخلاقية لوجودنا على الأرض[590]»؛ وأن فيلسوف النقد، إ يمانويل كانط «هو البطل النموذجي عن هذا النجاح اللاهوتي المقنّع. النجاح اللائكي في إقامة كهنوت عقلي بلا طقوس[591]».]

وأكثر من ذلك وأشدّ وقعا على حساسيّتنا الفلسفية، الحظر الذي يضربه نيتشه (والمسكيني) على حقنا في استعمال الكلمات لوصف الأشياء، والقول مثلا للإرهابي إنه إرهابي، وللقاتل قاتل، وللتفجيري إنه شرير عدو الحياة، وللطّبيب الذي يشفي مريضا إنه محبّ البشر، وللفيزيائي الذي يكتشف قانونا طبيعيا إنه عالم صالح. ممنوع علينا النطق بهذه الكلمات، أو إجراء أيّ تقييمات للأشخاص من خلال أعمالهم وما يقدّمونه من صالح للبشرية، هذه يسمّيها المسكيني "تقويمات سقيمة وباهتة، منافقة". والسبب في ذلك أنها «لا تريد الحسم الأخلاقي في مرتبتها من إرادة الاقتدار: هل تريد السيادة أم تريد العبودية». يعني نحن في فوهة الاعتباط واللاأخلاق، ومع ذلك لا

588- ن. م، ن. ص.

589- ن. م، ن. ص.

590- ن. م، ص، 16.

591- ن. م، ص، 10.

تعني له شيئا لأن كلام نبيّ زرادشت أغلى من أي قيمة أخلاقية وإنسانية. ولذلك لا ضرر إنْ تركنا الحبل على الغارب، وقلنا للإرهابي إنه إنسان صالح شجاع، وللمُسَالم إنه طالح جبان، أو مَدَحنا حتى الانتحاري التفجيري، لا ضير في ذلك لأن المعيار غير موجود لا في عالم العقل ولا في المعاملات وإنما تُقرّره إرادة القوة على هواها: «لا معنى لأنْ نقول عن شخص ما إنه **سيّء** أو إنه **حسن**، وإنه **جيّد** أو إنه **رديء**»، ولا معنى أيضا للتقابل «بين **الخيّر والحسن** أو بين **الخيّر والجيّد** أو بين **الشرّير والسيّء** أو بين **الشرّير والرديء**[592]».

إن الكتاب الذي نحن بصدده، أعني **جينيالوجيا الأخلاق**، لَهُو أكثر كتب نيتشه همجية وافتراسا وقبحا ولا أخلاقية ومعاداة للإنسانية، يخبو أمامه "أمير" ميكيافلي، ويغدو "وحش" هوبز (اللّفياثان)، بالمقارنة مع عنصريّته وقسوته وجنونه، لَعِب ذراري.

ولا تظنّوا أن جرد الشرائع التي قال إن الألمان القدماء كانوا يطبقونها هي إدانة لتلك القوانين، بل هي ثناء، وفي نفس الوقت تغبّن على فقدانها في العصر الحاضر. ولكن هذه السلسلة الفظيعة من الشناعات تُمارس الآن أمام أعيننا من طرف داعش وأخواتها، ولو كان نيتشه حاضرا لسعد وهلل لهذا الفتح العظيم، ولفقأ عيون نقاده وقال لهم: أرأيتم؟ ألم أكن على حق في قولي بأن الغرائز والوحشية هي طبيعة جيّدة لا يمكن التحرر منها بتاتا؟ نيتشه يذكّر الألمان والأوروبيين بماضيهم: «لنتذكر العقوبات القديمة في ألمانيا التي كان من بينها الرّجم (نجد في الأسطورة إسقاط الرّحى على رأس المذنب)، والعجلة، والتعذيب بالخازوق، والتقطيع وتمزيق الأوصال بواسطة الجياد، واستعمال الزيت والخمر في درجة الغليان لتعذيب المحكوم عليه ... والسلخ، وتقطيع الصدر[593]».

نيتشه يضعهم أمام فضائل عظمى ما كان عليهم أن ينسوها أو يتخلّوا عنها بتاتا. فهو يريد أن يُدخِل في ذهن القارئ أن التعذيب هو أجمل وأروع تصرّف بين الدّائن والمَدين. يقول ذلك هو نفسه ودون مواربة، ويَتحسّر على الزمن الجميل الذي كانت فيه المعاملات حفلات تعذيب: «كان باستطاعة الدائن أن يُتلف جسد المدين ويُعذبه

592- ن. م، ص، 10.

593- نيتشه، **جنيالوجيا الأخلاق**، ترجمة الناجي،3 § ، II، ص، 53.

كما يَحلو له: كأنْ يُقطّع منه جزءا متناسبا مع أهمية الدّيْن. وارتكازا على هذه الطريقة في النظر إلى الأمور ظهرت باكرا تقديرات مضبوطة، شنيعة في دقتها أحيانا، تقديرات لها قوة القانون، بشأن مختلف أجزاء الجسم وأطرافه[594]».

بماذا يذكرنا هذا القانون؟ أليس بالقصاص الإسلامي؟ أليس بحدّ الحرابة الفظيع؟ تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، وصلب في الشوارع، كما تفعل داعش في الرّقة والموصل؟ أجل هو كذلك، ونيتشه يهتز إجلالا لهذه الشناعات المقنّنة ويقول: «إنني أنظر إلى مرسوم قانون الألواح الاثني عشر على أنه تَقَدُّم ودليلٌ على تصوّر قانوني أكثر تحرّرا ورُقيّا ورومانية، وهو مرسوم يقول إنه لا يكترث إن أخذ الدائن في هذه الحالة أكثر من دينه أو أقلّ؛ لا يهمّ إن أخذ كثيرا أو قليلا ... بدل تعويض مالي أو عقاري أو بملكية ما، يُعطَى الدائن نوعا من **الارضاء** ... **شهوة الايذاء حبّا في الايذاء، والاستمتاع بممارسة العنف**، وتكون هذه المتعة أكبر كلّما كانت المكانة الاجتماعية للدائن مُتَدنّية وحاله متواضعا، لأن الجزاء سيبدو له حينها أشهى وألذّ وسيمنحه شعورا مسبقا بمرتبة اجتماعية أعلى ... الخ[595]».

وهكذا فإن نبي زرادشت يقدم لنا أعمال افتراس البشر والعبث بأجسادهم، يعني التمثيل بهم، على أنها أشياء جميلة رائعة، ويتغبّن على غيابها الآن في الغرب، مُتَمَنّيا عَوْدَتها من جديد.

لقد تحوّل هذا الرجل إلى دراكولا عصره، يجوب المقابر ويشرب دماء الأموات، وليس ما يكتبه قابعا في عالم الافتراض أو استيهامات لاواقعية، بل يكفي نقرة على يوتوب، حتى نراها تمرّ أمامنا في عرائها وبشاعتها، يقوم بها الإرهابيون المرتزقة في سوريا والعراق. يقول إن «**الإيلام يَمنح لذة لا تنتهي ... يصير التعذيب عيدا حقيقيا!** (**ein eigentliches Fest**) يتم الاستمتاع به أكثر كلما كان الوضع الاجتماعي... **القسوة هي التسلية المفضّلة** عند الإنسانية البدائية وكيف كانت تشكل عنصرا في كل ملذاتها، ومن جهة أخرى كم تبدو حاجتها للقسوة ساذجة وبريئة، وكم يبدو الخبث المجاني لديها صفة عادية من صفات الإنسان، أي شيئا يمكن للضمير

594- **جنيالوجيا الأخلاق**، 5 § ، II، ص، 55.
595- ن. م، ص، 56.

أن يقبله عن طيب خاطر[596]». نيتشه يصف لنا ساحة من ساحات السعودية التي تُقام فيها حفلات القتل الأبشع ، بعد صلاة الجمعة، أو بعد التراويح، أو بعد عيد النّحر: «لم يكن ممكنا، منذ أمد ليس ببعيد، أن نتخيّل زفافا أميريّا ولا حفلة شعبية رفيعة المستوي يغيب عنهما **الإعدام** أو **التعذيب** أو **الإعدام حرقا**».

وكأن بالمسكيني لم يقرأ هذه المقاطع الوحشية؛ وكأن لم تَمُرّ أمام عينيه هذه الجملة السادية الخالصة: «**رؤية الآخر يعاني تُنعشنا، وإيلامه يُنعشنا أكثر**[597]».

أمام هذه الشناعات التي تقشعرّ لها الأبدان، ماذا فعل نيتشه؟ سد علينا منافذ الكلام وحَظَر علينا حتى أن نُسمّي الأشياء بأسمائها، لأننا لسنا أقوياء، وغير **مخوّلين** بالتالي لسَكِّ الكلمات، فهذه خاصية يمتاز بها الأسياد فقط: «حقّ السيّد الذي بموجبه تتمّ **تسمية الأشياء** يذهب أبعد من هذا بحيث يمكننا اعتبار **أصل اللغة نفسه بمثابة فعل سلطة** يصدر عن **الحاكمين**. يقولون: "هذا الشيء هو كذا وكذا"، يربطون الشيء والحدث بكلمة ما، فيتملّكونه[598]».

وبما أن نيتشه يعتبر نفسه سيّد الأسياد، فقد أجاز لنفسه، بكل اعتباط، تَسْمِيَة الأشياء بعكس أسمائها، وقد فعّل براعته الفيلولوجية فأخرج لنا في الفقرة الخامسة من المبحث الأول مُرَكَّزا من العنصرية ضد شعوب البحر الأبيض المتوسط. قال إنه من خلال الكلمات والجذور فإن معنى كلمة صالح هو الإنسان النبيل، وكلمة آري، تعني السيد، القوي أو الرئيس، وهذا المعنى نجده في الفارسية والسلافية. لقد ماهت الشعوب القوية بين الكائن الحقيقي الواقعي والصادق، مقابل الإنسان العامي الكاذب. أما كلمة كاكوس اليونانية (κακος)، سيّء، مثلها مثل كلمة جبان، تحمل معنى النذالة وتشير إلى العامّي. وكلمة مالوس اللاتينية (malus)، الشرير، ترادف الرجل الأسود باليونانية، تبعا للونه الداكن وشعره الأسود، وهو الساكن الأصلي لإيطاليا قبل أن يجتاحها الجنس الآري الأشقر الذي سيصبح السيد.

596- ن. م،6 § ، II، ص، 56 57.

597- ن. م. ص. 57.

598- ن. م، ص، 20. ترجمة المسكيني كالتالي: «إن حقّ الأسياد في إعطاء الأسماء إنما يتّسع إلى حد أنه قد يجوز للمرء أن يُعيّن أصل اللغة ذاتها بوصفه تجلّيا لقدرة أصحاب السيادة: هم يقولون «هذا هو كذا وكذا»، هم يختمون على كل شيء وعلى كلّ حدث بنبرة ما، وبذلك هم يأخذونه بوجه ما في حوزتهم». نيتشه، في **جينيالوجيا الأخلاق**، ترجمة فتحي المسكيني، م. س، ص، 46.

وبعد تحليل مسترسل، يأخذ من الخابية ويصبّ في الجابية، يستنتج أن كلمة الرجل الصالح والنبيل والخالص كانت في الأصل تعني الرجل الأشقر المناقض للأهلي الداكن اللون ذي الشعر الأسود.

إن براعته الفيلولوجية التي أذهلت حذاق القوم من الفيلولوجيين يُفتّقها هنا: «أظن أنه باستطاعتي تفسير الكلمة اللاتينية "صالح" (bonus) بكلمة "المحارب"، مفترضا أني بذلك سأرجعها إلى شكلها القديم الذي هو المبارزة (duonus) (قارنوا بين الحرب (bellum) وبين أسمائه القديمة "duellum" و "duen-lum" التي أراها قد حافظت على المبارزة). وبهذا يكون الصالح هو رجل المبارزة، رجل المنازلة (duo)، هو المحارب: نرى هنا الشيء الذي كان يشكل "صلاح" إنسان روما القديمة. وكلمة صالح (gut)" الألمانية نفسها ألا تعني الرجل الرباني، الرجل الذي استخلصته العناية الإلهية؟599».

على أساس منطق نيتشه ومن خلال علمه الفيلولوجي فإن الداعشي القتّال، أو التفجيري الذي يحصد الأرواح حصدا، هو رجل خيّر صالح، لأنه يكفي أن يكون محاربا حتى يكون كذلك.

(تآت)

إن نموذج الارستقراطي النيتشوي، ولا أكلّ من قول ذلك، يتجسّد في الإرهابي الإسلامي القتّال الوحشي، لأن مواصفاته، كما يُصوّرها نيتشه، تنطبق عليه بالتمام: «بِنْيَة جسمانية قوية . . . صيانة هذه القوة الطافحة عن طريق: الحرب، المغامرة، الَصيد، الرقص، الألعاب والتمارين الرياضية، وعموما كل ما يتطلب نشاطا قويا وحرا ومرحا[600]»].

أما مُعاداته لليهود فإن الرجل لم يتزحزح عنها طوال حياته، وتبدّت منذ كتاباته الأولى في فترة الشباب، على أساس تهمة ثابتة استقرّ عليها هو وأعداء السامية عموما، وهي أن اليهود هم أضداد الأرستقراطية؛ جبناء كلّهم، يخشون الحرب ويعتبرونها كارثة: «إن كل ما وُوجِه به النبلاء والأقوياء والسادة وأصحاب السلطة لا يُعدّ شيئا

599- نيتشه، **جنيالوجيا الأخلاق**، ترجمة محمد الناجي، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 2006، I، § 5، ص، 24.
600- ن. م، I، § 7، ص، 26.

إذا ما قورن بالذي واجههم به اليهود: هذا الشعب الكهنوتي الذي لم يجد في نهاية المطاف ما يشفي غليله من أعدائه والمسيطرين عليه سوى قلب جذري لكل القيم، أي ممارسة انتقام مُرَوْحَن جدا. وحده شعب الكهنة يستطيع فعل هذا، هذا الشعب الذي نجد لديه انتقاما كهنوتيا مستبطنا جدا. اليهود هم من تجرّأ، وبمنطق مخيف، على قلب المعادلة الأرستقراطية لقيم (صالح، نبيل، قوي، جميل، سعيد، محبوب الآلهة)، وقد حافظوا على هذا اللقب بضراوة حقد لا حد لها (حقد العاجزين) [...] من الحقد اليهودي، وهو أعمق وأسمى حقد عرفه العالم، من الحقد المبدع للمثال، من الحقد الذي يغيّر العالم، الحقد الذي لم تعرف له الأرض مثيلا...[601]».

على رأي نيتشه اليهودي المسالم الذي يناصر الشعب الفلسطيني ويعادي الدولة الصهيونية العنصرية، يَبقى بما هو كذلك، إنسانا ارتكاسيا قبيحا، حقودا، سافلا، أجدر به أن يُفني نفسه ويخرج من الوجود. أليس هذا معاداة للسامية؟ أليس عنصرية فاضحة؟ رغم أن النص صريح وهو قطرة من بحر نصوص نيتشه التي تعج بكليشيهات معادية لليهود فإن المسكيني يَنفي ويحتجّ، وهو مجبر على ذلك لأنه لو انهار نيتشه لانهار هايدغر ولانهارت الفلسفة برمتها. يقول إن موقف نيتشه من اليهود «ليس عرقيا أو عنصريا أو معاديا للسامية[602]».

ما موقفه إذن؟ تصوّروا إجابة المسكيني: إنه «موقف تأويلي»، وموقف تأويلي يعني أن تتلاعب بالكلام على هواك لكي تقول كل شيء وعكس كل شيء، أن تهوي في تناقض قاتل، ثم تنهض وتهوي مرّة أخرى؛ أن تعتمد في نفس الجملة الأطروحة والنقيض دون احترام لأبسط قواعد المنطق ودون الاكتراث بمن يحيط بك من السّامعين والقرّاء. المسكيني يعلّق على عنصريّة نيتشه بكلام يصبّ في نفس المَصبّ: «إن اليهود قد صاروا الشعب المختار عندما اخترعوا تقنية الكهنوت كضرب ارتكاسي من إرادة الاقتدار، عندما استعاضوا عن **شعب من الأحرار بشعب من الكهان**[603]».

ما مصداقية كلام نيتشه؟ ما أدلّته التاريخية وما مبرراته اللاهوتية؟ متى وأين وكيف أصبح اليهود كذلك؟ ألم توجد من قبلهم شعوب أنتجت كُهّانا وشَيّدت معابد

601- ن. م، I، § 8، و § 9، ص، 27 28.

602- مقدمة ترجمة، نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، م. س، ص، 55، ملاحظة، 2.

603- ن. م، ن. ص.

ودجّنت أتباعا؟ لا جواب، لا من طرف نيتشه ولا من قِبَل المسكيني. لكي يخرس الجميع ويسدّ أمامنا أي منفذ للحكم على أفكار نيتشه فإن السيد المسكيني يُحذرنا من مغبّة أيّ فَهم «أخلاقوي لكتابات نيتشه». فإذا نقدَ العقلَ والتنوير، وإذا سحل المفكرين الأحرار، وعارض الملحدين واستهزأ بكارهي الاكليروس، من أمثال فولتير وديدرو، يجب علينا أن نبتلع كلامه ونصمت، لأن كلام نيتشه قرآن مُنزّل: حمّال أوجه، وربما لا يعلم تأويله إلاّ الله.

الممنوعات التي وضعها المسكيني على فكر نيتشه هي هذه: «أن نعتبره معارضا يائسا للأنوار الحديثة، أو داعيا خطيرا إلى البربرية أو عدوّا للسامية أو قوميا متعصّبا أو جماعويّا حزينا ضد المكاسب الحقوقية للدولة الليبرالية[604]». لكن النص الذي بين يديه، وقد ترجمه هو نفسه إلى العربية، يحتوي على كل هذا، ولا تخلو صفحة، من معارضة للأنوار، من تمجيد للبربرية (يجب قتل المرضى وإبادة المشوهين)، من عداء للسامية، من التعصب للجرمانية، من عنصرية تجاه ذوي البشرة السوداء، معاداة للديمقراطية، للمساواة، للعدل ...الخ.

نيتشه نفسه يبدي عنصريّته بكل وضوح حينما يتغبّن على وضعية الإنسان الأشقر ذي البشرة البيضاء، من خطر العرق الوضيع الذي بدأ في التكاثر واستعادة تفوّقه بلونه الداكن وشعره الأسود، بالإضافة إلى صِغر جُمجمته. فالخطر محدّق، والمآل المحتوم، لو لم تتخذ التدابير العاجلة، سيكون وخيما جدا، لأن هذا الإنسان الأسود سيقضي على الآري من خلال الديمقراطية الحديثة والاشتراكية.

هذه الأفكار المُختلّة، العنصرية، والمعادية للأنوار، غابت عن أتباعه تماما، بل بلغ بهم الاستهتار حدّ ادّعاء أن نيتشه بشّر بأنوار جديدة، وجدّتها تكمن، حسب رأي المسكيني، في أنها لا تُعادي الدين، بل تعادي الإلحاد، وبالتالي فإن نيتشه «يمارس **أنوارا جديدة** يَدفع بها بعيدا عن أيّ **أنوار سابقة**، بما فيها تلك التي سُمّيت راهنا باسم الأنوار الجذرية، وهي ليست جذرية إلاّ بقدر ما تظنّ أن **الإلحاد الحديث** هو الطور الأعلى من كل غريزة حرية. والحال أن **نيتشه قد فضح حتى الإلحاد نفسه** بوصفه لا يملك توضيحا جذريا حول قيمة الحرية التي يفاخر بها. إن **الإلحاد** لم يكن إلى حدّ الآن إلاّ

604- ن. م، ص، 10.

إيمانا أو **مثالا نُسكيا** مقلوبا: **استيلاء صفيقا** على مكان الإله الأخلاقي الذي صار شاغرا...[605]».

لم أر ملحدا في حياتي تفوّه بهذه الكلمة: «**يجب القضاء على المتسوّلين** (Man soll die Bettler abschaffen)»؛ بدل القضاء على التسوّل، أو على أسباب الفقر والحرمان. وتصوّروا ما جنس التّعلّة التي قدّمها نيتشه لتبرير هذه الإبادة الجماعية. إنها تعلّة عبثية وتافهة جدا: يجب قتل المتسولين جميعا لأننا «**نغضب لإعطائهم ونغضب لعدم إعطائهم**[606]». ولم أر اشتراكيا اقترح، لحل المشكلة الاجتماعية، القضاء على الضمان الاجتماعي[607]، ورفع يد الدولة عن إدارة الشأن العام، أو إرسال العاطلين عن العمل والمجرمين إلى الخارج لاستعمار البلدان وممارسة إجرامهم على الشعوب الأخرى[608]؛ ولم أر مفكرا تنويريا واحدا أثنى على المسيحية لكونها أدخلت عقيدة الحياة بعد الموت، والعذاب الأخروي الفظيع [609].

لكن نيتشه فعل هذا وذاك، وذهب إلى حدود قصوى في مدح التعذيب والوحشية والجنون[610]، ومع ذلك يواصل مفكرونا غض الطرف، وخوض غمار تأويل رحيم، لكي لا أقول تزويري فاضح، يتضارب رأسا مع صريح كلام نيتشه. إنها وضعية مأساوية جدا، وتتبدّى في عرائها من خلال اعتراف مترجم هذا العمل نفسه، الذي يقرّ بأن ثمة في نص نيتشه "نقد مقذع لليهود" «كما في الفقرات 7 و 16 من المقالة الأولى أو ملاحظاته على لون هذا الشعب أو نسَبه كما في الفقرة 5 من نفس المقالة[611]»، لكنه يصرّ، بصيغة جدّ عنيدة، أنه «على عكس كل ما توحي به نصوص نيتشه من أحكام أخلاقية مسبقة ... فإن نيتشه ليس معاديا للسامية ولا داعيا للميز العنصري[612]».

605- ن. م، ص، 10 11.

606- نيتشه، **الفجر**، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2013، §185، ص، 133.

607- **الفجر**، § 179.

608- **الفجر**، § 206.

609- **الفجر**، § 72، ص، 56.

610- بخصوص الجنون، انظر، **الفجر**، § 14، ص، 21.

611- مقدمة المسكيني لترجمة **جينيالوجيا الأخلاق**، م. س، ص، 11.

612- ن. م، ص، 11.

(ثآث)

وعلى الرغم من كل ما تضمّنه فكر نيتشه من قسوة واستخفاف بأبسط القيَم الأخلاقية، فإن السيد المسكيني يدّعي بأن نيتشه هو استثناء في العالم، استثناء «ليس فقط في تاريخ الفلسفة بل في تاريخ السؤال عن مصير البشر أنفسهم». لكن التصعيد يصل إلى مداه الأقصى في قول المسكيني بأن نيتشه ليس واحدا بل متعددا، تقريبا إله، مثل إله المسلمين، له تسعة وتسعون اسما. هذه ليست دعابة وإنما حقيقة مُرّة: اسم نيتشه، يقول المسكيني، «يظل يُشير إلى شخوص معنوية عديدة أخرى أكثر إثارة، وأكثر خطورة[613]»]

ومَن الذي أطلق عليه هذه الأسماء؟ نيتشه نفسه، يُجيب المسكيني، «**أسماء سمّاها بنفسه**»، وبالتالي يجب مجاراته فيها، لأن الأمر في غاية الجدّية والخطورة، فهي «**لا تترك لنا أيّ مجال لتفاديها** أو للحدّ من **قوّتها وفرادتها**[614]»؛ وأيضا ميزة نيتشه المتفرّدة الأخرى هي أنه أوّل فيلسوف في العالم «أطلق على نفسه كل هذه الأسماء[615]».

وقد تكرّم المسكيني على القراء العرب ببعض من أسماء نيتشه فعَدَّد منها 25 اسما حصرا، دون ذكرها بالكامل[616]. لكن الاسم الذي شد انتباهي هو الثالث في قائمة أسمائه الحُسنى: " **التابع الأخير للفيلسوف ديونيزوس**"، يعني آكل لحوم البشر، نيّئة. لستُ أبالغ اطلاقا، بل تجدونه عند نيتشه نفسه ويرويه لنا المسكيني بهذه العبارات. الاله ديونيزوس هو اسم إله في الميثولوجيا اليونانية ويعني حرفيا "الكائن في موضع آخر"، ولذلك فهو يجرّ أتباعه إلى خارج المدنيّة، وماذا يحدث هناك؟ «يتحوّل الوجود إلى ضرب من **الصّيد** المفتوح أو **القرم البدائي** إزاء كل ما هو **لحم**، فيختلط الحيوان

613- فتحي المسكيني، **الهوية والحرية**، نحو أنوار جديدة، جداول للنشر، بيروت 2011، ص، 178.

614- ن. م، ن. ص.

615- ن. م، ص، 180.

616- وهذه أسماء نيتشه الحسنى: «من أسماء، وهي كُثر، قال أنا: الفيلسوف الأخير أوّل فيلسوف تراجيدي التابع الأخير للفيلسوف دينويزوس مُعلّم العود الأبدي تابع إله لا يزال مجهولا زرادشت أنا أبو نفسي أنا مُنحطّ (je suis décadent) وأنا أيضا عكس ذلك تماما أنا لستُ موافقا للعصر: ثمة من يولد بعد موته أنا نقيض الحمار بامتياز أنا في اليوناني وليس في اليوناني فحسب، المسيح الدجال كان من الضروري أن أكون أيضا لبعض الوقت عالما أنا من يحمل الخَبَر السارّ أنا قَدَر أنا فرق فارق فرق رفيع أنا لستُ كائنا بشريا، أنا ديناميت أنا أوّل لا. أخلاقوي أنا المُدمّر بامتياز كائن تحت أرضي البربري الجديد العقل الحرّ الأمير الخارج عن القانون أنا حيوان خطير الشاعر النبي وأخيرا «النبيّ» ». ص، 180 183.

والبشر والآلهة في **سكرة أومُوفاجيّة** (omophagie) أي حيث **يُؤكل اللحم نيّئا؛** وهو ما جعل ديونيزوس يحمل من الأسماء «**آكل اللحم نيّئا**» (mangeur de chair crue)، بل بشكل أكثر صراحة: «**آكل اللحم البشري** (anthropophage)»[617]».

أكل اللحم نيّئا! أين رأينا هذا المشهد الفظيع؟ ليس في عَالم افتراضيّ أو وفي فيلم رعب هوليودي، بل في الواقع العيني، وقد قام به واحد من الإرهابيين المسلمين، يُلقّب «أبو صقار»، شقّ صدر جندي سوري وأكل كبده، مكبرا الله أكبر. ويظهر هنا أن نيتشه هو نبيّ كذاب، لأنه لم يلتزم بتعاليم إلهه، ولم نعلم عنه أنه أكل لحم البشر نيّئا، بل النبي الحق هو أبو صقار، وأعلام نبوّة ديونيزوس تنطبق عليه دون غيره. نيتشه، مسيلمة الكذاب، الذي يحرّض ويلهب المشاعر دون أن يفعل، تؤاتيه الأسماء الأخرى التي لقّب بها نفسه: مُنحطّ؛ أوّل لا أخلاقوي؛ كائن تحت أرضي؛ بربري جديد؛ حيوان خطير.

إلى هذا الحد وصلنا مع النيتشويين العرب؛ مهازل وفظاعات، وتخبط في كل الجهات، وفي الأخير تنفتح أمامنا أبواب الجحيم ونتفرّج على مشهد مفزع: أكل لحوم البشر نيّئة. ورغم هذه الشناعات فإن المسكيني يملك الجرأة للقول بأن نيتشه «**يُعبّر عن محبة جارفة للنوع الإنساني فينا**»، ودليله على ذلك هاتان الكلمتان الخفيفتان اللتان بعث بهما إلى كوزيما فاغنر: «**أريانا أنا أحبّك. ديونيزوس**». كيف يسمح لنفسه بأن يُرسل رسالة إلى امرأة صديقه بهذه النّبرة؟ كيف يجرؤ على اقتراف هذه الخيانة لذاكرة صديقه؟ لا تَهِنوا ولا تَحزنوا. بضَرْبَةٍ سحرية من السيد المسكيني تحوّلت أريانا فاغنر، من شخص مِن لحم وعظم، إلَى مفهومٍ كلّي مجرّد: «**أريان هي البشريّة التي أحبّها ديونيزوس**[618]».

تالله أنا لا أريد أن يحبّني هذا الاله القتّال! أن يعفيني من هذه المحبّة المريبة؛ أنَسِيَ السيد المسكيني ما قاله عن ديونيزوس من أنه «**آكل اللحم البشري** (anthropophage)»؟ وما الضامن لي من أنّ ديونيزوس هذا لن يُرسل حواريّيه لكي يصطادوني ويأكلوني نيّئا؟

617- ن. م، ص، 179.

618- ن. م، ن. ص.

كما قلتُ سابقا: مع النيتشويين نحن في بؤرة المهزلة والجنون، بل في ثقب أسود يشرب كل العقول[619]؛ فبعد كل هذه الفظائع ، يأتيك المسكيني ليقول لك، بكل أريحية: إن نيتشه هو نور العالم وإنه إله وابن إله، ويحق له أن يتأله. هذا ليس مما لا يمكن قبوله فحسب، بل مما يجب استهجانه ودحره بالكامل[620].

أمام هذا الإصرار والتعنّت لا يبقى لنا من حيلة إلاّ التجاهل، عدم الالتفات والمضيّ قدما في سبيلنا، دون الاكتراث بتأويلات البراءة الهزيلة. لكن ما أن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام حتى نرتطم برأس ساخن، يَسْحبنا في منحدرات تكاد تهوي بنا في قاع الجحيم.

(جآج)

أضخم كتاب ألّفه مفكر عربي عن نيتشه، هو كتاب محمد الشيخ بعنوان: نقد الحداثة في فكر نيتشه، نُشر بالشبكة العربية للأبحاث والنشر سنة 2008، ويقع في 758 صفحة. ورغم ضخامة هذا الكتاب فإنه يشكو نقائص كبيرة واختلالات لا يمكن أن تخفى على أي قارئ نَبيه. أوّلها الغياب الكلّي للمراجع، وثانيها أسلوب الخطابة والسجع، ثالثها وضع الكلمات بين ظفرين، وأخيرا السمة الطاغية على النص بأكمله هي غياب الحس النقدي وتمجيد نيتشه والإشادة بأفكاره إلى حدّ التقديس.]

الجُملة الأولى من هذا الكتاب الضخم هي خُلف منطقي وعبث فكري، إذا قرأتُموها فلا حاجة لكم بمُواصلة الباقي. يكتب الشيخ: «بيْنَنا وبين **فكر المفكر** الألماني فريدريش نيتشه **ألفَ حجاب وحجاب**[621]». وكيف لنا أن نتخلّص من الألف وواحد حجابٍ؟ كيف لنا نفهم «فكر المفكر الألماني» إذا كان المَسؤول عن هذا العدد الهائل من الحُجب هو نيتشه نفسه، كما يقول السيد الشيخ؟ يجب عليك أن تجول في دهاليز

619- العبارة للمسكيني، وصف بها آخر لحظات نيتشه: «كان ذلك آخر إمضاء له قبل أن يدخل في الثقب الأسود الذي لا يعود منه أحد ويشرب كل العقول». ن. م، ص، 192.

620- كلام المسكيني كالتالي: «كأن نور نيتشه لا يزال قادما إلينا كضوء نجم بعيد لا يكفّ عن المجيء رغم أنه انطفأ منذ آلاف السنين؟ لم يكن قتل الإله الأخلاقي ممكنا من دون فنّ تألّه حقيقي ... لا يمكن نقل هذه «البشرى السارة» إلى إنسانية مريضة وخائفة إلا على فم «نبيّ»». ن. م، ص، 192.

621- محمد الشيخ، **نقد الحداثة في فكر نيتشه**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2008، ص، 11.

مُدوّخة وأن تلج في كهوف دامسة لكي تتبّع أفكار نيتشه، وربما في النهاية لن تحصل على أي شيء. فعلا، الشيخ يُعْلمنا بأن فلسفة نيتشه هي «فلسفة كهوف»، وأن وراء كل كهف ثمة «كهف آخر يثوي خلفه أعمق من سابقه، وتحت كل سطح عالم خفيّ أوسَع وأغرب وأغنى وأرحب، وخلف كل الأعماق يختفي ثمة ما هو أعمق وأبعد غورا».

أنا أرى أن النيتشويين فقدوا صوابهم، ولا يدرون ما يقولون، يَدورون في حلقة مفرغة ويسحلون قراءهم في الحضيض، لأن مُعلِّمَهم فقدَ عقله هو بدوره، ولا يدري ما يقول. فبَعد كل الدهاليز والكهوف، وتَعمُّد إخفاء فلسفته، يُفيدنا السيد محمد الشيخ بهذه المعلومة، وهي أن نيتشه يكره القراء، يَزدريهم ولا يكتب إلاّ لنفسه. يقول إن نيتشه ما زال يؤكد استفراد كتابته واستتارها «حتى قال: «الحال أني **ما عدتُ أقدِّر القراء**. وكيف لي أن أكتُب إلى قراء؟ ما عُدتُ إلاّ لنفسي كاتبا»[622]».

إذن ألف حجاب وحجاب، كهوف ودهاليز مظلمة، شتائم مُقذعة للقراء، أمام هذه الاستهانة ماذا فعل السيد محمد الشيخ؟ عوض أن يترك هذا المُحتَقر ويعتني بالفلاسفة الجدّيين، كتب عنه كتابا ضخما لكي يَعرض فلسفته المُحجّبة الغائبة، ويُمجّده ويثني عليه، بأسلوب سجعي لا يليق بصناعة الفلسفة النبيلة. وهذه لقطة صغيرة من هذا الأسلوب واسحبوها على كامل الكتاب: «وما كنّا في هذا لحَقّ المتوسّطين **مُغضبين**، ولا لتآليفهم **مُهجّنين**، ولا للمتن **متعصّبين** ... إذ إننا ما كنّا **بَجاهلين** أن ما من قراءة إلاّ وهي قراءة **تأويل**، وأن من شأن قراءتنا أن تلحق بهذه **التآويل** ... لكن وجب التنبيه، ههنا، إلى أن **اتساق** كتابات نيتشه غير **اتساق النسق**، بل هو **اتساق** الشأن فيه تفادي **النسق**، بل **نسقيّتها** هذه نهضت ضد **النسق** وضد جاذبيّته التي لطالما أفلتَ منها نيتشه بشقّ النفس [623]». هذا غيض من فيض، فالكتاب كله، وطوال السبعمائة صفحة، محبوك على هذا المنوال المتصنّع الرديء.

أما محتواه فيغلب عليه، كما قلت، الخبط والخلط والتمجيد المفرط لتفاهات نيتشه، على شاكلة تأويلات الفلاسفة الفرنسيين المحدثين، وفيه تغييب فظيع لتاريخ الفلسفة، دون نسيان السّيل الجارف من الكلمات بين ظفرين. نظرية بروطاغوراس السفسطائي التي تقول إن الإنسان هو مقياس كل شيء، وأن العالَم لا قيمة له دون

622- ن. م، ص، 12.

623- ن. م، ص، 13.

حكم الإنسان أصبحت عند محمد الشيخ ثورة فكرية كبرى أنجزها نيتشه في الفلسفة ولم يسبقه إليها أحد. يقول إن في زرادشت يرى نيتشه «أنّ «الإنسان» إنما سُمّي «إنسانا» لأنه قوّم الأشياء وقدّر قيمتها ووزنها ووضع لها ثمنها: فهذا «أمر رفيع» وذاك «شأن حقير»، وأوّل «أشرف» وثان «أخسّ»، وبَديّ «مطلوب»، وثَنيّ «متروك»، وهذا «أرفع قدرا ومكانة»، وذاك «أخفض ذلاّ ومهانة» ... إن الإنسان إلاّ «الكائن المقدّر» أو «الكائن المُقوّم» بامتياز؛ أي الكائن الذي أقام للأشياء أقدارها وأوزانها؛ بمعنى أنه الكائن الذي وهبها معانيها الإنسية. ولولا أن ملأ الإنسان الوجود بتقويماته وقياساته لما كان الوجود برمّته سوى «قشور لا نواة فيها» ... والأمر نفسه جدد نيتشه القول فيه في كتاب الجينيالوجيا؛ إذ تحدّد عنده «الإنسان» بما هو الكائن الذي شأنه أن «يقيس» و«يقوّم» و«يَزن» و«يقدّر» [...] وبهذا اجتمعت لك أسباب إطلاق القول: إن نيتشه نظر إلى الإنسان وفيه، أساسا، من جهة كونه «الكائن المُقوّم»[624]».

أنا لا أدري ما الفائدة من وضع كل هذه الكلمات بين ظفرين؟ ما المغزى الفلسفي من اغراق النص بهذه الشارات؟ ثم لماذا كل هذه الخطابة المطوّلة والتزويق اللغوي لقول جملة واحدة: «الإنسان كائن مُقوّم»؟ وجوابه تجدونه عند الكاتب نفسه: «**تلك لَعَمْرنا كانت ثورة أحدثها نيتشه في الفكر الفلسفي ما سَبقه فيها من أحد**[625]». لكن هذه سفسطة وعينها حمراء، إنها أحكام هشة معدومة الحس التاريخي، لا يمكن أن تصمد أمام بحث بسيط، وبإمكان أيّ طالب مبتدئ في الفلسفة أن يفتح كتاب تاريخ الفلسفة، لإميل برهييه مثلا، الجزء الأول، كي يطّلع، من خلال الشذرات التي وصلتنا عن بروطاغوراس، على مثل هذا الحكم[626].

لكن الرجل ماض قدما في سبيله يعدّد لنا فضائل نيتشه وثوراته التي لم يسبقه إليها أحد في الفكر الفَلسفي. وقد وقع اختياره على «العود الأبدي»، وهنا فإن السيد محمد الشيخ فتّق مواهبه في الإشادة بفكرة كان قد افترضها ديموقريطس قبل نيتشه بألفي سنة. لكن قدّمها بتصور نقيض للعود الأبدي تماما، ومفاده أن الأشياء تصير

624- ن. م، ص، 18.

625- ن. م، ن. ص.

626- إميل برهييه، **الفلسفة اليونانية**، ترجمة جورج طرابيشي، الطبعة الثانية، بيروت 1987، ص، 108. «... يشهد عليها المطلع المشهور من كتاب بروتاغوراس: «الإنسان مقياس الأشياء طرا، مقياس وجود الموجود منها ومقياس لا وجود اللاموجود منها»».

وكفي. وهذا، حسب رأيه، هو الموقف الأشجع والأنبل بالنسبة لنيتشه. غنيّ عن القول أن «كل الأشياء في صيرورة دائمة (Παντα ρει)» عبّر عنها هيراقليطس، قبل نيتشه بعشرين قرنا. لكن الشيخ لا يتفطن إلى التناقض بين الأطروحتين ويواصل قائلا: «وقد عَلقَت بهذه الفكرة فكرة أخرى كانت بالقياس إليها سند السّند: هي فكرة «**العود الأبدي**»َ. وهي فكرة أجراها نيتشه على كل مدارات الحياة فكرا وتاريخا[627]».

لكن هذه سفسطة واضحة، هذا تناقض مريع ولا يمكن أن يمرّ علينا بسهولة، لأن الصيرورة، أو الوثبة المتجاوزة لنفسها باستمرار تتضارب مع الحركة الدائرية العائدة أبدا. إن هيراقليطس وديموقريطس، كما قال فوييه، «يتعاركان في الرأس الساخنة لزرادشت[628]».

ولسائل أن يسأل كيف يمكن لفكرة ميتافيزيقية عتيقة، تحتاج هي نفسها إلى تبرير منطقي وبرهان عقلي أن يُحكم بها على الحياة والتاريخ؟ السيد الشيخ لم يَطرح على نفسه هذا السؤال، ولم يَدُر بخلده إطلاقا أن يتسلّح بسلاح العقلانية الناقدة، والتمعّن الجدّي في مشروعية هذه الفكرة ومسوّغاتها الفلسفية. لكن على العكس من ذلك أبدى تقبّلا سلبيا تاما لهذه الفكرة التي وصفها دورينغير بأنها «قمّة الهراء» (*Gipfel des Unsinns*)[629]، وأردفها بنَوْبة من الإشادة والتمجيد والتّطبيل انتهت به إلى سحق ملكة التفكير النقدي. وهذا نَصّ محمد الشيخ، واحكموا أنتم بأنفسكم: «إن **أهول أنواع المطرقات التي هوى بها نيتشه على فلسفة التاريخ والأخلاق والمجتمع** وما أكثرها عددا وأشدّها إيلاما! التي بواسطتها أثبت ما سماه «براءة الصيرورة» من كل «علّية» أو «غائيّة» أو «بُغية» وخلوصها من أي «معنى» مسبق أو «حكم» أخلاقي أو «دلَالة» لاهوتية ... **إنما هي مِطرقة «العود الأبدي»**[630]».

العود الأبدي مطرقة! العود الأبدي أهول المطرقات التي لم تعرف لها البشرية مثيلا والتي هشّمت ثلاث فلسفات بضربة واحدة! هل بالغتُ حينما قلتُ إن النيتشويين فقَدوا صوابهم، ودخلوا في حالة هستيريا؟ وكيف لا وهم في سكرة تمجيدهم لا يجرؤون على اتخاذ مسافة نقدية من النصوص التي بين أيديهم، أو التفكّر المَليّ في ما

627- محمد الشيخ، **نقد الحداثة**، م. س، ص، 22.

628- A. Fouillée, « Notes sur Nietzsche et Lange. Le retour éternel », in Revue philosophique de la France et de l'étranger. An. 34. Paris 1909. T. 67, p. 525

629- A. Düringer, Nietzsches Philosophie und das heutige Christentum, p. 51.

630- محمد الشيخ، **نقد الحداثة**، ن. م، ن. ص. وقد أعاد تكرار هذه الفقرة حرفيا في الصفحات: 113 114.

يقولونه وتَدبّر ما يُقدّمونه للقراء العرب. السيد الشيخ يهرول دون أن يلوي على شيء ويواصل، بوتيرة متصاعدة، في الإشادة بالمطرقة، وتعداد الأعمال الجليلة التي استطاع نيتشه أن يُنجزَها: «**بهذه المطرقة تخلّص نيتشه من خاصّ خاصّ فلسفة التاريخ:** من الولع بالَبحث عن «الأصول» إلى وسواس الكشف عن «الأسباب» و«العلل»، ومن هاجس تمثّل «الغايات» إلى مطلب «التعقيل» وإضفاء «المعنى» حيث لا مقام له... إن فكرة العود الأبدي ... كَفتْ وحدها لتبديد فلسفة التاريخ وأغنتْ[631]».

إذن، فكرة ميتافيزيقية غائمة، لا برهان عليها ولا دليل، تحوّلت إلى مطرقة رهيبة، وبضربة واحدة كَفَتْ لتهشيم عمارة كاملة وتفتيتها إلى حصى وتراب. إننا في عالم الصُّوَر المتحرّكة، في عالم «غرينديايزر»، و«هولك الخارق» وأفلام «الأكْشن» الهوليوديّة. ولا يخجل صاحبنا من التفوّه بهذه الكلمات الخرافية، والإصرار على أن نيتشه استطاع بضربة مطرقة واحدة، ضربة شافية ضافية كافية، أن يقتل فلسفة التاريخ ومشتقاتها. فعلا، بهذه الضربة، يقول الشيخ «تهاوى «الأصل» وترنّحت «العلّة»، ومادَتْ «الغاية»». إذ كان نيتشه يعتقد، بجازم الاعتقاد، أنه بتوسّل فكرة «العود الأبدي» وحدها يمكن أن نقتدر على اقتلاع الفلسفة التاريخية، واجتثاثها بأكملها من جذورها، والتطويح بها في غياهب المحق ومهاوي السّحق[632]».

يا للرّعب، ويا للهَول! يا لتعاسة الفيلولوجيّين، ويا لنَكْبَة المؤرخين المُنكبّين على البحث عن أسباب الَوقائع التاريخية ومُسبّباتها! ويا لبؤسَ فلاسفة التاريخ الذين أفنوا عُمرهم لعقلنة شواش الأحداث واستنتاج مسار معقول لحركة التاريخ! لقد أدخل الرّوع في قلوبهم، إنسان الكهوف هذا، الذي يجوب الأدغال بهراوته. أنا أقول: إن لم تكن هذه دعابة، فهي سفاسف لا غير.

(حآح)

لماذا يَضع النيتشويّون أنفسهم في هذه المواقف الحرجة؟ لماذا ينزلون بأنفسهم إلى مستوى المهزلة؟ فالسيد الشيخ له أن يزوّق سرديّاته بكل العبارات السّجعية التي يتخيّلها، وله أن يحشوها بكل ما لذّ له من قافية شعرية، وأن يُغرق الكلمات

631- ن. م، ص، 22 23.

632- ن. م، ص، 23.

في بحر الظفرين، ولكنه لا يستطيع أن يُغيّر الباطل إلى حق، ولا يقدر أن يُجرّعنا سموم نيتشه وتقبّل استيهاماته. أين أدلّته؟ أين براهينه العلمية؟ لا شيء غير أن نيتشه قال ذلك، غير أن نيتشه «اعتقد جازم الاعتقاد».]

يمكن للسيد الشيخ أن يقول هذه الأشياء لقارئ غير متمرّس بالفلسفة ولا عارف بتاريخها؛ لشخص ذي ثقافة متوسطة، لكن من تمرّس بتاريخها والتَصَق بنصوص أعلامها، فهو لن يقبل بتاتا مثل هذه الأحكام، لأنها اعتباطية، تفتقر لأدلة مقنعة وينقصها التمحيص النقدي.

الأمر واضح لكل من له دراية بنصوص نيتشه، فهو بتسليمه بالعود الأبدي لذات الشيء يتناقض كليّا مع ما قاله هو نفسه ضد تصوّر الهوية وثبوتية القانون. لقد استعار من معاصريه الانجليز والألمان، يقول ناقده البارع آلفريد فوييه، هذه الفكرة المنسوبة إلى بروطاغوراس من أن أشكال الهوية، والقانون والعدد ...، الخ، هي مجرّد إبداعات عقولنا موظّفة لصالح حاجياتنا الحياتية. السؤال هو: إذا كانت الهوية والقانون والأعداد ليست إلاّ رموزا متواضع عليها فكيف يمكن لنيتشه أن يطرح كقانون مطلق وصارم عودة الأشياء بنفس الهوية؟ إنّ مبدأ المتشابهات اللامتطابقات (indiscernables) للايبنيتز (Leibniz) يُثبت استحالة وجود عالمين لا يتميّزان إلاّ بالوضع في الزمان، فالزمان لا شيء غير الأشياء التي تدوم. ومبدأ المتشابهات اللامتطابقات لا يعمل إلاّ على إظهار الطابع المتفرّد لكل واقع، وهو ما هو عليه في ذاته، لا نسبةً لما عليه الآخرون، وإلاّ بدونه لن يتم تمييزه عن الآخرين. ليس فقط يهوه، بل كل كائن عيني، يمكنه أن يقول: أنا هو أنا (Sum qui sum). ليس ثمة أيّ تماه حقيقي إلاّ في التجريدات الرياضية: مُثلّثان مُجَرّدان يتماهيان، مثلثان عينيّان لا يتماهيًان البتّة. إن استحالة التماهي العيني، يقول فوييه، تأتي من حيث أن كل كائن يَلفّ لانهائيّا وهو نفسه مَلفوف بلانهائي. أما أصحاب العود الأبدي، يشبههم فوييه، بأناس يفكرون كما لو أنهم يمسكون في راحة أيْديهم، أو بالأحرى في قَلَمهم، كل العناصر النهائية لعالم نهائي. لكن الواقع هو أقل بساطة من عقولهم[633].

633- A. Fouillee, « Notes sur Nietzsche et Lange. Le retour éternel », *Ibid.*, p. 525. « Les partisans du retour éternel raisonnent comme s'ils avaient dans le creux de leur main, ou plutôt de leur plume, la totalité des éléments finis d'un monde fini. La réalité est moins simple que leur esprit ».

أما على الصعيد الأخلاقي فإن العزاء الأقصى الذي يعتقد نيتشه أنه عثر عليه في زاوية التألّم مَرات لانهائية نفس الآلام، هو لا يقل لامنطقية من علاقة العود الأبدي بمبادئ نسقه «سيكون عزاء تعيسا لجان دارك القول لها: ستُحْرقين مجددا مرات لانهائية وكل ما حاولت بناءه سيُباد مرات لانهائية[634]».

أعود إلى محمد الشيخ: للتدليل على منطق التهويل والمبالغة والاشادة والتمجيد الذي اتّبعه هذا الرجل، استسمح القراء بإيراد هذا المقطع من كتابه والذي يصوّر الحالة المأساوية التي بَلَغها النيتشويّون العرب. لقد توصّل إلى نتيجة مفادها أن نيتشه بمفرده فعل ما يقدر بالكاد أن يَفعله عشرون شخصا في خمسين سنة من البحث الدؤوب والتنقيب المُضني. وأحذّركم من باقة الظفرين المتوحّشة الجنونية التي تتخلل هذه الفقرة: «ما تَرَك نيتشه مَجالا من مجالات الحداثة ولا مضمارا من مضاميرها إلاّ قوّمه؛ من "الموسيقى الحديثة" إلى "البيداغوجيا الحديثة"، ومن "التاريخ الحديث" إلى "المسرح الحديث" ومن "الشخصية الحديثة" إلى "مستشفى الأمراض العقلية الحديث" و "الكتب الحديثة" و "السوق الحديثة"، بله "النزعة العسكرية الحديثة". هذا إن لم نُرِد ذكر "الزواج الحديث" و "المرض النفسي الحديث"[635]».

وهل وقف هذا الوحش عند هذا الحد؟ إطلاقا. مازال عامل الشتم والسوقية وقلّة الحياء. ومحمد الشيخ يذكرها لنا، بكل أمانة، ودون أن يرفّ له جفن: «ما وقف نيتشه عند هذا الحد، بل إنه ذمّ الحداثة وأهلها». هذا مَعلوم ومعاين، نيتشه لا يطيق كلمة حداثة اطلاقا، فهي كُفر بواح كما يراها الإسلاميون، ومثلهم تماما أيضا من حيث اللعن، فهو أكبر لعّان وسبّاب في العالم. وقد وصل به الأمر إلى لعن الحيوانات، ولم ينج منه حتى الجمبري الذي ذمّه وتهكّم عليه لأنه يمشي القهقرى. لكن مع السيد الشيخ وصلنا إلى القمة التي لم يصلها لعّان قبله، وهو شتم أشياء معنوية، مثل السمع والبصر والشم الخ: «**ذمّ كل جوارح الحداثيّين**، من **أسماعهم وأنظارهم وأذواقهم وأفهامهم**: **ذمَّ** صُمّ آذانهم عن سماع راقي الموسيقى، وذمّ عَمَى عيونهم، وضعف حساسية ألسنتهم، وذهول عقولهم وشُدُوه أذهانهم. وذم أفعال هذه الجوارح: الأذن صماء عن سماع الموسيقى القوية، والعين غير قادرة على القراءة النبيهة. ولئن بادر

634- *Ibid*em.

635- محمد الشيخ، **نقد الحداثة**، م. س، ص، 44.

القراء المحدثون إلى القراءة فهم، أولا، ما قرأوها، وإن هم قرأوها ما فهموها، وإن هم فهموها ما اتّبعوها، وإن هم اتّبعوها ما أقنعوا. وذوق المحدثين فاقد لمقوّمات الاستلذاذ بكل ملكات الإنسان، فاقد للحس، ميال إلى تذوّق القبيح واستلذاذ المُرّ واستطابة الفاسد. ووعي المحدثين وعي مُعذّب شقيّ ناقد لنفسه متّهم لها. والذهن الحديث مفكر على أسوأ أنحاء التفكير، ألمعيّته مفقودة أو ضعيفة باهتة، ورائيّته سطحية، وطريقة تفكيره معتلّة فاسدة. ولغة المحدثين مريضة سقيمة[636]».

هل شبع صاحبنا من الشتائم؟ إطلاقا. وهذه المرة يُدخلنا السيد الشيخ إلى قلب المهزلة: أن تذمّ جمادات كالأحجار والأواني والملابس: «لم يقتصر ذم نيتشه للحداثيين على **ذمّ جوارحهم**، بل تعدّاه إلى **ذمّ مساكنهم وملابسهم ومطاعمهم**[637]». عند هذا الحد تَتَمَنّون لو أن نيتشه يكفّ عن ذم الناس، ويُحجم عن شتم وسبّ الحداثيين مثلما يفعل الإخوانجية السبّابون اللّعانون. لكن نيتشه، ومن ورائه محمد الشيخ، لم يستنفذا بعد كل طاقتهما التعبيرية، وها هو يتحفنا بهذه الباقة: «مازال نيتشه يذمّ الحداثة والحداثيين ويُسمّيهم "البرابرة المحدثين" ويسمّي الحداثة "البربرية الحديثة"، وما زال يتهكّم على آرائهم وأفكارهم ويُسفّه أحلامهم ويزري بما عندهم، حتى سمى نفسه ديوجين الحديث ... راح ديوجين الحديث "يَنبَح" في وجه مجايليه، ذاما العصر وأهله كافرا لاعنا[638]».

أنا أَسَمّي هذه الباقة من الشتائم التي سوّقها لنا محمد الشيخ، شتائم رشيقة، وهي خلف منطقي وأخلاقي، لكن رشاقتها تكمن في الأسلوب فقط، أما المضمون، فهو سوقي مشين لا يستحق عناء التفكير أو الدحض.

لكنني لا أستطيع أن أسكت عن هجمته البربرية على الصينيّين وعن الشتائم الفظيعة والإهانات في حق هذا الشعب العريق. الشيخ يقول إن حياة التنميط والتسوية التي صار يحياها الإنسان الأوروبي الحديث «لهيَ ما يكني عنه نيتشه عادة بوسم "طريق الحياة الصينية (chinoiserie)». وإن العهد عنده لعهد العيش على طريقة «الحياة الصينية» في العيش، بما هي صارت طريقة تفكير وعيش تُلائم حياة «النمل الشغيل»[639]».

636- ن. م، ص، 45.
637- ن. م، ن. ص.
638- ن. م، ص، 45.
639- ن. م، ص، 62.

النص الذي استشهد به على هذه الهجمة جاء في الفقرة 206 من «الفجر». نذهب مباشرة إلى هذه الفقرة بعنوان: «الطّبقة المستحيلة»، ويقصد بها الطبقة الشغيلة، والتي بالنسبة لنيتشه، غير موجودة، أو تافهة لا قيمة لها، وغير جديرة بأن تحصل على أيّة حقوق. نصيحة نيتشه هي أن يبقى العامل كما هو: «فقيرا، مرحا وعبدا (arm, fröhlich und Sklave)[640]»، ويقول بالحرف: «لن أجد أفضل من هذا أقوله للعمال عبيد المصانع». على عكس الحركات الاشتراكية التي تدعو إلى تحرير العمال ونيل حقوقهم، والحصول على ترفيع في الأجرة مع استنقاص في ساعات العمل المرهقة، فإن نيتشه يتأفف من هذا المطلب «أفّ من الأجرة الكبيرة [...] يتردّد في أسماعكم صوت مزمار الاشتراكيين المضلّلين، أولئك المضللين الذين يريدون إغراءكم بآمال غير معقولة[641]».

لا تستمعوا إلى هؤلاء المضللين، ينصحهم نيتشه، الحل أمامكم وفي متناول أيديكم: استعمروا البلدان «يجب أن يقول كل واحد منكم في قرارة نفسه: „الأفضل لي أن أهاجر لأحاول أن **أكون سيّدا في البلاد المتوحّشة والبكر**، ولأكون سيّد نفسي؛ عليّ أن أغيّر محلّ إقامتي ما دام الاستعباد يهددني هنا؛ لن أتجنب **المغامرة والحرب**، بل سأكون **مستعدا للموت** في أسوأ الحالات"[642]».

الاستعمار، واستعباد الشعوب الأخرى؛ إفراغ أوروبا من بروليتاريتها وإرسالها إلى إفريقيا أو الصين، كي تتحوّل هناك إلى محاربة وغازية ومالكة ومستقلة بذاتها، وتفتكّ الأراضي الخصبة من ملاكها الأصليين. هذه هي الإجراءات العاجلة التي يقترحها نيتشه لحل المسألة العمالية: «هاته هي العقلية التي يجب أن تكون لدى العمال الأوروبيين: أن يبدؤوا منذ الآن في اعتبار أنه من المستحيل أن يُشكلوا طبقة ... يجب أن يُوجِدُوا عصر الهجرة الكبيرة خارج أوروبا كفرق النحل، هجرة لم نشهد لها مثيلا حتى اليَوم ... لتتَخفّف أوروبا من ربع سكانها[643]».

لكن إذا أفرغتْ أوروبا من قوّتها الشغيلة، كيف لها أن تُواصل في الإنتاج والعيش في رفاهية؟ الحَل هو جلب عبيد جدد، صينيين، يشتغلون ويصمتون: «ربما نجلب

640- نيتشه، **الفجر**، § 206، ص، 151.

641- ن. م، ص، 152.

642- **الفجر**، ص، 152.

643- ن. م، ن. ص.

عندها بعض الصينيين: وهم سيَجلبون معهم طريقة العيش والتفكير التي تُناسب النمل الشغال[644]».

أنا لا أذكر أنني قرأت توصيفا دنيئا للصّينيين ولشعوب الشرق الأقصى إلاّ عند مُنظّر الإرهابيين بامتياز، المسمى أبو يعرب المرزوقي صاحب السّفاهة الشهيرة: «**يَتزَبَّب قبل أن يُحَرمص**[645]». هذا الكائن العنصري هو أيضا يصف الشعوب الآسيوية بأنها «**مجتمع النمل الآسيوي**[646]»، وأنها في الدرك الأسفل، ودون الإنسانية مرتبة: «ثُلث الإنسانية (الهند والصين: ملياران من النفوس) يمكن ألاّ تضايقها العولمة ... لأن قِيَمها لا تتنافى مع ما تقتضيه العولمة التي تعود **بالإنسان إلى ما دون الإنسانية**[647]».

(خآخ)

ورغم أن نيتشه ينصح السلطة بتحويل عبيد أوروبيين إلى أسياد، وعبيد صينيّين إلى نمل، فإن السيد محمد الشيخ يعرض علينا، دون وخزة ضمير، هذه الأفكار العنصرية القبيحة الشريرة جدا، بعد أن حسّنها وأضعف من مفعولها بل قَلَبَها إلى أشياء بريئة. ويكرر هذه الإهانة للشغيلة الأوروبيين وللصينيين دون نقاش، بل يضع حتى مرادفها الفرنسي، مع حَبّة سَجْع: «تلك لعَمرنا «حياة عُمّالية صينية (Chinoiserie ouvrière)»، وهي حياة يضطرّ إلى عيشها الإنسان إلى أبد الدهر خاملا جامدا دونما عراك تقتضيه الحياة أو تغير[648]».]

وليس ثمة شك في أن أقوال نيتشه ضد الصّين تنمّ عن موقف قومي عنصري. فهو ينقضّ على الاشتراكيين ويُعيّرهم بتفتيشهم عن نموذج حضاري خارج أوروبا، دخيل عن الغرب، وغريب عن تراثه؛ يُشهّر بهم قائلا إنهم يستوحون نموذجهم من حضارة موسومة بمرض العطالة وبعفونة غير قابلة للعلاج.

وهذه، في الحقيقة، هي الصّورة النمطية للصين التي سادت في زمن التوسع الاستعماري ونيتشه، بما أنه يلتقط كل ما هو استفزازي قبيح ورجعي، انتصر إلى

644- ن. م، ن. ص.

645- أبو يعرب المرزوقي، **في العلاقة بين الشعر المطلق والإعجاز القرآني**، دار الطليعة، بيروت 2000، ص، 85.

646- أبو يعرب المرزوقي، «ما البديل من العولمة المافوية»، **الفكر العربي المعاصر**، عدد 104 105، 1998، ص، 98.

647- ن. م، ص، 101.

648- محمد الشيخ، **نقد الحداثة**، م. س، ص، 62.

الهجمة الأوروبية على الصين، وكَرّر تلك الكليشيهات التي عادة ما يبرّر بها المستعمرون هجمتهم على ذاك البلد وإذاقته سوء العذاب. الكليشيهات هي هذه: الانتقام الأكثر خبثا هو **الانتقام الصيني** (*die Chinesische Rache*)[649]؛ الهواية الوحيدة للصّينيّن هي "**الأفيون، القمار والنساء** (*Die Chinesen, ... Opium, Spiel, Weiber*)[650]"؛ العقلية الصينية هي المَعلم الصامد لروح الدّيمومة[651]؛ في الصين ظلّ الإنسان ساكنا لا يتغيّر للآلاف السّنين؛ الصين تقدم المثال على بلد حيث عدم الرضى وملكة التحوّل منطفئان منذ قرون[652]. المفارقة الفظيعة، أن هذه المُومياء المتعفنة هي بالذات النموذج الذي يرغب الثوريّون الغربيون في استيراده: «الاشتراكيون، عُبّاد الدولة» يريدون أن يحققوا في أوروبا شروطا صينية، سعادة صينية[653].

لكن نيتشه يحذّر الجميع: أوروبا، والغرب عموما، لا يجب عليهما أن يتحوّلا إلى صين صغيرة، ينبغي الدفاع عن الثوابت، ويجب الاحتماء بالتراث القديم للتصدي لهذه المنعرج الخطير. ولفعل ذلك أخرج نيتشه المسيحية واليهودية كدرع ضد التصدّع الحضاري وضد محاولة الانفتاح الاشتراكي على الشعوب الأخرى: المسيحية، بفضل ما وَرَثته من خصائص يهودية، أضفت على الأوروبيين ذاك القرف اليهودي من النفس، ذاك التمثّل للارتباك الداخلي كشيء إنساني عادي: من هنا هروب الأوروبيين من ذواتهم، من هنا حيويّتهم الباهرة، فهم يتدخّلون في كل مكان[654].

هكذا، لكي يُدعّم نيتشه الامبريالية الأوروبية، ويزكّي غزواتها، ولكي يتصدّى للطبقة الشغيلة ويُديم استغلالها، مصطفّا جهارا مع السلطة، جمّد، لبُرهة، عداءه لليهود وكرهه للمسيحية، وعلّق ظرفيا قناعاته العنصرية ضد شعوب أوروبا المتوسّطية. فعلا، عن طريق المسيحية، الغرب ورث من اليهود تلك الأخلاق الراقية، وتلك البطولة الشرسة التي تتمظهر سواء في التفاني من أجل إلههم، إله الحرب، أو في

649- F. Nietzsche, Die fröhliche Wissenschaft, §. 69.

650- Id., Nachlaß 1880-1882, p. 454.

651- *Ibid*, p. 541.

652- *Ibid*, p. 547.

653- ID, FW, §. 24. Cfr., D. Losurdo, Nietzsche, p. 331.

654- Nachlaß, IX, 1880-1882, p. 89.

احتقار الذات[655]. وفقط بفضل هذا الارث الديني فإن الأوروبيين هم في صدارة شعوب العالم، وهم المُهيمنون على الكرة الأرضية بأسرها[656].

لقد وصل قرفه من الشرق العربي إلى حدّ اتهام أفلاطون بأنه قتَل الروح اليوناني الأصيل لأنه تأثر بالمصريين، وأدخل تعاليم غريبة ومنافية لطبيعة العالم اليوناني الغربي. أفلاطون كان شديد الانحراف عن كل الغرائز الهلينية الأساسية «لقد دفعْنا الثمن غاليا بدخول هذا الأثيني للمدارس المصرية (ـ أو يهود مصر؟)»؛ سمّاه المضادّ للهيلنيين، «هذا السامي بالفطرة»، وحتى الفلسفة المتأخرة، فلسفة الرواقية ذات المنحى الكوسموبوليتي فهي مضادة للروح اليوناني «هي أساسا من عمل الساميين»؛ الرواقي هو «قائد عربي متدثّر بالبهارج والتصوّرات الإغريقية[657]».

ولا أتحدّث عن الشعوب الأخرى التي أخرجها من الجنس البشري. فقد أبدى حنقه وتهكّمه اللاذع على اللاهوتي التنويري ريتشارد شتراوس لأنه دعا إلى أخلاق كلية تتجاوز الحدود والأعراق، واعتبر أن كل ممارسة أخلاقية هي تحديدٌ للفرد بحسب فكرة النوع (der Idee der Gattung). كلمات شتراوس هذه ترجمها نيتشه بعبارات ألمانية فصيحة ومفهومة، كما يقول: عش كإنسان وليس كقرد أو كلب البحر. إلاّ أن هذا الأمر غير ممكن التحقيق وفاقد للقوة. لماذا؟ لأنه إذا أخذنا بكلام شتراوس سنُدْرِج تحت مفهوم الإنسان كائنات شديدة التنافر «على سبيل المثال الباطاغوني والمُعلّم شتراوس (zum Beispiel der Patagonier und der Magister Strauss)[658]». لأن الباطاغوني، في عُرف السيد نيتشه، لا ينتمي إلى الجنس البشري.

أنا أرى أنّنا مع السيد محمد الشيخ نُجرّب فعلا معنى "فلسفة" نيتشه؛ فهو يُدخلنا في كهوف دامسة ويجول بنا في دهاليز حالكة نلطم رؤوسنا من هنا وهناك على جدران لا منظورة دون أمل في الخروج منها. الجدران التي نَلطم عليها رؤوسنا هي هذه . الشّغل: عار وشنّار[659]؛ فكرة المساواة: مَهلكة حقودة وسامّة[660]؛ فكرة التقدّم:

655- Nachlaß, IX, 1880-1882, p. 89.

656- *Ibid*, p. 23.

657- نيتشه، إرادة القوة، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2011. § 130. ص. 102.

658- نيتشه، «دافيد شتراوس»، ضمن **اعتبارات لاراهنة**، الأعمال الكاملة، مج. 1، ص، 195.

659- محمد الشيخ، **نقد الحداثة في فكر نيتشه**، م. س، ص، 62.

660- ن. م، ص، 67 و ص، 68.

مَسْخرة ومَفسدة؛ الاشتراكية: تحطيم الأرض المزروعة وتدميرها؛ الديمقراطية: تآكل القوة وفتورها وتعب السوقة ووهن الأراذل[661].

أما الفلسفة فهي الدمار الشامل. وهنا أختم هذه الجولة الشاقة ولن أعود إلى هذا الخور مرة أخرى، لأننا بالهجمة التي شنّها على الفلسفة نزلنا حقا إلى جحيم الوهابية. وأراهن على أن شابا يَطّلع على هذا النص سَيَكره الفلسفة كُرها، وسيَحقد حتى الموت على الفلاسفة، ولو حصل وصادف واحدا منهم في طريقه لأجْهز عليه. وكيف لا يكره الفلسفة والسيد الشيخ يقول إن «الفلسفة بما هي تحقيق لمثال نسكي مُعاد للحياة، كانت معادية للحياة الحسية، كانت معادية للحياة الحسية أبدا لاغيةً[662]»؟ وكيفً لا يُجهز على الفلاسفة ومحمد الشيخ (مُتّبعا خطى نيتشه) يُعلمه بأن «منذ أن وُجد الفلاسفة على وجه الأرض، وحيثما قام ثمة فلاسفة من الهند إلى إنكلترا، قام ثمة حنق على الحياة الحسية وحقد ونقمة[663]»؟ الفلاسفة على حد الشيخ هم كارثة انثربولوجية لا يمكن تخيّل خطورتها: خلعوا ربقتهم من الحياة الحسية، ومن طيب الملذات والحياة الزوجية «مثلما خلعها هرقليطس وأفلاطون وديكارت وسبينوزا ولايبنيتز وكانط شوبنهاور ... اسوة ببوذا». لكن الشيخ نسي نيتشه، فهو أيضا لم يتزوّج ولم يشم رائحة الأنثى، نَسيت: نيتشه فوق البشرية بأربع درجات، وله الحق في أن يقول كل شيء دون محاسبة.

لماذا يُحمّل نفسه عناء تدريس الفلسفة في الجامعات المغربية إذن؟ ما الداعي إلى إقلاق النفس وتأليف كتب ضخمة في مواضيع فلسفية شتّى، إذا كانت الفلسفة هي الانحطاط بعينه والفلاسفة هم صوان العدمية؟ وكأن السيد الشيخ يقطع الغصن الذي يجلس عليه، وهو يتطوّع للقيام بهذا العمل، فقط وفقط لأن نيتشه أصدر الفتوى، فتوى «كون الفلسفة مسارا عدميا، فإن نيتشه طالما نبّه إلى خطر العدمية الذي كان يترصد الفلاسفة على الدوام، مشددا على ضرورة "نقد الفلسفة بما هي مسار عدمي". وذلك لأن الفلسفة هي التي ابتدعت عالما متخيلا ومنطقيا قائما على أفكار عدمية مجردة جوفاء نخبة هواء ... الفلسفة بهذا هي الهادية إلى العدمية والدالة عليها. ولكونها انحطاطية وعدمية، فقدت الفلسفة، من عهد سقراط إلى أيام نيتشه، مشروعيّتها، ولهذا يتحدث نيتشه عن "شقاء الفلسفة" في الأزمنة الحديثة».

661- ن. م، ص، 73.

662- ن. م، ص، 204.

663- ن. م، ن. ص.

أما الأنوار فحالها لا يختلف عن الفلسفة، فهي نفسها تعيسة ومنحطة، وأكثر من ذلك «اتّسمت الأنوار بسمات شيطانية وعنيفة وقاسية ولذوية، وبعاطفة جياشة فوارة مندفعة مدغدغة لأحاسيس العامة مستدرة مترضية[664]». الأنوار «فلسفة غوغائية شأنها شأن النبع الذي غرفت منه وكانت سليلته الفلسفة الأنكلوسكسونية ثم إنها فلسفة تفاؤلية[665]».

العقل أُنْزِلَ للحضيض وأصبح مكنة صناعة الأكاذيب والتدليس: «عمل الذهن يتمثل، بادئه فَي التدليس. فحتى قبل أن يفكر المرء، فإن عليه، أولا، أن يبادر إلى "الابتداع"، وقبل أن يتعرف على الهوية في الأشياء عليه أن يرد الحالات إلى ظاهر هوية. وإن الذهن بهذا لهو القوة التي ترغب في الخطأ وتريد التوهيم ... وإن عمل الذهن هذا لا تمليه إرادة الحق وإنما إرادة الهيمنة والتملك والاستئثار. لذلك حق القول في وظائفنا الادراكية والعقلية: إنها أنانية ماكيفيلّية متمحلة للحيل بلا أخلاق أو ضمير. فالتدليس هنا عن الاعتبار الخلقي بمعزل. وإن الفكر لتدليسي تحويلي مثله مثل الإحساس والإرادة[666]».

لقد عَمّ التّشويه كل شيء، واكتسحت الأنانية كل المجالات ولم يترك فضيلة أخلاقية واحدة أو علما أو فنّا أو فلسفة إلاّ وقَلَبَها رأسا على عقب، والسيد الشيخ، بامتنان واعجاب، يَعرض علينا هذه الأفكار الشيطانية وكأنها آخر ما توصّل إليه العقل البشري.

(دآد)

أنا لا أفهم عقليّة المؤوّلين المغاربة لنيتشه، ولا أدري ما السبب في اصرارهم العنيد على ترديد تخميناته المعادية للفلسفة دون الوعي بمفعولها المدمّر على مُستقبلها في العالم العربي. أن يأتيك السيد محمد أندلسي و يُمعن، هو نفسه، في ذم الفلسفة، بل يَتلذّذ بتحقيرها وتحقير الفلاسفة، طوال صفحات من كتابه "نيتشه وسياسة الفلسفة"، فهذا أمر غريب جدا ولا يمكن فهمه. لكن يمكن إدراك استتباعاته الاجتماعية وانعكاساته السلبية على المجال التربوي حيث أنّه بهكذا عمل يؤدي خدمة جليلة للوهابيّة ويعطيها كل الذرائع والمبرّرات لكي

664- ن. م، ص، 260.

665- ن. م، ص، 261.

666- ن. م، ص، 329.

تواصل في إصرارها على منع تدريس الفلسفة، ويحرّض الدول الأخرى على اللّحاق بركبها، وحظرها من برامج التعليم.]

الفلسفة، هي عرض مرضي وعلامة وقناع، هكذا يعالجها نيتشه في **جينيالوجيا الأخلاق**، والأندلسي يرددها حرفيا دون التفكر في مشروعية مثل هذا التوصيف أو التساؤل عن مبرراته[667]. لكني أستبعدُ أن يطرح عن نفسه هذا السؤال لأن نيتشه مفكر عظيم لا يناقش، وجيل دولوز يدعّم هذا الرأي. فعلا، على حد الأندلسي، جيل دولوز لا يتردد في اعتبار تحليل النموذج الارتكاسي «يُمثّل إحدى **الاكتشافات العظيمة** للسيكولوجيا النيتشوية[668]».

ولكي يستبق الأندلسي تلهّف القارئ للاطلاع على عيّنة من هذه الاكتشافات العظمى، فهو يسارع بتقديمها إليه. لكن لتقريبها لذهنه فقد مَثّلها بالأكل والهضم والتغوّط والشَّرَجيّة، وألصقها بشخص سماه إنسان الحقد، وأنا لا ألومه على هذه السفاهة لأنه استقاها من نيتشه، ألومه فقط على تقبّلها سلبيا دون اعمال للعقل. يقول: هناك ارتباط بين الروح الانتقامية وبين ذاكرة الأثر «الشبيهة بعُقدة "الساديّة الشرجيّة (sadique-anal)» عند فرويد، حيث يُصوّر نيتشه هذه الذاكرة على أنها هضم لا ينتهي، ويعتبر إنسان الحقد على أنه إنسانا شرجيّا. يقول نيتشه: «إن الروح الألمانية هي عسر عضم، إنها لا تتوصّل لإنهاء شيء [...] **كل الأفكار** المسبقة تأتي من **الأمعاء**، لقد سبق أن قلتُ إن **المؤخرة الثقيلة** هي الخطيئة الحقيقية ضد **روح القدس**"».

من هو هذا الشخص الذي يَسْخَر من الناس ويستعمل هذه الألفاظ السوقية؟ كيف يسمح لنفسه بأن يسرد مثل هذه القاذورات؟ الأمعاء تُفكّر! وما المؤخرة الكبيرة وما دخلها بالروح القدس؟ إننا لا نقرأ مثل هذه الخزعبلات، في وقتنا الحالي، إلاّ عند بعض المدوّنين المتنطّعين على فايسبوك. ومَن هو المفكر الملتزم أو الفيلسوف الجدّي الذي يُصغي إليهم أو يُعيرهم أهمية تذكر؟ لكن هذه النّفايات تتحوّل، على أيدي النيتشويين، إلى دُرَر فلسفية وجواهر فكرية ثمينة، ويكفي أن يقول نيتشه إن الأمْعاء هي وعاء تفكير، وإنّ المؤخّرة الكبيرة مخطئة حتى تصبح هذه السفاسف جَوامِعَ حِكَمٍ.

667- محمد أندلسي، **نيتشه وسياسة الفلسفة**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 2006، ص، 112.

668- ن. م، ص، 112 113.

نَنْتَظر فكرا فلسفيا جدّيا وعميقا، نَتَطلّع إلى تحليل منطقي رصين، إلى سرد بارع لأفكار الفلاسفة من خلال نصوصهم ومناقشتها بحذق وعناية، لكن لا نجد، عند نيتشه وعند مؤوّليه إلاّ الشعوذة والدمار. حبّ الحقيقة، يجب أن تنسوه وتقتلعوه من عقولكم. فعلا، أحد أكبر الأوهام التي سعى نيتشه إلى تقويضها، يكتب الأندلسي «هو **وهم الاعتقاد في الحقيقة**[669]»؛ والحقيقة كمُطابقة بين المنظور والمعقول، مستحيلة بالنسبة لنيتشه، والشاهد الثاني المؤيّد لذلك هو هايدغر، يعني أن نيتشه وهايدغر «معاً يُقرّان بأن **الفلسفة** لا تقول **الحقيقة**، بمعنى أنها لا تُخبرنا بشكل موضوعي عن حالة الواقع والأشياء الموجودة[670]»، ثم يتدخّل شاهد ثالث لا يقل أهمية عن هايدغر وهو الفيلسوف الإيطالي جياني فاتيمو الذي يدعو إلى إعادة قراءة نيتشه «في ضوء النتائج التي انتهت إليها فلسفة هيدغر»، وخصوصا، وهذا الأهمّ، «من أجل **تجاوز الميتافيزيقا**».

وكيف نتجاوز الميتافيزيقا؟ ما السبيل إلى التخلّص من سجنها؟ بضَربة سحرية، تُخفي من أمامك العالم وتتركك مشلولا بهتا، يعني تُصَيّر العالم الحقَ **حكاية**، كما يقول نيتشه. لقد أبهرتْ هذه العملية السحرية الأندلسي وطفق يشرحها بكل ما أوتي من خطابة، دون أن يتفطّن إلى أنه يحفر قبرا عميقا للفكر والعقل والإحساس والفن والأخلاق، وكل ما هو جميل في هذا الكون. في البداية يزيح الساحر من أمامك العالم المحسوس: «بعد استنفاد التفكير في مختلف أشكال **العلاقات القائمة بين العالم الظاهري**، كما يُعطَى لنا في **التجربة الحسية الملموسة**[671]»، ينتقل إلى العالم المعقول، عالم الذرات والكوانطا والقوى التي تشد اللبنات الأولى للكون، وهي لا منظورة لكن العلم أثبت وجودها وكشف طبيعتها وقاس طاقتها ومفاعيلها، لكن الساحر يأبى إلاّ أن يزيل من أمامك هذا العالم الرائع، أو ما أسماه الأندلسي «**العالم الحقيقي** الذي نُدركه بواسطة العقل ويُوجد في ما وراء عالم الحس[672]»؛ والنتيجة، مؤلمة جدا، بل مُدوّخة وماحقة، وهي أن «الحديث عن **عالم الحقيقة** وبالتالي عن **الحق** مُجرّد **وهم** أو **حكاية** أو **خرافة**».

669- ن. م، ص، 82.

670- ن. م. ن. ص.

671- ن. م، ص، 82.

672- ن. م، ن. ص.

أقول مُدوّخة لأنه لا مَهرب لك، ولا خيار أمامك إلاّ **الجنون** أو **الانتحار**. وكيف لا تُجنّ وأنت تلاحظ أن «مَع **العالم الحق يزول العالم الظاهر** ... وأنه لا يوجد أيّ **تمييز** بين **الصدق والكذب**، أو **الحقيقة والخطأ**»؟ هل مازال لك من أملٍ في أن تحافظ على سلامة ملكاتك الفكرية إن كُنتَ تعيش في هذا الكهف المظلم؟ وهلً مازال لك من مُبرّر واحد للحياة إن سمعتَ السيد أندلسي يقول لك إن «**العالَم كلّه** صار **حكاية**»، وإن هذا العالم الوحيد الذي نحيا فيه «**هو الذي صار في بنيته العميقة جدا عبارة عن حكاية**»، وإن في هذا العالم «لا يوجد **أساس** أو **معيار نهائي** يُتّخذ كحقيقة **نقيس به** غيره من الأشياء[673]».

أليس إرهابا فكريا هذا؟ أليس تشجيعا على نبذ العقل والعلم والمنطق والأخلاق؟ ألا يرى السيد أندلسي أنه، عن طريق هذه التداعيات التي استعارها من نيتشه، يمكنه أن يبرر عمل الإرهابِي التفجيري، ويُشرّع لآكل لحوم البشر؟ أين المفرّ؟ وبأي شيء نحتمي إن كان العالَم عبارة عن سرديات وأوهام، وإن مُنعْنا من حيازة أي معيار موضوعي نقيس به حقيقة الأشياء؟

لن أشطّ إن قلت إننا، حسب هذا المنطق، نذهب في «ستّين داهية»، ونهوي في سديم لا قرار له، وهذه فعلا هي الكلمة التي اختارها الأندلسي لوصف عالمنا: «الواقع يتميّز **بطابعه السد يمي**[674]»، وكل ما تبقّى لنا التفكير فيه، أي ما يُسمح بصياغته في أفكار واضحة «لا يمكن أن يكون غير **الوهم**[675]». ويا سعد من عاش ومات في الوهم.

ولقد سبق للفيلسوف المغربي الآخر عبد السلام بن عبد العالي في كتابه **أسس الفكر الفلسفي المعاصر** أن عبّر عن هذه الآراء، دائما، دون أن يصرف ولو ذرّة نقد واحدة إزاءها. وكتابُه كله منسوج على منوال: «يرى نيتشه»، «يرى هايدغر»، «يرًى فوكو»، لكنه يقبَل هذه الآراء بكل ارتياح. والكيانات المعادية التي أطاح بها نيتشه وأتباعه هي دائما العالم الواقعي، والحقيقة، والعقلانية. وهذا جرد وجيز من حبّات الحكمة النيتشوية وإنجازاته الفلسفية الكبرى: «يرى نيتشه أن الحقيقة تُخفي

673- ن. م، ن. ص.

674- ن. م، ص، 83.

675- ن. م، ن. ص.

خداعها بإظاهرها في المجاز[676]»؛ «الوجود هو دوما مجرد مؤشر لخداع مجازي يتم عبره خلق القيم وتوليدها»؛ «ما المعنى إلاّ بؤرة تناحر إرادات القوة»؛ «التدليس ليس سوى الفضاء التفاضلي الذي تتصارع فيه التأويلات والقراءات»؛ «القضاء على عالم الحقيقة عند نيتشه معناه القضاء على عالم المظاهر، أي القضاء على الاختلاف بينهما»؛ الجينيالوجيا النيتشوية أقامت مفهوما جديدا عن الظاهر «يضمّ في الوقت ذاته الحقيقة والخطأ، الواقع والوهم، يضم الأضداد ويقرّب بينها، فيُفجّر منطق الهوية». وأخيرا، بعد التفجير لا يمكن أن يغيب القناع، ومن بعده قناع، ومن تحته قناع ومن فوقه قناع، وهكذا دواليك حتى يرث الله الأرض ومن عليها: «**كلّ شيء قناع، وكل قناع**، عندما يُكشف، ينكشف عن **قناع آخر**. وليس الوجود، وليست الصيرورة إلاّ حركة هذه **الأقنعة** والتأويلات[677]».

«مُجاوزة الميتافيزيقا»، عند نيتشه، يعني أن «يُصبح عالم الحقيقة في النهاية حكاية»، أي شيئا مختلقا خرافيا «شيئا يُروى، ولا يوجد إلاّ في السرد وبه[678]».

وكذلك الشأن بالنسبة للأندلسي: أفكار ديكارت الواضحة والمتميزة، والشيء في ذاته الكانطي، والميتافيزيقا «**بكاملها** ... ظلّت سجينة لإرادة الحقيقة وللثنائيات **الميتافيزيقية**»، ولم يتخلّص العالم من أغلالها إلاّ بمجيء نيتشه الذي قلب الطاولة على رؤوس الفلاسفة، وسحق الميتافيزيقا نهائيا، كما يكتب الأندلسي: «هذا القلب للموقف الميتافيزيقي هو ما سيُحققه نيتشه عبر اخضاعه تاريخ الميتافيزيقا للقراءة القيمية[679]».

(ذآذآ)

أريد أن أذكّر الأندلسي وبن عبد العالي بأن نيتشه لم يتجاوز الميتافيزيقا، بل كان يعارض كل من أراد تجاوزها، وقد انتقد الفكر الليبرالي الداعي للسلم والديمقراطية لأن «له جذورا في تعاليم التنوير والثورة الفرنسية (der französischen Aufklärung und Revolution)، أي في فلسفة لاجرمانيّة

676- عبد السلام بن عبد العالي، **أسس الفكر الفلسفي المعاصر**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 2000، الطبعة الثانية، ص، 131.

677- ن. م، ن. ص.

678- ن. م، ن. ص.

679- محمد أندلسي، **نيتشه وسياسة الفلسفة**، م. س، ص، 83.

(ungermanischen) على الإطلاق، بل رومانيّة (romanisch) أصلا، سطحيّة ومناهضة للميتافيزيقا (unmetaphysischen)[680]» .]

وفي **مولد التراجيديا**، لتبرير كيفيّة تصالح أبلون وديونيزوس، لم يجد أمامه من حلّ إلاّ إدخال عنصر المعجزة والميتافيزيقا: «بواسطة **معجزة ميتافيزيقية** (durch einen **metaphysischen** Wunderakt) للإرادة الهلنستية، برزا متزاوجين الواحد مع الآخر، وفي هذا التزاوج وَلّدا أخيرا العمل الفني، الذي هو في نفس الوقت ديونيزي وأبولوني، أي التراجيديا اليونانيّة[681]» .

إذن، موضوعيّا، نيتشه لم يحطّم أيّ عالم بل إنه كرّس الميتافيزيقا بمعناها البدائي الديني، أي عالم الأرواح والشياطين، ودافَع عن مشروعيتها، في هذا النص الصريح من **إنساني مفرط في إنسانيته**، في فقرة بعنوان "عالم ميتافيزيقي" (Metaphysische Welt): «صحيح أنه قد يكون هناك عالم ميتافيزيقي؛ الاحتمال المُطلق لوجوده **قلّما** يقبل **الجدال**[682]»، وحتى إن لم نتحقق من هذا العالم الميتافيزيقي، وكان واهيا مثل خيوط العنكبوت، فإن امكانيّته باقية، ويجب علينا بالتالي، هكذا يقول نيتشه «أن **نُعلّق السعادة والخلاص والحياة** بالأحرى على **الخيوط العنكبوتيّة لهذه الإمكانية**[683]» .

لكن كانط، "الصّيني"، كانط "عنكبوت كونكسبيرغ"، ومن بعده النّقديين والنقديين الجدد، ألم يقولوا نفس الشيء؟ فعلا، قالوا نفس الشيء عن هذا العالم الميتافيزيقي ولكن لم يَدُرْ بخلدهم يوما ما أن يقتلوا العالم الواقعي وأن يستحدثوا عالم أوهام. أقول مع بالاريس (Pallarès)، إن العالم الحقيقي لنيتشه، يُشبه إلى حدّ بَعيد تلك القُصور من ورق التي يسَتْمَتع الأطفال ببنائها، لكي يستمتعوا مجددا بتدميرها بالنّفخ عليها[684].

680- نيتشه، **الدولة اليونانية**، ضمن **خمس مقدمات**، الأعمال الكاملة، ج. 1، ص، 773.

681- نيتشه، **مولد التراجيديا**، ضمن، الأعمال الكاملة 1، § 1. ص، 25 26.

682- نيتشه، إنساني مفرط في إنسانيته، ج. 1، ترجمة الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2001. § 9. ص. 21.

683- ن. م، ن. ص.

684- «Le monde vrai de Nietzsche ressemble beaucoup à ces châteaux de cartes que les enfants s’amusent à édifier, pour se donner le plaisir de les détruire en soufflant dessus ».

لكنني لا أريد أن أسكت عن شيئين في كتاب السيد الأندلسي، وأراهما في منتهى الخطورة. الأول هو هجومه على الديمقراطية ومبدأ المساواة بين الرجل والمرأة، وحق الشخص في اختيار حياته الجنسية بحُرّية. قال إن على الصعيد السياسي أدّى تطبيق الديمقراطية بمعناها الكمي إلى أن أصبحت «إيديولوجيا للقطيع، وأداة لهيمنة الضعفاء على الأقوياء[685]».

وأنا أتساءل متى كانت الديمقراطية إيديولوجيا للقطيع ؟ وكيف يكون لنظام برلماني تداولي، جُعل خصيصا للحريات والعدالة والمساواة بين المواطنين، أن يصبحً أداة في أيدي الضعفاء لقهر الأقوياء؟ ثم، ما هو بالضبط اعتراض الأندلسي ضد الضعفاء؟ إن نيتشه وأتباعه لهم ديمقراطية مغايرة، غريبة عنا ولا توافق تعاريف القواميس المجمع عليها، ديمقراطية حمّلها السيد أندلسي مسؤولية خطيرة جدا، لأنها تسعى، على حد قوله، «إلى تهميش مطالب الأقليات وإقصاء النخبة وكبت العبقرية والاختلاف[686]». لكن مواصفات هذا النظام هي كل شيء إلاّ الديمقراطية، إنها الديكتاتورية الشرسة، إنها نظام حكم الإخوان المسلمين الذين اضطهدوا الأقليات المسيحية وأقصوا النخبة المثقفة العلمانية، وسارعوا لتنفيذ ما أملته عليهم إسرائيل: تقسيم بلدانهم إلى دويلات طائفية، وحرقها بالكامل.

هذه هي الضريبة التي يجب أن تدفعها لنيتشه إذا انسقتَ وراء أفكاره وتقبّلتها دون نقاش. ولا تقلّ عنها خطورة استتباعات تطبيق المساواة بين المواطنين في النظام الديمقراطي. على أساس الكلمات التي سأذكرها الآن، يمكن أن تُرفعَ ضد السيد أندلسي قضية ثلب وقذف، وأن يحاكم بتهمة العداء للمرأة ومناهضة حقوق الجنسمثليّين والتحريض عليهم واضطهادهم، وأن تُنزع عنه صفة فيلسوف، وهكذا، بسبب نيتشه، يحطّم حياته الفكرية بالكامل. وهذا كلامه واحكموا أنتم بأنفسكم: «على المستوى الاجتماعي، أدّى تطبيق المساواة إلى إلغاء الفوارق الجنسية بين الرجل والمرأة، حيث تَنزَع المرأة إلى التخلّي عن سِماتها الأنثويّة تَشبُّها بالرجل، وينزع الرجل بدوره إلى **التماهي مع المرأة**؛ والنتيجة هي ما نشاهده حاليا في الغرب من **هِجَانةٍ**، ومن

685- أندلسي، **نيتشه وسياسة الفلسفة**، ن. م، ص، 194.

686- ن. م، ن. ص.

اكتساح **الجنسية المثلية (l'homosexualité)** لمجال العشق. هكذا فُهمت المساواة **كتَنكّر للخصوصيات الجنسية**[687]».

بهذا الكلام اللامسؤول فإن الأندلسي يُقيم على نفسه الحجة ويصبح مُدانا مرّتين: الأولى لأنه جارى نيتشه في عدائه للمرأة؛ الثانية، وهي الأخطر، لأن الجنسمثليين موجودون بكثرة في العالم العربي وليس في الغرب وحده، وبالتالي فإن اتهامه لهؤلاء الناس، يُفضي إلى تبرير ما تفعله داعش بهم حسب أحكام الشريعة، وقتلهم شرّ قتلة: رَمْيهم من شاهق. وقد رأينا هذه الفظاعات بالصوت والصورة في الرقة والموصل، وشاهدنا التنكيل الذي تعرّضوا إليه على أيدي من يُدينُونها مثلما يُدينها فيلسوفنا. أنا أطلب من السيد محمد أندلسي أن يُراجع نفسه، ويُعيد التفكير في موقفه من الخصوصيات الجنسية وأن يتملّص مما قاله على الجنسمثليّين لأنه يضرّ به وبالفلسفة على حد سواء[688].

وإذا عَانَدَ وأصَرّ، فنحن نُجابهه بصريح أقوال نيتشه نفسه، ونُريه الصفحات التي **مجّد** فيها الجنسمثلية وليس الجنسمثلية فقط بل البيدوفيليا، في فقَرة مربكة جدا من **إنساني مفرط في إنسانيته** بعنوان «حضارة رجولية» (Eine Cultur der Männer)، حيث يتحدّث فيها عن عادات الحضارة الاغريقية في عصرها الكلاسيكي. وكما هو معلوم ومؤكد فإن هذه الحضارة بالنسبة إليه هي النموذج الأعلى الذي ينبغي الاقتداء به. المرأة في هذه الحضارة مسجونة في البيت ولا تصلح إلاّ للإنجاب، أما في الحياة

687- ن. م، ن. ص.

688- من بين الغرائب التي اطلعتُ عليها في هذا الكتاب هو الاستشهاد بطه عبد الرحمان، وهذا «الفيلسوف»، هو النسخة المغربية من الإرهابي التونسي أبو يعرب المرزوقي، كلاهما ساهما في تحويل الشباب إلى إرهابيين وارسالهم إلى سوريا لكي يُطحنوا تحت حذاء الجيش العربي السوري. السيد أندلسي لكي يفسر كيفية غياب الهوية والثبوت والماهيات أعطى مثالا على ذلك وهو العقل، الذي لا يُعرف له أصل ولا أساس، فقال «هذا شأن العقل، فهو لا يمكن القبض على حقيقته الموضوعية، أو تمثّل بنيته الأولية، لأن العقل لا ينفصل عمّا نُنشئه حوله من المفاهيم والنماذج التفسيرية التي هي مقاربات مختلفة له». لم يكتف بهذا بل إنه أدمج واحدة من حذلقات طه عبد الرحمان المختلة القبيحة: «فيما يتعلق بالعقل، فماهيته لا تنفصل عن تاريخ مفهومه، بكل تراكماته وتحولاته، وبكلّ **تكوثره** وغناه». وكما هو معلوم فإن كلمة **تكوثر** التي أدمجها في نصه هي خاصية من خاصيات هذا الفيلسوف الإرهابي، مثل كلمة «يتزبّب» التي اختص بها زميله في الارهاب أبو يعرب المرزوقي. وأنا ما كنتُ أنتظر أن أرى هذه الكلمة في كتاب فلسفة **مخصص** لنيتشه، وقد انتابني التعجب من أن الأندلسي يستشهد برأي طه عبد الرحمان ويستقي منه هذا «المفهوم» بكل امتنان: «يرى طه عبد الرحمان أن لفظ **التكوثر** هو خاصية للعقل، بما هو فعل عقلي، لأنه لا يتكوثر إلاّ العقل؛ والمقصود بذلك ...الخ». طه عبد الرحمان أصبح حجة، هذه علامات الساعة.

اليومية فإن الرجال (Männer) يُعوّضون بإقامة علاقات جنسية، إيروتيكية (erotische Beziehung)، مع الأحداث أو المراهقين (Jünglingen)، وهذه هي الشرط الوحيد والضروري في كل تربية رجولية. الإشادة بهذه العلاقة واضح ولا مراء فيه، ثم يضيف: «كل ما كان هناك من مثالية القوة في الطبع الاغريقي تمّ نقله إلى هذه العلاقات، وقد كان ما حُظي به شباب القرنين السادس والخامس من العناية والمحبة (liebevoll)، وفائق الاحترام لصالحهم لا نظير له، مُصدّقا للقولة الجميلة لهولدرلن: "حين يحب الانسان المائت فهو يُعطي أفضل ما عنده"[689]».

وكأن نيتشه يصف لنا واحدة من بلدان الخليج التي يكثر فيها اللواط[690] ربما بسبب الفصل المَقيت بين الجنسين ومنع الاختلاط من طرف "المُطوّعة" الذين يراقبون تحركات الشبان والبنات بالهراوات. إذا كان الإيروس الحقيقي لا يُمارَس إلاّ بين الذكور، أو بين الرجال والأطفال، لم يَبق للمرأة إذن أيّ قيمة تذكر في المجتمع. هذا يكتبه نيتشه حرفيا، لا ليُدينه، بل ليُثني عليه لأن عالمه المثالي، كما قلت، هو عالم اليونان الكلاسيكي: «كلّما أقيم وزن كبير لهذه العلاقات [الذكورية]، كلما انخفضت مخالطة الرجال للنساء»، وهذا ما يحدث فعلا في دول الخليج، وبالتالي لم يبق من معنى لعلاقة الرجل والمرأة إلاّ «التناسل "إنجاب الأطفال (Kindererzeugung)" والمتعة (Wollust)، ولا يُراعى أي شيء آخر، ولا توجد علاقة روحية، ولا حتى محبة حقيقية [...] إن النساء لم يكن لهنّ من واجب (keine Aufgabe) غير إنجاب أجساد جميلة وقوية يستمر من خلالها طبع الأب سالما قدر الإمكان ...[691]».

(رآر)

يمكننا أن نُعاين بالملموس صحة قولة توماس مان التي مفادها أن «كلّ مَن يحمل نيتشه مَحملَ الجد، وكل من يأخذه حرفيا ويؤمن به، مآله الضياع[692]». وللبرهنة على ذلك سألتجئ إلى تصريح فيلسوفة تونسية، فوزية ضيف الله،

689- نيتشه، **إنساني مفرط في إنسانيته**، ج. 1، § 259، ص، 144. (مع تحوير بسيط).

690- طبعا أنا لا أدين، لكل امرئ الحق في ممارسة حياته الجنسية بحرّية.

691- ن. م، ص، 145.

692- Th. Mann, Nietzsches Philosophie im Lichte unserer Erfahrung (1947), in ID., Das essayistische Werk, Fischer, Frankfurt a. M. 1968, vol. II, p. 46.

بمناسبة تقديم كتابها "كلمات نيتشه الأساسية"، في فيديو موجود على موقع مؤمنون بلا حدود السّلفي.]

إن ما قاله المسكيني والشيخ والأندلسي يكاد ينطفئ أمام المشهد المفزع الذي سأختم به هذه الفقرة. المكان: تونس العاصمة؛ الزمان: 7 نوفمبر 2015؛ الموقع: دار المعلّمين العليا؛ على المنصّة ثلاثة أساتذة: نادر الحمامي، صاحب قولة "نحن في حاجة إلى الأسطورة، لسنا في حاجة إلى نزع الأسطورة. خلّيلنا الأساطير متاعنا نحبّوهم (اترك لنا أساطيرنا. نحن نحبّها)[693]"؛ بِجَانبه الأستاذ الدكتور **محمد بن ساسي**، أستاذ الفلسفة بدار المعلمين العليا، وفوزية ضيف الله، طالبة سابقة عند الأستاذين بن ساسي وفتحي المسكيني، و هي بدورها أستاذة فلسفة؛ الموضوع: تقديم ومناقشة كتاب الدكتورة ضيف الله بعنوان "كلمات نيتشه الأساسية ضمن القراءة الهيدغرية[694]". بعد مقدمة عامة للأستاذ الحمامي، قال فيها من ضمن ما قاله إن مؤسسة مؤمنون بلا حدود "تؤمن بشيء واحد هو الإنسان باعتباره قيمة، أي الإنسان القيمة، ولا قيمة للإنسان بدون تفكير، الخ". بعد ذلك أخذ الكلمة الأستاذ **محمد بن ساسي** وقام بعرض مُضنٍ مطوّل جدا وشاق لكتاب فوزية؛ إثر ذلك أخذت الكلمة، لكي تقدّم وجهة نظرها، وَلكي ترد على التهمة الرائجة من أن نيتشه يدعو للعنصرية والحرب، فالتجأت إلى هايدغر.

قالت: إن تركيز هايدغر على استبعاد القراءات الأيديولوجية التي نظرت إلى كلمة "إرادة الاقتدار" من جهة كونها تحرّض على انتشار مبدأ الأقوى ومبدأ الصراع، استنادا كذلك إلى التفسيرات البيولوجية التي نظرت إلى أنّ مقولة الانسان الأعلى تُشرّع للعنف والصراع. الفهم الهايدغيري الذي يبيّنه هو أصلا، أرجَعَ نيتشه إلى المسار الصحيح. لأن نيتشه عندما يؤكد على **أهمية الصراع من أجل البقاء** فهو يشرّع **للحياة ولا للحرب**، هو يشرّع لضرورة جعل الحياة تمر عبر الجسد الناظم، وهكذا تصبح إرادة الاقتدار مقروءة من جهة الجسد، من جهة ما هو الخيط الناظم، من جهة ما هو فيزيولوجية قائمة على تبنّي المعنى وإنتاجه.

693- انظر فيديو مداخلة نادر الحمامي، في موقع مؤمنون بلا حدود، بعنوان: «نقاش الجلسة الثانية لندوة: الإيمان والعقل: الإشكالات الفلسفية اللاهوتية الراهنة حول الدين». نُشر في 24 أبريل 2016.

694- فوزية ضيف الله، **كلمات نيتشه الأساسية من القراءة الهيدغرية**، منشورات ضفاف دار الأمان دار كلمة منشورات الاختلاف، بيروت الرباط الجزائر 2015.

لكن هذه العموميات هي لا شيء أمام ما ستقوله الآن (الدقيقة 1:58.38): "عندما يقرّ نيتشه بضرورة **منع المرضى والضعفاء من التناسل والتكاثر** ففي ذلك **إنصاف للحياة وليس إنصاف للحرب**". وهنا امتعضَ الجالسون، تململوا وهمسوا؛ الأستاذ بن ساسي رفعَ يديه تعجّبا وغُبْنا؛ الحمّامي طَأْطَأَ رأسه، تأوّه من شدة الألم، لكن النيتشو-هايدغرية ضيف الله واصلت مسارها دون أن تعبأ بأحد، لا بالمستمعين ولا بالأساتذة: «لأن نيتشه **يدافع عن منطق الحياة**. هذا ما يبرره نيتشه، **ولعله أخطأ**». تريد أن تقول إن نيتشه يدافع عن منطق الحياة بالقضاء على المرضى والفاشلين، ولعله أخطأ.

لكنها هي لم تخطئ، لأنها قالت بصريح العبارة: «**أنا شخصيا ضد تناسل الكوارث الطبيعية لأنها أصبحت**»، ماذا أصبحت؟ لم تجد الكلمة؛ تلكّأت وهمهمت، ثم قالت: "لأنها أصبحت يعني، يعني، يعني، **كوارث لا نجد لها حلاّ، وربما الحل النيتشوي كان صائبا في القول بذلك**". وهنا فإن الحمّامي جحظت عيناه، جاءته نوبة ضحك هستيرية من شدّة وقْع هذه الكلمات الإجرامية اللاإنسانية التي لم يسمعها في حياته. والأستاذ بن ساسي، من مكانه، يتغبّن ويرفع يديه كأنما يبتهل إلى السماء ويطلب العفو، ثم يهشّ بيده اليمنى على وجهه من شدة الألمِ والاستغراب؛ لعله تفطّن إلى أنه فشل في مسعاه التعليمي، وبدل أن يُربّي طالبة نَجِيبَة مُحبّة للحكمة، أخرج دراكولا في صورة إنسان.

لكنها لم تتوقّف، بل كأنها عازمة على أن تُدوّخهم وتُجْهز عليهم بالضربة القاضية، قالت، بكل أريحيّة: "**أخلاق الشفقة والرحمة، في معنى ما، تحيلنا إلى مآسي أكبر، لا يمكن حلّها مستقبلا**".

أنا أُضِيف إلى قولة توماس مان، وعلى ضوء هذه الكلمات الأخيرة، أنّ مَن يُجاري نيتشه، ومَن يتبنّى أفكاره ويحملها محمل الجدّ مآله الجنون أو الإجرام، ليس ثمّة من خيار ثالث: النيتشوي إمّا أن يفقد عقله تماما ويصاب بالهستيريا، أو يتحوّل إلى مُجرم سفّاح، إلى دراكولا في صورة إنسان.

لكن مع هذه السيدة، التي لا تُمَانع من تصفية المرضى والمعاقين والفاشلين، وتصرّح بذلك جهارا، يبدو أننا تجاوزنا منطق الـ"إمّا/أو" ودخلنا في منطقة الـ"و/و": الجنون والإجرام في نفس الوقت. وكأنها تَعْمل حرفيا بنصائح نيتشه الذي يُشجّع فيها هو نفسه قرّاءه على أن يبتعدوا عن الطريق الوسط بين الافراط

والتفريط، ويختاروا التصعيد والمبالغة في قَسْوتهم، وأن يَكُونوا إرهابيين، جُلُودُهم جلود بهائم: «إن طريقة تفكيري تقتضي **نفسا شرسة (نفسا حربيّة** «*eine kriegerische Seele*")، **إرادة التعذيب** (*ein Wehethun-Wollen*)، **جِلْدًا صلبا** (*eine harte Haut*)[695]».

(رآز)

لا أدري هل هو من باب الاستسلام القهري أم بدافع الانسياق وراء تيّار الموضة الجارف، يتغاضى العديد من المفكرين عن حقيقة أن نيتشه يقودهم إلى الهاوية، وأنه لا يمكن أن يكون قدوة حتى في ميدان المعاملات الشخصية. فهو يَسخر منهم أشد السخرية ويستهين بعقولهم وأحاسيسهم، ويضرب في العمق كلّ ما هو إنساني فيهم. أليس من باب الإهانة والاحتقار أن يزعم بأنه هو الفيلسوف الأوحد الذي سيضطلع بخلق قيم جديدة للإنسانية؟ أنه سيتكرّم عليهم ببصيص من علمه الغزير لكي ينقذهم من قرون عديدة من الانحطاط؟]

أن يأتيك شخص ويقول لك، بكل اقتناع وجزم، إنه سيأخذ مكان الإله الميّت لكي يبتدع أخلاقا جديدة، يُعوّض بها الأخلاق القديمة، ألا يثير فيك الشك في مدى سلامة مداركه العقلية[696]؟ انظر إلى الفقرة المهيبة التي صدّر بها كتاب «عدوّ المسيح»؛ إنها العبارات الأكثر غرُورا وصلافة التي لا يمكن أن نعثر على مثيلها في أيّ مؤلف فلسفي. يقول: «هذا الكتاب مُخصّص إلى القليلين (den Wenigsten). ولعلّ لا أحد منهم قد وُلد بعد. وربما سيكونون أولئك الذين سيفهمون كتابي **زرادشت**. كيف أملك أن أخلطَ نفسي مع أولئك الذين تنمو لهم الآذان اليوم [إشارة إلى الحمير]؟! إلاّ ما بعد الغد وحده هو الذي يخصّني. ثمة من يأت إلى العالم بعد الممات[697]».

قارنوا بين ما كتبَه أمير الفلاسفة، أعظم عقل فلسفي على مدى التاريخ، في خاتمة كتابه "دحض السفسطة"، عن إنجازه الجديد في علم المنطق، وكيف يطلب من القارئ،

695- نيتشه، **العلم المرح**، § 32، ص، 74.

696- R. Hayman, Nietzsche, Phoenix, London 1997, trad. P. Celotti, Sansoni, Milano 1998, p. 60.

697- ف. نيتشه، **عدوّ المسيح**، الأعمال الكاملة، ج. 6، ص، 167. انظر ايضا الترجمة العربية: نيتشه، **عدوّ المسيح**، ترجمة جورج ميخائيل ديب، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية سوريا 2004، ص، 21. (لم أتقيّد حرفيا بالترجمة، فهي مختلّة وأحيانا خاطئة على طول الخط).

بمنتهى التواضع، أن يكون منصفا في حكمه. إن هذه الكلمات الرائعة التي اختتم بها أرسطو كتابه تمثل درسا نموذجيا لا يُنسى لكل مُتعجرف أفّاك مثل نيتشه. بعد أن لخّص عمله قال أرسطو: «أمّا صناعتنا هذه فلم يكن منها شيء مستخرجا من قبل أو شيء غير مستخرج، بل لم يكن منها شيء موجودا البتّة ... وحتى في ميدان الحجاج الخطابي فإن الأشياء التي قيلت بشأنه كثيرة وقديمة، ولكن بخصوص القياس البرهاني لم يكن لدى القدماء على الاطلاق شيء يَعرضونه قبل أن نُتعب أنفسنا وقتا كثيرا، ونَكِدّ في البحث المتواصل. وبعد الأخذ بعين الاعتبار لهذه المعطيات، إن اعتبرتم أن بحثنا هذا، بالمقارنة مع البحوث الأخرى التي تراكمت بتعاقب الناظرين فيها، قد استوفى الغرض، فما عليكم، أنتم الذين استمعتم إلى درسي إلاّ أن تصفحوا عمّا وقع في بحثنا من تقصير، وأن تُبدوا امتنانا لما اكتشفناه[698]».

وإنْ كان أرسطو له كامل الحق في أن يطلب من مستمعيه تقدير جهوده وشكره على اكتشافاته المنطقية غير المسبوقة، فإن نيتشه ليس له الحق في أن يطلب من قارئه أيّ شيء، لأنه لم يكتشف أي شيء، وإنما صدّر عمله بكلمات أبّهة دون أن يُرينا نوعيّة بضاعته. وأنا لا أدري كيف يمكن لشخص أن يُتابع قراءة كتاب يَعمد فيه صاحبه، منذ الجملة الأولى، للترفّع عليه وإهانته وسحقه. أيّة مصداقية لشخص يطلب من قارئه، بعد هذا الوابل من التحقير، أن يتحلى بخصال لا أخلاقية وأن يترفّع على الناس ويحتقرهم؟ لكي يتمّ فهم أفكاره على أحسن وجه، يقول إنّ على المرء أن يكون صارما في أمور الروح حتّى الخشونة؛ لكي يتمكّن من احتمال «جدّيّتي واندفاعي يجب عليه أن يكون مُتمرّسا على تسلّق قمم الجبال الشاهقة ويرى من الأسفل النمائم البائسة حول السياسة وأنانيّة الشعوب ... أن يُصبح لا مُبال، [...]؛ أن يتحلّى بالشجاعة تجاه المحظور؛ الاستعداد للتيه في الدهاليز. تجربة التوحّدات السبعة. آذان جديدة لموسيقى جديدة... عيون جديدة ترى ما هو أبعد. ضمير جديد لحقائق ما زالت حتى الآن بكماء... حسنا. هؤلاء فقط هم قرّائي، قرائي المُصطَفون: أية أهمية للآخرين؟- الآخرون هم مَحض البشرية قاطبة (der Rest ist bloss die Menschheit) البشرية يجب التفوّق عليها بالقوّة، برِفعة النفس **بالاحتقار** (durch Verachtung)[699]».

698- ARISTOTELE, Confutazioni sofistiche, BUR, Milano 1995, p. 259. (183 b 35- 184 b 8)

699- نيتشه، الأعمال الكاملة. 6، م. س، ص، 167 168.

وعنوان احتقار مُصَعّد إلى الدرجة الألف ما أعلنه في رسالة إلى صديقه بول ديوسن (Deussen) من أنه بصدد اعداد كتاب حالما يُقرأ ويُفهم جيّدا، فإن تاريخ الإنسانية سينقسم إلى شطرين (die Geschichte der Menschheit in zwei Hälften gespaltet)، ومعناه يتلخّص في ثلاث كلمات (in drei Worten): «قَلب كل القيم». ثلاث كلمات خفيفة لكن بسببها سينطلق طوفان جارف من البلاء، كما حدث مع موسليني وهتلر حينما مسكا بالسلطة، وكما حصل مع الإسلاميين حينما نصّبوهم في الحكم. فعلا، استتباعات هذه الكلمات كالآتي: «لن تكون هناك حرية في أكثر الحالات التي كانت فيها سائدة إلى الآن: مملكة التسامح سيُضيّق منها عن طريق قرارات قيمية خارقة للعادة إلى مجرّد جُبن ووهن في الطبع. أن يكون المرء مسيحيا ولذكر استتباع واحد سيصبح أمرا غير لائق. ومعظم هذا القَلْب الراديكالي الذي لم تشهد له الإنسانية نظيرا بدأ بالفعل يعتمل في داخلي[700]».

بينما كان في منتصف كتابه "عدوّ المسيح" والذي أعاد فيه أطروحاته المعروفة: القوة العمياء، الانحطاط، المسيحية كديانة عبيد، يعلن بفائض من البطولية في رسالة لصديقه أوفرباك إن هذا الكتاب «له من الطاقة والشفافية ما لم يدركهما بعد أي فيلسوف. يبدو كما لو أني تعلّمتُ الكتابة للتوّ ... هذا العمل هو قَطع واضح يقسم آلاف السنين [...] وأؤكّد لك أن، بالمقارنة معه، كل ما كان قد قيل وكُتب كنقد للمسيحية هو صبيانية خالصة[701]».

طاحونة افتخاره بنفسه وازدرائه بمجهود الفلاسفة تشتغل بأعلى جهدها، وأصبح لا يرى إلاّ نفسه ولا يستمع إلاّ لصوته، غير قادر على النقد الذاتي، أو حتى تقبّل حوار متحضر مع الآخرين. حينما بعث إلى صديقته مالفيدا فون مايزنبوغ كتيّبه "الحالة فاغنر" أرفقه بهذه العبارات: «أنتِ ستَرَيْن بأن هذه المبارزة لم تفقدني المزاج الطيب. أقولها بكل صدق، تحطيم فاغنر، هو في خضمّ المهام الصعبة للغاية لحياتي ترفيه حقيقي. لقد كتبتُ هذا العمل الصغير في فصل الربيع، هنا بمدينة طورينو: وفي غضون ذلك انتهيت من تحرير الكتاب الأوّل من "قلب كل القيم" أعظم حدث

700- نيتشه بول دويس، 14 سبتمبر 1888.
An P. Deussen, 14 September 1888, in F. Nietzsches Briefe, Schuster und Loeffler, Berlin und Leipzig 1902, p. 536.

701- نيتشه أوفبرباك، سبتمبر 1888.

فلسفي في كل الأزمان، الذي سيشجّ إلى قسمين تاريخ الإنسانية ... هذا الكتاب ضد فاغنر يجب أن يُقرأ أيضا بالفرنسية. ومن السهل حتى ترجمته إلى الفرنسية عوض قراءته بالألمانية. في عديد النقاط فهو له علاقة حميمية بالذّوق الفرنسي: الاشادة ببيزيه (Bizet) في البداية ستكون مسموعة كثيرا [...] الكتيب، في حال ترجمته جيدا إلى الفرنسية، سيُقرأ في كل ركن من أركان العالم: في هذه المسألة أنا السلطة الوحيدة، وبالإضافة إلى ذلك، فأنا سيكولوجي وموسيقي بما فيه الكفاية في غير حاجة إلى إفهامي شيئا حتى من الجانب التقني[702]».

لكن هذه المرأة، حتى وإن تَمَنّت الانتماء إلى تلك القلّة من صفوة الأتباع، فهي لم تشاركه حملته ضد فاغنر، وعبّرت باحتشام عن اختلافها معه: «أنا أتمنى أن أنتمي من اليوم إلى تلك القلة وبالتالي يمكنني بكل حرّية أن أعارضك وأقول لك أين أخطأتَ. أرى، علاوة على ذلك، أنه من غير المشروع التعامل مع حبّ قديم، حتى وإن كان قد توفّي، كما تتعامل مع فاغنر؛ بهذه الطريقة فإن الاساءة تعود على الذات، لأنك في الماضي، رغم كل شيء، كانت هناك محبة كاملة وعميقة، وموضوع هذه المحبة لم يكن شبحا قطّ، بل واقعا شاخصا ومكتملا. إن عبارة «بهلوان» في حق فاغنر وليتست (Liszt) هي كريهة حقا[703]».

أن يَتجرّا واحد من الأصدقاء على نقد نيتشه أو إظهار بوادر التحرّر الفكري منه فهذا عن جدّ يُعتبر تعدّيا على كرامته، واستنقاصا مفزعا من قيمته، وبالتالي عليه أن ينتظر على الفور لهيبا يَلْفَحه على وجهه. وفعلا، ضدّ هذه المرأة التي سمحت لنفسها بعدم مجاراته في وصف فاغنر بأنه بهلوان فإن نيتشه ردّ بقسوة لا تُتخيل: «صديقتي العزيزة. هذه أشياء أنا لا أحتملِ فيها أي اعتراض. أنا، في مسائل الانحطاط (in Fragen der *décadence*)، هو الحَكَم الأعلى الموجود الآن على وجه الأرض (jetzt auf Erden gibt): رجال اليوم، بتفسّخ غرائزهم، من الواجب عليهم أن يعتبروا أنفسهم محظوظين لوجود شخص يسكب لهم، في وضع انحطاط مُعمَّم، خمرا حرّة (reinen Wein)[704]».

702- نيتشه مالفيدا فون مايزنبوغ. 4 أكتوبر 1888.

703- مالفيدا فون مايزنبوغ نيتشه. 15 أكتوبر 1888.

704- نيتشه مالفيدا فون مايزنبورغ، 18 أكتوبر 1888.

ثم قال لها بأن فاغنر ليس بهلوانا فحسب بل هو "عبقري **الكذب** (Genies der *Lüge*)"، «أما بخصوصي لديّ الشرف بأن أكون شيئا نقيضا عبقري **الحقيقة** (ein Genie der *Wahrheit*)[705]». ثمّ أهانها بكلمات لا يمكن أن نعتبرها إلاّ صلفة متهوّرة وشرّيرة جدا، حيث اعتبرها سيّئة الطالع جلبت له كل السوء، وأنها جاهلة: «أنتِ طوال حياتك أخطأتِ في كلّ شيء تقريبا: العديد من سوء الطالع، حتى في حياتي الشخصية، منجرّة عن هذا الأمر ... أنتِ لم تفهمي بالمرّة ولو كلمة واحدة ولو جملة مني».

لقد احتفل بيوم عيد ميلاده الرابع والأربعين بهذا التنبؤ: «تحسّبا لكوني سأضع البشرية عمّا قريب أمام أصعب تحدٍّ لم تعرف له مثيلا في السابق، فإنه يبدو لي من الضروري أن أقول لكم من أنا. مع أنه من المفترض، في الواقع، أن يكون الناس على علم بذلك لأنني لم أدع نفسي "أظلّ نكرة". غير أن عدم التناسب بين جسامة مهمّتي وحقارة معاصريّ قد تجسّدت في واقع أني بقيتُ لا أُسمع، بل ولا أُرى حتى[706]». ثم يواصل في مدح زرادشت «من بين كل أعمالي يحتل زرادشت(ي) موقعا خاصا؛ عبره تقدّمتُ إلى البشرية بأكبر هديةٍ لم يسبق أن نالت مثلها إلى حد الآن. هذا الكتاب بنبرته التي تَعبُر آلاف السنين، ليس أعظم كتاب على الإطلاق فحسب: كتاب أعلى بحقّ يبدو الواقع الإنساني بكلّية رابضا على مسافة كليّة من تحته بل أيضا الكتاب الأعمق؛ كتاب طالع من الأعماق السرية لكنوز الحقيقة؛ بئر لا ينضب حيث لا ينزل دلو دون أن يصعد ممتلئا ذهبا وخيرا كثيرا [...] وحدهم المنتخبون سيحظون بمثل هذه الأشياء، إنها لحظوة لا مثيل لها أن يكون المرء مستمعا هنا وعلى أية حال ما من خيار لمستمتع غير الإصغاء لزرادشت ... أليس زرادشت بسيّد الغواية؟[707]».

عناوين من قبيل "لم أنا على هذا القدر من الحكمة؟"؛ "لم أنا على هذا القدر من الذكاء؟" "لم أكتب كتبًا جيدة؟" هي استفزازية وجارحة، وأكثر منها استفزازا الزعم بأنه يَغمر بالشَرف وبالتمييز كل من يقترن باسمه. وكيف كان يسب الفلاسفة، أمر ليس له مثيل في أدبيات الفلسفة. انظر مثلا إلى الأحكام المتعسّفة التي قذفها في أفول الأصنام:

705- نيتشه مالفيدا فون مايزنبوغ. 18 أكتوبر 1888.

706- ف. نيتشه، **هذا هو الإنسان**، الأعمال الكاملة، ج. 2، ص، 13. انظر الترجمة العربية: نيتشه، **هذا هو الإنسان**، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، كولونيا ألمانيا 2003، ص، 7.

707- ن. م، ص ص، 10 11.

«سينيكا: أو مصارع الثيران من أجل الفضيلة. روسو: أو العودة إلى الطبيعة في طبيعة غير نقية ... دانتي أو الضبع الذي ينظم شعرا في القبور. كانط أو رياء باعتباره طبعا معقولا. فيكتور هوغو: أو المنارة على ساحل أقيانوس العبث...[708]»، وهلمّ جرّا[709].

أما طاحونة التنبؤات بمصيره المستقبلي فإنْ لم تكن صلفة فهي في غاية اللاإنسانية، يقول إنه «سيأتي يوم يغدو فيه ضروريا تكوين مؤسسات يعيش الناس بداخلها ويُعلّمون طبقا لمفهومي للعيش والتعليم؛ وقد تؤسس أيضا كراسي جامعية لتأويل زرادشت[710]». لقد عاش في مدينة طورينو كظلّ، كمُجرّد سائح مغمور لا يعرفه أحد، ومع ذلك فهو يزوّر الأحداث ويختلق مغامرات لا وجود لها. يكتب في إحدى رسائله: «حيثما حللتُ، هنا في طورينو، يتهلّل وينبسط لرؤيتي كل وجه. إن أكبر علامات الإطراء التي راقتني إلى اليوم هو أن البائعات العجائز لا يهدأ لهنّ بال إلاّ بعد أن يَنتقين لي ألذّ ما لديهن من العنب ... إلى هذا الحدّ على المرء أن يكون فيلسوفا[711]». وهذه الأخرى: «ذات يوم سيقرن اسمي بذكرى شيء هائل رهيب، بأزمة لم يُعرف لها مثيل على وجه الأرض، أعمق رجة في الوعي، وحكم قرار حاسم ضد كل ما ظل عقيدة وواجبا وقداسة حتى الآن. فأنا لست إنسانا بل عبوّة ديناميت[712]». إن جنون العظمة وصل من الحدة إلى درجة أن صاحبنا خلط بين الصور الذهنية المتدفقة من فعالية الكتابة، مع أحداث طبيعية خارجية، وكأن الأرض بأسرها تستجيب وترتعد من قلمه وفكره. هكذا يكتب في رسالة إلى كارل فوخس: «إذا أخذتَ بعين الاعتبار كل ما كتبته بين 3 من سبتمبر و 4 نوفمبر، أخشى أن الأرض ستتزلزل. هذه المرة في طورينو، وأيضا منذ سنتين حينما كنتُ متواجدا في نيس (Nice)، نعم في نيس. آخر تقرير المراقبة أعلن البارحة عن رجة أرضية[713]».

708- نيتشه، أفول الأصنام، فقرة

709- لكن هذا السباب والتشنيع على الفلاسفة لم يستنفر مشاعر الكاتب الفرنسي باتريك فوتلينغ (P. Wotling) الذي أورد هذه العبارات وأمثالها في كتابه «مدخل إلى نيتشه. فلسفة الفكر الحر». بعد قراءة سريعة لهذا العمل، أراني مجبرا على القول بأن النيتشوية ما زالت قائمة وصامدة في فرنسا إلى الآن، والدليل على ذلك هذا الكتاب الصادر عن أكاديمي والذي من المفروض أن يحتوي على الأقل على صفحات نقدية، ولكن هذا الكتاب، وأظنه الأحدث في فرنسا، فيه كل شيء إلا النقد. انظر:

P. Wotling, La philosophie de l'esprit libre. Introduction à Nietzsche, Paris, Flammarion, 2008, p. 173.

710- نيتشه، **هذا هو الإنسان**، م. س، ص، 65.

711- ن. م، ص، 70.

712- ن. م، «لم أنا قدر»، ص، 153.

713- نيتشه ميتا فون ساليس، 14 نوفمبر 1888.

لقد نسي تهجّمه على من أسماه بالمتعصب الشرقي (يسوع) الذي ادعى تجسد الحقيقة في ذاته، بالمقارنة مع التنويري الشكاك بيلاتوس، وسقط هو نفسه في وضعية المتعصب، مستعملا لهجة الأناجيل ذاتها، قال إن «الحقيقة هي التي تنطق من خلالي... إنني أول من اكتشف الحقيقة[714]». بعد أن حدث كل ما يجب أن يحدث في العالم، واستنفد الكون طاقته وثراءه لم يبق لنيتشه إلا التوجه نحو الهدف الأسمى ألا وهو الألوهية، وقد أعلن لصديقه كارل فوخس: «سيُقلب العالم في السنوات القادمة رأسا على عقب، وبما أن الإله القديم تنحّى عن كرسيه، من هنا فصاعدا سأحل محله وسأحكم أنا العالم[715]».

كيف يمكن لرجل من هذا القبيل، لرجل لا يرضى إلاّ بالألوهية، ويُوَقّع رسائله «المسيح المصلوب»، أن يكون محبوبا، يتساءل كاتب سيرته فرّيكيا؟ ثم هب أنه عبقري دهره وأوْحَد زمانه، على أي أساس شيّد تلك العبقرية؟ وما الجديد الذي جاء به كي يستحقّ تلك الشهرة؟ الفيلسوف الفرنسي آلفريد فوييه لم يخدع بالإشادة المفرطة بالنفس، وقال إن نيتشه لا يملك الأصالة والجدة اللتان يدّعيهما: «اخلطوا السفسطائية اليونانية والشكاك اليونانيين مع طبعانية هوبز ومع وحدانية شوبنهاور، مُعدَّلَة بداروين، مؤقلَمة بمفارقات روسو وديدرو، ستجدون فلسفة زرادشت[716]». إنها فلسفة تستهوي الشباب الطامح إلى الجديد، إلى الأشياء الصادمة والفاتنة، لكنها في العمق ليست إلا فلسفة «**رجعية بكل المعاني الممكنة للكلمة** (réactionnaire dans tous les sens possibles)»، مَبنيّة على تصوّرات للمجتمع البشري عتيقة، وقروسطية.

714- ف. نيتشه، **هذا هو الإنسان**: «لمَ أنا قدر».

715- نيتشه كارل فوخس، 18 ديسمبرَ 1888.

716- A. Fouillée, Nietzsche et l'immoralisme, Paris, Félix Alcan 1902, p. 249. « Ce que Heine disait de Schiller, on pourrait encore mieux l'appliquer à Nietzsche : chez lui, « la pensée célèbre ses orgies ; des idées abstraites, couronnées de pampres, brandissent le thyrse et dansent comme des bacchantes ; ce sont des réflexions ivres ». Nietzsche a un essor lyrique et une exubérance d'imagination qui laissent Schiller bien loin derrière lui. Il est fâcheux qu'il ait poussé le sentiment de sa valeur jusqu'à l'admiration à la fois aiguë et chronique de soi. Il ne parle jamais de ses œuvres que comme de révélations plus que prophétiques, en même temps que de chefs-d'œuvre poétiques et littéraires ».

«إن ما قاله هاين عن شيلر يمكن تطبيقه بشكل أفضل على نيتشه: فالفكر عنده يحتفل بوليمته الجنسية؛ أفكار مجردة، متوّجة بالكروم، تُشهر ترسها وترقص مثل ربّات الخمر؛ فهي أفكار سكرانة. نيتشه لديه وثبة غنائية، وخيال حماسي يتركان شيلر وراءه بكثير. ومن المؤسف أنه دفع الشعور بقيمته إلى الإعجاب الحاد والمزمن بنفسه. لا يتحدث عن أعماله إلا كوَحْي أكثر مِن نَبويّ، وفي نفس الوقت كروائع أدبية وشعرية».

وقد يشكّ أحدهم في مدى نزاهة فيلسوف فرنسي في الحكم على مفكر ألماني، لكن أين نضع حكم مفكّر ألماني على نيتشه؟ كتب دوهرنيغر (Düringer) سنة 1904، إن فكر نيتشه لم يحز تقديرا من طرف أيّ من الاختصاصيّين: علماء الفيلولوجيا والمؤرخون المحترفون انتفضوا ضده بشدّة؛ في حقل القانون، خصوصا في علم القانون الجنائي، وجدوا جهلا مطبقا في آرائه حول الأخلاق، وحول الجريمة، والإجرام عموما؛ تصوراته الاجتماعية والسياسية تافهة تماما بقدر ما هي طوباوية (sind als völlig wertlos und utopisch) بحيث لا أحد من رجال الاقتصاد اعتبرها تستحق عناء الدحض؛ في ما يتعلّق بالفلسفة يمكن القول إن **الأفكار العمياء لنيتشه** (die blinden Gedanken Nietzsches) هي في معظمها لا شيء سوى انعكاس لعمل فكري أجنبي. فهو ييستحوذ على نتائج البحوث العلمية للآخرين (Anderer)، لكنه يحوّرها في دماغه، فتتحوّل إلى كتلة مشوّهة بلا معنى، إلى لاعلم، إلى محال. وبالجملة: ما هو جيّد في فلسفته، ليس بجديد، وما هو جديد ليس بجيّد[717].

فريدريك نيتشه لم يكن فيلسوفا (Friedrich Nietzsche war kein Philosoph)، يكتب المؤرّخ لامْبريخت، ودورينغر بدوره يضيف إن نيتشه تحوّل، في الواقع إلى عرّاف، وصاحب نبوءات مستقبلية. نعم، كان نبيّا، لكنه كاذب (aber ein falscher)[718]. وختمَها بهذه الدعوة: لا بد للمرء من أن يترك فلسفة نيتشه (der Philosophie Nietzsches lassen).

نجِدُ حكما مشابها، لكن مُعبَّرا عنه بأكثر صرامة وبصراحة قاسية، من طرف الكاتب الروسي ليون تولستوي: «لا أدري لم يُهمل الألمان اليوم هذا الكاتب [ليشتنبارغ (Lichtenberg)] ويُجَنّون، على العكَس من ذلك، بكاتب قصص (feuilletoniste) داعر مثل نيتشه. هذا الرجل لم يكن على الإطلاق فيلسوفا، وليست لديه الإرادة الصادقة للبحث وقول الحقيقة. أنا أرى شوبنهاور أفضل منه حتى من ناحية الأسلوب. لكن، فلنُسلّم بأن نيتشه لديه انتفاخ باهر في العبارات؛ حسنا، هذه فقط هي صفة كاتب قصص (feuilletoniste) والتي لا تسمح بإعطائه مكانا بجانب المفكرين الكبار ومعلّمي الإنسانية[719]».

717- A. Düringer, Nietzsches Philosophie und heutige Christentum, p. 53; 56.

718- *Ibid*., p. 57.

719- U. Ganz, Vor der Katastrophe. Ein Blick ins Zarenreich. Skizzen und Interwies aus den russischen Hauptstädten, Frankfurt a. M, 1904, p. 296.

(زآز)

"إرادة القوة" عنوان كتاب خطّط له وأعلن عنه لأصدقائه، لكن لم يُنشر في حياته، وقد تكفّلت شقيقته بنشره اعتمادا على مخطوطاته الشخصية. اللافت أن المفهوم المحوري في هذا الكتاب وقع فيه التباس وغموض، فكثُرتْ المُراجعات، وتعددت التأويلات، حيث لا واحد استطاع أن يعطي تعريفا معقولا للقوة ولا للإرادة، ونيتشه نفسه تخبّط في هذا الشأن، وغيّر من تعريفاته، وبلور مفاهيمه حسب مزاجه. لكن الضربة القاضية لمضامين هذا الكتاب جاءت من الفيلسوف الفرنسي ألفريد فوييه.]

وقد ابتدأ فوييه بسرد مقاطع طويلة من نص فلسفي، ترك عمدا اسم كاتبه في المجهول. ثم تساءل: من أين استُمدّت هذه الصفحات؟ هل اقتُلعت من بعض الكتب حول إرادة القوّة؟ كانَ بإمكاننا أن نَعتقده لو أنها كُتبت بأسلوب غامض، وبنَبْرة كُهّان، أو لو كانت كل قولة منها تَشْتَعل مفارقات[720]. لا، هذه الصفحات التي تحتوي على كل مبادئ نيتشه، مستنتجه بكفاءة وصرامة فلسفية، هي ليست لنيتشه، وإنما مقتطفة من مُصنف كُتب سنة 1871 حول "الحرية والحتمية"، قبل زرادشت وإرادة القوة بسنين عديدة. ومؤلف الكتاب هو فوييه نفسه، لكن بقي له بعض الشك في أن يكون نيتشه قد قرأه شخصيا، كما قرأ وعلّق على كتابه "العلوم الاجتماعية المعاصرة"، وكما قرأ أيضا كتاب "نقد أنساق الأخلاق المعاصرة". وقد حصل فوييه على ملاحظات نيتشه عن طريق مراسلة شخصية مع شقيقته إليزابيت.

نحن نزعم فقط، يقول فوييه، ولدينا الحق في ذلك، أن نيتشه لم يجعل العالَم يدور حول فكرة جديدة كل الجدة، كما يعتقد، ولا اكتشف نجما جديدا. ماذا فعل؟ فوييه يوعز إلى أن نيتشه انتحلها منه، وحوّرها لأغراضه: «يكفي أن تُشوّه وتُزوّر التحاليل المتضمّنة في كتاب "الحرية والحتمية" حتى تُعطيها هذا النتوء الشعري الذي يصدم الجمهور ويُولّد وهمَ الجِدّة. أن يُدخل كل شيء في قاعدة: "تسريح القوّة"، فهذا، دون شك، اغتصاب للحقيقة، ولكن أيضا اغتصاب لدماغ القارئ، واتركونا نقولها: "... **فليختطفه الغاصبون** (*violenti rapiunt illud*)"[721]».

720- A. Fouillée, Le moralisme de Kant et l'amoralisme contemporain, Paris, Félix Alcan, 1905, p. 246.

721- ألفريد فوييه، **أخلاقية كانط واللاأخلاقية المعاصرة**، م. س، ص، 247.

وهذه باقة من استعارات نيتشه: «الحياة نفسها أسرّت إليّ بهذا السر: أنا من يجب دائما تجاوز ذاته ... أكيد أنه لم يُصب الحقيقة من يتكلم عن إرادة الحياة؛ هذه الإرادة لا توجد. فمن ليس بموجود لا يمكن أن يُريد، وكيف يمكن لمن هو في الحياة أن يريد الحياة؟». هذه المرة نيتشه هو الذي يتنبّأ. وهو أيضا الذي يقول في مكان آخر: «إن قولة سبينوزا الخاصة بالحفاظ على الذات ينبغي أن تعرقل التغيير: الاستمرار الخالص البسيط في الوجود، يعني السكون مثل الإله الكروي لبارمنيدس». «إن حالة ما، إذا تمّ بلوغها، يجب أن تحافظ على ذاتها، هذا إذا لم تتضمن قدرة تتمثل بالتحديد في عدم الرغبة في الحفاظ على الذات». وهذا يظهر جليا في كل كائن حي «يفعل ما بوسعه لكي لا يحافظ على ذاته وإنما لكي يصبح أكثر مما هو».

وهنا يبدأ التحريف السفسطائي لفكرة صحيحة. بالنسبة لنا، يقول فوييه، «إرادة التغيير» تعني إرادة التواصل، إرادة المحافظة على الذات في جزء؛ «أن تصبح أكثر مما كنت عليه»؛ يعني المحافظة على شيء كنا عليه ثم إضافة شيء آخر «هذا ما ذهبنا إليه من جهتنا وما نذهب إليه[722]».

لكن نيتشه، يلاحظ فوييه، لا يمكن أبدا أن يمكث في الصواب: فهو يملك انجذابا لا يُقهر للمراوغة والتهوّر، وهو الوسيلة الفعّالة لجذب انتباه عامة الجمهور. ألم تكسب التكهنات والنبوءات دائما شهرة أكثر من البراهين المنطقية؟ عن طريق تضخيم اصطناعي من جهة، وعن طريق بتْر اصطناعي من جهة أخرى «ما كان الآن حقيقة سيصبح وحشَ خطأ». فعلا، بلعبَة ساحرٍ استبدل نيتشه إرادة القوة التوسّعية بـ«إرادة الهيمنة: أنانية، أنفة، طغيان».

ولكي يصل إلى هذه المحطّة فقد بدأ بأطروحات صائبة: كل ما يحيا فهو يطيع ويأمر، يأمر نفسه، ويطيع نفسه، يأمر غيره ويطيع غيره. وبحسب ما يملك أكثر أو أقل من أمر أو أكثر وأقل من طاعة، وحسب موضوع الأمر والطاعة، فإن الموجودات تُصنّف بحسب مكانتها. ثمة عبيد وثمة أسياد. والسيد هو قبل كل شيء من يأمر نفسه. إرادة القوة تصبح هكذا، عند نيتشه، إرادة هيمنة على الذات. إلى هنا كل شيء يسير على أحسن ما يرام، ونحن نبتهج ونصفّق[723].

722- ن. م، ص، 248.

723- ن. م، ن. ص.

لكن نيتشه يُضيف، كشيء جوهري وليس عرضيا، الهيمنة على الآخر، بل أكثر، استغلال الآخر، امتصاص الآخر لمصلحته. ردّ فوييه، غاضب وقاس، لأنه رأى أفكاره تُستغلّ لغايات غير نبيلة ولاإنسانية. قال: نيتشه يشوّه إرادة القوة غير المتحددة والمتوسعة باستمرار التي كنّا قد طرحناها في كتاب «الحرية والحتمية»، يختزلها إلى شكل خاص وغير مكتمل تستفرد به فقط الكائنات الخاضعة لضرورات الحياة، أي الكائنات الحية البسيطة، في عمليات الأيض: كالتغذّي، والهضم والاستيعاب. وبهكذا تشويش فإن نيتشه سَقَط في إرادة الحياة لشوبنهاور التي يزعم أنه تجاوزها. وحتى إن تموقعنا في وجهة نظر إرادة الحياة هذه، فإنه من غير المبرهن عليه أن الحياة، وخصوصا، الإنجاب أو الرغبة يُختزلان في الهيمنة، في الامتصاص، والهضم. «أنا أتخيل يزعم نيتشه أنّ كل جسم يطمح إلى الاستيلاء على المجال كله وبَسْط قوّته إرادة قوّته ودَحْر كل ما يعترض توسّعه؛ لكنه يواجه باستمرار طموحات مماثلة لأجسام أخرى وينتهي بالتلاؤم، والتوافق مع المتجانسين معه: وهكذا فإنها تتعاضد جميعا للاستحواذ على القوة. والسيرورة متواصلة ...».

على هذه الكلمات يعلّق فوييه: «إن هذه القصة الخيالية الجرمانية حيث كل الأجسام ترغب في الاستحواذ على القوة، حيث تقتتل مثل آلهة والهالاّ (Walhalla)، للانتصار والتوسّع المستمر، للهيمنة فقط من أجل الهيمنة، هذه القصة لا يمكن أن تكون خاتمتها إلاّ اللاأخلاق المطلقة والمعممة بين الأفراد والشعوب، حيث لا يبقى عندهم إلاّ أخلاق الحيوانات الضارية مُصعّدة إلى قانون من طرف بيزمارك و[الجنرال] مُولْتِكَه[724]».

أما من جهة التعاليم النظرية فهو يتموّج بين النزعة الإحساسية الظاهراتية (الميكانيكا)، والسيرورة المستمرة (الديناميكا)، ذاهبا بالتخمينات العمومية المتولدة عن الظواهرية إلى مداها الأقصى حتى يصل إلى نفي أية علّية في الكون: «ليس هناك سبب على الإطلاق: والحالات التي بدا لنا فيها السبب شيئا معطى، التي فيها ألقينا بالسبب خارجنا لكي ندرك ما يحدث، قد تبيّن أننا في ذلك متوهّمون[725]». نيتشه،

724- FOUILLEE, *Ibid*, p. 249. « Ce roman d'imagination germanique où tous les corps veulent conquérir la puissance, où ils bataillent, comme des dieux de Walhalla, pour vaincre et acquérir sans cesse, pour dominer à seule fin de dominer, un tel roman ne pouvait ne pas avoir comme conclusion l'immoralisme absolu des individus et des peuples, chez qui ne subsiste plus que l'éthique animale érigée en droit par Bismarck et de Moltke ».

725- نيتشه، **إرادة القوة**، § 298، ص، 239.

يقول فُوييه، يستلهم هنا مجددا نظرية ويليام جيمس ولانغ، ويُسلّم بها دون فحص أو برهان. «لقد أسأنا تأويل احساس بالقوة، بالتوتّر، بالمقاومة، إحساس عضليّ يُشكّل بداية فعل ما، لنجعل منه سببا[726]» ... «إننا نبحث عن كينونات لكي نفسّر سبب تحوّل شيء ما... وفي نهاية المطاف نفهم أن الكينونات ومن ثمة الذرّات لا تقوم بأي فعل، لأنه لا وجود لها بالمرة، وكذلك فكرة العلية غير صالحة للاستعمال بتاتا[727]».

بأي عماء، يتساءل فُوييه، بأي عماء نيتشه لا يتفطّن إلى أنه، في هذه الصفحات، يحطّم بيديه أسّ نسقه كله؟ إن ما قاله عن العلة والعلية ينطبق بالدرجة الأولى على القوة، والتي هي ليست إلاّ تجريدا إذا لم تُعبِّر عن علاقة ما بين علّة ومعلول، عن سببيّة ما، عن فعل، أو ضرب من الفعل ونمط من القوة، يعني أن تُعبّر عن كل ما عمل نيتشه الآن على نفيه نفيا تاما. إذن، "قوّة" هي ليست إلاّ كلمة، وهذه الكلمة غير قابلة للاستعمال كما العلّية: «وكخلاصة، يقول نيتشه: الشيء الذي يحدث لا يكون مسبِّبا ولا مُسبَّبا: العلة هي ملكة التسبّب، تم ابتكارها وإضافتها لما يحدث. إن التأويل بالعلّية هو وهم[728]». نيتشه نفسه هو الذي يُسطّر. والفيلسوف الفرنسي يردّ بنفس العملة: حتى إرادة قوّتك هي وهم. «نقول نحن بدورنا، مُسطِّرين مِثله إن شيئا ما يحدث، هو ليس قويّا ولا غير قويّ: القوّة هي ملكة استثارة، اصطُنعتَ بالإضافة إلى ما يَحدث. التأويل بالقوّة هو وهم[729]».

لكن الرجل لكي يُنقذ نسقه أضاف: «إن حالتين تتبع احداهما الأخرى: السبب والنتيجة، هذا تصوّر خاطئ. الحالة الأولى لا تتسبّب في شيء، والثانية لا يسبّبها أيّ شيء. يتعلّق الأمر بصراع بين عنصرين قوّتهما متفاوتة: ويتم الحصول على تنظيم جديد للقوى، حسب مقدار قوة كل واحد منهما[730]». تعليق فوييه: ها هي ميثولوجيا القوى الأكثر تجريدا حتى من تلك التي تخص الأسباب: صراع قوى، صراع قدرات غير متكافئة حيث النجاح مُقاس من طرف القدرة؛ إنها أمثولات غير مشروعة إن صحّ أن نيتشه يُسقط، دون استحقاق، على الأشياء مشاعرنا بالتوتّر والقوة والتمدد

726- ن. م، ن. ص.
727- ن. م، ن. ص.
728- ن. م، ص، 240.
729- فوييه، م. س، ص، 252.
730- نيتشه، **إرادة القوة**، § 298، ص، 240.

العضلي؛ هذا لا يستقيم إلاّ إذا كانت نظرية جيمس صحيحة، وإذا لم يوجد أي نوع من الفعالية غير تلك العضليّة، والتي هي بالتحديد انفعال أحاسيس **مخصوصة**.

ليس هذا فقط، بل إن نيتشه يضيف: «الجوهري هو أن يؤدّي العنصران المتصارعان إلى ظهور كميّات أخرى من القوة[731]». وهنا يستعير نيتشه لغة الميكانيكا؛ لكن مجددا، القوة ليست إلاّ تعبيرا ملخّصا للإشارة إلى قاعدة فيزيائية من قبيل (mv) أو (mv^2) الخ. بيد أن عالم الميكانيكا لا يُغلَب، في ميدانه، القدرة على القوة؛ العوامل التي يأخذها في الحسبان هي عوامل رياضية بحتة مثل تلك التي تكوّن أي عملية ضرب. الفيزيائي يعرف جيدا أنه يفكّر على أشياء **مجرّدة** وهو ليس بهذا القدر من السذاجة لكي يعتبر أن قاعدة (mv^2) هي بمثابة تفسير شامل للعالم كله. نيتشه يعتقد أنه وجد هذا التفسير الشامل في تجريد مزدوج: تجريد "الإرادة" وتجريد "القوة". لكن "الإرادة-الاقتدار" هي أقل معقولّية من "الإرادة الحياة" لشوبنهاور أو من سيرورة الأفكار المتناقضة لهيجل.

من الجائز التعبير بمصطلح "القوة" عمّا عبر عنه الآخرون بالتّوق إلى حياة أعلى وأتمّ وأكثر وعيا بذاتها وبالآخرين، بالرغبة في حياة أكمل وأسعد. نحن نعرف جيدا، يقول فوييه، أن كل كائن يطمح في أن يكون أكثر اكتمالا وأفضل، لكن أن يطمح جسم ما في أن يملأ كل المحيط فقط لكي يُهيمن على النقاط التي لا يوجد فيها «**فهذا أجوف الأحلام الميتافيزيقية** (le plus creux des rêves métaphysiques)[732]».

ولو تفكّر نيتشه مليّا في تعاليمه، لاضطر إلى الاعتراف بأن قاعدة: «إرادة القوة»، هي علميّا خاوية وفلسفيا بلا معنى[733]. لكن فوييه ما كان ليعلم أن في بلده سيتحوّل هذا الخواء الفلسفي، على أيدي رجال من أمثال دولوز وكولاكوفسكي وفوكو، إلى امتلاء فلسفي طافح، وسيُثمر أفكارا جِدّ مَسمومة.

(سآس)

ولكي لا يبدو اعتباطيا في أحكامه، فإن فوييه يتوغل في هذه المسألة لإثبات عقمها الفلسفي. إن قاعدة «إرادة القوة»، لن تحوز على قيمة نظرية إلا إذا تمت

731- نيتشه، **إرادة القوة**، ن. م، ص، 240.

732- فوييه، **الأخلاقية الكانطية**، ن. م، ص، 253.

733- ن. م، ن. ص.

البرهنة على أن كل الموجودات تبحث عما اتفقنا، نحن البشر، على تسميته قوّة، يعني أحاسيس مقاومة متجاوزة باستمرار]

وحينما نقول مقاومة، فنحن نستعمل طريقة إنسانية في الكلام، ذلك أن بالنسبة لنيتشه: لا شيء يفعل ولا شيء ينفعل أو يقاوم في عالم الظاهر المحض، بل نَنفَعل ببعض الأحاسيس الوهمية التي تولّدها قوّةٌ ظاهرةٌ ضد مقاومة ظاهرة. طيّب، هب أن الأمر كان كذلك «مَن يستطيع أن يعتقد أن هذه الأحاسيس الذّاتية هيَ التفسير الأخير ليس فقط لكل حركاتنا ولحياتنا كلها، بل أيضا لحركات الكون بأسره، من ذرّة الغبار إلى الإرادة الواعية؟ يجب امتلاك ثقة نيتشه الهائلة في نفسه لقبول مثل هذا البُنيان الضخم ولتقديمه للعالم على أنه كشفٌ لآخر الأسرار[734]».

إن مبدأه هذا، وحيد البعد، جعله يتقلّب ويتراجع حتى بلغ تجريدات الديناميكية العتيقة. وما معنى «قوّته» في النهاية؟ مجرد كيان افتراضي، قوة مفعولات، وكل شيء يعتمد على ما ستكون مفعولاته. إن كنّا لا نُريد من أجل الإرادة بل من أجل الاقتدار، وخصوصا من أجل الفعل، فنحن لا نريد الاقتدار للاقتدار، ولكن لتحقيق شيء ما، لإحداث تغيير في الذات وحول الذات؛ وتبقى مجددا معرفة ما نوع التغيير الذي نريد توليده لكي نكسب الوعي به. إن الدّيناميكية الخالصة لنيتشه تذكّرنا نوعا ما بعبادة الرواقيين للطاقة المتصارعة في الكون، كما عبادة كاليكليس وهوبز والداروينيّين لصراع القوة في عالم الحيوان والإنسان. لكن هذه الديناميكية، مأخوذة لوحدها، هي أكثر شكلانيّة وأكثر خواء من الأولى.

بعد أن زعَم رفْضَ كل كينونة، كل ملكة، كل موجود عيني، نيتشه لا يتفطّن إلى أنه يُبقي على أكثر الكيانات سكولاستيكية: «القوّة». حينما يتكلّم فيلسوف ما، كما فعلنا نحن، (فوييه الذي يتكلّم)، في كل أعمالنا عن علاقات تَعقُّل، عن روابط أحاسيس، عن توافق أو تنافر بين إرادات متعددة، بين إرادتنا الحالية وإرادتنا الماضية أو المستقبلة، بين إرادتنا الشخصية وإرادة الآخرين، حينما نتكلم في الآن نفسه عن علاقات قوة فيزيائية، يعني عن حركة، عن انجذاب أو نفور ... الخ، نحن نعرف عمّا نتحدّث، وبالتالي نبقى في صلب الواقع. لكن، ما علاقات قوة خالصة، وإرادة قوة خالصة، بالمعنى الغائم الذي يعطيه نيتشه لهذه العبارات؟ علاقات قوة لا تشير عنده إلاّ إلى

734- ن. م، ن. ص.

درجات متفاوتة في الشدّة؛ الأذكى يصبح الأقدر؛ الأقوى بدنيّا يصبح الأقدر، الخ. «الكل يُختزل إلى كلمة». فعلا، إرادة القوة، يقول نيتشه «ليست كائنا، ليست سيرورة، بل هي باثوسا (*pathos*)»، ويأخذ هذه الكلمة بمعناها اليوناني «هي عنصر الحدث الذي يتولّد منه تحوّل وفعل ما». لكن هذا الفعل المزعوم ليس إلاّ جمْعا لكلمتين كان نيتشه قد رفض بعناد تحديدهما بأيّ معنى واقعي: «إرادة» و «قوة»؛ أما عنصر الفعل المزعوم هذا، فهو ليس إلاّ واحدا من ألف رغبة من الرغبات التي تعتمل في الإنسان، رغبة الهيمنة على الآخر وبسط قدرة جسدية أو ذهنية مصحوبة بإحساس ممتع بالذات.

«ليس ثمة إرادة، يستنتج نيتشه نفسه، ثمة مشاريع إرادة تتنامى قوّتها وتتناقص بلا توقّف». لكن، يمكننا أن نضيف: ليس ثمة قوّة؛ توجد فقط كُتل وحركات باتجاهات مختلفة؛ كُتل متبوعة بكتل أخرى أو غير متبوعة. وبالجملة، ليس هناك بالمرة، لا إرادة، ولا قوة؛ إذن، كيف يمكن أن توجد في كل مكان «إرادة قوة»؟

هكذا، بكل مرارة، يتساءل الفيلسوف الفرنسي، وجوابه هو أن عنوان كتاب نيتشه الأخير، يعني **إرادة القوة**، هو أنطولوجي مضاعف، لا يقل وهمية عن كتاب فلوجيستيك أو تأثير الأجرام. إن الدوغمائية المتكبّرة لمواطني هيجل وشوبنهاور تتبدّى تحت مظاهر الريبية التامة. كيف يمكن لنيتشه، بعد أن بالغ في السخرية من الميتافيزيقيّين، أن يأخذ ميتافيزيقا أنثربومرفية وزوومورفية (anthropomorphique et zoomorphique) على أنها الكلمة الأخيرة للفلسفة؟ بالمعنى المجرّد، إرادة القوة تبقى صيغة أنطولوجية فارغة؛ في مختلف معانيها الواقعية، هي نظرة وحيدة البعد، تحليل ناقص لعلاقات التجربة العينيّة، موضوع أفكار وأفكار قوة، يريد نيتشه، دون جدوى، أن يختزلها كلها إلى «علاقات قوّة» عِجاف، بتعذيبها على سَرير بروكوست نَسَقه[735].

ليس هذا فقط، بل إن فوييه، مَسَكَ بنيتشه مُتلبّسا بسرقة مفاهيم سيكولوجيا سبنسر وميل وغويو، وطوّعها لأغراضه، والنتيجة هي أنه «يخلط كل وجهات النظر

735- ن. م، ص، 255.
«Le titre du livre dernier de Nietzsche est un titre doublement ontologique, aussi chimérique qu'un traité de phlogistique ou d'influence astrale. Le dogmatisme orgueilleux des compatriotes de Hegel et de Schopenhauer s'y étale sous les apparences d'un complet scepticisme. Après avoir tant raillé les métaphysiciens, comment Nietzsche peut-il prendre une telle métaphysique anthropomorphique et zoomorphique pour le dernier mot de la philosophie ? Au sens abstrait, sa volonté de puissance demeure une formule vide d'ontologie ; en ses divers sens concrets, elle est une vue unilatérale, une analyse incomplète des réels rapports d'expérience, objets d'idée-force, que Nietzsche veut en vain réduire tous à de maigres rapports de puissance, en les torturant sur le lit de Procuste de son système ». *Ibid*em.

(mêle tous les points de vue)، يُدلّس كل الأفكار، لكي يستخرج منها «إرادة القوة» الدائمة. هو الذي كان للتوّ قد اتّهم السيكولوجيّين بأحقر أنواع التدليس؛ مُدلّس العملة بامتياز (le faut monnayeur par excellence)»[736].

إن تَدْليسَه يتمظهر في قيامه بأسوأ تشويه سيكولوجي لأشهر القواعد المُجمع عليها من طرف جمهور الناس كما الفلاسفة: «الإنسان يطمح إلى السعادة». هذا الأمر يرفضه لصالح النّزُوع إلى القوة. لكنه لا يتساءل إذا كان الإنسان في نزوعه إلى القوة لا ينزع، في نهاية المطاف، إلى سعادة القوة، مثلما في الطموح إلى المعرفة أو إلى الكمال، نطمح بالتزامن إلى سعادة المعرفة وسعادة الاكتمال. نيتشه يرفض هذا الطموح لأنه، حسب زعمه، قائم على الاعتقاد في وجود ذات موحَّدة، لكن هذا الاعتقاد، حسب رأيه، خاطئ لأن ليس ثمة أنا حقيقي، وِحدة حقيقية وثابتة. إن إنسانا ما ليس إلاّ كتلة مُبعثرة من الوحدات، وما تطمح إليه كلَ تلك الوحدات، ليس السعادة، بل إن السعادة، مثل اللذة، هي ظاهرة ثانوية ترافق شحنة القوة. لكن، يردّ فوييه، الدليل الذي استخرجه نيتشه من تصوّر «الأنا» التجريبي على أنه متعدد لا يُثبت شيئا لصالح أطروحته: يمكن استعماله للزعم بأن الإنسان لا يطمح إلى الحب، لا يطمح إلى الحياة، لا يطمح حتى إلى القوة. إذن، يختم فوييه، حتى في أفضل تحاليله السيكولوجية، نيتشه ينتهي دائما بالسقوط في نوبة ميتافيزيقية، وبدلا من كشف كل الأشياء، يخلص إلى خلط كل الأشياء في ضباب الغيوم[737].

حيث يرى هوبز وهلفيسيوس ولاروشفوكو الرغبةَ في التمتّع وفي السعادة، نيتشه لا يرى إلاّ الرغبة في بسط القوة. نحن لا نعجب، يقول فوييه، إذا كان نيتشه، على شاكلة لاروشفوكو، يختزل كل المشاعر في الأنانية، لكنه يدمجها تحت قاعدة «أنانية القوة». وبالجملة، بالنسبة إليه، في كل مكان ليس ثمة إلاّ أناس طموحون يبحثون عن جميع أنواع القوة[738]. لكن سيكولوجي وفيلسوف متمرّس مثل فوييه، لا يمكن أن يقبل بهذا الخلط المريع . أن يكون الانسان الفَخُور طَمُوحًا، يمكن أن نسلّم به، لكن

736- ن. م، ص، 265.

737- « Même en ses meilleurs analyses psychologiques, Nietzsche finit toujours par être pris d'un excès de vertige métaphysique et, au lieu de tout démêler, il aboutit à tout brouiller dans un nuage ». ....*Ibid*., p. 270.

738- ن. م، ص، 271.

الشهواني؟ عمّا يبحث في القوة بذاتها ولذاتها؟ إذا نزلت عليه المتعة من السماء، دون أن يفعل شيئا إلاّ التلذذ بها، فماذا تَعْنِيه القوّة؟

لكن نيتشه، رغم هذه البديهيات، يبقى مَسْكونا بفكرته الأحادية، ويعرض علينا، في فانوسه السّحري، مشهد الوجدانات الإنسانية، وهي تمر تحت قناع إرادة القوة. بالنسبة إليه، كما بالنسبة إلى لاروشفوكو، (ومن جهتي أضمّ أيضا ميشال فوكو وإرادة السلطة)، نفس الشخص نجده تحت أقنعة متعددة. كان بإمكان نيتشه أن يقول عن إرادة القوة ما قاله لاروشفوكو، في صفحة شهيرة، عن حب الذات (الأنانية). إن الرغبة في القوة، حسب فوييه، تحيا، هي نفسها، في كل مكان، تحيا بكل شيء، وتحيا بلا شيء؛ تَرضَى بالأشياء وبعَدمها؛ تُعشّش في صف الناس الذين يحاربونها؛ والأروع من ذلك، يقول نيتشه، أنَها تَكره ذاتها مع كارهيها، تشتغل هي نفسها لتدمير ذاتها؛ لا تَهتمّ إلاّ بوجودها، وفي لحظة وجودها، تريد أن تكون عدوّة لوجودها[739].

(شآش)

ما هي استتباعات هذه الرغبة الجامحة في القوة؟ إذا تعلّق الأمر بالعدالة أو الطّيبة أو الإخلاص، وكل الأعمال الصالحة للبشرية، فإنها ستتحوّل، حسب هذا المنطق، إلى مجرد فعاليّة استعراض أناني للذات؛]

إذا قال يسوع: (**دَعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم**)، وإذا أبدى هذه المحبة للضعفاء وللصغار، فهو لم يَبْغ من ورائها إلاّ ممارسة الهيمنة، أو ربما هي طريق للوعي بقوّته أمام مخلوقات صغيرة ضعيفة. حينما تعمد امرأة عطوفة ومخلصة إلى معالجة شخص محبوب لقلبها، فهي لا ترمي إلاّ إلى إبداء إرادة قوتها، إلى الافتخار بكمالها الجسمي أمام ذاك الذي يتألم ويُنازع الموت. نيتشه يقولها صراحة بهذه العبارات: «انظروا إلى هذا الحب، إلى عطف النساء هذا، هل ثمة شيء أكثر أنانية؟ بروح نسقية، فإن المنكوب يذمّ مسبقا العناية التي سيُحظى بها».

739- « Le désir de puissance, lui aussi, vit partout, vit de tout, et vit de rien ; il s'accommode des choses et de leur privation ; il passe lui-même dans le parti des gens qui lui font la guerre ; et "ce qui est admirable, il se hait avec eux, il travaille lui-même à sa ruine ; enfin il ne soucie que d'être, et pourvu qu'il soit, il veut bien être son ennemi" ».

لا شيء، في نسق نيتشه، يخرج من قبضة الأنانية، إن أصغر الأعمال وأعلاها، أضعف المشاعر الإنسانية وأقواها، كلها تندرج في إطار حبّ الذات. إن باسكال **محقّ** في قوله: إذا كان من الواجب إنزال الإنسان حينما يرتفع ، فإنه يجب أيضا رَفعه حينما ينزل. هذه القولة، يرمي من ورائها فوييه، إلى إظهار الطريقة التي يُحقّر بها نيتشه الإنسان ويسحله في الحضيض: «لا أحد يُضاهي نيتشه في فنّ تحقير الطبيعة الإنسانية (dans l'art d'avilir la nature humaine)»[740]. مهما فعلنا، ومهما قلنا، ومهما فكرنا، فهو يأخذ كل شيء من الجانب السّيء، مثل أولئك المرضى المصابين بهذيان الاضطهاد، والذين يعتقدون أننا إذا مَدَدنا لهم يَد العون، فذلك لكي نؤذيهم.

كل المشاعر النزيهة، يواصل فوييه، تفقد وزنها في الميزان المرتعد لنيتشه. أمام ابداع فني جميل، تقولون، نحن لا نكتفي بالإعجاب بالعمل في ذاته، بل نريد أيضا مدح الفنان؛ لكن نيتشه يمنعكم من ذلك على أساس أن المدح هو طريقة في التعويض عن خيرات مُنحت إلينا، هو تعويض لا يهدف إلاّ إلى تخليصنا من كل اعتراف بالجميل؛ إنه أيضا «شهادة قوّتنا لنا، لأن الذي يَمدح يُؤكد، يُقدّر، يُقيّم، يَحكُم؛ وهو يدّعي الحق في القدرة على التأكيد، القدرة على إسناد شرف ما[741]. نيتشه هو الذي يسطر أسفل الكلمة الجميلة «**قدرة**» والتي بنى عليها قصر غيومه.

إن كلمة «قدرة» يمكن أن تُلصَق بأي شيء، نظرا إلى أن كل ما هو فعلي يفترض الممكن؛ أنا آكل إذن يمكنني أن آكل، وبالتالي إذا أكلتُ فلكي أؤكّد لنفسي قدرتي على الأكل. أنا أحبّكَ إذن يمكنني أن أحبّك، وبالتالي أحبك لكي أشعر بقدرتي على أنني أحبّك. في الوقت المناسب ليس ثمة ما يمنع من أنه حيث يوجد ما هو **بالفعل** نعثر على ما هو **بالقوة**.

على أساس هذه السلسة من الأخطاء، لا في الكتابة، وإنما في التفكير، يقول فوييه، يصل نيتشه إلى اكتشاف أن في الشعور الأخلاقي المزعوم للاعتراف بالجميل ثمة شعور

740- ن. م، ص، 273.

741- انظر: نيتشه، **إرادة القوة**، § 343، ص، 270 271. «أمام عمِل فنّي لا نكتفي بتأمّل العمل ذاته بل نريد الثناء على الفنّان. فما هو الثناء إذن؟ نوع من التعويض على خيْرات نلْنَاها، إرجاع ، شهادة على قوّتنا نحن، لأنّ الذي يُثني، يؤكد ويُقدّر ويُقيّم ويَحْكم: إنه يستأثر بحق الإثبات، بحثَ التشريف ... الإحساس المكثف بالسعادة وبالحياة هو كذلك إحساس مُكثّف بالقوة: وانطلاقا من هذا الإحساس يُثني الإنسان ... العرفان بالجميل هو انتقام قويّ: انتقام تتم المطالبة به وممارسته بقسوة بالغة هناك حيث يجب الحفاظ على المساواة والأنفة في ذات الوقت، هناك حيث تتم ممارسة الانتقام بأفضل طريقة».

لاأخلاقي: **الانتقام**[742]. لكي نَنتقم، نحن نشكُر؛ لكي نَثأر نحن نُجازي الخير بالخير أو الشر بالخير، وبالجُملة: «الاعتراف بالجميل هو انتقام». هذا هو لب أخلاقيات نيتشه، إنها وحشية ما بعدها وحشية. ولا حتى محبة الرجل للمرأة أو المرأة للرّجل تنجو من هذا المصير التعيس. فعلا، حسب رأيه، كما حسب رأي هوبز ولاروشفوكو أنت تعتقد بأنك تحب الآخرين لذاتهم بينما في الحقيقة أنت تحبّهم لنفسك فقط. عظم النفس بالنسبة إلى لاروشفوكو يُعبّر عن نزعة الأنفة؛ أنت تحتقر الكل لكي تمتلك الكل؛ تجعل الإنسان سيّد نفسه لكي يصير سيد الكلّ. هذا بالضبط ما يُردِّدُه نيتشه: أن يأمر الشخص نفسه لكي يقدر على التسلط على الكل. السخاء بالنسبة إلى لاروشفوكو ليس إلاّ طموحا مُقنّعا، هو استعمال حاذق للنزاهة بغرض نيل مصلحة أكبر. في نظر نيتشه، ليس هناك في السخاء حساب مصالح، بل ثمة سَكرة القوة، والتي هي، في العمق، يقول فوييه، المصلحة العليا. الخيريّة بالنسبة إلى لاروشفوكو هي ليست إلاّ واحدة من الطّرق المُلتَوية التي يستعملها الحب الذاتي لتحقيق غاياته. بالنسبة لنيتشه، الخيرية هي وسيلة أخرى لتمديد الفعل والقوة على حساب الآخر، ولإثارة انتباه ومحبة وخوف الآخرين.

العطف والرحمة بالنسبة لهُوبز ولاروشفوكو هما حصافة أنانية؛ عند نيتشه هما جبن، ووهن، وانهيار لإرادة القوة، وإحساس ضد الطبيعة. لكن في نقطة واحدة، لا هوبز ولا لاروشفوكو يوافقان نيتشه على أن فكرة الواجب تفوح منها رائحة القسوة، وأنها تحويلٌ ورَوْحَنَةٌ للشعور الحيواني بالوحشية، أي التلذذ بالتعذيب الذاتي. الواجب، يقول فوييه، يُعْلينا على الوضاعة، وبفضله نحقق مثلا أعلى، ولا يمكن أن يكون أبدا مصدرا لتعذيب النفس. الحقيقة الحقة، يخلص فوييه، هي ألطف من سفسطائية نيتشه[743].

فوييه يقوم بهذه التجربة الذهنية، ويطرح تحدّيا محرجا جدا على نيتشه وأتباعه. قال: نحن نعلم أن كانط، مُتذكّرا باسكال، جعل من **الرِّهان** (le pari) وسيلةً لوضْع قناعات الأشخاص على المحكّ. حسنا؛ هل بمقدور لاروشفوكو ونيتشه أن يُراهنا رأسهما بأنه لم يوجد قط، ولن يوجد بالمرة عند أي شخص، وفي أي مكان من العالم، أدنى ذرّة من النزاهة؟ نذهب أبعد، هل يتجرّآن على المراهنة على أنه لا يوجد لها أثر

742- ن. م، ص، 274.

743- ن. م، ص، 279.

في قلوبهما؟ نيتشه، حسب فوييه، ربما كان سيُراهن، لأنه يحبّ المخاطرة ليس فقط المخاطرة المعقولة التي تكلم عنها غويو، بل المخاطرة المجنونة (le risque fou)، هيام الأرواح المجنونة (charme des esprits fous)[744].

لكن نظيره لاروشفوكو لن يراهن؛ فهو سيّد نفسه كثيرا، مالك لكل قدراته العقلية: ليس بشاعر، هو محلّل؛ ليس بعرّاف، بل صاحب بصيرة ونَظَر ثاقب، رغم أنه لم ير إلاّ نصف الروح البشري. إن أغلب الناس، يواصل فوييه، إذًا تعلّق الأمر بالمراهنة، يُمْسِكون، بنوع من الخوف الممتزج بالاحترام، أمام ضميرهم الشخصي، وهذا الخوف يوقظ فيهم فكرة هادية، فكرة الكرامة الفردية والحب الشامل والتي يكفي تصوّرها في الذهن، حتى يبدؤوا في تحقيقها[745].

إن نيتشه ولاروشفوكو، ولكن هذا الحكم ينطبق على كل الأنانيين، في تحليلهما للمشاعر الإنسانية، يُفكّران مثل ذاك الذي وجدَ نُحاسا في قلادة من ذهب، فحكم بأن القلادة كلها من نُحاس.

مع اختلاف بين الرّجلين، يؤكد فوييه، وهو أن عند لاروشفوكو، عَوِّضوا الروح اللّطيف بروح المبالغة، استبدلوا العقل البارد باللاعقل، فستَحصلوا على نيتشه. مثل العديد من الشعراء، فإن نيتشه له في دماغه عطالة منطقية؛ وهي لا تمثل بالنسبة للفيلسوف خاصّية فاضلة. وفي النهاية، يكتب فوييه: نيتشه «مُزوّر كبير زوّر نفسه بنفسه، ورأسه الحارق هو بركان يقذف حِمما من السفاسف[746]».

(صآص)

ولم ينته فوييه من مماحكته، بل ذهب إلى مدى أبعد ودخل في تفاصيل لم نقرأها لا عند دولوز في كتابه الفظيع «نيتشه والفلسفة» ولا عند أحْدث المؤولين الفرنسيين، من أمثال ميشال هار (M. Haar) أو باتريك فوتلينغ (P. Wotling).

744- ن. م، ص، 280.

745- ن. م، ن. ص.

746- ن. م، ص، 282.

« Un grand mystificateur mystifié par lui-même, sa tête ardente est un volcan qui rejette en lave tous les sophismes ».

عن إرادة القوة، يقول فوييه، لا نعثر عند نيتشه على استقرار من حيث التعريف والتحليل والنتائج، فهو يبدّل ويحوّر آراءه من صفحة لأخرى.]

فعلا، بعد أن قال إنها إرادة عمياء، ماح إلى الحياة عامة، ثم انتقل إلى الجسد والغريزة، ثم عاد إلى إرادة الحياة الشوبنهاورية التي كان قد رفضها، ثم الجسد. وأخيرا قال: «ليس تزايد الوعي هو الهدف بل تصعيد القوة، وفائدة الوعي متضمنة في هذا التصعيد؛ وبالمثل في اللذة والألم. لا يجب اعتبار وسائل بسيطة كقيَم عليا (على سبيل المثال حالات وعي مثل الألم واللذة، بينما الوعي ذاته ليس إلاّ وسيلَة)». إن هذه الجملة التي أوردها فوييه في مجرى نقاشه لنيتشه لو قرأت بمفردها لما عنت لنا شيئا. لكن فوييه الذي تتبّع بالتدقيق نص إرادة القوة، فهم معناها جيّدا واستخرج منها النتائج اللازمة.

هكذا يفكّر اللاأخلاقي الكلام لفوييه ويقصد به نيتشه طبعا (ainsi raisonne notre amoraliste)، هو الذي استهزأ بأصحاب العلل الغائية، لا يرى أنه هو نفسه واحد من أصحاب العلل الغائية بتصوّره أن الكائن يتبع القوة بهدف القوة فقط، دون التفكير في التنعّم بهذه القوّة أو الوعي بها. إذا كان الكائن لا يشعر بشيء ممّا يستطيع ولا يدري ما يستطيع، إذا كان لا يملك وعيا بقدرته ولا إدراكا لها، فيا للتقدّم الباهر! إن هذا الكائن يُشبّهه فوييه بمِدْفع قادر على قَذف قُنبلة لعشرين كيلومترا، لكنه لا يعرف عنها شيئا، ويتقيّأ آليّا وباستمرار نارا ودخانا[747].

لقد لاحق فوييه نيتشه في هذا الكتاب الرائع وحاصر أتباعه ووضعهم في مفارقات خطيرة لا أظن أن النيتشويين استطاعوا حلها أو تجاوزها. يقول: يمكننا أن نحبس نيتشه وتلاميذه المحدثين في مفارقة ثلاثية ونتحدّاهم أن يستطيعوا الخروج منها.

1) إمّا أن تكون إرادة القوة (والاقتدار) قاعدة شكلانية مجرّدة؛ وإذن، فهي صالحة لكل شيء، وبالتالي غير صالحة لشيء ولا تُفسّر أي شيء؛ أو أنها تشير إلى علاقات واقعية وقابلة للمعاينة؛ ولكنه أمر لاعلمي الزعم بأن كل العلاقات التجريبيّة تُختزل في علاقات قوة أو في البحث عن القوة؛ إنها مَحْو بجرّةٍ قلم لثلاثة أرباع الواقع، ثلاثة أرباع العلاقات الفعلية التي تكشفها التجربة. إن السِّكير الذي يَثْمل لا يحلم بالقوة، حتى لا شعوريا، والسّكر في حد ذاته ليس بعلاقة قوّة؛ العاشق، بين أحضان حَبِيبته

747- *Ibid.*, p. 293-94. « Il est comme un canon qui pourrait envoyer un boulet à vingt kilomètres, mais n’en saurait rien et vomirait machinalement feu et fumée ».

لا يبحث عن القوة أو السلطة، بل اللذة؛ الرأفة بالتعساء ليست غريزة هيمنة؛ ولا الخجل أو العفة، أو التواضع ... الخ. دون شك، كل شيء قابل أن يُزَيَّف وأن يُشوّه، مشاعرنا كما باقي الأشياء: ونيتشه بارع في ذلك أشد البراعة. يمكننا على أية حال أن نَعثر على عناصر وَضيعَة بجانب بُذور عَظمة، لكن هذا ليس مبررا لخلط كل الأشياء في تعطّش مَزعوم للَقوة يتحكّم في الكائنات، بعَمَاء وغباء، بدل التّوْسِيع من أفقها ونشاطها، بدل أن تتخطّى القوة مثل كل النشاطات الأخرى.

2) مفارقة أساسية ثانية (أتَابِعُ ترجمة نص فوييه، صفحة 294 وما بعدها) نُحكمُ بها القبضة على نيتشه وأتباعه، وهي تلك المتعلقة بالحقيقة: إما "لا شيء حقيقي" والحقيقة ليست إلاّ وجهة نظرنا البيولوجية، وبالتالي ليس ثمة حتى علاقات مصلحة حياتية ولا علاقات قوّة يمكنها أن تكون حقيقية، نسبيّا أو قابلة للتحديد، وإما أن تكون هناك علاقات حقيقية نسبيا، مستقلة عن أحاسيسنا، وإذن منظوريتنا الحيوانية أو الإنسانية ليست هي مقياس كل شيء. الرأي الأصوب هو الثاني، وإلاّ لو لم يكن ثمة من حقيقة، فلماذا تَنْحَني فوضى الظواهر خاضعة أمام علْم البصريات؟ لماذا تسمح أشعة النّجم فيغا (Wéga) أو أنطاراس (Antarès)، عندما نُحلّل طيفها، بمعرفة التكوين الكيمياوي لنجوم غريبة على حياتنا، ولا مُبالية تماما "بمنظورنا"؟ إن تقدّم العلوم الحديثة، يقول فوييه، هو الدّحض اليومي (la quotidienne réfutation) للذاتويّة المطلقة لبروطاغوراس وحتى للذاتوية النسبية التي تُمثل الأرضية الأولى للكانطية.

3) أخيرا المفارقة الثالثة التي نَحصر فيها نيتشه، يقول فوييه، ليست أقل إحراجا من سابقاتها. إمّا أن "كل شيء جائز"، وإذن لا مجال لإرساء "سُلّم قِيم"، حتى نسبي، ديناميكي، صالح بيولوجيا؛ أو أن ثمة واقعيا علاقات قوة، عقلنة، إحساس والتي هي باتجاه "الحياة الصاعدة"، لا "النازلة"، باتجاه "تمدّد" الواقع لا "انحطاطه"؛ في هذه الحال إذن ليست كل الأشياء متكافئة بالنسبة لإرادة كائن عاقل قادر على تحديد وتقييم تلك العلاقات. إن اللاأخلاق المطلقة، مثل الريبية المطلقة، يجب أن تنغلق في الصمت المطلق؛ لا يجب عليها التصريح بأيّ حكم حقيقي، أيّ حكم مصلحي، ولا أيّ حكم قيمة، وأقل منه أن تتحمّس حتى الهذيان، مثل زرادشت، لنموذج الإنسان الأعلى.

فوييه يُعلمنا بأن أتباع نيتشه المتأخرين (الكتَاب صدر سنة 1905) يتجادلون في هذه الصعوبات الثلاث وغير القابلة للحل، ولاَ يجدون من مخرج أمامهم إلاّ اللعب

على الكلمات وتشويه معانيها. وقد أعطى مثال واحد من النيتشويين الفرنسيين، جول دي غولتييه (J. de Gaultier) الذي زعم أن «الجهد الإنساني في سبيل اختراع قيمة أعلى من القوة، يتلخص، في نهاية المطاف، في تمويه القوة تحت مظهر اسم مخالف. إن عمل نيتشه يفضي تماما إلى الغاية التي يرمي إليها. فهو يُظهر أن لا وجود لقوّة تعلو على القوة وأنه، كلّما بدا، في دنيا الأخلاق، أن مبدأ مغايرا قد انتصر، لا نكتشف إلاّ حالة مُقنّعة من القوّة[748]». اعتراض فوييه: نحن لا نقبل هذا الاختزال الذي يُقلّص كل شيء إلى قوّة، اللهم إلاّ إذا أخذنا كلمة قوة بمعنى فضفاض يدخل فيه كل شيء: قوة فكرية، قوة أخلاقية، قوة عضلية ...الخ.

إن النيتشويين أنفسهم هم الذين يَكْسون الأشياء ألبِسَة مختلفة، ويخفونها تحت مظاهر اسم واحد: «القوة». هذه القوة الخالقة لكل شيء، لكل طاقة ولكل شكل من أشكال الحياة، تبقى مبدأ غائما لا يحل أي مشكل فلسفي، بل ثمة خطر الوقوع في مصادرة على المطلوب: القوة تفسر القوة، الطاقة تفسر الطاقة، الجمال يفسر الجمال، وكذلك الأخلاق تفسر الأخلاق. هنا، يؤكد فوييه، يقع نيتشه وأتباعه في كماشة لا انفكاك لهم منها، يضعون أنفسهم أمام عجز مطلق، لا أخلاقية مطلقة، طالما لا يُدخلون في قوّتهم البدائية الشاملة مبدأ معقولية ما، وحتى مبدأ محبة، أو أفكارا موجّهة، ومشاعر موجهة: «عند التلاميذ، كما عند المعلّم، التفسير المزعوم بإرادة قوة يبقى لفظيّا ولا يتغذّى إلاّ من ذاته[749]».

(ضآض)

على مستوى قِيَمي بحت، إرادة القوة لا يمكن أن تؤدّي إلاّ إلى النفي المطلق للأخلاق، إلى التكريس الأشرس لقانون الغاب على وجه الأرض.]

فعلا، النتيجة الضرورية للاّأخلاق النيتشوية، تنبع من قاعدة أنه لا يجب أن نَشْجب أيّ شيء. ونيتشه هنا يعتمد على ما يمكن أن نسميه في اللاهوت الإسلامي

748- M. J. de Gaultier, « Nietzsche et la croyance idéologique », in Revue des idées, 15 septembre 1904, cit in E. Fouillee, L'amoralisme, op. cit, p. 295.

749- ن. م، ص، 296.

« Chez les disciples comme chez le maitre, la prétendue explication par une volonté de puissance demeure verbale et ne se nourrit que d'elle-même ».

بالجبرية المطلقة، أو القضاء والقدر، الحتمية الشاملة، في لغة الفلسفة. في العالم الواقعي، حيث كل شيء يسير بحسب تسلسل محكم، إدانة شيء ما وإبعاده عن المخيّلة، يعني إدانة الكل وإبعاد الكل، وبالتالي إدانة جريمة قتل الأب، مثلا، تعني إدانة العالم كله. إن قولة: «هذا الشيء ما كان يجب أن يكون، ما كان يجب أن يكون على هذا النحو»، هي مهزلة في رأي نيتشه. إنه من العبث بمكان تخيّل، مثلا، الاستتباعات التي تَنتُج لو لم تُقترَف جريمة قتل الأب؛ سنحطّم منبع الحياة، لو أردنا محو ما هو خطير ومُدمّر منها. بهذه العملية يعترض فوييه فإن نيتشه يعود ليس فقط إلى الحتمية التي كان في مواضع أخرى قد رماها بسهام سيّئة الشحذ (mal aiguisées)، بل إلى الجبرية المطلقة على شاكلة سبينوزا حيث لا شيء وضيع في عالم جوبيتير. إنه يعود أيضا إلى البرهان الكسول للجبرية المحمدية (يقصد بها الاسلامية). إرادة محو أو تفادي ما هو مضرّ بالحياة، مثل الطاعون، هو إرادة تحطيم منبع الحياة؛ إذن مرحى بالطاعون، فلنَسْتقبله دون التجرّؤ على مقاومته، لا في الخيال ولا في الفعل[750].

وعن طريق هذه الجبرية المطلقة فإن نيتشه، مُعلنا انتصاره، يقول: «هكذا نرى كيف أن الأخلاق تُسمّم كل تصوّر للعالم». وجواب فوييه: كان باستطاعة نيتشه أن يُضيف: هكذا نرى كيف أن الطبّ يسمّم كل تصوّر للعالم برغبته في اعطائنا ترياق وأجسام مضادّة، باعتقاده أن هذا الإنسان ما كان ينبغي أن يموت، أن ذلك المرض المعدي ما كان ينبغي أن يُوجد[751].

إذا صَدّقنا نيتشه فإن هذه الفلسفة اللاأخلاقية، تُنتِج تفاؤلا واعيا، في البداية تتحول هذه اللاّأخلاق إلى ما هو أكثر عدميّة من العدمية الحالية، تدفع بالعدمية إلى استتباعاتها القصوى، لكن ليس للمكوث فيها، بل للخروج منها. فهي لا تريد أن تقف عند حدّ «لا» النافية، مستوى إرادة النفي، بل تريد أن تَنفُذ إلى ضدها، وتبلغ التأكيد الديونيزي للعالم كما هو، دون تحقير، دون استثناء أو اختيار: تريد الحركة الدائرية الأبديّة، نفس الأشياء، نفس لامنطق التسلسل. هذه هي الحالة العليا، يقول نيتشه، التي يمكن لفلسفة أن تبلغها: أن تكون ديونوزيا أمام الوجود. قاعدتي، يضيف نيتشه، هي حب القدر (amor fati). أحيانا يقترب غوته من هذه الحالة؛ ونيتشه يريد هو

750- ن. م، ص، 297.

751- ن. م، ن. ص.

بدوره أن يُلقي على العالم كما هو "نظرة غُوتيّة (نسبة إلى غوته)، نظرة كلها محبة وحسن إرادة" ومن هذا المطبّ يتجاوز التشاؤم.

لكن فوييه لم ينخدع بهذا الكلام الجميل. نيتشه يتجاوز التشاؤم بالتصريح بأن أسوأ العوالم هو أحسن العوالم؛ بالقول "نعم" ومَرحى بالعذاب، بالهلاك، والرذيلة والإجرام والموت الأخلاقي[752]. بفضل سَكْرة ديونيزوس، ودون تغيير شيء من الشرور التي يلاحظها في العالم، فإن التشاؤم يتحول إلى تفاؤل مطلق. نيتشه لا يكتفي بالقول، مثل الرواقي: "أيّها الألم، أنت لستَ شرّا"، بل يقول: "أيها الألم، أنت خير لأنك صادر عن الكلّ، وهذا الكل لا غاية له ولا هدف ولا معنى".

لكنه لا يتفطّن إلى أنه بقَوْله: "نعم" للعالم، للشرّ، للعذاب يسقط، مثل الآخرين، في رذيلة إرادة تقييم ما هو موجود، لأن قول "نعم"، هو تقييم كما قول "لا" أيضا. لكن نيتشه سائر قدما لا يلتفت إلى تناقضاته: «إن نقدا للوجود، بالاعتماد على واحد من قِيَمه، هو شيء بلا معنى وغير معقول؛ حتى بالاعتراف بدخول سيرورة تدمير، فهذه السيرورة ستكون في خدمة هذه الإرادة»؛ «تقييم الوجود ذاته! لكن هذا التقييم لا يزال جزءا من الوجود وبالقول "لا"، مازلنا نفعل ما نحن عليه ...». ردّ فوييه: لكنك أنت، بتقبُّلك الوجود، بإعطائك القَدَر حُبّك، بالقول "نعم" لكل شيء، تحكم على الوجود، تحكم عليه بأنه حسن، سواء في ذاته أو بالنسبة إليك، بل أنت أكثر لامنطقيّة ممّن يقول: "أنا أتألّم إذن ثمّة ألم في العالم، على الأقل بالنسبة لي". أنت تقول: "أنا أتألّم، إذن كل شيء حسن". وهكذا فإن «هذه السّكرة، ديونوزيّة كانت أم لا، هي، كما كل السّكرات، نوع من الجنون. أريد من كل قلبي أيضا أن تكون شعرا أو دينا ...؛ لكنها من الأكيد ليست فلسفة بالمرّة[753]».

وفي ملاحظة أسفل الصفحة وضع فوييه توضيحا لقولته هذه. قال إن نيتشه الذي يصف الرومانطيقيين وفاغنر بأنهم مُشعوذون، يمارس هو نفسه شعوذة تقريبا لاواعية. كفنّان وشاعر، عاب على الرومنطيقية صيغة "التعزيز الكاذب"، الحماسة و"غنى

752- « Il le surmonte en déclarant que le pire des mondes est le meilleur des mondes ; en disant oui et tant mieux à la souffrance, à la mort, au vice et au crime, cette mort morale ». *Ibid.*, p. 298.

753- ن. م، ص، 299. النص الفرنسي في الأسفل.

« Cette ivresse, dionysienne ou non, est, comme toute ivresse, une sorte de démence. Je veux bien que ce soit aussi une poésie et une religion … ; à coup sûr, ce n'est pas une philosophie ».

المعنى المتواصل"، وهي ليست علامة قوّة، بل مؤشرَ عوز وضعف. لكن هو نفسه، ماذا فعل في الفلسفة سوى أنه يعزز كل شيء، يبالغ، يدفعً إلى الأقاصي، ويصل إلى غاية النشوز؟ أليس مؤشر ضعف عقلي هذا؟ الفن الجلل يقول نيتشه هو الحاجة إلى شيء "ما وراء الحماسة". لكن، ينتفض فوييه، مَن كان أكثر من نيتشه حماسة ضد الأخلاق؟ من الذي شحَنَ أكثر منه بالحُنق هجومه على الطّيبة، الرحمة والعدالة؟

حكم فوييه على نيتشه هو هذا: «مضطرب وهائج في الفلسفة، لم يسكُن قط المعابد الهادئة للحكماء، لم يُجرّب فكرُه إطلاقا شيئا "ما وراء الحماسة". كان في السيكولوجيا والأخلاق آخر الرومانطيقيين[754]». أن يتباهى بتجاوزه منطق البرهان، وأنّ فلسفته تُعبّر عن شخصه وجسده، فهذا مثال رائع، يقول فوييه، للنزعة الغنائية، ليس منهج العلم والفلسفة: «بالنسبة للفيلسوف والعالم من المريح جدا تجاوز البراهين؛ لكن هذا جيّد للمتصوّفة، كما للشعراء والأنبياء[755]».

(طآط)

أعزّ وأثمَنُ جوهرة في فلسفة نيتشه: "فكرة موت الله" هي أيضا لم يتم الاجماع على معناها: الملحدون يعتبرونها كسبا ثمينا لهم، المؤمنون يرفضونها ويعترضون أن الإله الذي يعنيه نيتشه هو الإله الأخلاقي، وأنه يجب التركيز على خطاب المجنون الذي كان أكثر حصافة حينما أعلن أنه يبحث عن الإله الحقيقي. أكثر من روّج إلى هذه الفكرة هما هايدغر وياسبرس.]

في تحليله لقولة نيتشه "إن الله قد مات"، دخل هايدغر في مماحكة جدالية مع النّيتشويين الملحدين، مُنبّها إياهم أن اختزال فكر نيتشه في الإلحاد، يعني البقاء متورّطين في الواجهة الخارجية والمهترئة للعدمية[756]. خطاب نيتشه الذي وضعه على

754- ن. م، ص، 299.

755- ن. م، ن. ص.

« Nietzsche prétend ainsi surmonter la démonstration, être absolument personnel. C'est un merveilleux idéal du lyrisme, non la méthode de la science et de la philosophie. Pour le philosophe et le savant, il serait trop commode de surmonter les démonstrations ; cela est bon pour les mystiques, comme pour les poètes et prophètes ».

756- M. Heidegger, Nietzsches Wort „Gott ist tot", in Holzwege, Vittorio Klostermann, Frankfurt am Main 1994, p. 219.

فم المعتوه، والذي يُعلنُ فيه عن موت الله لا يشترك في شيء مع الآراء السطحية لأولئك الذين ينكرون وجود الله. إن عبارة "الله قد مات" لا تتضمّن أية نَبرة سالبة، ولا تُعبّر عن كُره حقير ضد الله وضد الدين، كما لو أنه قيل: «ليس هناك أي إله». نيتشه، حسب هايدغر، اكتفى فقط بالإعلان عن إله قُتل وبالإشارة إلى الكيانات المسؤولة عن هذا القتل: **فكر القيم، الميتافيزيقا، الاَشتراكية، الد يمقراطية، العدمية** غير المكتملة. لا ينبغي بالتالي أن نَخْلط نيتشه «بأولئك الملحدين السّطحيين (*oberflächlichen Atheisten*) الذين يُنكرون وجود الله إذا لم يعثروا عليه في أنبوب اختبار، والذين في مكان الله، المَنفيّ بهذه الطريقة، "يؤلّهون" تقدّمهم[757]». ليس هناك عند نيتشه أيّ شيء من «اللامبالاة والهوس التدميري اللّذيْن يُميّزان الفكر الحرّ **التافه** (*eitlen Freidenkerei*) [758]»، ولا يمكن أن نعتبر نيتشه ملحدا، بل إنّ فلسفته هي النقيض للإلحاد. فقولة „إن الله قد مات" ليست النّفي (*keine Verneinung*) بل هي "الاثبات" الصّميمي (*das innerste Ja*) للإله القادم». وبالتالي فإن نيتشه كان على أتمّ الوعي من أنه «بدون إله ما وبدون الآلهة من غير الممكن أن يكون هناك وجود تاريخي[759]».

إن أولئك الذين يريدون جرّ نيتشه إلى إلحادهم، هم في نظر هايدغر، إما **مجموعة** من المفكرين «العُجّز، الكسالى (Die Lahmen)» أو أولئك الذين «تَعبوا من مَسيحيّتهم وأصبحوا يفتّشون في تصريحات نيتشه عن تأكيد بخس لإلحادهم الإشكالي[760]». هايدغر يُنبّه الجميع ، والخطاب موجّه بالدرجة الأولى للملحدين الذين يعتقدون أن نيتشه كان إنسانا دون إله، يعني عقلانيا ملحدا، بأن يتعلّموا **من المجنون** الذي صرّح هو الأول بموت الله. هكذا، لن نتظاهر مرة أخرى بعدم سماع ما قيل في المقطع الأول: «"أبحثُ عن الله**!** أبحثُ عن الله**!**"[761]». كل الفحص الذي قام به نيتشه، والموّجه إلى مستمعيه القادرين على التفكير، مُرَكّز في المقطع الأول من تصريح

757- Id, Nietzsche I, Vittorio Klostermann, Frankfurt am Main 1996, p. 287.

758- Id, Nietzsches metaphysische Grundstellung, Vittorio Klostermann, Frankfurt am Main 1986, p. 192. Cfr. D. Losurdo, La comunità, la morte, l'Occidente. Heidegger e l'ideologia della guerra, Bollati Boringhieri, Torino 1991 (ristampa 2001), p. 122.

759- ID, Nietzsche: Der Wille zur Macht als Kunst, Vittorio Klostermann, Frankfurt am Main 1985, p. 191. „ein geschichtliches Dasein ohne den Gott und ohne die Götter nicht möglich ist";

760- ID, Nietzsche I, p. 288.

761- ID, Nietzsches Wort „Gott ist tot", p. 266.

المجنون، تصريح جليّ لكنه لم يجد إلى حد الآن آذانا صاغية. إن صيحة المجنون، يختم هايدغر، «ستبقى دون إصغاء طالما لم نبدأ في التفكير. لكن الفكر يبدأ متى تيقنّا أن العقل، الذي مُجِّد لعدة قرون، هو أشرس أعداء التفكير[762]».

أما ياسبرس فقد حاول هو نفسه جرّ نيتشه للتعالي، واجتهد للتقليل من شعار موت الله. قال: نحن نجد في فكر نيتشه اتجاهين: اتجاه صريح يزيح الإله كي يعلي من شأن الإنسان، واتجاه ضمني ولا واع مفاده أن الإنسان، من حيث أنه كائن محدود، لا يمكن أن يكتمل دون التعالي[763]. إن شأن التعالي صعب المراس، ينطبق عليه هذا المثل (إذا لويتني أقف مرة أخرى "curvata resurgo")، أو بعبارة ياسبرس: "إنكار التعالي يُعيد انتصابه فورا[764]". وهذا المبدأ ينطبق على نيتشه وقد عاشه هو شخصيا من خلاله أفكاره وحياته العملية.

المقدمة العامة بالنسبة لياسبرس، هي أن الإنسان هو كذلك على الحقيقة لأنه يعيش بمرجعية التعالي. وترجمتها أن الإنسان لا يمكن أن يعيش دون الله، وهي فكرة يعرفها الجميع من خلال كتابات الإسلاميين الضّحلة السطحية. وضحل أيضا، رغم أنه متكلّف، القول بأن التعالي هو شكل الظاهر في الإنسان، وفقط من خلاله يمكن للإنسان أن يستحضر مضمون الوجود ونفسه. والإنسان، يضيف ياسبرس، لا يمكن أن يهرب من هذا الإلزام؛ إذا لم يعترف به، إذا غيّبه، فإن شيئا آخر يدخل بدل المُغيَّب. نيتشه يريد أن يعيش بدون الله، لأنه مُقتنع بكل صدق أنه لا يمكن أن يواصل في الاعتقاد في الله، وإلاّ فإنه سيخدع نفسه باستمرار.

لكن، إثر هذا الاعتزال، تنامت العلاقة مع الصديق زرادشت، الذي أنتجه هو نفسه، وطالما أنه لا يعترف بالله، وجب أن يضع شيئا آخر في مكانه. السؤال الذي يطرحه ياسبرس: كيف حدث ذلك؟

الجواب طويل ومعقد نوعا ما. سأختزله في هذه الفقرة. في نظريته الميتافيزيقية، نيتشه يختزل الوجود في الموجود المحض؛ «الوجود هو العود الأبدي»؛ وهكذا فقد

762- ID, Nietzsches Wort „Gott ist tot", p. 267."daß die Vernunft die hartnäckigste Widersacherin des Denkens ist".

763- K. JASPERS, Nietzsche. Einführung in das Verständnis seines Philosophierens, Walter de Gruyter, Berlin 1950, p. 427.

764- *Ibid*., p. 428. „Die Verleugnung der Transzendenz läßt sie sogleich wiederstehen"

حلّ محلّ الاعتقاد في الله ضرورة التفكّر في هذا العود الأبدي واستتباعاته على الوعي بالوجود، ونتائجه على الممارسة والتجربة. «الوجود هو **إرادة القوة**؛ كل ما يحدث ليس سوى تمظهر لإرادة القوة التي هي، في لانهائية أشكالها، القوة الوحيدة الدافعة للتحوّل. الوجود هو **حياة**؛ وهي مسمّاة بالرمز الميتولوجي لديونيزوس. معنى الوجود هو **الإنسان الأعلى**». لا يهمني الإله، لقد أقبل عليّ جمال الإنسان الأعلى، يقول نيتشه[765].

إلى ماذا يريد أن يصل ياسبرس؟ إلى قلب كل هذه المكونات إلى نقيضها، والبرهنة على أنها لا تحمل بالضرورة معنى مُحايثا، بل كلها تعود إلى التعالي، وهكذا، فإن ما قدمه نيتشه بيده اليمنى تمّ سحبه باليسرى. فعلا، على عكس تعالي الله (statt des Transzendenz Gottes)، الوجود هو دائما المُحايثة التي يمكنني أن أجدها، أفحصها، أنتجها: نيتشه يريد أن يبرهن فيزيائيا على العود الأبدي، يلاحظ تجريبيا إرادة القوة والحياة، أن يولّد الإنسان الأعلى.

(ظآظ)

أمّا الفيلسوف الإيطالي جياني فاتيمو فقد فاق هايدغر وياسبرس في التقليل من شأن فكرة موت الله، وذهب إلى حد الزعم بأن نيتشه، ليس فقط لم يكن ملحدا، بل كان السبب في إرجاعه هو شخصيا إلى حضن المسيحية، وأن أطروحة موت الإله، لا تحمل في ذاتها أيّ بُعد إلحادي بل تسعى «إلى رسم أعلى شرط موضوعي لحياة جديدة في كنف الفكر الجينيالوجي[766]».]

إذن، لا "موت الله" ولا "إلحاد"، وإنما بَعث فكر جينيالوجي جديد. إن موت الله يقول فاتيمو ليس حدثا يتحقق في وعي البشر، وفي هذا فهو يختلف عن محض تصريح بالإلحاد (una pura affermazione di ateismo). إنه يتزامن مع نفس الموضوعية المتوصَّل إليها لحظة نهاية الأخلاق والميتافيزيقا؛ هو حدث وقعَ حتى ولو لم نكن واعين تماما بذلك. وفقط لأن غالبية البشر ما تزال لا تعرف شيئا عن هذا الحدث، فإن الذي

765- ياسبرس، نيتشه، م. س، ص، 428.

766- G. Vattimo, Il soggetto e la maschera, Nietzsche e il problema della liberazione, Bompiani, Milano 1996(2), p. 160.

يُعْلِنه هو مجنون – مثل كل الأرواح الحرة – لا يستمع إليه أحد. بطبيعة الحال، هو ليسَ حدثا "موضوعيا" بنفس الصيغة التي يكون عليها حدث طبيعي ما؛ هو واقعة تنطوي على تغيير كامل شهدته حضارتنا الغربية، وبالتالي فإن البشر هم الذين قتلوا الله. ولكن، أن لا يكون هذا التغيير قد تدخّل ببساطة في ضميرهم، في طريقة رؤيتهم للأشياء، يشهد على ذلك أنه حدث من دون أن يدركوا ذلك، لدرجة أنهم ليسوا حتى قادرين على فهم ذلك عندما أعلن لهم.[767].

بموت الإله، فإن عالم الإنسان نفسه هو الذي سيشهد تغييرا جذريا. ولا يتعلق الأمر بالشعور بالحرية، بل بتحقيقها، وقد كان الله في السابق هو الشرط الموضوعي لعدم التحرر، هو الوجه الآخر للقناع الخبيث، وتجسيدا للوظيفة الإرهابية للشيء في ذاته (la funzione terroristica della cosa in sé)[768].

ولكي يدحر فاتيمو شبح الإلحاد المزعج فقد حوّر معنى الإله، مثلما يفعل أغلب النيتشويين، وأدخل عليه تعديلا حاسما، وهو أن الإله الميت ليس الإله الذي يقصده الملاحدة ويتمنون موته، وإنما الإله الأخلاقي، وهو مفهوم **مجرّد** وليس كيانا عينيا. وبعبارة فاتيمو، هذا الاله، هو كل أشكال الاطمئنان القمعي وتبعيّة الفرد لضغوطات العقلنة، هو عملية اختزال المتعالي إلى وسيلة إجرائيّة، وتحويله إلى حلبة قتال بين الخير والشر في المثل الزهدي المكبِّل للحياة الاجتماعية[769].

إذن، طبقا لتحاليل فاتيمو، فإن الله الحي الحقيقي (بالنسبة **للمسيحيين**)، والله جل جلاله (بالنسبة **للمسلمين**)، وأدوناي القدوس (بالنسبة **لليهود**)، لم يَمْسسه نيتشه بسوء اطلاقا، كل ما فَعَلَه هو قَتْل شبح اسمه «إله أخلاقي». وهكذا فإن فاتيمو وجماعته حطّموا آمال الشبان الذين اعتقدوا بأن نيتشه أمات الله وأراحهم نهائيا من كابوسه المزعج. فاتيمو يقول لهم: أنتم حَالمون، لأن نيتشه لم يقتل الله وإنما قتل المفهوم الضامن للمعنى، أي إله الدّاندي والعطاءات، وقضى على الأخلاق كما يتصورها التاريخ الغربي. وموته، يضيف فاتيمو، هو موت العنف الذي هيمن على حياتنا لعدة قرون، في إطار الأخلاق السائدة والمجتمع المُعَقْلن، ولذلك فهو حدث يحتاج لوقت طويل لكي يَثبت ويتم الاعتراف به.

767- جياني فاتيمو، **الذات والقناع**، م. س، ص، 161.

768- **الذات والقناع**، ص، 162.

769- ن. م، ن. ص.

بعد عشر سنوات من هذا الكتاب، عاد فاتيمو لتناول نفس الموضوع في كتيّب بعنوان: **مدخل إلى قراءة نيتشه** (1985، الطبعة 16 سنة 2007). قال إن «إعلان» موت الله الذي يلخّص كل استتباعات ما يسميه نيتشه الإلغاء الذاتي للأخلاق، ليس إعلانا ميتافيزيقا مفاده أن الله غير موجود، بل ينبغي أخذه حرفيا على أنه حدث[770]. ولكن إعلان حدث ما، لا يعني «البرهنة» على أي شيء؛ ولا يَشترط بالضرورة أيّ مُصادقة أو تَبَنٍّ (مصادقة مشروعة فقط على أساس اعتقاد، تاريخي ميتافيزيقي، في عقلانية الواقع). وعلى أية حال، فالإعلان المُصاحَب بتَوْصيف لظروف الحدث المعلَن عنه في هذه الحال: إعادة بناء أخطاء الأخلاق وأخيرا زوالهًا الذاتي لا يمكن إلاّ أن يكون هو نفسه مُثيرا لأحداث أخرى؛ هذا ما يؤكده نيتشه من خلال خاطرة واردة في **العلم المرح**، بخصوص العود الأبدي: «لو سيطرتْ عليك هاته الفكرة فستحوّلك [...] ستهبط بثقلها على تصرّفك كأثقل وزن[771]».

مازلنا نريد أن نعرف: هل قتل نيتشه الله؟ هل لنا أن نفرح بهذا الإعلان المهيب «إن الله قد مات»؟ هل الإلحاد ممكن في المنظومة النيتشوية؟ كل من اعتقد في أن نيتشه يخلصه من الدين، ويحرره من فكرة الإله، فهو واهم من أمره. فاتيمو يطوف بنا في دهاليز التاريخانيّة، ويقول لنا إن أطروحات نيتشه الأخير لها ملامح خليط من الواقعي والافتراضي: قضيّة «الله مات» لا تختلف عن قضية «نقد الثقافة»؛ إنها بصيرة ذات صبغة تاريخية، ونظرا لراديكالية تاريخانيتها، لا تتضمّن الاعتراف بأي عقلانية تاريخية ضرورية[772]. إلاّ أنّ أخْذ «موت الله» بعين الاعتبار، يُنتج مفعولات وتحولات من شأنها أن تحافظ، مع ذلك، على مكانتها كإمكانية، مثلما جاء في صفحة من **العلم المرح** عن العود الأبدي «ماذا يحدث **لو** [...] (العلم المرح 341)». تحت هذا المنظور، يواصل فاتيمو، من الصائب تسمية فلسفة نيتشه بـ«فكر تجريبي»، تَعتمدُ كلها على «اكتشاف» أن الاعتقاد في الحقيقة هو ليس إلاّ اعتقادا: وطالما لم يحدث شيء يصلح كدليل مضادّ، فإن الطريق الوحيد المفتوح هو طريق التجربة: **ماذا سيحدث لو**..[773].

770- G. Vattimo, Introduzione a Nietzsche, Laterza, Roma-Bari 2007, p. 67.

771- نيتشه، **العلم المرح**، فقرة 341، ص، 201.

772- جياني فاتيمو، **مدخل إلى نيتشه**، م. س، ص، 68.

773- ن. م، ن. ص.

وفي موضع آخر من كتابه عن الهرمينوطيقا، لكي يبرّر فاتيمو تفضيله للتصوّر الهيرمينوطيقي للحقيقة على التصوّر الميتافيزيقي، يعطي كمثال إعلان نيتشه عن «موت الله». إنّ هذا الإعلان لا يمثل ضربا من التعبير الشعري عن أطروحة ميتافيزيقية: نيتشه لا يقول إن الله قد مات لأننا تفطّنا أخيرا إلى أنه «موضوعيا غير موجود»، وأن الواقع يدحض وجوده، بل نحن نؤوّل، يعني نتعسّف ونُحوّر. فعلا، إذا ما قرأنا هذا الإعلان على ضوء نظرية نيتشه في التأويل والتي تتلخص في هذه القاعدة: «ليس هناك وقائع، وإنما تأويلات فحسب»، فإن هذه القولة تأخذ معناها الصحيح، وهو أن إعلان موت الله هو بالفعل مجرد إعلان، أو بلغة فاتيمو، أخذٌ بعيْن الاعتبار لسيرورة أحداث نتحرّك داخلها، **لا نَصفها موضوعيا** على ما هي عليه ولكن نُؤوّلها، بطريقة محفوفة بالمخاطر، كما لو أنها تُفضي إلى الاعتراف بأن الله لم يعد ضروريا[774].

إنّ التّعقيد الهرمينوطيقي لكل هذا يتمثّل في أن أطروحة «الله لم يعد ضروريا» تتجلّى كَكِذبة لا لزوم لها (كذبة لأنها فعلا لا لزوم لها)، بسبب التحولات التي كانت، في وَجودنا الفردي والاجتماعي، قد تولّدتْ بالتحديد من الاعتقاد فيه. معلوم هو نمط الحجّة النيتشوية: إله الميتافيزيقا كان ضروريا لكي تتمكّن البشرية من إقامة حياة اجتماعية منظّمة، آمنة وغير معرّضة باستمرار لمخاطر الطبيعة، والوقاية من النّزعات الباطنية بواسطة أخلاق مقرّرة ومُؤطّرة داخل الدين. ولكن الآن مع تحقيق شروط التحرّر من مخاطر الطبيعة عن طريق العلم والتقنية، الله يبدو فرضية متطرّفة جدا (troppo estrema)، بربرية، ومفرطة؛ وبالإضافة إلى ذلك فإن هذا الإله الذي عمل كمبدأ استقرار واطمئنان هو أيضا الذي حظر دائما الكذب؛ إذن من أجل طاعته فإن المؤمنين به يدحضون تلك الكذبة التي تقول إنه موجود. إذن، المؤمنون، في نهاية المطاف، هم الذين قتلوا الله.

المسألة إذن لا تتعلّق بإعلان شعري عن عدم وجود الله كحقيقة ثابتة، ذلك لأن الحقيقة هي اسم آخر من أسماء هذا الإله الميّت؛ إن العالم الحقيقي الذي أصبح خرافة لا يترك مكانا لحقيقة أعمق وأكثر مصداقية. في رأي فاتيمو، تأويليّة نيتشه، تمنع من

774- G. Vattimo, Oltre l'interpretazione. Il significato dell'ermeneutica per la filosofia, Editori Laterza, Roma-Bari 1994 (2004), p. 10.

اتخاذ هذا المنعرج الدوغمائي، لأننا في النهاية نحن أمام لعبة تأويلات، تقدّم نفسها هي بدورها على أنها تأويل فحسب[775].

وإذا لم تُعجبكم "أكذوبة" موت الله، فإن فاتيمو يضيف "أكذوبة" نهاية الميتافيزيقا، ويُثبت أن نيتشه لم يقتل حتى الميتافيزيقا. فعلا، موت الله، له نفس الالتباس الذي يحوق بنهاية الميتافيزيقا كمنظومة فكر وكنمط حياة فردي أو جماعي[776]. كيف تكون الميتافيزيقا جالبة للعنف؟ كيف تكون حية وميتة في نفس الوقت؟ فاتيمو يجيب (وجوابه هذا لم يتغيّر إلى حد الآن): العنف الذي يعبّر عن نفسه في الميتافيزيقا، والذي يعكس شروط حياة كان فيها الإنسان مضطرا للدفاع عن نفسه من عالم طبيعي عدواني، مستخدما عنفا مضادا سواء في وسائل هيمنته على القوى الخارجية، أو في هياكل تنظيم الإنتاج الاجتماعي، ماتت لكونها فقدت أي ضرورة للوجود. المفاجأة، هي أن موت الميتافيزيقا بعيدا عن أن يقضي عليها ويَمحوها من الوجود تماما، حافظ عليها[777]. والآن يتمّ الربط بين الوضعين: وضع الله ووضع الميتافيزيقا. كنّا نعتقد أن كليهما ماتا وانقرضا، وتخلّصنا منهما إلى الأبد، لكن الله مازال موجودا، والميتافيزيقا حاضرة. عبارة "الله مات" هي تقريبا دعابة، وفاتيمو يبرر رأيه من خلال نصوص نيتشه نفسه. فعلا، ألم يقل، ضد كل التوقعات: «الله قد مات (Gott ist todt): لكن هاته هي طبيعة الناس بحيث ستكون هناك، ربما طيلة ألفيّات، مغارات يُعرض فيها ظلّه. أما نحن فيجب علينا أن نهزم ظلّه كذلك[778]».

إن هذا الظلّ الذي سيواصل الله بَسْطَه على العالم هو النزعة الثابتة لتأليه الطبيعة في مختلف أشكالها (divinizzare in varie forme la natura)، بمعنى ترميم الحدود التي كان هو الضامن لها، وتأسيسها كقوانين للطبيعة. والتحرّر لن يتم برفض الله أو الدعوة إلى موته، بل برفض تأليه الطبيعة وقوانينها. خطاب ديني ذو ملامح تبشيرية، نابع من نيتشوي راديكالي. فعلا، بالنسبة لفاتيمو، فقط عن طريق إزالة بقايا هذه الخصائص الإلهية للطبيعة يمكننا أن نبدأ في "التطبيع (naturalizzare)" نحن البشر، ونسير جنبا إلى جنب مع طبيعة نقية، أعيد اكتشافها، وأعيد افتداؤها من جديد (العلم المرح،

775- *Ibid.*, p. 11.

776- **الذات والقناع**، ن. م، ص، 163.

777- ن. م، ن. ص.

778- نيتشه، **العلم المرح**، § 108، ص، 122.

109)[779]. وتفسيرها عند فاتيمو، هو أن نجد أنفسنا، بطريقة ما، في وضعية قائد جوقة ديونوزي يخترق الحواجز والطابوهات الاجتماعية، في طبيعة هي نفسها، استعادت براءتها، لأنها غير مُفَكَّر فيها كَتَابِعٍ للمجتمع، للأخلاق، لذهنية الميتافيزيقا المُعقلنة.

(عآع)

إذا كان الإلحاد ممنوعا، وإذا كان إعلان موت الله هو مجرد دعابة، فهل يمكن أن ينقذنا الفن؟ هل تساعدنا الحقائق العلمية على مجابهة مأساة الحياة؟ حتى هذه الخيارات مردودة، تافهة وغير مجدية، وهكذا فإن نيتشه، مرّة أخرى، حطّم آمال كل من كان يعتقد في أن فلسفته تقدم له وسائل فعّالة للخروج من الدين إلى نور الفن والجمال.]

"لدينا الفن لكي لا نموت بالحقيقة"، إن هذا الشعار، مثله مثل شعار "إن الله قد مات"، وإن الميتافيزيقا قد انتهت، شعار فضفاض بلا محتوى، هذا إن لم يكن قد استنفذ صلوحيّته بالكامل. وقد وفّر علينا جياني فاتيمو مشقة السياحة في كتابات نيتشه بخصوص هذه المسألة، وبيّن الانقلاب الذي حدث في فكره من **مولد التراجيديا** إلى **العلم المرح**. الأسس موجودة في **العلم المرح**، حيث يستطرد نيتشه نفسه على ميتافيزيقا الشباب، خصوصا في مواضيع تطرّق إليها في **ولادة التراجيديا**، ومن بينها فكرة أن الفن يجب أن يكون بمثابة مبرر استيطيقي للوجود، لأنه يَحمينا من الحقيقة. ولكن الأمر هنا لم يعد يتعلّق بعالم المظاهر الجميلة التي تُلهينا عن مرأى الفوضى واللاعقلانية للواحد البدائي. «الحقيقة قبيحة: لدينا الفن لكي لا نُهلَك بسبب الحقيقة». وفاتيمو يصادق ويعمّق الهوّة، مستشهدا بكلام نيتشه: "الحقيقة قبيحة، لأن إرادة الحقيقة هي مؤشر انحطاط"[780]. الفن لا يُخفي وراءه أية "حقيقة" موضوعية للأشياء؛ لكن، من حيث هو فعالية إبداع الكذب يتعارض مع السلبية، الإرتكاسية، مع روح الانتقام الذي يميّز البحث عن الحقيقة: «لا! لا تحدّثوني عن العلم حين أبحث عن العدو الطبيعي للمَثَل الزهدي، حين أسأل حين أبحث عن النقيض الطبيعي للمثل

779- نيتشه، **العلم المرح**، § 109، ص، 123. نص نيتشه جاء على شكل سؤال: «متى إذن نتخلّص من حذرنا ومن همومنا؟ متى تكفّ كل ظلال الإله هاته عن حَجب النور عنّا؟ متى سنُزيل صفة الألوهية كلية عن الطبيعة؟ متى سيسمح لنا بأن نتطبّع، نحن الناس، مع الطبيعة الخالصة المُكتشفة من جديد، المحرّرة من جديد؟».

780- فاتيمو، **مدخل إلى نيتشه**، م. س، ص، 104.

الزهدي [...] الفن الذي يتقدّس فيه الكذب وإرادة الخداع، يفوق العلم من حيث المبدأ في معارضته للمثل الزهدي[781]».

ماذا يعني هذا الرفض للعلم والأخلاق والفن؟ جواب فاتيمو هو أن «كل الفعاليات الروحية للإنسان هي أكذوبة (tutte le attività spirituali dell'uomo sono menzogna)، والفن هو النموذج ذاته لهذه الأكذوبة، أي لإرادة القوة[782]». المنبع الأول لهذا الحكم الغريب هو نيتشه نفسه. فعلا، بمجرّد التفكير في العالم كإرادة قوّة، يكتب نيتشه، يختفي التمييز المُعَزّي بين عالم حقيقي وعالم ظاهر: «ثمة عالم واحد، وهو باطل، وحشي، متناقض، مُفسد، بلا معنى [...]. إنّ عالما على هذه الشاكلة [...]. نحن نحتاج إلى الكذب لكي نتغلّب على هذه "الحقيقة"، يعني للعيش [...]. الميتافيزيقا، الأخلاق، الدين، العلم [...] تُؤخذ بعين الاعتبار فقط كأشكال مختلفة من الكذب: بمعونتها نعتقد في الحياة. "يجب أن تُلهم الحياةُ الثقةَ": المهمة، هكذا، عصيبة. للاضطلاع بها، يجب على الإنسان أن يكون بالضرورة كاذبا، يجب أن يكون، قبل كل شيء، فنّانا [...]. ميتافيزيقا، أخلاق، دين، علم، هي ليست إلاّ إبداعات لإرادة فنّه».

هذا المعجون من الكذب والخداع الذي يطال كل ابداعات الروح لا يُقلق فاتيمو، لا تزعجه شحنة الإرهاب التدميري الكامنة فيه. بعد هذا المعجون أخذ فاتيمو يبني التفاضلات ويقيم التمييزات، يقول إن ثمة اختلافا جوهريا بين الفن وابداعات **إرادة الفن** التي تشكل عالم الصّور الروحية. فقط الدين، لا يقع كليا، كما تَقَع الميتافيزيقا والأخلاق، وحتى العلم، في عالم المرض (il mondo della malattia) والوهن وروح الانتقام التي تتمظهر في الزهد[783].

وهكذا فإن العلْم، أعظم إبداعات العقل البشري، وأكثرها تحررا ومصلحة، يَنضمّ إلى عالَم المرض، وَفاتيمو ليس له أي اعتراض، بل إنه يؤكّد، ونصوص نيتشه بيديه، أنّ ثمة بداية تفسير لهذا الأمر في نص **جينيالوجيا الأخلاق** حيث قيل هناك إن في الفن يُقدَّس الكذب، وإن إرادة الخداع لها في صفها الضمير المرتاح؛ وبعد، فالكذب وإرادة

781- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، III، § 25، ص، 135.

782- فاتيمو، **مدخل إلى نيتشه**، م. س، ص، 105.

783- ن. م، ص، 105 106.

القناع دون تأنيب ضمير هما الصفتان الإيجابيتان للفن في **العلم المرح**. لكن الفن هو نزعة سلبية، فيه الاحساسية، التخنّث، هيجان موسيقى فاغنر، فيه روح المسيحية، ويتضمّن التمييز القاعدي بين غِنى وشحة، رضاء وبُغض. والدليل هنا هو نص لنيتشه من الشذرات حيث يقول فيه: «حيثما يُطلَق حكم "جميل"، فإن المسألة ترتدّ إلى مسألة قوّة (قوة فرد أو شعب). إن الشعور بالاكتمال، بالقوّة المُركّزة الإحساس بالقوة هو الذي يُطلق الحكم "جميل" حتى على أشياء وحالات يمكن أن تراها غريزة الضعف كريهة و"قبيحة"».

هذه الذاتوية الشرسة، المقرونة بفائض القوة والتي تريد الاستيلاء على الفن وابتلاعه في فوهة القوة، لا تزعج فاتيمو وإنما يُثني عليها ويضيف عاملا خطيرا، عامل الفيزيولوجيا، ومعناه عند نيتشه معنى انتقائي دارويني. لكن هذا النص، بالنسبة لفاتيمو، يُعطينا القواعد العامة لما تَصوّره نيتشه على أنه استيتيقا "فيزيولوجية"، ويضع فاتيمو، كالعادة، هذه الكلمة بين ظفرين، ثم يشرحها على أنها أكثر من نظرية في الفنّ، هي مكان لصورة الانْوجَاد في العالم، مَنظورا إليه كإرادة قوّة، أي معدوم الأُسُس، خاليا من البنَى الثابتة، والماهيات، والضمانات من أي نوع كانت[784].

ولكن ما دخل القوة في الاستيتيقا؟ كيف يمكن للقوّة أن تُحدد الجميل والقبيح؟ عندما لا يستعمل فاتيمو سلاح الاستعارة فهو يُخرج آلة الهرمينوطيقا: يجب التنبيه دائما أن المناداة بالقوة، والصحة، ... إلخ، تُلبّي عند نيتشه فقط الحاجة للعثور على معايير تقييم قادرة على تمييز قيمة التأويلات دون إحالتها على بنى جوهرية، على عناصر نهائية ذات صبغة ميتافيزيقية بالضرورة[785].

(غمَآغ)

لكن في الوقت الذي يخلو فيه فكر نيتشه من البراهين المُقنعة والتسلسل المنطقي لاستنباط فكرة موت الله، فإنّ قتْل الإله هو كسب حققه الفَلاسفة العرب بالاعتماد على الإرث الأرسطي الأفلوطيني. وهذا الاستنتاج نجده معروضا،

784- ن. م، ص، 107.

785- ن. م، ن. ص.

بصورة منطقية شفافة، وقائما على مقدمات عامة، وحُدود وسطى، إذا سلّمنا بها فلا مناص من التسليم بالنتيجة.]

نفتح كتاب **تهافت الفلاسفة**، ونذهب إلى المسألة الثانية عشرة: "في تعجيزهم عن إقامة الدليل على أنه يعرف ذاته أيضا". المسلمون يقول الغزالي، لمّا عرفوا أن هذا العالم حادث بإرادة الله، استدلّوا بالإرادة على العلم، ثم بالإرادة والعلم جميعا، على الحياة، ثم بالحياة على أن كلّ حيّ يشعر بنفسه، وهو حيّ، فيعرف أيضا ذاته. وهذا المنهج، في رأيه، هو منهج معقول «في غاية المتانة[786]».

لكن الفلاسفة جاؤوا ليُعكّروا عليه صفو استكانته ويهدموا معبده، لأنهم نفوا عن هذا الإله الإرادة والإحداث، واعتبروه، بصيغة ما، مجرد افتراض لتفسير بداية الكون، ولتفادي عملية التراجع، في سلسلة الأسباب، إلى ما لا نهاية. فالأحرى بهذا الاله، ومن خلال كلام الفلاسفة، أن يُسمّى مادة أو طاقة، تَفعل دون وعي بذاتها أو تعقّل لغيرها. كل ما يصدر عنه، «**يصدر بلزوم على سبيل الضرورة والطّبع**[787]»، وكل شيء يفيض عنه دون أن يشعر بذاته «**كالنار يلزم منها السخونة والشمس يلزم منها النور**». وهذا ما نجده حرفيا عند الفارابي في الباب السابع من **آراء أهل المدينة الفاضلة** "القول في كيفية صدور جميع الموجودات عنه"، حيث يؤكّد أن وجود الموجودات عن هذا الكائن لازم ضرورة لجوهره، ليس باختيار «**وإنما هو على جهة الفيض**».

هل يمكن أن نسمّي إلها حيّا قادرا عالما مَن يفعل بالضرورة والطبع، كما يقول الفارابي؟ أليس تشبيهه بالنار والشمس يُفقده الحس والإدراك والتعقل والإرادة، ويجعل منه ضرورة عمياء؟ أن يكون هذا "الإله المادة" معدوم الإرادة والغاية، يمكن استنتاجه من الفارابي نفسه: حيث يقول إن الكائن الأول «ليس لوجوده غرض وغاية حتى يكون، أو كي يُتمّ تلك الغاية وذلك الغرض»، وهو لا يعقل أي شيء خارجه؛ وحياته ليست بحياة، لأن كل كائن حي له إدراك بالحواس، وهو خلوّ من الحواس، ولا توجد أشياء خارجة عنه «كي يدركها، ويستكمل بها ذاته»[788].

786- أبو حامد الغزالي، **تهافت الفلاسفة**، المكتبة العصرية، صيدا 2001، ص، 147.

787- أبو نصر الفارابي، **آراء أهل المدينة الفاضلة**، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1995، ص، 45.

788- **آراء أهل المدينة الفاضلة**، ص، 26.

نحن نعرف حدود الأشياء بماهياتها، لكن هذا الإله لا ماهية له، لأنه لا يقع تحت مقولات الجنس والفصل وبالتالي لا حدّ له، كما يقول ابن سينا في **الإلهيات**[789]. وإذا كان كذلك فهو «**مُجرد الوجود**»، **مجبور** على الفيض كالشمس التي هي **مجبرة** بطبيعتها على الاشعاع دون وعي منها. وإذا تجوّزنا وسمّينا هذا **الوجود المجرّد** عقلا، فهو لا يعقل أيّ شيء خارجه: «لا يجوز أن يكون واجب الوجود يعقل الأشياء من الأشياء ... هذا **محال** ... والأصول السالفة تُبطل هذا[790]». وبالمثل فإن هذا الكائن ليس له إرادة، لأن إسناده غرضا يبغي تحقيقه، مستحيل، يقول ابن سينا، ولا حياة له أيضا، ولا قدرة[791]. إذن، على حسب هذه القواعد، فهو أقرب إلى طاقة كونية منه إلى موجود مُتشخّص.

وابن رشد، في ردّه على الغزالي، يعيد تأكيد ما ذهب إليه الفلاسفة السابقون، فهو يرى أيضا أن هذا الكائن لا حياة له لأن الحياة مرتبطة بالحواس، والحواس ممتنعة عليه؛ وأنه معدوم الإرادة، لأن معنى الإرادة هو «الشهوة الباعثة على الحركة لاستكمال ما ينقصها في ذاتها»، وهذا **محال** على الكائن الذي ليس له أية نزعة أو غاية خارجة عن ذاته ويبغي تحقيقها[792]. الغزالي يستنتج أنه طبقا لمنطق الفلاسفة فإن الله هو في مرتبة أدنى من مرتبة الكائن الحي، إنسانا أو حيوانا، «والدليل على ذلك أن غيره يعرف أشياء سوى ذاته ويرى ويسمع »، لكن هذا الإله «لا يرى ولا يسمع [793]»؛ الإنسان بصير، والإله أعمى، الإنسان عالم، والإله جاهل.

أن يكون الله قد مات، هكذا يتوجّه الغزالي إلى الفلاسفة، فهذا الاستنتاج نابع بالضرورة من مساق مذهبكم: «إذ لا فصل بين من قال: كل مَن لا يفعل بإرادة، وقدرة واختيار، ولا يسمع ولا يُبصر، فهو **ميّت**، ومن لا يعرف غيره فهو **ميّت**». والإله، في عرف الفلاسفة هو كيان مادي «**خال عن هذه الصفات كلّها**[794]»، وبالتالي فهو بالضرورة ميّت. إذن، فكرة موت الإلهً حتى وإن لم يُصرّح بها الفلاسفة العرب جهارا، فهي حاضرة في نسقهم، بل لازمة ضرورة عن مبادئهم لزوم النتائج للمقدمات.

789- ابن سينا، **الشفاء**، «الإلهيات»، تحقيق الأب قنواتي سعيد زايد، الجمهورية العربية المتحدة، [د. ت]، ص، 344.

790- **الالهيات**، المقالة الثامنة، الفصل السادس، ص، 358.

791- ن. م، ص، 366.

792- ابن رشد، **تهافت التهافت**، تحقيق موريس بويج، دار المشرق، بيروت 1986، ص، 426.

793- الغزالي، **تهافت الفلاسفة**، م. س، ص، 148.

794- ، **تهافت الفلاسفة**، ص، 147.

لكن ثمة من ذهب أبعد من ذلك وصرّح بعدم وجود هذا الإله على الإطلاق، كما حكى ابن الجوزي في **تلبيس إبليس**، عن النوبختي في كتاب **الآراء والديانات**. وهم يستعملون للتدليل على ذلك، أطروحة الملحدين الكلاسيكية: غياب العناية. قُلتُم إن العالم غير مُكتَف بذاته ويحتاج إلى مُحْدث، سلّمنا بذلك، وقُلتم إن هذا المُحدث هو الله، وإنه يعتنيً بهذا الكون وما فيه، سَلّمنا بذلك. لكن أين تتمظهر عناية هَذا الخالق على أرض الواقع؟ نحن لم نرها تعتمل في أغلب الحالات، بل العكس هو الذي يحدث. نحن نرى مثلا «أن الإنسان يقع في الماء، ولا يُحسن السباحة، فيَستغيثُ بذلك الصانع المدبّر، فلا يغيثه؛ أو يقع في النار فلا يُنقذه منها، وهكذا عَلِمْنا أن ذلك الصانع معدوم[795]».

وبالإضافة إلى ذلك فإن تفكير الملحدين لا يخلو من حمولة صحّية من التّهكم على غباء المؤمنين وتصوراتهم الأنثربومورفية القبيحة لإلههم، ومعلوم أن السّخرية هي أشد وقعا على المُتديّنين من البرهان العقلاني. وهنا نَطّلع، عند بعض الهراطقة، على لوحة ساخرة تصوّر النهاية التعيسة التي آل إليها هذا الإله.

فريق أوّل من المفكرين الأحرار قالوا إن هذا الإله «لمّا أكمل العالَم، استحسنه، فخَشي أن يزيد فيه أو ينقص منه فيَفسد»، ماذا فعل؟ حبّة السخرية هنا: «أهْلَكَ نفسه، وخلا منه العالم[796]».

وفريق ثان صعّد الموقف، وقال إن هذا الإله بينما كان متوحدا في وجوده، ظهر صُدفة «تَوَلْوُلً»، يعني بلُغتنا الحديثة، تَردُّد مَوْجي، «فلم يزل تَنجذبُ قوّتُه ونوره حتى صارت القوة والنور في ذلك التّوَلْول، وهو العَالَم. وساء نور الله، وكان الباقي منه، نور»؛ لكنه في وقت ما «سيَجذبُ النورَ من العالَم إليه حتى يعود كما كان، ولِضُعفه عن مخلوقاته أهمل أمرهم فشاَع الجور[797]».

الفريق الثالث كان أكثر وحشية، صرّح بأن هذا الاله، بنى العالم وأتقنه، ولكنه لم يفرح بصنْعته هذه، لأنها كانت السبب في تمزّقه شرّ تمزّق. قالوا: «بل البارئ **لمّا أتقن العالَم، تَفرّقت أجزاؤه فيه**[798]».

795- ابن القيّم، **تلبيس إبليس**، المكتبة التوفيقية، القاهرة، [د. ت]، ص، 61.

796- **تلبيس إبليس**، ن. م، ن. ص.

797- ن. م، ن. ص.

798- ن. م، ن. ص.

أفكاره حول الحرب والعنف والقتل تُقرّبه من الإسلاموي الوهابي السلفي. ربما تتساءلون: كيف يكون فريدريك نيتشه إسلامويا سلفيّا وهو مُحطّم الأديان بامتياز؟ أليس من باب الغرابة والتجنّي بمكان الادّعاء بأن، مَن رفع شعار موت الاله، وحطّم المقدسات بجميع أصنافها، هو إسلامي، لا بل سلفي ووهابي حتى؟ أقول: أن يكون نيتشه مفتونا بالوهابية فهذا ما تؤكده الفقرة 43 من العلم المرح، حيث يُثني فيها على الوهابيين لبساطة قوانينهم واكتفائهم بالنزر القليل من العقوبات. فعلا، الوهابيون، يقول: لديهم «حالتان من الحكم بالإعدام: أن تعبد إلها غير إله الوهابيين وأن تُدخّن»، أمّا القتل والاغتصاب فإن الله غفور رحيم. وإذا ربطنا كلامه هذا بأطروحاته المبثوثة في كتبه الأخرى التي يمجدّ فيها مثل هذه الأعمال تتراءى لنا حقيقة أن الوهابية تعبّر أحسن تعبير عن تصوّره للحياة وتُطبّق على أرض الواقع ثقافة القتل والإرهاب.]

إذن نيتشه لم يُحطّم أيّ شيء وإنما نَفثَ عداءه الدفين للأخلاق والمروءة، وحقده على الإنسانية والأخوّة ومحبّة القريب؛ بثّ سُخطا على الحداثة والاشتراكية والديمقراطية والمساواة، مثلما فعل سيد قطب في كتابه الإرهابي "معالم في الطريق". كل العناصر الجنونية المُكوّنة للفكر الوهابي السلفي حاضرة في كُتب نيتشه: تريدون **تأليه الأشخاص**، موجود؛ **الإشادة بالنفس**، موجودة؛ تريدون **كُره البشر والشماتة فيهم**، موجودان؛ تريدون نسخة من **أبي لهب وامرأته حمّالة الحطب**، موجودة؛ **صورة مطابقة لأبي جهل**، موجودة؛ تريدون تشبيه: "**كمَثل الحمار يحمل أسفارا**"، موجود؛ تريدون **الحرب**، موجودة وبكثافة؛ تريدون **الغزو**، موجود؛ خاصّية المسلمين: "**أشدّاء على الكفار رحماء بينهم**"، موجودة؛ تريدون **السّبي**، موجود؛ **مُلك اليمين**، موجود حرفيّا؛ **جهاد النكاح**، موجود؛ **زواج المُتعة**، موجود؛ تريدون **حدّ الحرابة**، موجود؛ **الرّجم**، موجود؛ **الحرق بالنار**، موجود؛ تريدون **العمليات الانتحارية**، موجودة؛ **داعش**، قبل الكلمة، موجودة؛ تريدون **ختان البنات**، موجود؛ **التعذيب**، موجود؛ **الطاعة العمياء، كطاعة الله والرسول وأولي الأمر**، موجودة؛ **الصّوم**، موجود؛ **الشريعة**، موجودة؛ **قلّة الحياء وشتم القُرّاء واحتقارهم**، موجودة؛ **الولاء والبراء وكُره الأقارب**، موجود؛ **مدح الجهل**، موجود؛

تقديس الكُتب المُكدّسة، موجود؛ **أساطير الأوّلين**، موجودة؛ **الجنّ والشياطين**، موجود؛ **إجازة الكذب**، موجود؛ **التحيّل**، موجود؛ **كره اليهود**، موجود؛ **محبّة اليهود**، موجودة؛ **هستيريا الكلام الفضفاض**، موجود؛ تُريدون **التناقض**، موجود بوفرة؛ تريدون، شعار "**اختلف العلماء**"، و "**الله أعلم**"، موجود؛ **قَلْب القيم**، موجود. وبالجُملة كُتب نيتشه هي خَزّان الشناعات والتخاريف الأكثر قُرفا في العالم؛ لكأنّها مرآة عاكسة لكل ما أنتجه التراث الإسلامي، ابتداء من النص المؤسس، وصولا إلى المدوّنات الفقهية على المذاهب السّنية والشيعيّة كلها.

• بدأ حياته الفكرية بتأليه آرتور شوبنهاور، كما يؤلّه الشيعة عليّا، أو السّنة محمدا. كان يستصرخه، ويستنجد به في اليُسر والعُسر: "يا شوبنهاور! يا شوبنهاور" هكذا يصرخ مُرتجفا تحت الحصان[799]؛ تماثيل وصور تملأ غرفته، أدعية وتسبيح، إن صح التعبير، تُتلى في حلقة مصغّرة من الأصدقاء المؤمنين، الاحتفال الرسمي والطقوسي بعيد ميلاده هو واجب ديني لا محيد عنه. أصبحت العبادة الحقيقية للشيخ الشرط الأساسي للصداقات الجديدة، والتفكير حتى في إنشاء نوع من الرّهبنة التي بدت لنيتشه نفسه على شكل المجتمعات المسيحية الأولى. ثم أضاف إلى شوبنهاور ابنه الروحي ريتشارد فاغنر (الحُسين). رفع صلاة إلى فاغنر بعبارات تذكّرنا بصلوات المسلمين على محمد، أو صلوات الشيعة على عليّ والحسين. قال إن هذا الرجل «يُبدي من العظمة الطاهرة وغير المشروطة في جميع خصاله، من المثالِيّة في فكره وإرادته، من الانسانية النبيلة التي لا تُضاهى، من الجدّية العميقة، بحيث يُولَد في نفسي دائما الشعور بأني بِحَضرة مُصطفى هذا القرن[800]». وإلى صديقه كارل غيرزدورف، يكتب أنه مع فاغنر يشعر بكونه أمام «**مِثَال مطلق، وجدّية سامية**»، وبجانبه يغمره الشعور بأنه «**قريب من الألوهية**[801]».

799- في رسالة إلى صديقه روده يكتب: «في بعض الأحيان مخبأ تحت بطن الحصان، أتمتم «يا شوبنهاور، أعنّي»؛ وعندما أعود إلى المنزل، مُنهكا وغارقا في العرق، ألقي بنظرة على صورة شوبنهاور على مكتبي تهدّئ من روعي». نيتشه، رسائل إلى روده، ترجمه إلى الإيطالية وعلق عليه، ماتزينو مونتيناري، طورينو 1959، ص، 27.

800- ذكره:

J. Köhler, Friedrich Nietzsche e Cosima Wagner, Nuova Pratiche Editrice, Milano 1997, p. 50.

801- ن. م، ن. ص.

وقد عبّر لفاغنر شخصيا عن امتنانه الشديد لوجوده في هذه الدنيا، واعترف بأن أعزّ لحظات حياته وأجملها وأثراها هي تلك التي قضّاها برفقته، ثم يضيف: «لا أعرف إلاّ شخصا واحدا، وهو أخاكم في الروح، آرتور شوبنهاور، الذي أتفكّره بنفس الإجلال، بل **بتَديّن ما** (*religione quidam*). أنا سعيد بتعبيري لكم عن **إ يماني** وأفعل هذا بشيء من الفخر؛ فعلا، إذا كان مصير العباقرة أن يكونوا، لفترة ما، قلّة بين الناسِ (*paucorum hominum*)، فمن المسموح به لهذه القلّة الشعور بأنها محظوظة ومُصطَفاة بطريقة خاصة، لأنه أتيح لها رؤية النور والتدفؤ بجانبه، في الوقت الذي مازالت فيه الدّهماء تقبع في الضباب البارد ... لقد تجرّأتُ على حَشر نفسي ضمن هذه القلّة (pauci) لأنني تفطّنتُ أن كل مَن كانت لديّ بهم علاقات يُبدُون قصورا في المسك بشخصيّتكم ككلّ [موحّد]؛ عن الشعور بعمق ووحدة التيار الأخلاقي الذي يخترق حياتكم، كتاباتكم وموسيقاكم، وبالجملة قصورا عن تنفّس هواء نظرة للعالم أكثر صرامة وأسمى، والتي نحن الألمان المساكين كنّا قد أضعناها، مع مرور الأيام، وذلك بسبب كل البؤس السياسي، كل المبالغات الفلسفية والروح اليهودي الغازي. أنا مَدين لكم ولشوبنهاور، إن كنتُ قد تمسّكتُ إلى حد الآن بصرامة الحياة الألمانية[802]».

ثم في رسالة أخرى يتمنّى من فاغنر أن يبقى بالنسبة إليه نبراسه وقدوته، والمثال «المُلهِم في النظريات السرّية للفن والحياة. على الرغم من أنني في بعضَ الأحيان أبدو لكم بعيدا بسبب الضباب الرمادي للفيلولوجيا، لكن في الواقع لم أكُنه قطّ، وأفكاري دائما تحوم حولكم[803]».

«مولد التراجيديا» هو اعتراف بالجميل للتعاليم القيّمة التي تلقّاها من مُرشده الأعلى فاغنر: «في كل صفحة أحاول شكركم على كل ما أسدَيتُمونيه». دون نسيان الاطراء المفرط لكتابات فاغنر، كما يطري الشيعة «نهج البلاغة» المنسوب لعليّ بن أبي طالب: «لم أقرأ شيئا أجمل من كتابكم! كلّ ما فيه هو عظيم».

يحتفل كل سنة بعيد ميلاد مُعلّمه الأكبر، كما يحتفل المُتَديّنون بأنبيائهم وقدّيسيهم، ويكتب لفاغنر كي يُعلِمه بمواظبته على هذا الطقس الديني: «هناك الكثير مثلي أنا

802- نيتشه إلى فاغنر، 22 ماي 1869. الترجمة الإيطالية لـ مونتيناري، والإحالة من هنا فصاعدا ستكون على هذا المرجع:
M. Montinari, a cura di, Friedrich Nietzsche –Richard Wagner. Carteggio, SE, Milano 2003.

803- نيتشه فاغنر، 21 ماي 1870.

وأصدقائي، يحتفلون بيوم صعود المسيح، كاحتفالهم بيوم مجيئكم إلى الأرض[804]»؛ ويتمنّى تعميم هذا الطّقس على الجميع لأن يوما مشهودا مثل يوم ميلاد فاغنر «لا يجب أن يَحتفل به عدد كبير من الناس، بل كافة الناس». وفي رسالة إلى صديقه رُودَه يزفّ له خبر تقديسه لمُعلّمه الأكبر: «فاغنر يحقق كلّ أمانينا: العالَم لا يدرك أبدا العظمة الإنسانية وتفرّد طبيعة هذا الشخص».

- ومن الجانب اللاهوتي البحت نجد نفس الشّماتة في عثرات الإنسان، سواء في القرآن أو عند نيتشه. فالإنسان غير المؤمن، أو ذلك الذي في قلبه شكّ، يعني بلغة القرآن "مرض"، عوض أن يداويه الله يزيده سقما ومرضا على مرض: (**في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا**)؛ أما الإنسان الضّال، فهو لا يهديه وإنما يُماطله بل يُشجّعه على الاستمرار في ضلاله كي يزجّ به في الجحيم (**مَن كان في الضلالة فليمدد له الرحمان مدّا**).

وها أن زرادشت يُصرّح في "كتابه المقدس": «**كل ما يكون في طور السّقوط، على المرء أن يساعده بدُفعةٍ!**»، والمثل الأعلى يقدّمه هو نفسه، ويتباهى بأنه إنسان وحشيّ (grausam) شرّير، ويدعو الجميع إلى التأسّي به في أعماله: «يا إخوتي! أنا مثال! فلتصنعوا بحسب مثالي!». لا أحد في العالم يتجرّأ على دفع إنسان في طور السقوط، إلاّ نيتشه، هكذا، بكل أريحية ودون وخزة ضمير، يفاخر بهذه الهمجيّة جاعلا منها واحدة من بين شمائله الجليلة: «**أنا أريد أن أدفعه** (ich will es stossen)». القاعدة هي هذه: «**الذي لا تُعلّمونه الطيران، فلتُعلّموه كيف يهوي بأكثر سرعة**[805]». وفي

804- نص الرسالة على الشكل التالي: «لقد مرّ جيلان وأنت في الألمان: أكيد أن هناك الكثير، مثلي أنا وأصدقائي، يحتفلون بيوم صعود المسيح، كاحتفالهم بيوم مجيئكم إلى الأرض متسائلين في الوقت نفسه ماذا سيكون مصير أيّ عبقري يأتي إلى الدنيا: إنه بالتأكيد مصير يشبه بالأحرى سَفرا إلى الجحيم. لكن يوما من هذا القبيل لا يجب أن يَحتفل به العديد، بل الجميع، وهذا فعلا هو الأمر الأكثر إيلاما: أن يكون الناس بطيئين بصورة لا تتخيّل في الاعتراف بالجميل، وفقط بعد جيلين سيمتلكون فكرة عن ذاك الواجب الأسمى للشكر. ماذا سنكون لو لم تكونوا بيننا، وماذا سأكونه أنا مثلا (وهذا أشعر به في كل لحظة)، إن لم أكن كائنا ميتا! إن مجرّد الافتراض بأنني كنتُ سأبقى يوما ما بعيدا عنكم يقشعرّ له بدني: في تلك الحال لا أستحقّ العيش ولا أدري ما كنتُ سأفعل. لكنني الآن تعلّمتُ شيئا واحدا: عاجلا أم آجلا الألمان يجب عليهم أن يبدؤوا في تكوين جمهور لكم، وأنا بمَعيّة أصدقائي أرغب في أن أُحشَر بين هذا الجمهور. بالتأكيد نحن نَنْتَمي إلى الجيل الثالث أكثر منه إلى الثاني، ونأتي نوعا ما متأخرين. ولسدّ هذا النقص يجب أن نأخذ بجدّ واجبنا في أن نكوّن جمهورا، لكي نخرج من ظلمة الانطباع إلى النور، ونفهم لم اقتصرت عبقريّتكم على الشعب الألماني بالذات».

805- **زرادشت**، «عن الألواح القديمة»، § 20.

المسيح الدجال، جعل من هذا التشفّي القاعدة الأساسية في محبّته للإنسان: أن تُقدّم للضعفاء «المساعدة كي يهلكوا[806]».

•كُره البشرية اللامؤمنة، واعتبارها حيوانات أو أقل من الحيوانات، نجدها صريحة في نص القرآن: (**أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا**)، بالنسبة لنيتشه الإنسان حيوان مضحك مَثله كمثل القرد الذي يَسخر منه الأطفال في حديقة الحيوانات؛ "**ما القرد بالنسبة للإنسان؟ أضحوكة، أو موضوع خجل أليم. كذا يجب أن يكون الإنسان بالنسبة للإنسان الأعلى: أضحوكة أو موضوع خجل أليم ... كنتم قردة ذات يوم، وإلى الآن ما يزال الإنسان أكثر قرديّة من أي قرد** (زرادشت، 3)".

احتقار شامل للإنسان ولأعماله، كما جاء في المأثور الإسلامي، فانعدام الإيمان أو فقدانه يعني احباطا تاما لأعمال الفرد والمجموعة: (ومن يكفر بالإيمان فقد **حبط عمله**... والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة **حبطت أعمالهم**). إضافة إلى ذلك فإن القرآن لا يبخل بتعداد مَخَاريق الإنسان وصفاته الوضيعة: (إنه ليَؤوس كفور ... إن الإنسان لظلوم كفّار ... فإذا هو خصيم مبين ... وكان الإنسان عجولا ... وكان الإنسان كفورا ... خُلق الانسان من عجل ... إنه كان ظلوما جهولا ... فإن الانسان كفورا ... إن الإنسان خُلق هلوعا ... قُتل الإنسان ما أكفره ... خلقنا الانسان في كبد ... إن الإنسان لفي خُسر)، وبالجملة، الإنسان أبو الرذائل، أما الدنيا وما فيها فلا تساوي جناح بعوضة.

بالنسبة لنيتشه، البشرية هي البعوض، بل عشّ ديدان تنخر جسدها: «**ما زلتم تحملون الكثير من الدودة في داخلكم**»؛ القرآن يقول إن الإنسان المشرك هو نجس، وبالتالي يجب دَحره وإقصاؤه: (**يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام**). والإنسان الذي لا يؤمن بنبوءة نيتشه هو نهر من النجاسة والقذارة: "أليست **روحكم** فاقة **وقذارة** وطمأنينة **بائسة**؟ ... **إن الإنسان نهر قذر**". وليس الإنسان فقط بل الكون كله «منذور إلى الفناء، وكل شيء لا يستحق غير الفناء (زرادشت، "الخلاص")».

806-نيتشه، **عدو المسيح**، ترجمة جورج ميخائيل ديب، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية اللاذقية 2004، § 2، ص، 26.

حكمة الإنسان لا قيمة لها أمام حكمة الله، والإنسان لا يعلم أي شيء في حياته: (**الله يعلم وأنتم لا تعلمون**)، ونيتشه يقول: «**الأكثر حكمة بينكم لا يعدو كونه خلقة خلطا ومزيجا من نبات ومن شبح**».

يجب على الإنسان أن يحتقر ذاته ويزدري طبيعته، لأن منشأه وضيع: (**خلق الإنسان من علق** ... **من نطفة أمشاج**) كما يقول القرآن، وهو مردود إلى قاع السفالة (**رددناه أسفل سافلين**)، هذا منطق القرآن. ونيتشه من جهته، على نفس الموجة، يقول إن «أكثر الساعات سموّا مما يمكنكم أن تعيشوها، **هي ساعة الاحتقار الأعظم**»؛ حياة الإنسان هي لعب ولهو، ونيتشه يقول: «ما يمكن أن يكون جديرا بالحب في الإنسان هو كونه مَعبَرا **وصيرورة اندثار**».

إن الطّموح إلى السعادة في الدنيا ممنوع، ولا يجب التفكير فيه أو السعي إليه، لأن حياة الإنسان، كما جاء في القرآن هي في نهاية المطاف "هشيم تذروه الرياح"، ونيتشه يقول إن «**سعادتكم ذاتها قرف**.. ما أهمية سعادتي! **إنها فاقة وقذارة وطمأنينة بائسة**»؛ عدم التفكر وعدم تشغيل طاقات الذهن أو البحث عن اليقين «ما **أهمية عقلي!** هل يتلهّف للمعرفة كما الأسد يتلهّف لغذائه؟ **إنه فاقة وقذارة وطمأنينة بائسة!**». أن تكون إنسانا فاضلا ولكن غير مؤمن فهذا يُلغي فضائلك ويُعدم قيمة أعمالك، وبالنسبة لنيتشه أن تكون انسانا فاضلا، فهو أمر معدوم الفائدة، بل فاقة وقذارة: «ما أهمية **فضيلتي!** إنها لم تُحوّلني بعد إلى مسعور ... **فاقة وقذارة** وطمأنينة بائسة كل هذا».

العدالة مع غير المسلمين مرفوضة، وهذه ثابتة في الفقه الإسلامي بكل مدارسه، وفي فقه نيتشه كذلك: «ما أهمية **عدالتي!** وأنا لا أرى أنني أتحوّل جمرا ولهيبا. لكن **العادل جمر ولهيب!**». الغلظة هي تصرف محبب لله (**وليجدوا فيكم غلظة**)، الحدود يجب أن تنفذ دون شفقة، وبالنسبة لنيتشه الشفقة رذيلة: «ما أهمّية **شفقتيّ!** أليست **الشفقة هي الصليب** الذي عُلّق عليه ذلك الذي كان محبّا للبشر؟».

- الإنسان السّلفي، المشبّع بفتاوى ابن تيمية ويوسف القرضاوي، هو الإرهابي التفجيري المجنون؛ ونُسخته النيتشوية، هي "الإنسان الأعلى" «**تلك الصاعقة، إنه الجنون!**»؛ يجب أن يَضَع نصب عينيه هدفا واحدا: الانتحار، أي أن يقضي على نفسه بنفسه، وحبّذا لو جَرَفَ معه أكبر عدد من الأبرياء. الفضيلة الكبرى هي أن تقضي

على نفسك لأن الحياة لا تساوي جناح بعوضة: «لِمَ الحياة؟ فالكل باطل! الحياة إنها دِرَاسُ قشّ بلا حبّ؛ الحياة هي أن يحترق المرء بنارَ ولا يحصل على دفء[807]». ولو كان نيتشه حيا لسعد بالتفجيريّين المسلمين، ولنَظِم لهم أبيات شعر لتخليد ذكراهم، أو ألّف لهم أناشيد جهادية تحريضيّة. فهو يعبّر عن امتنانه لهذا الصِّنف من الحيوان القتّال، ويُحرّضه على الفتك بنفسه: «**أحب أولئك الذين لا يعرفون كيف يعيشون دون أن يكونوا في ذلك منحدرين إلى الهلاك، إذ هم الذين يعبرون إلى الضفة الأخرى** (زرادشت، 4)». دع الإرهابي يفعل ما يشاء؛ تَفرّجْ على اجرامه واصمتْ، هذه هي حكمة نيتشه: «**من كانت لديه رغبة في أن يخنق الناس ويَطعنهم ويُقطّعهم إربا ويُعلّقهم، دعه يفعل، ولا تُحرّك اصبعا لمعارضة ذلك**[808]».

الشيخ محمد حسان الوهابي، يقسم بأغلظ الأيْمان أنّ من يُفجّر نفسه فهو يعمل عملا صالحا في غاية الورع والتقوى لأنه يقدّم أغلى ما عنده كقربان لله، والقرضاوي يقول إن من يقوم بعمليّة انتحاريّة يُقدّم روحه على كفّه في سبيل الله. فتاوى ليست غريبة عن نيتشه، لأنه هو نفسه يبتهج لمن ينتحر ويسمي الانتحاريين بـ "**المحتقرين الكبار**"، لماذا؟ "**لأنهم أكبر المُجلّين، وهم سهام الشّوق إلى الضفة الأخرى**". وما يدعوه نيتشه بالضفة الأخرى، هو في عرف الإسلاميين، جنّة النعيم والدعارة التي لا تُنال إلاّ بالتّقتيل والموت العنيف. نيتشه لا يملك هذا الوهم الميتافيزيقي، فاقتصر عنده معنى الضفّة الأخرى على لحظة الإعدام الذاتي. لكن التفجيري الشرّير له أيضا مثال آخر، أكثر أرضيّة وأقلّ ميتافيزيقية، ألا وهو تحقيق ما يسمى بدولة الخلافة على منهاج النبوّة، أي احتلال الأرض كلها وبسط الرداء الأسود عليها؛ الانتحاري النيتشوي له مثال أرضي يصبو إلى تحقيقه: «أحبّ أولئك الذين لا يتطلّعون إلى النجوم بحثا **عن مبرّر للهلاك وللتضحية بأنفسهم**، بل ينفقون أنفسهم **لصالح الأرض**، كي تصير الأرض **ملكا للإنسان الأعلى في يوم ما**».

الإرهابي المسلم السلفي، هو أيضا لا يفكر إلاّ في الخلافة، ولا يهدف إلاّ إلى إقامة دين الله على الأرض، فهو يُبايع الخليفة، ويُفجّر نفسه لكي يبني وطنا لأمير المؤمنين السفّاح، عميل الموساد. نيتشه أيضا ينصح بأن يجتهد الناس لكي يهيؤوا لدراكولا،

807- **زرادشت**، «الألواح القديمة، § 13، ص، 386.

808- «الألواح القديمة، § 15، ص، 388

الإنسان الأعلى أميرهم، مكانا على الأرض في المستقبل: «أحب ذلك الذي يحيا من أجل أن يعرف، والذي يعرف **من أجل أن يحيا الإنسان الأعلى**، وهكذا هو **يريد هلاكه**. أحبّ الذي يعمل ويبتكر كي **يبني بيت الإنسان الأعلى ويهيئ له الأرض** والدابة والزرع؛ وهكذا **يمضي بإرادته إلى الهلاك**». أليست دعوة للانتحار هذه؟ أليست تحريضا على الفتك بالنفس القول بأن **الفضيلة** (Tugend) تكمن في "**إرادة الهلاك** (Wille zum Untergang)"؟ أجل هي دعوة وتحبيب وتحريض على الانتحار، يقوله هو نفسه في شذرة جنونية من "ما وراء الخير والشر": «فكرة **الانتحار** وسيلة **تعزية قوية**: بها يُجهز المرء على شرّ بعض الليالي، 157».

- الحقيقة تسوء الإنسان المسلم؛ ثمة أشياء لا ينبغي السؤال عنها أو البحث فيها، كما جاء في القرآن (**لا تسألوا عن أشياء إن تبْد لكم تسؤكم**)، وبالمثل في رأي نيتشه، «ثمة مُجريات في غاية الرقة، يُحسَن حَجْبها ومُواراتها عن الأبصار تحت فظاظة ما[809]». أما إذا كان ثمة شاهد عيان على حصول الحدث فيَحسُن، في هذه الحال، أن يأكل طريحة تُفقده وعيه: «يَحسن تناول العصا وإشباع شاهد العيان ضربا: بهذا تتعكّر ذاكرته». وبالجملة، الإنسان إذا كان فقط حيوانا عاقلا، فإن الحقيقة ستدفعه إلى **اليأس والإعدام** (**Verzweiflung** und **Vernichtung**)، ستفرض عليه أن يبقى محكوما باللاحقيقة، ووضعيّة اللاحقيقة ستبقى دائمة ما دامت البشرية على وجه الأرض. فعلا، ألم تترك الطبيعة الأنسان في جهل مطبق بكل شيء تقريبا، بدءا من الأقرب منه، جسده، والذي لديه وعي به عشوائي؟ فهو مسجون في هذا الوعي دون أن يعرف جوهره، لأن الطبيعة أغلقت الباب ورمت المفتاح (التشبيه لنيتشه). وبالجملة، الحقيقة غير موجودة، بل غير مرغوب فيها، الأفضل الانصراف إلى أشياء أخرى: الفنّ، يقول نيتشه، أقوى من المعرفة، لأنه يريد الحياة، بينما هذه، هدفها النهائي الإعدام (die Vernichtung)[810].

لكن عقيدة الجهل المُعمّم هذه، هي عقيدة لاهوتية بالأساس، إذ حينما تقف المحالات المنطقية أمام أهل الأديان وتصدّهم البراهين العقلية، ويعجزون عن تبرير جنونهم الديني، لا يجدون من ملجأ يَحْتَمون تحت مظلّته سوى "محدوديّة العقل الإنساني".

809- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، §، 40، 2، 70.

810- Nietzsche, Über das Pathos der Wahrheit, in Fünf Vorreden, p. 760.

إلاّ أنّ ما عبّر عنه نيتشه بطريقة فجّة في قوله إن "الطبيعة أغلقت الباب ورمت المفتاح"، كان قد عبّر عنه برشاقة، فخر الدين الرازي، قبله بألف سنة. ففي معرض حديثه عن صعوبة تعريف الذات الإلهية، حوّل وجهته إلى محدودية العقل البشري، وادّعى أن الإنسان قاصر على معرفة ما هو أظهر وأقرب منه، فما بالك بما هو أبعد وأغمض: «إنّ أظهر المعلومات لجميع العقلاء هو علم الإنسان بذاته المخصوصة ومعرفته بنفسه المخصوصة، ثم هذا العلم، مع أنه أظهر العلوم وأجلى المعارف، قد بلغ في الصعوبة والخفاء إلى حيث عجزت العقول عن الوصول إليه. وإذا كان الحال في أظهر المعلومات كذلك، فالحال في أبعد الأشياء عن مناسبة الأمور المعلومة للخلق كيف يكون؟[811]».

- كرامة الإنسان مسحولة في الحضيض، ونيتشه يردّ الفعل ضد شعارات بدأت تُرفع في أوروبا في تلك الفترة، من قبيل "كرامة الإنسان (Würde des Menschen)" و "كرامة الشغل (Würde der Arbeit)"، لكنه يعتبرها مجرد مماحكة بائسة لإدامة حياة بائسة، جديرة بالنبات. المثال الأعلى للمسلمين، وهم الصحابة، الذين لا يعرفون أي معنى للشغل ولا يُولون أية أهمية لكرامة الإنسان، ولم نَعْلَم منهم أنهم اكترثوا بهذه الضوابط، وهؤلاء يعكسون صورة أبطال نيتشه، الذين هم اليونانيون القدماء. إنّ هؤلاء الأبطال، أبطال اليونان الكلاسيك، لم يكونوا في حاجة لمثل هذه المفاهيم المهلوسة (Begriffs-Hallucinationen)، يقولون، بصراحة مُفزعة، إن الشغل عار، بل ثمة حكمة حيّة تقول إن الإنسان هو عدم، هو كائن حقير وبائس، شبح يَهِيمُ في الفضاء مثل الظلّ الحالم. الإنسان الذي يشتغل، بالنسبة للإسلام هو عالة على المجاهدين، وكذلك بالنسبة لنيتشه: الشغيل لا يمكن أن يكون فنانا، والفن في عرف نيتشه ليس إلاّ القتَال. فعلا، أشباح مثل كرامة الإنسان أو كرامة الشغل هي ثمار ذابلة لعبودية تخفي وجهها الحقيقي.

- العبودية هي الأطروحة المركزية التي تتمحوَر عليها منظومة أفكار نيتشه برمّتها، وهي الخيط الناظم لكل كتاباته، وقد بقيتْ مُسايرة لتنظيره طوال حياته. وإنه لشيء مخجل ومقرف، أن هذا "الفيلسوف" الذي اجتذب له أتباعا ومُريدين ودُعاة ومُؤذّنين في العالم أجمع، واعتبروه مُخلّصا ومُحرّرا للبشرية، لم يدن العبودية

811- فخر الدين الرازي، **كتاب الأربعين في أصول الدين**، دار الجيل، بيروت 2004، ص، 16.

اطلاقا، بل يتمنى إعادتها إلى أوروبا من جديد. وهذه هي النقطة التي يلتقي فيها نيتشه جهارا مع السلفيين والوهابيين المسلمين، الذين حقّقوا أمنيته بعد مائة وعشرين سنة، وأعادوا فتح أسواق النخاسة في الرقّة والموصل.

تتذكرون المقال الذي كتبه، المدعوّ سيّد أحمد مهدي، منذ عشر سنوات، بعنوان "ماذا خسر المسلمون بإلغاء الرقّ؟ "، حيث يتحسّر فيه على إلغاء العبودية، مُذكّرا الغافلين بمحاسنها التاريخية وبالفوائد التي جلبتها للعالم الإسلامي، ها قد تحققت له أمنيته هو أيضا دون أن ينتظر طويلا وانشرح صدره برؤية أسواق النخاسة تستعيد مجدها التليد وتفرض نفسها مجددا بالقوة على الضمير البشري. في المأثور الإسلامي ثمة حديث جنوني بأتم معنى الكلمة، لأنه يهتمّ بصلاة العبد ويخشى على كُفره، بدل حرّيته الشخصية، يقول: «**إذا أبق العبد لم تقبل له صلاة، وإن مات فهو كافر**». لكن أحد المسلمين الأقحاح، واسمه جرير، فضّ المشكلة من الجذور: ذَبَح العبد وريّح نفسه: «**أَبِقَ غلام لِجَرير فأخذه فضرب عنقه**».

ونيتشه يحتجّ ضد العبيد الآبقين، ويتحسّر على الزمن الجميل الذي كان فيه التمييز واضحا، في كل شيء، بين العبيد والأحرار، صيغة مماثلة للفوارق التي ينص عليها القرآن في مجال الحدود: (**الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد**).

«زمن تعيس، يقول نيتشه، هذا الزمن الذي أصبح فيه العبد يحتاج إلى هذه المفاهيم [مفاهيم كرامة الانسان وكرامة الشغل] ويُحَثّ على التفكير في حاله وحال الآخرين! مُغَرِّرون تعساء، هؤلاء الذين خرّبوا حالة براءة العبد عن طريق شجرة المعرفة! والآن هو مُلزَم على أن يَسحل نفسه يوميّا في مثل هذه الأكاذيب الواضحة، التي يمكن التعرف عليها من قبَل أي شخص لديه القدرة على النظر بعمق في مسألة "المساواة العالمية" المزعومة أو في "الحقوق الأساسية للإنسان"، للإنسان بما هو كذلك[812]». إلى دعاة كرامة الشغل، نيتشه، يعارضهم بالتراث اليوناني المجيد: لا شيء أكثر نُفورا بالنسبة للشاب اليوناني من الشغل، بما في ذلك العمل الفني ذاته، «فحتّى الابداع الفني (das künstlerische Schaffen) يقع، بالنسبة لليوناني، تحت المفهوم الشائن للعمل، مثله مثل أي عمل يدوي بائس».

812- F. Nietzsche, Der griechische Staat, in *Ibid*., p. 765.

لكي يعيش المسلم في راحة واستجمام، ويَتَفرّغ لممارسة فنّ الركوع والصّيام يجب أن يتكفّل جيش من العبيد بتوفير حاجياته، وأن تأتي له الأمم المستعمرة بالأموال، والآلات المُتنفّسة، كالجواري والغلمان تُوضَع تحت ذمّته في كل ضرورات حياته. **وقد عبّر صاحب المقال أعلاه، بكل وضوح ودون أدنى مواربة، عن هذه القناعة، من أن عبادة القدماء تتمّ على جماجم الرقّ: «إنّك قد تَعجب من كثرة صلاة سلفنا وكثرة صيامهم وتفرّغهم للعبادة والتلاوة والذّكر والتّسبيح، بما لا نستطيع معْشار عُشُره. فنحن يلزمنا الذهاب صباحا إلى الدوام، فنكدح ثماني ساعات ثم نعود مُرهَقين إلى بيوتنا فبَرْتَمي على فراشنا صرعى أخي الموت! نعم... قد بُورك لسَلفنا في أوقاتهم، ومن هذه البركة أن سخّر الله تعالى لهم الغلمان والعبيد الذين يَكفونهم المهنة وأشغال البيت؛ فاعجبْ من حكمة الله في تشريع الرقّ ... ثم اعجبْ ... ثم اعجبْ».**

ولكل من تشكّك في هذا الأمر فإن هذا الاسلامي يستشهد له بالتراث المجيد الذي استطاع بأعجوبة أن يقلب القيم ويجعل من العبد مُحرّرا للسيّد: «إليك هذه القصة عن أسماء رضي الله عنها، لتَرى كيف يَعْتق العبدُ حرّا لمّا يكفيه مؤنة الشّغل ... "كُنتُ أعلف فرس الزّبير وأكفيه مؤنته ... كُنتُ أنقلُ النّوى من أرض الزّبير التي أقْطَعَه رسول الله على رأسي، وهي على ثُلُثي فَرْسَخ ... حتى أرسَل إليّ أبو بكر بخادم فكفتني سياسة الفَرَس فكأنما أعْتَقتني"».

نيتشه هو نفسه يتحدّث عن عتْق العبيد للأسياد من أتعاب المشاغل اليومية، لكنه عوض الرّكوع والسجود، يتَذرّع بالثقافة والفن. قال إن الثقافة (die Bildung)، تجْثو على أرضيّة رهيبة (erschrecklichen Grunde)، ذلك أنّه لبناء مجتمع فنّان، من الضروري أن تكون أغلبية الناس في خدمة الأقلية. ينبغي على تلك الطبقة الراقية أن تعفي نفسها من الصراع من أجل الوجود، وتُوكَل هذه المهمة إلى جيش من العبيد، حيث عن طريق المزيد من العمل (أعمال شاقة "Mehrarbeit")، يمكنها أن تُنتج عالما جديدا من الحاجيات وتشبعها.

يُسمّيها حقيقة مُرّة، لا لأنها تُفزعه، بل لأن الحداثيّين حوّلوها إلى مرارة، ويريدون القضاء على هذه السنّة الحميدة بكل الوسائل، لكن العبودية بالنسبة إليه غير قابلة للاضمحلال، فهي تنتمي إلى جوهر الثقافة؛ إن هذه الحقيقة، يضيف نيتشه، لا تترك

أي مجال للشك حول القيمة المطلقة للوجود. الأسياد يتألمون في ابداعاتهم الفنية، لكن عذابات الناس الذين يعيشون بالتّعب يجب أن تُضاعف أكثر. لماذا؟ ضروري من أجل توفير الشروط اللازمة لقلة من الرجال الأولمبيين كي يُبدعوا عالما فنّيا راقيا[813].

في كِلتي الحالتيْن لدينا اجراميّان يُهينان كرامة الانسان ويؤبّدان حالة الدونيّة الفظيعة: اَلمسلم الوهابي يتذرّع بعبادة إلهه الإجرامي لتبرير العبودية، ونيتشه يتذرّع بالثقافة والفن.

بعد عشرين سنة من تدوين هذا النص وإهدائه إلى السيدة كوزيما فاغنر، وفي كتاب **ما وراء الخير والشرّ**، يعود إلى نفس الموضوع، وهذه المرّة يُلاقي الوهابي في نفس البؤرة: حيث اختفى التبرير بالفن وبرز التبرير بالدّين. أرستقراطية دينية، يعني بطالة ممنهجة وعيشا على عَرَق العبيد. ويتحدث عنها وكأنها اكتشاف جديد، بينما قالها من قبل، في أوّل مقالاته: «هل انتبهتُم جيدا إلى أن **الحياة الدينية**، بصحيح المعنى ... تقتضي إلى حد بعيد **البطالة** براحة ضمير، بطالة لا يغرب عنها كلّيا الشعور الارستقراطي بأن العمل يُدنّس بمعنى أنه يجعل النفس والجسد عاميين؟[814]».

عالم نيتشه، هو عالم الكون والفساد في أشرس معانيه: أرحام تدفع وأرض تبلع، يتساوى فيها كل شيء، الحياة والموت، القتل والإحياء: "إنجاب وعيش وقتل هي نفس الشيء[815]". الثقافة الرائعة (herrliche Kultur)، يعني "ثقافة الجهاد" الإسلامية، يمكن ترجمتها على النحو التالي: «مقاتل منتصر يقطر دما يَسحل، في موكبه المظفّر، المهزومين كعبيد مقيّدين وراء عرَبته»، وما زال المُغيّبون يتحدثون عن "كرامة الإنسان"، يتعجب نيتشه، مازالوا يذرفون دموع الرحمة على العبد وعلى وضعه البائس[816].

أكبر خطر يحيق بالحضارة، هو غياب العبودية، الكلام لنيتشه، ولم يتملّص منه طوال حياته: «نحن سننهار بسبب عدم وجود العبودية[817]». وفي هذا الشأن فإن نيتشه وجد له ثلاثة حلفاء أقوياء: اليهودية والمسيحية والإسلام. يُثني على المسيحية الأولى،

813- *Ibid.*, p. 767. „daß zum Wesen“

814- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، § 58، ص، 90.

815- F. Nietzsche, Der griechische Staat, in *Ibid.*, „Zeugen Leben und Morden ist eins“, *Ibid.*, p. 768.

816- *Ibid*em., „… die Thränen des Mitleidens mit dem Sklaven und mit dem Sklavenelende.

817- *Ibid.*, p. 769. „… daß wir an dem Mangel des Sklaventhums zu Grunde gehen werden“.

أي المسيحية الصحيحة لا المُخنثة، لأنها لم تُدن العبودية ولم تُبْدِ إزاءها أيّ اعتراض أخلاقي، وفي هذا الشأن، فإن المسيحية جميلة ورائعة. فعلا، يمتنّ للمسيحية ويقول: كم هو مُعَزّ لنا النظر إلى عبيد القنانة في القرون الوسطى، بعلاقاتهم القانونية ونمط حياتهم، مُرَتّبة هرميا، والمجال المحزن من وجودهم الضيق – كم هو مُغيث لنا، وكم هو مُحذّر!

وها أنّ الوهابي، سيّد أحمد مهدي، يكتب في القرن الواحد والعشرين، والمقال الإجرامي موجود إلى الآن في موقع أهل الحديث، يكتب بالحرف: «**إن إلغاء الرق من المصائب العظيمة التي مُني بها المسلمون بسبب ابتعادهم عن شريعة ربهم وتقاعسهم عن نصرة دينه سبحانه وتعالى. وانقطع بانقطاع الرّق سبل كثيرة من سبل الخير في الدنيا والآخرة على المسلمين، نعم ... لقد خسر المسلمون بإلغاء الرق نِعَما كثيرة اقتضتها حكمة الله تعالى في تشريع هذا النظام المحكم العادل**».

داعش تُطبّق الإسلام الصحيح، وتسير على هدي السيرة النبوية والخلفاء الراشدين الذين لهم تصوّر خاص لحقوق الإنسان. نيتشه ينصح بالتّأسي بأخلاق اليونان القدماء. وفيم تتمثل أخلاقهم العليا؟ في سفك الدماء واستعباد البشر وسبي النساء. إذا أردتم أن تعرفوا كيف نشأت العبودية، يقول نيتشه، فعَلَيْكم أن تسألوا اليونانيين. لقد كشفوا لنا، بغريزتهم المُحترمة لحق الشعوب، والتي لم تنفكّ، حتى في ملء تَحضّرهم وإنسانيّتهم، تتلفّظ، بشفاهٍ برونزية، بهذه الكلمات: «**المغلوب ملك للغالب**، بما في ذلك **امرأته وأبنائه، وأملاكه ودمه**. العنف هو الأساس الأوّل للقانون، وليس هناك من قانون دون أن يكون، في العمق، **غطرسة، اغتصاب**، هيمنة[818]».

السيد نيتشه يُثني، في سنة 1870 على أفظع الأعمال وأكثرها اجرامية في العالم: على قتل الرجال وسبي النساء والأطفال، والشيخ الإجرامي أبو إسحاق الحويني في سنة 2015 بنفس عبارات نيتشه يشرح أمام جمهور غفير من المُصلّين أحكام الإسلام على البلد الذي دخله المسلمون، وهي الأحكام التي فَعّلوها طوال تاريخهم منذ محمد إلى الإمبراطورية العثمانية وختامها بداعش. أحكام الإسلام يقول الحويني: «كل الناس

818- *Ibid.*, „Die Griechen haben es uns in ihrem völkerrechtlichen Instinkte verrathen, dem auch in der reifsten Fülle ihrer Gesittung und Menschlichkeit, nicht aufhörte, aus erzenem Munde solche Worte auszurufen: „dem Sieger gehört der Besiegte, mit Weib und Kind, Gut und Blut. Die Gewalt giebt das erste Recht, und es giebt kein Recht, das nicht in seinem Fundament Anmaßung Usurpation Gewalttat ist"".

الموجودين في البلد أصبحوا غنائم وسبايا: نساء، رجال، أطفال، أموال، حقول، مزارع، كل هذا أصبح ملك المسلمين. والسبايا مصيرهم كغنائم أن يُوَزّعوا على المجاهدين، وثمة ما يسمى سوق النخاسة، سوق بيع العبيد والإماء والجواري والأطفال».

ومن قبله الوهابي صاحب مقال "ماذا خسر المسلمون من إلغاء الرق؟" يعاضده في قساوته هذه، مستندا إلى موروثه الديني لإضفاء مشروعية على الإجرام واللصوصية، **حيث يورد قولة للمدعوّ الشنقيطي تؤكدا هذا الغرض: «إن سبب المُلك بالرق هو الكُفر، ومحاربة الله ورسوله، فإذا أقدرَ الله المسلمين المجاهدين على الكفار جعلهم ملكاً لهم بالسّبي»**.

وجَماليّة هذا العمل الفظيع، بالنسبة للمسلم، تكمن في وحشيّة الإله العليّ القدير الذي قَلبَ القيم رأسا على عقب، وحوّل الرذيلة إلى فضيلة، والبربرية إلى رقّة والمجون إلى عفّة. يقول الوهابي أعلاه: «ذلك أن الله جلَّ وعلا خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه، ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه ... وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة... وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ليشكروه ... فتمرّد الكفار على ربهم وطغوا وعتوا، وأعلنوا الحرب على رسله لئلا تكون كلمته هي العليا، واستعملوا جميع المواهب التي أنعم عليهم بها في محاربته، وارتكاب ما يسخطه، ومعاداته ومعاداة أوليائه القائمين بأمره. وهذا أكبر جريمة يتصوّرها الإنسان. **فعاقبهم** الحَكَم العدل اللطيف الخبير جلَّ وعلا **عقوبة شديدة تُناسب جر يمتهم. فسلبهم التصرف، ووضعهم من مقام الإنسانية إلى مقام أسفل منه كمقام الحيوانات، فأجاز بيعهم وشِراءهم، وغير ذلك من التصرفات المالية**».

يمكننا أن نتفهّم موقف المسلم الوهابي، عدوّ البشرية، لأنه محكوم بالنص القرآني الذي يبرّر له هذه الأعمال الوحشية؛ ويمكننا أن نتفهّم أيضا إصرار نيتشه على العبودية لأن عالمه اليوناني القديم يسمح له بذلك؛ لكننا لا يمكن أن نتفهّم ولا أن نستوعب كيف ينساق مفكر حديث مع هذه الشناعات، ويبررها من خلال القرآن واليونان معا. المفكر المقصود هو يوسف الصدّيق، الذي تم تكريمه من طرف الجامعة التونسية، بكُلّيّة الفلسفة، مِخبَر فيلاب، منذ شهر. في كتاب «هل قرأنا القرآن؟» يتحدّث بكل أريحية

عن «**معركة حنين التي خاضتها جيوش النبي محمد نفسه**[819]»، ويصفها بأنها **حرب إبادة**، كما صوّرها المؤرخون العرب القدامى، حيث «**أدركت هَوَزان نهايتها**[820]».

أن يشنّ المسلمون الحروب وأن يُقاربوا على إبادة قبيلة بأكملها فهذا لا يمثّل للصّدّيق أيّ احراج أخلاقي، ولا يثير فيه أيّ تساؤل: الأمر عادي جدا، **مجموعة** من الأبطال سحقوا حشرات، وكفى. لقد نَزلنا مع هذا الرجل إلى مستوى الحضيض، بل أعمق وأخطر من الحضيض، إلى قاع الجحيم؛ جحيم الإرهاب المقدّس. بعد أن قتلوا الرجال وأبادوهم عن بِكرة أبيهم، التفتوا للنساء فسَبَوهن، وإلى الأملاك فنهبوها، وها أن فيلسوفنا يوسف الصدّيق يستعرض علينا أعمال السّبي الفظيعة ويُعرّج على اللّصوصيّة والنهب الواردة في القرآن قائلا، بكل أريحية: «**يذهب خمس غنيمة الحرب ... كما جاء في الوحي المُنزّل، إلى الله ورسوله**[821]». يا سلام! الوحي المُنزّل من سبع سماوات جاء، لا ليؤسس الأخلاق الحميدة والسّلم والعفة والأخوّة، وإنما لكي يبرّر أفظع وأشنع الأعمال في العالم. ولا واحد من الذين استدعوه وكرّموه في الجامعة التونسية، وضع أمامه هذا النص وطلب منه إيضاحات وتبريرات لكلامه.

لو سألوه، لأجابهم مثل نيتشه، انظروا إلى حلاوة اليونانيين القدامى، واعتبروا يا أولي الألباب بمَلاحِمهم وبطولاتهم الخالدة. فعلا، الصّدّيق وجد مسوّغات إيديولوجية وحيثيات تاريخية دامغة لتبرير هذه الوحشية، إذ فضلا عن النموذج القرآني (**الوحي المنزّل**)، والنبيّ وجماعته، وجد ضالّته، كما فعل نيتشه، في الثقافة اليونانية القديمة، ونهل من أحدث المؤرخين الغربيّين، مارسيل ديتيان، وهكذا أوصدَت الأبواب أمام أي اعتراض . فعلا، مَن يملك الجرأة على أن يناقش الوحي المُنزّل، أو يحتجّ على أعمال محمد وصحابته، أو يستهين بفضائل اليونانيين العظماء، أو ينقد المؤرخ والأنثربولوجي الكبير ديتيان؟ لا أحد؛ وبالتالي الطريق الآن مُعبّدة لكي يبرّر ما تأبى الطبائع السويّة والأعراف الإنسانية والقيم الأخلاقية تبريره. لقد أسعفه «عالم الأنثربولوجيا والإغريقيات»، وقدّم له عونا كبيرا، لكي يجد مَخرجا مُشرّفا لهذه الأفعال التي قام بها محمد ولكي يميط اللثام، حسب زعمه، «**عن الأصول البعيدة**»

819- يوسف الصدّيق، هل قرأنا القرآن، م. س، ص. 57.

820- ن. م، ن. ص.

821- ن. م، ص. 214.

لهذه الممارسات، التي لم يشجبها القرآن بل، هكذا يقول الصدّيق حرفيا: «**بَعثَها وأرساها وفعّلها** القول القرآني[822]».

تصوّروا هذا التّنكيل**!** تصوّروا إلى أي حدّ وصلت الوحشية بهذا الرجل**!** هكذا لدينا «فيلسوف» عليم بالفلسفة الحديثة وبالثقافة اليونانية القديمة التي من المفروض أن تَقيَه من النزول إلى قاع الجحيم، وإذا به يتخلّى عن علمه وينسلخ تماما من إنسانيّته، لكَي ينخرط في إضفاء مشروعية على أعمال اجرامية. ولا يخجل من التأكيد عليها والقول بصريح العبارة إنّ القرآن: **بعثَ وأرسى وفعّل** النهب والسلب. وماذا يفعل الآن الإرهابيون الإسلاميون في سوريا؟ ألم يَبعثوا ويُرسُوا ويُفعّلوا القول القرآني؟ أنا أضع هذا الرجل أمام مسؤوليّته وأنتظر منه أن يُدين أعمال القتل والنهب التي يقوم بها الإرهابيون الحاليون، والغنائم التي يتقاسمونها فيما بينهم، وبالتالي أن يدين القرآن منبع هذه الأوامر والمشرّع الأول لها. أطالبه بأن تكون له الجرأة مرة واحدة في حياته، ويصرّح بقولة صادقة، ويعترف بأن الغنائم هي عمل مناف للحق والعدل والأخلاق، وأن من يقترفها هو لصّ اجرامي، عدوّ للإنسانية ويجب محاكمته.

• الشيخ الوهابي، محمد العريفي، أطلقَ فتوى عالمية للإرهابيين قال فيها «إن زواج المناكحة الذي تقوم به الفتاة المسلمة المحتشمة البالغة 14 عاما فما فوق أو مطلقة أو أرملة جائز شرعا مع المجاهدين في سوريا وهو زواج محدود الأجل بساعات لكي يفسح المجال لمجاهدين آخرين بالزواج، كذلك وهو يشدّ عزيمة المجاهدين، وكذلك هو من مُوجبات دخول الجنة لمن تجاهد به». والشيخ نيتشه، لخّص هذه الفتوى في جملة واحدة: «ينبغي أن يُربّى الرجل للحرب، والمرأة **لاستراحة المحارب** (زرادشت، «عن المرأة شابة وعجوزا»)[823]»، وكل ما عدا هذا حمق. «الرّجل يريد والمرأة تُعطي»،

822- ن. م، ن. ص. في النسخة الفرنسية من كتابه هذا، الذي ألفه بالفرنسية للفرنسيين، كي يعلمهم القرآن، وعنوانه: «لم نقرأ القرآن أبدا (Nous n’avons jamais lu le Coran)»، كتب هذه الجملة الفظيعة كما يلي:
« Techniquement, dans les commentaires et le vocabulaire de la jurisprudence islamique, il s’agit de la cinquième part (le khumus) du butin de guerre qui doit revenir – c’est la parole coranique qui le précise – à Dieu et à son Envoyé. Or il suffit de reproduire ces notes de l’anthropologue helléniste Marcel Détienne pour lever le voile sur les profondes et lointaines origines des pratiques institutionnelles remises à jour, réaménagées ou restaurées par la parole coranique ». Y. SEDDIK, Nous n’avons jamais lu le Coran, Med Ali Editions, Sfax, 2015, p. 272.

823- „Der Mann soll zum Kriege erzogen werden und das Weib zur Erholung des Kriegers: alles Andre ist Thorheit“. Also sprach Zarathustra, „Von alten und jungen Weiblein“, p. 85.

هذه هي فلسفة نيتشه في موضوع استمتاع المحارب بجسد المرأة (جهاد النكاح): «سعادة الرجل تُدعَى: أنا أريد. سعادة المرأة تُدعى: هو يريد». أما إذا لم تُعط المرأة جسدها أو لم تَنصَع لإرادة الرجل فالقرآن يأمر بقتلها ضربا، ونيتشه من جهته يُصادق ويفتي: «إذا ذهبتَ إلى النساء فلا تَنْسَ السوط». ومرّة أخرى فإن المترجم أفرغ هذه الجملة من شحنتها العنيفة. نيتشه يقول بأكثر قسوة واحتقار: «أنت ذاهب إلى النساء؟ (Du gehst zu Frauen?) لا تَنس السوط[824] (Vergiss die Peitsche nicht!) »

- التعذيب موجود في الفقه الإسلامي ومُبرّر بحشد من النصوص، وهو أمر وحشي في غاية اللاإنسانية. كُنّا نقرأه في كُتب السيرة ونَمرّ عليه دون اكتراث، لأننا نخاله من مخلّفات ماض سحيق ولّى دون رجعة، لكننا الآن نراه بالصورة والصوت في فيديوهات القاعدة وداعش والنصرة. ما هي المسوّغات النصّية لمثل هذه الأعمال؟ شيْخ سلفي، بيده سكّين طويل، وأمامه مجموعة من الشبّان، يشرح لهم معنى عبارة "**ضَرْب الرقاب**" القرآنية، قال: «تأخذْ السكين وتبدأ تتسلّى فيه: إييه ما ذبح ... رجّع السكين، إيه ... خرَج شويّة دم؟ لا رجّع السكين وتتسلى. "فضرب الرقاب"، يعني حتى يذوق وبال أمره ... تتلذذ».

والحال أن هذا الشيخ الإرهابي لم يبتدع أي شيء من محض خياله وإنما مَسْرَحَ ما هو موجود في التراث الإسلامي. وفعلا، استشهد بالقرطبي الذي فسّر هذا المقطع، بقوله إن القرآن لم يقل فاقتلوهم، لأن في العبارة بضرب الرقاب من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل، **لما فيه من تصوير القتل بأشنع صوره، وهو حزّ العنق** وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعُلوّه وأوْجُه أعضائه (القرطبي، الجامع لأحكام القرآن). وابن كثير يوضّح أكثر ويقول: "إذا واجَهتموهم **فاحصدوهم حصدا بالسيوف**". وأيضا في تفسيره لآية "فاضربوا فوق الأعناق" يقول ابن كثير، بكل أريحية، إنها تعني «اضربوا الهَامَ ففلّقوها، واجتزّوا الرقاب فقطّعوها، وقطّعوا الأطراف منهم وهي أيديهم». هذا المشهد المرعب هو الذي يتحدث عنه نيتشه ويشيد به، في **جينيالوجيا الأخلاق**، بقوله «**إن رؤية الآخر يُعاني تُنعشنا** (Leiden-sehn thut wohl)، **وتعذيبه يُنعشنا أكثر** (Leiden-machen noch wohler)[825]»، وفي موضع آخر يقول إنه يجب

824- F. Nietzsche, Also sprach Zarathustra, „Von alten und jungen Weiblein“, p. 86.

825- نيتشه، جنيالوجيا الأخلاق، II. § 6، ص، 57.

علينا أن لا نصاب بالاكتئاب لدى سماعنا كلمة التعذيب (**Tortur**„ dem Wort")، أما السّكين الذي يلوّح به الإرهابي الذبّاح فإن نيتشه يمدح هذه الآلة ويُثني على صاحبها: «أما أنا فأقول لكم: **إن نفسه كانت تبتغي دما: لقد كان متعطّشا لغِبْطة السّكين** (زرادشت. "عن المجرم الشاحب")».

ورغم هذه السادية المقززة، ورغم شحنة الاجرام الفظيع، يأتينا النيتشوي المغربي، محمد أندلسي، ليُبرّر لنا فن التعذيب (بعد أن مَسَخَه طبعا)، قائلا إن الألم، (والأصح التعذيب، لأن الكلمة الألمانية التي يستعملها نيتشه هي (**Leiden machen**) وتعني حرفيّا "فِعْل الإيلام" أي التّعذيب)، يحتاج للإبقاء عليه إلى "فنّ السيّد"، «لأن هذا الأخير يعرف أن الألم لا معنى له إلاّ إذا كان موضوع امتاع وتأمّل[826]». أرأيتم هذه الوحشية؟ التعذيب موضوع امتاع وتأمّل، هكذا يرددها صاحبنا دون أن يُشغّل عقله ويتساءل عن مشروعية مثل هذه التصرّفات، وما دخلها بالفلسفة أصلا. وكيف يستطيع أن يَفعَلَ ذلك ونيتشه قضى تماما على ملكة التفكير عند أتباعه؛ أخرَجَهم من طور المعقول وسَحق الرحمة من قلوبهم. لكن الرجل لم يَتسنّ له تحريف الكلمات ولم يُوفّق حتى في استبدال التعذيب بالألم، فاقتطع النص النيتشوي الإجرامي واستشهد به فورّط نفسه. النص يقول: «**لقد كانت القسوة المتعة المفضلة للبشرية البدائية، وكانت تدخل كتَابل في كل لَذَّاتها تقريبا (...) لا استمتاع من دون قساوة، هذا ما يُنبئنا به تاريخ الإنسان الأكثر قدما وطولا**. وللعقاب هو الآخر مظاهر الاحتفال[827]». أين ذهب الألم إذن؟ أليست هذه مواصفات التعذيب؟

• الدولة الإسلامية في العراق والشام، بُنيت على الغزو وعلى التنكيل والقسوة، جمّعت تحتها شتاتا من الصعاليك الاجراميين المُخدّرين بأفيون الدين، فتَدَحْرَجت وكبُرتْ كَكُرة الثلج حتى أصبحت قوة ضاربة. وهذا رأي نيتشه بخصوص نشأة الدولة، حيث أن الطبيعة، لكي تؤسس الدولة، أنجبت ذلك الفاتح صاحب اليَد من حديد (Eroberer mit der eisernen Hand)، والذي يمثّل عن جد تحقيق الغريزة في الواقع . إنها أيام سعيدة، أمام عظمة وقوة أولئك الغزاة، يدرك المراقب الخارجي أنهم لم يكونوا إلا وسيلة لتحقيق غاية أسمى تتجلّى فيهم، ومع ذلك هي خافية عن أعيُنهم. كما لو أنّ إرادة سحرية قد انبثقت منهم، ولذلك التفّت حولهم بسرعة قوى ضعيفة،

826- محمد أندلسي، نيتشه وسياسة الفلسفة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 2006. ص، 120.

827- النص مأخوذ من **جينيالوجيا الأخلاق**، 6 §، II.

فتحوّلوا، بشكل مثير للإعجاب، وبسبب التضخم المفاجئ إلى ذلك الجلمود من العنف في ظل موجة تعتمل تحت سحر تلك النواة الإبداعية، في تلاحم غير معروف حتى تلك اللحظة[828]. هذا الوصف ينطبق بالحرف على داعش.

• وإذا أردتم أن تطّلعوا على نسخة قديمة من السيرورة التي أنشأت داعش، ومواصفات مُرتزقتها، فأقرأوا الفقرة 262 من **ما وراء الخير والشر**. «**سيرة الفرد الرائع من البداية إلى النهاية**»، هذا هو العنوان الذي وضعته المُترجمة لهذه الفقرة، وهي لا تعلم أنها تُعطينا نُسخة مطابقة للوحش الداعشي الذي صنعته الموساد. كيف جاء هذا الوحش إلى الوجود؟ نيتشه يُنبؤنا به: «ينشأ نوع من الأنواع، طراز يفرض نفسه ويَتعزّز في صراع طويل ضد ظروف غير ملائمة[829]». الداعشي: شاب مسلم، من طراز جديد، تُدرّبه المخابرات الغربية والإسرائيلية، في جبال طورا بورا، أو في صحراء ليبيا أو مالي، وفي ظروف قاسية جدا، على استخدام أنواع السلاح الخفيفة والثقيلة، وتفخيخ السيارات وصُنع الأحزمة الناسفة. هم مجموعة من مُجرمي الحق العام، تمّ غسل أدمغتهم من طرف شيوخ الوهابيّة، الذين استقدموهم خصيصا لهذا الغرض، كما حدث في سجون تونس. بعد تسريحهم من السجون يُنقلون كالأبقار إلى الصحاري القاسية والأماكن الوعرة الشحيحة الموارد، يربّونهم على الحياة الخَشنة، ثمّ ينتقون منهم الأقدر على مواجهة الشدائد. نيتشه من جهته، يقول إن هذا النمط من العيش في الندرة والخطر، هو الأقوم على انتقاء صنف المحاربين الأشداء. ويستنجد هنا بتجارب مُربّي البقر «يُستَفاد من تجربة المُربّين أن أنواعا يتوافر لها غذاء زائد وفيض من الحماية والرعاية[830]»، تؤدي حتما إلى إفساد العرق، إلى خلق مُشوّهين.

لكن، في صُلب مجتمع أرستقراطي، انتقائي وعن طريق تجارب قاسية، يبرز أناس «يتعايشون ويعتمدون على أنفسهم، وهم يريدون فرض نوعهم لأنهم يضطرّون، في الغالب، إلى فرض أنفسهم إذا ما أرادوا درء خطر الإبادة الذي يُهدّدهم على نحو مُرعب[831]». ولا يمكن لهؤلاء الأقوياء الاجراميين إلاّ أن يفرضوا أنفسهم، عن طريق تعنيف الآخرين وقتلهم، لا وسيلة لهم للعيش إلاّ في كنف العدوان والتقتيل.

828- F. NIETZSCHE, Der griechische Staat, in Ibid., p. 770.

829- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، م. س، § 262، ص، 253.

830- ن. م، ن. ص.

831- ن. م، ن. ص.

والداعشي هو المَكَنة التي ساهم في صناعتها، الشيوخ والموساد، ينطبق عليه قول نيتشه أنه بموجب قسوته وتجانسه «يفرض ذاته ويُثبت دوامه في الصراع المستمرّ مع الجيران أو مع المنتفضين المهزومين أو الثورات المهَدِّدة». هذا الداعشي، الذي تعرّى عن عقله وإنسانيته، «تُعلّمه التجربة المُتنوّعة جدا ما هي الصفات التي يدين لها بدوام بقائه وغلبته[832]». وماهي الوصفة التي يُلقّنونها إياه للمحافظة على بقائه؟ جواب نيتشه، وجوابَ الداعشي، متَطابق: القسوة، وهي فضيلة رُبّي عليها «بل إنه يريد القسوة، وكل أخلاق أرستقراطية هي أخلاق غير متسامحة في تربية الشباب ... وهي تحسب اللاتسامح بعينه من بين الفضائل وتُسمّيه عدالة[833]».

وهكذا فعن طريق فتاوى شيوخ الوهابية وإغراءات الشباب بالحوريات، ونَفث الحقد والكراهية تجاه المخالفين، وتكفير الجميع، مع تدريبات وتوجيهات المخابرات الغربية، يتمّ صناعة هذا الطراز الجديد من الإرهابي القتّال التفجيري الذي لا يرحم حتى أهله وذويه. ونيتشه يسعد لهذا الصنف من الوحوش، ويقول إنه على هذا النحو يترسّخ جيلا بعد جيل «طراز ذو سمات قليلة لكنها قويّة». فعلا، الداعشي له سمات قليلة جدا: جهل مطبق، وحقد على البشرية، مع إقدام جنوني على تفتيت نفسه هباءات في الهواء. وهذا هو معنى الحياة بالنسبة لنيتشه: أن نحيا معناه «أن نكون قساة بلا رحمة لكل ما هو ضعيف وبَال ... أن نحيا، يعني أن نكون عديمي الشفقة تجاه المحتضرين، البؤساء والعجز. أن نكونً قاتلين اجراميين باستمرار[834]. يقول إن قوام عظمتنا (unsere Grösse) يَكمن في انعدام الشفقة (unsere Unbarmherzigkeit)، وهذه يعتبرها «صورة لكل التأثير الذي يمارسه العظماء على الآخرين وعلى عصرهم»، كل ما يقدرون فعله هو إعدام العديد من الكائنات الضعيفة، وكأنهم تحت وطأة مفعول شراب مخدر (الكابتاغون، حبوب الهلوسة التي يتناولها الارهابيون المسلمون)، مأخوذون بنشوة عارمة لتدمير الآخرين وأنفسهم، «لا يمكنهم أن يفعلوا أكثر من تكسير أعضائهم في كل الدروب المضللة، حيث تقودهم النشوة[835]».

832- ن. م، ص، 254.

833- ن. م، ن. ص.

834- نيتشه، **العلم المرح**، § 26، ص، 72. الجملة الأخيرة جاءت في قالب سؤال، لكنه ليس استنكاريا، وإنما تأكيديا.

835- **العلم المرح**، § 28، ص، 72 73.

• الجهاد فريضة على كل مسلم، والغزو واجب لا محيد عنه، ومَن يرفض الجهاد فهو عدوّ للأمة، جبان، مندسّ، يهودي، عبد الدينار يستحق القتل. يجب أن نتأسى بالخلفاء الأوائل الذين أرسلوا الجيوش إلى كل مكان، وفتحوا البلدان، وكوّنوا امبراطورية لا تغيب عنها الشمس. ولو لم يكن وازعهم هو جهاد الطلب، لما حققوا أي نصر ولما فتحوا أي بلد، وبالتالي شعار المسلم هو: الجهاد، المزيد من الجهاد.

هذا الخطاب الحربي نجده أيضا عند نيتشه: مَن يرفض الحرب، هو خارج التاريخ، وخارج الحداثة، وبالتالي الشعار يجب أن يكون: **الحرب** (der Krieg)، **ومجدّدا الحرب** (und wiederum der Krieg)، أي حربا متواصلة وشاملة، بلا هوادة. ولإيضاح هذه المسألة المصيرية فهو يعقد مقارنة بين القدماء والمحدثين، ويفضح القاعدين المُسَالمين الذين يتهاونون ويتقاعسون في القتال. بالمقارنة مع العالم السياسي لليونانيين، يقول نيتشه، لا أريد أن أخفي في أي الظواهر الراهنة أعتقد التعرّف على أشكال انحطاط خطيرة تعتمل في الساحة السياسية، خطيرة سواء على الفن أو على المجتمع. إذا ما وُجد أناس، بحكم منشأهم، بعيدون عن غريزة الشعب والدولة، وبالتالي يعترفون بالدولة فقط حينما تخدم مصالحهم الذاتية: إذن، أناس من هذا الصنف يتصوّرون الهدف الأسمى للدولة على أنه تعايش سلمي لتجمّعات سياسية كبرى، في كنفها يتسنّى لهم مواصلة تحقيق مشاريعهم دون تشريط. بالاستناد إلى هذه الفكرة فهم سيعملون على تعزيز السياسة التي توفّر لمشاريعهم أقصى **مستوى الأمان**، في حين من غير المعقول بالنسبة إليهم **أن يُقدّموا أنفسهم كذبيحة** لما تصبو إليه الدولة. فهم غير قادرين على تصور هذه التضحية لأنهم في الواقع لا يملكون بتاتا هذه الغريزة.

لتحقيق أنانيّتهم هذه، فهم يعتبرون من الأولويات الضرورية تخليص الدولة من تلك التشنجات العارمة **الوحشية للحرب**، كي تكون قابلة للاستخدام الرشيد؛ بحيث يمكنهم التطلّع **لوضع تصبح فيه الحرب مستحيلة**. هذه المُزايدات الخبيثة تُستخدم لغرض واحد: بَتْر وضعضعة **الغرائز السياسية العدوانية**، من خلال بناء مؤسسات دولية كبيرة متوازنة وضمانات متبادلة، لجعل تحقيق **نتيجة إيجابية بِشَنِّ حرب عدوانية أمرا محالا**، ومن ثم شنّ أيّ حرب على الاطلاق[836].

836- F. Nietzsche, Der griechische Staat, in *Ibid*., p. 771.

الدواء الوحيد ضد تخاذل المسلمين هو الجهاد؛ المزيد من الجهاد، عَمَلا بالقول المأثور: السيف باق ومرفوع حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ ونيتشه، ضد البورصة وضد رأس المال الفاقد للحس القومي، ينصح بالحرب، المزيد من الحرب. وفي زرادشت يقول إن آباءنا كانت تروق لهم الحياة «عندما **تتلاحم السيوف وتتداخل** مثل حيّاة مُرقّطة بالحمرة (محادثة بين الملكين)»؛ وكأنه **يصف** لنا الغزاة المسلمين الأوائل بقوله إن آباءه «كانوا يتلّهفون ظمأ إلى الحرب، لأن **كل سيف يتعطّش إلى شرب الدم** (Ein **Schwert** ... will **Blut trinken**) ويبرق متوهّجا بالرغبة [في الدم][837]».

لكن الرجل أخطأ مرة أخرى، كما أخطأ في كل تخميناته الهوائية الساخنة. الجهادي الإسلامي، لا يعلم أنه يخدم رأس المال ويُغذّي أطماع الامبريالية العالمية، وأنه يؤدي مهمة جليلة إلى إسرائيل حين تُمكّنه من التّسلّل عبر الأنفاق إلى جزيرة سيناء كي يقتل الجيش المصري، أو تُسهّل عبوره إلى سوريا لإنهاك الجيش العربي السوري. وهكذا فإن الجهادي السّلفي الصهيوني يُنفّذ مخططا جهنّميا مدروسا بعناية من طرف الموساد والسّي آي إي لتقسيم العالم العربي وتفتيته إلى دويلات فاشلة بائسة متناحرة، بينما العالم أجمع ينعم بالراحة والازدهار. نيتشه لا يعلم أن الحرب هي الخُبز اليومي لرأس المال، وهي كأس الدم الذي يَرْتَوي منه أرباب الشركات المصنّعة للأسلحة، والذين يَبْتهِجون لسماع شعار: الحرب، المزيد من الحرب.

وبالجملة دولة داعش المسخ التي أنشأها الأمريكان والإسرائيليون، هي دولة مبنية على القتل والتدمير، لا تخاف الحرب، وإنما هو مكوّنها الجوهري. وأصحابها يعتمدون على آلاف المستندات الفقهية والنصوص الدينية التي تُبَرِّر لهم عدوانيّتهم، وجنونهم الإرهابي. وها أن نيتشه يقول لنا بالحرف: إن الدولة غير مبنية على الخوف من **شيطان الحرب** (Furcht vor dem Kriegsdämon)، ولكنها تُولّد وثبة أخلاقية تقود إلى مصير عال. إن هذه أجمل ما يتمنّى سماعه المستشار الحديدي بيزمارك.

837- المترجم علي مصباح ترجم هذه الكلمات بـ«كل سيف يتعطش إلى شراب من الدم»، وهكذا حطّم معناها الاجرامي العنيف، والأصح: «كل سيف يرغب في شرب الدم»، وللأمانة أيضا كان عليه، بالنسبة للجملة الموالية، أن يضع عبارة «في الدم» بين معقفين، لأنها غير موجودة في النص الأصلي، وإنما هي إضافة من المترجم كي يستقيم المعنى.

• الكل سمع ولو مرة في حياته أناشيد داعش والقاعدة في مدح القتال والتغنّي بالحرب والتفجير والموت وسحق الجماجم، والتي يحفظها القتّالون عن ظهر قلب ويرددونها في جلساتهم، كما نراها من خلال الفيديوهات، وحتى في هذه النقطة فإن نيتشه يلتقي بالإرهابيين المسلمين. في نصه الذي كتبه للسيدة كوزيما فاغنر، بعنوان الدولة اليونانية، يدعوها إلى الاستماع بالنشيد الذي أنشده **للحرب** (Päan auf den **Krieg**): رهيبة أصداء قوْسها الفضّي، وعلى الرغم من أنها تأتي مثل الليل، فإن أبولو، الإله الحقيقي، هو القائم على إرساء وتنقية الدولة. ولكن قبل كل شيء، كما هو مكتوب في بداية الالياذة، فهو يقذف بسهامه على البغال والكلاب، وإثرها مباشرة يُصيب البشر، وهكذا في كل مكان ثمة أكوام من الحَطَب تعلوها جُثَث محترقة.

هذا المشهد الفظيع الذي يحدث يوميا في بغداد ودمشق والرقة وحلب، يصفه لنا نيتشه الشاب بكل غبطة ويرفعه على شكل نشيد، وكأنه أجمل وأروع المشاهد في العالم. اعلموا، يقول نيتشه، أن الحرب هي ضرورة للدولة كما العبد للمجتمع [838].

ومَن يَستطيع من المسلمين أن يُنكر هذه الحقيقة حينما يرجع إلى تاريخ الغزوات، ويطّلع على فتوحات المسلمين الدموية والإبادات الجماعية التي نفّذها خالد بن الوليد والمُثنّى ضد المسيحيين في العراق؟ ونيتشه أيضا يتساءل مستنكرا: مَن يستطيع أن يجهل هذه الحقيقة الفاقعة، إذا تساءل عن الأسباب التي أنتجت الفن اليوناني؟

الإشادة بالإرهابي القتّال، موجودة سواء عند الإسلامي السلفي أو نيتشه. لقد جاء في القرآن، أن الله فضّل المجاهدين على القاعدين، وأنه لا يستوي القاعدون والمجاهدون، إضافة إلى أن المجاهد، حينما يُفجّر نفسه، وخلافا لقوانين الطبيعة والمنطق، لا يذهبُ هباء منثورا، وإنما يمرَح في السماء، يأكل ويشرب، ويمارس وظائفه الحيوية كلّها، كما كان يمارسها من قبل: (لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون).

المجاهد، الذي سُحق في سبيل ما يسمّى "الله"، أي اللاشيء لأن الله هو اللاشيء، والذي قطّع أوصالا ودمّر حيواتا، بالنسبة للمسلمين له مصير جليل ومُتفَرّد. إذ أنه، بعد أن طار أشلاء في الهواء: "يُغفر له في أول دُفعة من دمه، ويزوج باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها،

838- *Ibid*., p. 774. „… daß der Krieg für den Staat eine ebensolche Notwendigkeit ist, wie der Sklave für di Gesellschaft“

ويشفع في سبعين من أهل بيته"، وما إلى ذلك من ترّهات المأثور الإسلامي التي دمّرت حياة أجيال من الشباب. بالنسبة لنيتشه، العبقرية تتمظهر فقط في فنّ القتل. لا يريد أن يعلم شيئا عن كرامة الإنسان وكرامة العمل، ويشك في كون مفهوم الكرامة يجوز تطبيقه على الإنسان العادي، القاعد، وعن العمل الذي يؤديه لتوفير قوته اليومي.

الواضح، يقول نيتشه، أن لا الكرامة تنطبق على الانسان القاعد، ولا حتى كرامة الشغل تنسحب على أيّ عمل، لأن العَبقرية الفنية الإبداعية هي فقط من مشمولات المقاتل، يعني الجهادي بلغة المسلمين، وعمله هو أفضل الأعمال وأكْرمها على الاطلاق، لأن ميزة المقاتل الإرهابي هي أن يقدّم نفسه، عن طيب خاطر، كقُربان خالص لإلهه، أي أن ينتحر بحزام ناسف، ونيتشه يُضفي هو نفسه هذه الخاصية على المقاتل الفنان: «وقد يرغب أيضا في **إعدامه الذاتي (في انتحاره** "seine Vernichtung") كوسيلة للعمل الفني الحربي[839]».

وماذا يفعل الإنْغماسيّون في الرّقة والموصل؟ ألا يرغبون هم أيضا في اعدام أنفسهم كوسيلة فعّالة للجهاد ضد الكفار (او بعبارة نيتشه، العمل الفني الحربي)؟ ألم يجدوا كمّا هائلا من الفتاوى التي تُبرّر لهم أعمالهم الفظيعة، مثل قول أحدهم: "جوّز شيوخ الإسلام أن ينغمس المسلم في قتل الكفار وإنْ غلبَ على ظنه أنهم يقتلونه". والحال أنهم لم يقتلوا أي كافر وإنما قتلوا مسلمين مثلهم؛ أنهكوا جيوشهم واستنزفوا بلدانهم ومجتمعاتهم ومؤسساتها المدنية، لتحقيق حلم إسرائيل الكبرى.

لا مكان للقاعدين في دولة الخلافة، ونيتشه يقول: كل شخص، مُعْتَبَرا في نشاطه ككل، عَلِمَ ذلك أم لم يعلم، يملك من الكرامة بقدر ما يكون وسيلة العبقرية (الحربية، النهب والسلب والتفجير، الجنون، وما إلى ذلك). النتيجة "الأخلاقية" لهذا الطرح يستخلصها نيتشه نفسه: وهي أن «"الإنسان في ذاته، الإنسان في المطلق، ليس له، لا كرامة، ولا حقوق، ولا واجبات». حينما سئل القرضاوي، مفتي الناتو وإسرائيل، عن مشروعية العمليات الانتحارية، قال إنها واجبة إذا قرّرتها الجماعة وكانت في صالح الجماعة. نيتشه يقول إن الفرد لا قيمة له إلاّ في حالة كونه مشروطا بالمجموعة وفي خدمة أهداف لا واعية، وفي هذه الحال فقط يستطيع الإنسان أن يبرّر وجوده[840]. والإنسان بالنسبة لنيتشه هو المحارب وكفى.

839- *Ibid*., p. 776. „der auch seine Vernichtung als Mittel des kriegerischen Kunstwerks blieben kann".
840- *Ibid*., p. 776.

• إن الحرب والقتل وسفك الدماء هي أتعس وأشرس الأعمال وأكثرها لاإنسانية، لأنها تدمر الحياة وتفنيها، لكننا نقرأ في القرآن أن القتل هو إحياء للإنسان (الأنفال 24) [841]، ونيتشه من جهته يقول إن النزعات الرهيبة التي اعتُبرت لاإنسانية هي ليست إلاّ الأرضيّة الخصبة التي لا يمكن أن يَتَولّد منها إلاّ كل ما يسمو بالإنسان، في المشاعر والأعمال والابداع [842]. تصوّروا هذا الخلط المفهومي المريع في رأس شاب فيِ الثلاثين من عمره؛ تخيّلوا حجم هذا العنف المعشش في دماغه، والفظاعات التي سَكَبَها في مقالاته الأولى قبل أن ينشر كتابه الكارثي **مولد التراجيديا**.

ومَن الذي يُمثلّ أحسن تمثيل نموذج الإنسان المحارب؟ بالنسبة للمسلم هو الرسول بالدرجة الأولى، ومِن بعده صحابته، الخلفاء الراشدون، فهم الأبطال والقدوة الأكثر إنسانية الذين لم يعرف لهم التاريخ مثيلا. ولا خلاف في ذلك بين السلفيين والعلمانيين، لا بل ثمة من العلمانيين، مثل المؤرخ هشام جعيط، من يشيد بالقوة الحربية للرسول، ويجعل منها ميزة فريدة، لم تر لها العرب مثيلا. في كتاب الفتنة يقول إن النبيّ «عندما حاصر مكّة ... **تراءى بمظهر قائد حربي فاتح حقيقي، لم تشهد الجزيرة العربية مثيلا له** [...] كان الجيش منظما على أكمل وجه، مع أجنحة وقلب[843]».

أما النموذج النيتشوي فهو العالم الاغريقي، وأبطاله هم اليونانيون القدامى، يصفهم بأنهم الرجال الأكثر إنسانية في العالم. كيف وأين تتمظهر إنسانيتهم الراقية؟ بالنسبة للمسلمين في الغزوات والحروب التي أشعلوها شرقا وغربا، بالنسبة لنيتشه، اليونانيون هم ارهابيو داعش بأتم معنى الكلمة: لأنهم يملكون في ذاتهم، ملامح ضراوة (Zug von Grausamkeit)، أو يستبطنون نزعة تدميرية على شاكلة النمور، تبدو لنا الآن مصدر رعب[844].

841- سورة الأنفال، في الآية 15 يقول: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾. بعد هذه التعاليم الحربية والتجييش، يقول في الآية 24: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

842- F. Nietzsche, Homers Wettkampf, in Fünf Vorreden, op. cit., p. 783.

843- هشام جعيّط، **الفتنة**، دار الطليعة، بيروت لبنان، 1995، ص، 31.

844- F. Nietzsche, Homers Wettkampf, in Fünf Vorreden, op. cit., p. 783.

أبو بكر الصديق الذي قتّل العرب بدون رحمة، وحرّق الفُجاءة مُقمّطا، هو مثال هذه الإنسانية الإرهابية، والسيد نيتشه، يجد هو بدوره في الاسكندر المقدوني، مثال هذا اليوناني الإرهابي، كما حرّق أبو بكر الفجاءة ورضخ رؤوس الردّة، فإن الإسكندر الذي يشيد به نيتشه هو أيضا فعل شيئا شبيها "عندما ثَقَبَ رِجلَي المدافع الشجاع عن غَزَّة، باتيس، وربط جسمه حيّا وراء مركبته، لكي يطوف به بين سخرية جنوده" . هذا العمل البشع الذي يبتهج له نيتشه والذي يقوم به الارهابيون في سوريا يوميا، تأسّيا بما فعله القدماء، بالنسبة لنيتشه له نموذجه في رواية الالياذة، حيث يعمد أخيل إلى تقطيع جثة هكتور ساحبا إياه بنفس الطريقة[845]. وما العبرة من كل هذا الإرهاب؟ العبرة حسب نيتشه هي أننا ننفذ إلى هاوية الكره (Abgründe des Hasse)[846].

أما إذا دارت الحرب بين فئتين باغيتين من نفس الملّة، كما نرى في فيديوهات الإرهابيين المسلمين في سوريا والعراق حيث يذبح أفرادٌ من جبهة النصرة أفرادا من داعش ويَسْبُون نساءهم ويقتلون أبناءهم، وبعدها تُعكس الآية، والمسلسل متواصل إلى اليوم. هذا المثال الفظيع للقتل والقتل المضاد يَعرضه علينا نيتشه وكأنه فيلم داعشي حيّ. يقول إن بين الدويلات اليونانية المتناحرة فإن المنتصر، وعلى أساس قانون الحرب، حينما يقتل كل الذكور ويبيع ، كعبيد، النساء والأطفال، نلاحظ أن في تفعيل هذا الحق الرجل اليوناني يحمل محمل الجد ضرورة الانفجار الكامل لحقْده؛ في مثل هذه اللحظات فإن الشعور بالحنق، مضغوط ومنتفخ، ينفجر: يقفز النمِر خارجا وقسوة شبقيّة تُشرق من عينيه الرهيبتين[847].

قارنوا بأنفسكم الصورة التي يرسمها نيتشه لهذا الاغريقي المتوحّش القتّال، والإسلامي الغاضب الذي يفجر نفسه في الأبرياء. وهذه العمليات الانتحارية يُوَثقونها يوميا وتُوضع على الانترنت، على مرأى ومسمع المخابرات الغربية، لا بل إن المخابرات نفسها تسمح لهم بذلك، وتمُدّهم أيضا بأحدث آلات التصوير لكي

845- *Ibid*., p. 784.

846- *Ibid*em.

847- *Ibid*., p. 784. „ Wenn der Sieger, in einem Kampf der Städte, nach dem Rechte des Krieges, die gesammte männliche Bürgerschaft hinrichtet und alle Frauen und Kinder in die Sklaverei verkauft, so sehen wir, in der Sanktion eines solchen Rechtes, daß der Grieche ein volles Ausströmen lassen seines Hasses als ernste Nothwendigkeit erachte; in solchen Momenten erleichterte sich die zusammengedrängte und geschwollene Empfindung: der Tiger schnellte hervor, eine wollüstige Grausamkeit blickte aus seinem fürchterlichen Auge".

يبثّوا الرعب في قلوب الناس. والجميع منزعج منها ومرعوب من وحشيّتها لأن لا واحد في مأمن من أن تصيبه شظاياها يوما ما. لكن نيتشه يتعجّب من الانزعاج الذي يشعر به المرء إزاء مثل هذه الصّور الفظيعة، يقول إننا لم نفهمها، ولم ندرك معناها الفنّي كما ينبغي.

أنا لا أهوّل ولا أمزح، كل هذا موجود في النص النيتشوي بحذافيره، والصورة مأخوذة من العالم اليوناني طبعا: «لماذا يجب على النحّات اليوناني أن يصوّر دائما مشاهد الحرب والمعركة في تكرار لا نهاية له، أجسام رجال في حالة إجهاد، وتشنجاتهم متولّدة من الحقد وغطرسة الانتصار، جرحى يَتلوّون، ومُحْتَضرين يَتبَرّمون؟ لماذا كل العالم اليوناني يبْتهج أمام صوَر معركة الإلياذة؟ أعتقد أن هذهَ الأشياء لا نَعيها بالمعنى اليوناني الصحيح، لا بل أعتقد أَننا سنُصاب بالرعب، لو فهمناها بذاك المعنى[848]».

ما هو العالم الذي خلق لنا الشناعات التي تقترفها داعش؟ من الذي أوحى لهم وشرّع لهم القيام بمثل هذه الأعمال؟ القرآن والسيرة، يقولون ذلك هم أنفسهم ويستشهدون بالنصوص "المقدسة" الصريحة الدامغة، بحيث إن تفخيخ السيارات وجدوا لها حديثا نبويّا، وحتى حرق الطيار الأردني وجدوا له سابقة في المدوّنات الإسلامية. والنصوص في حدّ ذاتها، كما أجمع شيوخ الإرهاب، تجيز كل عمليات القتل التي يقوم بها الدّواعش، وأن هؤلاء الوحوش لا يحيدون عن نهج الصحابة، بل استلهموا أعمالهم من سيرة المسلمين الأوائل. ألم يحرّق علي بن أبي طالب مجموعة من المرتدين؟ ألم يُبدْ خالد بن الوليد مسيحيّي الحيرة؟ هذا العالم الفظ العنيف هو الصدى الخلفي لكل الشناعات التي تَحدُث الآن، والتي تركت العالم أجمع في ذهول وتعاسة.

ونيتشه نفسه، كما قلنا سابقا، يملك نموذجا أعلى، مماثلا لنموذج الإسلام الأوّل، وهو العالم السابق لهوميروس. ماذا نجد في هذا العالم؟ ألْوانا زاهية، مشرقة، لذيذة، حارة؛ ورجاله، في هذه الألوان الحارة المضيئة، أفضل وأكثر بساطة. هذه الصورة تنطبق تماما على الصحابة بالنسبة لكل مسلم، فهم أيضا أفضل الرجال وأكثرهم بساطة. لكن، بالنسبة لنيتشه، هذه فقط الصورة الظاهرة، مجرد طوبوغرافيا مع ملامح وجوه وأجسام جميلة، أما الشيء الأهم والأكثر إثارة للانتباه، فهو الوجه الآخر لهذا العالم:

848- *Ibid*em.

لا يوجد إلاّ الظلام الدّامس والقسوة، الخيال المعتاد على كل ما هو وحشي[849]. عالم فظ عنيف، شيطاني. وفعلا، هو كذلك بالنسبة لنبيّ ديونيزوس: حياة لا سلطان عليها إلاّ أبناء الظلام، إلاّ الصراع، **والرغبة الجنسية الجامحة، الخداع** (Täuschung) **والموت** (und der Tod)[850].

وماذا كانت حياة المسلمين الأوائل؟ اقرؤوا سيرة ابن هشام، وتاريخ الطبري، فستجدون مثالا حيّا لهذا العالم ما قبل الهوميروسي الذي يتغنّى به نيتشه. الظلام الدامس والقتل والجنس تجدونها حرفيا في غزوة أوطاس حيث أن أبطال المسلمين بعد أن قتلوا الرجال استولوا على النساء واغتصبوهنّ. أقول إن نيتشه يتغنّى بهذه الفظاعة ويمجّد مُقترفيها، كما يمجّد المسلمون، القرن الأول للإسلام: الصراع هو صحّة وخلاص، بينما وحشية الانتصار هي **ذروة نشوة الحياة** (die Spitze des Lebensjubels)[851].

- كما أن للارهابيين فلاسفتهم، أمثال «أبو يعرب المرزوقي» وعزمي بشارة وطه عبد الرحمان، لديهم أيضا مؤرخوهم المحدثون، وأبرزهم على الساحة الثقافية العربية الآن، هشام جعيّط، وهو داعشي قح، حيث كتبَ بكل أريحية «إن الغزوات التي أشعلها الإسلام، استعادت ظاهرة السبي[852]» التي لم تكن سائدة في عهد الجاهلية. ثم فسّر هذا العمل البربري الوحشي، بأنه «**إلغاء أية وضعية سابقة للمرأة من زواج وغيره، واستحلال جسمها من دون قانون ومن دون قيود. والمرأة تدخل فيما بعد في وضعية الإماء «ممّا ملكت أ يمانكم»، كما يقول القرآن، و«نكاح بدون خطبة»**[853]».
وإذا سألت جعيّط عن مشروعية هذا العمل، وعن أخلاقيّته، وهل من الإنسانية في شيء أن أن يُقدم آدميّ على القيام بهذا العمل فإنه يوكّل بك أحد أتباعه من الإسلاميين اللّعّانين كي يسكب عليك قربة من أقذع الألفاظ.

849- F. Nietzsche, Homers Wettkampf, in Fünf Vorreden, op. cit., p. 785. „Nur in Nacht und Grauen, in die Erzeugnisse einer an das Gräßliche gewöhnten Phantasie“

850- *Ibid*em. „ein Leben, über dem allein die Kinder der Nacht, der Streit, die Liebesbegier, die Täuschung das Alter und der Tod walten“

851- *Ibid*em. „“

852- هشام جعيّط، في السيرة النبوية 2. تاريخية الدعوة المحمدية في مكة، دار الطليعة بيروت 2007. ص. 82.

853- في السيرة النبوية 2. ن. م، ص، 82.

الحياة المُثلى لليونانيين، على أية حال، هي حياة الوحشية والصراع والغلبة، وهذه النوازع الحيوانية التي فعّلها اليونانيون هي التي تُبرّر وجودهم وتُضفي عليه مسحة فنّيّة. كل يوناني عظيم يُمرّر إلى اللاحق مشعل الحرب؛ وإلى كل فضيلة صراع تنضاف فضيلة جديدة كبرى. في الصراع يجب أن تتشكل كل موهبة، هكذا تأمر البيداغوجيا الشعبية اليونانية. نيتشه يقول إن المُربّين المُحدثين فقدوا هذه الخصال، بل يهابون إطلاق العنان لهذا الطموح التربوي.

لكنه لا يعلم أن المُربّين المسلمين، يُعَلّمون أشبالهم فنّ القتال، ويبثّون فيهم هذه النزعة الحربية، والمثال الأظهر هو ذاك الارهابي المسلم، من استراليا، الذي ربّى ابنه على الارهاب، فصوّره وهو حاملا رأسا مُقطّعة تقطر دما في سوريا. ومع ذلك فإن نيتشه يستثني اليسوعيين من هذا الانحطاط لأنهم، حسب زعمه، يوافقون القدماء على هذه التربية وبالتالي هم حقا أفضل مُربّيي عصرنا. إن عظمة بيداغوجيا اليسوعيّين تكمن في تطبيقهم، ببراعة، لمبدأ "الضرورات تبيح المحظورات"، أو بعبارة نيتشه: صفة الخيّر والشر تُشتَقّ فقط من الأهداف المُزمَع تحقيقها[854].

ولِتَنشئَة أشبال مُقاتلة، ينبغي تفعيل الحديث: علّموا أبناءكم السباحة والرماية وركوبَ الَخيل، ويأتي مصداقا لقول القرآن "وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ورباط خيل". القدماء بالنسبة لنيتشه، جعلوا من هدف التنشئة التنافسيّة (agonalen Erziehung)، ازدهار المجتمع، والمحافظة على منعة الدولة. كل أثيني مجبر على تعزيز قدراته الذاتية عن طريق المُبارزة لكي يغدو صالحا لأثينا ويلحق بها أقلّ الأضرار: الشاب الأثيني كان يفكّر في خير مدينته الأمّ، حينما يتنافس في رياضة العَدْوِ، وفي الرّماية؛ وكما أن الشاب المسلم الآن يحمد الله على مساهمته في الدولة الإسلامية ويرفع إصبعه إشارة للتوحيد، كذلك يفعل الشاب اليوناني حينما يضع على رأس الإله التّاج الذي وضعه القضاة على رأسه لتكريمه.

إن ما يقوله نيتشه عن فضائل اليونانيين في تخريج أشبال وتربيتهم في كنف الصراع، يُحيلنا مباشرة على أفلام القاعدة وداعش والنصرة، حيث يدرّبون في المعسكرات أشبالا مرتزقة يقاتلون جنود بلدانهم من أجل إسرائيل. انظروا هذا

854- *Ibid*., p. 789.

التشبيه، وضعوا بين أعينكم فيديوهات أشبال داعش: كل يوناني، منذ صباه، يشعر بالرغبة الجامحة في أن يكون، في الصراع بين المدن، وسيلة خلاص لمدينته.

• تتذكّرون كتاب أبو الحسن الندوي، "**ردّة ولا أبا بكر لها**"، الذي كان يُدَرَّس في حلقات المساجد، ومنه استقى الكثير من الشباب كُرههم للمجتمع وحقدهم على الفلاسفة ونفورهم من مكاسب الحداثة. فهو يرى أن العالم الإسلامي جرّب في العهد الأخير ردّة اكتسحته من أقصاه إلى أقصاه، وقلّما خلت منها أسْرة من أسَر المسلمين، وهي ردّة، حسب زعمه، تَلَتْ غزو أوروبا للشرق الإسلامي، بثقافتها وسياستها وفلسفاتها الالحادية: «إنها أعظم ردة ظهرت في عالم الإسلام وفي تاريخ الإسلام، منذ عهد الرسول عليه السلام إلى يوم الناس هذا[855]».

كما أن صاحب "**ردة ولا أبا بكر لها**" يرى أسباب التفسّخ والانحطاط في تقبّل الفلسفة الغربية، فإن نيتشه هو بدوره يرى الردّة في الفلاسفة اليونانيين أنفسهم. لقد بثّ هؤلاء الفلاسفة، خصوصا السقراطيون منهم، دَجلا أخلاقيا، أو خداعا مثاليا راح يكتسح البلاد طولا وعرضا[856]. لقد ابتعدوا عن منهاج القرآن الصحيح، تركوا الجهاد، وانساقوا وراء ملذات الحياة، في رأي الوهابي، وفي رأي نيتشه تَخَلّوا عن عالم هوميروس الفظ العنيف وكبَتوا الغرائز الحيوانية: «الفلسفة اليونانية هي انحطاط الغرائز الاغريقية ... أفلاطون جبان أمام الواقع، ولذلك فهو يفرّ إلى المثال[857]».

لقد تخلّى المسلمون عن هذه الغرائز، وزاد في جرّهم نحو هذا الضلال المفكرون العلمانيون، وبالتالي فإن مهمّة الدّعاة هي مجاهدة هذا الزيغ، ووقاية الشباب من الوقوع فيه. نيتشه من جهته، كداعية جديد، (خبير نفساني، يسمّي نفسه)، نذر حياته للجهاد ضد هذا التراث المنحط، وفَضْح مُناصري الفكر الأخلاقي المائع الساذج: «كان الخبير النفساني الذي أحمله في داخلي يحميني دوما من أن أقع في تلك "السذاجة الكبرى"، أو السخافة الألمانية الكبرى التي تتوهّم تحسس "أنفس جميلة"، ووسطيّة، وكمالات أخرى في اليونانيين، ومِن أنْ أُكْبِر فيهم السكينة التي لهم في العظمة، والحس المثالي، ونبل البساطة[858]».

855- أبو الحسن الندوي، ردّة ... ولا أبا بكر لها، مكتبة السداوي للنشر والتوزيع، القاهرة 1992. ص. 5.

856- نيتشه، غسق الأوثان، «أشياء أدين بها للقدماء»، فقرة 2. ص. 173.

857- نيتشه، **غسق الاوثان**، ص، 173.

858- ن. م، ص، 174.

مَن يُلقِي على اليونانيين الأوائل بمثل هذه الصفات الراقية فإنه يَدخل الردّة من بابها الأوسع ، أو بعبارة نيتشه، يَهْوِي في الانحطاط، والسذاجة والسخافة، لأن نيتشه متشبّث بالفكرة المسبقة التي مفادَها أن عالم اليونان يساوي الوحشية الأشد فتكا وضراوة، وهي أعظم فضيلة ميّزتهم في عصرهم الذهبي: «كنتُ أرى غريزتهم القوية العاتية ... كانت شحنات التوتّر الداخلي الهائل تُفرِغ نفسها في شكل **عدائيّة فظيعة لا محدودة موجّهة إلى الخارج** ...». أما ذروة الردة فهم علماء الفيلولوجيا الألمان، أو بعبارة نيتشه «**أن نَحْكُم على اليونانيين على الطريقة الألمانية، انطلاقا من فلاسفتهم**». وهذا عيب كبير، وبشاعة لا يمكن قبولها. لماذا؟ لسبب بسيط، وهو أن الفلاسفة اليونانيين، أعظم العقول التي أنتجتها البشرية عبر تاريخها، هم الردّة بعينها: «الفلاسفة كانوا العناصر المُنحطّة في الحضارة الهيلينية (Die Philosophen sind ja die *décadents* des Griechenthum)، والحركة المضادة للذوق القديم والنبيل (ضد غريزة المبارزة، وضد قيمة العرق (Werth der Rasse)، وضد سلطة الموروث (die Autorität des Herkommens)».

أنا لم أبَدِّع قطّ إنْ شَبّهتُ كتاب "**ردّة ولا أبا بكر لها**" بما جاء في هذه المواضع التي سحل فيها نيتشه الفلاسفة، لأن الوهابي، أبا الحسن الندوي، هو نفسه يتذرّع بالثورة **ضد الموروث** الديني كسمة مميزة للانحطاط الخطير، وللردة التي تنخر العالم الإسلامي، وها أن نيتشه يؤنّب الفلاسفة لردّتهم ضد **سلطة الموروث**، ولكونهم ليسوا محاربين ولا عنصريّين، كما كان أجدادهم في أوج قوّتهم. فهو يجعل من اجلال السّلف وعبادة التراث القديم، سيمة مميّزة للأقوياء «هو فنّهم ومَجال ابتكارهم. الإجلال العميق للسِّنّ وللتراث وعلى هذا الإجلال المُزدوج يقوم كلّ الحق الإيمان والتعاطف مع **السّلف** (der **Vorfahren**)، لا مع الخلف، هما علامة فارقة لأخلاق الأقوياء[859]».

ألا تُذكّرنا هذه الأقوال بعبادة السلف الصالح التي ينتهجها الإسلاميون؟ ألا يُعيد إلى أذهاننا تنظيرات سيّد قطب عن ضرورة الاقتداء بجيل الصحابة، ذلك الجيل المُميّز «في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعه[860]»، «خالص القلب،

859- **ما وراء الخير والشر**، § 260، ص، 249.

860- سيّد قطب، **معالم في الطريق**، دار الشروق، بيروت 1979، ص، 11.

خالص العقل، خالص التصوّر، خالص الشعور، خالص التكوين، من أي مُؤثر آخر غير المنهج الربّاني الذي يتضمّنه القرآن[861]»؟ فما الحاجة بنا، إذا كان لدينا مثل هذا النموذج الراقي، للالتجاء إلى الأفكار الحديثة؟ ليس ثمة حاجة، بل إن كل من يلتجئ إلى الحداثة، حسب نيتشه، فهو يفرّط حتما في أسباب العزّة والفنّ وملكوت الابتكار: «حين يؤمِن **أهل الأفكار الحديثة** إيمانا يكاد يكون فطريا بالتقدّم (*Fortschritt*) والمستقبل (Zukunft) ويفتقرون أكثر فأكثر إلى **احترام الشيوخ** (*Achtung vor dem Alten*)، فإن هذا ينمّ عن الأصل الوضيع لهذه الأفكار[862]». بالنسبة لسيّد قطب، الابتعاد عن السلف، واستقاء الأجيال التالية من فلسفة الإغريق ومنطقهم، ثم تقبّل المعاصرين للأفكار الحديثة، ينمّ عن ارتداد نحو جاهلية أجهل من جاهلية قريش.

ونيتشه، لكي يستكمل اتهاماته الْتفتَ إلى أمير الفلاسفة أرسطو، وقال: «لقد جاءت الدعوة إلى الفضائل الأرسطية، لأن اليونانيين كانوا قد أضاعوا فضائلهم القديمة: سريعي الغضب، متقلّبين، وممثّلين غدوا كلهم؛ هكذا كان لهم أكثر ممّا ينبغي من الأسباب لكي يُكرَز فيهم إلى الأخلاق ... فخامة العبارة والهَيْئات الاستعراضية تتلاءم جيّدا مع المنحطّين[863]».

• المسلمون الاقحاح يتميّزون بصفة متفرّدة: (**أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم**)، وحسب الطبري: «أشداء على الكفّار» يعني: «**غليظة عليهم قلوبهم، قليلة بهم رحمتهم**»؛ أمّا الصفة المقابلة، أي الرحمة، فمعناها: «**رقيقة قلوب بعضهم لبعض، ليّنة أنفسهم لهم، هيّنة عليهم**، ألقى الله في قلوبهم الرحمة، بعضهم لبعض». لكن أكثر من تفنّن في الإشادة بالعدوانيّة تجاه الآخرين هو المفسّر التونسي ابن عاشور حيث كتب في **التحرير والتنوير**، بخصوص هذه الآية: إن الشدّة على الكفار هي «الشدة في قتالهم وإظهار العداوة لهم»، ويُضيف بأن «**هذه الشدّة على الكفار اقتبسوها من شدة النبيء في إقامة الدين**». وعلى الشكل النيتشوي فهو يعتبر العدوانية الشاملة ضد الآخرين من الفضائل الكبرى التي يجب المحافظة عليها وتمتينها «الشدة هي

861- ن. م، ص، 13 14.

862- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، § 260، ص، 249.

863- نيتشه، **غسق الاوثان**، م. س، ص، 175.

وصفُ مَدْح لأن المؤمنين الذين مع النبيّ كانوا هم فئة الحق ونشر الإسلام، فلا يليق بهم إلاّ إظهاَر الغضب لله والحب في الله، والبغض في الله من الإيمان[864]».

وكما هو معلوم، هذا هو مبدأ العالمية الوهابية، أي معاداة غير المسلمين أجمعين، وقد تحوّل عند سيّد قطب إلى «التكفير والهجرة»، والكلّ يدرك الآن ماذا نتج عن هذا المبدأ العدواني وكم دماء أسيلت من أجله. والسبب في هذه العداوة الشاملة، في رأي ابن عاشور، هو أن عصبة المؤمنين هم أفضل خلق الله على وجه الأرض لأن النبوّة أشرقت عليهم «وأصحاب النبي أقوى المؤمنين إيمانا من أجل إشراق أنوار النبوّة على قلوبهم[865]».

في **ما وراء الخير والشر** يصف نيتشه المجتمع المنشود، على أنقاض مجتمع الحداثة المُساواتي المسالم، بعبارات تبدو وكأنها تَحْيِينٌ لآية (**أشدّاء على الكفار، رحماء بينهم**)، يعني فسطاتين لكل منهما قوانينه ومعاييره وضوابطه الأخلاقية: «إن الامتناع عن العنف والانتهاك والاستغلال المتبادل[866]»، والمساواة بين «إرادة الذات وإرادة الآخر، يمكن أن يصيرا، بمعنى مُعيّن، من **مكارم الأخلاق (guten Sitte) بين الأفراد**[867]».

وهكذا فإن نيتشه، في هذه الخاطرة الوجيزة، يبدو وكأنه نسَخَ كل ما قاله من قبل، وانقلب على القيم التي نَظّر لها في كل كتاباته، وحطّم بالتالي حياته وحياة الجبابرة القساة الذين يعشقونه من أجل قسوته. لكن المَقْلَب الذي ينتظرنا هو أن نيتشه لم يُحطّم أي شيء، وأن الجبابرة الإرهابيين يمكنهم أن يواصلوا عشقه واتّباع تعاليمه، لأن "الامتناع عن العنف والانتهاك والاستغلال المتبادل"، يقتصر فقط على الأفراد المُتساوين «في مقدار القوة ومقياس القيمة وتعاضدهم ضمن جسم واحد[868]». نحن بحضرة صيغة مُحَيَّنَة لما جاء في الموروث الاسلامي ومعناها: مجموعة من الرجال، أو عصابة، يتعاملون في ما بينهم بالرحمة، ومع الآخرين يُغيّرون طبيعتهم ويصبحون وحوشا. نيتشه يقصد بالضبط هذه الوضعية، إذ أن كل إشادته باللاّعنف والمساواة والاحترام المتبادل، تقتصر على الأقوياء من دون غيرهم.

864- الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مج. 26، الدار التونسية للنشر، تونس 1984، ص، 204.

865- ن. م، ن. ص.

866- ن. م، § 259، ص، 245.

867- ن. م، ن. ص.

868- ن. م، ن. ص.

• طاعة الله ورسوله وأولي الأمر هي من بين المبادئ الأساسية للنظام الديكتاتوري الذي بناه الإسلام، وهو نظام يضفي الشرعية الدائمة على أي طاغية متعطّش للدم والسلطة، يكفي أن يكون له فقيه مُبرّر، وتَحت إمْرَته مَكَنة إعلام مضللة، مثل الجزيرة، ومجموعة من المستشارين المحتالين، حتى يستقيم له الأمر. تجدون نسخة من هذه الطاعة العمياء عند نيتشه، فهو لا يرى في الطغيان قهرا للعقل وانتهاكا للجسد والروح، وكَبْحا لطاقة الإبداع الشخصي، بل يراها ضرورة لا محيد عنها. ويعرض علينا هذه البضاعة مُحلاّة ببهرج الخطابة قائلا: «**إن كل ما هو في الأرض،** وكل ما كان عليها من حرية ورهف وإقدام ورقص وثقة رائعة، سواء في الفكر نفسه أو في الحكم، أو في الكلام والإقناع، وفي الفنون كما في الخلقيّات، إنما لم تتطوّر إلاّ بفعل "**طغيان مثل تلك القوانين التعسّفية**"[869]».

بعبارة أخرى قانون الإبداع هو الطغيان، ولا يتحقق إلاّ في ظل نظام تعسفي، وهذا المبدأ النيتشوي يمتد ليشمل السماء والأرض: «أكرّر، يبدو أن المسألة الأساسية "**في السماء كما على الأرض**" هي **أن ينصاع المرء طويلا وباتجاه واحد:** فعن هذا [الانصياع] تَوَلّد ويتولّد على المدى الطويل أبدا شيء ما يستأهل أن نعيش لأجله على الأرض، وعلى سبيل المثال، الفضيلة والفن والموسيقى والرقص والعقل والروحية شيء ما فوقاني، مرهف، جنوني، إلهي. إن عبودية الروح الطويلة والإكراه المشكّك بتواصل الأفكار، والانضباط الذي فرضه المفكر على نفسه لكي يفكّر وفقا لخطّ كنسي وبلاطي أو وفقا لمصادرات أرسطيّة، إن إرادة الروح لتأويل كل ما يجري وفقا لنموذج مسيحي، ولإعادة اكتشاف الإله المسيحي وتبريره حتى في المصادفة أيا كانت كل هذا القسري والتعسّفي والقاسي والمرعب والمُنافي للعقل تجلّي بوصفه الوسيلة التي بها تربّى الروح الأوروبي وبلغ قوّته وفضوله الجارف ومُرونته المرهفة [...] هذا الطغيان، هذا التعسّف، هذا الغباء الصارم والبديع هو الذي ربّى الروح».

اقْفزُوا على كل العبارات الأدبية وتعلقوا بالضروري منها، فستَعثرون رأسا على الأمر القَرآني بطاعة الله والرسول وأولي الأمر. أليست الطاعة العمياء هي ما يفرض ضيق النظر والغباء؟ صحيح يجيب نيتشه، لأن الطبيعة ذاتها تسير بهذا القانون، أي قانون الضيق والغباء، الطبيعة هي التي تفرض كره الحرية المفرطة، «هي التي تُعلّم

869- **ما وراء الخير والشر**، §، 188، ص، 131.

تضييق المنظور، وإذن، وبمعنى من المعاني، الغباء بوصفه شرطا للحياة والنموّ، "**عليك أن تنصاع لواحد ما ولمدّة طويلة وإلاّ هلكتَ وفقدتَ آخر ما لديك من احترام لنفسك**". وبلغة الإسلاميين، عليك أن تُبايع أميرا يحكمك، حتى وإن ضربك وسلبك مالك وانتهك عرضك، لأن من مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة الجاهلية.

- تقولون كيف يدعو نيتشه لشعيرة الصيام؟ أليست شعيرة إسلامية قحة؟ هي كذلك ولكن في **ما وراء الخير والشر** ينصح بتجويع مؤقّت للغرائز الحيوية للإنسان، والصوم هو بالضبط تجويع للغرائز الحيوية للإنسان، وتدمير لحياة المسلمين لمدة شهر كامل. نيتشه يقترح إدخال هذه الشعيرة في العالم الغربي المعاصر ويقول «يجب أن تكون ثمة أنواع عديدة من الصّوم؛ فحيث تسود الغرائز والعادات القوية، على المشرّع أن يحرص على ادخال أيام كبيسة تُكبّل تلك الغرائز وتُعلّمها أن تجوع من جديد». وهذا التعذيب المفروض من أعلى، كما الصوم الذي هو أقسى تعذيب للنفس قام به الإسلام في حق غريزة بريئة، مثل الأكل والشرب، ولكن بالنسبة لنيتشه هذا الأمر صالح وضروري «بوصفها أزمنة قسر وصَوم من ذاك القبيل، أزمنة تتعلّم الغريزة أثناءها أن تنحني وترضخ[870]».

- وهل تعتقدون أن في شواش فكر نيتشه سوف لن تجدوا الشريعة؟ تجدونها وكيف؟ افتحوا "عدو المسيح" واذهبوا إلى الفقرة 57، ستجدون أنفسكم أمام المودودي أو سيّط قطب أو القرضاوي؛ عوّضوا فقط المضاف إليه: "**مانو**"، بـ"إسلام"، فستحصلوا على شريعة الإسلام. كل شريعة حسنة، مثل شريعة مانو، يقول نيتشه، تُلَخّص الخبرة والحكمة، والأخلاق المجرّبة لعدة قرون؛ فهي تخْتِم ولا تَخلق شيئا. والإسلاميون يقولون إن شريعتهم هي خاتمة كل الشرائع التي أنزلَها الله على أنبيائه، وحتى وإن كانت **مُجْهِدة نفسيا وجسديا**، فإن المسلمين يجب عليهم قسرا أن يتقبلوها ويطبّقوها في حياتهم، دون قيد أو شرط لأنها نازلة من الله. فهي حسنة حتى وإن عبثت بأجسادهم وقطّعتها إربا، وجلدتهم وجزّت رؤوسهم، وقطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف. والفقهاء يحتمون بتعلّة التنزيل لكي لا يقدّموا عللا معقولة لتبرير بربرية هذه الشريعة.

870- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، §، 189، ص، 133.

ونيتشه يقول إن شريعة حسنة لا تتحدث عن الفائدة، عن الأسباب، والافتاءات السابقة. لماذا؟ لأن بهكذا عمل، سوف تخسر هذه الشريعة نَبْرَة الأمر والنهي، تفقد الـ"يجب عليك"، والذي هو أساس الطاعة.

كم يتماشى هذا الكلام مع أطروحات الإسلاميين! كم يُعبّر عن أفكارهم وتطلّعاتهم أحسن تعبير! أن تكون الشريعة إلهية المصدر فهو مبدأ أولي لا نقاش فيه، وأن تكون أوامرها ونواهيها ليست بحاجة إلى تعليل خارجي، فهذا أيضا من أوّليات العقيدة، ومن يقول العكس فهو كافر. صحيح أنها، على أرض الواقع، غير مطبقة في أغلب البلدان العربية، لكن لو تمكّنا منكم، فسنريكم معنى الشريعة وستخضعون لعذاباتها رغما عنكم. وهذا ما فعلته داعش في أراضيها التي احتلها لها الأمريكان والناتو والبشمركة.

ولتبرير فلسفة الشريعة هذه فإن نيتشه يُنزل مصراعا من التحليل التاريخي، لا يختلف في شيء عمّا ينظّر له دعاة الشريعة المسلمين: «في نقطة معيّنة من تطوّر شعب ما، فإنّ الطبقة الاجتماعية الأكثر فطنة، تلك التي تنظر بعمق للماضي وللمستقبل، تُعلن غلق التجربة التي يجب العيش وفقها». وهذا في عرف الإسلاميين يسمّى خَتم الوحي وغلق دورة النبوة. وما على المسلم إلاّ أن يلتزم بما أتاه الرسول، دون أن ينتظر استكمالا أخلاقيا وتشريعيا من أية جهة وفي أي زمان مستقبلي. بعبارة نيتشه: «غاية هذه الطبقة تتّجه نحو جَنْي الثمار الأكثر وفرة وكمالا من أزمان التجربة والخبرة السيّئة». وهذه عند الاسلاميين بديهية، لأنه محال العودة إلى الوراء فتجربة النبوة انتهت، وأغلقت تماما أبواب الريبة والتفكّر؛ نحن مطالبون بالتنفيذ لا غير. وفعلا، هذا هو رأي نيتشه بالذات: «فالذي يجب تجنّبه الآن على وجه الخصوص هو مواصلة التجربة، إطالة الحالة السائلة للقيم، والفحص، والاختيار، ممارسة نقد القيم إلى ما لا نهاية».

ثمة حاجزان يمنعان من النقد وإعادة التجارب السابقة. بالنسبة للمسلمين: ختْم الوحي واكتمال الشريعة، بالنسبة لنيتشه، ثمة حائطان (doppelte Mauer)، أوّلهما: «الوحي (die Offenbarung)، الذي يؤكّد بأنّ مصدر تلك الشرائع غير بشري (nicht menschlicher Herkunft)». هذا المبدأ الوهابي الإخواني القحّ، نقرأه، بكل غرابة، في كتاب زعم صاحبه أن لا أحد في العالم يستطيع فهمه، بينما هو مودوع في كتب المسلمين منذ ألف ومائتي سنة، ويمكن لأيّ شاب أزهري الآن أن يسرده عن ظهر قلب.

فعلا بالنسبة للمسلمين، الشريعة مصدرها إلهي وليس إنسانيا، وحتى النبيّ لم يتدخّل في أحكام الله. ونيتشه يُدعّم ويقول: «إنها لم تكن مستقصاة، ثم وجدت شيئا فشيئا بعد سلسلة من الأخطاء، وإنما نظرا لأنها من مصدر إلهي (als göttlichen Ursprungs)، هي كاملة (ganz)، تامّة (vollkommen)، بلا تاريخ (ohne Geschichte)، هِبة (ein Geschenk)، مُعجزة (ein Wunder)».

حاوِلُوا أن تَجدوا صفة واحدة يطلقها المسلم على شريعته غير موجودة في هذا النص النِيتشوي. أما التراث، والذي يعني في لغة المسلمين، أحاديث البخاري ومسلم والفقهاء الأربعة، فهي الحائط الثاني الذي يرتطم به كل مجدّد في الإسلام. وهذه هي أيضا مهمة التراث بالنسبة لنيتشه: «التراث هو التّوكيد على أن الشريعة قد تواجدت منذ أزمان قديمة، وأنه من اللاتقوى (pietätlos)، [عبارة مخففة من كلمة "الكفر"]، ومن باب الجريمة ضد الأسلاف (ein Verbrechen an den Vorfahren)، وضعها موضع شكّ (in Zweifel zu ziehen)». وبالجملة الشريعة من الله والأسلاف طبقوها، ونيتشه: «سلطة الشريعة مَبْنية على القضيّتيْن التاليتيْن: الله أعطاها (Gott gab es)، الأسلاف عاشوها (die Vorfahren lebten es)».

وبدل أن ينقضّ على هذه الاستيهامات الظلامية ويحطّم فكرة الشريعة الإلهية، فإن نيتشه يُقوّي هذه الوضعية المتخلّفة التي مسخت المسلمين وجعلت منهم آلات متحرّكة، ويمدّها بمبررات شبه فلسفية، من قبيل أن السبب الأعلى لهذه المسلكية يكمن في مَقصَد دَحْرِ الوعي شيئا فشيئا بعيدا عن الحياة المُعتَبَرة قويمة، بنيّة الحصول على تسيير ذاتي (أَتْمَتَة) كاملة للغريزة (Automatismus des Instinkts). وهكذا فإن شريعة مستبطنة من قرون حوّلت مجتمعات المسلمين إلى آلات بلا روح، وكل العقول المتنوّرة تريد التخلّص منها ولفظها نهائيا، فإذا بقاتل الإله، ينتصب للدفاع عنها، والاشادة بها على أساس أن شريعة من هذا القبيل تمثل الشرط الأساسي لكل نوع من البراعة، وكل **اكتمال في فن الحياة**.

- كلنا يعلم البلبلة الموجودة في تفاسير القرآن، واختلاف التأويلات وتضارب الآراء وتناقض الروايات، بحيث لا يمكنك أن تقرأ تفسيرا وتخرج بفكرة ثابتة صحيحة ومُوجّهة. نيتشه لا يمانع من أن تكون تفاسير النصوص على هذا الشكل، لأن النصوص غير حاملة لأي معنى ذاتي، والتأويلات بالتالي لا تنتهي. جان غرانييه (Granier) يُعلمنا بأن النص بالنسبة لنيتشه لا ينضب «**فالنص الواحد**، كما يشير نيتشه، **يسمح بتأويلات**

لا تُعَدّ: لا يوجد تأويل صحيح». ثم يضيف كلاما ينطبق على القرآن وعلى المفسرين المسلمين، ذلك أن العتمة التي تحوم على عقولهم، سببها الرئيسي التشويش المستفحل في النص، الشيء الذي يمنعهم من الركون إلى تأويل واحد: «إن الميزة **الضبابية والغامضة للنص** بسبب الظهور **والتغيّر الثابت للمعاني** التي يثيرها، والتي **تحول دون حصر الحقيقة بقراءة استثنائية وضيّقة**، يحاول نيتشه أن يفكّرها مع **مفهوم الشّواش**، فميزة العالم، كما يقول نيتشه، هي «**ميزة الشواش الأبدي**»[871]».

وما هي نتائج هذا الشواش الكوني؟ «**فشل كل تأويل يريد أن يكون علما ونظاما وعقيدة**». بعبارة أخرى، شواش في العقول وشواش في الواقع، وحقيقة النص تبقى مُعلّقة في هذا الشواش؛ رغم ذلك فإن غرانييه، يَقلب الرذيلة فضيلة، ويُحوّل هذا اللاعلم إلى فتْح كبير. فعلا، الشواش «يفتح الأفق الذي انطلاقا منه لا ينتهي العناد بكل تفسير إلاّ بجعل النص غير مقروء، لأنه "يجب وجود عدم دقّة نظر ما، لكي يَظهر الجمال، وقيمة الأشياء بذاتها ليست سوى: **لا أعرف شيئا**"».

وكلمة "لا أعرف شيئا" هي صيغة أخرى من شعار "الله أعلم"، وهو مُنتهى عقول المفسرين المسلمين، وغاية عقل نيتشه. فعلا، التفسير الإسلامي هو **مجرّد** تكييف ظرفي عابر، وبالنسبة لنيتشه «مسألة التأويل هي مسألة تكييف. المقصود إيجاد المسافة الجيّدة ليُوفّر لنا النص رموزا وحروفا لحلّها. حلّ مُكرّس ليكون تقريبيّا وغير مُحدّد، على نحو يغدو التهديد برؤية المعاني غير مقبولة، وحتى ممحوّة بالانغماس في الشواش[872]».

المُشكلة أن النص الإسلامي المؤسس هو نفسه مشوّش: لا نجد فيه تسلسلا منطقيا، ولا استرسالا متواصلا في الحجج؛ ينتقل من موضوع إلى موضوع، دون مقدمات أو ترتيب أو تصنيف معقول. نقرأ جملة مهيبة من قبيل: (**سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**) وإثرها مباشرة، يتغيّر الموضع ويصبح (**وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل**). وقد تفطّن نقاد القرآن إلى هذا الخلل، واستوقفهم مثلا الترتيب الغريب في قصة موسى الواردة في سورة الأعراف[873]. حيث

871- جان غرانييه، **نيتشه**، ترجمة علي بو ملحم، مجد، بيروت 2008، ص، 72.

872- ن. م، ص، 73.

873- الأعراف، 142 147: «**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ. وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴿ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي**

تحدث عن الميقات مع موسى، ثم مرّ إلى الكلام معه، وطلب الرؤية، ثم أتبعها بذكر قصة العجل، وإثرها قصة اختيار موسى من قومه سبعين رجلا والرجفة... الخ. المعترضون قالوا: إن القصة الأخيرة مغايرة للقصة المتقدمة، ولا شك أنها عَوْد إلى تتمة الكلام في القصة الأولى. الاعتراض هو أن الأليق من حيث الفصاحة «إتمام الكلام في القصة الواحدة في وضع واحد، ثم الانتقال منها، بعد تمامها، إلى غيرها، فأما ذكر بعض القصة، ثم الانتقال منها إلى قصة أخرى، ثم الانتقال منها، بعد تمامها، إلى بقية الكلام في القصة الأولى، فإنه يوجب نوعا من **الخبط والاضطراب**[874]».

وبالرجوع إلى نيتشه فإن كتاباته لا تخلو هي ذاتها من الخبط والاضطراب سواء في الأسلوب أو الترتيب: في كتاب **الفجر**، يمر من الحديث عن "مبادئ الحضارة"، إلى "الطبيعة خيّرة وشريرة"، إلى "المفكرين الأحرار"، ثم "الحيوانات والأخلاق"، ثم "العقل كحجة"، ثم يقفز إلى "القسوة الرقيقة باعتبارها فضيلة"، فـ"ازدراء الأسباب"، ثم يعود إلى "الأحاسيس الأخلاقية والتصورات الأخلاقية". وكذلك الشأن في كتاب **إنساني مفرط في الإنسانية**، حيث يقفز من "قضايا الميتافيزيقا"، إلى "العدد"، إلى "الريبية"، إلى "إمكانية التقدّم"، إلى "كلمات فقدت الاعتبار"، ثم "ثمْل بعطر الأزهار"، وهكذا دواليك، دون ترابط في المسائل أو تسلسل منطقي في الأفكار.

أما النثر النيتشوي فهو أيضا لا يقلّ خبطا واضطرابا وتكرارا وسجعا وتلاعبا بالألفاظ. ثمة جملة في زرادشت، كلها قافية وسجع، ولكن في الترجمة العربية ذابت تماما. سأكتبها بالعربية وألحق بها الجملة بالألمانية مُسطرا كلمات السجع: «أمّا **عقد**

اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ. وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ﴾ سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ... وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ... وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ... وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ... وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ».

874- الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ج. 15، دار الفكر، بيروت 1981، ص، 20.

قرانكم، فلتعملوا على أن لا يكون **عقدا سيّئا!** فأنتم **تعقدون بسرعة**؛ وتكون النتيجة بالتالي **انفراط الرابطة الزوجية**[875]».

"Euer **Eheschließen**: seht zu, daß es nicht ein **schlechtes *Schließen*** sei! Ihr **schlosset** zu **schnell**: so *folgt* daraus – **Ehebrechen**!"

وبعدها يكتب: «وإنّ **كَسر رابطة زواج** لأفضل على أية حال من **زواج مُعوجّ وزواج كاذب!** وهكذا كلّمتني امرأة ذات مرّةً: "صحيح أني **كسرت** الرابطة **الزوجية**، لكن قبلها كانت الرابطة الزوجية هي التي **كسرتني!**"[876]».

"Und besser noch **Ehebrechen** als **Ehe-biegen**, **Ehe-lügen**! – So sprach mir ein Weib: wohl **brach** ich die **Ehe**, aber zuerst **brach** die **Ehe** – mich!"

وقد دفعتْ هذه المقاطع ذات النبرة السّجعية، وبعض الأناشيد من **زرادشت** مثل نشيد: „بين فتاتين من بنات الصحراء"، بالكاتب الأمريكي يوهانس برونه (J. Broene 1875-1967) إلى القول بأن من يقرأها لا مفرّ له من الاستنتاج بأن المؤلف مُختلّ عقليا[877].

إن كتابات نيتشه، من فرط ما تعجّ به من نقاط التعجّب ونقاط الاستفهام، طبّق عليها كاتب سيرته الإيطالي أناليكتو فرّيكيا (A. Verrecchia)، قولة ساخرة للكاتب ليشتنبرغ يتساءل فيها: «لا أدري هل ازداد في ألمانيا البؤس أم لا؛ من الأكيد أن نقاط التعجب هي التي ازدادت. فحيث كان يتمّ الاكتفاء "بنقطة تعجّب واحدة" (!) توضع الآن "ثلاث" (!!!)[878]». في هذا النثر المزركش المتنطّع، ثمة مقاطع تدور في الفراغ مثل طاحونة هواء، وهي بدورها تنطبق عليها قولة أخرى لليشتنبارغ، وصف فيها كتابات يعقوب بوهام (J. Böhme) بأنها نوع من „البيك نيك (pic-nic)"، حيث المؤلف يَضَع الكلمات والقارئ المعاني.

875- هكذا تكلم زرادشت، «عن الألواح القديمة والألواح الجديدة»، 24. ص. 397.

876- ن. م، ص، 398.

877- J. BROENE, The Philosophy of Friedrich Nietzsche, Reprinted from, The American Journal of Religious Psychology and Education, Vol. IV, pp. 69-170., cit., p. 7-8. "Read some of the songs in Thus Spoke Zarathustra, for instance that entitled, Among Daughters of Desert, and the passage on pages 313 and 314 of Tille's translation, and you can hardly escape drawing the conclusion that the author must be unbalanced".

878- LICHTENBERG, Aphorismen, ed. Leitzmann, cit., L 145, in A. VERRECCHIA, La catastrofe di Nietzsche a Torino, Bompiani, Milano 2003, p. 123.

التكرار المُمل عند نيتشه، هو عادة ثابتة، أما أسلوب العرّاف المتنبئ، الذي عابه عليه فيلاموفيتس في نقده لمولد التراجيديا، فهو أيضا ثابت ومتواصل. هناك جُمَل يمكن أن نعدّ فيها ستة نعوت متتالية؛ نعثر أيضا على كلمات ملقاة هكذا فقط لملء فراغ الصفحات. فمثلا حينما يستمع إلى الكارمن (Carmen) لبيزيه (Bizet) يغدو «**منشرحا، سعيدا، هنديا، مستقرا**...[879]».

ما معنى أن يصبح هنديا ومستقرا بسماعه الكارمن؟ هذا لا تَعلمُه إلاّ السماء، يُعلّق فيرّيكيا، «ولا حتى القديس أنطونيو في الصحراء سيشعر بأنه «هندي» و «مستقر» أمام مخلوقة مثل «كارمن»؛ أمّا الديونيزي نيتشه فبَلَى[880]».

ثم في حديثه عما يَشتاقه من فاغنر يُسرّح طاحونة كلماته دون هوادة: «العلم المرح؛ الأرجل الخفيفة؛ عبقرية، نار، رحمة؛ المنطق الكبير؛ رقصة الأجرام؛ عجرفة الروح؛ الرعشات المضيئة للجنوب؛ البحر الهادئ كمال ...[881]». أما حين يريد أن يُروّح عن نفسه، ويكتب دعابة أو ملحة، فهو يُخرج تشبيها في غاية المهزلة. يقول إن الأشخاص الذين لا يميل إليهم، يعدّهم «من **فصيلة الجمبري**. لأنه **يلسعك** حينما **تقترب منه**؛ وأيضا، لأنه **يمشي القهقرى**[882]».

وفي زرادشت يطلع علينا بما أسماه ماوريسيو فيرّاريس (Maurizio Ferraris) "حماقة"، حيث يقول بكل جدّية: «على المرء أن يكون حاملا للفوضى كي **يَلد نجما راقصا**[883]». ويعلّق الفيلسوف الإيطالي: «ليس واضحا ما يمكن أن يكونه هذا النجم الراقص، ولا هل من المُجدي ولادته حتى، لكن من الواضح جدا، أن هذه الجملة هي لأحمق، رغم أنها كُتبت من عملاق الفكر[884]».

- تقولون كيف يمكن لنيتشه، الذي اشتهر بأنه هادم أركان الدّين وقاتل الإله أن يقدّس الإنجيل، وأن يشيد به حتى، فالكل يعلم الضربات الهدامة التي انهالت عليه من طرف الفيلولوجيين الألمان، وأعظمهم في عصره، هو يوليوس فيلهاوزن،

879- ف. نيتشه، **الحالة فاغبر**، ضمن الأعمال الكاملة، ج، 6، ص، 13.

880- A. Verrecchia, La catastrofe di Nietzsche a Torino, op. cit, p. 124.

881- ن. م، فقرة: 10، ص، 37.

882- نيتشه، **إرادة القوة**، 39.

883- هكذا تكلم زرادشت، 5، ص، 48 49.

884- M. Ferraris, L'imbecillità è una cosa seria, Il Mulino, Bologna 2016, p. 7.

صاحب كتاب تاريخ إسرائيل القديمة، ومن قبله دافيد شتراوس، والعقلانيون الفرنسيون، من فولتير إلى دولباخ إلى هلفيتيوس، الذين نزعوا كل مشروعية عن هذا الكتاب، سواء من الجانب التقديسي أو التعليمي. ويكفي الاطلاع على القاموس الفلسفي لفولتير حتى نرى مدى الزخم الفكري الذي فعّله هذا الرجل لنقد التاريخ المقدس، وتخليص العقول من خرافة التقديس والجهل. ولقد استفاد الأوروبيون من هذه الأعمال وأصبحت كتابات سبينوزا وبايل وفولتير ودولباخ كسبا للمتعلمين ودخلت حتى في تكوين الوعي العمومي، وبالتالي لا سبيل إلى العودة إلى عصور التقديس المظلمة. أما العالم الإسلامي فقد بقي على حاله من الجهل والتقديس حتى أن أحد أكبر الفلاسفة العرب، وهو محمد عابد الجابري مكث في نقطة ميّتة ولم يبرحها، وكأن دورة الزمن توقفت.

ونيتشه، مُتناسيا كل الإسهامات الفيلولوجية وكل الانتقادات على الكتب «المقدسة»، يحاول إرجاع عقارب الساعة، وإعادة تكريس المقدس بكل شراسة.

لكي يُمرّر هذه الأفكار الرجعية، كتبَ مُقدّمة طويلة الغاية منها هي إلهاء القارئ عن خطورة أقواله، من بين ما جاء فيها: أن ثمة فطرة هرمية، وهي علامة على مرتبة عالية؛ وهناك رغبة في تذوّق ألوان الاحترام بفوارقها اللطيفة، رغبة تنمّ عن أصل عريق وعادات نبيلة[885]. ثم أردفها بأقوال مُشفّرة وسَيْل من الإيعازات لا يمكن فهمها إلاّ في آخر الفقرة: «أمّا رفعة النفس وجَوْدتها ولطافتها فتَتَعرّض لامتحان خَطر حين يحضر أمامها ما هو من المَرتبة الأولى، ما لم تلفّه السلطة بأهوالها بعد، ليكونَ في مأمن من تطاول الأيدي الغليظة القليلة الحياء». والآن أخذت تتجلى رويدا رويدا الفكرة، وبدأنا نمسك بالخيط الواصل: ثمة تطاول من طرف أناس قليلي الحياء، على شيء مَهيب، وذي مرتبة عالية. ما زلنا لا نعلم جهور هذا الشيء السامي العظيم. لكن لم يسمّه مباشرة، بل أضاف نوبة أخرى من الخطابة، كي يُنهِك القارئ ويَشويه على نارٍ هادئة قبل البوح بغرضه. النّوبة جاءت على شكل كدس من الكلام المُنفصم، والعسيرٌ فهمه حتى في لغته الأصلية، ونَصّه في الترجمة العربية كالآتي: «ما يَحضُر غير مُعْلَم وغير مُنكشف، ما يحضر مُجرِّبا ومُتستّرا ومُتنكّرا عن قصْد ربّما، كما لو كان مَحَكّا حيّا. إن ذاك الذي من شأنه ومِراسه أن يسْبر غور النفوس سيستعمل هذا الفنّ بالذات،

885- نيتشه، ما وراء الخير والشرّ، § 263. ص. 256.

وبمختلف الطرق، ليُعيّن القيمة النهائية التي لنفس ما والموقع الفطري الثابت الذي لها في سُلّم المراتب: سيَمْتَحِن فيها فطرة الاحترام[886]».

وإثر هذه اللخبطة بدأ في نزع حجاب التقيّة، وفي تَعْيين الأشخاص الذين يبغي تكفيرَهم وشتمهم: «تَنْهَمر عامّية بعض الطبائع كالماء القذر على غفلة، حين يَمرّ أمامها مَن يحمل إناءً مُقدّسا (heiliges Gefäss) أو جوهرة من كنز مرصود أو كتابا عليه علامات المَصير العظيم، يُفصِح الصمت اللاإرادي واضطراب العين وسُكون الإيماءات كلّها عن أن تحسّ النفس بدُنوّ ما يجب إجلاله أكثر من أيّ شيء آخر[887]».

نيتشه يريد أن يقول إن ثمة أشخاصا متمرّدين على الدين، ولا يؤثر فيهم القسّ بإنائه الذي يحتوي ماء التعميد، أو حاملا للصليب، أو رافعا الكتاب المقدس. لقد تحرروا من قيود التقديس، وطردوا الأساطير من أذهانهم، لأنهم يفكرون بعقولهم لا بِقُلُوبهم ويعيشون في سلام مع أنفسهم. لكن نيتشه ينتفض ضد هؤلاء الكفرة، ويُعلِمهم بأن التقديس لا يمكن التفريط فيه، وأن فضل المسيحية يكمن في طريقة تعليمها ومنهجها البيداغوجي. إنه أمر صادم جدا لأحباء نيتشه الذين ينتظرون منه تحريرا من أغلال التقديس وإذا به يَرْطِمهم بحائط التقديس الأكثر تخلفا ورجعية: «الطريقة المُتّبعة حتى الآن في أوروبا للحفاظ على **تقديس الكتاب** [البيبل] (**Ehrfurcht** vor der Bibel)، هي **خير مثال للتّأدّب** والتهذيب الخلقي اللذين تدين بهما أوروبا للمسيحيّة[888]».

هل ثمة اختلاف، أسأل، هل ثمة اختلاف واحد بين ما يقوله نيتشه وما يقوله أيّ سلفي وهابي في العالم العربي؟ واضح أنه لا يوجد أيّ اختلاف من حيث المبدأ ولا حتى من حيث العبارات المستخدمة، بين المسلم السلفي ونيتشه، ومن يقول العكس فما عليه إلاّ أن يفسّر لنا هذا النص. المسلم الوهابي السلفي، يرى أن كتابه المقدّس هو المدرسة الأولى للتأديب والتهذيب الخلقي، ونيتشه كذلك يرى أن الأناجيل هي خير مثال للتّأديب. وهذا في حد ذاته خطير، ولكن أخطر منه أن نيتشه يريد أن يفرض هذا الاعتقاد التقديسي بالقوة، عن طريق سلطة قمعيّة عليا، تمنَع انتهاك حرمة الكتاب المقدس أو التجرؤ على نقده. وهنا فإن نيتشه لا يكتفي بكتاب المسيحيين بل يسحب

886- ن. م، ن. ص.

887- ن. م، ن. ص.

888- ن. م، ص، 257.

هذا الاحترام المفروض على كل الكتب المقدسة، وبالتالي فهو يعطي للمؤمنين ذريعة قوية لاضطهاد كل من تُخوّل له نفسه التشكيك في قدسية كُتُبهم.

«إنّ كُتُبا من هذا الطراز يقول نيتشه كُتُبَ العُمْق والمَغزى الأخير، بحاجة إلى **طُغيان سلطة خارجية (Aussen Tyrannei von Autorität)** لتَحميها وتَضْمَن لها آلاف السنين من الدوام اللازم كي يُعتَرَف منها وتُكْتَنَه[889]». ليس ثمة أوضح من هذا الكلام لفَرْض التقديس بالقوة، لقهر العقول وإخراسها نهائيا؛ لتأبيد الجهل والخرافة والرّكوع لِكتب أسطورية لا أخلاقية. فالرجل عازم، مثل السلفي، أن يُبقي على حالة التقديس وَإدامتها لآلاف السنين، وربّما أن تُحفَظ هذه الكتب عن ظهر قلب، وتُدرَّس باستمرار، وتُؤَوّل في مدارس مَجعولة لهذه الغاية.

القرآن لا يُمس، يُحذّر الوهابي، القرآن كتاب استثنائي، يقول الجابري، ومن حسن الحظ أن المسلمين منذ قرون يُعظّمونه ويعتبرونه قدس الأقداس، وكلام الله الأزلي الذي لا يأتيه الباطل من أي جهة. ونيتشه، بدوره، يبتهج بالسيرورة التاريخية التي رسّخت في أوروبا فكرة قدسية الكتاب وألْجَمت العوام عن العبث به، وهذا أمر يعود فيه الفضل للمسيحية: «**إنه لإنجاز كبير أن يترسّخ أخيرا، بعد طول تربية، لدى السواد الأعظم ذلك الإحساس بأن لا حقّ لهم في مسّ كل شيء**».

انتقدوا كل شيء، حتى أحاديث البخاري أو روايات السيرة، لكن لا تقربوا القرآن، لا تُدنّسوا كتاب الله، فهو القداسة بعينها ويجب عليكم أن تتطهّروا قبل أن تلمسوه "لا يمسّه إلاّ المطهرون". إنكم ستُصدمون لو قلتُ لكم إن شيئا من هذا القبيل موجود حرفيا عند نيتشه. في رأيه، الجميع يجب أن يلتزموا بالحدود التي أقامتها المسيحية، وأن يتقيّدوا بالتراث الديني، وأن لا يجرؤوا على تدنيس الكتب المقدسة، يجب على الناس أن يشعروا «بأن ثمّة **تجارب مُقدّسة (heilige Erlebnisse)** عليهم أن **يُبعدوا عنها الأيدي القذرة ويخلعوا النّعال** في حضرتها[890]». وأخيرا لكي يُدوّخ أتَباعه ويسحق آمال الملحدين منهم يُنبؤهم بأن الكتب المقدسة هي «**أعلى قمّة للإنسانية يمكن لهم أن يرتقوا إليها**[891]». يا سلام على **محطم** الدين وقاتل الإله. لقد ظهر على حقيقته: تقديسي رجعي حبيب السلفيين.

889- ن. م، ن. ص.

890- ن. م، ن. ص.

891- ن. م، ن. ص.

والغريب أنه يُعرب عن تقديسه بصورة واضحة، علنية وصريحة، رغم أنه في مواضع أخرى، يَتبجّح بأنه أوّل ملحد وأنه أعلن الحرب على المسيحية، وأن ريتشارد فاغنر هو إنسان كريه لأنه ركع أمام الصليب، وما إلى ذلك من خزعبلاته. لكنه هنا يهجم هجوما كاسحا، صلفا، عشوائيا، على اللادينيين، وعلى الفيلولوجيين الكبار وعلى الفلاسفة الملحدين، الذين كنسوا الأديان، ونزعوا عن كُتُبها هالة التقديس العمياء.

هذه هي الحداثة، وأصولها التاريخية وركائزها الفكرية والفلسفية، لكن نيتشه، مثل السلفي الوهابي، يكره الحداثة، يحقد على المفكرين العلمانيين، يحتقرهم ويسميهم «المؤمنين بـ"الأفكار الحديثة" (den Gläubigen der"modernen Ideen")[892]». ومثلما يثور السلفي على العلمانيين ويكيل لهم أبشع النعوت لجُرأتهم على تحطيم المقدسات، كذلك يفعل نيتشه: العلمانيون والمفكرون الأحرار، هم حثالة البشر، يثيرون القرف، قليلو الحياء (Mangel an Scham)، لماذا؟ لأنهم يستخدمون عقولهم في البحث والتمحيص، ويَضعون كل شيء على محك النقد التاريخي الفيلولوجي، أو بعبارة نيتشه المُشَفّرة، لأنهم يرتاحون «إلى صفاقة اليد والعين التي تُبيح لهم أن يَلمسوا ويَلحسوا ويَجسّوا كل شيء[893]». ضد هؤلاء المُدنّسين الجريئين الساكنين في عالم سطحي «يُعمّره قرّاء الجرائد وأنصاف المُثقّفين»، نيتشه يُفضّل عامّة الشعب، أو من أسماهم بـ«سَفَلة الناس، والفلاّحين بخاصة»، لسبب بسيط جدا وهو أنهم يملكون «قدرا أوفر من **آداب التقديس** ومن نُبل الذوق النّسبي[894]». وهكذا فإن نيتشه لكي يُنقذ الكُتب "المقدسة" من براثن النقد، فهو مُستعد لأن يتضامن مع الرجعية، وأن يعلّق ظرفيا عنصريّته واحتقاره للإنسان العامّي.

- أبو لهب القرآني هو سقراط النيتشوي؛ لم يَترك رذيلة واحدة في العالم لم يُلصقها به. بينما القرآن يَلعن أبا لهب ويتمنّى أن تُبتَر يداه، لأنه كافر شرير، فإن نيتشه يسبّ سقراط ويشمتُ في موته لأنه، حسب زعمه، قتل التراجيديا اليونانية عن طريق العلم والمنطق، وبالتالي فإن سيماهم على وجوههم، وسيماء سقراط هي القبح. والقرآن يقول (**تعرف في وجوه الذين كفروا المُنكر**. "الحجّ، 72")؛ (**كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما**. "يونس، 27").

892- ن. م، ن. ص.

893- ن. م، ن. ص.

894- ن. م، ن. ص.

نيتشه تَفرّسَ في ملامح سقراط واستخرج هذه الصورة: سقراط هو أوّل يوناني قبيح الوجه، وذميم الخلقة (Sokrates der erste große Hellene ist, welcher häßlich war). وهذه الشّتيمة جاءت في كتاباته الأولى، أما في كتاباته الأخيرة فقد زاد في صَقْلها وتصعيدها إلى درجة جنونية. مسألة سقراط في "أفول الأصنام" هي مانيفستو الشتائم، ربّما تخبو أمامها : "**تبّت يدا أبي لهب**"، و "**امرأته حمّالة الحطب**"، و"**عتلّ زنيم**".

وإليكم جرد الشتائم النيتشوية ضد الحكيم: سقراط مريض، مَلّ الحياة، مصاب بفوضى الغرائز، ينتمي إلى الفئة السفلى من العامّة، كان من الرّعاع، كان قبيحا، والقبح، هو مأخذ في حدّ ذاته، يعني أن يكون المرء قبيحا فهو منحط بالضرورة؛ سقراط مُنفّر، لم يكن اغريقيا قُحّا لأن الإنسان الإغريقي كان في قمّة الجمال، إذن سقراط هجين، مُعاق، مشلول؛ مُجرم نموذجي، وبالتالي مُنحطّ. سقراط مُهلوس، ومُهرّج، وكاريكاتور؛ يكنّ مكرا دفينا وسرّيةً دهليزية؛ أثينا لم تقتل سقراط، وإنما هو الذي تسبّب في موته والمسؤولية بالتالي تقع على كاهله[895]؛ سقراط ليس بطبيبٍ وإنما مريض طال به المرض. وفي النهاية، سقراط يهودي[896].

ولكن أعظم جُرم اقترفه سقراط في حق الإنسانية، هو استخدامه لآلة المنطق، والتجاؤه إلى الحجاج العقلاني، وهنا فإن سقراط الحكيم يلتقي بأبي الحكم، عمر بن هشام بن المُغيرة، الذي غيّر المسلمون اسمه إلى "أبي جهل". كلاهما استعملا الجدل لتمحيص ادعاءات الخصم، ووَضْع أقواله على مشرحة النقد الصارم، لكن هذا المنطق الجدلي هو بالتحديد ما يُثير حفيظة القرآن (**وكان الانسان أكثر شيء جدلا**)، ويُفزع نيتشه نظرا إلى أن الجدل في رأيه أداة تواصل خطيرة، بل شنيعة. نيتشه يشبّه المنطق الصوري بطعنات سكّين؛ بسلاح لا يرحم، فهو «يُعرّي ويُهين»، رذيلته أنه «يترك لخصمه البرهنة على أنه ليس بغبيّ[897]». الإنسان الجدلي «يُقصي ويرفض، فيما هو

895- **غسق الأوثان**، ص، 33. «سقراط هو الذي أراد أن يموت، وليست أثينا؛ لقد تناول قَدَح السمّ، وأجبر أثينا على قدح السم».

896- فعلا حسب معادلات نيتشه الهوائية: «اليهودي هو جدلي وسقراط كذلك ("Der Jude ist Dialektiker: und auch Sokrates war es")».

F. Nietzsche, Nachlaß, Bd. 13, p. 414.

897- نيتشه، **غسق الأوثان**، «مشكلة سقراط»، ص، 23 33.

يجرّد ذهن خصمه من كل سلاح؛ يُخضعه إلى استجواب تفتيشي فيما هو يجعله عديم الحيلة؛ ويُلقي عليه مهمّة أن يُثبت أنه ليس **أحمق** ... أف[898]».

لا، ليست هذه مهمّة الجدل. لا ينبغي أن تمرّ علينا حذلقات نيتشه وتزويره للحقائق. الجدلي لا يهمّه إن كان محاوره أحمق أو لا؛ الجدلي بعيدا عن أن يُقزّم خصمه، أو يَستهين به، فهو يحمل على محمل الجد أطروحاته ويريد أن يمتحن مدى معقوليتها، ومدى مطابقتها لقوانين المنطق. هذه القوانين تمنع من تقبّل فكرة أن كائنا حيا، مات واندثر، يمكنه أن يعود إلى الحياة؛ أو أن عظاما نَخِرَة بمقدورها أن تُبعث من جديد: (**أئذا متنا وكُنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون؛ أئذَا كنا عظاما ورُفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا؛ مَن يُحيي العظام وهي رميم** ...). مبدأ عدم التناقض يقول إن الوجود والعدم لا يلتقيان، وأن الشيء لا يمكن أن يكون معدوما وموجودا في نفس الوقت، أو بتعبير الرازي، الذي يورد اعتراض العقلانيّين: «**بَعد العدم لم يبق شيء، فكيف يصح الحكم على العدم بالوجود؟**».

الامتناع ليس فقط من جانب قوانين المنطق بل من جانب قوانين الفيزياء أيضا، ذلك أن مَن تفرّقت أجزاؤه في مشارق العالم ومغاربه، وصار بعضه في أبدان السّباع وبعضه في جدران الرباع، كيف له أن يُجمَع؟ وأبعد من ذلك، وهذا الاعتراض قدّمه ابن سينا في **الأضحوية**، لكي يفنّد به قيامة الأجسام: هو أنه إذا افترضنا إنسانا إنسانا أكل إنسانا وصارت أجزاء المأكول في أجزاء الآكل فإنْ أُعيد للحياة، فأجزاء المأكول، إما أن تُعاد إلى بدن الآكل، فلا يبقى للمأكول أجزاء تُخلَق منها أعضاؤه، وإما أن تُعاد إلى بدن المأكول منه، فلا يبقى للآكل أجزاء.

هذه هي أصناف الاعتراضات التي من المحتمل جدا أن يكون قد قدّمها أبو الحكم ضد فكرة البعث. وهي تنمّ عن شخص ذكيّ صاحب ذهن وقّاد، مُتمرّس على فن المماحكة الجدلية، ويرغب في تمحيص الخطابات، كي لا يترك لأحد الفرصة أن يعبث بعقله ويفرض عليه رأيه عن طريق كلام انشائي خال من البراهين. إجابة القرآن هي أن من يطرح هذا السؤال، هو **حجر** أو **حديد** (قل كونوا **حجارة أو حديدا**)، هذه الأولى، والثانية، وهي أسهلها وأقلّها تكلفة ذهنية، القول بأن الله هو الذي سيُحْيي العظام كما خلقها أوّل مرة. وهذه حجة اللاّحُجة، أي خروج عن قوانين المنطق

898- هذا المقطع نجده في الدفاتر ترجمه علي مصباح ضمن، **غسق الأوثان**، ص، 28 29.

والبرهان العقلاني السّديد، بل تَغييبٌ للمسألة المبدئية، لأن الخصم لا يعترف بالخلق ولا يؤمن بإله يخرق قوانين الطبيعة.

وجواب نيتشه عمّن أدخل الحجاج العقلي والجدل في مسائل الفكر، هو أنّه سوقي، رعاع، حقير، وبالتالي لا يجب على الخصم الارستقراطي أن ينزل إلى مستواه ويستعرض الأدلة، لأنه شخصيا هو الأدلة عينها؛ قوّة عضلاته هي الدليل الأنجع والأقوم، تماما كما ينص القرآن: **لَكْمَة** في الوجه بدل **برهان** عقلي: (يا أيها الذين أوتوا الكتاب **آمنوا** بما نزّلنا ... مِن قَبل أن **نطمس وجوها فبردّها على أدبارها**). ونيتشه من جهته: «ما إن يُتّخذ القرارَ حتى **تسدّ الأذن أمام أفضل حجّة مضادّة**: تلك هي سمة الطبع القويّ. وتاليا إرادة ارتكاب حماقة بين الحين والآخر[899]». وبالنهاية «نرتاب اليوم من كلّ مفكر يريد البرهنة على شيء ما[900]».

- كره اليهود ومعاداتهم: نيتشه يقول إن اليهود «**شعب وُلد** للعبودية[901]»، والقرآن يقول إن اليهود (**ضُرِبَت عليهم الذلة والمسكنة**)، وزاد ابن كثير في تصعيد هذه العنصرية بقوله إن الذلة (**وُضعت عليهم وألزموا بها شرعا وقدرا، أي لا يزالون مستذلّين، ومَن وجدهم استذلهم وأهانهم، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكنون**). نيتشه يقول إن اليهود شعب ولد للعبودية هو رأي الروماني تاسيتوس وكل العالم القديم، ويبدو أنه يصف شيئا دون أن يتبنى هذا الحكم. لكن يكفي مواصلة الفقرة حتى نحصل على مباركة لهذا الحكم وتماهي معه، ذلك أنّ مع اليهود «بدأت انتفاضة العبيد في الأخلاق[902]»، ويكفي أن ينتفض العبد ضد سيّده حتى يغدو بالنسبة لنيتشه عبدا آبقا شريرا.

- في العهد القديم اليهودي، أي في كتاب العدالة الإلهية، كما يصفه نيتشه، «ثمة أناس وأشياء وأقوال عظيمة الطراز بحيث لا يمكن للكتابات اليونانية والهندية أن تُضاهيها بشيء[903]». وهذا أوّل مروق عن المبدأ، فمنذ فقرتين كان قد قال إن اليونانيين القدامى «هم ضرب نبيل جدا من البشر، ذاك الذي يقف هكذا أمام الطبيعة

899- **ما وراء الخير الشر**، §، 107.

900- ن. م، §، 188، ص، 132.

901- ن. م، §، 195، ص، 140.

902- ن. م، ن. ص.

903- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، §، 52، ص، 85.

والحياة![904]»، اليونانيون بلا منازع كانوا أفضل وأعظم مخلوقات على وجه الأرض، والهنود هم روح الحضارة الراقية، والآن يلقي بكل هذه الخصال الجليلة على اليهود. الخرق الثاني هو هذا: «المرء يقف **بوجل ورهبة** أمام هذه البقايا العظيمة لِما كان عليه الإنسان في زمن غابر، وتُراوده أفكار مُحزنة حول آسيا القديمة وأوروبّا، شَبه جزيرتها المتصدّرة لها، التي تأبَى إلاّ أن تعني، بالنظر إلى آسيا، تقدّم الإنسان». الخرق الثالث أن العهد القديم هو موضوع تذوّق، وفيصل تفرقة بين الجليل والوضيع، وطبعا الجليل هو العهد القديم، والوضيع هو الإنجيل.

هذه هي خوارق نيتشه، أو بالأحرى مخاريقه، والتي يجب أن نتجرّعها صاغرين وإلاّ اتهمونا بقلّة الأدب والاستهانة بعقل عظيم. لكن هذا العقل العظيم يسمح لنفسه بأن يسب المثقفين، ويصفهم بأقذع النّعوت: «من كان هو نفسه مجرّد حيوان داجن أليف هزيل (كالمتعلّمين في أيامنا)، فليس عليه، لا أن يعجب، ولا أن يَحزن بأي حال، تحت ذاك الركام من الأطلال إنّ تذوّق العهد القديم فيصل لِتَفريق "الكبير" عن "الصغير"». وأكبر خطأ قام به المسيحيون، خطأ لا يُغتفر أنهم مَزجوا بين هذا الكتاب العظيم الرائع والوضيع، وجمّعوهما في في نفس الكتاب، فعلا: «إلصاق العهد الجديد بالعهد القديم، ليُكوّنا معا كتابا واحدا»، عمل مشين أو «خطيئة كبرى بحق الروح[905]». ثم في **جينيالوجيا الأخلاق**، يقول إنه يملك شجاعة التعبير عن ذوقه بالقول: «أنا **لا أحب العهد الجديد**، تحزنون لهذا؟ يكاد يحزنني أن أكون وحيدا في ذوقي هذا بخصوص هذا الكتاب الذي يُحظى باحترام كبير (يُناهضني ذوق ألفيْ سنة)[906]». والسبب في ذلك أن العهد الجديد إغريقي أكثر منه يهودي. أما العهد القديم «فهو بخلاف هذا تماما، وإني أحترمه. فيه أجد العظماء وبيئة البطولة، ومن الأشياء النادرة في هذا العالم أجد فيه بساطة القلب القويّ التي لا تُقدّر بثمن، وفضلا عن ذلك أجد فيه شعبا[907]».

لم يَفُقْه في مدح كتاب اليهود والثناء عليه والإفراط في تقديسه إلاّ القرآن. فهو يذكّرنا بأن الله، وبكل سخاء أهدى بني إسرائيل مَعلمًا رَمزيا عظيما؛ يُنبُوعا لا ينضب

904- ن. م، §، 49، ص،84.

905- ن. م. ص. 86.

906- نيتشه، **جينيالوجيا الأخلاق**، III، § 22، ص، 128.

907- ن. م، ن. ص.

من القداسة والطّهر **مُجَمّعا** ومُرَكَّزا في كتاب واحد وهو التوراة: "**عندهم التوراة فيها حكم الله**". كتاب نوراني مُنزّل من رب العالمين: "**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيّون الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**".

وقد تفنّن القرآن في إطراء هذا الكتاب وتَجميع كل الصفات المهيبة التي اختزنها في قاموس ألفاظه من قبيل: "**كتاب موسى إماما ورحمة**"، الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة: "**آتينا موسى الكتاب تماما على الذي أحسن، وتفصيلا لكلّ شيء وهدى ورحمة**". كتابٌ مقدّس بأتم معنى الكلمة، لا بل ألواح أهداها الله إلى موسى، كما يعتقد اليهود، فيها كل شيء، مفصّل بالتدقيق: "**وكتَبنا له في الألواح من كلّ شيء موعظة تفصيلا لكلّ شيء**". ماذا بقي لليهود ولأجيال المؤمنين من بعدهم؟ لقد حازوا على كلّ ما يتمناه البشر: خيرات مادية وهبات روحانية لا مثيل لها في تاريخ البشرية. المسلمون والمسيحيون إذن لا خيار لهم، إلاّ بالالتحاق باليهودية والانكباب على دراسة توراتهم وتطبيق تعاليمها حرفيا على أرض الواقع.

- أما تشبيه: (**كمَثل الحمار يحمل أسفارا**)، الذي جاء في القرآن لوصف حالة اليهود مع توراتهم، نجد مثيله عند نيتشه، ولكن الشتيمة، هذه المرّة، ليست مُوَجَّهة ضد أهل التوراة وإنما ضدّ أهل الفلسفة. يقول في **غسق الأوثان**: «هل يمكن **لحمَار** أن يكون تراجيديا؟ أن يَهلك تحت ثِقل لا يمكن حمله ولا الإلقاء به؟ ... **إنها حالة الفيلسوف**[908]». وهكذا فإن الفيلسوف، في عرف نيتشه، هو بهيم يأكل الحشيش، ويرزح، طوال حياته، تحت حمْلٍ لا يدري ما محتواه ولا كيف يتخلّص منه. في **ما وراء الخير والشر**، يُغنّي للفيلَسوف هذا البيت الشعري اللاتيني والذي يُذكرنا بـ"طلع البدر علينا" الذي أنشده الإسلاميون التونسيون عند عودة زعيمهم، راشد الغنوشي. نيتشه أنشد للفيلسوف: "**لقد جاء الحمار؛ جميلا وقويّا**[909]". وقد زاد في إهانة العلماء بتشبيه الفيلولوجي الكبير، كريستيان أوغست لوبيك (1781 1866) بالدّودة، أي بكائن أصمّ وأبكم وأعمى، أي شرّ الدواب. تصوّروا إلى أي حدّ وصلت به الوقاحة وقلّة الحياء.

908- نيتشه، **غسق الأوثان**، § 11، ص، 13.

909- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، § 8، ص، 29.

• أما "مُلك اليمين"، الذي أقضّ مضاجع المسلمين الطيّبين، ولكنه أسْعَد السلفيّين المتشبثين بنصوصهم، والذين يملكون الشجاعة لاعتباره أمرا إلهيا لا محيد عنه، نجد منه صيغة مُحَيّنة عند نيتشه. وقبل ملك اليمين أريد أن أنبّه إلى أن نيتشه لا يمانع من ختان البنات كما يفعل الإرهابي وجدي غنيم وشيوخ الإسلام القذرين، فهو يشيد بقانون السكين «ختانا للذكور وبترا لشُفُر الإناث[910]»، أي استئصال الشفتين الصغيرتين للإناث من عضوهن الأنثوي، بالُمدية. هل بالغت أو أجحفتُ حينما قلت إن هذا الرجل وهابي سلفي مجنون ولاإنساني مثلهم؟ أين قرأتم، وفي أي كتاب اطّلعتم على مفكّر يُزكّي ختان البنات ويصادق على اجرام من هذا القبيل؟ إن نيتشه، مثل السلفيين، يملك الشجاعة لاعتبار حيازة الرجل على جارية، اي عبدة، أمرا طبيعيا جدّا، ولا يثير فيه أي وخزة ضمير. ويقول ذلك جهرا، بصراحته المعهودة ودون أيّة مواربة، بل إنه يمدح الإسلام لتَصرّفه على هذا النحو مع المرأة. يقول حرفيا في احدى تخريجاته الميزوجينيّة إن أحسن تعامل مع المرأة هو التعامل الشرقي (الإسلامي)، أي اعتبارها ملَك يمين: «الرجل العميق في روحه كما في رغباته ... لا يمكن له أن يفكّر في المرأة دائما إلاّ **شرقيا** (nur orientalisch denken): عليه أن ينظر إلى المرأة بوصفها **مُلْكا** (als Besitz)[911]». وماذا يفعل الداعشي في الموصل؟ وماذا فعلت الحضارة الإسلامية الغازية للشعوب المَغزُوّة؟ قلتُ إن كلام نيتشه عن ملك اليمين، هو تَحيين لما عاشت عليه ثقافة الإسلاميين لمدى قرون، وما يفعله الآن الدواعش في الموصل هو تحْيين التّحيين.

وفي فقرة سابقة أراد أن يُشيّد صرح العبودية على أساس "فلسفي" متين، فخَرَج علينا بفكرة أن الاختلاف بين البشر لا يَبرز فقط من خلال تَباين لوحة القيم الأخلاقية التي يتبنّونها، بل أيضا من خلال ما يقدرون على امتلاكه، أي ممّا يَعدّونه «حيازة فعلية وامتلاكا فعليّا لخير ما[912]».

ثم يقدّم كمثال على ذلك حالة المرأة، وهنا يدخل في نوبة جنونية لاأخلاقية مُقرفة، تسحل كرامة المرأة إلى حضيضِ **ملك اليمين**. وأنا أتعجب كيف للنساء أن يُفتَنّ

910- نيتشه، **غسق الأوثان**، «مصلحو الإنسانية»، § 3، ص، 80.

911- **ما وراء الخير والشرّ**، § 238، ص، 206.

912- ن. م، § 194، ص، 138.

بهذا الرجل الذي يهينهنّ ويسوّغ بطريقة فظيعة دُونيّتهن وعبوديّتهن. فهو لا يرضى بالاستغلال الجنسي، بل يريد أكثر، يريد امتلاكها كعبدة، وحتّى جلدها لحَدّ الادماء. وهذه أقواله الشرّيرة: «إن شخصا متواضعا قد يعدّ التصرّف في الجسد والمَتعة الجنسية دليلا كافيا وشافيا للحيازة والملك[913]»، لكن هذه نصف الحقيقة، بل خطأ جسيم، لأن الاستغلال الجنسي، كما يقوم به الارهابيون المسلمون، لا يكفي، ذلك أن «حيازة من هذا القبيل **مجرّد** وهم[914]». الانسان النيتشوي العبودي، يعني النسخة المطابقة للدّاعشي الذي يمارس حق **ملك اليمين** الذي أفاءه الله عليه من اليزيديّات، يَتُوق إلى أعلى، يريد بيْع سلعته، أو تبديلها، ليُرضي «**عَطَشَه التملّكي**». ونيتشه يقول إن هذا الوحش المتعطّش للتّملك «يريد اختبارا أكثر دقة من أجل أن يَعلم، قبل أي شيء، بأن المرأة لا تُسلّم له نفسها وحسب، بل تتخلّى من أجله أيضا عمّا لها وعمّا ترغب في أن يكون لها: هكذا وحسب يعدّها "**مملوكة (besessen)**"[915]». أنا أنتظر من أحباء نيتشه أن يجدوا مخرجا أخلاقيا لهذا الكلام، أن يُفتّقوا قرائحهم للعثور على تأويل رمزي رحيم ومقبول لمثل هذه الشناعات.

ولا يجب أن تنطلي علينا حيلة وضع الكلمات بين ظفرين، لقد قالها وكرّرها في غير موضوع: المرأة **ملك يمين**، ومن المحتمل أنه استمدها ممّا استطاع قراءته من التراث الإسلامي. فعلا، الرجل له معرفة ببعض النصوص الإسلامية، من قبيل الحديث المأثور عن الرسول الذي يقول: "**إن الجنة تحت ظلال السيوف**"، وقد استنسخه حرفيّا، وطبّقه على نفسه، قائلا: «**إن جنّتي هي تحت ظل سيفي** (Mein Paradies ist „unter dem Schatten meines Schwertes)[916]».

- زواج المُتعة مُحَلّل في الإسلام عن طريق آية صريحة فصيحة تقول: (**فما استمتعتم به منهنّ فاتوهنّ أجورهن فريضة**)، وفي تفسير الطبري نقرأ: "الرجل ينكح المرأة بشرط إلى أجل مسمى، وإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، وهي منْه برية، وعليها أن تستبرئ ما في رحمها، وليس بينهما ميراث، ليس يرث واحد منهما

913- ن. م، ص، 139.

914- ن. م، ن. ص.

915- ن. م، ن. ص.

916- نيتشه، **هكذا هو الإنسان**، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت 2003، ص، 89 90.

صاحبه". ونيتشه يسمح لنفسه بنكاح الفتاة الروسية، لو أندرياس سالومي (Lou Andres-Salomé)، ظرفيا، أو «إلى أجل مُسمّى» بلغة الإسلام. تجدون هذا الكلام حرفيا في رسالة إلى صديقه بول ري (Paul Réé) بتاريخ 21 مارس 1882 يقول له فيها: «بَلِّغْ سلامي إلى هذه الروسيّة، أنا شغوف بهذا الصّنف من الأرواح. لا بل إني سأذهب لصيْدها قريبا أنا أحتاجها على ضوء ما أعتزم القيام به في السنوات العشر المُقبلة. فَصْلٌ مختلف تماما هو الزواج يمكنني أن أقبل، على أقصى تقدير، **زواجا لمدّة عامين**، وحتى في هذه الحالة، فهو مرتبط بما سأقوم به في العشرية المقبلة».

- لم يتحقق له، لا زواج عادي ولا زواج مُتعة، لأن نيتشه مهموم بشيء آخر، مهموم بتربية مقاتلين شرسين، بإخراج أشبال مُتَمَرّنين على القسوة والحرب، وعلى التلذذ بالقتل وسفك الدماء. في **زرادشت** كتب مِصْراعا بشعا عن الحرب، لكن محتواه ليس بجديد، والمواقف معروفة من خلال كتَاباته السابقة. إنّ ما شدّني منها هي المقاطع التي تتوافق مع فقه الجهاد في التراث الاسلامي. قال: «إخواني في الحرب! إنني أحبّكم من الأعماق؛ لقد كنتُ ومازلتُ واحدا منكم[917]». أن يكون واحدا منهم فهذا معلوم من خلال مشاركته في الحرب البروسية الفرنسية، مازال منهم على مستوى روحي تحريضي، لأنه بعد تلك **الغزوة** لم يشارك في أية عملية قتالية. لكنه برع في الكلام والتحريض على القتال والإرهاب والعنف، مثلما يفعل شيوخ الفضائيات. إن فصل "عن الحرب والشعوب المحاربة" من **هكذا تكلم زرادشت** هو دعوة صريحة وواضحة للإرهاب بأتم معنى الكلمة. فالرجل لا يريد جنودا نظاميّين «أرَى جنودا كثيرين ... يَرْتَدون زَيّا موحّدا»، وإنما مقاتلين شرسين «أنا أرغَب في رؤية كثير من المحاربين» على شكل داعش، أناس يحرّكهم الحقد على البشر «إنني أعلم الحقد الذي في قلوبكم».

نيتشه يريد من مقاتليه أن يكونوا عدوانيّين تجاه كل من يُخالفهم الرأي (المسلمون ضد من يخالفهم الدين)، وأن تكونَ قلوبهم مملوءة حقدا على البشر من أوّل نظرة: «أن يكونوا من أولئك الذين تبحث عيونهم دوما عن عدوّ، وليكن لدى الكثير منكم حقد من النظرة الأولى[918]».

917- **هكذا تكلم زرادشت**، «عن الحرب والشعوب المحاربة»، ص، 98.
918- ن. م، ص، 99.

الإرهابي الإسلامي يبحث باستمرار عن أعداء ليُفرغ شحنته العدوانية، وهو يتذرّع بإقامة الدين الحق ومحاربة الكفر، ولكنه في الحقيقة مُسَيَّر عن بُعد من طرف المخابرات الغربية، وقد انكشف حاله الآن أمام الجميع ، والكلّ تَيَقّن أن الموسّاد، والسي آي أي والـ(ام آي 6) هم الذين يمدّونه بالمال والسلاح ويختارون له حتى الأهداف: الجيش النظامي، الأقليات الدينية، والبنى التحتية للدولة (مستشفيات، ثكنات، مراكز شرطة، جامعات، كنائس، أسواق شعبية). نيتشه ينصح الإرهابي المقاتل بأن يبحث له دائما عن عدوّ، من أجل أفكاره: «لتبحثوا عن عدوّكم ولتخوضوا حربكم، والكل **من أجل فكرتكم**».

- إن أبغض شيء عند الإنسان المحارب الارهابي هو السّلم، وأكثر ما يُنفّره ويُقْرفه من الحياة هو ترك ساحة القتال، لأنه تربّى على العنف، واعتاد على رؤية الرؤوس المقطعة، والأشلاء المتناثرة والدماء السائلة للرّكبة، فكيف يقبل بالسلم؟ السلم بالنسبة للمحارب يعني الموت البطيء؛ يعني فقدان معنى الحياة، وقد استمد الاسلاميون هذه الإشارة من القران ووظفوها لصالح عدوانهم الشامل. الآية تقول:: (**فلا تَهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون، والله معكم**)، الطبري يفسرها على النحو التالي: «لا تضعفوا عنهم وتدعوهم إلى الصلح والمسالمة، وأنتم القاهرون لهم والعالون عليهم ... والله معكم بالنصر لكم عليهم». ولكن المسلمين لا يرضون حتى بالدعوة للسلم الواردة في سياق تحريضي، فقالوا إنها منسوخة بآية القتل. يقول الطبري: «قال ابن زيد: هذا منسوخ، نسخه القتال والجهاد. يقول: لا تَضعفْ أنت وتدعوهم أنت إلى السلم وأنت الأعلى، قال: وهذا حين كانت العُهود والهدنة فيما بينه وبين المشركين قبل أن يكون القتال، يقول: لا تهنْ فتضعفْ، فيَرى أنك تدعو إلى السلم وأنت فوقه، وأعز منه (**وأنتم الأعلون**) أنتم أعز منهم، **ثم جاء القتال بعد فنسخ هذا أجمع، فأمره بجهادهم والغلظة عليهم**. وقد قيل: عَنَى بقوله (**وأنتم الأعلون**) وأنتم الغالبون آخر الأمر، وإن غلبوكم في بعض الأوقات، وقهروكم في بعض الحروب».

نيتشه ينصح هو أيضا مُحاربيه القتّالين بأن يفعلوا نفس الشيء: أن لا يَدْعُوا إلى السلم، ولا يتقاعسوا عن الجهاد القتال: «**لن أنصحكم بالسلم** بل بالانتصار ... ليَكن سِلمكم نصرا». أما إذا أجبروا على السلم فيجب أن يكون خديعة، **مجرّد** حالة ظرفية

استثنائية، غرضها تجميع القوى لشن عدوان جديد: «**عليكم أن تحبّوا السلم كوسيلة لحروب جديدة**، والسلم القصير أكثر من الطويل[919]».

وكما رأينا في مقاله الأول عن **الدولة اليونانية**، حيث يرى إن الانسان الحر مهنته القتال لا العمل، فإن في زرادشت، يستعيد نفس الفكرة، بحذافيرها، ولم يغيّر إلاّ طريقة التعبير عنها: «**لا أنصحكم بالعمل**، بل **بالقتال** أنصحكم ... ليكن **عملكم قتالا**». يعني نحن هنا أمام إرهابيين مرتزقة تحت الطلب، سائحون في أرض الله، من أفغانستان، إلى الجزائر، من البوسنة إلى العراق، مُسْتَجِيبين لنداء السي آي إي حينما تأمرهم بالذهاب إلى ليبيا، ومن بعدها تَنقلهم إلى سوريا، ومستعدّون للاستجابة للطلبات المستقبلية التي ستكون الصين وروسيا.

والحال أن القتّال المسلم يبقى في وضعيّة تأهّب دائمة، بيده كلاشينكوف أو قذيفة صواريخ آر بي جي، يترقّب ساكنا لا يفكر في أي شيء، لا ينطق بأي كلمة، حتى تأتيه التعاليم من فوق، كذلك قتّال نيتشه: «**لا يسَع المرء إلاّ أن يصمت ويظلّ ساكنا عندما يكون له قوس وسهم**».

إن مُواصفات الإرهابيين الإسلاميين الذّبّاحِين، أصحاب اللّحية الكثّة المُقمّلة، والزبيبة العفنة، والفروة القذرة، وشرارة الشرّ المُتَطايرة من أعيُنهم، تجدونها في هذا الجرد من الخصال الحميدة التي يُعدّدها نيتشه في زرادشت: أشدّاء، قساة، منعدمو الشفقة، أفظاظ غليظي القلب، قبيحون، مُتلحّفون بالقذارة، مغرورون، خبيثون، فضيلتهم هي الطاعة، وأوامرهم هي الانصياع، لا يملكون أي مبادرة شخصية، لا يريدون أي شيء، وإنما يُنفّذون «كل ما هو محبّذ لديكم لا تجدوه **إلاّ في ما تؤمرون به**... لتعيشوا **حياتكم حياة طاعة وقتال**[920]». فعلا، القتّال المسلم يُحقق أمنية نيتشه على أحسن وجه: فهو يُطيع أوامر السي آي إي والموساد، أوليائه من دون المؤمنين، فيُقاتل بكل ما أوتي من جهد، يسحق الجماجم ويجزّ الرؤوس، ثم يُفجّر نفسه، ويسير هباء.

وهذا هو المصير الذي يأمر به نيتشه مقاتليه: أن يقوموا بأروع عمل وأَجَلّ ابداع فنّي، تعبيرا عن عشقهم للحياة، وهو الانتحار: «ليكن حبّكم للحياة حبّا لأمَلِكُم؛ وليكن

919- زرادشت، ص، 99.

920- ن. م، ص، 101.

أمَلُكم الأكبر **فكرتكم الأسمى عن الحياة!** ولكن فكرتكم الأسمى تأتيكم من **أوامري لكم**، ومفادها: **الانسان ينبغي تجاوزه**». وتجاوز الانسان يعني الاعدام الذاتي، فعلا، ماذا تسوى الحياة؟ ما قيمتها إن لم تكن قتالا؟ «**ما لنا والعيش طويلا!**».

ولإسباغ مسحة فلسفية على هذا الجنون الإرهابي وجَعْله مقبولا نظريا، يقول إن الحفاظ على الذات ليس هو أولويّة الكائن الحي، وعلى الفيزيولوجيين «أن يعيدوا النظر في حسبانهم غريزة الحفاظ على الذات بمثابة الغريزة الأساسية للكائن العضوي[921]». الحيّ، في فيزيولوجيا نيتشه، تُحرّكه إرادة القوة، والرغبة في أن يقتل ويُقتل، ولا يهمه في موته أو موت من حوله.

• نيتشه يصف لنا نموذج الإرهابي الإسلامي التفجيري بالتدقيق، وقد فعل ذلك في الفقرة 18 من **الفجر**، وسماها أخلاق المعاناة الطوعية، وتعني الانتحار الطوعي. إنها فقرة إرهابية مُختلّة فظيعة بأتم معنى الكلمة، يشيد فيها بالانتحاري ويُمجّد عمله الشرير، مستخدما كلمات لا نجدها إلاّ في قاموس الجهاد الإسلامي، أو في أدبيات الإخوان المسلمين المجرمين، أو فتاوى القرضاوي ووجدي غنيم ومحمد حسان. إن هذه الفقرة جديرة بأن تُقرأ برمّتها لكي نعلم كيف يفكر هذا الرجل وما هي همومه النظرية وأغراضه الاجتماعية. يقول: «ما هي أسمى مُتعة يجدها الرجال الذين يخوضون الحرب، في هاته الجماعة الصغيرة التي لا يفتأ الخطر يهددها، والتي تسود فيها أشد الأخلاقيات صرامة؟ أقصد الأقوياء، الانتقاميين، الحقودين، الغادرين، المُرتابين، المستعدّين للأسوأ، الذين صيّرهم الحرمان قساة؟». تصوّروا ما جوابه عن هذا السؤال؟ متعة هؤلاء الوحوش: «هي **القسوة** (der Genuss der **Grausamkeit**)[922]». كما أن هؤلاء المحاربين «في مثل هذه الأوضاع، يعتبرون ابتكارهم لضروب القسوة وتَعطّشهم لها، فضيلة. ولدى مشاهدة الجماعة الأفعال التي يقترفها الرجل القاسي تقوم بإعادة ابتكار نفسها وتتخلّص بالمرّة من الخوف ومن اتخاذ الحيطة باستمرار[923]». وهذه العملية تتكفّل بها فيديوهات القاعدة وداعش والنصرة، التي ما إن يشاهدها الشبان، حتى يُبعدوا عن أنفسهم شبح الخوف، ويلبسوا الحزام الناسف وينطلقوا مُسرعين لتفجير أنفسهم.

921- نيتشه، **ما وراء الخير والشرّ**، § 13، ص، 37.

922- نيتشه، **الفجر**، 18 § .I، ص، 24.

923- ن. م، ن. ص.

ونيتشه، يُصادق ويمدح: «القسوة هي أحد أقدم الأشياء التي تُدخل السرور على الإنسانية». وهكذا فإن نيتشه، بسبب صفحاته التحريضية، جرّ العديد من الشباب إلى الانتحار، هذا ما قاله الطبيب النفسي ألبرت أولينبرغ (A. Eulenberg 1845-1917) في محاضراته بعنوان: انتحار الطالب (Schülerselbstmorde)، قال إن ثمة عددا كبيرا من الطلبة يمكن ارجاع سبب انتحارهم إلى مطالعة نيتشه[924]. وهذا ليس بالأمر الصادم جدا. أن **تسمح لعقل غير ناضج بقراءة نيتشه (والقرآن) يعني أنك تقوده حتما إلى الموت الفكري الذي لا أمل في القيام بعده، وكأنك استأصلت نبتة لرؤية ما إذا كانت جذورها آخذة في النمو**[925].

• حروب الأديان هي أبشع الحروب التي يمكن أن تنشب في أيّ دولة أو مجتمع بشري، وإذا نشبت فلا يوقفها إلاّ سحق طرف لآخر وإبادته بالكامل. ولقد فتح الإسلام هذا الباب على مصراعيه أمام أتباعه عن طريق بعض الأقوال الواردة في القرآن. وأكثرها تحريضا هي هذه: (**قاتلو الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**). إذا صدّق المسلم قرآنه وآمن برسالته فلا مندوحة له من أن يقاتل اليهود والمسيحيين وأن يحرق الكنائس ويحطّم الصلبان وينبش القبور بكل أريحية ودون إحساس بالذنب، بل سيعتبرها أعمالا صالحة تُقرّبه من الله. هذه هي الحرب الشاملة ضد أهل الأديان الكتابيّة، لكن في فترة تالية تجاوز أهل الكتاب ومدّد الحرب إلى البشرية جمعاء وسحبها على كل الأزمان والأماكن: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق **ليُظهره على الدين كلّه** ولو كره المشركون). وكيف يظهره على الأديان كلها إن لم يستعمل السيف؟ إذن نحن هنا أمام حروب دينية طاحنة لا أوّل لها ولا آخر. ونيتشه، تقولون، ما دخله بالحروب الدينية؟ أين تكلّم عنها؟ في **العلم المرح**، وبالتحديد في الفقرة 144 بعنوان «حروب الدّين (**Religionskriege**)». لم يتكلّم عنها بل أثنى عليها. قال: «لقد شكّلتْ حروب الدين حتى الآن أكبر تقدّم للجماهير[926]». وأين تكمن بوادر التقدّم في أكثر الحروب فتكا في العالم؟ تفسير نيتشه كالآتي؛ تابعوا

924- هذه المعلومة استقيتها من جوهانس بروينه (J. Broene) في كتابه "فلسفة نيتشه"، ص، 99.

925- التّشبيه لبروينه (Broene). ص. 99.

926- نيتشه، **العلم المرح**، ترجمة بورقية الناجي، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 1993، § 144، ص، 140.

أفكار هذا الرجل أرجوكم: «لأنها تُبرهن على أنّ الجمهور قد شرَع في تأمّل المفاهيم **بإجلال** (mit Ehrfurcht)». وفقط لأن الجمهور، الذي كان قد أهانه ووصفه بأنه دابّة صمّاء لا تعقل شيئا، أصبح يتفكّر المفاهيم بِرُعب وإجلال، حتى تغدو حروب الأديان مشروعة. فعلا، حروب الأديان، يقول نيتشه، تكمن في التفاصيل: «لا تبرز للوجود إلاّ ابتداء من اللحظة التي يكون فيها هدف المُشادّات الحادة بين الطوائف هو تهذيب الحس الجماعي: وهكذا فإن حتى الدهماء تتشدّد وتستعظم الجزئيات الطفيفة لدرجة احتمال أن يتوقّف "خلاص الروح الأبدي" على أدنى الاختلافات في المفاهيم[927]».

- المسلمون يتداولون عن نبيّهم حديثا رهيبا ومفزعا، يردده الارهابيون قبل أن يذبحوا شخصا، وكثيرا ما يلهون برأس الضحيّة أو يَلتقطون صورة وهم يضحكون، وبأيديهم الرأس مقطعة، تقطر دما. الحديث، وأظنّه موضوعا، يقول على لسان محمد، "**أنا الضحوك القتال**". لكن المسلمين، للأسف، لم يتملصوا منه ولم يُكذّبوه أو يُضعّفوه حتى، بل هو جاثم في كتب التراث إلى اليوم، وقد فسره ابن القيم في زاد المعاد بقوله: «أما الضحوك القتال فاسمان مزدوجان لا يفرد أحدهما عن الآخر، فإنه ضحوك في وجوه المؤمنين غير عابس ولا مقطب... قتال لأعداء الله لا تأخذه فيهم لومة لائم».

كُونوا متيقّنين أن مثل هذه الأشياء موجودة في كتب نيتشه، ولها مكانتها الفنيّة وتبريراتها الأخلاقية، كما فهم هو الفنّ والأخلاق. ومثل كل الفظاعات الأخرى فإنكم لو فتّشتم وصبَرتم على قراءة صفحاته لوجدتموها بعبارات مماثلة لتلك التي وردت في المأثور الإسلامي. وفعلا، في العلم المرح، الفقرة 324، بعنوان في "معترك الحياة"، نعثر على هذا التصوّر الفظيع السّاخر. يقول إن على خلاف أولئك الذين يرون في الحياة فراشا للراحة، أو طريقا مؤدية إلى فراش للراحة، أو تَسْلية أو وقت فراغ، فهو يرى أن الحياة «هي عالم من المخاطر ومن الانتصارات، تَجد فيها المشاعر البطولية أيضا حَلَبَة للرقص وللعبث»، وكل من يحمل هذا المبدأ في قلبه «سيكون بوسعه لا أن يكون باسلا فحسب، بل أن يعيش مرحا أيضا، وأن يضحك بمرح!».

إن الضحك الهستيري هذا، حسب رأيه، لا يمكن أن يصدر إلاّ من شخص خاض غمار الحروب وتذوّق طعم الانتصارات: «من ذا الذي يمكنه أصلا أن يعرف **كيف**

927- ن. م، ن. ص.

يَحيا مَرحا **ويضحك بمرح** إنْ لم يكن **أوّلا وقبل كل شيء** على دراية جيّدة **بالحرب والانتصار؟**». إن هذه الصفة الرهيبة التي يشيد بها نيتشه، "الضحك المرِح، مقترنا بالتّقتيل" تنطبق كليّا، بالنسبة للمسلمين، ومن خلال مدوّنات أحاديثهم نفَسها، على نبيّهم وبطلهم الأكبر.

وفي **غسق الأوثان** يؤكد مرّة أخرى هذه الفكرة، وهذا دليل على أن رغم زخم التناقضات فإنه أبْقى على شيء واحد: العنف. قال إن الوسيلة المثلى لكي يحافظ المرء على مرحه ويَنزَع عن كتفه الجدّية الثقيلة، هي الحرب «الحرب على وجه الخصوص. فالحرب كانت تجسّد على الدوام الفطنة الكبرى لكل العقول».

• الجن والشياطين، هي تلك الكائنات الأسطورية الشريرة التي تتمظهر أحيانا في أشكال مختلفة ويراها المرضى النفسانيون عيانا، ومنهم من يسمعها ويتواصل معها. الأديان إذا لم تدفعك إلى القتل والارهاب ، فهي تقضي على ملكة تفكيرك المنطقي، وتجعلك تعيش في عالم خيالي مرعب عالم مَسكون بالعفاريت والجن والشياطين. نيتشه على نفس الشاكلة، إذا تبنّيتَ أفكاره، كما فعل هتلر وموسليني وأغلب الفاشستيّين، فإنك لا يمكن أن تكون إلاّ قتالا، ولكنه أيضا يُحيطك بكائنات شيطانية شرّيرة ويُعلمك بأن أجمل تجاربه الحياتية كانت برفقة هذه الكائنات، وأفضلها هو زعيمهم الشرير الأكبر ديونيزوس. وهذا نصّه واحكموا أنتم بأنفسكم (لا تَغُرّنّكم العبارات الإنشائية الرِنانة، اقفزوا عليها وتمسّكوا فقط بالجوهري الصريح منها): «عبقريّة القلب التي لذاك المُستتر الكبير، للإله المُجرّب، لمن وُلد ليكون صيّادا للضمائر، ومن يهبط صوتُه إلى قرارة كل نفس . . . . الخ[928]»، عمّن يتكلّم نيتشه؟ هو نفسه يُجيب: عن إله الشرّ والموت والتدمير، يعني عمّا يسمّى في الأديان الروح الغاوي القتال منذ البدء، يعني عن الشيطان عينه، ديونيزوس. يقول إنه التقى به وأنه خالط الجن والأرواح الشيطانية. إنه أمر مفزع، لا أدري كيف لم يتفطّن النيتشويون إلى أن معبود نبيّهم هو الشيطان، لا يراوغ ولا يكنى بل يقصد تجربة شخصية عاشها بملء جوارحه: «هذا الروح الإله المُريب الذي يريد أن يُمدَح على هذا النحو. وككلّ مَن تجوّل منذ نعومة أظافره، فإني التَقَيْتُ في طريقي أيضا بعض الأرواح الغَريبة التي لم تكن مُسالمة (لا تخلو من الخطر)، وبخاصة ذاك الذي تكلّمتُ عنه ولم أنَفكّ ألتقي به، ألا وهو الإله ديونيزوس بعينه، ذلك المُلتبس

928- **ما وراء الخير والشرّ**، § 295، ص، 278.

والمُغْوي الكبير، الذي رفعتُ إليه ذات يوم، بواكيري بكل سرّية وإجلال، بوصفي آخر من رفع إليه قربانا[929]».

• وفي احدى نوبات وَحْيه تماهى مع نبيّ التوراة موسى واستخدم نفس العبارات التي جاءت في سفر العدد من أن يهوه تكلّم مع موسى «**فمًا إلى فم (פה אל־פה)**". قال: تعلّمتُ الكثير من فلسفة هذا الإله، «وعَلمتُ ما عَلمتُ **من فَم إلَى فَم** (von Mund zu Mund)[930]». يريد أن يُمرّر فلسفة هذا الإله الشرير ويتكرّم على القُراء بقليل ممّا اطلع عليه في عالم الأرواح المظلمة. وهذه عادة كل المرضى النفسانيين، الذين يطمحون دائما لإشراك الآخرين في مرضهم: «أنا الحواري المطّلع الأخير على أسرار الإله ديونيزوس: ألا يجدر بي أن أتكرّم أخيرا عليكم، يا أصدقائي، فأذيقكم قليلا من هذه الفلسفة؟[931]». إنها "فلسفة" الأسرار والرعب الحاضرة بكثافة في تخاريف الكتب الدينية؛ إنها نزول بلا رجعة في عالم التخيلات المُفزعة والادراكات المظلمة، في عالم الجن والشياطين، الذي ما إن يدخل فيه شخص، حتى تُشلّ مداركه العقلية. نيتشه يصف العالم الذي دخله بهذه العبارات المفزعة: «إنها أمور سرية غريبة وعجيبة ومُرعبة[932]». وإلهه هو ملك الشر والظلام، خاطبه وقال له: «في بعض الأحيان أحب الإنسان فقط ... وغالبا ما أفكّر كيف أجعله يتقدّم، كيف أجعله أكثر قوّة وخُبثا[933]». ومن الذي يجعل من البشر أكثر خبثا إن لم يكن الروح الشيطاني الشرّير، في عرف أهل الأديان والمهووسين والمرضى النفسانيين؟ فعلا، هذا الإله الشيطاني يؤكّد لنيتشه مرة ثانية أنه يريد أن يجعل الإنسان «أكثر قوة وخبثا»، و«أكثر عمقا وأكثر جمالا أيضا».

• نيتشه قال إن الاعتراض الوحيد ضد فكرة **العود الأبدي** هو وجود والدته وشقيقته[934]، فهو يكنّ لهما مشاعر حقد وكراهية تفوق الخيال؛ يخشى أن تعودا مرة أخرى إلى عالمه الميتافيزيقي وهكذا تُنغّصان عليه حياته المستقبلية. لا ندري أسباب هذه الفُوبيا الأسَرية ولا تهمّنا الحيثيات في حد ذاتها، نحن نتشبّث بالمبدأ. والمبدأ

929- ن. م، ص، 279.
930- ن. م، ن. ص.
931- ن. م، ص، 279.
932- ن. م، ن. ص.
933- ن. م، ص، 280.
934- نيتشه، **هذا هو الإنسان**، منشورات الجمل، بيروت 2003، «لم أنا على هذا القدر من الحكمة»، ص، 21. «إلاّ أنني أقرّ بأن الاعتراض الجوهري على العود الدائم، فكرتي الجَوهرية في الواقع، يتمثل دوما في الأم والأخت».

هو أن محبة القريب والعطف عليه والرفق به، واجب أخلاقي وفضيلة إنسانية لا محيد عنها. لكن مَحبّة القريب في الإسلام ليست مبدئية، وإنما مشروطة، وإذا لم تتوفّر شروطها المعنوية اللازمة، فلا يمكن التقيّد بها، بل ينبغي أن تنقلب مشاعر المحبة إلى كُره. القرآن هو المصدر الأول لهذه الفكرة الرهيبة، والآية تقول: (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر **يُوادّون** مَن حادّ الله ورسوله، **ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم**).

تحريض، علني وصريح، على عدم محبّة الأقارب لسبب أيديولوجي بحت. غنيّ عن القول إن هذه الآية هي التي حطّمت حياة أسَر بأكملها، وتسببت في قتل أبناء لآبائهم وآباء لأبنائهم وأبناء لأمهاتهم، وآخر هذه الحَلقة هو قتل شاب إرهابي لأمّه في سوريا أمام مرأى الجميع. لكن نصوص نيتشه لا تقل عنها فظاعة، ومن يتّبع هداها، مثلما يفعل النيتشويون، وليسوا قلة، خصوصا في عالمنا العربي، فهو هالك لا محالة. نيتشه يستنكر حب الأقارب، ويعتبره ليس نكرانا للذات وإنما كرها للذات: «أراكم تتكالبون على القريب، ولكم كلمات جميلة عن ذلك. لكنني أقول لكم: إن محبّتكم للقريب إنما هي قلّة محبّتكم لأنفسكم[935]». عيب كبير أن يفرّ المرء من نفسه إلى القريب، أو يريد أن يتّخذ من هذه المحبة فضيلة، الأصح بالنسبة لنيتشه، هو كره القريب ونبذه: «أنصحكم بالهروب من القريب».

يجب أن تحبّ كل شيء، بما في ذلك الأشباح، إلاّ القريب: «أسْمَى مِن حبّ الإنسان **حبّ الأشباح**. ذلك الشبح الذي يركض أمامك أجمل منك يا أخي؛ فلِم تَمْنَحه لحمك وعظامك؟ لكنّك تخاف وتفرّ إلى قريبك[936]». لم يترك الله قريبا واحداً، ابتداء من الأب والأم، ومرورا بالأقربين، ثم وصولا إلى العشيرة، دون أن يحرّض على عدم محبته؛ ونيتشه أيضا يسحب الكره على جميع أصناف الأقرباء، ثم تعدّاهم إلى الجيران حتى: «أودّ لو أنكم لا تطيقون كل نوع من الأقرباء ومَن جاورهم»، وفي النهاية: «لا أنصحكم بمحبة القريب يا إخوتي ... هكذا تكلم زرادشت».

- أما مبدأ "الحب في الله والبغض في الله"، فإن نيتشه، يُقنّنه ويجعل منه السبيل الأوحد والأرقى لمحبة الانسان لغيره. وإذا قرأتُم عباراته فلن تجدوا فرقا واحدا بينه

935- **هكذا تكلم زرادشت**، «عن محبة القريب»، ص، 123.

936- ن. م، ص، 124.

وبين تعاليم الوهابيّين. تَعثرون على هذه التخريجة الوهابية في الفقرة 60 من **ما وراء الخير والشر** والتي عنونها: "**حبّ الإنسان من أجل الله** (Den Menschen zu lieben um Gottes Willen)": الحب في الله، يقول نيتشه، «هو أنبلُ وأقصى شعور بَلَغه بنو البشر حتى الآن[937]». أن تحب الإنسان، من أجل ذاته، وللأخوة التي تجمعك به في نفس النوع، دون إقحام كائن وهمي، فهذا ما لا يمكن تصوّره أو قبوله بالنسبة لنبيّ زرادشت، كما بالنسبة للوهابي، عدوّ البشرية، الذي يأتيك بألف حديث ليثبت لك أن أوثق عرى الإيمان، هي الحب في الله والبغض في الله. وكم سيسعد الوهابي حين يقرأ من نبيّ زرادشت هذا أن حب الإنسان، وأيًّا كان هذا الإنسان، ومن أيّ أمة جاء، وأيٍّ كانت عقيدته، هو حماقةُ أَحْمرَة: «حبّ الإنسان من دون أيّ قصد مقدّس في كواليسه، هو حماقة وبهيمية[938]». وهكذا فإن الإنسان الذي يحب في الله، ويعبّر عن هذا الأمر الرقيق «فإنه جدير بأن يبقى بالنسبة إلينا مُقدسا وجديرا بالإجلال إلى أبد الآبدين، بوصفه الإنسان الذي حلّق، حتى الآن، إلى أعلى ما يكون، وظلّ على أجمل ما يكون![939]». وماذا ترك للإسلامي الوهابي من شناعات؟ ماذا خلّف له من كره للبشر، هذا اللافيلسوف الذي يثني على أكثر المبادئ معاداة للبشر؟

- التقيّة هي أن تتظاهر بفعل شيء وأنت تضمر شيئا آخر، أن لا تتمسّك بالكلمة المعطاة وأن تغيّر مواقفك مع تغيّر الظروف، وقد استخدم المسلمون التقية استنادا إلى قول القرآن (إلاّ أن تتّقوا منهم تُقاة)، أي حسب تفسير ابن كثير: **إلاّ من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتّقيهم بظاهره لا بباطنه ونيّته، كما حكاه البخاري عن أبي الدرداء أنه قال: "إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم". أمّا الحسن بن عليّ فقد استخلص عبرة من هذه الآية مفادها أن هذا التصرّف دائم إلى الأبد: "التقيّة جائزة للإنسان إلى يوم القيامة".**

ونيتشه نفسه يُبيح التقيّة، بل يُديم هذا التصرّف المخادع، ويجعل منه أمرا حيويا ضروريا؛ يصفه بأنه «استعداد الرّوح لخداع أرواح أخرى وللتظاهر أمامها[940]»، ثم يضيف مُبرزا فضائل هذا التصرف المخادع الماكر، وروعة الانسان المتغيّر كالحرباء:

937- **ما وراء الخير والشرّ**، § 60، ص، 93.

938- ن. م، ص، 93.

939- ن. م، ص، 93 94.

940- ن. م، § 230، ص، 198.

«ذاك الدّفع والاندفاع المتّصل الخاص بقوّة خالقة وماهرة في التشكيل والتّبدّل: فالروح يلتذّ هنا بتنويع أقنعته ومُكره، كما يلتذّ هنا أيضا بإحساس الأمان ذلك أن فنونه "ابروتيوسية" [(Proteus) شَيخ البَحر، له قدرة على التحوّل إلى حيوانات وجوامد]، تحصّنه وتُخفيه على أحسن وجه![941]».

وفي موضع آخر يسمّي التقيّة، سرعة التملّص من الآراء والقناعات السابقة؛ عدم التقيّد بأي شيء، وهي تدخل في إطار تجربة شخصية نقوم بها في قرارة أنفسنا ونخفيها عن الآخرين، دون وخزة ضمير، فنحن الفاعلون والحاكمون: «اختبار نقوم به، ونحن شهوده وقضاته الوحيدون». ثم عدّد الأشياء والأشخاص الذين يجب أن نتملّص منهم من حين لآخر: «لا نركن إلى شخص بعينه (لا نبقى متعلّقين بشخص "Nicht einer Person hängen bleiben")، وإن كان أحب الأشخاص إلينا ... ألاّ نركن إلى وطن (ألاّ نبقى مُتعلّقين بوطن "Nicht einem Vaterlande hängen bleiben") ... ألاّ نركن إلى الشفقة ... ألاّ نركن إلى علم ... ألاّ نركن إلى انعتاقنا الخاص ... ألاّ نركن إلى الفضائل الخاصة بنا[942]». يعني أن نعيش كالبهائم وكفى.

- نيتشه يمكن أن يبرر للمسلمين فكرة الناسخ والمنسوخ، بل أن يسوّغ لهم مفهوم "الإنساء"، الوارد في نص القرآن: (ما ننسخ من آية أو **نُنسها** نأت بخير منها أو مثلها). وهكذا فإن النسيان، حسب منطق القرآن، أصبح في هذه الحالة المثالية، فضيلة تقتضيها الإرادة المتحوّلة المجنونة لإله مجنون، لأنه هو نفسه نسّاء. وكذلك أيضا بالنسبة لنيتشه، النسيان «هو **قوة حيوية**، وملكة للكبح بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة[943]»، وليس بقوة سلبية كما تعتقد العقول السطحية. نيتشه يشبّه النسيان بعملية هضم، يسمّيه تمثُّلا نفسانيا، مثله في ذلك مثل العمليات العديدة التي تحدث في جسمنا عندما نتناول الطعام، نهضمه ونَتَمثّله. أن تنسى يعني أن تحيا حياة حيوانية سعيدة، دون وعي أو اكتراث بما يجري حولك، وإراحة نفسك من وخزة الضمير «أكرّر القول أن دور مَلَكة النسيان الحيوية هو إقفال أبواب الوعي ونوافذه من حين لآخر، وجعل المرء لا يشعر بالصخب الذي تُحدثه الأعضاء داخله ... وجَعْل الصّمت يسود وَعْينا،

941- ن. م، ص، 198 199.

942- نيتشه، **ما وراء الخير والشر**، § 41، ص، 71.

943- **جينيالوجيا الأخلاق**، 1 § ،II، ص، 49.

وإفراغه من كل ما مضى حتى يصبح فيه من جديد مكان للأشياء الجديدة، وخاصة للوظائف والموظّفين الأكثر نبلا، لكي نحكم ونتنبّأ ونستشعر. إنها مَلَكة حارسة، رقيبة ومُكَلّفة بالحفاظ على الأمن النفسي وعلى الهدوء واللباقة: نستخلص من ذلك أنه لا يمكن للسعادة أو الهدوء أو الأمل أو الأنفة أو التأثير أن توجد بدون مَلَكة النسيان[944]».

النسيان، اذن بالنسبة لنيتشه، هو مؤشر على قوة كبيرة وتمظهر لصحة جيدة، وهذه القوة والصحة الجيدة، تنطبق أيضا على إله الإسلام، الذي يقول عن نفسه إنه سينسى الكافرين ويلقيهم في النار.

وليس النسيان فحسب، بل النسخ والشطب والمحو، وتحوير الآراء من النقيض إلى النقيض، دون الاكتراث بالانسجام المنطقي، كل هذا له ما يماثله عند نيتشه. فهو يردّ على أولئك الذين يتّهمونه بالتزوير والكذب، ونسخ ما يقوله الآن، بما كان قد قاله منذ أسبوع، مُتذرّعا بغريزة البقاء، يعني بعبارة فقهية: "الضرورات تبيح المحظورات"، أو الله يفعل ما يشاء. أخذ يُمجّد النّسخ (الكذب) وحوّله من رذيلة إلى فضيلة؛ يَتنرْفز ويحتجّ، مؤنّبا مُعترضيه: «**ماذا تعرفون أنتم؛ ما عساكم أن تعرفوا عن قدر الحيلة الذي تضعه غريزة البقاء، عن قدر الحكمة والتيقظ الكبير الذي تحويه وأي قدر من التزييف لا زال يلزمني... لا زلت حيا، والحياة تريد الوهم، وبالوهم تحيا** (العلم المرح، 1)».

كان بودّي ان أواصل في عرض التوازيات بين أفكار نيتشه والتراث الاسلامي ولكني فضّلتُ، لكي لا أرهق القارئ، التوقّف هنا والاكتفاء بهذا القدر مُعوّلا على نباهة القارئ وواثقا من قدرته على أن يعثر هو نفسه على نقاط تقاطع أخرى بين المنظومتين.

نكتة اخيرة أريد الختم بها، وهي بمثابة تقييم نهائي، بالنسبة لكاتب هذه السطور دون ان يُلزم به احدا. أقول: الفلسفة النيتشوية برمّتها، بعد أن تحوّلت الى دين قويم عند أتباعه، دين راسخ في الزمن وضارب اطنابه في أماكن شاسعة من الارض، يمكن ان نُطبّق عليه دون اجحاف هذا التّوصيف الرائع لابن المقفّع: " لا نَعلَم دينا، منذ كانت الدنيا إلى هذا الزمان، أخبثُ زُبدة كُلّمَا مُخّض وأسْفَه في ذلك التّمْخيض أهلا وأبْتَر أصلا وأمَرّ ثمرا وأسوأ أثَرا على أمّته والأمم التي ظَهَر عليها، وأوْحَش سيرة وأغفَل عقلا وأعْبَد للدنيا وأتْبَع للشهوات من دينكم".

944- ن. م، ن. ص.

المراجع

مؤلفات نيتشه المترجمة للعربية

- شوبنهاور مربيّا، ترجمة قحطان جاسم، منشورات الاختلاف منشورات ضفاف، الرباط الجزائر العاصمة، 2016.
- العلم المرح، ترجمة بورقية الناجي، افريقيا الشرق، الدار البيضاء 1993.
- إنساني مفرط في إنسانيته، ج. 1، ترجمة الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2002.
- الفجر، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء المغرب 2013
- هكذا تكلّم زرادشت، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت 2007.
- ما وراء الخير والشر، ترجمة ج. فالور حجار، دار الفارابي، بيروت 2003.
- جينيالوجيا الأخلاق، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2006.
- في جينيالوجيا الأخلاق، ترجمة فتحي المسكيني، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2007.
- غسق الأوثان، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت 2010.
- عدو المسيح، ترجمة جورج ميخائيل ديب، دار الحوار للنشر والتوزيع، سورية اللاذقية 2004.
- هذا هو الإنسان، ترجمة علي مصباح، منشورات الجمل، بيروت 2003.
- إرادة القوة، ترجمة محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء 2011.

أعمال نيتشه باللغة الأصلية

Nietzsche, F., *Die Geburt der Tragödie. Oder Griechenthum und Pessimismus*. Kritische Gesamtausgabe, herausgegeben von Giorgio Colli und Mazzino Montinari, Deutscher Taschenbuch Verlag, München 1999. Bd., 1.

– -------------------., *Über die Zukunft unserer Bildungsanstalten. Vortrag I*, in Werke., Bd. 1.

– --------------------., *Menschliches Allzumenschliches*, Werke., Bd. 2.

– --------------------., *Morgenröte*, Werke., Bd., 3.

– --------------------., *Die fröhliche Wissenschaft*., Bd., 3.

– --------------------., *Also sprach Zarathustra*., Bd., 4.

– --------------------., *Jenseits von Gut und Böse*, Bd., 5.

– --------------------., *Der Antichrist*, Werke., Bd. 6.

– ---------------------., *Götzen-Dämmerung*, Bd., 6.

– --------------------., *Nachlaß* 1869-1874, Bd., 7.

– --------------------., *Nachlaß* 1880-1882, Bd., 9.

– --------------------., *Nachlaß* 1887-1889, Bd., 13.

مَراجع باللغة العربية أو مُترجمة للعربية

- ابن القيّم، **تلبيس إبليس**، المكتبة التوفيقية، القاهرة، [د. ت].
- ابن رشد، **تهافت التهافت**، تحقيق موريس بويج، دار المشرق، بيروت 1986.
- ابن سينا، **الشفاء**، "**الإلهيات**"، تحقيق الأب قنواتي سعيد زايد، الجمهورية العربية المتحدة، [د. ت].
- أبو حامد الغزالي، **تهافت الفلاسفة**، المكتبة العصرية، صيدا بيروت 2001.
- أبو نصر الفارابي، **آراء أهل المدينة الفاضلة**، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1995.
- إدوارد سعيد، **الاستشراق**، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة السادسة، بيروت 2003.
- اغناتس غولدتسيهر، **العقيدة والشريعة في الإسلام**، منشورات الجمل، بيروت 2009.
- القاسم بن ابراهيم، **كتاب الردّ على الزنديق اللعين ابن المقفّع**، تح ميشائيل أنجلو جويدي، مطبعة أكاديمية لينتشاي الملكية، روما 1927.
- إميل برهييه، **الفلسفة اليونانية**، ترجمة جورج طرابيشي، الطبعة الثانية، بيروت 1987.
- بول ريكور، **الذات عينها**، ترجمة جورج زيناتي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت 2005.
- جان غرانييه، **نيتشه**، ترجمة علي بو ملحم، **مجد**، بيروت 2008.
- جيل دولوز، **نيتشه والفلسفة**، ترجمة أسامة الحاج، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1993.
- سليمان الخطابي، **بيان اعجاز القرآن**، ضمن: **ثلاث رسائل في اعجاز القرآن**، حققها وعلّق عليها، خلف الله وزغلول سالم، دار المعارف، القاهرة 1976.
- الطاهر بن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مج. 26، الدار التونسية للنشر، تونس 1984.
- عبد السلام بن عبد العالي، **أسس الفكر الفلسفي المعاصر**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 2000[(2)].
- عبد العزيز بن باز، **الأدلة النقلية والحسية على إمكان الصعود إلى الكواكب وعلى جريان الشمس والقمر وسكون الأرض**، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، [(2)]1982.
- فتحي المسكيني، **الهوية والحرية**، نحو أنوار جديدة، جداول للنشر، بيروت 2011.
- فرانكفورت، ولسن، جاكسون، **ما قبل الفلسفة**، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، منشورات دار مكتبة الحياة فرع بغداد، [د. ت].
- فخر الدين الرازي، **كتاب الأربعين في أصول الدين**، دار الجيل، بيروت 2004.
- محمد الشيخ، **نقد الحداثة في فكر نيتشه**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت 2008.
- محمد أندلسي، **نيتشه وسياسة الفلسفة**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 2006.
- محمد المزوغي، **نيتشه والفلسفة**، منشورات كارم الشريف، تونس 2010.
- ـــــــــــ، **عمانويل كانط. الدين في حدود العقل أو التنوير الناقص**، دار الساقي، بيروت 2007.
- ميشيل فوكو، **جنيالوجيا المعرفة**، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب 2008.
- يسري إبراهيم، **فلسفة الأخلاق. فريدريك نيتشه**، دار التنوير، بيروت 2005.

مراجع باللغات الأجنبية

– **Aristotele,** ***Metafisica***, a cura di G. Reale, Vita e Pensiero, Milano 1993.
– ------------., *Politica*, a cura di R. Laurenti, Laterza, Roma-Bari 2000.
– ------------., *Confutazioni sofistiche*, BUR, Milano 1995.

– **Baeumler, A**., *Nietzsche der Philosoph und Politiker*, dritte Auflage, Philip Reclam, Leipzig 1931.
– **Bayle, P**., *Continuation des pensées divers*, in ID, *Œuvres divers III*, La Haye, Compagnie des libraires, 1737.
– ------------., *Dictionnaire historique et critique*, Rotterdam, 1740.
– **Besse, C (abbé)**., « Nietzsche chrétien malgré lui », in *Revue pratique d'apologétique*, n. 16, 15 Mai 1909.
– **Broene, J**., *The Philosophy of Friedrich Nietzsche*, Reprinted from, The American Journal of Religious Psychology and Education, Vol. IV, pp. 69-170.
– **Carus, P**., *Nietzsche and other exponents of Individualism*, Chicago-London 1914.
– **Chrysostome, J**., *Sur la providence de Dieu*, Paris, Éditions du Cerf, 1961.
– **Ciliberto, M**., *Introduzione* a G. Bruno, *Spaccio de la bestia trionfante*, Rizzoli, Milano 1997.
– **Croce, B**., *Saggi sullo Hegel seguito da altri scritti di storia della filosofia*, Bibliopolis, Napoli 2006.
– **D'Holbach, P.H**., *Le christianisme dévoilé*, coda poche, 2006.
– --------------------., *Système de la nature ou des lois du monde physique et du monde moral,* trad. it. ID., *Sistema della natura*, a cura di Antimo Negri, UTET, Torino 1978.
– --------------------., *Le bon sens, ou idées naturelles opposées aux idées surnaturelles*, Londres, 1774.
– **De Pallares, V**., *Le crépuscule d'une idole. Nietzsche, nietzschéisme, nietzschéens*, Paris, Grasset, 1910.
– **Deussen, P**., *Erinnerung an Friedrich Nietzsche*, Brockhaus, Leipzig 1901.
– **Düringer, A**., *Nietzsches Philosophie und das heutige Christentum*, Verlag von Veit, Leipzig 1907.
– **Epicuro**, *Scritti morali*, BUR, Milano 2006.
– ---------, *Opere*, Einaudi, Torino 1960.
– **Ferraris, M**., *L'imbecillità è una cosa seria*, Il Mulino, Bologna 2016.
– **Fouillée, A**., *Nietzsche et l'immoralisme*, Paris, Félix Alcan, 1902.
– ---------------., *Le moralisme de Kant et l'amoralisme contemporain*, Paris, Félix Alcan, 1905.
– -------------., « Notes sur Nietzsche et Lange. Le retour éternel », in *Revue philosophique de la France et de l'étranger*. An. 34. Paris 1909. T. 67.
– **Hayman, R**., *Nietzsche*, Phoenix, London 1997, trad. it., P. Celotti, Sansoni, Milano 1998.
– **Heidegger, M**., *Nietzsche I,* Vittorio Klostermann, Frankfurt am Main 1996.
– ---------------------., *Nietzsche: Der Wille zur Macht als Kunst*, Vittorio Klostermann, Frankfurt am Main 1985.
– --------------------., *Nietzsches Wort „Gott ist tot", in Holzwege,* Vittorio Klostermann, Frankfurt am Main 1994.
– **Jaquelot, I**., préface de la *Dissertation sur l'existence de Dieu*, La Haye 1697.
– **Jaspers, K.**, *Nietzsche. Einführung in das Verständnis seines Philosophierens*, Walter de Gruyter, Berlin 3 Auflage, 1950.
– **Kant, I**., *Die Religion innerhalb der bloßen Vernunft*, in *Werke in zwölf Bänden*, herausgegeben von Wilhelm Weischedel, Erste Auflage. Suhrkamp, Frankfurt am Main 1977. Band VIII.
– **Kesten, H**., *Copernico e il suo mondo*, Mondadori Editore, Milano 1960.
– **Köhler, J**., *Friedrich Nietzsche e Cosima Wagner*, Nuova Pratiche Editrice, Milano 1997.

– **Lamy, G**., *Discours anatomiques*, Rouen, chez Jean Lucas, 1675.
– **Losurdo, D**., *Nietzsche, il ribelle aristocratico*, Bollati Boringhieri, Torino 2002.
– **Mann, Th**., *Nietzsches Philosophie im Lichte unserer Erfahrung* (1947), in Id., *Das essayistische Werk*, Fischer, Frankfurt a. M. 1968, vol. II.
– **Marx, K**., *Sulla religione*, La Nuova Italia, Milano 1980.
– **Montinari, M**., a cura di, *Friedrich Nietzsche –Richard Wagner. Carteggio*, SE, Milano 2003.
– **Mussolini, B**., “Karl Marx (nel 25 anniversario della morte)”, in *La Lotta di Classe*, n. 10, 12 marzo 1908, in *Scritti politici di Mussolini*, a cura di Enzo Santarelli, Feltrinelli, Milano 1979.
– --------------------., “Socialismo e socialisti”, in *La Lima*, n. 21, 30 maggio 1908, XVI, in *Scritti politici di Mussolini*, a cura di Enzo Santarelli, Feltrinelli, Milano 1979.
– ------------------., “La filosofia della forza (postille alla conferenza dell’on. Treves)”, in *Il Pensiero Romagnolo*, nn. 48, 49, 50; 29 novembre, 6 e 13 dicembre 1908, XV, in *Scritti politici di Mussolini*, a cura di Enzo Santarelli, Feltrinelli, Milano 1979.
– ---------------., “L’imperialismo fascista”, discorso pronunciato a Pola il 20 settembre 1920.
– ------------------., “Relativismo e fascismo”, in *Il Popolo d’Italia*, n. 279, 22 novembre 1921, VIII, in *Scritti politici di Benito Mussolini*, a cura di Enzo Santarelli, Feltrinelli, Milano 1979.
– ---------------------., *Il discorso di Napoli*, pronunciato il 20 ottobre 1922. Da “Il Popolo d’Italia”, n. 255, 25 ottobre 1922, IX., in *Scritti politici di Benito Mussolini* a cura di Enzo Santarelli, Feltrinelli, Milano 1979.
– **Peronne, J.-M**., *Explication suivie des quatre évangiles. La chaine d’or*, Paris, Librairie de Louis Vives, 1869, t. VI.
– **Platone**, *Timeo*, a cura di G. Reale, Rusconi, Milano 1997.
– **Proudhon, P.-J**., *Système des contradictions économiques, ou philosophie de la misère*, t. I, Paris, Guillaumin, 1846.
– **Ricoeur, P**., *Soi-même comme un autre*, Paris, Edition du Seuil, 1990.
– **Said, E**., *Orientalism*, Vintage Book, New York 1979.
– **Seddik, Y**., *Nous n’avons jamais lu le Coran*, Med Ali Editions, Sfax, 2015.
– **Seneca**, *I benefici*, in Id, *Tutte le opere*, Bompiani, Milano 2000
– **Stewart, H.L**., *Nietzsche and the ideals of modern Germany*, Edward Arnold, London 1915.
– **Tertullien**, *Contre Marcion*, in *Œuvres de Tertullien*, traduite en français par Eugène-Antoine de Genoude, Louis Vivès, Paris 1852.
– **Türck, H**., *Der geniale Mensch*, 9. Auf. Berlin 1918.
– **Vattimo, G**., *Il soggetto e la maschera, Nietzsche e il problema della liberazione*, Bompiani, Milano 1996(2).
– ------------------., *Introduzione a Nietzsche*, Laterza, Roma-Bari 2007(16).
– ------------------., *Oltre l’interpretazione. Il significato dell’ermeneutica per la filosofia*, Editori Laterza, Roma-Bari 1994 (2004).
– **Verrecchia, A**., *La catastrofe di Nietzsche a Torino*, Bompiani, Milano 2003,
– Voltaire, *Premières remarques sur les Pensées de Pascal*, in *Œuvres complètes de Voltaire* T. XXXIII, Paris Librairie Hachette et Cie, 1890.
– **Wilamowitz-Möllendorff**, U. von., *Zukunftsphilologie! Eine Erwiderung auf Friedrich Nietzsche, ord. Professors der klassischen Philologie zu Basel, Geburt der Tragödie*, Gebrüder Borntraeger, Berlin 1872.
– ---------------------------------------., *Zukunftsphilologie! Zweite Stück. Eine Erwiderung auf die Rettungsversuche für Fr. Nietzsche ‚Geburt der Tragödie’*, Gebrüder Borntraeger, Berlin 1873.

تم الطبع بمطابع أفريقيا الشرق 2018
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور، الدار البيضاء
الهاتف :04 95 25 22 05 / 13 98 25 22 05
05 22 30 19 71 / 05 22 30 37 17
الفاكس : 20 29 25 22 05 / 80 00 44 22 05
البريد الإلكتروني E.mail : africorient@yahoo.fr
www.afrique-orient.com